



مؤلفات مارون عبود

المجموعة الكاملة

التراجم

المجلد التاسع

دار مارون عبود

مؤلفات مارون عيسى بنود المجموعة الكاملة

التراجم

يحتوي هذا المجلد على :

أحمد فارس الشدياق (صقر لبنان)
أبو العلاء المعري (زوبعة الدهور)
بديع الزمان الهمداني
أمين الريحاني

المجلد التاسع

بيروت
ص.ب.
٥٤٣

دار مارون عيسى بنود

مؤلفات مارون عبود

المجموعة الكاملة

- الأول** : في الدراسة
أدب العرب - الرؤوس
- الثاني** : رواد النهضة الحديثة - الشعر العامي - جدد وقدماء
- الثالث** : النقد الاجتماعي
سبل ومناهج - حبر على ورق - آخر حجر
- الرابع** : النقد الأدبي
على المحك - مجددون ومجترون - في المختبر
- الخامس** : دمشق وأرجوان - نقداً عابراً - على الطائر
- السادس** : في القصة
فارس آغا - الأمير الأحمر
- السابع** : في الأقصوصة
أحاديث القرية - وجوه وحكايات - أقزام جبابرة
- الثامن** : في النقد السيامي
من الجراب - قبل انفجار البركان - أشباح ورموز -
مناوشات
- التاسع** : التراجم
أحمد فارس الشدياق (صقر لبنان)
أبو العلاء المعري (زوبعة الدهور)
بديع الزمان الهمداني
أمين الريحاني

تحت الطبع

العاشر : من كل واد عصا كتاب الشعب – أحاديث صحفية



المؤلف
(1886 - 1962)

أحمد فارس السدياق
صقر لبنان

بِحَثِّ فِي النَّهْضَةِ الْأَدَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ
وَرَجُلَيْهَا الْأُولَى أَحْمَدَ فَارِسَ السَّدِيَّاقِ

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية ١٩٧٥

أخي القاريء ،

ربما ذكرك قولنا « صقر لبنان » بقولهم صقر قريش ، وهو كذلك ، فكما
في السياسة كذلك في الأدب .

فرّ عبد الرحمن من الشام ، فشيّد مملكة طريفة نسميها اليوم « الفردوس
المفقود » . وفرّ أحمد فارس الشدياق من لبنان ، فأحيا دولة أدبية ما زال
رأسها سالماً .

ليس للبنان فرد صقر قد اهتدى بهذا العَلم صقور ونسور . وكان
ما كان ...

مارون عبود

عين كفّاح ، صيف ١٩٤٩

صور عصر الشدياق

الصورة المدنية

كان لبنان ، منذ كان :

كرة وضعت لصوالجة فتلقفها رجلٌ رجلٌ

فما لبنان غير صخرة حطتها الطبيعة على طريق الشعوب المتوثبة الى
الفتح ، المسافرة على الثروة التي هي قوام الملك وملاك الدولة . فاذا مرت
في معبر نهر الكلب فأميلْ نظرك قليلاً الى تلك الصخور القائمة كالجدران
المنصوبة : انها صحف سجلت فيها كل أمة تاريخ مرورها من هناك .
ولكل أجل كتاب ... ويبقى وجه ربك ذي الجلال ...

كان على كل عابر ، ملكاً كان او قائداً ، أن يتسلق تلك الصخرة ،
وأن يحتمل لمروره بكل وسيلة ، إما واعدأ وإما متوعدأ . الغاية هي
المرور ، فالوصول الى عدوة عبر لبنان .

ثم رجعت تلك الدول أدراجها ، وبقيت الصخرة مشمخرة حيث
هي ، صابرة على قرع معاول الأقدار التي لم تأخذ من صلابة رجالها

المتمردين إلا نزرأ يسيراً . وهذا النذر اليسير كانت تستعيده الصخرية ،
بعد حين، من عقيدتها الصلبة ، وإيمانها الحي بأن الظلم عابر ميبيل، والحق
باقٍ حيث هو لا يتزحزح .

كانت الحرية ، في كل طور من أطوار الزمن ، غرض الجبليّ ،
ومثله الأعلى ، يعيش بين شماريخ قمه عيشة حجلانه ، تتكاثر عليها
الصيادون ، وتثيرها كلابهم من مكائنها ، وتصلى نار بنادقهم الحامية ،
وتنقض عليها بيزانهم وصقورهم ، فيقتل منها ما يقتل ، ويعطب ما
يعطب، ولكنها تعود إلى وكناتها ومدارجها مطمئنة، ثم لا تبرح منطقتها.
وكان الحكم إقطاعياً يقطع الكلا ، ويقطع الأكباد . أما الرعية
فصبرت على هذا وذاك ، تعض من جرحها ، وتفعل متى أجيبت بقول
الشنفري :

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت

خيوطة ماري تغار وتقتل

صبر الشعب على آلامه المريرة ، وجراحات نفسه الدامية . كانت
الرعية في هذه النكبات جميعها تتمرمر وتتوجع ، ولكنها لا تقنط ولا
تستسلم . لم يخجل الوطن ، في أشد ظلمات تاريخه كثافة ، من متمردين
ينغصون على المستبدين أحلامهم بالسيادة الغاشمة، ويقضون عليهم مضاجع
الوثيرة . ثم تختلف ذئاب الحكم وضباعه فيستريح الشعب هنيهة ويستعيد
قواه ، مؤمناً بأن كل حال يزول ، وبأن في السماء رباً طويل الروح
شديد العقاب ... ثم لا ينسى : إن الصبر مفتاح الفرج .

وقد طفح كيل هذا التعذيب في هذا الطور الذي نحاول تصويره الآن
للقارىء العزيز . لا أعني غير عصر الشهابيين الجباريين الأمير يوسف
وابن أخيه الأمير بشير الكبير ، لأن « صقر لبنان » وجد في هذا العصر .
درج هذان الأميران على خطة الطغاة جبايرة الدهور، فكانا يطيران
الرؤوس عن هاماتها كأنها فقاقيع صابون يتلهى بها الصبيان ويقهقهون
عند انفلاقها .

ولو لم يكن الحكم مطروحاً بالمزاد عند « جزار » عكا وباشا صيدا ،
ولو لا طمع النفوس الذي هباً لهذه السلعة شارين يؤلبون الناس حولهم
لتأييدهم ، لما كان الشعب يتنفس الصعداء بين آونة وأخرى ، ولكانت
استشرى الظلم والبغي ، وخال الناس ان رب السماء طرش ولم يعد يسمع
صراخ الذين خلقهم على صورته ومثاله ...

وقد وصف تلك المآسي الفاجعة أحد أحفاد أبطال الحرية المناضلين ،
ابن الجبل العريق ، جبران خليل جبران، فانطلق أحد أبطال « أرواحه
التمردة » ، خليل الكافر ، بصلاة حارة .

إن هذا البطل الجبراني هو صورة اللبناني المتمرد، التائق إلى الحرية،
وقد ناشدها في كل دور من أدوار تاريخه . فإذا تأمل القارىء هذه الصلاة
الجماعة رأى إحدى صور عهد الاقطاع الرهيب بارزة أمامه .

قال بطل جبران .

من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها « الحرية » فاسمعينا .
من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظريتنا .

على هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمنا .

أمام عرشك الرهيب تنف الآن نائرين على أجسادنا أثواب آباءنا المطلخة
بدمائهم ، عافرين شعورنا في تراب القبور المزوج ببقاياهم ، حاملين السيوف التي
أغمدت بأكيادهم ، ساحبين القيود التي أبادت أقدامهم ، صارخين الصراخ الذي
جرح حناجرهم ، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم ، مصلين الصلاة التي
انثقت من أوجاع قلوبهم .

فاصفي أيتها الحرية واسمعي .

في زوايا الأكوخ القائمة في ظل ظلال الفقر والهوان ، تقرع أمامك الصدور ،
وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب .
وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحن إليك الأرواح .
فانظري أيتها الحرية وارحمنا .

في المدارس والمكاتب تناديك الشبيبة اليائسة ، وفي الكنائس والجوامع
يستميلك « الكتاب » المتروك ، وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك « الشريعة »
المهله .

فاشفي أيتها الحرية وخلصينا .

في حقولنا المجدية يحفر الفلاح الأرض بأظفاره ، ويزرعها حبات قلبه ،
ويسقيها دموعه ، ولا يستغل غير الأشواك ، ولا من يعله .
وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عارياً حافياً جائعاً ولا من يتأف عليه .
فتكلمي أيتها الحرية وعلينا .

نعاجنا ترتعي الأشواك والحسك بدلاً من الزهور والأعشاب ، وعجولنا تقضم
أصول الأشجار بدلاً من الدرة ، وخبولنا تلتهم الهشم بدلاً من الشعير .
فهلمي أيتها الحرية وانقذينا .

منذ البدء وظلام الليل يخيم على أرواحنا فمتى يجيء الفجر ؟

من الحبوس الى الحبوس تنتقل أجدادنا ، والأجيال تمر بنا ساخرة ، فالى متى
نحتمل سخر الأجيال ؟

ومن القيود الى القيود تسير ركابنا فلا القيود تفتنى ، ولا نحن ننقرض فإلى
متى نجيا ؟

ثم يأتي بطل جبران على ذكر جميع مراحل العبودية التي شهد لبنان
ويلاتها فيقول :

من عبودية المصريين ، الى سبي بابل ، الى قساوة الفرس ، الى خدمة
الاغريقين ، الى استبداد الرومان ، الى مظالم المغول ، الى مطامع الافرنج ، فإلى
أين نحن سائرون ، ومتى نبلغ جبهة العقبة ؟

من مقابض فرعون ، الى مخالب نبوختنصر ، الى أظافر الاسكندر ، الى
الى أسياف هيرودوس ، الى برائن نيرون ، الى أنياب الشيطان ، فإلى يد من نحن
ذاهون الآن ؟

على ظهورنا نقلوا الطين والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حمام ،
فحق متى نبني القصور والصروح ولا نسكن غير الأكواخ والكهوف ؟

والى متى نغلا الأهرام والخزائن ولا نأكل غير الثوم والكراث ، ونحوك الحرير
والصوف ولا نلبس غير المسوح والاطهار ؟

نجبشهم واحتياهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة ، وأبعدوا الطائفة عن
الطائفة ، وبنضوا القبيلة بالقبيلة ، فحتى متى نتبدد كالرمال أمام هذه الزوبعة
القاسية ، وتتصارع كالأشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة ؟

لحفظ عروشهم وطمانينة قلوبهم قد ملتجأوا الدرزي لمقاتلة العربي ، وحمسوا
الشيعة لمصارعة السني ، ونشطوا الكردي لذبح البدوي ، وشجعوا الأحدي
لمنازعة المسيحي ، فحتى متى يصرع الأخ أخاه على صدر الام ، والى متى يتوعد

الجار جاره بجانب قبر الحبيبة ، وإلى مَ يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله؟
اصفي أيتها الحرية واسمعينا ، التفقي يا أم ساكني الأرض وانظرينا ، فنحن
لسنا أبناء ضرتك .

تكلمي بلسان فرد واحد منا ، فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس .
أيقظي بحفيف أجنحتك روح رجل من رجالنا ، فمن سحابة واحدة ينشق
البرق ، وينير بلحظة خلايا الأودية وقمم الجبال .

بددي بعزمك هذه القيوم السوداء ، وانزلي كالصاعقة ، واهدمي كلنجنيق
قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم ، المصفحة بذهب الجزية والرشوة ،
المغمورة بالدماء والدموع .

اسمعينا أيتها الحرية ،

ارحمينا يا ابنة أثنا ،

انقذينا يا أخت رومة ،

خلصينا يا رفيقة موسى ،

اسعفيننا يا حبيبة محمد ،

علمينا يا عروسة يسوع ،

قوتي قلوبنا لتعيا ، أو شددي مواعد أعدائنا علينا فننفي وننقرض ونرتاح .

لقد استعنا بنا بفتنا جبران على وصف عصر الاقطاع الرهيب .
وستكون هذه خطتنا في كتبنا التي نخص بها الرؤوس الأربعة : الشدياق ،
وجبران ، وفرح انطون ، والريحاني . أما الرؤوس الثلاثة ، تمة « سبعة
رؤوس » التي وعدنا بها القاريء في كتابنا « الرؤوس » ، فقد رأينا ان
ندعها الآن . فاذا اتسعت رقعة الأجل تكلمنا عن اولئك الثلاثة العظام :
ابن المقفع ، والجاحظ ، والبديع ، وإلا فحسبهم ما كتب فيهم .

لقد أشبع غيرنا هؤلاء الرؤوس الثلاثة تحليلاً وتشريحاً ، ولعلمهم لا يخسرون شيئاً اذا لم يسعفنا الأجل في تحقيق ما ننوي . أما هؤلاء الأربعة ، وخصوصاً الشدياق ، وفرح انطون ، فمالهما احد غيري ، وان كنت لا أحد ...

أجاد جبران تصوير عصر « الشيخ عباس » القائم بلسان بطله خليل الكافر ، ولكن القارىء الطمّاع يتطلب ، ولا شك ، تحديداً أدق ، وكلاماً أوضح .

ان عهد الاقطاع أشبع وصمة في جبهة تاريخ الانسانية . وقد وجد في لبنان كما وجد في جميع أقطار المسكونة ، ولكن لبنان سبق غيره الى النضال المستمر ، وظل يعمل حتى ألقى ذلك التير عن رقبتة . فتوزعت فيه الثروة توزيعاً صحيحاً عادلاً ما ظفرت بمثله جاراته بعد . وان بقي هناك بضع بقع سوداء ... فستزول ، بإذن الله ، في وقت قريب .

ماذا تريد أن أحدثك عن هذا العصر ، عصر الشدياق ؟

اني أدع أميراً شهايباً يحدثك عن مظالم بني عمه ، قال :

« خرجت المغاربة الكامنون في الحوانيت على طريق كنيسة التلة (كنيسة بلسان أهل دير القمر) وقبضوا على الأمير فندي وأدخلوه البهو الذي كان مفتوحاً للبناء ، وعند وصوله الى قدام أخيه المير يوسف قتله ...

« وعند الصباح جمع الأمير يوسف من كان في دير القمر من بني عمه

وأخبرهم بما كان . وكتب الى بقية الأمراء وأعيان البلاد وأخبرهم بواقعة الحال دفعا لللامة عنه بقتل أخيه ...

« وكان الخبر قد شاع في البلاد والجميع أنكروا ذلك على الأمير يوسف وكرهوه ، لأن ذلك لم تكن سبقت به العادة بين بني الشهاب .
« ولما رأى الأمير يوسف كراهة البلاد له ، نهض ليلاً من دير القمر الى عكا ، ولم يتبعه احد من البلاد سوى خدمه والشيخ كليب نكد وأولاده »^(١) .

أما قطع الألسنة وسمل العيون فكان أمراً هيناً على الأمير .
جزء الأمير يوسف ألسنة أعيان كثيرين ، نذكر منهم الشيخ محمد القاضي الذي ظل يتكلم بعد أن قطع الأمير لسانه .
ونهج الأمير بشير نهج عمه المير يوسف ، فسعى بهذا الشيخ ، محمد القاضي ، وبغيره من « مناصب » البلاد فأذاقهم الموت .
أما رائعة ملحمة تاريخه وشرها فهو مقتل أبناء باز ، والتنكيل بأبناء عمه الأمير يوسف الذي أكل الحصرم بقتله أخاه ، كما مر ، فخرس هو ثم أبناءه ... اسمع كلام المير حيدر ، وقد اختصناه بذلك لما بينه وبين الشدياق « صقر لبنان » من علاقات ستضحكك ان شاء الله .
كتب المير حيدر :

(١) تاريخ المير حيدر ، طبعة مغيب ، ص ٨٣٨ - ٨٣٩ .

مصرع البازين - ذكرنا فيما تقدم من تاريخ الشوف ما كان من أمر جرجس باز أبي شاکر ، وكيف قام بخدمة الامراء اولاد الامير يوسف الشهابي ، حتى أقامهم على ولاية البلاد في أيام أحمد باشا الجزائر . ثم شاطرهم الحكم الامير بشير ابن الامير قاسم عمر الشهابي ، فاقترضوا على ولاية بلاد جبيل وما يليها .

كانوا قاصرين في السن والرأي وكان جرجس باز مدبراً لهم ، بصفة خادم في القول ، وبصفة مخدوم في العمل ، لأنهم كانوا تحت أمره في كل ما يفعلون ، وكانوا لا يصدر عن أمر إلا بإذنه ، حتى في ملابسهم ، وتزويجهم ، وغلمانهم ، وخيلهم ، وسلاحهم ، ونفقاتهم . ولم يكن في أيديهم أمر ولا نهي ، حتى ولا خاتم يختمون به ما يكتب بأسمائهم من رقاع الديوان ، لأن أختامهم كانت بيد جرجس باز ، يكتب ويختم كما يشاء بغير اذن منهم ولا علم لهم . فكان لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وكان هذا الرجل صادقاً ، كريم النفس واليد ، سهل الأخلاق ، طيب الحديث ، يأخذ لقاءه بقلوب الناس فيميلون اليه . . . وكان متلافياً طروباً ، يحب الملاهي والغناء ، فلا يخلو محله من منشد إلا نادراً . . . وكان فيه تيه وإقدام ، الخ . كان أخوه عبد الأحد يقرب منه في هذه الصفات ، إلا أنه لم يكن يجاريه في النباهة . وكان مسرفاً كثير البذخ في الملابس حتى كان يستبدل في اليوم خمس حلل كاملة من العمامة فما يليها .

وطابت لها الأيام زماناً طويلاً وعظمت منزلتها ، وكانت لها دولة زاهرة نضيرة ، ومال اليها كثير من عمد البلاد ، فاستطالا ، ولم يكن للأمير بشير عندهما حرمة . وكان كثير من الامور يجري على غير رضاه ، ولا يتمكن من دفعها ، فكان يضرر السوء لها .

الى أن يقول :

وهناك (أي في غزير) عند المير حسن عدوهما جرى حديث البازين بين

الامير بشير وأخيه الامير حسن ، فشكا الأمير بشير لأخيه سوء تصرفها وجورها ، فاتفقا على قتلها . وعقد اتفاق بين الأمير بشير وأخيه حسن والشيخ بشير (جنبلط) وغيرهما من أرباب الكلام .

كان جرجس باز في دير القمر ، وكان اخوه عبد الأحد مع الامراء اولاد المير يوسف في جبيل ، فاتفق الأمير بشير وحاشيته على ان المشايخ يسرون الى جبيل فيقتلون عبد الأحد ، والامير بشير يقتل أخاه جرجس في دير القمر ، وجعلوا لذلك يوماً معلوماً (٥ أيار سنة ١٨٠٧ الموافق ٨ ربيع أول سنة ١٢٢٢) .

وسار الامير حسن بالمشايخ اليزبكية الى مدينة جبيل... هجموا على عبدالاحد فأطلق الرصاص على خطار المصفي فقتله ، وجرح الشيخ ناصر الدين العماد في يده ، وأحاطت به الجماعة فألقى بنفسه من نافذة ، فأدركوه وقتلوه ، ونهبوا كل ما وجدوه في داره وكان مقداراً عظيماً . وقبضوا على عرب السلفون ، والياس اده ، والبعض من حاشية اولاد الامير يوسف . ونهبوا أسواق المدينة وبيوتها وغنموا الخيل والسلاح . وقبض الامير حسن في القلعة (قلعة جبيل) على اولاد الامير يوسف وهم : حسين ، وسعد الدين ، وسليم .

وفي ذلك اليوم نفسه دعا الأمير بشير جرجس باز ليحضر اليه لأجل التفكير في بعض المهام ، فحضر وجلس عنده ساعة ، ثم خرج الأمير من مجلسه وأغلق الباب ، وأمر الشرط بنو زين الدين قدخلوا عليه وقتلوه . وفي الحال أرسل فقبض على يوسف بن ناصيف آغا الترك ، وأمر بقتله أيضاً لأنه كان من أرباب دولة جرجس باز . وضبط دار جرجس باز .

وكان لا يثق بأن أخاه يتمكن من الدخول إلى مدينة جبيل ، فركب من ساعتها ومعه الشيخ بشير جنبلط... وبعد وصوله أمر بتوجيه اولاد عمه الأمير يوسف إلى درعون وأمر بسنل أعينهم - كياً بقضيب من حديد - فاستراح من ذلك النزاع ، وطابت له الأيام .

وفي ٢٣ أيار رجع إلى دير القمر فارتجت منه البلاد ، وخطأ به من كل

معارض ومنازل ، وتأسفت الناس على أبي عساف جرجس باز لأنه كان مقبولاً بلطفه وكرمه ، قاضياً للعاجات .

وجار الأمير بشير بعد ذلك على أولاد الامير يوسف فضبط أملاكهم ، وأقام لهم نفقة يسيرة يعيشون بها كالصعاليك ، ومنعهم من أن يتزوجوا خوفاً من أعقابهم ، فلن يأذن لهم بالزواج إلى حين^(١) .

قلت : سمح لهم حين وثق ان أولادهم لا يدركوت عهده الأحمر فينازعوه البطش بالناس .

وأولاد المير يوسف هم الذين اشتروا دار « الشدياق » في عشقوت سنة ١٨٠٩ واستوطنوها .

وقال الأمير حيدر : وكان أحدهم سعد (أبناء المير يوسف) خاطباً ابنة الأمير حيدر أحمد ، ففسخ الأمير بشير عقد الخطبة ، وزف البنت إلى ابنه الأمير أمين^(٢) .

وأحب ان أدون لك مشهداً آخر من هذه المأساة ، مأساة عصر الشدياق الأحمر .

قال المير حيدر ان بال الأمير بشير خلا من كل معارض ومنازل . ولكن لا ، فها هو قرن « عامية انطلياس ولحفد » ينذر لي قدم لسعادة المير ضحية جديدة . فاسمع ما يقول مؤرخ « المقاطعة الكسروانية » عن هذه العامية :

(١) تاريخ المير حيدر ، ص ٩٠٦ - ٩٠٩ .

(٢) تاريخ المير حيدر ، ص ٩٠٩ .

« طلب عبد الله باشا من الأمير بشير مالا غير اعتيادي مقبوضاً حالاً، فاعتذر الأمير ان الرعية مضنوكة من ظلم الجزار وجوره . فحنق الباشا ووجه العساكر إلى حدود البلاد لطرده الأمير منها، وتحصيل المطلوب جبراً . فأذعن الأمير واقترض من التجار مبلغاً ، وطلب من النصارى الأموال الأميرية قبل أوانها فضلاً عن زيادتها . فهاج نصارى المتن وأبوا دفع المطلوب ، وكتبوا إلى الكسروانيين يستنهضونهم . واجتمع الفريقان في انطلياس ، وأقاموا لكل قرية وكيلا ، وكتبوا صك معاهدة على عدم الدفع .

« قيل ان هذا الصك هو إنشاء المطران يوسف اسطفان، فأخذ الأمير بشير ينتهز فرصة تمكنه من القبض عليه ، فاختم المطران مدة في بلاد كسروان . »

قلتُ : عندنا في عين كفاع ، في دير مهجور يعرف بدير مار عبدا الحرش .

« ولما استصعب رضى الأمير عزم المطران على مهاجرة لبنان، وفعل، فهرب ، فلحق به الشيخ يعقوب بن سمعان البيطار ، فأدركه عند نهر البارد وأعادوه ، واثقاً بوعد الأمير بشير بالعمو عنه .

« ثم توجهوا الى دير القمر للوقوف على خاطر الأمير ، وذهب بمعيتها الشيخ زعيتر بن راشد الخازن آملاً بإصلاح حاله أيضاً .

« وقيل انه عند وصولهم قدمت القهوة الى المطران والشيخ زعيتر

ممزوجة بالسم ، فمات الشيخ في دير القمر ودفن هناك . أما المطران فمات بعد قليل ، في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٢٢ ،^(١) .

هذا ما كان يرتكب في سبيل « خلعة » الولاية على لبنان ، والاحتفاظ بها . فما هي تلك الخلعة التي كان يبيعها باشوات صيدا ممن يغلي ثمنها ؟ ولهذا كان على الطامعين بها أن يدفعوا ثمنها من عرق جبين الشعب ، حتى صح بنا قول المثل اللبناني : من ذنبه خناقه .

لست أكلف نفسي وصفها لك ، وحسي أن أدون بعض فقرات من مرسوم عبدالله باشا الى الأمير بشير فتعرف ما هي . فبعد أن كتب الأمير بشير صك تعهد للباشا بدفع مبلغ ألف ألف درهم خلال شهرين ، كتب له الباشا هذا الرقيم :

« صدر مرسومنا المطاع ، الواجب القبول والاتباع ، الى افتخار الامراء الكرام ، مرجع الكبراء الفخام ، ذي القدر والاحترام ، الأمير بشير الشهابي دام مجده الى الدوام ،
« والى الامراء ، والمقدمين ، والمشايخ ، ومشايخ العقل ، والعقال ، والمباشرين ، والوجوه ، وسائر الرعايا في جبل الشوف وكسروان بوجه العموم ، ليعلموا :

« انه لا يخفى عليكم صفو خاطرنا على الأمير بشير المشار اليه ، ورضانا عليه بالموودة القديمة لأجل حسن قيامه بالخدمات الصادقة المرضية لدينا .

(١) المقاطعة الكسروانية ، ص ٢٤١ - ٢٥٠ .

وقد أصدرنا إليكم ، قبل هذا ، مرسوماً من ديواننا إشعاراً بذلك . والآن
تأكيداً لإشهار تمام رضانا وميلنا القلبي اليه ، قد أمرنا بتوجيه خلعة
الرضا من لدتنا اليه ، وهي :

« جلد سمور من ملابسنا ، وعلبة مجوهره ، عن يد قدوة الأمائل
والأقران خزنداننا حالاً شاهين آغا ، زيد قدره ... »

« فكونوا في طاعته وتحت أوامره . فليكن معلوماً عنكم جميعاً توجيه
رضانا وصفو خاطرنا على الأمير الموما اليه ، وان شاء الله لا ترون منا إلا
كل ما يسرّ خاطركم ويقرّ نواظركم ... الخ »^(١) .

وكان الأمير يلبس هذه الخلعة (كل سنة ، طبعاً بعد دفع المبلغ
المرقوم ...) في احتفال يقيم البلاد ويقعدها ، ويقول شعراؤه في ذلك
ما يلهمون ، وهكذا دواليك ، فلا تنتهي الخلع ما دامت يد الأمير طائلة
وغير مكثور عليه ، ولا من يغلي ثمنها ويزيد فيها ، فتم له الصفقة ويهنئه
بها شعراؤه ، ولا يقصرون .

وإذا شئت نموذجاً من ذلك الشعر فدونك شيئاً مما قاله شاعر الأمير
بطرس كرامه في خلعة عام ١٨١٣ :

والبشر عم وقد زهت	بالعز كل الناحية
وهدية التملك قد	وافت بنص هادية
وسما الهناء بخلعة	لثبات حكم وافية

(١) تاريخ المير حيدر ، ص ٩٥٣ .

ثم يقول في «خلعة» عام ١٨١٤ :

بسم السرورُ فسرتِ الأحياءُ وسمتُ بسامي سعدك العلياءُ
وتزينتُ «بخلع» عزك رتبةُ أنتَ الهناء لها وأنتَ مناء
بسمتُ ثغورَ النصر لما أقبلتُ تهدي إليك الحلة الحسناء
فتدلي يا تحفةَ العلياءِ في روض البشير فقبلتك إباء

ومما يقول ، من قصيدة طويلة ، في «الخلعة» التي جاءت بعدها :

لله لبنان إذ شرفت قمته بأخصيك فاضحي مورد الأمر
ما زرت ربعا ولا أمسيتَ في بلد إلا وأصبح خصبا موضع القدم
لو زرت بحراً غدا عذبا لشاربه وفاز راكبه بالأمن والسلم

ثم يتخطى الى وصف عكاء فيقول في وزيرها مانح «الخلعة» :

سمت بخير وزير قد سما «اصفا» إذ هو سليمان هذا العصر بالحكم
والبستك أيادي عزه خلعا قد شرفت بنوال اللثم كل كمي
ومذ أتيت بتقرير الولاية قد أحيا السرور قلوب الخلق كلهم^(١)

هذا ما كان يُتغنى به في بتدين ليلة بهجة العيد السعيد ، عيد خلعة
«جلد سمور من ملبوسنا» حتى إذا ما انتشر النهار طار عسكر
«الهواري» الى القرى والضياع، وعلا صراخ الأيتام والأرامل والمساكين:
الأمير يريد أن يسدد حساب ثمن «الخلعة» السنوية ، فيفرض الضرائب

(١) تاريخ المير حيدر ، ص ٩٣٦ - ٩٣٧ .

السخنة على الرعية ، بينما كان شاعره يقول فيه ما قال ، وما شكر السوق
إلا من ربح ...

وكثيراً ما كان يرتدي الأمير الخلعة مساءً ويخلعها صباحاً. فبينما هو
الأمير الناهي ، إذا بالعساكر تداهمه لتزحزحه عن مكانه ، وتطرده من
البلاد التي نام على أنه الأمر المطاع فيها ، فإذا به الشريد الطريد .
تلك كانت حال أمراء لبنان ، ما عدا فخر الدين وبشير بيت الدين ،
فإنهما في آخر عهدهما قد استأثرا بالخلعة سنين .

أما الشعب فكان يئن ويطن ، يدبر المؤامرات في الخلوات . فإذا
بالرؤوس طاحت وصبغت الأرض بالدماء ، وانتشرت الجبسة في طول
البلاد وعرضها تجمع الأموال للغالب ليسدد ما يطلبه منه الباشا ، والويل
له ان استمهل . وقد يمهل الأمير اذا رهن عند الباشا أولاده ، أو أحد
مدبريه كما كان يرهن سعد الخوري وبطرس كرامه وغيرهما . وقد تذهب
هذه الرهائن ضحايا بريئة اذا عجز المير عن جمع المال وتأديته .

وكثيراً ما يحدث ذلك ، حين تثور الرعية على الراعي ، وينهض
للأمر أمير جديد ميسور أكثر منه ، فيركب التخت ويطرد صاحبه
الذي قد يعود في الغد إذا استرضى الباشا . وكثيراً ما كان يتفق رجال
الحزب المعارض ويدفع كل منهم مبلغاً من المال ليشتري «الخلعة» لأمير ما.
كانت النفوس أرخص متاع في هذا العصر . يرخي الأمير لخصمه
العنان حتى يجمع ما يجمع من أموال العبياد ، حتى إذا رآه قد سمن
واستدارت اليته ، نحره وصفى أمواله ودمه ، واستولى على عقاره وشرده

أولاده - كما سترى في ترجمة الشدياق - هذا إذا لم يقتلهم . لم يكن الأخ
يرحم أخاه ، والزعيم لا يخلص لزعيم آخر . ذئاب غرثى كل واحد منها
يحدث نفسه بصاحبه ، والويل للسليم الطوية ، فإنه يؤخذ على غرة .

عصر إرهابي شريعته قوة وغدر ، وسنته نهب وقتل لا يعطى الشعب
إلا ما يعطى الخروف المعلوف ليسمن .

قلت يعطى ، استغفر الله ، فهناك أخذ لا عطاء . يطول له فيرعى ،
حتى إذا حان وقت الذبح بسمل الأمير وذبح . وبدعوى الخيانة والتآمر
كان يمتلك الأمير دور العباد ، وعقاراتهم ويشرد أهلها . ثم يرضى «الراعي»
فيعود القطيع إلى مرعاه آمناً إلى حين .

سلسلة من الاستبداد يجررها الحكم المطلق وراءه ، تمتد حلقتها الأولى
من اسطبول ، لتتصل بالحلقة الثانية في صيدا وعكا .

أما الحلقة الثالثة ففي دير القمر وبتدين . وهي الكلابية المنطبقة على
رقاب الشعب اللبناني ، والشعب اللبناني لم يتعود الانقياد والخنوع ،
فكان يحاول كل ساعة تحطيم أغلاله والقضاء على جبار الاقطاعيين
وخاتمهم الأمير بشير الثاني . ولكي تقدم صورة تؤيد ما زعمنا لك عن
حال الولاية ، فلندع التاريخ يتكلم .

قال مؤرخ المقاطعة الكسروانية المار ذكره :

وسنة ١٧٩٠ تعصب أهل البلاد على الأمير بشير شهاب الوالي وطردوه من
دير القمر ونصبوا عوضه الأمير قعدان والأمير حيدر . فأرسل الجزائر العساكر
لمحاربة أهل البلاد ، فاشتدت الحرب بينهم في مواقع عديدة ، أفضت إلى أضرار

وفيرة ، وأهوال ومخاوف مهولة ، وإهراق دماء كثيرة ، ونهب وسلب ، وحريق قرى ، لأن هذه الحركة استدامت (دامت) سنة وخمسة أشهر . وقتل من أهل البلاد نحو ألف وثلاثمائة قتيل ، ومن عسكر الجزائر نحو ألفين وخمسمائة قتيل ، وأخيراً كانت النصر للعاكر اللبنانية ، وكانت نهاية هذه الحركة سنة ١٧٩١ .

وفي سنة ١٧٩٤ احتدم الجزائر غيظاً على الأمير بشير فاستحضره إلى عكا مع أخيه الأمير حسن وسجنها وأنعم بخلعة الولاية على أولاد الأمير يوسف .

وسنة ١٧٩٥ رضي أحمد باشا الجزائر على الأمير بشير وأخيه الأمير حسن بدفعة زائدة عما دفعه أولاد الأمير يوسف ، وأرهن الأمير حسن عنده في عكا ابنه الأمير ابراهيم ، فأطلقها (أي الأميرين بشير وحسن) الجزائر من الحبس ، وخلع عليها خلعة الرضا ، وخلع على الأمير خلعة الولاية على البلاد وأصبحه بعسكر لطرده أولاد الأمير يوسف (١) .

قد رأيت ، قبل ان أكتب هذا الفصل ، ان أزور دير القمر وبتدين عاصمتي الحكام الاقطاعيين ، لاستعيد نظراتي القديمة وأجدد ما محت الأيام من طول الذكريات ...

فدير القمر كتاب لبنان الاقطاعي المدون بالإزميل والشاقوف ، والبيك والدريك . فحيث تطوف في تلك المدينة تنهض اطلاء أشباح ذلك العهد الرهيب من كل مجثم : فهنا قتل الأمير بني فلان الستة ، واحداً إثر واحد . دخلوا السراي وما خرجوا .

هنا قتل « المنصب » الفلاني ، دخل آمناً مطمئناً ، فافترسه الأسد الجالس سعيداً ، تجلله خلعة الجزائر او غيره من باشوات صيدا او عكا .

(١) المقاطعة الكسروانية ، ص ٢١٣ .

قد تقشعر مثلي ، إن كنت ممن قرأوا تاريخ أحكام هذا العهد . وقد تلمس رأسك لتفتقده بعد خروجك من السراي ، مثلاً ... وقد تتصور المجاعة متى أشرفت على « الخرج » . وإذا وقفت حيث كانت « المصينة » تتذكر كيف يقوّض الدولة جشع الحكام وطمعهم . إن « المصينة » هي التي دهورت الأمير من أعالي شماریخ بتدين الى جزيرة مالطة . فشروط الثائرين عليه عام ١٨٤٠ كانت هذه :

- ١ - دفع مال واحد .
- ٢ - عزل بطرس كرامه .
- ٣ - وضع اثنين من كل طائفة في ديوانه .
- ٤ - رفع السخرة بنقل الفحم المعدني (فحم الحجر) من قرنايل .
- ٥ - إبقاء السلاح للبنانيين .
- ٦ - إطلاق حرية شراء الصابون .

كان الأمير محتكراً الصابون ، والويل لمن يغتسل بغير صابون سعادته ... ولا تنس « مطحنته » ، فقد ضجّ الشعب من جور الطحّان ، فغيّره لهم مرات وظلت الحال على ما كانت عليه . فقال أحدهم في ذلك الزمان هذه الكلمة الماثورة : ما النتيجة إذا غيّرنا « القاروط » وما غيّرنا الكيلة ؟ فأوصى الأمير بتغيير الكيال ، ولكن حين لم يبق على خمير الشعب طحين ، طفح كيل الشعب فثار .

لقد جرّتنا « المصينة » إلى هذا الاستطراد لأنها في دير القمر : فلنعد الآن إلى ما توحيه الينا تلك الآثار عن هؤلاء الجبابرة الذين حكموا البلاد

بالإرهاب ، وأزاحوا عن دربهم اخوانهم وأولادهم وأبناء عموماتهم، وأكثر
« مناصب » البلاد الذين كانوا يشكّلون خطراً على « التخت » .

كان الأمير فخر الدين يقاتل ، ولكنه قلما اغتال او غدر .

روى لي أحد مشايخ دير القمر أخبار فخر الدين مع أعدائه آل سيف
الأكراد ، وكيف أقسم الأمير فخر الدين وبرّ بقسمه ، قال :

بعد وقعات تصالح فخر الدين مع آل سيف و صاهرهم . ولكن المصاهرة
ما نقت القلوب ، والسياسة لا تراعي في المنام خليلاً . سمعت بنت
فخر الدين ، زوجة حسين باشا سيف ، استهزأً بقدر أبيها فقالت زجلاً ،
كلّفت بنقله أحد أبناء الشوف العابرين بعكار ، فنقله إلى أبيها ، قالت :

عيروني بقصرك ، قلت عود التبر
والعنق عنق الغزال بالطول شابل شبر
قولوا لأهل الذكا ، قولوا لأهل الفكر
إن القلم يجمع الدنيا وطولوا فتر

ولما بلغ ذلك فخر الدين قال زجلاً أيضاً :

نحننا زغار بعيوت العدو كبار
أنتم خشب حور ونحن للخشب منشار
وحق طيبه وزمزم والنبي المختار
ما بعمر الدير إلا من حجر عكار

ثم هاجم بني سيف رداً على إغارتهم على الشوف، فحاصر قلعة الحصن،

وهدمها ، وجلب الحجارة من قلاع عكار ، وهي الحجارة الصفراء في «الخرج» وفي جميع بنايات بني معن . وقد دلني عليها صديقي الأستاذ كرم البستاني حين زرنا تلك القصور جميعها حتى بيتي المعلم بطرس كرامه وتقولا الترك .

وانتقلت ثاني يوم إلى العاصمة الثانية ، إلى بتدين المير .

لقد عرف اللبنانيون سلالة الأمير بشير بأمراء بتدين، وفي ذلك يقول طنوس الشدياق خاتماً تاريخه الرصين :

وفيها ، اي سنة ١٨٥٤ صدر أمر الدولة برجوع حفدة الأمير بشير عمر إلى لبنان ، وكانت مدة غياب أمراء بتدين أربع عشرة سنة وثمانية أشهر وعشرين يوماً^(١) .

كانت بتدين المير بيت الدين والدنيا، فعندما بسط الأمير بشير سلطانه على الجبل واستقل بالولاية ، مشت السلطتان : المدنية والدينية ، جنباً إلى جنب . أمير إقطاعي جبار عنيد ، وبطرك جسور مهاب من سلالة إقطاعية اشتهرت بالسيف ، وحثت دمار البطركية في « يانوح » حقبة من الزمن ، وكلا السيدين الوالي الشهابي والبطرك الحبوشي من مواليد كسروان ، بل غزير ، قصبة المقاطعة الكسروانية . كلاهما إقطاعي دكتاتوري الطبع ، فلا عجب إذا دعم أحدهما الآخر .

(١) تاريخ أعيان لبنان ، ص ٧٢٠ .

إن مهارة « سعادة المير » في الصيد أوحى إليه تخطيط عاصمة إمارته الجديدة في تلك النقطة الاستراتيجية .

كانت دير القمر مقر من انتزع منهم البشير إمارة لبنان . ولكن دير القمر قد توتى على غرة ، والحرب خدعة ، فلا يرى سيدها مهاجيه إلا حين دخولهم اليها . « فالدير » قلعة طبيعية قائمة على كتف جبل فوق واد عميق ، تعلوها قمم تصلح متاريس للمعتصم بها فيقذف منها عدوه بما يتيسر له من وسائل الدفاع ذلك الزمان .

كانت وكر « مناصب » البلاد الذين يشاغبون دائماً ويدسون . وقد طال النزاع بينهم وبين المير وأسلافه حتى خطط سعادته بتدين فجاءت كداموس الصياد . ومن محاسنها « الاستراتيجية » انها على شفير الهاوية . فهي كالمرقب ترى منها مرابض الأعداء وجموعهم الزاحفة ، ولا توتى على غرة إلا إذا غفل صاحبها، وهل يغفل من كان في داره من الأعوان المقيمين ببابه زهاء ثلاثة آلاف رجل ، ومن الخيل مئات ، ومن الأعتدة ما لا يحصى ؟ كما ان موقعها في الواسطة من القلادة والنقطة من الدائرة ، كما قال تاجر المقامة المضيرية عن داره ... تقوم من حولها مرابض مناصب البلاد الذين كانوا دائماً يتربصون بالأمير الدوائر ، يكيد لهم ويكيدون له حتى أفنى ببطشه ودهائه وكيدته الكثيرين منهم ، ولم يرحم حتى أنصاره وأعوانه ودائنيه حين كان يشد الباشا الزيار ، ويتهدده بالطرد إن لم يدفع المبلغ المرقوم .

فهنا الجزار يقتل المير يوسف إرضاء لحاطر ابن أخيه الأمير بشير .

ثم يسعى بشير لديه فيريجه من خصمه الكبير الشيخ بشير وغيره من مناصب البلاد الذين كانوا سيفاً مصلتاً فوق رأس المير يخشى على دولته منهم كل ساعة .

كانت بتدين مزرعة صغيرة لاشان لها ، حتى اشتراها الأمير بمال زوجه الأرملة . أرسله عمه « ليصفي » مالها ، فاستولى عليها وعلى مالها . و شاء الأمير فاستحالت أكواخ بتدين قصوراً . جاءت صورة مصغرة عن قصور ألف ليلة وليلة .

غادر الأمير مسقط رأسه غزير لا يحمل ثروة غير همته وعصاميته وبعض حوائج لا قيمة لها ، ترافقه في هذه الهجرة البائسة خادمة ورثها عن أبيه وكانت له كالربيبة ، حتى اذا جلس على سرير إمارة لبنان ، ملك ما شاء من عقار ، وجمع ما أراد من مال ، فبنى قصره الشهير ، ثم شيّد لبنيه قصوراً شاهقة ، ولم تعد بنته « سعدى » قصرأ منيفاً يعرف حتى اليوم « بالمقصف » .

ورأى الأمير أن حمامات قصوره التي لا تضاهيها حمامات قصور الشرق محتاجة الى ماء غزير ، فجرّ اليها مياه نهر الصفا . وصفا الزمان للأمير الحلاب الذي لم يرحم رعيته ، فحرّم الأموال وحلّلها ، وحقن الدماء وأهدرها .

وهكذا دانت البلاد لسراي بتدين زهاء ربع قرن . شعب يشقى وأمير يسعد ببلاط ملوكي لم تنقصه الشعراء الذين يمدحون متجاهلين آلام الرعية .

كان زائر بتدين لا يطمئن الى العافية إلا بعد رجوعه بأيام وشهور ،
وخصوصاً إذا كان ممن نال حظوة في عيني سعادته ، وسقاه من قهوته
تلك ...

إن لله جنوداً من العسل ...

ان بتدين أخذ صفحات تاريخ لبنان الحديث ، لولا تلك البقع الحمراء
التي تشوه ، في نظري ، تلك الابهة وذلك الجلال .

دخلتها مؤخراً بعد ما عاد الى القصر بهاؤه ورواؤه . وعندما قفزت
المياه من النافورة وشمخت الى العلاء منتصبه كعمود من البلور ، تذكرت
مجد العباسيين وبركة المتوكل ، وشتان ما بينها في ارتفاع الماء في الفضاء .
قد رأيت من عظمة قصر الأمير ما كبح من جماح قلبي ، فالرجل بنى
وترك . ظن أنه يبني ويترك لأولاده ، فإذا بمال الشعب يعود الى الشعب ،
وصحّ قول المثل : الحق يصرخ نحو صاحبه . لقد ترك هذه الآثار الباقية ،
وترك الى جانبها قصصاً كالأساطير تدل على عدل أهوج ، واستبداد رامح
جامح ...

قال دليبي : هنا كان يجلس الأمير للمظالم . فعرتني قشعريرة . ولما
انقضى حلم اليقظة وزال الكابوس ، قلت في نفسي : ولا ظالم إلا سيدي
بأظلم . فلو سمع الأمير صوت شعبه وأصغى اليه لاستراح من شتاء مالطه
ويؤسه في اسلامبول ، ولكنه الطمع الذي ضرّ وما نفع .

وجسدت لي الذكرى الشيخ رستم بن مرعب الخازن الذي قتل كاهناً
خطا ، فقطع الأمير يمينه ، فتخيلت الدم يتدفق على البلاط ، ورأيت بعين

المخيلة رجال الامير ، يحاولون كيها بالزيت الحار ، وهو يابى عليهم ذلك ، مفضلا الموت على الرجوع الى كسروان بيد واحدة ، فمات^(١) .

وعندما هبطت الى الحمامات الغربية العجيبة قلت في نفسي : أي أدرا ت غسل هذه الحمامات ؟ أتغسل يا ترى تلك الدماء التي صبغت « غبازه » الابيض الذي وصفه لامرتين ؟

صور وذكريات ، وعالم من الاشباح كان يظهر لي ويتراكم أمامي هنا وهناك في ابهاء القصر ، وفي كل بناء عليه طابع عهد الامير الرهيب . ولو لم أسترح قليلا في غرفة الامير موريس شهاب ، احد احفاد هؤلاء الامراء ، لما ارتفع ذلك الكابوس عن صدري ، ولما قابلت الرئيس الداهية . قلت في نفسي : سبحان من يغير ولا يتغير . كانت بيت الدين مفزعة رهبة منذ قرن ، فبشير شهاب وحاجبه ثقيل يبغض ويخشى ، وبشارة الخوري طلق المحيا يحب ويؤنس .

لقد ذهب زمن الاستبداد وجاء عصر الشورى ، وشتان ما بين العهدين ، عهدي بشير وبشاره !

صان الله لبنان !

كان حكم المالطي طور احتضار حكم الاقطاع في لبنان ، فظل الجبل يناضل حتى ألقى ذلك النير . وليس ما نحن فيه الآن إلا خلاصة جهاد قرن .

(١) المقاطعة الكسروانية ، ص ٢١٥ .

صان الله استقلال لبنان !

انني أمسك القلم الآن ، فليس هنا مجال وصف ما رأيت ولمست ، وما أوحى إليّ زيارة بتدين في أثناء وجود سيد لبنان الدستوري على عرش أميره العظيم ، فذاك لا محل له هنا .

قد يقول القارئ الكريم : وما علاقة بتدين بالموضوع ؟ وما شأن البطرك في كتاب يكتب عن أحمد فارس الشدياق ؟

قلت : أما سميننا الرجل صقر لبنان ؟ أسميناه هكذا عبثاً ؟ فالشدياق طريد هذا العهد السعيد . ولولا هاتان السلطتان الجبارتان لما فرّ تلك الفرّة التي كانت كلها خيراً وبركة على اللغة العربية وأدبها .

أمهل عليّ قليلاً ، فالعجلة من الشيطان . ان لقصر بتدين يداً على النهضة الأدبية . وحسب الامير حسنة ان بطاتته كانت خير قماش في السوق . لم تكن الحال في عهده كما هي اليوم في جميع دول الشرق . لم يبعد الامير رجال الفكر والقلم عن حضرته ، بل كانوا جميعاً يحيطون به إحاطة الهالة بالقمر .

كان خيرهم عنده وأدناهم منه أكثرهم علماً وأدباً . لقد آثر الرجل ذوي قرباه وأخصائه وابتلع ثروة البلاد ليصون كرسيه . ولكنه كان حصيفاً ، فقرب منه نوابغ عصره فسدّ أفواهاً كثيرة ، وأظهر أنه يقدر العلماء ويحبهم ، وإن كان لا يحب إلا نفسه ... فكان من الراجحين .

الصورة الدينية

نشأت الطائفة المارونية نشأة قومية ، باسم الدين ، شأن جميع الملل والنحل في سالف العصر والأوان . فكان مارون الذي ينتسبون اليه زعيماً . وقد رأيت بعيني صورة له قديمة بكنيسة ضيقتنا كتب تحتها : « الانبا مارون زعيم الطائفة المارونية » .

والبطرك الماروني الأول ، يوحنا مارون ، كان قائداً او محارباً ، ومعنى البطرك القائد .

أقول هذا متوسلاً بذلك إلى تعليل ما اشتهر به الموارنة من خضوع وطاعة واتباع لرؤسائهم الدينيين . ولكن هذه السلطة الدينية اضمحلت تقريباً في القرون الوسطى ، ولم يعد للبطرك ذاك الحول والطول كما سترى . فالبطاركة الأوائل - من البطرك الرابع حتى الحادي والعشرين - كان مقرهم في دير سيدة يانوح . كانوا يعيشون عيشة تقشف ونسك ، لا يعنىهم من شؤون الطائفة أكثر مما يعنى أعيانها من تدير الشؤون المدنية . وكان هؤلاء الزعماء يحمون هؤلاء الرؤساء الدينيين ويتناضلون دونهم . ثم

انتقل الكرسي البطريركي من يانوح إلى ميفوق وجوارها حين جلا عنها
الشيخ حبيش - جد الحبيشين - وأقام في غزير .

وبداعي هذه الحماية التي لم يكن منها بد لاستقرار البطريرك وسهره
على أبنائه الروحيين ، أمسى لهؤلاء الأعيان - وخصوصاً الحبيشين حماة
البطريركية في يانوح - حق المشورة في تثبيت البطريرك الماروني . فكان
الحبر الأعظم بابا رومية لا يثبته ، أي يعترف به بطريركاً على انطاكية ،
ما لم يرق انتخابه أعيان الطائفة - الحبيشين ثم الخازنيين فيما بعد .

لست ألقى الكلام على عواهنه ، فهناك وثائق ثابتة ، تؤيد هذا الزعم .
فقد طلب البطريرك جرجس بن عميره من الكرسي الرسولي ان يثبته
بدون موافقة المشايخ المذكورين فلم تجبه رومية إلى رغبته ، وعاد سفيره
خائباً ، فاضطر إلى استرضاء المشايخ الخوازنة والحبيشين .

ومات البطريرك عميره الأهدني ، وخلفه البطريرك يوسف حليب
العاقوري الذي أبطأ عليه درع التثبيت أيضاً ، فكتب إلى الشيخ طرييه
حبيش مستعيناً به ، وهذه هي رسالته بحروفها :

للبركة الإلهية تشمل جناب حضرة ولدنا الشيخ طرييه حبيش أدام الله تعالى
شريف وجودكم للدوام .

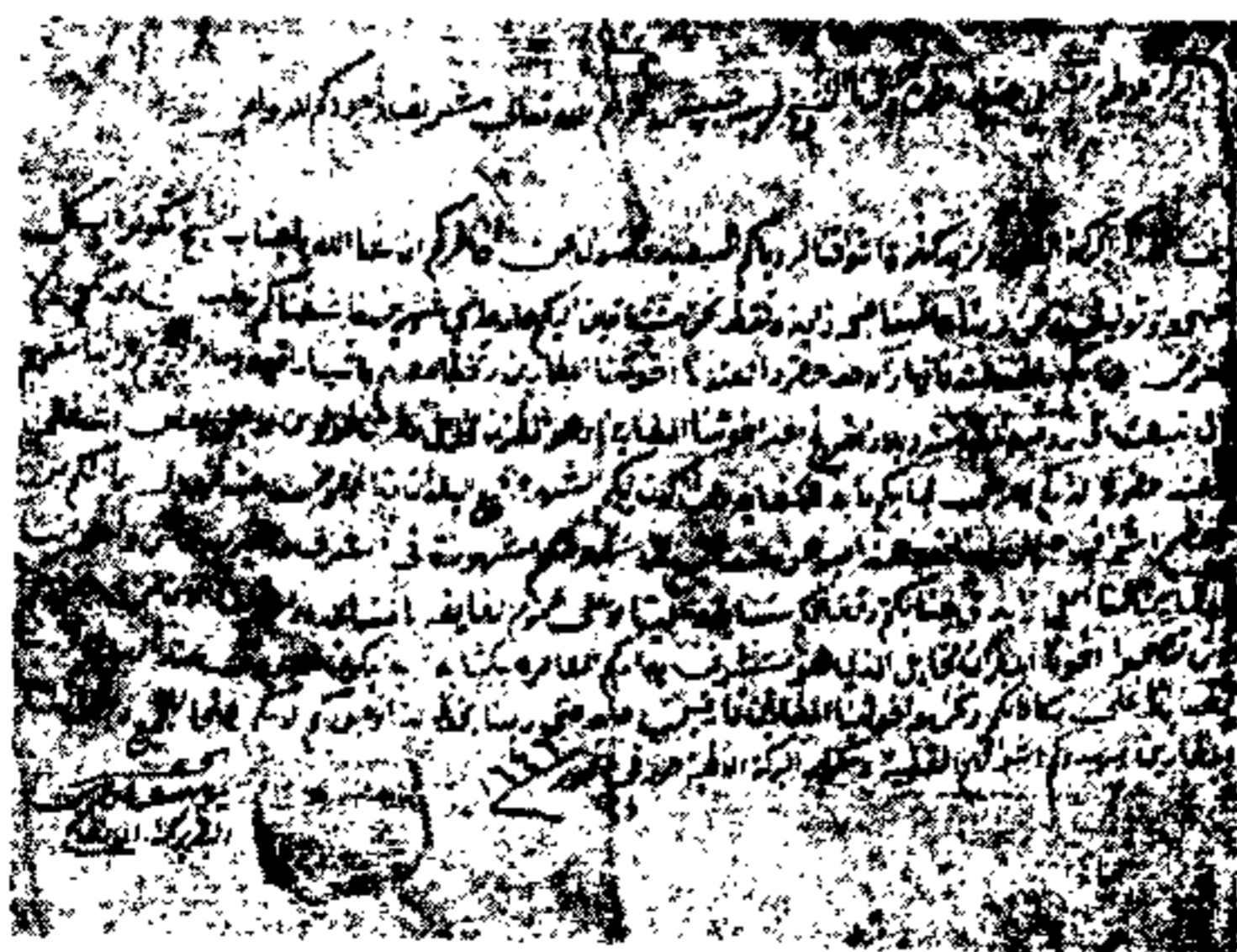
غب اهداكم البركة الإلهية ومزيد كثرة أشواقنا لرؤياكم السعيد ، والسؤال
عن خاطركم ان شاء الله يا جناب الشيخ تكونوا بكل صحة وتوفيق . ونحن
رينا عاطينا صحة زايدة . فقط نحن مشتاقين اليكم . صار ماضي شهرين ما شفناكم
نرغب مشاهدتكم . ثم نعرض لجنابكم ما جد عندنا . نهار الأحد حضروا لعندنا
اخوتنا المطارني وتخطبتنا معهم بأشياء ماضية وحاضرة . وتم رأينا معهم أن نبعث

إلى روحية المقدسة وبلاد الفرنج أحد اخوتنا المطارين وهو المطران مخايل مطران
 طرابلس لأجل بعض أشغال وعند حضوره لداركم يمرض لجنابكم ما به الكفاية.
 ومن كون لكم الشهرة بجميع البلدان وبالخصوص عند الدول بما أنكم من أعظم
 أشراف جبل لبنان وهذا مبرهن عند الجميع ان سطوطكم (سطوتكم) مشهورة
 في الشرق والغرب ونحن واخوتنا المطارين لنا أمل زائد في جنابكم وفضالكم
 سابقة علينا وعلى عموم الطائفة بالمساعدة ومرغوبنا الآن من جنابكم ان تصحبوا
 اخونا المطران مخايل الذي هو متشرف بداركم العامرة بكتابة قوية ليكون
 معروف عند الدول وربنا يقدرنا على مكافاتكم ونحن واخوتنا المطارين فراضين
 صلح (صلاة) حتى ربنا يحفظ لنا وجودكم لأنكم ملجأ الجميع واخوتنا المطارين
 يهدوكم أشواقهم القلبية وتكرار البركة الالهية، حرر في ٢١ تموز سنة ١٦٤٦ *.

الحقير

يوسف بطرس

البطريرك الانطاكي



* مجلة المشرق ، السنة ٢٩ ، العدد ١١ ، سنة ١٩٣١ ، ص ٨٣٢ .

درس الأب توتل اليسوعي هذه الرسالة وعلق عليها محاولاً فكك ألفاظها ، وقد قال عن قدميتها : « وليس من سبيل الى الشك في صحة نسبة هذا الاثر الى زمانه ومكانه ومؤلفه ، ولون الورق وحبسه وإنشاء الرسالة لشاهد على قدمها . طول البطاقة ٢١ سنتيمتراً ونصف ، وعرضها ١٤ سنتيمتراً ونصف » .

والرسالة محفوظة عند الشيخ فؤاد حبيش صاحب « دار المكشوف » بين أوراق الأسرة الحبيشية التي قدر له جمعها ، وعنها أخذنا الصورة الفوتوغرافية المنشورة بالزنگ على الصفحة السابقة .

وبعد انقضاء أربعة وعشرين عاماً يحدث ما يؤيد قولنا : قال مؤلف « المقاطعة الكسروانية » :

« سنة ١٦٧٠ توفي البطريرك جرجس السبعلي ، وبعد وفاته اجتمع مطارين الطائفة وأعيانها في دير سيدة قنوبين وانتخبوا عوضه المطران اسطفهان الدويهي . فاغتاظ الشيخ ابو نوفل الخازن من انتخابه الذي تم في قنوبين من غير حضوره ومشورته ، فأظهر عدم رضاه بانتخابه ورفض الرضوخ لرئاسته والإقرار بها . فارتبك البطريرك المذكور ومطارينه من مضادة الشيخ المرقوم لهم . فالتزم البطريرك أن يحضر من قنوبين الى كسروان عند الشيخ المنوه عنه قاصداً استجلاب رضاه . ولما شاهد الشيخ تواضع البطريرك العميق وذكاء عقله وعلامات قداسته أدّى له رسوم الطاعة وبالغ في إكرامه »^(١) .

ويظل هذا النفوذ العلماني في اطراد مستمر حتى نرى رومية تخاطب

(١) المقاطعة الكسروانية ، ص ٩٤ .

الزعماء والحكام وتكلفتهم مهبات كنيسة تتعلق بإدارة البطررك والأساقفة .
وأخيراً امتدت يد الاقطاعية الى سيامة الأساقفة وانتخاب البطاركة .
وظل الأمر كذلك حتى زمن البطريرك يوسف اسطفان الذي توفي سنة
١٧٩٣ في هذا العهد الذي يعيننا أمره .

كان يناوئ هذا البطريرك خصمٌ من سلالة اقطاعية هو المطران
مخايل الخازن . ولما كان هذا البطريرك من غير الاقطاعيين . فالتجأت
رومية الى السلطة المدنية الاقطاعية لتنفيذ أوامرها التي تخلع بها البطررك
يوسف اسطفان وتقيم مقامه نائباً بطريركياً هو المطران مخايل الخازن
المذكور . ومن رسالة رئيس مجمع نشر الايمان المقدس يتبين هذا الالتجاء ،
وهذا ما جاء فيها :

« ولكن سيادتك (الخطاب موجه الى المطران رافائيل الحاقلائي)
ترى أيضاً انها لمباشرة العمل لا تحتاج الى رفيق . فاقدم اذاً ، دون أن
تنتظر اشارة أي كان ، على التعجيل بإنفاذ المسألة ، على أننا تنبئ سيادتك
بأننا في رقعة اخرى نعلم بذلك الامراء الحاكمين وبطانتهم ، بل أيضاً
اعلام أعيان هذه الطائفة الشريفة المشاهير أي السادة الحبيشين والخازنيين ،
فالرجاء من حكمة سيادتك انك تحقق من وجه الكمال والسرعة الثقة التي
لنا فيك لأجل انفاذ هذه المسألة » .

ولكن الامور لم تجر جرياً عادياً ، فلجأ الى الحاكم ، فأصدر الامير
يوسف مرسومين : الاول يوجب فيه انفاذ أوامر رومية بقبول نيابة
المطران الخازني ، والثاني يأمر المطارنة بحضور مجمع ميفوق .

لا مجال لنشر المرسومين كاملين ، فمن شاء الاطلاع عليها فليرجع الى تاريخ البطرك يوسف اسطفان للآب بولس عبود ، ولكننا نأخذ منها ما يعني عملنا هذا ، ويرينا اسلوب التخاطب بين رجال الدنيا والدين في ذلك الزمان ، مؤيدين بذلك درسنا . وهذه رسالة المير يوسف الى القاصد الرسولي :

الى حضرة عزيزنا ومحبتنا الأكرم البادري بطرس القاصد الرسولي المكرم سلمه الله تعالى .

أولاً مزيد الأشواق الى رؤياكم في كل خير وعافية ، وبعد مضت هذه المدة ولم نرَ من محبتكم كتاب ينبئنا عن صحة سيادتكم انشاء الله يكون المانع خير . نخبركم بأن حضر أوامر من رومية ومكتوب لنا في تأييد الأوامر السابقة وقطع ومنع من غير مراجعة ولا مشاورة . وحائتين على حضرة عزيزنا البطرك يوسف أن يحضر ليرد جواباً عن نفسه ، وحائتين أيضاً على حضرة عزيزنا المطران مخايل الحازن بأن يكون وكيلاً ويقم مقام البطرك الى حين رجوعه ليرجع أوامر ثانية . من حيث ذلك يلزم الأوامر تمثي على صحتها حرفاً بحرف وكل من يعارض لا يلوم إلا نفسه ، وحضوركم بقا لازم لهذا الطرف ليكون كل شيء في مباشرتكم بحسب مأموريتكم . ولا يصير لكم عاقبة من الحضور ، وان شاء الله ما تشاهدوا إلا كل شيء يسر خاطرهم ، ويد الجميع قاصرة عنكم ، فلا تفتكروا بشيء ، لأن أوامر جناب عالي القدر والشان الجليل المحترم البابا بيوس المكرم لازم نفوذها والعمل بموجبها من غير أن ينقص من منطوقها حرف واحد ، ولا يصير عاقبة نوكد على محبتكم بذلك والدعاء .

يوسف ب.

واذا شئت أن تعرف اللهجة التي خاطب بها الامير أصحاب السيادة المطارنة ، فدونك هذه الفقرة :

ان من خالف أدنى أمر من أوامر المجمع لومه على نفسه ، ولم يقدر يعطي جواب ويندم حيث لا ينفع الندم بل يلزم الاتباع لها والسلوك بموجبها حرفاً حرفاً لا ينقص منها ولا جزء واحد ، وكذلك كل من تعارض الوكيل عرفناه خاطراً يفهمنا عنه حتى تؤدب الناس فيه يكن معلومكم الخذر من الخلاف .

يوسف م .

وفي دعوتهم الى مجمع ميفوق كتب اليهم يقول :

وإياكم أحد منكم يخل أو يخطر في باله المعارضة يكون منفي من خاطرتنا ويحري عليه قصاص بالسج ... ونحن عرفنا خاطرتنا لحضرة عزيزنا المذكور القاصد أن يمشي حسب مأموريته ، وكل من اعترضه لومه على نفسه .

وعقد المجمع وتم كما أمر سعادة المير يوسف ، وذيل السادة المطارنة تاريخ انعقاده بهذه العبارة :

وفي ولاية سعادة أفندينا الامير يوسف شهاب حاكم بلادنا الأكرم أدام الله عزه ونصره .

ميفوق ٢٨ تموز سنة ١٧٨٠ .

أما البطريرك يوسف اسطفان المكفوفة يده فالتجأ ، بعد حين ، إلى الشيخ سعد الخوري يشكو من تصرف الوكيل البطريركي المطران الخازني ، واليك بعض ما كتبه إلى الشيخ :

بعد الترجمة ما خافي علم حضرتكم ان الكنيسة المقدسة من حين وقفت حضرة أخونا النائب المحترم على الطوائفة قد صرفته بربع مداخيل البطريركية فقط وأبقت لنا الثلاث أرباع وسعادته (أي المير يوسف) دام الله بقاءه حتم ان ينعطا لنا ثلاث ارباع حسب أوامر المجمع وحضرتكم كفلتم لنا ذلك ، وأفهمتمونا أننا

تقيم وكيل وأنكم معوته ، وحضرته (أي الوكيل المطران الخازني) من ذلك
الحين للآن ما أعطانا شيء ولا شقنا شيء .

ثم يقول بعد أن يشكو الفاقة في منفاه :

فوق هذا جميعه الدير في برية (دير الكرمل بجيفا) وكل شيء غالي ، والآن
قصرت يدنا وداق (ضاق) بنا الحال والمجال وما بقا لنا أمل إلا بغيرتكم وحسن
ديانتكم أن تحصلوا لنا ثلاث ارباع المداخيل لأن هذا حقنا ... مرادنا يا ولدنا
حبا في مخلصنا تجعلوا نظركم علينا في تحصيل الثلاثة ارباع من غير نقص ، وما
كنا نظن في خوته (المطران الخازني) يقصر معنا ويقسا في حقنا هل قدر لأن
صارت تحمل علينا الصدقة ، وهذا هو حق الله وشيء متوجب لنا . ما عادت
الدعوة تحتل طولة ولا محادقة بوجه من الوجوه . المرجو يا حضرة ولدنا لا يصير
اهمال ، ولنا اتكال على الله وعلى غيرتكم انكم ما بتهملونا هل قدر ، نسأل الله
ان يوفق أحوالكم ويحبركم في حضرة ولدنا الشيخ غندور ، والبركة تشملكم وإياه
ثانيا وثالثا .

الداعي لجنابكم

حرر في ٢٥ أيار سنة ١٧٨٢ .

البطرك يوسف اسطفان

ويش البطرك في منفاه فعاد من الكرمل ، فعلم برجوعه خصومه
الأساقفة ، فظنوا ان الشيخ سعد يؤيده ، فكتبوا اليه كتابا يفهم مضمونه
من جواب الشيخ هذا ، وهالك بعضه :

بلغكم ان سيدنا البطرك متوجه لهذه النواحي وقلتم هذه بتصير قلقلة وبليلة
للطائفة وموسعين الشرح بهذا المعنا . حضرة ساداتنا ، ما هي عظيمه قد ما اتم
شايفينها ، نحن ما معنا خبر إلا نهار هذا الثلاثة وصل أخونا بو عسكر لهذا
الطرف وسألناه ما هو سبب مجي سيدنا ؟ حكنا لنا السيره ان ما معه خبر بها

من الابتداء حتى واجهه في عكا وسأله ما هو الموجب للتوجه . كان جوابه للدير ليبري حالي لأن المكاتب الذي اجتني من سعد طيرت عقلي ، وما كان يقنع بكتابة ولا يصدق في يامين ، ولا كان يعفاني ، التزمت ان احضر او أتبرر او أقتل . ما عدت أريد عيشي ان بررني برجع وبرتاح وان قتلتني برتاح . حضرة ساداتنا، هذه لا يكون لكم منها فكرة بعناية البادري (القاصد) ونضر (نظر) أفندينا أو امر رومية تجراً على ايقاعها ... يا حضرة ساداتنا لا يكون لكم فكرة ، ولا تقربوا في هذا كلياً ، وأي من حكا من الطائفة سعاده بيكسر راسه ... ولا تنسوننا من دعاكم ودمتم^(١) .

قال ناشر هذه الرسالة الأب بولس عبود: « لم أشأ ان أبدل حرفاً منها، وان ملأتها الأغلاط ، صوتاً لأصلها » . وأنا أقول انني نقلت هذا كله لأن مبناه يعني درسي كعناه ، فسوف تسمع صراخ « الفاريق » وتعنيفه بني أمه على هذه « الركاكة » . امهل علي قليلاً .

أما الشيخ سعد ، وان كتب ما تقدم إلى الأساقفة ، فلم يتوان عن نصره هذا البطر ك الصلب الرأي . فقد توسل إلى بابا رومية بما له من نفوذ وصيت حميد ، فأعاده إلى مقامه كما يتضح من رسالة البابا بيوس السادس إلى الشيخ سعد ، وقد ختمت بما يأتي .

« إنه جزاء لطاعة البطر ك ، وإجابة لالتماس جمهور الأساقفة ورغائب الطائفة ، وتوصاة الأمير يوسف الجليل والسامي الاقتدار ، وتوسلكم ، وقد رد البطر ك إلى كرسيه وحقوقه^(٢) » .

(١) الأصول المحجوبة للأب بولس عبود ، ص ٤٥٩ .

(٢) الجامع المفصل للديس ، ص ٤٥١ .

وبعد ان عاد إلى هذا البطررك سلطانه عقد مجعاً (مجمع عين شقيف)
تحت إشراف غندور الخوري بالنيابة عن والده سعد الذي أولاه البابا حق
تنفيذ الأوامر الرسولية وتأييد هذا المجمع .

وفي هذا المجمع الذي عقده هذا البطررك « الشعبي » رجع رجال
الاقطاع عن عادات تمس السلطة الدينية . واليك ما جاء في (المحضر)
الجلسة العاشرة لتعلم مقدار نفوذ الاقطاعيين ، وتساؤل السلطة الدينية ،
في ذلك العهد . ففي هذه الوثيقة يتنازل اقطاعيو الطائفة عما كانوا
يارسونه من استبداد فيقولون :

« كذلك قد عدلنا عن عاداتنا السابقة التي كنا نألفها في شان رسامة
المطارنة وتخصيصهم ببعض أسر او أديار ، ولم يبق لنا حق بكل ما ذكر .
وإذا أحد منا خالف نص هذه الوثيقة ونكث بالوعود التي حوتها ،
فتعرض حجتنا على سعادة أفندينا الذي يكون حاكماً وقتئذ ليقصص من
المخالف . وقد قبل جمهورنا التآدييات والعقوبات التي تقضي بها الأحكام
الكنائسية بحسب ديانتنا . حرر في ٨ أيلول سنة ١٨٨٦ » .

وقد وقع هذه الوثيقة المشايخ الحازنيون والحبيشيون ، وبيت
الخوري صالح ، وبيت الظاهر ، وبيت الدحداح ، ومشايخ العاقوره ،
ومشايخ جبة بشري وغيرهم من أعيان الملة^(١) .

وأخذ نجم البطركية في الصعود حين قلمت أظفار الاعيان . أما
نفوذ البطركية الطاغية فكان في ضحى ولاية الامير بشير ، أي في عز

(١) الجامع المفصل للدبس ، ص ٤٩٦ .

دولته ، لما ارتقى إلى الكرسي البطريركي بطرك من الاقطاعيين هو يوسف حبيش ، فحكم لبنان دينياً كما حكمه البشير مدنياً .

كانا يتساندان ويتعاضان في الشدائد ، فمن عصى صاحب الغبطة أدبه أبو سعدي ، وأدبُ أبي سعدي مخوف .

كان هذا البطريرك جازماً جريئاً ، يتعقب كل من خالفه ولا يسكت عن العاصي ، بل يطرحه بلا شفقة في جب الأسد (الأمير بشير) .

قد يقول واحد : وماتمني كل هذه القصص والأخبار المحلية ؟ فنجيبه ان لها علاقة وثيقة بالشدياق ، فاصبر علينا واسمع او اقرأ الفصل الذي تحب ولا تتعنت .

قال مؤلف المقاطعة الكسروانية في أخبار سنة ١٨٢٥ :

إنه كان من برهة قد حضر إلى بيروت مرملون بيبليشيون أي انجيليون (البروتستان) قصد الانذار في لبنان في شيعتهم ومعتقدهم الفاسد ، فتصدى البطريرك يوسف حبيش لمقاومتهم بأشد غيرة ، وأبرز ضدهم منشورين بها ينبه ويحرص ويحتم على أبناء طائفته ليكونوا محترمين من غشهم وخداعهم . ففي المنشور الأول يحتم الحتم الجازم بكلمة الرب العزيز سلطانها على الجميع بأن لا أحد يقتني كتبهم أو يبيعها أو يشتريها أو يهبها أو يطالع بها أو يقرأ ، ولا بآية علة وسبب كان . ثم يمنع الاشتراك معهم بالصلاة والتعلم في مدارسهم أو مطالعة مؤلفاتهم وان الذي يخالف ذلك جميعه يجساره ، أو يمنع نفوذ هذا المنشور ، فإن كان اكيريكياً فليكن ممنوعاً بذات الفعل من التصرف بدرجةه ، وان كان علمانياً فليكن ساقطاً تحت طائلة « الحرم » المحفوظ حله للسلطان البطريركي .

وفي المنشور الثاني يحتم على جميع أبناء الطائفة ان يتجنبوا البروتستان

التجنب التام في التصرفات والمعاطاة كافة ، سواء كانت بأمور الديانة ومتعلقاتها او بأمور عالمية ، اي انه لا يصير مع هؤلاء الأشخاص لا يبيع ولا شراء ولا قرض ولا استقراض ، ولا تعلم في مدارسهم حتى المفتوحة منها لتعلم القراءة البسيطة ، ولا أحد يعلم بها اي علم كان ، وبأي لغة كانت ويتنع « الاستخدام » عندهم - لا تنسَ كلمة استخدام ! - والتردد عليهم . ومن تجاسر وخالف هذا الحتم « يربط » ان كان اكليركياً ، وان كانت علمانياً يسقط في « الحرم الكبير » .^(١)

الحرم الكبير ، وما أدراك ما الحرم الكبير ! يحرم على الابن مخالطة أبيه والمرأة زوجها وهلم جرا .

وقام مطران في عهد هذا البطريك (المطران بطرس كرم رئيس أساقفة بيروت) ، فألف كتاباً فنّد فيه مزاعم البروتستان . فنهض لمجادلته والردّ عليه شاب كان كاتباً في ديوان ذلك المطران . هذا الشاب من بيت الشدياق ، وهو أسعد الشدياق أخو أحمد فارس وأحب اخوته اليه ، فاستدعاه البطريك الحبشي الى قنوبين وظلّ هناك حتى قضى ، (ستقرأ بعض التفصيل لهذا الحدث الخطير في ترجمة الشدياق) فقامت قيامة أخيه فارس (أحمد) وفرّ من لبنان ، ثم أوحى اليه هذه الفاجعة كتابة الفارياق ، وخواطر منشورة في جميع ما كتب .

قد نستغرب نحن اليوم ما فعله الحبشي في سبيل مقاومة البروتستان،

(١) المقاطعة الكسروانية ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

في ذلك الزمان ، ولكننا إذا رجعنا الى وراء نحو ثلاثمائة سنة ، رأينا البطريرك يوسف حليب العاقوري ، الذي تقدم ذكره ، يفعل أعظم من هذا :

في الخامس من كانون الاول سنة ١٦٤٤ عقد هذا البطريرك مجعاً عرف باسم مجمع حراش (نسبة الى دير حراش في كسروان) ، ورشق بالحرم الكنائسي الكهنة الأجانب من لاتين وشرقيين الذين يقدمون على سماع اعترافات الموارنة ومناولتهم القربان المقدس من غير تفويض البطريرك ، وحرّم أيضاً الموارنة الذين يقبلون هذين السرّين (الاعتراف والمناولة) من أيدي هؤلاء الكهنة .

ورفعت رومة صوتها محتجة على البطريرك ، وأرسل مجمع انتشار الايمان رسالة أمر فيها أن ينذر بطريرك الموارنة انه ما كان له ولا عليه ان يتعدى حق الكرسي الرسولي ، ويرشق بالحرم الموارنة عند أخذهم الاسرار من مرسلي ذلك الكرسي^(١) . والتقليد يروي لنا ان الموارنة لم يناهضوا البروتستان فقط ، بل قابلوا قبلهم الآباء اليسوعيين بمثل هذا الكره والمقاطعة ، وحالوا دون إقامتهم في بلاد جييل - أبرشية البطريرك .

فلا بدع إذا فيما فعله الحبيشي ، وهذا شرّ نتج عنه خير هو الفاريق

(١) مجلة المشرق ، السنة ٢٩ ، ص ٨٣٨ - ٨٣٩ .

الذي هو أول أثر أدبي لبناني يحلّ بحق محلاً رفيعاً بين كتب الأدب العالمية.
أما الحبيشي فظلّ كما كان حاكماً في طائفته دينياً، يسأله الأمير العون
في الأزم . وقد تخلص هذا البطر ك الجبار من الاقطاعية العلمانية ، فصار
هو دكتاتوراً دينياً ، إذا صحّ التعبير .

وبعد الحبيشي آلت البطر كية الى إقطاعي آخر هو البطر ك يوسف
الخازن ، فلم يحدث حادث جلل في عهده ، بخلاف الذي خلفه البطر ك
مسعد ، ابن عمه الشدياق وكاتب سر الحبيشي ونجيه الملازم له . فهذا
البطر ك قد تخلص من جميع حقوق العلمانيين وأبى أن يلبسه الجبة شيخ
من بني الخازن كما جرت العادة .

وعلى عهد هذا البطريرك كانت ثورة أهالي كسروان على الاقطاع
والتخلص منه . ثم تلت ذلك حوادث سنة الستين الدامية ، ثم نظام لبنان
الطائفي ، فعظم شأن رؤساء الطوائف في لبنان واشتدّ أنين كتّابه
الاحرار وفي طبيعتهم الشدياق .

لاسلطة إلامن الله ، هذا هو شعار رؤساء الدين . به يستقبلون كل
حكومة . وعلى الحكومة ان تدعم سلطانهم ، وتستجيب طلباتهم . وقد
يتعكر جو المحبة بين السلطتين ، فيؤدي ذلك الى اضطراب وقتي يزول
بزوال صاحب الكرسي .

إن الطائفية صنارة تلقى في بحر سياسة لبنان فتصطاد الحيتان
والدلافين . يحق لنا ان نسميها «مرض العصر» في القرن التاسع عشر

وما يليه . فعاش شعب لبنان يشكو استبداد السلطتين معا . يخفض
صوته حين يشتد الغرام بين رجال الدين والدنيا ، ويعلو إذا تنافر
العاشقان ... ولهذا ترى أحرار أدباء لبنان يضجون بهذه الشكوى ، ولا
ترى من هذا إلا شيئا يكاد لا يلمس عند أدباء الأقطار العربية الأخرى .

الصورة الأدبية

جاءت نوبة صورة العصر الأدبية . ولست أشك انك متوقد الذهن قد أدركت ، الآن ، لماذا نقلت لك تلك النتف من مراسيم المير يوسف ، ورسائل البطريرك يوسف اسطفان ، والشيخ سعد الخوري وغيرها . ما فعلت ذلك إلا لأحيطك علماً ببلاغة الكتابة وفصاحتها ، قبل الشدياق ...

إن لغة الدواوين في هذا العصر كانت من ذاك الطراز، وظلت كذلك حتى عهد التصرفية . اني أذكر ، كما يذكر غيري ممن وقعوا على قصاصة من ذاك الانشاء « الديواني » ، تلك العبارة التي كان يكتبها المحقق العدلي، وما المحقق العدلي إلا أحد أفراد الجند المعروف عندهم « بالضابطي » : الضارب فرّ هارباً ولم عاد صار اجراء إلقاء القبض عليه .

لست أزعم ان مراسيم المير يوسف ورسالة البطريرك ومكتوب سعد صورة كاملة عن إنشاء العصر . فقد رجعت إلى كتب عندي ، كتب بعضها أو طبع بالخط الكرشوني ، المعروف أيضاً بالماروني ، وهو أول

خط استعمله اللبناني حين استعرب ، واستبدل بالعربية لغته السريانية .
رجعت الى هذه الكتب ، وأصغرها سناً قد بلغ من العمر عتياً ، فعمره
يزيد على مئتي سنة . وهو مطبوع بالحرف العربي ، وقد تكون ولده
أمه (المطبعة) على رأس أخيه الكرشوني . ولكي ندقق ، ولو مرة في
العمر ، في مثل هذا الموضوع تقول لك : انه أصغر من أخيه الكرشوني
بثلاث سنوات . فبطاقة هويته التي أكلتها السنون تنبئنا انه من مواليد
عام ١٧٤٠ .

إن إنشاء هذين الكتابين جاحظي ، إذا قسناه بمراسم المير يوسف
وسميّه البطرك . وإليك فقرة من الكتاب العربي ، وعنوانه : (كتاب
الإرشاد لمنفعة سائر الملل والعباد) :

« وقد امتخرج من اللغة الطليانية إلى هذه اللغة العربية ، فالمرجو من كل
مَن يطالعه أو يسمعه أن يدعو لمؤلفه ومترجمه ومعرّبه ، ولكل من له تعب به ،
بالرحمة والغفران ، يوم العرض على السيد المسيح الديان . ثم أن يسحب ذيل العذر
على ما نقص من إعرابه في إتمامه ، لأنه (أي المعرّب) ليس من خياله هذا
الميدان ولا له بحلّ هكذا قطعة يدان ، فلا تنسوه من صلواتكم . »

وهذه فقرة ثانية من كلمة عنوانها « تنبيه » :

« اعلم اننا قبل أن نشرع عما قاصدينه في هذا الكتاب يجب أن نخبر المطالعين
والسامعين ، بأننا ، ولو أطلنا الشرح بإسهاب كلي لكي يفهم جيداً مبدأ الشريعة
وحسن نظامها ... بما أنه واجب أن ترتشد به جميع الشعوب . فع ذلك نقول
أنه ليس بضروري لهم علم كلما تشرحه لكالم الزام الشريعة ولنيل المجد الأبدي
بل يكفي لكل منهم أن يعرف على مقدار زكوة عقله . »

أما الكتاب الكرشوني المجاز طبعه من رومية عام ١٧٣٧ فيقول
معربه ، وهو مجهول مني كصاحب الكتاب الأول :

« مثل هذا الكتاب الجليل المقدار ، والمفيد الاذكار ، ترجموه إلى كافة اللغات
لأجل إفادته الروحية لأنه كتاب منكتب مستطاب ، ومرشد إلى الخير
والصواب (انتبه إلى السجع) . وقد انطبع الآن هذا الكتاب المفيد بالخطوط
السريانية (أي الحرف الكرشوني) ليلازموا قراءته وينتفعوا من تأملاته الجاهلون
القراءة العربية ، فيقتدرون بذلك بآثار السيد المسيح » .

واليك أيضاً كلمة أخرى من لغة الكتاب المسمى عند الموارنة العتاق
«البيركسيس» أي أعمال الرسل . وهو أعتى عمراً من الكتابين السابقين .
وقد طبع باللغتين السريانية والعربية . أما العربية فبالحرف الكرشوني
او الماروني :

« فلما نظروا الكهنة لكثرة الجموع امتلوا حسداً ، وجعلوا يناصرون ما
يقال في بولص (القديس بولس) ويحدثون ، فقال لهم بولص وبرنابة علانية :
لكم ينبغي أولاً أن تقال كلمة ، ولكن من أجل أنكم تدفعوها عنكم وجزمتم على
نفوسكم لا تستاهلون حياة الأبد ، فهوذا نرجع إلى الأمم . لأن هكذا أوصانا
الرب كما هو مكتوب : إني وضعتك نوراً للشعوب لتكون الحياة إلى أقصى
الأرض » .

وعلى ذكر الحرف «الكرشوني» فليسمح لي أصحاب مذهب البحث
العلمي الذين يريدون ان يجعلوا أنفسهم كحصان العرب ، ويسيروا الدرب
الدرب - ليسمح لنا هؤلاء الذين تعجبهم الطرق المعبدة ان تفكك ايها
القارئ العزيز ، فقد سئنا التاريخ وكلوحة وجهه ، وطرق هذه
الأبحاث وجفافها .

ان للكرشوني مآثر غراء في تلطيف جو « الطقوس الكنسية »
الطويلة النفس. فهو يقطع تلك الصلوات التي قد تتجاوز الساعات بتكته
تجدد نشاط المؤمن بعد سام وضجر. وهذه المُلح الكرشونية أنواع :
منها ما هو حارٌ لاذعٌ كاوٍ ، وهذا نعيك من ذكره لأنه حامض حريف
لا يكوي فقط بل يحرق الاذن واللسان والشفاة ، ولا يليق بنا ان نذكره
خطأ . ولأجل هذه النوادر الحريفة يقول العوام عندنا للحديث الذي
يستحي به : كرشوني . ثم اشتقوا من هذه الكلمة فعلا فقالوا : كرشن
وُيكرشنُ كرشنة ...

ومشايخنا الخوازنة أشهر الناس في الكرشنة الحريفة اللاذعة ...
وشدياقنا العزيز أستاذ أكبر في هذا ...

أما النوع الثاني فظريف طريف، وهو ما أطرفك ببعض ملح منه،
فاسمع ايها العزيز شيئاً من هذا ، وافقاً حصرمة في عين « البحث العلمي » .
وقبل ان ندخل في جو هذا البحث أرى لزاماً عليّ ان أعرفك ببعض
الحروف الكرشونية ، وإلا كنا كمن يغني في الطاحون ، كما يقول مثلنا
اللبناني . اعلم ، يا سيدي ، وافهم ولا تنس : ان التاء والتاء تكتبان
بصورة واحدة ، وكذلك الكاف والخاء ، والذال والذال ، والصاد والصاد
والطاء والطاء ، والغين والعين . فعلى القارئ ان يكون نبياً حذراً لئلا
يعثر ويضحك المصلين . وهذا ما حدث حين كان يقرأ أحد الشامسة
البهليل فصلا من « البركسيس » الذي عرفتك به منذ هنيهة ، قال
الشماس اللبيب :

-- إني وضعتك نوراً للشعوب لتكون الحياة إلى أقصى الأرض .
فضحك الخوري وقال : نور وأرض؟ هذا كثير يا شماس . خذ عنه يا متى .
وشرع متى يقرأ فمشى ولم يعثر في هذا الفصل ، ولكن حمار فصاحته كبا
حين تلا فصلاً من رسائل القديس بولس ، فبدلاً من أن يقرأ :

ان الله لا يحب خبث النية ، قرأ هكذا :

-- ان الله لا يحب كبة النية .

فضحك المصلون وقال الخوري : مؤكداً يا ابني ، الله ما هو من ضيقتنا .

وعلى أثر حادثة جرت لمتى في قرية لبنانية اسمها أسيتا، وقف صباح
الأحد يقرأ فصلاً من الرسائل وقال :

يا اخوتي ، تخبركم عما جرى لنا في أسيتا .

فأجابه أحدهم : لا تعذب نفسك . عرفنا ، قتلوك حتى شبعت ...

فتعالى الضحك وقال الخوري بغضب : أسيتا ، يا متى .

وعثر واحد بهذه الكلمة : بكبدي مرّة يُعقد الاثم ، فقرأها هكذا :
بكبد مرّه (أي امرأة) يعقد الاثم . وأدرك الشماس خطأه فقال : كل البلا
من النسوان !

فصاح الخوري : كل البلا من حمرنتك والكرشوني .

وفي الكتب القديمة جداً كانت تكتب الضاد بصورة الطيط (الطاء) يضعون
في وسطها نقطة لتلفظ ضاداً ، فقرأ شماس شحيح البصر : ثم أهلك سبع أمم
في ارط كنعان ، وورثهم ارطهم .

فصاح الخوري الشاب :

-- يا مصيبي ما أكبرك ا ارض ، يا جدي ، ارض .

ومضى الشماس في قراءته ، لأن سمعه غير حديد، حتى بلغ قوله : فأعطاهم

الله لشاول بن قيس اربعين سنة . ثم بلغ هذه الكلمة ، فأخذ يردد : قب قب ...
وأخيراً خاطر وأتمّ الكلمة قائلاً : قبته (أي قبضه) .
فلم يكتم الكاهن ضحكته وقال :
- مؤكّد ، شاول قبط وهشل ...

وأخيراً اسمع نكتة الوداع ، وأظن انها تعجبك كما اعجبتني .
قرأ أحد الشماسة فصلاً من رسائل القديس بولس حيث يقول : ماذا نقول ،
هل عند الله ظلم ؟ حاشا .
فلفظ هكذا : هل عند الله ظلم ؟
فانتفض كاهن عتيق وصاح :
- لا ، يا ابني ، الله عنده خبز مرقوق .
ثم تمّ : الظاهر انك جئتنا على الريق ...

أظنك أدركت سبب هذا الخطأ ، وهو ان حروف ثخذ ضظغ غير
موجودة في الأبجدية السريانية . فعلى القارىء ان يكون فطناً ، وإلا عثر .
فما عرضت عليك من نماذج تعلم ان اللسان العربي نما في لبنات نمواً
تدرجياً . فمن ترجمة كتب طقسية ولاهوت وصلوات ، الى أزجال ابن
القلاعي اللحفدي ، الى زجل القس حنا المنير وشعره ، الى شعر الياس
اده ، فنقولاً الترك ، الى الشدياق فاليازجي ، فشعر عصرنا الحاضر النبي
استولى ناظموه على أمد البلاغة ، وبلغوا من الفن ذروة رفيعة .

وكذلك النثر فانه مشى على درب الشعر وحذا حذوه . كان النثر
قبل الشدياق ركيكاً ، ثم نما فيه معاصروه نحو القدماء ، حتى كان الشدياق ،
ففكك الأغلال وحمل لواء التجديد .

فالبنايون الذين بدلوا بالعربية سريانيتهم ، منذ خمسة قرون ، قد
ترقوا في سلم الانشاء درجة درجة ، حتى بلغوا ما بلغوه في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر وما فوق .

كانوا في القرن الخامس عشر يدوتون حوادث « مجامعهم الطائفية »
باللغة العربية التي قويت ملكتها فيهم مع الزمان . وأول هؤلاء الأسقف
ابن القلاعي الذي قال عنه الدبس في تاريخ سوريا : نظم قصائد كثيرة ،
وان كانت منحطة لغةً ، فهي كثيرة الفائدة^(١) .

ولكي تقدر جهاد اللبنانيين حق قدره في سبيل تقويم لسانهم العربي ،
أحب ، قبل ان انسحب من هذا المجال ، أن أدون لك بيتاً واحداً فقط
من زجل المطران جبرائيل (ابن القلاعي اللحفدي) الشاعر اللبناني
الأول ، لتقارن بين الماضي السحيق والحاضر الذي يحق الاعتداد به . قال
الشاعر من قصيدة تاريخية :

والذين كانوا على « المدفون » أخذوا سلاح الذين هربون
وفي الليل دخلون البترون وجدوا الناس في اطمئنان

وقبل أن نبلغ الحقبة الذهبية (بالنسبة لزمانهم) التي ظهر فيها المطران
جرمانوس فرحات والخوري نيقولاوس الصائغ ، عرف العربية نقر غير
قليل كالحاقلاني والصهيوني والتولاوي ويوسف الباني ، معلم اللغتين
العربية والسريانية في مدرسة مجمع الايمان المقدس برومة ، ومعاون مرهج

(١) الجامع المفصل للديس ، ص ٣١١ .

الباني في رومية على تنقيح الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد التي طبعت باللغتين السريانية والعربية (العربية بالكرشوني) .

هذا في رومية ، أما في باريس فقد وضع الصهيوني نحو اللغة العربية وطبعه سنة ١٦١٢ .

أما أساتذة اللغة العربية ، فطاحل ذلك الزمان ، فهم اثنان : القس يوسف الباني ، وجبرائيل فرحات اللذان صححا كتباً عديدة وتقحاها . جرى في لبنان تياران أدبيان . فعذق العربية واتقان نحوها وصرفها ، وتجنب اللحن والخطأ جاءنا من حلب .

من حلب عاد الينا المطران جرمانوس فرحات ، وقد أخذ العربية عن أحد مشايخ العلم فيها (الشيخ سليمان النحوي) . وعن هذا أيضاً أخذ الخوري نيقولاوس الصانع ، والشماس عبدالله زاخر .

عاد فرحات إلى لبنان وطن آباه وجدوده ، فكان زاوية ، بل طليعة الجيش العرمرم الذي زحف فيما بعد من لبنان فعلاً المسكونة فصاحة عربية ، وأذاع لغة القرآن الشريف في العالمين القديم والجديد .

وكما أخذ اللبنانيون اللغة العربية عن حلب فقد أعطوها . فبينما كان الشيخ سليمان المسلم يعلم العربية وعلومها ، كان الأب يوسف التولاوي اللبناني الماروني يدرّس رواد الأدب العربي في الشبهاء الطليانية واللاتينية والفلسفة واللاهوت .

وسم فرحات الراهب أسقفاً على حلب فعاد من لبنان اليها . وهناك أنشأ أول دائرة علمية (بعد رجعه من الغرب وزيارة الأندلس) ، فكان من أشهر أعضائها التولاوي والباني . كان أعضاؤها يؤلفون ويترجمون ، والمطران فرحات يصصح عباراتهم . وهكذا كان « التطعيم » الذي جنت براعمه فيما بعد ونما نمواً عجبياً وقطفنا ثماره اليوم .

لم يقف فرحات عند هذا الحد ، بل ألف في النحو ناحياً نحو المؤلفين المسلمين
أي مازجاً النحو بالدين ، معارضاً ابن مالك وغيره ، آخذاً أمثلة النحو من
الانجيل . قد ضل من زعم أن فرحات أول نصراني كتب في علم النحو . فقد
طبع في رومية بالعربية سنة ١٦٢٢ كتاب مبادئ العربية لمنصور شلاق
الماقوري ، ولغيره من الأعلام عن تقدم ذكرهم .

الشرق والغرب

ليس لدينا أثر يدلنا على تأثير الفرنج في عقلية اللبنانيين منذ الحرب الصليبية، ولكنه واضح جلي ان اللبنانيين كانوا منذ قرون عديدة يعلمون الغرب لغات الشرق ويتعلمون لغاته. علوه السريانية والعربية والعبرانية وتعلموا من لغاته اللاتينية والطيانية واليونانية والفرنسية وغيرها .

فجبرائيل الصمبوني ترجم إلى الطليانية سنة ١٦١٩ كتاب « نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والآفاق » للشريف الأدرسي .

وسنة ١٦١٤ وقف على طبع مزامير داود بالعربية في رومية ، يعاونه في ذلك منصور شلاق العاقوري .

وسنة ١٦٢٧ ترجم يوحنا الحصري كتاب بلترمنيوس .

وسنة ١٦٤١ نشر الحاقلاني كتاب: « مقاصد الحكم كانت لفلاسفة العرب » .

وسنة ١٥٣٠ طبع القرآن الكريم في البندقية .

وأولى مطابع الشرق كانت لبنانية ، وهي مطبعة دير قزحيا . وفيها طبع زبور داود بالسريانية والعربية (الكرشوني) سنة ١٥٨٥ ، ترجمه جرجس مطران نيقوسيه ، وطبعه البطرك سركيس الرزي .

وفي سنة ١٧٣٧ نبغ السمعاني الشهير الذي أطلق عليه البابا « معلم البلاط الرسولي » ، و « نجيحنا الملازم لنا » .

عمل هذا العلامة العظيم في سبيل الشرق خاصة ، فخدم الغرب والشرق أجل خدمة يحميه المخطوطات من يوفانية وسريانية وعربية . وهكذا ضرب اللبنانيون في مناكب أرض الله يخدمون لغتهم الجديدة أجل الخدم .

مشرقوا الغرب ، ونقلوا اليه من نفائس لغتهم الجديدة كل نافع مفيد . ورجعوا اليها من اللغات الغربية التي أتقنوها كأهلها فطبعوا على التجديد ، ثم كانت لهم اليد الطولى في تطور الأدب .

أما الفضل الأكبر في « تعريب » لبنان فيعود الى المطران جرمانوس فرحات الذي قدم العربية على السريانية في الهيكل ، وأجلسها عن يمين المذبح . وهكذا غابت شمس السريانية عن لبنان .

ان مدارس الموارنة في الغرب ، وخصوصاً مدرستهم في رومية ، كانت الدافع الأقوى الى ما أحدثوا من تطور . وكانت مدارسهم في الغرب لم تنقح غلتهم ، وكانهم أبو إلا الاستقلال ، فأسسوا المدارس في لبنان . فهذا الأب بطرس مبارك الفوسطاوي الذي تلقى علومه في مدرسة رومية حتى حذق سبع لغات : العربية ، والسريانية ، واللاتينية ، والعبرانية ، واليونانية ، والايطالية ، والفرنسية ، ينشئ اول مدرسة في لبنان .

أنشأ مدرسة عينطورة ، واشترى لها عقاراً يكفي ريعه اثني عشر تليداً . ثم وكل تدبير شؤونها الى الآباء اليسوعيين سنة ١٦٥٢ ، مطلقاً على ذلك بعض شروط خوفاً من أن يلم بالطائفة شيء من الضرر في المستقبل... ثم انتقلت هذه المدرسة سنة ١٧٧٦ الى الآباء اللعازاريين حين ألغى البابا رهبانية الآباء اليسوعيين .

وفي عام ١٨٣٤ جعلها الآباء اللعازاريون مدرسة عامة ، فكان لها يد طولى في الاشعاع الفكري وتطعيم الآداب العربية .

ثم كانت مدرسة عين ورقية التي أنشأها البطريرك يوسف اسطفان الآنف الذكر ، وكان من تلامذتها الشدياق الذي نكتب عنه هذا الكتاب ، وقد سميتها بحق سوريون الشرق لأنها ، في زمانها ، كانت أشبه بجامعة اليوم ، بل تريد عليها في تعليمها لغات أجنبية عديدة . فقد أنشئت هذه المدرسة قبل الثورة الفرنسية التي بعدها مؤرخو الأدب العربي فجر النهضة الحديثة . وهذا يدل على أن اللبنانيين تمغروا قبل أن يتمشرق بونابرت ، وجددوا في لغتهم قبل قدومه منتضياً السيف بيد ، وحاملاً بالآخرى مطبعته الصغيرة .

قد تقول : ما له لا يذكر لنا إلا أساقفة وبطاركة وكهنة ؟

وأنا أقول لك : لا تتعجب . الشعب كان أمياً والعالم كان ، في ذلك الزمان ، إما كاهناً ، وإما شيخاً - شيخ دين والبطريرك الماروني وارث زعامة مرده لبنان قد ضعف شأنه السياسي ، فانصرف هو واكليروسه الى العمل في حقل العلم والتربية والتهديب .

أما المدارس التي جاءت بعد المدارس المذكورة والمطابع العربية التي ملأت المسكونة ، وكذلك الصحف التي أنشئت في جميع العواصم ، فكلها حدثت في هذه الحقبة التي نورخها ، وقد ذكرتها الكتب التي تعلم تاريخ الآداب العربية في المدارس فارجع اليها .

أما الآن فاسمح لنا أن نحدثك قليلاً عن بلاط المير بشير . ان هذا البلاط صغير السن ، بالنسبة الى هؤلاء الذين ذكرناهم لك ، ولكن له يداً بيضاء على لسان العرب .

بلاط المير بشير

أمير وارث جميع أمجاد الامارة اللبنانية . فها هو يجر مياه نبع
المغارة الى سراي الشهابيين في غزير حيث ولد «سعادته» ، وقد صار
سرايهم هذا مدرسة بعد انقراض دولتهم .

أقنى هذا الأمير ، خلال سني حكمه ، جميع أعدائه ومناوئيه حتى دانت
البلاد لسراي بتدين زهاء ربع قرن . فبتدين صفقة خالدة في تاريخ الامارة
اللبنانية . كان لسيد بتدين بلاط يؤمه كل رب قلم . فهذا الياس اده كاتب الجزائر ،
وقد فر من عنده خوفاً على رأسه منه ، وطمح الى دخول قصر بتدين ، فتعذر
عليه ذلك اولاً ، فظل يمدح الأمير ويستعطفه حتى استرضاه وأخذه في خدمته :
وبلغ الأمير بشير موت الجزائر ، وهو في يوم صيد ، وبمعيته الياس اده ،
فأوعز اليه ان يقول أبياتاً في موته ، فقال قصيدة مطلعها :

وافى السرور وصح ترجيح الأمل يهلك علج لا يعادله مثل
وختامها :

الله درك يا منون لقد بدت منك الحياة وطاب حلك واعتدل
فناز الأنام وأرّخوه بمقصد هلك الشقي والى جهنم قد رحل

ومن ظريف قول هذا الشاعر بيتان يدلان على خفة روحه .
مات صديق له اسمه ابراهيم ، وكان لابراهيم أخ اسمه يحيى يكرهه الياس
اده ، فقال :

مات ابراهيم خلتي آه وأسفي عليه
ليتة قد كان يحيى رحمة الله عليه

وإذا ذكرنا تطور الأدب العربي في لبنان ، وجب علينا أن نشي على الأمير
بشير الذي فتح باب قصره الرحب للشعراء والأدباء من كهنة وعلمايين . فهذا
الخورى ارمانوس الفاخوري شاعره وقاضيه يقول فيه حين نفي :

نوراً توارى كيف لا وبه نأى ذاك الشهاب
قرمٌ بشيرٌ جهيدٌ والمجد منه في قباب
ليث جصور ضيفم طامي الندى رحب الرحاب
أنجاله وبدون كالبجر العباب
كالشمس أضحى بينهم وهم البذور بنو الشهاب

والقس حنانيا المنير صاحب قصيدة البرغوث هو شاعر أيضاً من هذا الطراز
اللبناني ، وقد طاب خاطره مع من طابت خواطرهم بموت الجزار ، فقال فيه
شعراً رائعاً .

ان شعراء المير بشير كثيرون . أما المختصون بالجناب فهما الترك وكرامه ،
ثم اليازجي .

ومع اليازجي والشدياق والبستاني صح لسان العرب ، ومشى الشعر والنثر
في لبنان شوطاً لا بأس به .

أما أخف هؤلاء الشعراء دماً فصاحبنا الترك .

كان ينظم وينثر ويسر الأمير في الصناعتين .

كان الأمير يقترح ، والترك يلبي ويرضي .

واليك شيئاً مما أرتجز بناء على اقتراح سعادة المير واصفاً الطاعون :

ان حلّ طاعونٌ بأرض فارحل او فاحتجب من خلف باب مقفل
الى ان يقول في نصائح طبية :

وجلّ ما يؤذيك يا انسان
والخلّ أكثر منه فهو الركن
وبيّض النحاس قبل القفل
واحذر دخول الزهر بالاجمال
واحذر من الفيران واخش الهرا
الصوف ثم للقطن والكتان
والسمّ منه في الوباء لا يدنو
كي لا يصيبه الصدا بالخلّ
فالزهر في العدوى من الوبال
لا تقبلنه ان أتى من « برا »

ولهذا الشاعر طرف شعرية ونكت ظريفة كان ينتزع بها الفرائس من بين
مخالب « الأسد » فياً كلها على الهينة .

وله مناظرة بين الزيت واللحم قد يكون اقتراحها عليه المير . وله قصيدة
فكاهية أذكر منها هذين البيتين :

عجب عجب عجب عجب عجب
تصطاد الفار من الأوكار
قطط سود ولها ذنب
تطيح الحيط فتنقلب

أما كرامه شاعر المير فهو أرصن عبارة من نقولا، وان كان يعالج ما يقترحه
سعادة المير ، أو يحاول أن يقول في أغراض تنفرج شفتا المير عند سماعها . وقد
خصصنا شعراء « سعادته » بدروس خاصة ستحتل ، إن شاء الله ، كتاباً خاصاً
عنوانه : « رواد النهضة الأدبية » (١) .

(١) كتب هذا الكتاب قبل ظهور كتاب « رواد النهضة الحديثة » .

العبارة اللبنانية

يشمئز اخواننا ، أبناء الأقاليم العربية الأخرى ، حين يقرأون كلمة « الأدب اللبناني » ، وترقص آذانهم غيظاً حين يسمعونها ، ويأبى الغلاة والرافضة منا – وفي الأدب كما في البدع والشيع غلاة ورافضة – إلا التمسك بزعمهم ذلك .
والفريقان توأمان . والتوأمان من الجبال لا يلتقيان ، وكلاهما جبلان دونها
يدبل وصنين .

أما أنا فهذا رأيي : لي بيت في عين كفاع معروف الحدود .
ولعين كفاع تخوم وحدود من الجهات الأربع . وهذا ما يسمونه في لبنان
« خراج الضيعة » .

وعين كفاع إحدى قرى بلاد جبيل .
وبلاد جبيل إحدى مقاطعات كسروان الثلاث : جبيل ، الفتوح ، كسروان .
وكسروان منطقة من مناطق لبنان . وهذه المناطق كلها ذات حدود
وتخوم معروفة . وهي تؤلف مجتمعة ما نسميه لبنان .
ولبنان مثل غيره من أقطار العالم واضح المعالم . فكما أن بيتي في عين كفاع ،
وان استقلت حدوده ، لا يقال انه ليس من عين كفاع ، كذلك لا يخرج لبنان
من نطاق البلاد العربية .

وكما أن لبيبي لونا خاصاً به يميزه من غيره من البيوت ، كذلك للعبارة اللبنانية لون خاص ومزايا واضحة تمتاز بها من اخواتها .

ولكن هذا كله لا يعني أن ما يسميه فريق منا أدباً لبنانياً هو أدب مستقل استقلالاً تاجزاً عن الأدب العربي .

امشي معي ، اقرأ ، يا عزيزي ، ولا تخف . لا تتجهم فأنت بالغ محبة واضحة . فالقصة قصة لون محلي ، بل قصة عناصر تفاعلت في العقلية اللبنانية فكان منها هذا اللون . فإذا أراد اللبناني الحديث أن يتنازل عن تراث جدوده وآبائه في الأدب العربي ، فماذا يبقى له ؟ فالأدب الفينيقي وهمّ وخيال كآخيه الفرعوني ، والسريانية أجهزنا عليها كما تقدم . فماذا يبقى لنا ، اذن ، لكي نقول : سيفنا والقلم ؟ ...

أبلائم اللبناني أن يتجاهل من تقدم ذكرهم ، ومن سندرهم ، ليدّعي أدباً مستقلاً ؟

إن اللسان العربي لسانه اليوم وبه بين ، وبه ألفت وصنتف ، وكتب ما بقي وسبق . فتعالوا ، يا أصحابي ، إلى كلمة سواء : الأدب أدب عربي ، وليس هناك أدب لبناني قائم برأسه ، ولكن للأديب اللبناني لونا خاصاً يمتاز به كما تمتاز تفاحة مطعمة من تفاحة لم تطعم ، أو كما يمتاز مهاجر عاد إلى الضيعة بعد ما غاب عنها سنين عديدة .

أما فرق القدماء بين الشعراء البادين والشعراء الحاضرين ؟

أما قال بشّار في إحدى قصائده : ولكنني بنيتها اعرابية ؟ ..

فلنهنّ علينا ، اذن ، فليست مشكلتنا مشكلة الرأسمالية والشيوعية .

لنعد إلى الأصل .

معروف أن هذه الرقعة كان لسانها الفينيقي ، فالسرياني ، ثم تغلبت عليها العربية ، كما تغلبت في الأندلس ، حتى طلب رئيس الأساقفة من البابا أن يأذن بترجمة الصلوات إلى اللغة العربية لأن الشعب أمسى لا يفهم غيرها .

أما في لبنان فكان غير ذلك . انهم لم يستأذنوا أحداً ، فترجموا أكثر صلواتهم وتراتيلهم إلى لغتهم الجديدة ، وساعدهم على الترجمة تقارب أسلوب اللغتين (العربية والسريانية) صرفاً ونحواً وتعبيراً ، وتشابه الألفاظ حروفاً وأوزاناً واشتقاقاً . وإن كنت مثل توما لا تؤمن ما لم تضع اصبعك ، فهاتها ... اليك قطعة صلاة مترجمة من السريانية إلى العربية ، أنقلها لك عن كتاب بالخط الكرثوني ، والترجمة من عهد الخوريين شهوان والبانى ، وتنقيح المطران جرمانوس فرحات فارس ميدان العروبة في لبنان :

« نطلب منك أيتها البتول ، أم الابن الوحيد ، والطور المقدس الذي أومضت فيه النار الالهية ، والعليقة المتنفسة التي ما انضرت من أجيج اللهب الذكية . البرج المشيد الذي قطنه رب المجد بقوته القوية . الحمامة الوديدة التي تشاهى بها النسر العتيق الأيام بأعجوبة ضدية . قبة العهد التي صورت بها أشباه العالم الجديد والأمثال النبوية . الجفنة المباركة التي حملت العنقود المبارك الذي قطرت منه الحلاوة المنقذة البرية . الفحامة النيرة التي فاضت على العالم وانتشل منها مطر الأفراح الروحية . الملح النقي الذي أصلح بطعمه الجبلة البشرية . المصباح المنير الذي ينير في الخليقة بالأشعة الضوئية . افتخار البيعة وشأن المسكونة الأرضية . جنة الأنوار المملوءة أشعة إلهية . الجبل المكتنز علواً ، والمظلة التي انحدر عليها مطمئناً سيد البرية . الهيكل المشيد بالحجارة الاسمنجونية . العقلية المنتظمة مداмикها من صفائح البلور النقية الخ ... » .

أرأيت التصور والأفكار والتعابير التي انطبعت في ذهن اللبناني ؟
وها انا اذا أتقل لك رسماً عن هذا الكتاب الخطي لتعرف القلم الأول
الذي كتب به اللبناني بلسانه الجديد .

خدمة الصلوة

ما الاطلاق الا هذا: « في الربيع » « في الربيع » « في الربيع »
معنى الصلوة صلباً. انما هو، انما هو، انما هو
« انما هو » « انما هو » « انما هو »
« انما هو » « انما هو » « انما هو »

أما لفظه العربي فهكذا :

عشية السبت

« يا اذكرك الأبرار والصدّيقين وماجداً المؤمنين ، يا يسوع المسيح سيدنا ،
أشرق نورك على آباءنا و اخوتنا وعظمائنا . وعلى جميع المسجونين في أطباق
الجمع المهزنة ، وسكنهم مسكن الحياة » .

فكم تقرأ اليوم مثل « يا اذكرك الأبرار » في شعر شعرائنا الجدد ؟

حسبك قول شاعر « قدموس » في قصيدته « فخر الدين » :

يا اندفاع الأمواج في لبحج البوسفور رفقا بذكريات الأمير

هذا هو العامل الشرقي الخطير التأثير في التعبير اللبناني .

وهناك عامل آخر لا يقل عنه خطراً ، ألا وهو اتصال اللبناني بالغرب
اتصالاً وثيقاً ، ثم بأميركا وغيرها ، فمرف لغات القوم معرفة جيدة أكسبت
عبارته قالباً خاصاً بها ، ففصلت من الألفاظ العربية أنماطاً جديدة على قلبه هذا.

قص ذلك النسيج على هندازه فكانت له عبارة بيتة الخطوط ، واضحة المعالم ، فاستحقت هذا الاهتمام وهذا البحث .

قاللبناني ، كما قلت في غير هذا المقام ، لا يمن الى ارواح نعمان وعنده نسيم جبلة الدائم : « ريح الشمالي يا نسيم بلادنا » ، ولا يتمثل بثقل رضوى وعنده صنين ، ولا يقول ذر قرن الغزالة وهو قلما يراها .

ان الذين عرفوا القرآن كما عرفوا التوراة والانجيل ، وعرفوا فرجيل ودانتي كما فهموا اغناطيوس ، وغريغوريوس ، وكيرلس ، وباسيليوس ، وافرام ، ويعقوب ، ويوحنا فم الذهب ، ودرسوا ثوما الاكوييني ، واغوستينوس ، كما قرأوا ابن رشد ، وابن سينا ، وحفظوا البحتري والمتني كما درسوا ابن العبري وكورني وهينغو وشكسبير وملتون ، وعرفوا هوميروس وفيثغوروس وارسطو وسقراط كما عرفوا الغزالي والفارابي والمعري ، لا بد لعباراتهم من أن تهجر الحبس الذي يريد بعض المتعنتين أن يقتلوها فيه صبراً .

ان الأمر لأهون مما نخال ، فليخفف الفريقان من غلوائهم . فالقضية قضية تفكير وتعبير لا قضية أدب ناجز ، فالكلمة عربية ، والعبارة عربية ، والأخلاق عربية ، والعادات اللبنانية عادات عربية .

قلت في كتابي « الرؤوس » أن أول ثورة في الأدب العربي أوقد نارها المستعربون فالموالي . وهذه ثورة ثلاثة أيقظها مستعربون لبنانيون . فللساننا العربي المبين أحرر التهاني . ليت الاوروبيين يستعربون جميعاً ليثري أدبنا ويتجدد ويكثر اخواننا في اللسان .

ان اللغة أقوى رابطة . وبرهاتنا على ذلك جهاد الامم الاوروبية وتناطحها حول حوض المتوسط ، وهمها الأول زرع بزور ثقافتها .

إن النهضة الحديثة ، في عرف بعض من يتحدثون عن الأدب ، هي أن يكون

هناك ناس قالوا شعراً جاهلي العبارة ، ونظموا كلاماً لا تنتفض له أذنا الأخفش ، ولا تهتز عظام ابن ثعلب .

لا ، يا أخي ، فالبلاد ما خلت قط من هؤلاء ، ولا من الذين كتبوا كلاماً لا خطأ فيه ، أو لا غبار عليه - كما يعبرون - ولكن النهضة التي نعنيها إنما تكون في الخلق والابداع ، في اتجاه جديد متصل بالقديم ولكنه غيره .

لم يكن للبناني حق التعلي بالحناجر ، حلية أمراء العرب ومشايخهم ، فشكّ الدواة في زناره . ولم يجد ميداناً يجلي فيه غير الكتاب ، فانكبّ عليه . فآذى لفته أجلّ الخدم . وهذا ما تحمد عليه السياسة . فهي التي نحتت للبناني عن حليتها ، فأوجد له حلية تجلي في ابداعها عقله .

لماذا انبرت العبارة اللبنانية على رسلها مطروفة لم تشدد ؟

أليس لأن اللبناني كالنحلة الهائلة ، وقد وقع على الثقافات كلها ؟

وهب اللبناني معدة لا تتقيأ شيئاً ، بل تهضم كل شيء حتى الحصى . وخاصة التمثيل في اللبناني غريبة عجيبة . ولذلك أعاد ما تمثله لبنانياً . فليعذره لاثمونه على تعبيره وتفكيره . انه لم يستظهر القرآن غيباً كأخيه العربي الآخر ، فكيف يستطيع أن يعبر تعبيراً بعينه كما يريد الآخرون ؟ ومع ذلك فأنا قرأت القرآن مثنى وثلاث ورباع ، ومن الجلد إلى الجلد ، فوقعت فيه على مئات العبارات التي تدور على لسان اللبناني اليوم .

لا أريد أن أبرح مكاني قبل أن أنقل اليك بعض آيات كريمة أريد بها ما زعمت لك ، فهالك :

وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . واركعوا مع الراكعين . فلولا فضل الله عليكم . وقفينا من بعده بالرسل . هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . ووصى بها ابرهيم بنيه . لا تفرق بين أحد منهم . ما يأكلون في بطونهم إلا النار . وآتى المال على حبه . وأتوا البيوت من أبوابها .

ادخلوا في السلم . ولكن أكثر الناس لا يشكرون . إلا من اغترف غرفة بيده .
ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا .

سورة البقرة

القناطر المقتطرة من الذهب . ويقتلون البنين بغير حق . آمنوا وجه النهار
وكفروا آخره . قل موتوا بغيظكم . ويأتوكم من فورهم . ويمحق الكافرين .
ذوقوا عذاب الحريق .

سورة عمران

يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم . ومن أصدق من الله . وقع أجره على الله .
ألم تكن أرض الله واسعة . وكان الله واسعاً حكيماً . فلا تقعدوا معهم حتى
يخوضوا في حديث غيره انكم إذا مثلهم .

لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . سألو موسى أكبر من ذلك . واكلهم أموال
الناس . لئلا يكون للناس على الله حجة . لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله .

سورة النساء

فلن يضروك شيئاً . ومن أحسن من الله حكماً . يريد الشيطان أن يوقع
بينكم العداوة .

سورة المائدة

وما قدروا الله حق قدره . انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة .

سورة الأنعام

ولقد مكثناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش . فتعمل غير الذي كنا
نعمل . فلما أخذتهم الرجفة . فلما ألقوا سحروا أعين الناس . ولما سكت عن
موسى الغضب .

سورة الأعراف

إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة . ان الله عنده أجر عظيم . ويقول لكم
في أعينهم . ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله .

سورة الأنفال

يرضونكم بأفواههم . وتجارة تخشون كسادها . يريدون أن يطفئوا نور الله
بأفواههم . ولكن بعدت عليهم الشقة . أسس على التقوى من أول يوم . وأما
الذين في قلوبهم مرض .

سورة التوبة

يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذن . وإذا مس الإنسان الضر دعانا
لجنبه . لننظر كيف تعملون . ولولا كلمة سبقت من ربك ، للذين أحسنوا الحسنى
وزيادة . ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . ويحق الله الحق . ما لا يتفمك ولا
يضرك ، وما أنا عليكم بوكيل .

سورة يونس

على الله رزقها . ولا تخاطبني في الذين ظلموا . إلا من سبق عليه القول اركب
معنا . فما تريدونني غير تخسير . أخذت الذين ظلموا الصيحة . ذلك يوم بمجموع
له الناس .

سورة هود

نرفع درجات من نشاء . اذهبوا فتعسسوا من يوسف .

سورة يوسف

لو ما تأتينا بالملائكة .

سورة الحجر

لناكلوا منه لحماً طرياً . ثم كلي من كل الثمرات . يرد الى أرذل العمر .

سورة النحل

كبرت كلمة تخرج من أفواههم . أساور من ذهب .

سورة الكهف

باركنا فيها للعالمين . فظن أن لن نقدر عليه .

سورة الأنبياء

قطعت لهم ثياب . ولباسهم فيها حرير . من كل فج عميق .
سورة الحج

ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً . وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا .
سورة النور

كانوا قوماً بوراً .

سورة القرآن

وفعلت فعلتك التي فعلت . فاذا هي تلف ما يافكون . والذي هو يطعمني
ويسقيني .

سورة الشعراء

فلما رآته حسبه لجة وكشفت عن ساقها .

سورة النمل

وما تدري نفس بأي أرض تموت .

سورة لقمان

وكان عند الله وجيباً .

سورة الأحزاب

غير الذي كنا نعمل .

سورة فاطر

وتلّه للجبين .

سورة الصافات

ينظرون من طرف خفي .

سورة الشورى

وما نريهم آية إلا وهي أكبر من اختها .

سورة الزخرف

نبطش البطشة الكبرى .

سورة الدخان

سيام في وجوههم .

سورة الفتح

هذا شيء عجيب .

سورة ق

إذا وقعت الواقعة . إذا رجعت الأرض رجاً .

سورة الواقعة

أدلكم على تجارة .

سورة الصف

وقعت الواقعة . ولو تقول علينا بعض الأقاويل . يا ليتها كانت القاضية .

سورة الحاقة

كلوا لجهنم حطباً .

سورة الجن

التي لم يخلق مثلها في البلاد .

سورة الفجر

أفلم ترَ بعد هذا أن الله ، جل جلاله ، قد كلم الناس بلهجتهم لا
بلهجة الاعراب وما فيها من أغراب ، فيطلب منا أن نترك أسلوبه تعالى
لنتبع غيره ؟

وإذا قرأنا ما روي عن صحابة النبي وغيرهم من فصحاء ذلك الزمان ،
رأينا بين كلامنا وكلامهم اقرب صلة .

قابلت لهجة لبنان بلهجات الاقطار الاخرى ، فوجدت لغتنا العامية أقرب الى الفصحى من جميعها ، وقد لا تظاهيها في ذلك الأقاليم العربية التي لم تدخلها رجل غريبة . انها لا تحتاج إلا الى تحويل بسيط لتصير فصحي بلا عناء .

واللبناني في كل طور من أطواره إنما يعنيه التفكير قبل التعبير ، وهو يحاول أن يطبع كلامه على غرار كلام العرب ، ولكن المادة اللازمة لذلك النسيج الدمقسي تعوزه . هو ابن لغة سامية هي أخت العربية ، ولكنها ليست هي . ومن هذه الناحية نشأ أسلوبه الخاص كما قلت لك . ان ما تأثر به من صور كيف انشاءه ، ووهبه لونا وحياة وصوراً خاصة به دون سواه .

اللبناني كابن الصحراء يحب أن يعيش حراً ، لا يريد أن تتبناه الحكومة ، وجل ما يطلب أن تكف عنه شرها . ولهذا عكف في أوديته وقم جباله يفلح ويزرع ، ينقب الأرض ويقتت صخورها ليجعلها تراباً صالحاً لاحتضان الحبة . فجعل جباله جناناً . وأراد ان يكون له تراث فكري فكان له ذلك ، ولكن بعد ألف جهد .

اللبناني نبيه ذكي ابن محيط يدعو إلى الحذر والتفكير . يفكر دائماً يشك « أفراده » شكاً لا نهاية له ، ويؤمن « مجموعته » إيماناً أعمى . فلو صح ان يلبس كل بلد ثوباً يميزه ، كما كانت الحال في القرون الخالية ، لكان حظ لبنان الثوب الأسود . فهو على اختلاف ملله ونحله صنع عوامل دينية . فعلى قمم لبنان تقوم ديورة ومعابد ومقامات وهياكل منذ وجد .

من عهد أدونيس ، الى زمن يسوع ، الى طور محمد ، الى دعوة الحاكم
بأمر الله : أساطير ومشاهد ، رؤى وجدل ، تفكير مستمر ، وصراع
فكري دائم . وهو في كل أطواره ذو عبارة خاصة ، عربية لكنها ليست
خالصة البداوة ، فيها من الزمان والمكان شيء كثير .

فهذه كتب الدروز المكتومة - والدروز عرب خلص - فيها الكثير
من خواص الانشاء اللبناني ، وان حاول كتابها الدنو ما استطاعوا من
التعبير العربي القح .

خلص العربي البدوي لمحيطه فحبس صورته في عبارته . فلم نلم
اللبناني ان هو فعل ذلك . وهبه أراد غير ذلك فهو غير مستطيع .

انني اقرأ الكلام العربي العتيق يومياً ، وأعلمه شارحاً خفايا كلماته
كلمة كلمة ، وهو على لساني في كل ساعة ، ومع ذلك أقر وأعترف انني
لا أحسن تقليده الاحسان كله - لو حاولت ذلك - فهل انا في ذا ،
يا لهمذان ، ظالم ؟

ان لهواء الكنيسة الرطب ، وظلماتها الراهبة الراحبة ، ولرنين
جرسها وصنوجها ونواقيسها ، ولضوء قنديلها الشحيح ، ولألحانها سريانية
ويونانية ، ولصورها وتقوشها ورموزها ، ولصوفية شعرائها المختلفة
الطعم واللون ، لأثراً بيناً في الفكر اللبناني .

فهذا الاتجاه الى الأنين والحنين ، وهذه الصوفية العابقة الاردان
ناشئان من الاطلاع الواسع العميق على التوراة والانجيل . ومصدر التعبير
والسياق تجده هناك .

فاللبناني عرف التوراة والانجيل أول ما عرف من الكتب ، وكان أول عمله ترجمتها الى لغته الجديدة، فكان لذلك أبعد الأثر في أدبه تفكيراً وتعبيراً .

لا تنسَ ما بيناه لك ان الكنائس والديورة أظلمت اللغة العربية في محنتها وآوتها في غربتها ، وحدثت عليها يوم تنكر لها أبناؤها الخالص مرغمين ، فاعتصمت بالهيكل اللبناني ، فأحلبها كهنته عن عين مذبح البخور ، فصارت لغة اللبناني الدينية يناجي بها ربه : « أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك ، ليات ملكوتك ... »

أرأيت رفع الكلفة : « أبانا » الذي في السموات ... فكيف لا تكون الصوفية عامة شاملة ، مكتسحة الأدب اللبناني ؟ استغفر الله ! مكتسحة ما يخطه اللبناني بلغته العربية .

وقبل وبعد - مرة اخرى - فكيف خطط لبنان ؟ خطط لبنان هكذا : عند كل نبع شيد دير سكنه نساك ورهبان ، وكل قلعة او حصن او كهف جعل ماوى لهؤلاء الزهاد . ثم حوّل هؤلاء الزهاد هياكل عشروت وأدونيس ككنائس ، وحوّل هؤلاء (أي الرهبان) تكتلت الناس ، فكانت القرى والداكر والضياح .

وانكب هؤلاء على كتب دينهم ، وكانوا يقرأون ، خطأ وتصويراً وتقوشاً على تلك الجدران التي حبسوا أنفسهم بينها ، تواريخ الأولين وأساطيرهم ، فكانت لهم ثقافة يقرّبونها من أفهام أبنائهم بالرب ، وكانت الترجمة فضمّوا ما ترجموه الى معارفهم وعلّموا الملتفين حولهم ما علّموهم .

وكان لاتصالهم بالغرب ، دينياً ، أثر يّسن في تطوره العقلي ،
فاخذوا من الغرب وأعطوا كما رأيت ، فنشأ من الأدب ما نعتى
بدرسه الآن .

إن التعلم ضالة اللبناني منذ وُجد . فكل وقف مفروض عليه تعليم
صبيان القرية . ولأجل الله والعلم وقف اللبنانيون عقاراتهم على الكنائس
والديورة .

كان اللبنانيون يتبارون في ميادين الوقف . ولهذا ترى أوقافاً لبنانية،
في كل ناحية من نواحيه ، على ملل ونحل مختلفة .

وقف الشيخ الفلاني أملاكه على رهبانية أرمنية ، فليفتش منافسه
الشيخ الآخر عن ملة اخرى يقف على رهبانها عقاره .

وهكذا رأيت لبنان مجموعة مختلفة من جميع الملل والشعوب . والغاية
الاولى عبادة الله ونشر العلم . ومازلنا حتى اليوم نرى اللبناني يستدين
او يرهن ما يملك ليعلم أبناءه .

لقد كان رجال الدين فرسان الميدان وقادة الفكر في ذلك الزمان ، كما
مرّ بك . وهذا ما حمل معلمي خير الله خير الله أن يقول في كتابه «سوريا»:
« نعيش اليوم في عصر تسود فيه الفوضى . إلا ان المستقبل مكفيل
باستخلاص المقدمات من النتائج . عندئذ تعرف سوريا العصرية كل ما هي
مدينة به للبنان . ويعرف لبنان كل ما هو مدين به للموارنة ، ويعرف
الموارنة ما هم مديتون به لإكبروسهم . »

قال هذا استاذي خير الله خير الله عندما اطلع على خفايا التاريخ ،
ورجع الى ما أريناك إياه في الفصول السابقة . وإذا عرفت انت ، الآن ،
ان الدروس العربية كانت قد ضعفت في ايطاليا، فأنهضها شمعون السمعاني
الذي درس اللغات الشرقية في كلية بادوى ، من عام ١٧٨٥ الى عام وفاته
سنة ١٨٢١ ، وإذا علمت أيضاً ان لهذا الكاهن تآليف في عرب الجاهلية
وتاريخهم ، وأحوالهم في مجلدين ، وان له وصفاً دقيقاً للآثار الكوفية في
متاحف الغرب ، احتملت من خير الله خير الله حمسه للاعتراف بفضل
رجال الدين ، وإن كان اصطبغ بلونهم ، ثم انفصل عنهم ، كما فعلت
بعده . وحسب التاميز ان يكون مثل معلمه .

أما قلت لك انه معلمي ؟

نعم ، علمني خير الله اللغة الفرنسية سنة في مدرسة مار يوحنا
مارون . وستقرأ صفحة ترضى عنها ، إن شاء الله ، في كتاب « أحاديث
القرية » .

أجل ، ان لبنان مدين في ما بلغه من شوط في ميادين الثقافة الى
الكليروسه المجاهد . وهذا رفيقي وصديقي الخوري نجايل الفغالي ، الذي
توارى منذ سنوات ، هو آخر حلقة من تلك السلسلة الذهبية .

فالمشرق والتمغرب ، والانتقال من لسان الى لسان ، واتصال
لبنان بالشرق والغرب سياسياً ومدنياً ودينياً ، والمبشرون والمرسلون ،
والصليبيون حتى حملة نابليون ، كل هؤلاء تركوا أثراً فيما كتبنا ونكتب .

كل هذا التفاعل حرض اللبناني على نشد الحرية والمساواة في كل زمان ، وحمله على أول ثورة شرقية على الإقطاعية فهدمها .

وكم تستولي عليك الدهشة إذا عرفت ان زعيم هذه الثورة كان بيطاراً أمياً . وأخالك لا تجهل ان الثروة موزعة في لبنان توزيعاً صحيحاً، فقلما تجد واحداً من ألف لا يملك بيتاً وعقاراً . فالحال في لبنان هي غيرها في الأقطار الأخرى . ولهذا أيضاً أثر يبين في الأدب ، صير لبنان ميداناً لحرية الفكر ، فكانت صحف لبنان في العهد العثماني (بعد سنة ١٨٦٠) لا تخضع لما تخضع له اخواتها في الولايات من مراقبة . فأنمى هذا فروع الأدب العربي في لبنان ، فانماز من هذه الناحية .

ولكن نطاق الحرية في مصر كان أوسع منه في لبنان ، وكان أوسع منه فيها في عواصم أوروبا وأميركا ، فهاجر مفكرو لبنان، وعرق الأصل نزاز ، فكانوا في كل قطر نزلوه رسل الفصحى ودعاتها .

حرك ذلك همتهم فمضوا في طلب المزيد حتى أدركوا ما بلغوه اليوم . فهذا مارون النقاش يعود من أوروبا ويجعل من بيته ، في بيروت ، مسرحاً تمثل عليه أول رواية عربية ، ثم تؤلف جوقة تنتجع القاهرة فتمثل فيها .

عيون طامحة إلى كل جديد، وهم تأبى الركود . كل هذا جار وليس هناك من يقدر أو يبالي بالأدب ورجاله . لم يكن للكتاب وزن مادي في هذا العصر . فالكاتب المسعود من تقياً بظل اقطاعي من ذوي اليسار

ينعم عنده بأكله وكسوته . وان ذاق ساعة من الرغد عدّها سعادة ليس
ما بعدها سعادة ، بينا يفخر الشيخ والأمير ان كاتبه فلان .

واليك ما كتبه الشدياق في « فارياقه » حول هذا الموضوع قال :

« انه لما شاعت براعته (أي فارس الشدياق) في النسخ ، أرسل اليه من
اسمه على وزن بعير بيعر (أمير حيدر صاحب التاريخ الشهير) يستدعيه لنسخ
دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث في زمانه ، وليس الغرض من ذلك إفادة أحد
من العالمين ، وانما كان امساکاً للحوادث من أن تنفلت في مدار الأيام ، أو تنفك
من سلسلة الأحوال ، فإن كثيراً من الناس يرون ان احضار الماضي وجعله حالاً
منظوراً من الأمور العظيمة . ولذلك كانت الافرنج حراساً على تقييد كل ما يقع
عندهم » .

والذي عندي ان اللبناني الأول كان كالراوية العربي . والفرق بينهما
ان هذا ثقفته الرواية ، وهذا فتق ذهنه النسخ . فهذا « صقر لبنان »
يتطور من ناسخ الى كاتب لم يقم في عصره أعظم منه ولا من هو مثله .

وسنعود الى هذا الكلام في محله .

أما الشعر فكان ، على ركاكته وعلى ما ينقصه من فن ، سلم المعالي .

كان الرجل يتقرب به من ذوي السلطان وينال عندهم مكانة لم يكن
ليناها بغير الشعر . ففي هذا العصر كان سليمان باشا والي عكا ، وداود
باشا بيغداد ، ويوسف كنج في دمشق ، والأمير بشير في لبنان ، كل هؤلاء
- وبخاصة الأمير بشير - كانوا يرغبون في أن يقال فيهم شعر ، وكانوا
يجيزون عليه . وكان السلاطين ، وهم ترك ، يستلذون المديح أيضاً . وبهنا

تقرّب الشدياق من ذوي التيجان وأصحاب العروش ، وكانت له تلك
المنزلة السامية في زمانه .

وكان الاقطاعيون يتشبهون بالحكام العظام ويقال فيهم شعر ، كما
ستقرأ عن « السري » وشاعره فصلاً تقديماً طريفاً من فارياق الشدياق .

ومرت فترة بردت فيها سوق الشعر وكسدت بضاعته ، فانطوى
الشعراء على أنفسهم ، وأخذ يمدح بعضهم بعضاً كمن تكسد بضاعته في دكانه
فيحوّلها إلى البيت ...

فكل هذه المحاولات التي جربها اللبناني ظلت بدائية قروناً . وكما
يتعلم الولد مبتدئاً بالألف باء ، هكذا تعلم اللبناني اللغة وحاول الكتابة بها .
وظل يقع ويقوم إلى ان اشتدت ركبته ، فسار مشمراً .

إن فرحات بدأ في تجنب « الركافة » ، والشدياق تمّ . وهكذا
استقامت العبارة اللبنانية وصارت كما تعلم .

والغريب ان اللبناني الذي حمل لغة العرب إلى الغرب ونقل إليه تلك
الثروة الثمينة الخالدة ، لم يظهر له أثر أدبي يذكر قبل هذا القرن ، كما ان
مخالطة الغرب واتصاله به لم يثمر في حقل الأدب . وما أظن ذلك تقصيراً
من العقول والافهام ، ولكنهم كانوا لا يعنيه ذلك الأمر . فإلهم كتب
الدين ، والمدرسة المارونية في رومية التي كان لها أعظم أثر في تشرق
الغرب وتمغرب الشرق ، كانت غايتها الأولى الدين . وكذلك التمشرق
كله في ذلك الزمان ، فهو لم يكن إلا لأجل الدين . ثم صار أخيراً
سياسي الغاية .

ولا أدري إن كان يعني به اليوم لأجل وجه العلم أم انه لأجل غزو الشرق أدبياً... العلم عند من عنده العلم .

وفي كل حال ان هؤلاء الأوائل قد سلّحوا النرية بما نقلوه لها من أعتدة الغرب ، فنوّروا الأذهان وأعادوا الى لبنان مجده الفكري المفقود. ويجهدم الأول أصبح منارة دائمة الاشعاع على هذا الشاطئء اللازوردي . فكان لبنان ، « وهو باقٍ الى الأبد ، ملاذاً لتيارات الفكر في العالم ، ومركز إشعاع للخير والحق والحب والجمال » ، كما قال صديقي الاستاذ محي الدين النصولي في جريدته^(١) .

(١) جريدة بيروت ، العدد ٢٦٣٥ .

ثلاث جبهات

ابتدأ الكتاب الأدبي اللبناني بأحمد فارس، حين كتب لنا «الواسطة في معرفة أحوال مالطة»، و«كشف النجبا عن أحوال اوروبا». ومن يزعم انها ليسا كتابي أدب كان لا يعرف إلا عنوانها. فحكم كهذا لا يشبهه غير حكمنا على كتاب «الحيوان» للجاحظ قبل ان نقرأه، ويتضح لنا انه كتاب أدب اولاً. فبين هذين الرجلين: الشدياق والجاحظ، قرابة ونسب. فإن لم يكن الشدياق ابن عم الجاحظ لحنّ فهو ابن عمه كلاله.

يحمل الدين في منقاره، أينما طار ووقع، جرثومة الثقافة، فتنبت حيثما تحلّ ركابه. فلولا قدوم البروتستان الى لبنان، واعتقال البطرك الماروني لأسعد الشدياق شقيق احمد، لما فرّ هذا الى مصر.

كان فراره نعمة أتمّها القدر على نهضتنا الحديثة، فصحح لغة جريدة «الوقائع المصرية» نواة الصحافة العربية. ولولا هجرته الاخرى الى مالطة واوروبا لم يكتب كتايبه العظيمين السابق ذكرهما. ثم قفى على آثارها بكتابه الخالد «الساق على الساق فيما هو الفاريق».

أجل ، لولا تلك الثورة الفكرية التي أضرمها حصول البروتستان في الجبل بين جماعة يكادون يعتبرون القاصد الرسولي اجنبياً عنهم ، ودخيلاً على طائفتهم ، لآفر « صقر لبنان » وطوف في عواصم الدنيا العظمى حتى استقر أخيراً في القسطنطينية ، وأصدر « جوائبه » وكتبه ، فكانت حجر الزاوية في صرح النهضة الأدبية الحاضرة .

ولولا هذه « الرسالة الجديدة » لما وجد المعلم بطرس البستاني مكتبه العلمية ، ومعجمه ، ودائرة معارفه وأوجدتها . ولولا قدوم هؤلاء المرسلين أيضاً ، ما كانت الجامعة الأميركية ولا الجامعة اليسوعية وغيرها من صروح لبنان العلمية المردة .

روي عن أحد رؤساء البعثة البروتستانية انه كان ذاهباً الى احدى المدن ليؤسس فيها مدرسة . ولما سئل عما وراء رحلته تلك ، أجاب : أنا رائح الى ... لأفتح فيها مدرستين .

يريد أنه كلما أسس البروتستان مدرسة يؤسس اليسوعيون مدرسة لهم قبالتها ، فيكون قد فتح مدرستين .

كانت منافسة مذهبية فأفاد منها لبنان وازدهر العلم والأدب فيه .

ولكن العجب العجاب هو في هذه الطفرة الغربية التي لم ير التاريخ لها مثيلاً .

لم يكن قبل هذه الفترة الحامية الوطيس أدب عربي في لبنان . فكل

ما كان هنالك ، قبل هذا الحين ، محاولات في النظم والنثر يضحك منها الضليع ويهزأ بنا لأننا نحبي ذكرها .

ان احياءها لواجب . فهي أشبه بسيرة حياة « عطار » كان يطوف القرى حاملاً خامه وشيته، وكمونه وبهاره ، وابره ومسلاته، ثم بعد حين من الزمن صار من رؤوس التجار وكبار الرأسماليين .

ان طفرة الأدب العربي في لبنان حذفت كلمة المستحيل من المعجم . قد ظهر في هذا القرن جهابذة بنوا لنا هذا البيت الرفيع . شبّ هذا القرن وشب معه اللسان العربي في لبنان ، فاستقامت العبارة لمفارد من رجاله لا يعنيننا الآن غير ثلاثة منهم كانوا في وقت معاً . وقد بلغ هؤلاء المجاهدون ، أدبياً ، أوج بلاغتهم وثقافتهم حين اكتهل القرن التاسع عشر فحمي النضال على ثلاث جبهات .

رحم الله المطران جرمانوس فرحات (منصر العربية) ، فهو واضع الحجر الأول في بنیان الفصحى حين وضع كتابه « بحث الطالب » . كان مثلاً اقتدى به رجال هذا العصر جميعاً .

فهذا أحمد فارس الشدياق ، بعد أن يخبرنا في فاريقه هازناً من تعلمه النحو، نراه، في عصر العمر، يضع كتاباً في النحو ويسميه غنية الراغب، على وزن « بحث الطالب » كما تسمى العقاقير اليوم على وزان واحد : ريبيازول ، سيلفاتيازول .

وطبع المعلم بطرس البستاني كتاب المطران جرمانوس ليكون في

متناول الشبيبة اللبنانية . ثم جاء بعده أستاذي الشيخ سعيد الشرتوني ،
وعلق على بحث المطران حواشيه المتممة له .

وتلا أستاذنا الآخر الشيخ عبد الله البستاني تلو الشرتوني ، ولكنه لم
يتناول غير النحو ، فأقدم أستاذ آخر هو نعمة الله باخوس فحقق الصرف
من كتاب المطران جرمانوس فرحات وعلق عليه .

رحم الله رابله وغنمه !..

وقد أحدث كتاب الشدياق « غنية الطالب » ضجة في الأندية الأدبية ،
فهبّ الشيخ سعيد الشرتوني يخطيء الشدياق في كتيب سماه : « السهم
الصائب في تخطئة غنية الطالب » . فانبرى الشيخ ابراهيم الأحذب المشهور
للرد على الشرتوني في كتيب عنوانه : « رد السهم عن التصويب وابعاده
عن مرمى الصواب بالتقريب » .

واليك شيئاً من مقدّمة كتاب الأحذب نثراً ، وشعراً ، لترى كيف
كانوا يجادلون ويناظرون :

« أما بعد ، فاني ما زلت منذ شعرت بمبادئ الفنون ، ووردت من معين
سلسالها ما تقرّ به العيون ، أتجنب الدخول في مصاف المناظرين ، وأخلد عند
قيام حرب المناظرة على ساقها أن أكون من القاعدين ... »

« وطالما قرع سمعي تطاول قصير الباع ، عريض القفا ، بالتعريض ، ليقع
مني ، المجادلة بجديد الكلام ، في الطويل والعريض ، فكنت أتصام عن سماع
الحناء مع أني أسمع من سمع ، وأعرض عن التعرض لأولاد الزنا بما لا يطيب في
سمع ، حتى وقفت على اعلان في إحدى الجرائد البيروتية ، نشر به قائله ما يجنب

في السمع وتقبّح به الطوية ، يتضمن احداث كتاب باسمال الزمان ، ولين طبع من نسب اليه حيث انقاد الى التأليف بدون عناء .

ثم يمضي الشيخ الأحذب في الثناء على أحمد فارس حتى يقول :
« وأقر بعارفه أفاضل مصر وهم به عارفون ، وان جحد ذلك نكرة لا تطيب بالتعريف لحبب النشر من شرتون ... » .

الى أن يقول :

« وقد حضرت النعل للعقرب اذا عادت الى الديب » .

أما ما قاله له شعراً فدونك شيئاً منه :

من أين تدرك يا عادي مدى رجل	في باب مضمنا شخص للعلم قد وقفا
ما صرت يا طرح كرم حصرماً فإذا	من أين زبيت حتى تظهر الصلفا
أردت تجلس في صدر على عجز	فبان عجزك تصديراً بما عرفا

قد نقلت هذا لأريكم نموذجاً من طريقتهم وأسلوبهم وتعبيرهم .

أما النقد فدونك شيئاً منه « مؤقتاً » . وحسبك بالحفنة دليلاً على ما يحتويه العدل من الغلة :

« ثم قال : (أي الشرتوني) ومنه قوله صفحة ٣١ : (أي قول أحمد فارس) في غنية الطالب : لا يوجد في العربية ساكنان في كلمة واحدة إلا عند الوقف ، نحو هذا كتاب ، أو في حرف لين بعده حرف مدغم ، نحو دابة ودوبية ... الخ . »
« فاعترضه الشرتوني : بأنه خطأ بديهي لوجود ساكنين وثلاثة وأربعة كيرمي ويستقصي واستغفار الى آخر ما ذكره » .

فقال الأحذب : « ليته ترك هذا الاعتراض الذي أبان عن سوء فهم ، إذ لا يشك أحد بأن مراده لا يلتقي ساكنان بعد قوله في التقاء الساكنين . وقوله نحو

كتاب ودابة أنه لا يجوز التقاء الساكنين إلا في الوقف ، وفي ما كان على حده ، وهو أن يكون الأول حرف لين ، والثاني مدغماً في كلمة واحدة : كالطامة ، والحاقة . ولا نظر في قوله : أو في حرف لين ، لأن معناه أو بسبب حرف لين . « في » تأتي للسببية كما في « الخلاصة » نحو ، دخلت النار امرأة في هرة (أي بسبب هرة) ، « والأمر جلي لا يحتاج الى مزيد بيان » (١) .

أما الشيخ ناصيف اليازجي ففعل في النحو والصرف غير ما فعل الشدياق والبستاني والشرتوني . كان مثله الأعلى الحوك على نول القدماء ، فنظم مثلهم ونثر . كان أكبر همّه ان يكون له كتاب مثل الفية ابن مالك ، فنظم كتابه « نار القرى » الذي عرف في الأوساط المدرسية بالارجوزة . لم يوفق الشيخ في « ارجوزته » كما وفق في « مقاماته » ، فهبّ الشيخ يوسف الأسير ينتقده نقداً صارماً .

لا بد من إحاطتك علماً بأن إحدى هذه الجهات الثلاث كان زعيمها الشدياق ، ينصره الأسير والأحدب . وسيتضح لك ذلك من رسالة كتبها احمد فارس الى نسيبه ضاهر الشدياق ، حين تقرأ نصها . وقد أرسل الشيخ الأسير هذا النقد الى الشدياق لينشره في « الجوائب » ، فلا أدري إن كان أذاعه ، او لم يذعه ، ولكنني احزرت منه نسخة ، طبع الجوائب عام ١٢٩٠ هجرية . ولنشر هذا النقد في كتاب قصة طريفة .

عنون الأسير كتابه : « إرشاد الوري لنار القرى » . فطبعه احمد فارس ولم يقل لمن ، مكتفياً بهذه العبارة : « لمن تغنيه شهرة علمه عن

(١) رد السهم عن التصويب ، ص ٢٢ ، طبع الاستانة سنة ١٢٩١ هـ .

ذكر اسمه . وكأنه أدرك ان ذلك غير كافٍ ، او انه أراد ان لا تفلت منه النكتة ، وهو حريص عليها ضنين بها ، فالحق بالكتاب ورقة ثم غلافاً كتب عليها كليهما : « إرشاد الورى في تخطئة جوف الفرا . الإرشاد للامتاز العلامة التحرير الشيخ يوسف الأسير ، والجوف لناصيف اليازجي ... »

وها أنا أنقل لك شيئاً من مقدمة الأسير ونقده :

قال الشيخ الاسير بعد البسملة والحمدلة : « وأما بعد ، فاني قد اطلعت على كتاب ناصيف اليازجي المسمى بنار القرى في جوف الفرا ، فأردت بيان مبانيه ، وإيضاح معانيه ، كما ترى ، فشرحتها شرحاً يميز الحق من الباطل . حيث قرنت كلامه بكلام الأئمة ليظهر الخالي من العاطل . وما قصدت بذلك إلا الثواب ، بإرشاد مطالعه سبيل الصواب . وسميته « إرشاد الورى لنار القرى » وعند الصباح يحمد القوم السرى ، وها أنا ذا أقول : مستعيناً بالله وهو خير مسؤول .

قال المؤلف : « باسم الله العلي العظيم » أقول : أراد أن يخالف ليعرف ، ولكن لم يأت بما يناسب المقام ، من أسماء الله تعالى العظام ، فان مقام التأليف يناسبه الاستعانة والاسترشاد ونحوهما . ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال : يا قهار ارحمني . فان كان مقصده أن كتابه مشتمل على شيء عظيم ، فأقول انك سترى انه من سفاسف الامور وسقط المتاع . فكان الصواب ، لو عرفه ، أن لا يأتي بالبسطة في أوله ، لأنها لا تجوز على الامور الخسيسة ... والدليل على ذلك أن كل مقام له كلام ، فينبغي للمؤلف أن يزن كلامه قبل وضعه في الكتاب ، وإبرازه لذوي الألباب .

ثم قال : « الحمد لله المفرد العلم » . لا يخفى ان الحمد لذاته تعالى وهي لا توصف بالعلم المفرد ، لأن العلم ، لغة ، الجبل والراية ، وعرفاً اسم يعين مسماء بحسب وضعه بلا قرينة . فان قيل هو كناية عن الشهير ، قلنا : يستبرد ذلك في هذا

المقام ، فلا يقال الحمد لله الشهير . ولعله (أي اليازجي) اغتر بقول الصبان في صدر حاشيته ونصه : « ونشهد أن سيدنا محمداً عبداً ورسولك المفرد العلم » ، ولا يخفى التفاوت الكلي بين الإله والعبد . على انا لو تمحلنا له بأن قلنا : المراد أنه أشهر من كل شيء ، بقي علينا الإبهام في قوله « المفرد » لأنه اسم مفعول ومعناه الواقع عليه الافراد ، ولا يجوز الاتيان باللفظ الموم خلاف ما يجوز عليه تعالى بلا توقيف . فانت قيل انه وصف للفظ الجلالة ، وهو علم مفرد في عرف النعاة ، قلنا : كان الصواب أن يقول : الحمد لله الذي أحد أسمائه ، وهو لفظ الجلالة ، علم مفرد . فان قيل يكون من الاستخدام بأن ذكر لفظ الجلالة وأراد معناه ، ثم أراد لفظه ، قلنا لا يخلصنا ذلك من الإبهام .

ثم قال (أي اليازجي) : « أما بعد فهذا شرح معيته نار القرى على الأرجوزة التي سميتها جوف الفرا ، يتكفل بإيضاح معانيها على غير اسهاب ، وتوسيع مبانيها في أكثر الأبواب » .

أقول : ليس بين جوف الفرا ونار القرى ائتلاف في اللفظ ولا في المعنى ، أما في اللفظ فلأن نار القرى إنما توضع على مكان عال ليراهما الضيف فيقصدتها ، لا على جوف حمار الوحش . وأما في المعنى فلأن نار القرى اذا وضعت على جوف الفرا ، او فيه ، كما قال في ظهر الصفحة الاولى ، يكون لذلك رائحة كرهية ولا يشوى ذلك الحمار جيداً... لأن الحمار يوضع على النار ليشوى كما هو المعروف والمألوف لا العكس .

وأما قوله : « يتكفل بإيضاح معانيها » فالمتبادر منه انه اخبار بكفالاته فيما يأتي ، وقد كان الأولى له ان يقول تكفل . وقوله : « وتوسيع مبانيها في أكثر الأبواب » ، لا يخفى ان جوف الفرا ارجوزة نظم ، ومبانيها ألفاظها ، ولا يمكن توسيع ألفاظها لأنه لا يسعها بحر النظم حينئذ . ولعل الحامل له على ذلك أنه رأى عبارة الصبان على الفية ابن مالك ، وهي قوله : « وصرفت في تحرير مبانيها وتهذيب معانيها جميع الهمة » فغير ناصيف العبارة فاقسد المعنى . وقوله :

« في أكثر الأبواب » ان رجع الى إيضاح معانيها وتوسيع مبانيها معاً. يمكن مفهومه : انه في كثير من الأبواب لم يوضح ولم يوسع فبقيت على عماها وضيقها . وان رجع الى توسيع مبانيها يمكن البعض موسعاً والبعض مضيقاً ، وان رجع الى غير اسباب كان الأمر كذلك . وأياً كان فهو خبط عشواء لأن الشروح إنما تكون على نسق واحد . وإنما الحامل له على ذلك صف الالفاظ بدون تعقل ، كما قيل : فقل أنا وزان وما أنا شاعر . وهل من يتكلم في صدر كتابه بكلام مثل هذا ليكون مؤلفاً ؟ ولا سيما ان صدر الكتاب مناط الانظار حيث ان اول نظرة تكون لصدر الكتاب كما قيل : الكتاب يعرف بعنوانه .

ولكن نقت الضفادع ، وسكنت البلابل السواجم ، فوا أسفاه على العلم وأهله ، فقد غلبهم الجاهل يجهله ، وقد هشم ابن هشام ، وعقل ابن عقيل في بلاد الشام ، حين ظهر جوف الفرا ، وفاحت منه روائح بلا مرا ، والأمر لمن له الأمر . فما كان أحرى جوف الفرا بالوضع على الجهر ، فان رفع قدر الحسيس أضر شيء بالنفيس ، وقد مالت النفوس لسوداء العروس . وسئرى ما أوضحه لك في أثناء هذا الكتاب ، يعونه تعالى ، لترى مصداق ما قلته ، وتعلم أن هذا المؤلف قد ألف مقولاً وعدم مقولاً^(١) .

ويمضي الشيخ على رسله في نقد مقدمة الارجوزة ، حتى يبلغ نقد أبياتها الشعرية ، وهالك منه مثلاً صغيراً ، قال اليازجي :

كلمة النحاة قول مفرد باسم وفعل وبجرف ترد

قال الأسير : فقوله « كلمة النحاة » ، ولكن المتبادر انها الكلمة التي تتكلم بها النحاة ، وقد أراد أن يحاكي قول ابن مالك « كلامنا لفظ مفيد » والفرق بينها ظاهر عند ذي الذوق السليم . وقوله « باسم فعل وبجرف ترد » أراد انها

(١) ارشاد الوري ، ص ٣ - ٤ .

تأتي بصورة افراد الاسم والفعل والحرف ، أي أنه يطلق على كل فرد من الاسم كلمة ، ويطلق على كل فرد من أفراد الفعل كلمة ، وعلى كل فرد من أفراد الحرف كلمة ، ولا يخفى ما في هذا التعبير من الصعوبة على المبتدىء ، ولم يشرحه في نار القرى كما يجب . ولو قال : وهي أي الكلمة تنقسم الى اسم وفعل وحرف كسائر النحويين لم يرد عليه ، ولكنه اراد ان يخالف ليعرف ، وينسب اليه هذا المؤلف (١) .

أظن ان هذا كاف الآن . وقبل أن أدع هذا التقد ، عليّ ان أقول لك : ان ابن ناصيف ، أي الشيخ ابراهيم اليازجي العلامة الشهير ، برز الى المعركة فيما بعد . تبخر بعدئذ في اللغة حتى صار من أقطابها ، ثم أمسى حجة الكتاب في زمانه ، وقد سئل :

– من هو أستاذك يا يازجي ؟

فاجاب : الشدياق .

يريد انه اضطر إلى ذلك ليدافع عن أبيه ، وينتقد الشدياق آخذاً بثأره . أما ما دعا إلى هذه الغارة الشعواء على الشيخ ناصيف فهو ان الشيخ ناصيف اليازجي مدح الشدياق في قصيدة غراء ، ولما نشر ديوانه عنونها هكذا : وقال يمدح أحد الأدباء ، فاضطرب جبل الصداقة بين الشخصين ، شيخ الصناعة القديمة ، وشيخ الصناعة الجديدة ، فكانت معارك أدبية ساحتها الجوانب والجنان كما ستعلم . سأريك في هذا الكتاب نموذجاً من تقدم الأدبي كما أريتك هذه الناذج . فللشيخ الأسير نقد طريف لقصيدة اليازجي التي مطلعها :

(١) ارشاد الوري ، ص ٧ .

لهوت يولد منا كل مولود أيها الأم ربي الطفل للدود

فسأها الشيخ الأسير « الدودية » ومضى في تشريحها بيتاً بيتاً .

سنريك بعض النماذج في فصل قائم برأسه عنوانه «نقد ذلك الزمان» .
فإن قلت لي : اكتفيت بما سبق ، قلت لك : لا تنس أنك ضيفي وعليك
الامتثال . فإن كنت عنها ذا غنى فاغن وازدد ، كما قال طرفة .

أما الشيخ ناصيف فما رضي بتقليد ابن مالك ، بل كتب المقامات
ناحياً نحو الحريري ، فكان كتابه مجمع البحرين . وعناه أيضاً أن يكون
له ديوان شعر في الأغراض المرغوب فيها في زمانه ، فنظم شعراً كثيراً
جمع في دواوين . وقد نحا في قصائد عديدة نحو المتنبي ونحو ابن دريد
في الحكمة .

قد برز ناصيف اليازجي في ميدان القدماء فكان للبنان حريريه
وابن مالكة .

أما الجبهة الثانية فناضل عليها المعلم بطرس البستاني ، وظل حتى
مات في المعركة ، تاركاً للذرية محيط المحيط ، ودائرة المعارف ، والجنان ،
عدا الكتب المدرسية في النحو والعلوم الأخرى .

أعاد المعلم بطرس عهد التراجمة النصارى في العصور العباسية ، فترك
لغة الضاد ثروة كانت رأس مال هذه النهضة التي نعتد بها اليوم .
أما أسلوب المعلم بطرس فأسلوب تراجمة المأمون وغيره من الخلفاء ،
يتوخى التعبير الصحيح بلا تكلف ولا تزويق .

اما الجبهة الثالثة فكانت ساحاتها عواصم العالم ، في مصر ومالطة ،
ولندن وباريس ، وتونس والآستانة .

كان قائد تلك الحملة « صقر لبنان » ، هاجر حاملاً معه بياناً وعلماً
وشجاعة أدبية .

فرّ من لبنان مؤثراً العافية ، فسلم رأسه . وكان لنا منه اول أديب
لبناني ترك ميراثاً خالداً في أدب العرب .

أضف الى ذلك التليد طريفاً لا تذهب جدته وطرافته .

أبدع وأجاد . خلف فكانت مواليدته من أبناء الحياة . وهكذا كانت
الهجرة ، في كل زمان ، ذات فضل عميم على الناطقين بالضاد . فلولا هجرة
هذا النابغة الفذ لما كانت آثاره الباقية في الأدب العربي .

إن تلك المقدمات التي وصفناها لك ، وذلك الجهاد المنقطع النظير في
الشرق والغرب ، ظل أمره مكنوناً حتى ظهر هؤلاء الجهابدة ، فطفر
الأدب معهم طفرة يستغرب شأنها المفكر في تاريخ هؤلاء الجماعة . فمن
ركاكة تضحك وتبكي ، الى بلاغة يرتاح لها الوجدان . جمعيات وندوات
همها كلها تعزيز لسان العرب والتصنيف في كل ضرب من ضروب العلم .

هذا المطران يوسف الدبس يؤلف ندوة علمية أدبية كما فعل من قبل
المطران فرحات في حلب . وهذا أديب اسحق يهز المنابر بفصاحته
ولسنه . وهذه المدارس الوطنية تشاد هنا وهناك . وهذا فان ديك ينتصر

للسان العرب وينشقّ عن قومه الامير كيين لأنهم لم يجعلوا العربية لغة
التعليم في كليتهم .

وقد كان الشدياق سيد الموقف ، تجوب جوائبه البلاد ، وتنشر
مطبعتها آثار العرب الخالدة . فاسمح لنا إذن ، ايها القارىء العزيز ، ان
نعرفك بالشدياق ونوثق عرى الصداقة بينك وبينه ، بعد ما وصفنا لك
عصره مدنياً ودينياً ، لأن أدبه متصل بعصره كل الاتصال ، وهو طريد
السلطين المدنية والدينية .

ها هو يسكت سكوت السمكة عن أسير مالطة (الأمير بشير) ،
مع انه كتب كتاباً برأسه عن مالطة ، وكان هو فيها حين جاءها الأمير
بشير منفيّاً اليها . إن هذا ما يحيرني ...

لقد أريناك بكل تواضع ركافة الأجداد ، فاسمح لنا أن نريك أين
صار الأحفاد . اقبلها منا ولا تعدّها تبجحاً وعنجهية . فما هي غير حقيقة
أدبية . وإذا لم تقرّ نحن بفضل السلف تهاون بنا الخلف ، وهناك البلية
العظمى ، فنكون كما حكى الجاحظ في كتابه « الحيوان » عن الملوك
الذين كان يهدم بعضهم آثار بعض .

اللهم حبّب إلينا الحق والعدل ، وأخذ في صدورنا نار الاثرة
والطمع والحسد .

جبار القرن التاسع عشر

أحمد فارس الشدياق

قطب الأدب العربي في القرن التاسع عشر ، ومحيي المؤودات من أوانس لغة الضاد وعوانسها حتى عجائزها .

أوتي قوة الإبداع فأحيا ، في « الفارياق » و « كشف الخبا » و « الواسطة » ، عهدَ جاحظ الدهر .

أوحى إليه أحياء الليالي بالمطالعة أسراراً لغوية لم تنفتح مغالقتها لغيره فكتب « سر الليال في القلب والإبدال » و « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » .

وجرت السياسة في دمه الموروث عن جدوده فجلى في ميادينها ، حتى سامر السلاطين والملوك والوزراء بعد ما قال عن نفسه في الفارياق .

« كان مولد الفارياق في طالع نحس النحوس ، والمعرب شائلة بذنبها الى الجدي والتيس ، والسرطان ماش على قرن الثور . وكان والداه من ذوي الوجاهة والنباهة والصلاح ، إلا أن دينها كان أوسع من دنياهما ، وصيتها أكبر من كيسها ، وكان لطبل ذكرهما دوي يسمع من بعيد ، ولزوابع شأنها تساء يثور

في الجبال والبيد . ولتكثير العقاة عليها ، واعتشاء الوفود لديها ، تعطلت سبل دخلها ، وتزحت بشر فضلها ، فلم يبق فيها إلا نزازات يلقي فيها المحقق المحروم سداداً من عوز ، فكانا يجودان به أيضاً من عوز السداد . . . فلذلك لم يمسد في طاقتها أن يبعثاه الى الكوفة او البصرة ليتعلم العربية ، وإنما جعلاه عند معلم كتاب القرية التي سكنا فيها .

وكان المعلم المذكور مثل سائر معلمي الصبيان في تلك البلاد ، في كونه لم يطالع مدة حياته كلها سوى كتاب الزبور ، وهو الذي يتعلمه الأولاد هناك لا غير . وليس قولي انهم يتعلمونه مؤذناً بأنهم يفهمونه . معاذ الله ، فان هذا الكتاب مع تقادم السنين عليه لم يعد في طاقة بشر أن يفهمه . وقد زاده ايهاماً فساد ترجمته الى اللغة العربية وركاكة عبارته ، حتى كاد أن يكون ضرباً من الأحاجي والمعنى (١) .

ثم امتهن الشدياق النساخة كما أشار معلمه على أبيه ، فكان ناموس بعير يعمر (أمير حيدر) . وأخيراً مل تلك المهنة « ملل العليل من الفراش » فاجتمع بصديق له وخاضا في حديث أفضى الى ذكر المعاش ، فأجمعا رأيهما على أن يستبضعا بضاعة ويقصدا ترويحها في بعض البلاد ، فاكتريا حماراً لحمل البضاعة ، وهو لا يستطيع حمل جثته من الهزال ، ولم يكن قد بقي منه شيء شديد سوى نهاقه وزعاقه ، فالأول للاستعلاف ، والثاني لمن ينخسه ، او يلقي عليه الاكاف . ثم سارا وهما يفصلان ثوب النجاح على قامة الآمال ، ويقدران بساط الفوز على ندحة الآجال . فما بلغا طيتها إلا والحمار على شفا جرف هار من رمقه ، والفارياق زاهق الروح من تعب وقلقه ، نادم على ترك القلم الضئيل ، معاً كان ينفث في الرزق القليل . . .

« هكذا كانت حال الفارياق ، فانه لما أحس بضنك السفر تبين له أن شق

(١) الفارياق ، طبعة مصر ، جزء ١ ، ص ١١ - ١٧ .

القلم أوسع من حقائق البياعة ، وأن سواد المداد أبيض من ألوان البضاعة ، وأن في ترويح السلامة لمعة دونها معة الغدة والسلعة ، فجزم بأنه عند الإياب الى وطنه يرضى بلين العيش وخشنة ، ولا يبالي اذا لم يكن ذا شارة رائحة ، او معيشة واسعة ، بحيث لا يجوب أمصاراً ولا يتلو حجاراً (١) .

وبعد جولان عدة قرى ، ليس فيها من مأوى ولا قرى ، وبعد مجادلات مع الشارين طويلة ومحاولات ومساومات وبيلة ، قنع الفاريق وشريكه من الغنيمة بالاياب ، ورضيا باللقاء والعود الى المآب ، وعلم أن البئر الفارغة لا تمتلىء من الندى ، وأن التعب في تجارتها يذهب سدى ، فتسببا في بيع البضاعة بقيمتها كيلا يشمت بها من ينظرهما راجعين بماهيتها ... ثم انها رجعا بثمن البضاعة وبالجمار وملما المال لصاحبه ، فعرض عليها سلعة اخرى فأبيا ، وقواعدا على أن يجتمعا مرة اخرى للشركة في مصلحة أهم ، وآثرا ان تكون في البيع والشراء ، فقرّ رأيهما على أن يستأجرا خاناً على طريق مدينة الكعبيكات ، حيث ترد القافلة منها الى مدينة الركاكات ... فاستبضعا ما يلزم لهما من الميرة والأدوات ، ولبثا فيه (الخان) يبيعان ويشتريان بما تيسر لهما من رأس المال وذنبه ، فلم تمض عليها برهة وجيزة حتى انتشر صيتها عند الواردين والصادرين ، وعرف رشدهما جميع المسافرين ، فكثيراً ما انتاب خانها أهل الفضل والبراعة ، والوجاهة والاستطاعة حتى كأنه حديقة ينفرج فيها الميكروب .

وصار الخان ملقى لأهل الجدل والمناظرة التي كثيراً ما كانت تؤدي الى التناطح والتساور ، ولكن الفاريق ، وصاحبه كانا يقومان فيهم مقام فيصل ، فمن هذه الحيثية كثرت الوفود عليها ، وكثيراً ما بات عندهما أصعب الميال ، والراح عليهم دائرة ، والأغاني متواترة ، والوجوه ناضرة ، والعمائم متطائرة ... فكان ذلك داعياً الى خصام النساء مع بعولتهن (٢) .

(١) الفاريق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) الفاريق ، طبعة القاهرة ، ص ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ .

وبعد اقامة الفارياق مدة على الحالة التي ذكرناها ، جرى بينه وبين جده من النزاع والمناقشات ما أوجب عليه ترك ما كان فيه ، واقتفاء طريق آخر من طرق المعاش ، فتاح له ان يكون معلماً لإحدى بنات الامراء . فلبث يعلم سيده الصغيرة ، وجعل من دأبه أن يتودد اليها بإغضاء النظر على اصلاح غلطها ، بل لم يكن يرى ان صاحبة هذا الجمال يجوز ردها ، فتأخرت هي في العلم وتقدم هو في الهوس (١) .

ثم عاد الفارياق الى حرفته «النساخته» وان كان ذلك على غير مراده . وظل كذلك ينتقل في الأعمال والأشغال حتى نكب بأخيه اسعد ، فترك البلاد .

هذه هي الصفحة الأولى من تاريخ حياة الشدياق كما رواها لنا في «الفارياق» ، وقد أوجزت جداً ، وإلا كان عليّ أن أنقل مئة وخمسين صفحة من ذلك الكتاب . أما طريقة ترجمة الحياة المألوفة ممزوجة بشيء من عملي فإليكها :

هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر شقيق بطرس الملقب بالشدياق ، من سلالة المقدم رعد بن خاطر الحصري الماروني الذي تولى جبة بشري في القرن السابع عشر .

كان «الشدايقة» في لبنان ، وخصوصاً في شماليه ، أكثر من الهم على القلب . فكل من لبس الغنبيساز شدياق ، وكل من شك دواة في زلته شدياق ، ناهيك بأن هذا اللقب كان يطلق على كل طامح إلى خدمة المذبح . وأحمد فارس هو ابن واحد من هؤلاء .

(١) الفارياق ، ص ٦٢ .

نشأ في لبنان ، وشبّ في مصر ومالطة ، واكتهل في باريس ولندن
وتونس ، وشيخ وهرم في القسطنطينية ، ومات فيها ابن ثلاث وثمانين .

لم تحوجه الثمانون إلى ترجمان كقول ذلك الشاعر ، ولم ياخذ الهرم من
ذلك الرأس شيئاً فبقي العود نضراً ، وظلت النفس خضراء ، كما كتب
عنه جورجى زيدان في كتابه : « مشاهير القرن التاسع عشر » قال :

« قدم مصر وقد شاخ وهرم (١٨٨٦) وأتيح لنا مشاهدته وقد علاه الكبر ،
وأحدق بحدقتيه قوس الأشياخ ، واحدودب ظهره ، ولكنه لم يفقد شيئاً من
الانتباه او الذكاء ، وكان الى آخر أيامه حلوا الحديث ، طلي العبارة ، رقيق
الجانب ، مع ميل الى المجون . وقد لاقى في أثناء اقامته بمصر (هذه المرة)
حسن الوفادة ، فزاره الوزراء والعظماء ، وتشرف بالمتول بين يدي الخديدي ،
فأكرمه ولاطفه وذكر خدمته للشرق . »

عاش المكاري العطار ، وصاحب الخان ...

ولد الشدياق في عشقوت (كسروان) سنة ١٨٠٤ ، وترعرع في حدث
بيروت ، وتعلم في مدرسة عين ورقة الشهيرة ، ثم لأخيه اسعد . قال الشعر
قبل العاشرة من عمره ، وأولع بمطالعة الفصيح من كلام العرب والتبحر في معاني
الألفاظ ، فانجلت له حكمة الواضع فكتب كتابه الشهير « سر الليال » الذي
يحق له ان يردد من اجله قول المتنبي : « وم لظلام الليل عندي من يد . »

مات والده ولما يشب ، فجود حظه وشرع ينسخ الكتب له ولغيره ،
وعكف على مكتبة والده يطالع ما فيها من كتب قديمة ، فحصل هذه الثروة
الأدبية من النساخة والمطالعة . وكانه قرأ قول الحريري :

أفّ لرزق يرتجى من شق تلك القصبه

فانحرف الى ما ذكر من حرف ، فأخفق فيها جميعها وملها .

وأخيراً عاد الى مهنته الاولى كما روى . ولما توفي أخوه ، أمير البطررك
الماروني في دير قنوبين ، خاف هو الآخر على نفسه ، فعاف البلاد مغاضباً ناقماً ،
على السلطتين المتعاضدتين . وقد تكون هذه النقمة أول العوامل التي تفاعلت في
نفس هذا النابغة فولدت « الفارياق » كتاب أحمد الباقي .

أمّ مصر ليكون استاذ اللغة العربية للمرسلين الأمير كيين ، فانكبّ هناك
على درس اللغة العربية فبلغ أعماق أعماقها على بعد قمرها .

عهدت اليه الحكومة المصرية بتحرير جريدة الوقائع فرقى لغتها وظهرت
آثار البلاغة فيها ، فنبغ واشتهر . وفي هذا يقول أخاه طنوس : « وفيها ، أي
سنة ١٨٢٥ ، سافر فارس الى مصر ، وخدم عند محمد علي في القلعة لأجل اعراب
الوقائع اليومية لطبع البلاطة (١) » .

وفي مصر تزوج بنت الصولي من أكابر وجهاء السوريين .

وان شئت تفصيلاً وافياً لهذا الزواج فخذ الفارياق ، فاحمد كريم لا
يبخل . اقرأ ذلك ولا تخف أن تتجنس .

ان أحمد فارس سليل بيت عريق له ضلع في الحكم ، فالشدياق بطرس
كان دهقاناً ومحاسباً في عهد الأمير حيدر سنة ١٧١٥ ، ثم صار مديراً لولده
الامير ملحم ، وفي سنة ١٧٢٩ غضب الامير عليه فانتحر في سجنه وضبط
الامير أملاك بيت الشدياق .

وفي سنة ١٧٦٨ مات الأمير قاسم عمر الشهابي ، وأقام منصوراً
الشدياق وصياً على ولديه حسن وبشير (الأمير بشير الكبير) . ثم آلت

(١) تاريخ أعيان لبنان لطنوس الشدياق ، ص ١٩٧ .

الولاية إلى الأمير حسن ، فدعا يوسف بن منصور الوصي إلى خدمته ،
فاستعاد دارهم التي ضبطها الأمير ملحم ، واستوطن عشقوت في مقاطعة
كسروان .

وفي تلك الدار ولد أحمد فارس . ثم دارت الأيام دورتها وتعكر
« صفو خاطر » الحاكم ، فتزح أبو أحمد فارس إلى حدث بيروت ، ثم
باع داره في عشقوت إلى أبناء المير يوسف الذين سمل أعينهم عمهم المير بشير
كما مرّ بك في الفصول الأولى .

فلا تستبعد إذن أن يبرز أحمد في إصدار « الوقائع المصرية » ، ويفوق
كل شرقي ، فيما بعد ، في سياسة « الجوائب » فهو من بيت خبر دخائل
السياسة ، وفي هذا يقول فارياقه :

« كان أبو الفارياق آخذاً في أمور ضيقة المصادر ، غير مأمونة العواقب
والمصائر ، لما فيها من إلقاء البغضة بين الرؤوس ، وشعب أهل البلاد ما بين
رئيس ومرؤوس . فقد كانت ذا ضلع مع حزب من مشايخ الدروز ، مشهور
بالبسالة والنجدة والكرم ، غير أنهم كانوا صفر الأيدي والأكياس والصندوق
والصوان والهميان والبيوت . ولا يخفى أن الدنيا لما كان شكلها كروياً كانت
لا تميل إلى أحد إلا إذا استأهلها بالدور مثلها ، وهو الدينار ، فلا يكاد يتم فيها
أمر بدون الخ ... » (١) .

وقد جرّت هذه الحزبية إلى نكبات دامية كما روى الفارياق :
« وكان أبو الفارياق ممن يحاول خلع الأمير الذي كان وقتئذ والياً سيامة

(١) الفارياق ، ص ٣٦ .

الجبل ، فأنحاز الى أعدائه ، وهم من ذوي قرابته (الضمير يعود الى الأمير) ؛ فجبرت بينهم مهاوش ومناوش غير مرة . وآل الأمر بعدها الى فشل أعداء الأمير ، ففرّوا الى دمشق يلتمسون النجدة من وزيرها فوعدم ومنتاهم ... وفي تلك الالة التي فروا بها هجمت جنود الأمير على وطن الفارياق (حدث بيروت) ففر مع أمه الى دار حصينة بالقرب منها ، وهي لبعض الأمراء ، فنهب الناهبون ما وجدوا في بيته من فضة وآنية ، ومن جملة ذلك طنبور كان يعزف به أوقات الفراغ ،^(١) .

ورجع الفارياق مع أمه إلى البيت فوجداه قاعاً صفصفاً ، ثم رد الطنبور عليه بعد أيام . أعطاه من نهبه لقسيس تلك القرية كفارة عما نهب . ففرح به الفارياق ، ولكنه عندما جاء خبر أبيه تفطر قلبه لهذا الفجع ، وودّ لو بقي الطنبور عند ناهبه .

إذن ، لم يصفّ الجو للشدياق إلا حين فر من لبنان ، ولم يلحقه ظفر جارح كعبد الحميد، فعاش طويلاً للأدب ، ففي ظلال ذلك الوادي الأمين طفق الطائر يغرد آمناً مطمئناً . وأعجب الناس ترجيعه فاجترأ ومضى على سننه يعبث بالعرف والعادة والتقليد .

ومدّت الأقدار يدها الجبارة فإذا بالشدياق في مالطة حيث أقام أربعة عشر عاماً يدرّس الأمير كيين المرسلين العربية ، ويصحح ما يطبعون من كتب ، مكافحاً « الركاكة » ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وهناك ألف كتابه « الواسطة في أحوال مالطة » الذي قال فيه جبر

(١) الفارياق ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

ضوميط في كتابه « فلسفة اللغة العربية وتطورها » :

« وجد الشدياق فوجد كتاب « الواسطة » وكتاب « كشف الخبا » ومائت كتاباته الأدبية البالغة مبالغتها من الطلاوة والحسن . »

واستدعته وزارة خارجية انكلترة ليعاون الدكتور « لي » في ترجمة التوراة وتنقيحها ، فأقام في لندرة وضواحيها سنوات ، فوصفها لنا أطرف وصف في « كشف الخبا » . وقد جاءت ترجمته للتوراة أصح الترجمات بشهادة علامة زمانه المطران يوسف الدبس الشهير .

أما شيخنا الشدياق فلم يكن راضياً كل الرضى عنها ، وقد وصف لنا ما كان يعترض طريقه عند الدكتور لي .

أظنك قد سئمت خطط الترجمات ، رغم محاولتنا مزجها بما يجعل لقمتهما سائغة ، فالأفضل أن تقرأ شيئاً مما كتبه الشدياق عن ذلك .

قال الشدياق يصف لنا موقف الدكتور لي من الترجمة :

« وفي مثل قولنا : ضرب لهم مثلاً ، كان (أي الدكتور لي) يبدل ضرب يقال ، لأنه كان يترجم في عقله لفظ ضرب الى لغته فلا يجد له معنى سوى إيصال الألم . وكان يبدل علم اعتقادهم برأي اعتقادهم ، ويزعم انها أبلغ في المعنى ، وان الاعتقاد ليس بمرادف للإيمان ، فإنه انما ينظر الى أصل اشتقاقه وهو المقدر وهو غير مفيد معنى الإيمان . وكان يبدل ماء البحر بمياه البحر ، وهذا لا يحذور منه الا أن تبديله هوس . وكان يزعم ان لفظة المعجزات ليست من كلام النصارى حتى وجدناها في نسخة رومية . »

« ومن أشد وساوسه تجنبه للسجع والتركيب الفصيح غاية ما أمكن ، حتى انه زعم ان ما في الترجمة من قوله : « خرجتم اليّ بمعنى كلكم » هو سجع ،

وحاول تغييرها فلم يقدر، فتركها وهو آسف... وكذا وهمه في : نلت خيراتك في حياتك . وفي : وكان هناك قطيع من الخنازير كبير . فكان يقول : هو من السجع الذي يجب مجانبته في كلام الله تعالى .

« وكما رأى جملة تنتهي بالواو والنون ، والياء والنون ، قال إنها مضامنة لكلام القرآن فيبدلها . حتى انه رأى هذه الجملة وهي : وأنتم على ذلك شهود ، فقال : ان هذا الوقف يشبه وقف القرآن ، فمن ثم بدلتها بقوله : وأنت شهود على هذا . ووجد عبارة أخرى وهي : وما أولئك بعابرين من هناك إلينا ، فقال : هذا التركيب فصيح ، فبدل عابرين بيمبرون . ولم أتعجب من تغييره وإنما تمجبت من أنه شعر بحسن هذا التركيب .

« وكان يحاول أن يقال : واتفق أنه قال ، واتفق أنه افتر . فقلت له : هذه لا يصح استعمالها مع الأفعال التي لا تقتضي الندرة في الاستعمال ، فلا يقال مثلاً : جاءني فلان واتفق انه جلس ، فإنه لا ندرة في الجلوس بعد المجيء . فقال : وأين أنت من المحافظة على الأصل ؟

والذي ظهر لي انه فضلا عن كونه شديد التعصب للتوراة فإنه كان يتقي لوم خصائه ، فإنه كان ذا خصوم كثيرة ... إلا أنه لا حرق أكثر من أن يترجم من لغة الى أخرى بعين الألفاظ والتراكيب ، اذ لا يتصور بالبال أن لغة تطابق أخرى في التعبير . فكيف يمكن أن يقال بالعربية : خرج الدخان من مناخر الله ، كما يقال بالعبرائية ، أو احشاء الله كما يقال باليونانية » (١) .

وبعد ان أقام الشدياق في لندرة وضواحيها سنوات ، غادرها إلى باريس تاركاً فيها قلدة كبده (ابنه فائز) مدفونة في احدى ضواحيها ، وقد رثاه بقصيدة منشورة في الفارياق .

(١) كشف المحبا ، الطبعة الثانية ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

وفي باريس طبع كتابه الفارياق ، وفي لندن وباريس ألف « كشف
المنجبا » فلم يترك شيئاً يقال ولم يقله .

كان قوي الملاحظة ، شديد وطأة النقد لإيرحم ولا يحابي .

عاش في أوروبا ومالطة عربي اللباس . فكان فرجة للناس كما أنبأنا
في فارياقه . وتعلم اللغتين الفرنسية والانكليزية في هذه الاثناء ، وألف
فيها ، وتعرف باكابر علماء أوروبا وشعرائها وخصوصاً لامرتين ، فزوده
بكتاب توصية عندما قام برحلته الى الشرق ، ولكن لامرتين لم يحفظ له
اليده ، فتخلى عنه في ضيقته ، حتى انه لم يجبه ، فيما بعد ، على كتاب بعث
به إليه .

وفي غضون إقامته بباريس ألف « سر الليال » و « الجاسوس على
القاموس » و « منتهى العجب » .

و شاء الحظ أن يتسم له بعد ذلك الجفاء ، فزار باريس أحمد باشا باي
تونس ، وأحسن إلى فقرائها بسخاء . فمدحه الشدياق بقصيدة أولها
« زارت سعاد » . ثم بعث بها إليه بعد عودته إلى بلاده ، ففتن بها الباي
وأرسل يستقدمه إليه على سفينة نارية وجهها خصيصاً ليجر الشدياق
وعائلته عليها ، فذاق لأول مرة طعم المجد الذي تاق إليه حين فتح ذلك
الحان ، الكائن بين مدينة الكعيكات ، ومدينة الركاكات ... فعجب لهذا
الاکرام العظيم وقال : لعمرى ما كنت أحسب ان الدهر ترك للشعر
سوقاً رابحة^(١) .

(١) الجامع المفصل ، ص ٥٣٥ .

وجاء تونس فغرق في نعمة الباي .

قلده أسمى المناصب ، وعهد اليه برئاسة تحرير جريدة الرائد التونسي ومديرية المعارف . ثم أسلم وتسمى أحمد ، وتكنى بأبي العباس . وطار صيته في الشرق والغرب ، فطمعت الأستانة به ، فطلبه جلالة السلطان من سمو الباي ، فجاء الأستانة مكرماً مبعجلاً بعد سيره وراء ذلك الحمار بين بسوس وبشامون وعين عنوب وغيرها .

فها هو في قصور اسطمبول ينعم غارقاً بين الزهور والعطور بعد ما كان يسير خلف حمار وصفه بقوله :

« لا يتحرك إلا اذا أحس بالملف ، وان يكن زواناً . ولا تظهر فيه الحيوانية إلا اذا رأى ائناً ، فيريك حينئذ سموها واستناناً ، ونشاطاً وحياناً ، حتى كثيراً ما كان يقلب حمله ويفسد عدله . وفيه خصلة اخرى وهي انه كان دائم الاحداث على قلة اعمال ضرمه ، مواصل الغفق في النجوة والخفض زيادة على نحسه ، فان منشأه كان في بلاد يكثر فيها الكرنب والفجل والسلجم ، واللفت والقرنييط كبعض بلاد المعجم . فلهدا اعتاد على إخراج هذه الرائحة من صفره ، وزادت فيه بازدياد عمره . فكان لا بد للماشي خلفه من سد انفه ، والاكثر من أفه ، (١) .

وتولى الشدياق في الأستانة تصحيح الطباعة الشاهانية سنين . وكان الباب العالي موطاً له ، فقربه السلطان وأنعم عليه بالرتب السنية والنياشين السامية . ونال مثل ذلك من الدول العظمى .

(١) الفارياق ، ص ٤٨ .

وظل طول عمره محافظاً على الرعوية الانكليزية ليتقي بها غدر رجال الدولة العثمانية ، لأن هواه السياسي كان مع مصر . وذلك يتضح من عبارة كتبها في رسالة إلى نسيبه ضاهر الشدياق بالخط الكرشوني خوفاً من الاطلاع عليها . وهذا منطوقها العربي :

« اني ، يا ولدنا ، ليس لي تعلق بهذه الدولة أصلاً ، لأنني لست في خدمتها ، وأكبر أعدائي هو ناظر الخارجية ، فإذا كان هذا المتصرف من حزبه ، وعرف أن في خدمة الحكومة اللبنانية بعضاً من أقاربي طردهم لا محالة . »

وفي عبارة أخرى في الرسالة عينها ، وهي مكتوبة بالكرشوني أيضاً . « سبب كون ناظر الخارجية عدواً لي كونه عدو أفندينا الخديوي » (١) .

وفي سنة ١٨٦١ أصدر جريدته « الجوائب » فملاّت شهرتها الشرق والغرب ، فصدرت أمهات جرائد أوروبا عن رأيها في السياسة الشرقية ، ولقبت صاحبها بالسياسي الشهير والصحافي الذائع الصيت .

وظل يصدرها حتى قضت الحوادث السودانية بوقفها سنة ١٨٨٤ . أما الشدياق فظل منعكفاً على التصنيف حتى آخر ساعة من عمره ، فكان منه كما قال عنه المستشرق الانكليزي الأستاذ جيب :

« أحد الأبطال العظام المدافعين عن الاسلام » .

وفي صيف سنة ١٨٧٧ مات في مصيفه بقاضي كوي ، بعد إرجاعه من مصر

(١) تجد صورة هذه الرسالة كاملة بخط الشدياق في « المكشوف » ، السنة الرابعة ، ص ١١ ، العدد ١٧٠ ، في ١٧ تشرين الأول ١٩٣٨ .

بإرادة سلطانية . فكان لموته صدى عظيم في الشرق والغرب ورتاه الكبراء والمعلماء والصحف على اختلاف لغاتها ، ومثّل جلالة السلطان عبد الحميد في مآتمه . وقد نعتة هافاس الى العالم بتاريخ ٢٢ أيلول : « توفي مساء أمس المرحوم أحمد فارس الشدياق الشاعر العربي المجيد والكاتب الشهير عن ٨٨ سنة ومستقل جثته الى لبنان لتدفن هناك » .

وجاء في دائرة المعارف للبستاني :

وصدرت الارادة السنية بدفنه في تربة السلطان محمود ، فالتمس ولده سليم أن يدفن في جبل لبنان عملاً بوصيته ، فأذن بذلك .

واليك وصف مآتمه في لبنان كما جاء في جريدة « لسان الحال » التي أخذنا عنها حرفية برقية هافاس السابقة :

« نشرنا في العدد الماضي البرقية المنبئة بنقل جثة من تأليفه وتصانيفه انتشرت في القارتين آسيا وأفريقيا ، العلامة الشهير أحمد فارس الشدياق ، لتدفن في قرية الحدث من لبنان مسقط رأسه .

وفي هذا الصباح بعد أن رست الباخرة النموية ونقلت الجثة منها الى البر ، كانت الحلق جماهير لا تحصى ، وفي مقدمتهم صاحب الفضيلة عبد الباسط أفندي مفتي الثغر ، والعلماء ، والشرط . فسير بالجثة وأمامها الرايات ، والمشايخ ، ووراءهم مشايخ الطرق يهللون ويكبرون الى أن بلغوا الجامع الكبير . فبعد أن صلّوا عليه وقرئت القصائد والخطب ، حمل حتى بلغوا به ساحة البرج .

وهناك وضع على عجة الأموات ليذهبوا به الى قرية الحدث حيث يدفن في مدفن أعد له . وقد رافقه من الاستانة العلية صاحب السعادة نجله الكريم سليم أفندي . وقد رثاه على الضريح الشعراء والأدباء بمراث كثيرة^(١) . . . الخ .

(١) لسان الحال العدد ٩٩٧ ، ٦ تشرين الأول ١٨٨٧ .

قال زيدان : « وبالْحَقِيقَةُ أَنَّ الرِّثَاءَ ، وَانْ كَثْرَ ، قَلِيلٌ فِي جَانِبِ مَا يَلِيْقُ
بِمَقَامِ الْفَقِيْدِ » .

هَذَا هُوَ الشَّدِيْقُ الَّذِي نَتَحَدَّثُ عَنْهُ .

كَانَ فِي حَيَاتِهِ حَدِيثُ عَصْرِهِ ، وَهُوَ ، بَعْدَ كَرِّ السَّنِيْنِ عَلَيَّ وَفَاتِهِ ،
حَدِيثُ حَسَنِ لِمَنْ وَعَى .

تأليف الشدياق

- « سر الليال في القلب والابدال » « نحو اللغة الانكليزية »
« الجاسوس على القاموس » « الصرف الفرنسي »
« كشف الخبا عن فنون اوربا » « منتهى العجب في خصائص لغة
« الواسطة في معرفة أحوال مالطة » « العرب »
« الساق على الساق فيما هو الفارياق » « النفايس في إنشاء أحمد فارس »
« اللفيف في كل معنى طريف » « التقنييع في علم البديع »
« غنية الطالب » « الروض الناضر في أبيات ونوادير »
رسائل ومحركات أدبية ، ديوان شعر ، مجموعة مقالات نشرت في جريدة
الجوائب (سبعة أجزاء) ، « أسرار طبائع الحيوان » (ترجمة) ، ترجمة
التوراة وتنقيحها ، كتاب حول التوراة في سبعمائة صفحة (مفقود) .

هنا ما ألفه الشدياق . أما ما نشره وصححه وطبعه في مطبعة
الجوائب فكثير . وهكذا نور العقول وثقف الألباب .

الفارياق

لقد اتسبنا من الكتابة التقليدية، فلندع القلم يمشي على سجيته وطبعه،
فاتبعني ، غير مأمور ، ولا تضع أمامك الهندازة ، فانا لا أقص عليها .

لست أقول كما يقول باحثو الأدب الغربي: الرجل . حياته . آثاره...
فانا ، وحياتك الغالية، خياط مستقل، سواء عندي وفد البريد أم لم يفد،
فليس لدفتري الأزياء شأن في نظري ... إنني ، كما تعرفني ، افصل على عقلي
كصاحبي هذا . فإن جاء الثوب على القدر فقل في ما شئت ، وإلا فإنني
اذكرك بييت بشار في النبي خاط له ذلك القباء " ...

ما أقل عقل من يريدون ان يفهموا الشدياق دون أن يقرأوه ، فليس
في الأدب الصحيح عجائب سيده لورد ، ولا هو تلقيح بلح .

قد تعودوا أكل السندويش (الشاطر والمشطور وبينهما الكامخ ،
كما سماه المجمع الملكي) . أما أنا فأريد لهم الهريسة وغيرها من المأكول
الصعبة النضج والهضم . فاللذة الكبرى لا تكون إلا بعد تحريق الأصابع
والانتظار العنيف . وما رأيت السندويش يسدّ جوعاً ويشبع نهماً .

ان وصف المتحف غير رؤية آثاره قطعة قطعة . ففي الزنجر الذي

(١) قال بشار في خياط أعور خاط له قباء :

خاط لي عمرؤ قباء ليت عينيه سواء
قل لمن يسمع هذا أمديح أم هجاء ؟

يموّه العاديات إيجاء يعجز عنه القلم . قد تفتن العالم الأثري قطعةً فخار ،
فيجنّ بها ويعمى عما في المتحف من ذهب وحجارة كريمة ، غالية الثمن .

سأقول شيئاً بل أشياء عن الشدياق، ولكنني أعترف لك بقلب منسحق
ان درس دماغ بشري يقتضي عمراً كاملاً ، فاستنتج إذن ما شئت من
خرابيشي هذه ، ثم عد الى نفسك إن كنت ممن يطمعون بالمزيد ، وادرس
الرجل على بصيصها . ما قلت « على نورها » لأنه يحلو لي جداً ان أتواضع
أمام صقر لبنان ، وجبار أدباء القرن التاسع عشر .

أحمد فارس الشدياق أحد ثلاثة او اربعة في تاريخ الأدب العربي .
وقد يكون فذاً من أفذاذ العالم أجمع في كتابين : الأول الفارياق الذي
لم يكتب مثله شرقي ، كما يقصر عنه الكثيرون من نوابغ العرب . فدافيد
ديكنز وكتاب ألفونس دوده Le Petit Chose أهية بالقياس اليه ، وربما
كان بينه وبين اعتراف روسو بعض القرابة الدموية ...

أما الثاني فكتاب سر الليال الذي كشف الغطاء عن ناووس اللغة
العربية ، وأعاد الحياة إلى موميائها، فتنفست وعطست ، بين يدي أحمد،
سبع عطسات كابن أرملة اليشع ... ومن درس هذا السفر البديع يقول
مع بيفون : ليس النبوغ إلا صبراً طويلاً .

ولكي تفهم بعض « سر الليال » أهجر النرد والبريدج مئات ليال .
ليتنى أعطى من الأعمار ما تمناه المتني لسيف الدولة، فادرس الشدياق
عن بني أمي جميعاً ، وأعرفهم بأخيمهم وابن عمهم هذا .

ليس في القرن التاسع عشر أدب حي ، كما نفهم الأدب اليوم ، إلا ما كتبه الشدياق في « فارياقه » و « واسطته » و « كشف مخبائه » وفصوله التي أذاعتها « جوائبه » .

وانني لأضحك ممن يعد « الفارياق » كتاباً بديئاً فيؤاخذ الرجل على أحماضه ، متغاضياً في كتابه الطريف من حياة راقصة ، وعبرة باسمه . فهو أشبه بالعوالم التي اكتشفها باستور في نقطة الماء . فلننتلذد باستور في الأدب إذا كنا نحاول فهم رجل كهذا .

يقول الناس : لا حياء في الدين . وأنا أقول : لا حياء في الفن . وغير الفنان يرى الفن بديئاً . فاقرأ الشدياق قراءة فنان ان رمت تعظيمه ، واقراه قراءة أهبل إن شئت أن تصب على رأسه أقدار البواليع . فسيان عند أحمد هذا وذاك . ألم يقل لي ولك وله في القصيدة التي نظمها وصدّر بها كتابه :

هذا كتابي للظريف ظريفا	طلق اللسان ، والسخيف سخيفا
أودعته كلما وألفاظا حلت ،	وحشوته نقطاً زهت وحروفا
وبداهة ، وفكاهة ، ونزاهة ،	وخلاعة ، وقناعة ، وعزوفاً
كالجسم فيه غير عضو نعتق	المستور منه ، وتحمد المكشوفاً
فصلته ، لكن على عقلي ، فما	مقياس عقلك كان لي معروفاً
هو حصرم في طرف من يفتابه	ما زال ، ان ذكر اسمه ، مطروفاً
وحياة رأسك ، ان رأسي عارف	اني به لن أستفيد رغيفاً
لكن بقرني حكمة هاجت على	اني أعالج مرة تأليفاً
ما راج من قولي فخذ ، وما تجد	من زائف فاتركه لي ملفوفاً

أرأيت ذا كرم يردّ هدية ،
ان كنت احساناً أتيت ، قدونك
اثنى الى أنفي يناط مدلداً
ولرب فسق اللسان مبادئه
ان المصنّف لا يكون مصنفاً
ويسوم مهبها له تعنيفاً ؟
التعبيد لي أو لا فلا تعديفا
ما ان يصيب من العباد انوفا
يغدو ، وقد فسق العفيف ، عفيفا
إلا إذا جعل الكلام صنوفا ...

ويختم قصيدته التي سماها « فاتحة الكتاب » وهي مئة بيت بقوله هذا:
إني أرى كالريح في أذنك عر ف نصيحتي راحت سدى وطلافا
ألا تعلم ، أرشدك الله ، انك تضحك الناس منك إن رأيت في النظر
إلى تمثال الزهرة خطيئة مميتة توقعك في جهنم ؟

فالفن لا يدرس إلا على فانوس الوثنية ، ولا نصيب فيه لمن تهلكه
خطيئة الفكر ...

قد تقول لي : الأمس هو دائماً فردوسك المفقود ، وأنت تبغض
الأحياء ، وعرق عبادة الموتى لا يزال قوياً فيك . أما أنا فاسمعك ما
قرأته أمس عن الفن : جديد ، أيضاً جديد ، دائماً جديد .

فاقرأ جيداً هذه الكلمات فهي قاعدة الفن الاولى . ثم اخلع ذاتك
التقليدية واقراء الشدياق . ألم يجيء الشدياق في زمن كثير فيه القديد الأدبي
و « المصبرات » فوجهنا الى الماكل الطازج ، يوم كان معاصروه يتلهون
بقشاشي المائدة ؟ .. فما أحوجنا الى نسابه أدبي يخزي شياطين الأدعياء
المعرضين الذين يجمعون خلف القدماء كالجمال العرج ا

فالبلياني Rhéteur ، كما سماه الرومان ، هو من يتكلم ويروض الألفاظ فيقرنها الى نير الفكر ويحسن تكييفها ، ويخزها ويهمزها حتى تلين وتطيع ، ويكرها على أشق أعماله وأخطرها وأندرها . فإن كان هذا حدّ البلياني ، وهو هذا ، كان شدياقنا هو الذي أدرك سر البيات . فاقراً كتبه ، ولا بأس عليك من تنينها الجهنمي ، فنعمة روح قدس الفن تحفظك كما حفظتني ... سهل عليّ جداً ان أكون تيس الخطبة في هذا الموقف ، فتمسح بي بعد قراءته لأقول لك : إيمانك أحياك ، اذهب بسلام .

لم يظن الشدياق انه بلغ السموات العلى ، ولم يكن بلا عقل كالمُدّعين الثرثارين ، ولذلك قال لنا : « إني ساضحك من سخف عقلي حين أقرأ كتبتي » . وهذا يصاقب قول كاتب فرنسي كبير : « المغفل منا من يعتقد انه بلغ نهاية النهاية ، وان نظرياته تؤكد دوامها » .

ولكن إذا كان هدف الكاتب في الحياة ان يخلد اسمه بأثر أدبي ، كما يقول المسيو تاريف ، ناقد « الطان » ، فالشدياق قد بلغ الأرب . ولنعلم جميعنا ان الأدب لا يبينه واحد فقط ، فعلى كل منا ان يضع ولو حجراً في هذه البناية العظمى .

وكما يشقى العنب فيعصر ، ويكبس ، ويغلى في الخوابي ، محيلاً ، ليصير خمرة هادئة في الكأس ، كذلك الأدباء والشعراء . وفي سيرة أديبنا الأعظم ، وقد كتبها بيده ، ما يثبت هذا . فلولا شقاؤه لم نغز بهن الأثار الخالدة .

تَخَلَّفَ وَتُخَلِّفُ

قبل ان نبدأ في درس نواحي الشدياق ناحية ناحية ، يجب علينا ان نعرفك به ، فاسمع :

من ينظر الى رأس احمد فارس في صورته بحسب انه إمام جبار ،
عبل الشوى كحصان عنتر . ولكن من يقرأ شعره يعلم انه أقل من مربوع .
وإن تقل : قد يبالغ الشاعر ، قلنا لك : افتح الفارياق فتقرأ : قد كنت
أظن ان صغر جثتك ، يا فارياق ، لا يكون موجبا لإنشاء تأليف كبير
الحجم مثل هنا . وأقسم انك لو تابطته ومشيت به خطى على قدر
صفحاته لنبذته ورائك وشكوت منه ومن نفسك ، إذ كنت انت
السبب فيه ^(١) .

وبعد ، فالرجال لا تباع بالذراع ولا تقاس بالقدم الانكليزية . والذي
يتراءى لي من قراءة الرجل انه متطرف في كل شيء : متطرف في اجتهاده
وجهاده ، متطرف في عزمه الذي لا يكل ولا يمل ، متطرف في مطالعته ،
متطرف في تأملاته ، متطرف في تعبيره وتفكيره ، يتخطى كالنطيقى
الزنديق ولا يسقط في يده . تسوؤه أقل بادرة ، فيشهر حرب البسوس ،
وترضيه كلمة فيعفو ، وإذا بالماضي قد مضى .

يخلص لأصحابه الود ، ويغفر لمن أساء اليه إن استعطفه متذلا .

(١) فارياق ، جزء ٢ ، ص ٢٨٢ .

الغريزة الجنسية عنده ملاك الحياة ، فهو لا يعنيه من هذا الوجود إلا
ما تدركه الحواس . أما ما وراء الطبيعة فيرى البحث فيه تهليسا ومهارة .
حبه لعيلته يفوق الحد ، وقد عبر عنه بوعظه الأمراء في « فارياقه » ،
وظهر لنا جليا في حزنه وبكائه على ولده فائز حين قابل الدكتور لي .
لا يؤمن بالوحي ، ويخطيء ما لا يسلم به العقل . ولو كانت اليوم
لضحك من أدبائنا الموسومين الذين يفتشون عن الله والآخرة ...
جاء أحمد قبل وقته فقاسى آلاما وعذابا ، وقال شيئا وترك أشياء
كانت تجول في صدره وبين تلافيف دماغه الكثير الأكايف ...
فالمحيط البيتي والبلدي ، وتلك النكبات المتتالية جعلت منه هذا
الساخط الحائق ، ومن طبعه أنه يجيد الكلام متى حنق .
أوتي قود استطراد عجيبة ، فكانت سلاحه الماضي في منازلة خصومه .
قد يكون حب المجون والأحماس من طبعه ، ولكن مكتبة والده التي
عكف عليها صغيراً ، وهي حافلة بالكتب العربية القديمة كالشكول
والمستظرف وغيرها ، قد أمنت هذا الذوق ، ثم عزز هذا الميل فيه النسخ
والقراءة فجاء صارخاً عجاجاً .

الشدياق الكاتب

كاتب اهتدى إلى ذاته العظمى ، وكان مغامراً فلم يخف على أسلوبه من

الموت ، فارسله في العالم العربي ، غير مبال بصواطير الأدب ، ولا بمن صدت عقولهم لنومتهم العبودية في أقبية التقاليد .

كان معلم الجيل في تأليفه الكثيرة ، ومحدثهم الدائم في « جوائبه » .

أوتي قوة الاختراع ، فعبر عن فكره الطريف بأسلوب ظريف ، فهو مخترع أبداً حتى في الفصول السياسية ، والأخبار المحلية ، مبتكر في التعبير خاصة ، خلق منطيقياً جدلياً ، فجاء فارياقه ملآن بالتعابير الفجائية التي يسوق إليها الحوار .

لم يفقه شيء من الأصول الفنية فأدرك ان ما أنطق به زوجته لا يتفق وعلمها ، فاعتذر عن ذلك في مقدمة « فارياقه » الذي بناه على أساسين ، كما قال في « تنبيه من المؤلف » وهو مقدمة الكتاب :

« وبعد ، فإن جميع ما أودعته في هذا الكتاب فإنما هو مبني على أمرين ، أحدهما إبراز غرائب اللغة ونوادرها ... والأمر الثاني ذكر محامد النساء ومذامهن . فمن هذه المحامد ترقى المرأة في الدراية والمعارف بحسب اختلاف الأحوال عليها كما يظهر مما أثرت عن الفارياقية (زوجته) وقد نسب اليه حسب الاصطلاح القروي اللبناني) . فانها بعد أن كانت لا تفرق بين الأمر والمخلوق اللعية ، وبين البحر الملع وبجر النيل ، تدرجت في المعارف بحيث صارت تجادل أهل النظر والخبرة ، وتنتقد الامور السياسية ، والأحوال المعاشية في البلاد التي رأتها أحسن انتقاد . فإن قيل انه قد نقل عنها ألفاظ غريبة غير مشهورة لا في التخاطب ولا في الكتب ، فلا يمكن أن تكون قد نطقت بها ، قلت : ان النقل لا يلزم هنا أن يكون بحروفه وإنما المدار على المعنى » (١) .

(١) الفارياق ، جزء ١ ، ص ٣ .

أرأيت كيف ينجو من المؤاخنة كاتب مسلح بخصلة النقد ؟

لقد أنباني ما لاحظت في آثاره الأدبية ان مولانا الشيخ من قطاع الطرق في الادب لا يدع سبيلاً لمتربص ، بل يسدّ عليه الدروب كلها . وهذا أيضاً من خواص دماغه الكبير . رأى انه يثرثر ، أحياناً ، فقال في مطلع الفصل الثاني عشر من الفارياق ، وعنوانه :

« في أكلة وأكال » :

« لا بد لي من أن أطيل الكلام في هذا الفصل امتحاناً لصبر القارىء ، فان أتى على آخره دفعة واحدة من غير أن تحترق أسنانه غيظاً ، أو يتزوي ما بين عينيه وأنفه وخشمه ، أو تنتفخ أوداجه وغراً وهوجاً ، أفردت له فصلاً على حدته مدحاً فيه ، وعددته من القراء الصابرين .

ولكون الفارياق ، في هذا الوقت ، قد طال لسانه ، وان يكن فكره قد بقي قصيراً ، ورأسه صغيراً ناقصاً من عند قحدوته ، وقد نذرت نفسي أن أمشي وراءه خطوة خطوة وأحاكيه في سيرته . فان رأيت منه حمفة جئت بمثلها ، أو غواية غويت مثله ، أو رشداً قابلته بنظيره . وإلا فاني أكون خصمه لا كاتب سيرته ، أو ناقل كلامه .

وبنفي أن يعلق هذا الحكم في أعناق جميع المؤلفين . ولكن هيهات ! فاني أرى أكثرهم قد زاغ عن المحجة . إذ المؤلف منهم بينا هو يذكر مصيبة أحد من العباد في عقله ، أو امرأته ، أو ماله ، اذا به تكلف لإيراد الفقر المسجعة ، والعبارات المرصعة ، وحشى قصته بجميع ضروب الاستعارات والكنائيات ، وتشاغل عن هم صاحبه بما يدل على أنه غير مكترث به . فترى المصاب ينتحب ويولول ، ويشكو ويتظلم ، والمؤلف يسجع ويمجنس ، ويرصع ويورتي ، ويستطرد ويلتفت ، ويتناول المعاني البعيدة ، فيمد يده تارة الى الشمس ، وتارة

الى النجوم ، ويحاول إزالتها من أوج سماؤها الى سافل قوله ... ما ذلك دأبي .
فاني اذا أوردت كلاماً عن أحق انتقيت فيه له جميع الألفاظ السخيفة ، واذا
نقلت عن أمير ناد تأدبت معه في النقل ما أمكن ، فكأنني جالس بمجلسه ، أو
عن قسيس مثلاً أو مطران أتخفته بجميع اللفظ الركيك والكلام المختل ، لئلا
يصعب عليه المعنى فيفوت الغرض من تأليف هذا الكتاب ، (١) .

إنني أرجو منك ، يا سيدي القاريء ، ان تنقبه دائماً الى الهمز
والغمز واللمز حين يذكر هذا وذاك ، فهو ينتقد كل شيء في وقت معاً...
بدأ الشدياق فارياقه ساجعاً مغرباً ليرينا انه مستطيع ذلك، ثم أدرك
معلم الجيل ان السجع ، وهو لم يسلم منه ، مرض عصور الأدب ،
فقال فيه :

« السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي ، فينبغي لي أن لا أتوكأ عليه
في جميع طرق التعبير ، لئلا تضيق بي مذاهبه ، أو يرميني في ورطة لا مناص
لي منها .

والغرض هنا أن نغزل قصتنا على وجه سائح لأي قاريء كان ، ومن أحب
أن يسمع الكلام كله مسجعاً مقفى وموشحاً بالاستعارات ومحسناً بالنكايات ،
فعلية بمقامات الحريري ، أو بالنوابغ للزنجشيري ، (٢) .

« أما اذا تعنت عليّ أحد بكون عبارتي غير بليغة أي غير متبلة بتوابل
التجنيس والترصيع ، والاستعارات والنكايات ، فأقول له : اني لما تقيت
بخدمة جنابه في انشاء هذا المؤلف لم يكن يخطر ببالي التفتازاني ، والسكاكي ،

(١) الفاريات ، جزء ١ ، ص ٧٣ .

(٢) الفاريات ، جزء ١ ، ص ٦٠ .

والأمدي ، والواحدي ، والزنجشري ، والبستي ، وابن المعتز ، وابن النبية ،
وابن نباتة ، وإنما كانت خواطري كلها مشتغلة بوصف الجمال ... وبغبطة من
خوله الله عزة الحسن ، وبرقاء من حرمة منه ، وفي ذلك شاغل من غيره .

على اني أرجو ان في مجرد وصف الجمال من الطلاوة والرونق والزخرفة ،
ما يعني عن تلك المحسنات استقناء الحسنة عن الحلبي ، ولذلك يقال لها غانية .

« وبعد ، فاني قد علمت بالتجربة أن هذه المحسنات البديعية التي يتهور فيها
المؤلفون ، كثيراً ما تشغل القارئ ، بظاهر اللفظ عن باطل المعنى » (١) .

أجل ، ان انشغال بال الفاريق بالجمال ولهجه به ليلاً نهاراً خلع هذا
الجمال الفني على ما خطه قلمه ، فهو ككاتب ، معلم عصره ، ونوابغ كتاب
زمانه تلاميذه .

لقد فكك القيود وحرر الأذهان من عبودية القديم ، فهوت ربوبيته
عن كرسي مجدها . ولكنه وضع لتقديس القديم حداً لا يمتحن الألوهة ،
ولا يجر إلى الوثنية ، ولو برهنت عن أثره هذا بسرد تتف من كلامه لمئات
مجلداً ضخماً وما اكتفيت ، فعد أنت إلى تأليف الشيخ ، وإن وجدتنني
كاذباً فالمحاكم أمامك ، وعليّ وعلى أولادي ما يلحقك من درك .

وان كان لنا شيء نؤاخذ الشيخ عليه فهو هذا القفز والجمز ، فإنه
يفر أحياناً كالقبوط . وكان شيخنا المعظم قد أدرك ما في هذا البتر من
فقدان لذة أدبية ، فقال لنا في « فاتحة الكتاب » :

(١) الفاريق ، جزء ١ ، ص ١٥ .

ان شئت تلبسه على علاته فاهناً به أو لا فدعه نظيفاً
ولقد أجزتك سفه أو لعقه أو إن تخف قيناً فخذهُ مدوفاً
لكن حذارٍ من الزيادة فيه أو أن ترتأي استعماله محذوفاً
إذ ليس فيه من محلّ قابل للعطف أو لزيادة تثقيفاً
وإذا تخاصم كاذبان فلهجة الـ أشقى ينادر شعرها منتوفاً

أحمد الشاعر

قال أحمد :

وكان الفارياق يتهاقت منذ حدائته على النظم من قبل أن يتعلم شيئاً مما يلزم
لهذه الصنعة ، فكان مرة يصيب ، ومرة يخطئ ، ومع اعتقاده أن الشعراء
أفضل الناس ، وإن الشعر أجل ما يتعاطاه الإنسان .

وبعد فلا ينبغي أن يكون الشاعر عاقلاً أو فيلسوفاً ، فإن كثيراً من المجانين
كانوا شعراء ، أو كثيراً من الشعراء كانوا مجانين ، وذلك كأبي العبر ، وبهلول ،
وعليان ، وطويس ، ومزيد .

وقد قالت الفلاسفة إن أول الهوس الشعر ، وأحسن الشعر ما كان عن هوس
وغرام ، فإن شعر العلماء المتوقرين لا يكون إلا مقرزماً . فلما سمع الفارياق ذلك
زهد في الشعر ورغب عنه إلى حفظ الألفاظ الغريبة ، ولكنه لم يلبث أن رجع
إلى خلقه الأول .

ذهب مع أبيه (جابي الحاكم) إلى قرية بعيدة ، فأنزله أهلها منزلاً كريماً ،
فهوى جارته لأنه كان غراً ، وانها هي استهوته وأطعمته لكونها جارة . غير
أن مدة إقامته هناك لم تطل ، واضطر إلى الرجوع مع أبيه ، وقد بقي كلفاً
بالجارة . فلما حان الفراق بكى وتحسّر ، وتنفس الصعداء ، ونخزه الوجد لأن
ينظم قصيدة يعبر بها عن غرامه ، فقال من جملة أبيات :

افارقها على رغم واني اغادر عندها قلبي وروحي

وهي أشبه بنفس شعراء عصره الذين يقسمون أيماناً مغلظة بأنهم قد عافوا
الطعام والشراب شوقاً وغراماً ، وسهروا الليالي الطويلة وجداً وهياماً ، وقد
ماتوا وكفثوا ، وحنطوا ودفنوا ، وهم عند ذلك يتلهون بأي لهوة كانت .
ثم انه لما اطلع أبوه على تلك الأبيات الفراقية ، لامه عليها ونهاه عن النظم ،
فكأنما كان قد أغراه به ، فان من طبع الأولاد في الغالب الخلاف لما يريد
منهم آباؤهم (١) .

هذا ما قاله الشدياق عن نفسه أما نحن فنقول : ليته لم يعصَ والده ،
ولكن المقدر كائن لا يحصى .

لسنا نحمد الشدياق شاعريته ، فقد كانت ، والحمد لله ، قوية جداً ،
وقريحتة كانت أغزر ما تكون القرائح ، ولو شاء أن يحكي شعراً لاستطاع
ولكنه كان قليل التجديد شاعراً ، كثيره ناثراً .

بكى الطلول كما بكوا ، وقال الغزل الكاذب مثلهم ، مع علمه انهم
لفي ضلال مبين ، وما أكثر ما انتقد خطتهم تلك ، فالظاهر أن بين فمه
وأذنيه أربعة أميال لا أربع أصابع ، وقد مدح وهجا ورثى وقال الشعر
في كل غرض ومطلب .

لسنا ننكر انه كان يحاول التجديد دائماً ، حتى فكر أن يفكك
أغلال القافية ، فقال أربعة أبيات مختلفة القوافي ، وصرح لنا أنه فعل

(١) الفارباق ، ج ١ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

ذلك تهاقتا على أحداث شيء غريب ، وإذا لم ير غريبه بدعاً أمسك وعاد
يجمع خلف القدماء .

اتنا نعذر الشدياق على مدحه ، ففي « بانت سعاد » لم يكن كعب أعلى
منه كعباً ، ولو أتيت لصعاليك شعراء المناسبات جزء من مليون مما ناله
الشدياق لعذرناهم أيضاً وصفقنا لهم ، ولكنهم ، ويا للخجل ! كالقرآدين
يدحون الناس ويشتهون الرغيف في يد من يضمه ويشمه كبخيل
أبي نواس .

شقي الشدياق أولاً ، ثم فاز أخيراً بهذا الشعر الذي كان خير بضاعة
عصره ، أو سلم المعالي كما قلنا سابقاً ، - لا تنسَ أني قلت عصره - ،
فاسمعه يصف شقاءه ، ولاحظ ، وأنت ماراً ، ما في هذه الأبيات من تقليد
أعمى ، وتكلف شنيع .

وليلي درس الصحف من كل كاذب	سميري في وجه النهار براعة
ويا لك من ليل بطيء الكواكب	فيا لك من يوم كريب صباحه
يزل لافظاً بي أرض من لم يبال بي	كأنني في حلق الزمان شجاً فلم
أما فيهم من صاحب غير صاحب ؟	أما في الوري من عادل غير عادل

أما حين ضحك له الدهر بهذا الشعر ، وحمله البايع على بارجة حرية
لأجل « بانت سعاد » فقال كما مر بك : ما كنت أحسب أن الدهر ترك
للشعر سوقاً ينفق فيها .

كان الإمام متشائماً قبلما صلحت حاله ، وكثر ماله ، فشكا الدنيا قائلاً :

ان تبتم دنياك يوماً فلا تركن اليها انها آله
فربما شاقك برق سرى مبتسماً يتبعه صاعقه

ولكن الصواعق زالت ، والحمد لله ، وجاءت الديم ، وسكن الشاعر
القصور الشاهقة ، في الأستانة العلية ، بعد ذلك الكوخ الماطي الذي
قال فيه :

تعالوا وافقهوا عني ثلاثاً تعلمكم مراعاة النظر
خلاقي ، ثم جسمي ، ثم بيتي صغير في صغير في صغير

وشاعرنا ماجن مهذب في شعره ، إلا إذا هجا ، متهتك في نثره ، وقد
عرفنا بنفسه يوم كان شقياً :

ما زارني إلا خليعٌ ماجنٌ فدع الحياء إذا حضرت حصيري
إن الحياء أخو النفاق وما صفتُ دون المجونِ سريرة لعشيرِ

وللمرأة من أدبه ، شعراً ونثراً ، أوفى نصيب ، فهو كالحطيئة في
وصيته الشهيرة : للأنثى عنده مثل حظ الذكرين ... أما أنبأنا في مقدمة
فاريأقه أنه بناه على أساسين : المرأة واللغة ؟

وفي المرأة يقول متشوقاً متحرراً :

أصبحت في غرفتي رهن الموم فما يعتادني غير أشجاني وأوطاري
أرى لكل امرئ أنثى تؤانسه وليس عندي من أنثى سوى النار

ويذكرني شقاؤه ، في أول شأنه ، ما كتبه ويكتبه الشاعر أحمد
الصافي النجفي ، فاسمع وصف الشدياق لشقاؤه ذلك :

غدا بيتي كثيرَ الفرش لما
فلا عجبٌ إذا ما قلت يوماً
تهلّل فيه نسج العنكبوت
لكيد الناس انبي ذو بيوتِ

ولكنه ينتقم بمقاله لسوء حاله ، فيقول أيضاً :

يراني الناس في كوخ حقير
فهل يا قوم عندكم المعالي
فيحتقرون منزلي احتقاراً
علوّ مباءة تحوي حمّاراً

والأستاذ ، الذي لا يملأ عيني شعره وخصوصاً المدحيّ منه ، ينخدع
ويقول لنا :

من ظن أن مفاعلن متفاعن
سر القريض فجهّزن به إلى ...

ثم يسمّنا شعر المديح الذي بوأه سدة اعتبار واجلال يتمناها
كثيرون من رؤساء حكومات العالم اليوم ، فهل تغير يا ترى بعد الميسرة
فصار كالناس الذين قال فيهم :

الناس في الدنيا على
لكننا أهواؤهم
رأي اذا هم أعسروا
شئ اذا هم أيسروا

يحدثنا التاريخ أن شاعر زمانه هذا كان لسان حال قومه في الأستانة ،
ثم اليه يرجعون ، قد كان بيته مفتوحاً لهم ، ولكننا لم نقرأ شيئاً عن
كرمه ، أما مروءته فكانت كاملة ، فهو لم يتقاعد عن نجدة ، ولم يتهاون
بداع من أبناء جلدته .

وآخر ما نقوله في شعره أنه كان جاهلياً في إغرابه ، عباسياً في مدحه
ومجونه ، شامياً في تصوره وتفكيره .

حاول التجديد في الشعر ، ثم مشى على بلاط ملوك عصره في نعال
مشاركة .

يدل نظمه على قلة تنقيح، وهو لو تقح لنفض عن شعره هذه اللزقات
الخرولية التي لا تخلو منها قصيدة ، فكأنه عدو للموسيقى الشعرية ، مع
أنه كان يعزف على الطنبور ، وقصص طنבורه كقصص مداس أبي
القاسم ... وفي كل حال هو زين شعراء زمانه ، يضعف شعره حين يمدح ،
ويسرح في المراسلة ، ويشتد في الهجو حتى يكاد يخلو من الحشو فيتساقط
كأنه حجارة المنجنيق .

وقبل ان أدع شاعريته التي لا اجلّ تتاجها ، وإن كانت أسعدته
وابنه وحفيدته التي تعيش اليوم في انكلترا عيشة اللوردات ، احب ان
أذكر بيتين لا يستهان بهما . قد اعجب بها احمد حتى عدا طوره ، وتخلق
بأخلاق ابن الأثير حين ذكرهما ، فقال : وقد نظمت بيتين ما أظن أحداً
سبقني اليهما وهما :

لا يحسب الغرُّ البراقعَ للنسا منعاً لمن عن التادي في الهوى
ان السفينة إنما تجري اذا وضع الشراع لها على حكم الهوا^(١)

ولا عجب إن رأيت احمد سفورياً ، فلو كان في عصرنا هذا لكان
هو رسول العربي لا الشيخ فؤاد خبيش « السابق » ، ولخفت ان يطوف
في الأسواق كما خلقه الله .

(١) الفارياق ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، طبعة مصر .

رحم الله شيخنا الذي كان يرى الدنيا كلها في المرأة ، وقد قال في
بنات حواء :

« انهن زخرف الكون ، بل اقول غير متحرج : عرف الآلهة ، إذ لا يكاد
الانسان يبصر جميلة إلا ويسبح الخالق . بذكرهن يلهج اللسان ، ولخدمتهن تسمى
القدم ، ولرضائهن يذل العزيز ويذل النفيس ويذل المصون ، وانت خلاق
الرجل من دونهم حرمان ، وفوزه خيبة ، وانسه وحشة ، وشبعه جوع ،
وسعاده شقاء ... (قد حذفتم كثيراً) فإذا قدر الله بلوغ هذا الخبر المطرب
سماع احدي سيداتي هؤلاء الجميلات ، وسررت به وفرحت ورقصت ومرحت ،
رجوت منها ، وأنا باسط الضراعة ، ان تبلغه ايضاً مسامع جاريتها ، وأملت من
هذه ايضاً ان تطالع به صاحبها ، حتى لا يمضي اسبوع واحد إلا ويكون خبر
الكتاب قد ذاع في المدينة كلها . وكفاني ذلك جزاء على تعبي الذي تكلفته من
أجلهن .

« ألا وليعلمن اني لو استطعت ان أكتب مديحهن بجميع أصابعي ... وانطق
به بكل من جوارحي ، لما وفي ذلك بحاسنهن . فكم لمن علي من الفضل حين
بدون في أفخر الحلل ، ونظرن إلي شافئات ، حتى إبت الى حفشي وأنا أتعثر
بأفكاري وخواطري ، فما كادت يدي تصل الى القلم إلا وقد تدفقت عليه المعاني ،
وساحت على القرطاس ، فأورثتني بين الناس ذكراً وفخراً ، ورفعن قدري على
قدر ذوي البطالة والفراغ ... الخ ، (٢) .

وإذا سألتني : فيم نظم الشدياق ؟

قلت لك : لم يدع الشدياق غرضاً إلا وتنظم فيه ، من وصف حرب

(١) هون .

(٢) الفارياق ، ج ١ ، ص ١٥ .

السبعين، الى مدح باريس وذمها، في قصيدتين مطبوعتين على غرار واحد:
قال مادحاً :

أذي جنة في الأرض أم هي باريسُ ملائكة سكانها أم فرنسيسُ
وهل حور عين في منازلها ترى وإلا فكلُّ حين تخاطر بلقيسُ

وقال ذاماً :

أذي عبقر في الأرض أم هي باريسُ زبانية سكانها أم فرنسيسُ
وهل ذي نساء في مواحلها ترى وإلا فكل حين تخاطر جاموسُ

ولا يتوانى عن قول الشعر في حمار فقده ، ويعنون فصلاً من فصول
فارياقه « في رثاء حمار » ، كما عنوانه فيما بعد « في رثاء ولد » .

اسمع بعض ما كتب الشدياق حول هذا الحمار ، وبعض ما نظم . قال :
فجعت بالأمس بحمار لي ، وسألت عنه الجيران فلم يقل لي احد منهم انه
سرقه . فاكترت منادياً بدرهم ، فجعل ينادي في الأسواق : ألا قد فرّ اليوم
حمار الفارق وخلي قيده في الوقد ، فهل منكم من رآه ؟

فلم يجبه احد إلا بقوله : ما أكثر الحمار الآبقة اليوم من بيوت مواليتها !
فلما عاد إلي بهذه البشرية بلغ مني الغيظ كل مبلغ ، وآليت أن لا أنظر
بعدها في وجه حمار ، سواء أكان حقيقياً أو مجازياً . فقد قال لي بعض أئمة اللغة
ان من خصائص لغتنا هذه الشريفة دون غيرها ان يقال للرجل الجاهل : حمار !
ثم أخذت أرثيه بهذه الأبيات :

راح الحمار وخلص القيد في الوقد وما رأى إثره في الناس من أحدٍ
فهل أنا راكب من بعده وتبدأ أم مجزئي قيده لو كان من مسدٍ
سرهدته بيدي كالطفل حن شفقٍ كالطفل من شفقٍ سرهدته بيدي

ما هذا يا أحمد !!

وجسته بشعر لا يخالطه
وكان يوقظني منه النهاقُ اذا
كم حاد بي عن مضيق حين أبصر من
وسار بي في طريق بلّ جانبها
ماسٌ ولا عسجدٌ خوفاً من الدردِ
استثقلتُ نومي بصوت مطرب غرد
حول الجمال قبل الأرض بالزبد
أهل الجمال بما الورود وهو ندي

أرأيت كيف يهجس الفاريق بالنساء حتى في رثاء هذا الجحش
العبقري ؟ ...

وكم جرى فارهاً إذ لاح عن بعد
زفاف خود اليها بالبع الأمدِ
انه كحمار يشار الذي رآه في نومه ...

وإذ تبين نعشاً للجنّازة لم
ما ضلّ يوماً عن استقرار معلقه
قد رايتني حذقه حتى ظننت به
يفديك كل حمار ندّ من بطر ،
وحار من شبق قلاب جحفة ،
أليّة انه بالطرق أعرف من
يا ليت لي خصلة من ذيله أثراً
يمرر به مع ألم النخس في الكند
أكان في روضة غناء أم جرد
« مسخية » مثل بعض الخلق عن أحد
أو ضجّ من لغب ، أو خار من جهد
كرّاف يول قديم جفّ كالقدد
مولاه ان لم يعقه القيد ذو العقد
أرنو اليها كما يُرنى الى الخرد

أحمد المهجاء

ما أحلى ترديد ما قاله لامرتين حين قرأ ديوان « الشاتيان » لفكتور
هيغو : ثلاثة آلاف بيت كلها سب ، هذا كثير !

ونحن نقول ان حملة الفاريق على خصومه عنيفة جداً، ولكن الرجل خلق للهجاء والتقد . والهجاء يدل كثيراً على الشاعر ، وهذا ما حملنا على تخصيص هجاء احمد بهذه الكلمة :

الرجل سباب شتام حين يهجو ، فقليلاً ما يهزأ ويتهم .

يهاجم الخصم ليكسره شر كسرة ، فلا حيلة ولا هواة في الأمر .

الحرب الكلامية عنده لا تطول . دائماً المعركة الفاصلة . وما تخيلناه من تقلب طباعه يدلنا عليه الهجاء المتبادل بينه وبين أديب اسحق الكاتب المشهور .

قال احمد يهجو ، بعدما اعجب به ، وأثنى عليه :

لو أن آدمَ عالم في أنه ستكون من أبنائه فيما غير
لأباح حواً بالطلاق ثلاثة وأبى لأجلك أن يكون أبا البشر

فاجاب أديب :

عجباً هجوت ، وكنت قبلاً مادحي لا بدعَ قبلي قد خدعت محمدا
ومكرت في عيسى ، وخنث أباك في لقبٍ اخذت ، ولم يكن لك أحمدا

وظهرت في ذلك الزمان جريدة عربية اسمها « برجيس باريس »
لصاحبها الأب بوكارد (كاهن فرنسي) ومحررها سليمان الحراثري ، فناوآته
وتحدّته . فاسمع كيف هجا صاحبها :

إذا البرجيس فاهَ مددتُ أنفي فإن بينتني تعجیلَ حنفي
فما لملاج ذاك الفتح منه سوى مدٍ ، وبعض القول يكفي

صنانٌ تشمئزُّ للنفسِ منه ويمني كلَّ ذي أنفٍ برعفِ
لحاء الله من قدمٍ زنيمٍ عتلَّ مستباح العرضِ جلفِ
ويا قبحاً لقردي رامٍ رقصاً فبادره الأييل بنقر دفِّ
فقفه ثم قال فنطقتوني بقبهة من الناجود خلقي

وإليك نموذجاً آخر من هجو برجيس ، حين حملت عليه متهمة إياه
في دينه ، قال :

يا أيها الفقهاء أفتوا مؤمناً فالعلم من سيئاتكم والدينُ
أي الأنام يرى الشحاذة حرفةً وبكل فعل منكرٍ مأبون
هل خادم السلطان وهو مكرمٌ أم خادم القسيس وهو مهين

وقال هجو زميله المعلم بطرس البستاني ، المشهور بفضله وعلمه ،
هجاه لأجل غارة نقدية شنَّها عليه في مجلته « الجنان » ، وسيأتي تفصيل
ذلك ، قال :

كأبدتُ من زمني كوارثَ جمةً وأمرتها في مرّتها ثقتانِ
لغة « الجنان » إذا هذت في مدح قا رىء لغوها ، وسياحة النصراني (١)

وانتقد الفارياق اليازجي الأب ، فقام ابنه ابرهيم يدافع عن والده
وينتقد الشدياق (كما سترى أيضاً) ، فهجاه احمد بقوله :

عجباً لجهري عليّ وما له عند البراز سوى عتاد هرائه
فكانه الظربان معتمداً على دفع الملمّ به بريح فسائه

لا ريب انك لاحظت مثلي ان هجاء الفارياق يخلو من الحشو ، فيأتي

(١) كتاب ترجمة المعلم بطرس البستاني عنوانه : سياحة المسيحي .

كلامه مرصواً كأنه البنيان . وهذا ما يجعلني أرى انه عند ظني فيه من حيث التنقيح .

أما الشيخ ابرهيم اليازجي فاعتزل هذه الحرب معتذراً اعتذاراً نبيلاً، فقال هذين البيتين المشهورين :

ليس الوقعة من شاتي فإن عرضت² أعرضت عنها بوجه بالحياة فدي
إني أضن³ بعرضي أن يلم⁴ به غيري ، فهل أتولى خرقه⁵ بيدي ؟

لسنا ننكر علم الشيخ ابرهيم وأدبه ، ولكننا نرى الصديق الاستاذ بطرس البستاني قد اشتط⁶ في كتابه « ادباء العرب » إذ شبه مناظرة الشدياق واليازجي ابرهيم بمناظرة الخوارزمي والهمداني، فقد كان الشيخ ابرهيم يومئذ رخصاً ، والشدياق قارحاً . وإننا نحمد الله على نقد الشدياق الذي خلق لنا عالماً لغوياً نفتخر بتدقيقه كالشيخ ابرهيم ، والظروف والأحوال تخلق الرجال .

لسنا نلقي كلامنا على عواهنه ، بل سنأتيك بالبراهين الدامغة من ردود الشدياق التي لا تدفع ، وهي مأخوذة عن كتاب « سلوان الشجي في الرد على ابرهيم اليازجي » ، شاكرين الاستاذ معوض مدير المكتبة الوطنية الذي أتاح لنا ذلك، فاحتلنا مكتبه زهاء اربع ساعات، وسقانا باسم الأدب اكثر من كأس ماء بارد ، كما قال يسوع .

ستقرأ ، إن شاء الله ، في فصل عنوانه : « نقد ذلك الزمان » ، رد الشدياق ، ونقد الأسير ، فتعلم كم جاهد هؤلاء الأئمة في سبيل خدمة لسان العرب .

ومن ينكر فضل البستاني أو اليازجيين ؟ فكل من هؤلاء قد وفى
قسطه للفتنا .

وقفنا الله إلى بعض ما وقفوا اليه ليظل لبناننا منارة ساطعة على هذا
الشط ، شاطئء بحر الثقافة والعلم .

فنه وعنصر شخصيته

الشدياق فكرة تمخض بها لبنان طوال خمسة قرون .

كان حظه من « التعليم المنظم » قليلا ، بذاك أنبانا « فارياقه » ثم
رسالته إلى أخيه طنوس التي ينتقد فيها تاريخه « أعيان لبنان » .

بيد أنه استعاض عن ذلك بدرس العلوم والفنون على نفسه ، وعلى
هذا وذاك ، ثم انكبّ على المطالعة ، ففعلت فيه ما فعلت بغيره من
جهاذة العلماء ، فعلا نجمه حتى اهتدى به السارون .

نستطيع القول ان الشدياق قد قرأ كل ما وصلت اليه يده ، ثم
أخرجه مكيّفا بطبعه الهازل الماجن ، فكان ذلك كالمقولات التي تتقدم
المادبة الغنية الدسمة .

وإذا أضفنا إلى مطالعته العجيبة ما نسخ من كتب في صباه وشبابه ،
عرفنا العنصر الثاني الذي اشترك في إنماء تلك الشخصية ، فالشدياق
يعترف في فارياقه أنه مارس النساخة ، وهذا الفيكنت فيليب طرازي
صاحب تاريخ « أصدق ما كان » يقول :

« أحمد فارس الشدياق أشهر بني الشدياق نبوغاً، وأوسعهم علماً، وأبعدهم
صيتاً وجاهاً... تعود في حدائقه نسخ الكتب كأجداده... وتحوي خزانة
كتبنا وبعض كنائس لبنان مجلدات عربية وسريانية بخط يده حتى اليوم، ويقرأ
في خاتمة أغلب تلك المجلدات ما نصه: كتب عبد ربه الرزاق فارس بن يوسف
الشدياق، (١) » .

ونسخ هذه الكتب وعبارتها السقيمة ولّد في نفس أحمد فارس
الشدياق كره « الركاكة » فكان يعبر بها رجال الدين، كما تقرأ في الفاريات،
ان كنت ممن يقرأون، فهذا النسخ الحرفي الذي كان على الشدياق أن يقوم به
دون تصحيح وتنقيح جعله يعد « الركاكة » صفة لازمة لرجال الدين،
عندنا، ولكتبهم .

ولما عهد إليه بتحرير « الوقائع المصرية » رأى الركاكة في دواوين
الحكومة شراً منها في كتب الموارنة، فحارب هناك ما لم يستطع محاربه
هنا، وبهذا كان أبا الفصحى في القرن التاسع عشر .

ثم انتدب لتصحيح ترجمة التوراة، فعمرت تلك الشخصية بثقافة
جديدة، وكان التنقل في عواصم الدنيا، فأفاد منه درس شؤون البشر
« علمياً » ما أفادته آياه مطالعة الكتب ونسخها « نظرياً »، وتعلم لغات
أجنبية فعرف علوم الغرب وآدابه .

وهكذا اكتملت تلك الشخصية أي اكمال، نظراً لكد صاحبها
واجتهاده، ورغبته التي نستطيع أن نقول: « لا توصف » .

(١) أصدق ما كان، جزء ٢، ص ١٩٢ .

فها هو يسأل أخاه طنوس ، وهو في مالطة ، أن يرسل إليه كتاب
الفصاحة اما مطبوعاً واما منسوخاً ، فالرجل نهم لا يشبع معرفة ،
وظامىء الى العلم لا يرتوي .

وهناك عنصر آخر هام كان له أبعد الأثر في توجيه تلك الشخصية
الفذة ، ففجیعة الشدياق بأخيه أسعد أثارت تلك الشخصية وشقت لها
طريقها ، فروح الأدب اللبناني (ان كان هناك ما يسمى أدباً في ذلك
الزمان) دينية « والشدياق وحده هو الذي شذ عن القاعدة ، وعاش على
هامش عصره ومحيطه ، وكأنه شبع صوفية مما نسخ وترجم ، فجاءنا بهذا
الأدب السافر .

كان كمن أضرت به أكلة فلم تعد تقبلها نفسه ، والعجيب أنه نسخ
كتباً دينية كثيرة ولم يؤثر به معناها ، ولم يصب أسلوبه ، فيما بعد ، بشيء
من ركاكتها ، فعاش مستقلاً في تفكيره ، مرتاحاً الى تعبيره ، واثقاً من
أسلوبه ، معتمداً على شخصيته .

عاش مفكراً حراً مفككاً سلاسل التقليد .

نعرف أن الشدياق كتب بالحرف السرياني كتباً عربية وسريانية ،
ولكن أسلوبه لا يدلنا على تضلعه من هذه اللغة ، لولا اكتاره من استعمال
فعل الكون حيث يمكن الاستغناء عنه في العربية ، فآثر المحيط الذي نشأ
فيه وترعرع بآدٍ في نثره حين يرسل قلمه على سجيته ، أما حين يتعمد
ويتكلف فلا يرى أثراً لذلك .

أما ما تراه في الفاريق من أنهار الألفاظ اللغوية وجداولها فسببه ان أسلوب المقامات (بضاعة ذلك الزمان) كان يقوم على الثروة اللغوية ، فاراد الشدياق أن يظهر مقدرته بها ، دون أن يكتب المقامة التقليدية ، فجاء بالعجب العجاب .

لم يقنع اللبناني في عصر من العصور بلغة واحدة ، ولهذا رأينا الشدياق يتعلم اللغات الأجنبية على الكبر ، وهكذا كان له حقلان للانبات: الكتب عربية وغربية ، والحياة .

لا يحتاج الشدياق الى خلق « المادة » فهو يلمها من هنا وهناك ، فكانه عابر سبيل يلتقط ما تقع عليه عينه ، ثم يعبر عن الشيء المبتذل بأسلوبه الطريف ، فيخلقه خلقاً بديعاً ، كأنه لم يكن ذاك الذي رآه او سمعه . فمن ذكرياته وتجاربه خلق لنا جميع المشاهد الطريفة التي نعجب بها .

كاتب واقعي لا نظير له ، يمشي في سرده وقصصه على مهل ، غير خائف ولا وجل ، لأن مادته اللغوية غزيرة جداً ، بل لم نجد أغزر منها قط . فهو لا يتبع خطة كما قلنا سابقاً ، فهندازته التي يقص عليها شغل يده وعقله ، تنجده في عمله هذا قوة استطراد عجيبة . يؤمن بالمادة ليس غير وإن لم يصرح بذلك ، ولا يظهر لك إيمانه بها إلا إذا تأملت مجموع ما كتب .

جدلي بارع لا يضاھيه في ذلك إلا ابو عثمان . قوي الحججة ، قاطع البرهان . يتضح لك ذلك من مطالعة الجدل الذي قام ، او أقامه هو ، بين

الفارياق والضوطار^(١) ، ثم دفاعه عن أخيه أسعد^(٢) ، ثم في انتقاده بعض قصص التوراة^(٣) .

يعتمد الشدياق على الفكر والعقل أكثر من اعتماده على ضروب الفصاحة وأساليب الكلام المعهودة . فالعقل عنده كل شيء حتى يكاد يقول مع رنان : العقل يحرك الأشياء كلها .

فالرجل يرضيك في كل مقام ، حتى وهو يحدثك عن فلاح ، أو أي رجل كان ، فيمزج لك العبارة بالحلوى ، وهو قبل كل شيء اختصاصي في التحدث عن رجال الدين ، لأن ذكرى أخيه أسعد لم تمح من مخيلته .

يعتمد الشدياق على تصوير ما يراه ، ولا يدع خطأ من الصورة يفلت منه ، ثم ترى ما رسم كاملاً ، فتحسب انه غير متعمد ما يفعل ، لسهولة ذلك العمل عليه .

يكتب إنشاء فتحسبه « موضوعياً » ، في حين انه محشو بالذاتية ، ومع ذلك تظنه أنت كاتباً موضوعياً لا يدنو من الرومنطيقية مقدار شعرة .

إن قلب الشدياق رقيق ، فمن خلال نار سخطه وغضبه ينبعث نسيم

(١) فارياق ، جزء ١ ، ص ١٢٠ .

(٢) فارياق ، جزء ١ ، ص ١٣٢ فصاعداً .

(٣) فارياق ، جزء ١ ، ص ١٢٨ ، وكشف الخبايا ، ص ١١٢ .

رحمة وشفقة على أعدائه ، من خلال أشد هجائه ينبعث برد وسلام رغماً عنه وبدون قصد .

لا تجد الموسيقى المعهودة في ما كتب ، ولكنه يعوّضك عنها بعنصر آخر لا أدري ما أسميه ، فتحيا به كتاباته .

لا يعني الشدياق من الدنيا شيء غير الكتاب ، فالكتاب عنده كل شيء .

كان في باريس ولندن وتونس والقاهرة والأستانة وغيرها من العواصم فلم يلفت نظره إلا المكاتب ، لم يقصد المتاحف كما قصد دور الكتب ، وقد نستطيع القول انه رجل من حبر وورق لولا ما كتبه لنا عن المرأة وغيرها من متع الحياة .

ومحبته الحياة مكنته من خلق صور جديدة طريفة « فصلها ، لكن على عقله » كما قال في مقدمة فارياقه ، فجاءت حية ناطقة متحركة .

كان يلجأ إلى تعابير محيطه حين يضطر ، فيجنيء تعبيره طريفاً مقبولاً . وهو لو كان أخرج فكرته بغير ذلك التعبير لما حازت القبول ، ولما وقعت في النفوس ذلك الوقع .

وواحدة أخرى تدلنا على أن الشدياق فنان أصيل ، ألا وهي تلك الفصول البيضاء التي كان يتركها في فارياقه ، فيكتب مثلاً: الفصل الرابع ثم لا يكتب إلا هذه الكلمات : في ذلك الموضع ^(١) ، ثم قوله في الفصل

(١) الفارياق ، جزء ١ ، ص ٢٧٣ .

السادس عشر : « في لا شيء »^(١) ، وهلم جرا .

أجل ، إن هذا فراغ ، ولكنه فراغ يحمل القارئ على التفكير بعد أن يضحك وينشرح صدره ...

ومن خواصه أيضاً أنه يرى ويرى ، ولهذا غلب حسه الدقيق على خواصه كلها ، فاندحرت الخيلة أمام هذا الإحساس العنيف وغلبت على أمرها ، فكان كاتباً واقعياً متجهاً دائماً صوب الهجو والسخر ، يقوده ذوقه السليم ، وما طبع عليه من ملكة نقدية ، إلى وزن كل شيء وزناً صحيحاً ، عظم كثيراً من شأن الجسد وقلما تحدثت عن الروح ، فهو مؤمن بالعلم وسيادته ، والميزة الغالبة على إنشائه هي « القصص » حتى تكاد تراه يسوق مقالاته الأدبية مساق القصص .

إن يناييع فنه تنبجس من شخصيته ، وبها يحيا انشاؤه لا بالتعابير المعدة ، فهو أبعد الناس عنها ، وكما بدأ الكتاب الحق عند العرب بالمحافظ كذلك ابتداء عندنا بالشدياق ، فرّ من لبنان هرباً من ظل حاجب الأمير بشير الثقيل ، فكانت لنا أضواء أدبه الحي .

لا أعلم لماذا يعجبني هذا الرجل . فإذا قرأت فرياقه أنكرت ان يكون سيرة حياة ، فهو عندي قصة رائعة ، لا يلأروع القصص . وهل نكتب ، غير قصتنا حين نكتب قصة غيرنا ؟

(١) الفارياق ، جزء ٢ ، ص ١٤ .

ماذا كانت يقصد حين جرّد من نفسه شخصاً سماه الفارياب ، فكتب قصته بلسانه ؟

أي فن أراد ؟ وأي إحساس أحس حتى فعل هذا ؟

أما قرأنا ان نقاد الغرب قد أعجبوا باندره موروي لأنه يفعل اليوم ما فعله الشدياق منذ قرن ؟

إنني لو اثق بأن شيخنا الفارياب كامل الذوق . وهو لو لم ينفق شطراً من حياته في شؤون أخرى لما قصر في الفن والأدب والفلسفة عن أعظم رجال اليوم .

وإليك رمزاً يدلّك على ذوق امامنا الفني ، قال في الرقص :

كان للحاكم عادة ان يدعو جميع المعروفين في خدمته الى ليلة عيد يرقص فيها الرجال والنساء بحضرتة . وكان من جملة المدعوين الفارياب وزوجته . فلما رأت هذه الرجال يرقصون ، وهم مخاصرون للنساء ، قالت لزوجها: هل هؤلاء النساء أزواج هؤلاء الرجال ؟

قال : منهن هكذا ، ومنهن بخلاف ذلك .

قالت : وكيف يخاصرونهن إذا ؟

قال : لا أدري ، ولكن بعد انفضاض الناس يذهب كل الى منزله .

قالت : أشهد بالله انه ما خاصر رجل امرأة إلا باطنها .

قال : لا تسيئي الظن . إنها عادة مشوا عليها .

قالت : نعم هي عادة ، ونعمت المادة ، ولكن كيف يكون إحساس المرأة حين يلمسها رجل جميل في خصرها ؟

قال : فقلت لا أدري ، إنما أنا رجل لا امرأة .

قالت : ولكن أنا أدري . إن الحصر إنما جعله الله في الوسط مركزاً
للاحاساس الفوقي والتحتي . ولذلك كانت النساء عند الرقص والقرص ، وفي أي
موضع كان من أجسامهن ، يبدين الحركة في الحصر .
ثم تنفت الصعداء وقالت : يا ليت أهلي علموني الرقص ، فما أرى فيه
لأنشى نقص .

فقلت : هيت الى البيت فقد كفاني الليلة ما سمعت وما رأيت .

قالت : لا بد من أرى ختام الرقص .

قال : فلبثنا الى الصباح ، ثم انصرفت بها فكانت تقول وهي سائرة : نساء
مع رجال راقصات ، نساء مع رجال راقصون ، راقصات راقصون راقصات .
فقلت : فاعلات فاعلون فاعلات .

قالت : الرجال والنساء والبنون والبنات ، كيف ، متى ، أين (١) .

أرأيت كيف يتحدث وينهي حديثه عن الرقص ؟ إنه رقص زيادة .
وهذا هو الفن الكامل .

تبهر ، عن إذنك ، كثيراً في هذا الكلام لتفهم قليلاً ، او كلف
أحد العارفين شرحه لك ، وإلا فيضايح تعبي ! ألا يحق لي ان أضحك
وأتعجب حين أقرأ بخط « عبد ربه الرزاق » ميامر مار افرام ومار
يعقوب ، ثم انتقل الى مجون الفارياق ؟

ولكن مثلي لا يرى في ذلك بدعاً ، فكم ترغمت بها من السنين ، ثم راح
ذلك العهد ولم يرجع . قل : « الفضل » يعرفه ذووه ...

(١) الفارياق ، جزء ٢ ، ص ٨٧ .

الشدياق العرب والمترجم

مرّ بك ان الشدياق عاون الدكتور « لي » على ترجمة التوراة . وقد وصف الشدياق إقامته في مالطة ولندره حين كان يقوم بتلك المهمة الخطيرة . ونقلنا كلمة حول هذه الترجمة وكيف كان يعترض الدكتور لي ويحول دون البلاغة التي كان يتوخاها الشدياق في ترجمته .

لقد شجعت تلك الترجمة شدياقنا وأفادته ، فشمّر وسار .

خلق رجل كدّ وعمل ، فما ذهبت ساعة من ساعات ذلك العمر الطويل عبثاً . وأنشأ جريدته الجوائب ، فبذل جهوداً عنيفة لجعلها جريدة مثلى ، فكانت مدرسة أدبية سياسية جوّابة .

قعد شيخنا يغذيها بمقالاته وبحوثه الطريفة ، ناقداً المجتمع في كل ميادين العمل ، واضطر إلى الترجمة ليملاً تلك الجريدة بالمفيد النافع ، ولما كان الشيخ مطبوعاً على الفكاهة ، ميالاً إلى النكتة ، طفق يترجم لقرائه قصصاً طريفة ، حتى انه لم يغفل عن « تهورات دونكيشوط » .

حذق اللغات الأجنبية وتعلمها على نفسه ، فصادف صعوبات جمة في النقل والترجمة ، وكان الناس كانوا يضايقونه وتحول زياراتهم الطويلة دون اطراد عمله ، فكتب حول هذا الموضوع مقالا عنوانه : « أدب الدرس والنفس » ، واليك شيئاً منه لتدرك موقف الأستاذ الحرج ، قال :
« لم أرَ أعجب من رجل له أدب الدرس وليس له أدب النفس ، إذا فاوضته

في فنون الشعر وأساليب الكلام وجدته يستشهد على كل معنى بببيت أو حديث
أو آية ... حتى تقول :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

« حتى إذا فرغ من تلك الفنون المعجبة والأساليب المطرية مدّ رجله في
وجوه الحاضرين ، وجعل يدفئها على النار ، إذا كان الوقت شتاء ، وإن كان
صيفاً نزع جواربه وألقاها بجانبه وجعل يفرك رجله » ...

ثم يقول :

« ومن أدب المحاضرة أن يراعي المتكلم قدر ما عند السامعين من الصبر
لاستماع كلامه ، وذلك بالنظر إلى سعة الوقت وضيقة ، وأحسن أوقاتها بعد فراغ
الإنسان من عمله ، لكن المتبطلين لا يفترقون ما بين هذه الأوقات ، فترى أحدهم
يبكر عليك لمجرد الكلام ، مع علمه بأنك مشتغل بأمور معاشك ، فإذا لهوت
عنه لحظة نقم عليك ، ولكن كيف يتأتى لمن يعاني الترجمة والتأليف ، أن
يضيع زهرة عمره في الصباح ويقعد مصغياً إلى كلام فارغ لا يستحسنه إلا قائله؟

« انه سهل عليّ أن أخسر من متاعي شيئاً في كل يوم ولا أخسر ساعة من
أوقات صباحي ... فإذا ما أضعت وقتي بالبطالة وباستماع أنا وأنا ، فلا يكون
لي منه عوض ، فيذهب ذلك الجزء من عمري وعمر المتكلم سدى ، فلو ترك
« أنا » إلى المساء لحفّ عليّ سماعه .

« وهذه الشكوى قد بحت بها قبل هذا ، فأعيدها الآن على أصحابي قراء
الجوائب لقصد أن يتكرموا عليّ بأحد أمرين : إما أن يتركوا لي أوقات
الصباح ، وإما أن يساعدوني على ترجمة الجوائب ، وتحرير سر الليال ، فمن شاء
فليعذر ، ومن شاء فليلم ، فما كلف الله امرءاً فوق جهده .

« أما الذين يأتونني ويقولون : اكتب كذا ، فإننا سمعناه من الوزير الفلاني ،
فالأولى لهم أن يكتبوا ما ائتمنهم عليه الوزير في صدورهم ، ولا يدخلوني فيما

يعقب الندامة ، فإني وإن كنت قد لحقت بكتاب الجرنالات في هذه الصنعة ، إلا اني لا أريد مجاراتهم في رقم كل ما أسمعه من الأخبار صدقاً كان أو كذباً ، (١) .

فهذه الكلمات الصريحة توضح لك موقف الرجل وعمله المضني ، فقد جاء الصحافة العربية في طفولتها ، وكان مرضعاً لها ومربياً ، لغة وسياسة وأدباً ، فاعترضته مشاق كثيرة لا يجدها كتاب الصحف اليوم .

كان عليه ان يعرب ألفاظاً كثيرة لمسميات عديدة في الفارياق وكشف الخبا والجوائب . وهو أول من أطلق على الصحيفة كلمة جريدة .

إن ترجمة كتاب وجداني كالتوراة سهل ، اما تأليف كتاب ككشف الخبا فيقتضي مؤلفه جهوداً وعناء لأنه يصف فيه أشياء بعينها ، وحضارة لم يعرفها العرب ليسموا أشياءها بأسمائها . ومع ذلك لم يقف الشدياق أمامها مكتوف اليدين ، فسمى منها ما استطاع . سمي الداليجانس «حافلة المجد» ، والفاكونات «الرتل» ، والباخرة «سقينة النار» . واتبع خطة العرب في تعريبهم فسمى الجريدة «جرنال» ثم جريدة كما مر ، والغاز «غاز» ، والمنطاد «بلون» ، والفنون الجميلة «الصنائع الظريفة» ، وبوليس التحري «الثقاف» وكانت خطته ان يرجع الى اللغة فإذا ما وجد فيها ما يلائم غرضه أخذ منها ، وإلا لجأ الى القياس حاذياً حذو العباسيين .

كان يتالم كثيراً من هذا العناء المخلوط ببرد اوروبا واستمبول ، فقال فيه شعراً :

(١) كنز الرغائب ، جزء ١ ، ص ١٦٨ - ١٧٠ .

ومن فاته « التعريب » لم يدر ما العنا لم يصل نار الحرب إلا المحارب
أرى ألف معنى ما له من مجانس لدينا ، وألفاً ما له ما يناسب
فيا ليت قومي يعلمون بأنني على نكد التعريب جدتي ذاهب
اسكت يا شيخ ، لقد علموا ... ولكن انت تنفخ في رماد ...

ولم يسكت ، بل قال في قافية اخرى :

وبذاك من جهد القريحة ما تشيب به الذوائب

لقد كتب في تآليفه كل ما هو مبتكر حقاً ، فخلق أدباً حياً لا أدباً
ذابلاً ، ان تحرك ناس كلعب الاولاد . ويا ليته كتب قصة بمعناها المعروف
اليوم لكان لنا أروع القصص .

وإن صح حشر سيرة الحياة بين القصص ، فالفاريات قصة عالمية
رائعة ، فما أروع وصف تلك الغربية التي جلت هذا الصيقل الفرد .

حدثنا رواية الاخبار عن المعري القفلة ، ولكن الدليل على ذاكرته
العجيبة لم يقم . اما إمامنا ففي فارياته وجميع آثاره ألف دليل على ذلك
الدماع الغريب . فهو المؤلف العجيب حتى في كتبه اللغوية . وكل من
ألفوا قبله وبعده نساخ . فمن شاء ان يؤلف في اللغة بعد احمد فليستح .
وليعدرتني ابو عثمان المازني إن استعرت كلمته هذه ، فهنا محلها لا هناك .

لقد كان الرجل مرهف الذوق ، يريد ان تكون جوائبه حافلة بكل
طريف ، فترجم قصصاً وحكايات طريفة أذاعها لقراء جوائبه مثل
« حكاية زنجي » وغيرها .

كان الشدياق مولعاً بكل ما هو بدع ، ومثل هذا لا يستخرج دائماً من عقله . فكان ينكبّ على الجرائد من فرنسية وانكليزية ينقل عنها ملحاً وطرفاً ، وأخباراً عن الاكتشافات الحديثة ، يحدث بذلك قراء جوائبه ، فأصبحت جريدته مدرسة للجيل . ولم يكن يترجم ليقف مكتوف اليدين إزاء من أخذ عنه ، بل يناقش كل فكرة نقاشاً عنيفاً . وذلك شأنه في كل ما صنّف وألّف ، فهو جديلي من الطراز الأول ، وما أكثر القصص والأخبار في الفارياق والواسطة وكشف الخبا .

الأديب النقاد

الشدياق أديب واقعي قويّ الباصرة ، ليس في جرابه رغيّف من خبز الرومنتيكية ، فهو والملاحظ سواء بسواء ، ولولا تشكيه البرد ، وتبرمه بالثلج ، لقلت انه لم يحس الطبيعة قط .

اكتفى بالمرأة عن كل ما خلق الله وما لم يخلق ، فكل الصيد في جوف الفرا... ولولا كرهه طعام الانكليز وحنينه إلى مطبخنا ، لقلت الرجل يعيش على الانتقاد .

لم تنج ناحية من نواحي الاجتماع من جراد تقده الزاحف ، لم يدع زاوية من زوايا الكون إلا ولجها ، ينتقد الناس جماعات وأفراداً ، وحكومات وبلداناً ، فقل ، ان شئت ، لم يسلم من لسانه أحد .

أما تقده الأدبي ، ففي الفارياق ، وكشف الخبا ، وسلوان الشجي ،

وفصوله المجموعة سبعة أجزاء ، كثير منه ، انتقد أساليب الكتاب والشعراء وتفكيرهم وتعبيرهم فكانه أقام نفسه معلماً او مدعياً عاماً في محكمة الأدب ، خلق ناقداً لا يتغاضى عن هفوة ، ولا يحابي أحداً حتى أخاه الكبير ، فكتب اليه رسالة من لندرة مؤرخة في ٧ نيسان ١٨٥٦ ، ينتقد فيها الجزء الأول من كتابه تاريخ أعيان لبنان ، واليك بعضها ^(١) :
اطلعت على الجزء الأول من التاريخ الذي ألفتموه في نسب أعيان جبل لبنان وأحمدت مسعاًم فيه وحسن نيتكم ، غير أنني أنكرت فيه عدة أشياء لا بد من أن اذكرها لكم الآن ولو على سبيل الاختصار .

أولاً : انكم استنكفتم أن تذكروا مناقب أخينا المرحوم أسعد ، وما كان عليه من الشهرة في الفضائل والعلم وغير ذلك مما لا يخفى على أحد ، ولا عذر لكم في عدم ذكر ذلك بأن تقولوا بأنه ترك مذهب آبائه ، فإن تغيير المذاهب لا يسلب الإنسان محامده ، ان جميع المؤرخين إذا ذكروا مثلاً فولتر وروسو وفولني يوم يكتبون أثنوا عليهم بما هم جديرون به ، فلا بد إذن من أن تعقدوا فصلاً على حدة في آخر كتابكم ، وتذكروا فيه ما لم تذكروه في الجزء الأول مما يختص بأخينا المرحوم وغيره ، لا بل انكم لم تذكروا سنه ، وحليته ، وصفاته ، كما ذكرتم صفات غيره ، مع أنكم قلتم : خلا تاريخنا من كل ميل ^(٢) ... وهذا هو عين الميل .

والثاني : انكم نسبتم إلي شيئاً يخجلني عند الخاصة والعامة بقولكم انني كنت أعلم النحو أولاد جرمانوس البحري ، مع أن ذلك نقيض قولكم اني كنت في

(١) نشرت صورة هذه الرسالة كاملة بخطه في العدد ١٧٠ الخاص بالشدياق من جريدة المكشوف ، ص ١٢ .
(٢) اشارة الى بيتين كتبها طنوس الشدياق في مدح تاريخه ، ص ٣ .

خدمة علي باشا ، فمن ذا الذي أخبركم بهذا ؟ ولم لم تسألوني عن الواقع ؟ لعمر الله أن الحرة تموت ولا تأكل بشديها .

والثالث : انكم قلتم اني أخذت في قراءة النحو والبيان عند أحد علماء الأزهر ، وهو نقيض قولكم انني استخدمت لتعريب الوقائع ، ولو قلتم أخذت في علم الفنون العربية لكان أسد وأخضر ، فأما شيوخي فكثيرون . وقولكم لطبع البلاطة في غير محله فإن الوقائع إنما كانت تطبع بالحروف ، ثم لم تذكروا سبب قدومي الى هذه البلاد وهو ترجمة التوراة وذلك مما يحق لي أن أفتخر به .

والرابع : انكم حين ذكرتم الشيخ رشيد الدحداح ما زدت على أن قلتم أنه سافر الى مرسيليا ، وصار تاجراً شهيراً ، مع أن اللوما اليه فضائل كثيرة غير التجارة منها تحريره لقاموس المطران جرمانوس فرحات ، وبذله فيه غاية الاعتناء والتدقيق حتى صار كتاباً يعتمد عليه ككتب اللغة التي ألفها العلماء المحققون .

والخامس : انكم عند ذكر نسب الأعيان لم تذكروا الوقت والتاريخ بل اكتفيتم بقولكم فلان ولد فلاناً .

والسادس : انكم لم تتعرضوا لذكر كل من نبغ في شعر أو علم أو فصاحة أو أو مائة ، ولم ترووا شيئاً عن الذين وصفتموهم بالعلم .

والسابع : انكم لم تصرفوا الهمّة في تنقيح العبارات والألفاظ فقلتم : أهلها اسلام ونصارى ، وحقه مسلمون . وقلتم : اعرض ، والصواب عرض ، ومهاب وحقه مهيب ، ونضر ، وحقه نظر . وأشياء كثيرة لا بد أن تعينوا لها محلا في آخر الكتاب لاصلاحها .

اذكر انني قرأت كلمة للاستاذ امين الريحاني نقد بها « غطارفة البيان » كما سماهم ، وإذا بي أجدها بمعناها في الفارياق . لست أعني ان الريحاني ناقل ، بل قلت هذا لأدلك على رجل نظر أمس كما تنظر نحن اليوم الى هؤلاء

الفحول المقلدين . فما تنكره نحن الآن عليهم انكره هو قبلنا في الفاريانق ،
وكشف الخبا ، وأشبعهم سخرأ وهزاء . ولكن اولئك كهؤلاء لا يردعهم
شيء حتى الصفع . فخصلة البدن لا يغيرها إلا الكفن . فلو كان ربنا يسمع
شعراً لنظموا له عقوداً زبرجدية يعلقها في شماريخ عرشه .

ولو قرأت ما كتبه في الواسطة عن الزانية التي تضع صورة العنراء
بالمقابوب حيث تفحش لتذكرت ، إن كنت قرأت رواية « البعث » ،
وصف هذه الحالة لتولستوي فيلسوف الروس العظيم ، وأدركت انه
لم يفت أدينا العظيم ، فسبق اليه .

وبعد ، فالشيخ قد تجرأ على استعمال القياس ، فحلحل مكابس
اللغويين الذين فعلوا بأمهم كالحطيئة فالتقوها في قعر مظلمة .

لقد جمع الاستاذ ونسب كما قرر جمع مصر الملكي ، وكان في عمله هذا
واثقاً من نفسه يؤدي العبارة على حقها . والمادة وافرة عنده فكانه يقطع
من مقلع .

والخلاصة ان الفرق بين احمد ومعاصريه كالفرق بين رافائيل ومن
ينقلون صورته عن لاروس وغيره .

رحم الله الشدياق فقد سبق زمانه سبق جواد النابغة المستولي على
الأمم ، فحمل على « شعراء المناسبات » ، وهو منهم ، ولكنه شاعر
السلطين والملوك والأمراء ، وبالشعرتبواً عرشاً من الشهرة والنفوذ
حسده عليه أعظم رجال عصره .

تو كما احمد فارس على شعر المناسبات فقاله في سلاطين بني عثمان ،
ونبوليون ، ومحمد علي ، وباي تونس . وتهادي بين قصائد المديح حتى
بلغ اسمى المنازل ، كما قال فيه أحد شعراء زمانه :

روضة أصبح عند الوزرا ونديماً لأمير المؤمنين

ومع ذلك لم يطمئن قلب أديبنا الخالد الى هذا الأدب المقيت ، ورأى
فيه حطة للأديب الصحيح ، فقال لنا عن نفسه :

رأوا دخان قميني صاعداً فجرى بالماء قوم ليطفوا سورة اللهبِ
فقال بعضٌ : أقين أنت ؟ قلت نعم أقين شعراً وعندي معمل الكذب

فهل يتعظ اصحابنا ، في هذا الزمان الذي ضاع فيه النصح ، بما قرأوا
ويقرأون لزعم أدباء العرب انهم لن يفوزوا بشيء مما فاز به ، وما جائزتهم
غير ابتسامة تنضح استهزاء وسخرآ ، وإن لم يصبهم في الحضرة ما أصاب
البحثري حين انشد المعتصم قصيدته الميمية ، ففي غيبتهم لا يجرمون
ذلك ، فليستحوا من الناس .

كان لي استاذ كنت اعد نفسي سعيداً يوم اقبل يده . ولم يكن في
استاذي من عيب إلا انه يريد ان يقول شعراً . فسيم احد الكهنة اسقفاً ،
وعرج على مدرسة الحكمة في طريقه الى بتدين كرسي ابرشيتته ، فأنشده
استاذي الكبير (الشيخ سعيد الشرتوني) قصيدة من روائعه ، فلاطفه
صاحب السيادة وأهداه ليمونة ، فقال المعلم عبد الله البستاني بهزاً
بقرنه الأدبي :

عمدي بشرك للألباب تفكحة به اللذادة لا تنفك مقرونه
فكيف قد بعته غبناً بفاكحة هل باع غيرك أشعاراً بليمونه؟

، اما اصحابنا اليوم فيبيعونه « بصفقات » ولكنها خاسرة ، وقلما
يدوقون الليمون في هذا الغلاء .

كأنني اسمع بأذني ، بعد هذا الاستطراد ، شيخنا الشدياق يقول لي :
اسكت يا ولد ، أما جاءت نوبتي ؟

قلت عفواً ، يا شيخ ، ان الحديث شجون ، فلنتعاون عليه .

اسمعوا ما يقول الشدياق في شعر المناسبات :

« ومن كان قد قرأ بعض اشعار ، وسمع من اهل العلم ، مثلاً ، ان الشعر
منقبة منية ، تصدى الى أي نظم كان ، فاذا رأى طائراً في الجو نظم فيه
قصيدة ، واذا تزوج احد من بلده نظم فيه « تواريخ » ، واذا توفي احد قال :
قد غاض بحر الكرم ، ودكت أركان المعالي ، وذوت رياض الفضائل ، وأفل
نجم الهدى وخسف بدر المهدي ، وكسفت شمس الفضل ، ثم لا يزال يطلع في
عاجلة النبي الياس حتى يصل الى الفلك الاثير ، ويعسد جميع ما هنالك من
النجوم ، وينتزع منها كفناً لمرثيه » (١) .

أما الغريب المضحك فتقرأه في « الفاريان » حين يصف لك شاعر
« السري » كيف كانت يقول شعراً في وصف كل حركة من حركات
ممدوحه ، وكيف كان يهتف بالشعر عند قدوم كل بشير ، وما أكثر
مبشريه !

(١) كشف الغبا ، ص ١٦٦ .

لا أستطيع أن أنقل لك كل ما كتبه الشيخ في هذا الموضوع ، فعد
الى كتابه واقرا الباب كاملا ، اذا شئت .

أما الآن فاسمع ما قال الشاعر في خلعة خلعها السري :

خلع السري اليوم نعليه على مثنٍ عليه مبالغ في مدحه
فاستبشروا يا عصابة الشعراء من هذا السخاء بيمنه وبسنحه

وأخيراً مثنى بطن السري فجارت قريحة شاعره ذلك التيار فقال :

قد أسهل اليوم السري فكلنا فرح ففي إسباله التسهيل
فاستبضعوا خزا إليه مطرزاً وتسبقوا ان البطيء قتيل

وقبل ان أسهل السري حدثت طبعاً عواصف وزوابع فيها رعود
وصواعق ، وصفها الفارياق فاطلبها في مكانها .

قد تركت كثيراً مما قاله فارجه الى الفارياق تقرأ شعراً ونقداً طريفاً
يضحك ويفيد . وان كنت شاعر مناسبات ، فوالله تتوب . قد يفعل
الشدياق في هؤلاء ما لا يفعله مارون عبود الذي بح صوته (وهو أبح
خلقة) من كثرة ما نادى شعراء الظل ليخرجوا الى النور ، ويروا وجه
الشمس التي تلوح وجوههم ، وتقوي دماءهم ، فقد استحالت
مصلاً وقيحاً .

انني أتضرع اليك ، أيها القارئ ، بل أسترحم ، كما كنا نقول في
العهد العثماني ، أن تمسك كل شاعر مناسبات بأذنه ، ولا تتركه حتى ينتهي
من قراءة هذا الفصل في الفارياق ^(١) . قل له اقرا يا أعمى ما كتبه نقادة

(١) الفارياق ، ص ٢٢٥ طبعة باريس ، ٢١٦ طبعة مصر .

عصره منذ قرن ، ولا تخرج من معملك هذه البضاعة ، فالتاس يسدون
أنوفهم ولو كانت أطول من أنف ابن جرب ، عندما تهب ريحتها
في الأسواق .

المتهم الساخر

تقرأ في الفارياق ^(١) نقداً لاذعاً ، وتهكماً وهزءاً وسخرأ بمؤلفي النحو
ومعلميه ، وحركات الاعراب ، وتمسك النحاة بتعليلاتهم وعراقيلهم التي
لا تنتهي إلى أن يختم كلامه بقوله : « صرت أعتقد بخلود النفس لأن
مبهات النحو خالدة » .

أليس هذا ما يعالجه اليوم أساتذة زماننا حاسبين انهم اخترعوا
البارود ؟ وكذلك فعل بعلم البيان والبديع ، فمضى يسخر من أنواع
الاستعارة وظل يفعل حتى شبع ، وأخيراً شبهها بأشكال الدرج التي منها:
القرقي ، واللولي ، والحلزوني الخ... ثم مال إلى الصرف وقال في تحذلق
علمائه : ومات الأصمعي وفي عنقه من رسم الهمزة غدة .

ثم هزأ بتمسك علماء البيان بالحروف : فيقولون الواو هنا أفصح من
الفاء ، وأو أفصح من أم ، وهلم جرا . ويهاجم الساجعين الذين يتلاهون
عن الحقيقة باستعارة او كناية او تصور غريب ، حتى يقول في المتنطسين
من الشيوخ : « يقضون ساعة تامة في شرح جملة غير تامة » .

(١) الفارياق جزء ١ ، ص ٥٣ و ٦٦ .

ثم يسخر من أساليب المراسلة في عصره فيقول : « أكثر الكتاب يتهوّسون في إهداء السلام والتحيات للمخاطب كأنهم مهدون إليه عرش بلقيس » .

انك لتجد هذا السخر منشوراً هنا وهناك في كل ما كتب . خذ منه ، مثلاً ، قوله للطبيب الذي عاجله علاجاً عنيفاً : انا صاحب جثتي أفلا تشاورني ؟ وكقوله عن الانكليزية التي دعاه زوجها إلى العشاء عنده وهرب من وجهه ، ولم يعشه : تسارّ بناتها كأنما نزلت بهن نكبة البرامكة . ولست أذكر لك شيئاً عن تهكمه ببعض فرق من الناس ، فاقراً أنت في الفاريق .

إن المتمشرق الذي قال للدكتور زكي مبارك كما روى في كتابه « النشر الفني » إن الأدب العربي رواسم (كليشيات) ، مصيب جداً ، وأغلب ظني انه لم يقرأ الشدياق ليعلم ان فينا من خرج من الصيرة ... ولو عرف صاحب لسان العرب ان الدهر سيلد واحداً كالشدياق لما تجرأ على القول لنا : خذوا لغتكم من أعجمي .

لقد كشف الفاريق عورة هؤلاء العجم ، وفضحهم على عيون الناس ، وحسبك بالجاسوس على القاموس برهاناً . ولا أكتمك هنا ان الشدياق انتقد قاموس الفيروزابادي ليهدم « محيط المحيط » الذي اعتمد فيه البستاني على القاموس ، فأصاب عصفورين بحجر واحد .

وقصارى القول : كان المعلم جاحظياً نواسياً في فاريقه ، بطوطياً في

واسطته وكشف مخبئه ، خليلاً في سر ليايه ، وقد صدقت الاجيشان
غازت حين قالت :

« ضع الكتبة الانكليز ، مكيت ، وامرسون ، وواردزورث ، ووايكلف ،
وديكتر في شخصية واحدة ، فيمكنك حينئذ أن تتصور عظمة هذا الرجل .
ولو ولد الشدياق في اوروبا لدفن مع نخبة العظماء ولنصبت له تماثيل في أكثر مدن
بلاده . »

ان أحمد فارس كثر ضخم مختوم كقبره ، يمر به الناس ولا يعرفونه ،
وهو العارف بكل شيء ، ومثال العربي المثقف الكامل في القرن
التاسع عشر .

إن أحمد فارس كجبل لبنان في كل قرنة من قرانيه معنى خاص ،
وفي كل واد من أوديته صورة جديدة ، فعليك به كله ، فهو للتقديم متجر
واللجديد مكسب .

الكاتب الاجتماعي

هذا ابن بيت قديم نكبه السيامة ، كما قلنا ، ولكنها تأصلت فيه فجاء
سياسياً أباً عن جد . والسياسيون المنكوبون في كل عصر يصبحون أفقر
البرية متى انتزعت منهم أملاكهم كما حل بيت الفاريان ، فقد استصفى
المير أملاك جده حتى لم يدع له بيتاً .

وورث فارس عن أبيه ، الذي مات في دمشق ، شهيد ثورة سياسية ،
مكتبة ثمينة . فصار نساخاً له وللناس .

ولم تربح تجارتها تلك فصار كاتباً لبعير بيعر (أمير حيدر) ، صاحب التاريخ الذي طبعته حكومتنا الجليلة . فنسخ له (كما ترجم) سفاسته التي حدثنا عنها في فارياقه .

وقد حدثنا عن غفلة أميره هذا وعن أشياء أخرى لا محل لذكرها هنا ، فارجع اليها بنفسك ، فليس عليّ أن أزقك كالفرخ .
أما الآن فاسمع شيئاً من سفاست « بعير بيعر » .

قال الشدياق : « ودونك مثلاً مما كان يكتبه الفارياق في أساطير بعير بيعر .

في هذا اليوم ، وهو الحادي عشر من آذار سنة ١٨١٠ ، قصّ فلان بن فلانة بنت فلانة بنت فلانة ذنب حصانه الأشهب ، بعد أن كان طويلاً يكنس الأرض . وفي ذلك اليوم عينه ركبته فكبها به الخ . . . اليوم نظرت سفينة في البحر ماخرة ، فظن أنها بارجة قدمت من أحد مراسي فرنسا لتحرير أهل البلاد ، لكن عند التحقيق علم أنها إنما كانت زورقاً مشحوناً ببراميل فارغة ، وكان سبب قدومها للاستقاء من عين كذا (١) . »

وبعدما قاسى الشدياق ما قاسى في وطنه ، كان اعتقال أخيه أسعد ، ففر من بلاده لئلا يفجع بنفسه ، فنجأ وأخذ يطوف في الدنيا . وظل يشقى ويسعد حتى مات أخيراً شبعان من كل شيء . فغير عجيب إذنت ان لمحت في ما صنّفه وكتبه دروساً عميقة لأخلاق الناس .

(١) الفارياق ، ج ١ ، ص ٣٩ .

قد عالج مواضيع كثيرة من شؤون البشر معالجة النطاسي الخلقى .
ولو كان غير عربي لدرسته المدارس كما يدرسون لايروير ، ولعول الناس
على آرائه فيها كما عولوا عليه في سياسة الشرق .

ان فصوله التي اذاعتها جوائبه تحت عنوان « جمل أدبية » ، وهي
عديدة ، تبتدىء غالباً بـ « من الناس » تم عن عالم ببيكولوجي يحلل
خوارج النفوس ، ويصورها بقلم غني جداً ، معتمداً في الغالب على عينه
التي كانت تسبر الأعماق النفسانية ، فيدرك الكثير مما يمر به سواه ولا يرى
فيه شيئاً .

وها نحن ننقل لك منها « جملة » واحدة لضيق المقام ، لعل فيها بعض
الغنى عن كتبه النادرة الوجود :

من الناس

من الناس من يببالغ في مدح وطنه ، ويحنُّ اليه حنينه الى سكنه ، فيصف
مروجه ورياضه ، وبروجه وحياضه ، ووهاده وجباله ، وتلاعه وتلاله ، وربوعه
ودياره ، ونباته وأشجاره ، ويقول وثماره ، ودوحه ، وأطيابه ، وطيب هوائه ،
ولذة مائه ، يزعم ان فصوله كلها كالربيع حسناً ، وان جميع أقطاره تتدفق
بركة ويمناً ، وان شهراً فيه خير من ألف عام في غيره ، وان كل بلد مستمد من
خيرهِ ومحتاج إلى ميرهِ ، ثم يزفر زفير الهائم الحيران ، ويصرخ صراخ الوهان :
ألا ان حب الوطن من الايمان .

هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء ، بل قد ذكرت أيضاً في بعض الكتب
المنزلة ، في عدة مواضع مفصلة ، فقيل انها معدن الخير والكرم ، ومشوى
الصالحين من الأمم ، ومنها كان مبدا الصنائع والعلوم في كل مجهول ومعلوم .

فإذا قلت له كيف جارك الأدنى لعله كان لك عوناً وخذناً؟ قال: ويبي! انه شر جار، وهو على البلاد عار وشنار.

- فكيف أهل الحارة طراً؟ قال: ويبي! إنهم كانوا كلهم عليّ شراً، ولم أجد منهم إلا ضراً.

- فكيف أهل البلد أجمعين؟ قال: ويبي! وما منهم أمين ولا معين، فما كأنهم خلقوا من ماء وطين.

- فكيف حال الإمام؟ قال: ويبي! إنه من الطعام اللثام.

- فكيف شأن المطران؟ قال: ويبي! إنه ذو هذر وهذيان.

- فكيف الحاخام؟ قال: ويبي! إنه يحرم الحلال ويحلل الحرام.

- فكيف أهل الرستاق؟ قال: ويبي! إني قد اختبرتهم جميعاً فلم أجد لأحد منهم من خلاق، وإن هم إلا جهال أغبياء، وينقادون لمن يأمرهم من الأغبياء، فإنهم عبيد الدرهم والدينار، ولا يباليون إلا ببلء بطونهم ولو من الخنشار.

- فكيف أهل المدن والأمصار؟ قال: ويبي! إنهم أولو غبن وغش واخلفار، ما تعامل منهم من أحد إلا ويمنيك بالكمد والنكد والخنسار.

- فكيف أهل الجبال؟ عسى انهم من صفت طويبتهم وطاب منهم البال، فتلك خلة قد اختصوا بها في جميع الأزمان.

قال: ويبيك! ومن أين لهم الصفاء، وقد فطروا على الشراسة والجفساء، فابتعدوا عن الآداب، فكادوا أن يحضوا مع الذئباب؟ فإن أحدهم ليقتل أخاه على خبزة يسد بها جوعه، ويسلب صديقه في أكلة ويحرمه هجوعه. هذه حالة سكان البلاد، الحاضر منهم والباد، فلا تكثرن من السؤال، ولا يخطرن ببالك غير هذه الحال. فإن قلت له: ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن، وأهلها على هذه المساويء الشوائن؟ قال: إن أهلها الأولين كانوا من الخيبرين،

فحراثوها وزرعوها ، وعمروها وأمرعوها . ثم فسد الزمان فجاءت خلفاؤهم فاسدة ، لكن بقيت تلك المحاسن فيها سائدة .

— ولكن ما معنى فسد الزمان وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الإنسان ، والتواريخ على ذلك شاهدة ، ونصوصها عليه متساندة متعاضة ؟ ثم كيف فسدت الخلفاء ، وأنت بقيت من بينهم صالحاً ، ترى كل من سواك طالحاً ، ولو كنت من الصالحين ، لما رأيت في غيرك خلقاً يشين ، فإنما ينظر في عيوب الناس من كان أسوأ منهم حالاً :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِه الْمَاءَ الزَّلَالَا
كذا قال الشاعر الحكيم ، فما أنت في طعنك على جنسك إلا ملهم ، وإن
امرءاً يحسب جميع أهل بلاده دونه ، لجدير بأن يشيعوا فتونه ، ويذيعوا جنونه ،
ويتجنبوا محضره ، ويتنكبوا منظره (١) .

بين التقليد والتجديد

الفن لفظة جوفاء يستتر وراءها كل صفيق الفكر .
أما العبقرى فيخلق فنه ، وعلى النرية ان تضع المقاييس . فشكسبير
وراسين كانا قبل فرويد وعلمه . وهكذا فعل نابغتنا العظيم ، ولكنه لم
يجرؤ على الطفرة ، فوضع كما يقول الفلاح اللبناني : رجلاً في الفلاحة
ورجلاً في البور . فرأيناه تارة يسجع ، وطوراً يدع السجع هازئاً . ثم
يعود إلى الرجل الخشبية ، وكأنه يريد أن يكون له ما كان لأهل زمانه .

(١) كنز الرغائب جزء ١ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

فكتب اربع مقامات في الفارياق ، ولكتها في أغراض غير أغراضهم ،
فطمست روح المعلم معالم التقليد . ولا عجب فهو ممن يصنعون القالب
على الرجل ، لا الرجل على القالب .

وبينا نحن نقرأ ازدرائه القديم ، إذا بنا نراه ينهج نهجهم في عناوين
كتبه : الواسطة في أحوال مالطة ، كشف الخبا عن فنون اوروبا ، سر
الليال في القلب والابدال ، السند الراوي في الصرف الفرنساوي ، الباكوزة
الشهية في نحو اللغة الانكليزية ، وأخيراً غنية الطالب ومنية الراغب (على
وزن بحث المطالب) .

كل هذا يدلني على أن عقلنا ، مهها كبر وتجرد من قيود الماضي ، فلا
بد أن يظل عالقاً بشيء ولا يتفكّت بسهولة . والخوف من الغد يزيد هذه
الامور تمكيناً .

وإذا تساءلنا هل الشدياق عالم او فيلسوف أو مؤرخ ، رأينا كل شيء
من هذا وليس بشيء منه . فهو لا تعنيه إلا أخلاق البشر من حيث الاجتماع
فقط . أما استنباطه فمن الواقع .

المرثيات نواة أدبه تلقى في أرض أسلوبه المغلال فتعطي كالحبة التي
ضربها يسوع مثلاً . وقد تكون الفكرة مبتذلة ، فيجلوها المعلم كجنان
النواصي ، فتفضح العروس وتفتن النظارة .

كان الشيخ غير مطمئن الى ما كان يفتتح في وجهه من طرق معبدة
في الأساليب والمواضيع ، فتراه يصب عليها جام غضبه البارد ، فيضحكك

منها كما فعل بشاعر السريّ الذي كان شعره سجلاً لحركات سيده البيتية .
فإن عطس أو تنفس أو نفس عن زق جسده المحشو أكلاً وشرباً ، رفع
الشاعر عقيرته مادحاً داعياً .

كتب الشدياق سيرة حياته بيده ، فكتبها على هواه ، وحمل فيها على
أعدائه حملات غواشم ، فثار لنفسه ولأخيه ، فما كانت الدهر ابتلاه إلا
ليخرج لنا من رأسه وقلبه وكل حواسه كتاباً خالداً .

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد من الجديد ، فدفعه القدر أيضاً في طريق
أخرى من طرق الأدب الحيّ ، فكان أبا « المقالة » في الأدب العربي .

اقتضت جريدته « الجوائب » هذا النوع من الأدب الذي لم يكن
للعرب به سابق عهد ، فاخذ الشدياق يجبر « المقالات » لجريدته الأسبوعية ،
ثم تهافت على هذا اللون جميع محرري الصحف كاسحق والحداد . فانتشر
في أدبنا هذا النوع فيما بعد . وظل أدب « المقالة » سائداً حتى ساعتنا هذه .

لا تظنن أننا ندعي للشدياق غير ما عنده ، فمعاذ الله أن ننسب إليه
أمراً لا يدّعيه هو ، بل يدلنا على « المقالع » التي اقتطع منها الحجارة
لهيكله الجبار ، حين قال في عدد ٢٥ من الجوائب :

ويبي على هذي الجوائب	جاءت عليّ من النوائب
أودعتها من كل ما	شاق الأديب من الفرائب
ولها سهرت ليالي	اعتكرت بأحلاك المصائب
وجلوتهما بكرأ على	الخطباء جلّت عن ثوائب

لكنها من سوء حظي	لم تفز منه بخاطب
فتباعدوا عنها تباعد	من يخاف من المعاطب
ما يال من هوى العجائب	لا يرى فيها العجائب
عربية سبكا ، ولكن	تبرها تبر الأجانب
ما ثمّ منها عجمة	أنف المراغم والمراقب
مع صوت معنى الأصل	عما لا يلائم أو يناسب
وبذاك من جهد القريحة	ما تشيب به الذوائب

هذا هو « فاريقنا » المجدد في كل ما كتب حتى « اللغة » ، كما ستري .

فإذا قرأت جميع ما كتبه الشدياق قراءة مفكر متأمل ، رأيت أن أسلوبه البسيط آية في السهولة . وهذا ما تراه في الفاريق وكشف المخبا والواسطة . ثم ترى في « الفاريق » جميع الأساليب الكتابية حتى المقامة ، ولكنها من طراز آخر ، كما قلنا . فالشيخ هازل دائماً وأبداً . وكأنه رأى ان يترك « آية » في نثر الصنعة ، فكتب مقالة من نوع الترصيع دفعه اليها تعصبه للغة العربية . فاسمع ، إذا شئت ، نموذجاً من تلك المقالة ، قال :

« إني كثيراً ما فكرت في فن البديع الذي هو من بعض الأدلة على فضل اللغة العربية على سائر اللغات ، فأحببت ، هذه المرة ، أن أنشيء مقالة برمتها من نوع الترصيع ، ومثاله في الكتاب العزيز : إن إلينا إياهم ، ثم إن علينا حسايهم . فها أنا أدعو جميع من على وجه الأرض من الأفرنج لمعارضة هذه المقالة ، وهي :

« من الناس من تخلج فكره من فنون الاقتراح خوالج ، وتلعب صدره من شعبون الاجتراح لواعج ، وترعجه المآرب إلى أقصى المرامي ، وترعجه المطالب

إلى أعصى الموامي ، وتستفزّه وتستهويه ، وتستبزه وتستفويه ، لكنه يفتح لها صبره ، ويشرح صدره ، ويحتب بوارح الفصص ، ويرتقب لها الفرص ، ويتحين انتجاعها ، ويتبين انتفاعها ، ويخبّر مشروعها ، ويسبر موضوعها ، فلا يبغيها إلا حذراً ، ولا يأتيتها إلا ظفراً ، ويرى ان الانتظار أحسن معين على تحصيل الأمل ، والاصطبار أيمن قرين لتسهيل العمل ، ورب عجل اهب الأجل ، ولا يخلو ابتسار عن انهار ، ولا تحلو أوطار مع أخطار ، ولا يعلو منار في منار ، وإذا دانت نية ، أو هانت ثنية ، أو حانت أمنية ، لمن غادر التبصر ، وبادر التهور ، فطال طلباً ، ونال أرباً ، فإنما يكون من قلّ النوادر ، ولا يهون لكل مخاطر (١) .

هذا هو شيخنا المترجم بين القديم والجديد ، يخاف على أدبه المحدث ان يتراجع أمام القديم . ولهذا لم يترك خطة اسلوية إلا ركبها ليظهر للملأ انه مستطيع ، ولكنه يريد الجديد في كل مقام .

الشدياق الرحالة

الهجرة داء لبنانيّ زَمِينٌ ، سرت جراثيمه في دم القوم منذ دهور .
فاهون شيء على اللبناني اقتحام البحر والقاء نفسه بين أذرع أمواجه .
داعب البحر صغيراً فاستخف به كبيراً . عرفه في فجر حضارته
الأولى فما هابه حين اندثرت أمجاده ، وانزوى بين صخوره . لم تعف

(١) منتخبات الجوائب ، جزء ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

الأيام على آثار الأساطير ، فظلت قائمة في عقله الخفي كأنها الطلوع
الدارسة ، فكانت تحته دائماً وابدأ على الرحلة والاعتراب .

أساطير لم تمح من عقل اللبناني وان ظن انه انعتق منها وتحرر بتركه
وثنيته الأولى . فهو لم ينس ، وان اعتكف على عبادة جديدة ، وأديان
حديثه .

انه يصلي في أماكن كانت السيادة فيها لآلهة تتناحر وتتصارع في
آفاق وساحات خلقها خيالهم الرحيب ، بل قل خيال جامع لا يكبح
بلجام العقل . فهذا الاله الشاب أدونيس ، شيخ المهاجرين ، كان يقضي
اربعة اشهر عند الزهرة السفلى ، واربعة اشهر عند الزهرة العليا . وهذه
عشروت تهاجر ايضاً . وهذا قدموس وهركيل ، وهذه ديدنه
يهاجرون ايضاً .

نعم ، إن هذه إلا أساطير الأولين ، ولكن كم للأساطير من أثر بليغ
في عقل النرية ! لقد ظلت هذه الأساطير تعمل عملها في العقلية اللبنانية
حتى استهانت بالمخاطر ، فرأت أهون شيء عليها هجرة الوطن .

أما اللبناني المقيم فظل في أطوار تاريخه كلها متمرداً ، يعنيه من
أولياء الأمر ما قد لا يعنيه غيره ، فتستفزه أقل مظلمة ، فيبيل يده بقائم
سيفه وطبنجته . فيبينا تراه فلاحاً او مكارياً ، إذا به يتحول عند المساء
سياسياً متطرفاً ، يزور الساعة الحاضرة ومشاكلها ، فيتحول في الصباح
محارباً لا يثنيه عن مرامه وهواه جور او اضطهاد... قد يحرق الظالم

بيته ، وهو يعلم انه يفتدى بكلمة حسنة ، إلا انه لا يقو لها . عنيد ، مصره
لا يثنيه الجور مها طغى وتجبر .

وهذا شيخنا الشدياق نموذج قح للبناني المتمرد .

هو ابن بيت لم تكن تثبت دعائمه حتى تتقوض . فها هم جدوده
يفادرون جبّة بشري ليحلوا في صرود كسروان (عشقوت) . ثم لا
يطمئنون هنيهة حتى تقض السياسة مضاجعهم ، وتجلبهم إلى حدث بيروت
(حارة البطم) ، ولا تمر بضع سنوات حتى يحرق بيتهم الجديد . ثم يموت
أبو الشدياق في الشام مشرداً كما مر ، ولا يطمئن الأيتام حتى تمت نكبة
« أسعد » قرنيها . فيخاف أخوه فارس ان يلاقي ما لاقاه أسعد ، فينفض
جناحيه ، فإذا به في مصر المحروسة ، وقد أمن جانب الطغيان .

ولوى الصقر رأسه ينظر إلى قوادمه وخوافيه ، فرأى جناحاً تام
الريش فحلّق ، في جو طموحه ، فإذا به في « مالطة » يملئ ويكتب ،
ويعلم ويصحح .

ويطير طيرة اخرى ، فإذا به في لندرة . ثم طار إلى باريس ، ومنها
قطع إلى تونس حيث استقر حيناً . ولما تآلق نجمه طمعت به الأستانة .
وهناك فوق روابي اسطمبول ، جثم النسر على أعلى قم مجده ، محدقاً إلى
العالم بعين حادة .

اختبر الدنيا في تجواله ، وكان معلماً ومتعلماً في حله وترحاله ، فما
استقر حتى شرع يصدر أحكامه القاطعة ، منذ قرن ، على أرقى الأمم
والشعوب .

درس أخلاقهم في كتبه ، وقعد يلقي عليهم دروساً سنوية في جريدته
فأصفت الدنيا إلى ما يقول ، ودان له المجد في ميداني الأدب والسياسة .

إن الأديب الكبير هو من يجد قلمه مرعى في أقحل الأمكنة وأجديها
فسيان عنده الصحارى والواحات والغوطة والأرض الموات . وها هو
شيخنا يكتب « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » فيجيد ، ثم يكتب عن
لندرة وباريس . فكان في كل موضوع يلججه قلمه واثقاً من نفسه ، شديد
الوطأة على المكان والزمان والسكان .

لقد أوتي عينان لاقتتان ، ومخيلة خالقة ، وقريحة شيالة ، ورغبة
آكلة ، ولغة لم يفلت من بين مخالبه إلا القليل من مفرداتها ، فحفظها
كالماء الجاري ، فتدفقت من شق قلمه ، فأنعشت النفوس وغدت الأبواب
والأذهان .

هوذا النسر اللبناني يخلق في أجواء الفكر ، فلا تعرقل خطته غيوم
لندرة . يسير إلى غرضه كأنه السهم فلا يخطيء الهدف .

ثقف الاغتراب شيخنا ، وألهمه الغربية ما لا يخطر ببال ، فأنجلت
لنا خواطره . أيقظت مخالطة الناس من كل جنس ملكة النقد الهاجعة
بين جوانحه ، فإذا كلماته حراب حادة ، لا يحابي ولا يصانع .

وصف ما رأى وما سمع وما أحس . ولم يكن كغيره في هذه الرحلات
راوية أخبار ، ومحدثاً عن الغرائب والعجائب ، بل كان عقلاً جباراً
يناقش في كل غرض ، ويبحث كل مطلب ، مبدياً رأيه غير وجل ولا

هشاب ، سيان عنده الأمير وسائق الحمير ، فلكل منها لذعة من ذلك الزنبور .

قال المشرق الفرنسي هنري بيريس في دراسة لنهضة الأدب العربي الحديثة :

« نشر فارس الشدياق ثلاثة كتب ضمنها رحلاته في الشرق الأدنى واوروبا ، وهي : الواسطة ، وكشف الخبا ، والساق على الساق فيما هو الفارياق .

« أما الكتابان الأولان اللذان دون فيها مشاهداته عن مالطة وفرنسا وانكلترا فهما تحقيقان نزيهان جديران بالتفاتنا . وهما ، مع كتاب رفاة الطهطاوي « تخلص الأبريز » ، الكتب الأولى التي نجد فيها ملاحظات شرقي على الحضارة الأوروبية . وإذا اتفق لنا أن قرأنا باهتمام كتاب أحمد فارس عن مالطة حيث نجد بعض صفاتنا في تنظيم عرض الملاحظات ، فإن كتابه عن انكلترا وفرنسا يختلف كل الاختلاف عن ذلك من هذه الناحية . فالملاحظات فيه مبعثرة هنا وهناك في غير ترتيب ولا نظام ، والحديث فيه يتصل ويتوالى ، ولا يقف عند فقرة جديدة بحيث لا يتاح لك أن تتنفس الصعداء ، فتفهم ما تطالع (١) . »

قلت : أما الشدياق في « كشف الخبا » فعنوان كتابه يدل على ما فيه . فلو كتب كتاب الغرب مئة عام أخرى مقبحين ومشنعين ، لما ثاروا لأنفسهم ، ولكن الشدياق لم يفعل كبعض هؤلاء الذين ينظرون إلى معايينا فقط ، بل تناول الحسنات والسيئات ووضعها في كفتي الميزان .

(١) المكشوف ، عدد ٢٢٦ و ٢٢٧ ، ص ٢١ ، ترجمة الشيخ فؤاد حبيش صاحب الجريدة .

واليك نتفة مما كتبه في ذلك الكتاب عن أخلاق الانكليز وعاداتهم
وما عندهم من تشاؤم وتفاؤل ، قال :

من خصائص الانكليز حب الوطن والمباهاة بما عنده والإذعان للقوانين .
وأول خلة يراها الغريب فيهم هي عدم اكترائهم له ونفورهم منه . لا يعني أحد
منهم شأن جاره ولا همه أمر غيره . فكل ذي حرفة يقتصر على الاشتغال
بحرفته مدة حياته ولا يتطال إلى معرفة شيء غيرها . وإذا استراح الرجل منهم
ساعة ، قضاها يذكر ما عمل ، وما سوف يعمل . ويمكن أن يقال ان بهذه
الخصلة استتب عز دولة الانكليز ، وعظمت شوكتها ، لأن الرعية لا تعترض
ذوي الأمر والنهي في تدبيرهم ، ولا تتناول إلى معرفة ما تقتضيه أهل شورايم .
فلذلك قل ما يحدث عندهم شغب أو فتنة ، بخلاف أهل فرنسا ، فإن كلا منهم
يتطفل على أولياء الأمر فيهم .

ومن طبعهم انهم لا يتزاورون ، ولا يسهر بعضهم عند بعض . وربما بقي
الرجل سنين ولا يعرف جاره . وغاية محاورتهم في الطريق أن يقول أحدهم :
طيب بطرس ، فيقول الآخر : طيب يوحنا . وإذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا
فلا بد وأن يبتدئ أحدهما أولاً بوصف الهواء وصحوه أو برده ، ثم يخبره بما
عرض له من وجع في كتفه أو تالول في رجله أو اختلاج في عينيه . ومتى اجتمعوا
للنادمة ، وذلك لا يكون إلا في القرى الجامعة ، ملأوا كوباً كبيراً من الجمعة
وجعل كل منهم يكرع منه كرعة ويدخن في قصبه من الطين ، ثم يبصق فيملأون
المكان بصاقاً وقذراً . وفي خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء وذكر البرد .
ولا يكاد أحدهم يضحك ضحكاً طبيعياً ، وإنما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها
الكتم والعبوس ، فما كان الضحك منهم إلا قوة من القوى ، فهم يكتمون ما
أمكن مخافة أن تخرج معه تلك القوة .

إن الانكليز يتطيرون من المرأة الحولاء ما لم تبادر بالكلام ، ومن السفر
يوم الجمعة ، وأن يكون المدعو إلى عيد الميلاد رابع عشر شخصاً ، وأن يعارض

سكينان وقت الغداء ، وأن يمشي أحد تحت السلام ، وأن تبقى أغصان عيد الميلاد في البيت بعد عيد كندلماس ، وإلا فإن إبليس نفسه يأتي ويأخذها . وإذا رمى بنطين باليتين خلف من خرج من المنزل لمصلحة يرومها كان ذلك فالأ بتوفيقه ونجاحه ، وهذا تستعمله خصوصاً عليّة الناس في بعض البلاد ولا سيما عند الأعراس . وإذا قصّ الانسان شعر رأسه مدة نحو القمر تما وجتل .

ويتطيرون أيضاً من رؤية الهلال من شباك أو زجاج ونحوه ، فإذا رأته في الفضاء فاقلب ما في جيبك من الفلوس وتمنّ خيراً في الشهر القابل تنله . وأن يضع أحد ملحاً في صحفة غيره ، وكذا لو قلب الملح على المائدة . وأصل ذلك ان بعض المصورين الطليانيين صورّ العشاء الأخير وهوذا مبدداً للطح . وإذا انقلبت الكرسي برجل عزب كان دليلاً على انه لا يتزوج في تلك السنة ، وهو غريب . فإنهم شبهوا المرأة بالكرسي وهو عين ما عنته العرب بقولهم : قعيدة الرجل امرأته .

وإذا تآجج لهيب النار وسمع له حس استدل بذلك على نزاع ونقار يقع بين أهل البيت . وإذا طارت جمرة وسمعت لها صوتاً دلّ ذلك على قبضك دراهم . ورؤية نحو عكر منقسم إلى أجزاء في قذح دليل على سفر طويل ومشاق . ووقوع سكين على الأرض دليل على قدوم غريب . وإذا عزم الانسان على سفر وأكل نصف بصلة وترك البساق كان دليلاً على عدم توفيقه . وحك العين اليمنى دليل على البكاء ، واليسرى على مرور غير متوقع ومعه ضحك . وإذا اختلجت الشفة العليا واحكت كان ذلك علامة على قبلة ، أو الذوق فعلى لحم طري ، أو النحر فعلى اتخاذ منديل ، أو الأذن اليسرى فعلى مدح يثني عليك به أحد ، وبمعكس ذلك الأذن اليمنى ، أو الأنف فعلى شيء يغيظك ، أو الكف اليمنى فعلى قبض دراهم ، أو أخمص الرجل فعلى مخاطبتك رجلاً أجنبياً ، أو الكوع فعلى رقودك في غير فراشك .

ووضع مفتاح البيت على مائدة ونحوها مؤذن بالشؤم ، فالأولى أن يعلق في

مصار أو وتد . وإذا ما أحد مات وتيبست أعضاؤه حتى لم يمكن ليها كان الموت مفرداً ، وإلا فلا بد من أن يأتي على آخر . ونباح الكلب بما يشبه العواء تحت الشباك دليل على الموت . وكذا إذا حاولت هرة أن تدخل من الشباك أو دبت الخنافس على الموقد ، أو وقفت الساعة بحيث تكون نظيفة الآلات . وإذا عزم أحد على إدارة مصلحة وهبت الريح في غدومه من الشمال ، فإنه يفوز وينجح . وإذا كسب ديناراً كسباً هيناً بصق عليه ووضعه في كيسه . وكذا يبصق عليه إذا كان أول دينار مكسوب صبيحة يومه . وإذا أهدى محب إلى محبوبه سكيناً أو مقصاً فلا يلبثان أن يفترقا ، فلا يقبل ذلك منه إلا أن يضعه على مائدة ونحوها ، أو أن يعطيه في مقابلة الهدية فلماً . ووضع المنفخ على كرسي أو مائدة مورث للنزاع . وازدهار النار دليل على قدوم صاحب المنزل مسروراً . وعثار إنسان مرتق في الدرج يدل على الزواج ، والإكثار من الضحك يعقبه البكاء ، وصرف دينار بدراهم من دون قبض قطعة من الذهب دليل على إنفاق الدراهم عبثاً . وسقوط مشاطة شعر النساء في الماء يورث تساقط الشعر ، بخلاف ما لو وقعت في النار . والنظر في المرأة ليلاً مكروه إلا عند الاضطرار . وابتلال ثياب المرأة وهي تفعل تطير بأن زوجها يصير مكبراً . والشامة في العضد تيمن وبركة ، وإذا احمر وجه الإنسان كان علامة أن أحد محبيه يذكره .

وتأويلهم للأحلام قريب من تأويلنا ، فالجلم بكلب دليل على صديق ، وبجيرة دليل على قهر عدو ، وبامرأة ميتة دليل على شر ومصيبة ، وقس على ذلك . تملأ البنات أفواههن ماء ومعه شيء من حب الحمص ويمتنعن من الضحك لتلا يخرج الماء .

الزواج عندهم في شهر أيار شؤم . وإذا أراد أحد أن يفتح دكاناً أو يتعاطى مصلحة مهمة فلا يبدأ به يوم الجمعة بل يوم الخميس أو السبت . وفي السنة الكبيسة تلبس النساء ثوباً أحمر تحت القفطان . وكلما أكثروا من أصناف الحلواء في رأس السنة زاد استبشارهم بخيرها وبركتها . وفي عيد الميلاد يصنعون نوعاً مخصوصاً

من الحلواء يسمونه « كرسيس بودن » ويقون منه شواية في الصوان تبركاً بها ،
وإذا مضى عليهم هذا العيد من دون أكل هذه الحلواء أوجسوا النقص والقلة
سنتهم كلها . وإذا كانوا غائبين عن بلادهم بعثوا إلى أهلهم يستهدون منها لملاظة ،
فبيعثون لهم في كتاب بثل قلامة الظفر .

وفي ليلة ذلك العيد يوقدون شموعاً كثيرة وتارة متأججة ، ويزينون الغرف
بالأغصان ، ويظهرون الفرح والابتهاج . وإذا مئت امرأة من تحت الأغصان
حقاً للرجال أن يقبلوها . وفي اليوم التاسع والعشرين من أيلول ، ويسمونه
ميكلمس ، أي عيد ميكال ، يأكلون الوز . وفي السادس من كانون الثاني
يصنعون كعكاً مخصوصاً يسمونه كعك اليوم الثاني عشر .

ومن أوهامهم الاعتقاد بظهور روح الميت عند قبره . ويوجد في لندرة موضع
اسمه هاتن كاردن فيه عين ماء يزعمون انه يجري منها دم كل يوم عند نصف الليل .
ومن ذلك اعتقادهم بأنه متى احتضر شخص حضر في منزله روح يسمونه رصد
الميت . فيسمع له قرع على الباب أو الحائط ، أو صوت نحو صوت جرس
السلاسل ، أو طنين الجلاجل ، فإذا سمع منه ذلك ثلاث مرات كان الموت بعدها
لا محالة (١) .

الصحفي السياسي

قال عن نفسه :

لقد طفت في الدنيا على غير طائل فلما بدا عجزني أتبت « جوائي »
فيا ليت شعري ، والنوايب حمة ، أيخفق كل منيبٍ ونائب ؟

(١) كشف الغبا ، ص ١٢٨ فصاعداً ، ترجمها المؤلف عن جريدة أخبار

العالم ، عدد ٦٧٤ .

أما نحن ففردى بيت السهروردي ، مع بعض تغيير وتحريف ، أكثر
مطابقة لحاله :

كأنما هو في حلّ ومرتحل موكل « ببيان العرب » بزعه

وبهذه المناسبة نقول : لا مر ما أصيب شيخنا بالطاعون ، وذهبت تلك الدمة
كأنها بثره من بثور الصبا . ولأمر مثل ذلك « أصابته الهیضة وهي الداء المسمى
في مصر بالهواء الأصفر ، فبقي ثلاثة أيام لا يعي ولا يعقل من الدنيا شيئاً ولا
يقدر على النطق . سوى انه سمعه خادمه مرة يهذي ويقول : « كلية موجبة
كبوى » فظن أنه يستعظم مصيبتة فيقول : انها كبوى . فلما مضت ثلاثون يوماً
انتشر في البلد وعمّ بلاؤه ، والعياذ بالله ، فكان يموت به كل يوم ألف . ووقتئذ
عرف الفاريابى انه كان المقدم في هذه البلية وغيره كان التالي ، كما تقول المناطقة (١) .

إن فارس الشدياق ابن بيت لبناني عريق ، عالج ذووه السياسة في
الدنيا والدين فعركتهم عرك الرحى بثفالها . مات جده وابوه وأخوه
شهداء حرية الفكر والميل . وهو أحد متشردى هذا البيت ، قضى حياته
مجاهداً لم يدع قطراً في الشرق والغرب إلا حلتته ركابه ، وكتب عنه بعين
لاقطة لا يفوتها شيء كأنها عدسة المصور . ففي « الواسطة » وكشف
الخبيا ، والفاريابى ، صور شتى لأحوال الشرق والغرب . فأكبرنا جهاد
هذا المتمغرب الذي كان اعلاناً للدماغ اللبناني بلائنا .

ولئن أفلح وصار حجة السياسة الشرقية للأوربيين فلأن الوراثة
جعلت منه سياسياً عظيماً يحسن تعليل الامور بعقله الثاقب . وليست

(١) الفاريابى ، جزء ١ ، ص ٣١٣ .

سياسة العالم بأصعب من سياسة لبنان المختلفة بضاعته الطائفية كمخازن
ألف صنف وصنف .

وأصدق دليل على تمسك الفاريق بأذيال السياسة رسائله الثلاث التي
نشرنا رواسمها في عدد « المكشوف » الخاص بالشدياق ، فأقرأها تعلم ان
كل المتاعب لم تشغل الأستاذ عن استطلاع سياسة وطن مات وفي قلبه
حنين اليه ، وإن لم يقل في ذلك شعراً . وما شرده عن وطنه وكتبه
الفاريق إلا تلك النكبة ، فطوحت به في الافاق يطوي وينشر ما عن له
تنقيساً لكربته ، فجابت « جوائبه » الأرض ، وكانت مدرسة ليلية نهائية
للتاطقين بالضاد ، فصحت بها لغة عصره الفاسدة ، وقامت حرب البيان
على ساقها ، وكان جل فرسانها لبنانيين .

ومن الأتني المتصاعد من منتخبات الجوائب يظهر لتسا إعجابه
بصحيفته وتألمه من حاله :

على سطح ذي الدنيا أراني نقطة أخط خطوطاً لا تسمن لي ضلعا
وقد أعجب النقاد جمع جوائبي ولكنني للنقد لم أستطع جمعا

وما بلغت الجوائب عمر الجنين - اي تسعة أشهر - حتى كادت
تمضي لسبيلها طرْحاً . عجز الشدياق عن إصدارها ، فأعلن افلاسه في
العدد السادس والثلاثين ، منذراً بإقبال تلك المدرسة العظمى ، فقال
والضمير في اقلت يعود الى الدنيا :

أقلت ذي « الجوائب » قدر حمل الجنين وأسقطته في الترائب
ومن بك قرنك الافلاس دهرأ فكيف يطيعه عاصي المطالب

لقد تربت يدي عن نيل طرس أخط به عن الخطط الغرائب
بكيت وليس يحسبني بكاء وأرخت انقضى درس الجوائب

فهب لنجدته الصدر الأعظم فؤاد باشا ، فلم ينقض درس الجوائب ،
وعاشت حتى شبت واكتهلت وقال شيخنا : لله درها ... فكان ذلك من
حسن حظ الأدب العربي فجددت شبابه .

لم تكن الجوائب أول صحيفة عربية ، ولكنها كانت ، بلا جدال ،
أعظم الصحف العربية . كانت في عاصمة السلطنة وصاحبها أمير القلم في
زمانه ، يصول في ميدان السياسة ويجول بعد ما عجنته الأيام وقدمته
للجيل خبزاً طريفاً ، فأقبل على التهامه لما فيه من أدام وزكاء طعم .

وليس هذا زعمي وحدي ، بل يؤيدني فيه ما قرأته في مجلة المقتبس
(السنة الرابعة) من نص محاضرة ألقى في باريس على أعضاء جمعية
الإخاء المصرية . المحاضرة بدون توقيع . ولهذا ظننت ان كاتبها هو صاحب
المجلة الأستاذ محمد كرد علي . وما قال المحاضر في حديثه عن نهضة اللغة
العربية في القرن التاسع عشر .

« ولم تحرم الآستانة من نزول عالم العربية فيها ، اتخذها مباءة علمه ومثابة
درسه وبجته ، أعني به احمد قارس الشدياق الذي اقترح علي صديقي سيد افندي
كامل ، من رجال الجامعة المصرية ، أن أتوسع في الكلام عليه . »

وبعد أن ترجم وعدد كتبه الجليلة وأثنى عليها ، قال :

« وانك لتدهش من قدرته على التعبير (الضمير يعود الى الفارياق) ورشاقته
في التصوير ، ومئاته في التحرير والتعبير ، فكان اللغة (التي كان من جملة

محفوظات أحمد فارس فيها قاموس الفيروز أبادي الذي ألف كتاباً مهماً في نقده سماه « الجاسوس على القاموس ») كانت نصب عينيه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ، ويستحضر في دقيقة ما يصعب الإتيان به في ساعة ، ويتقن ما شاء بيانه وتبيانه .

« هبط أحمد فارس مدينة الآستانة بعد أن خبر حال أوروبا خبرة زائدة ، وأنشأ جريدة الجوائب التي طار ذكرها في الآفاق . ورزق الحظوة بعلمه ، فكان ملوك الأطراف يهادونه ويمنحونه المنائح . ومن كان يساعده خديوي مصر ، وبابي تونس ، وملك باهوبال في الهند ، حسن صديق خان .

« ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربي البحت ، سارت جميع صحفنا التي أسست بعدها على نسقها . وقل أن نشأت لنا جريدة في صحتها وديباجتها العربية . . . وأحمد فارس ، لو أنصفنا ، هو واضع أساس الصحافة العربية ، وباعت روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره .

قلت لك انه سياسي فلم أجد أدل على ذلك من قوله نفسه . اذا الغاية من هذا الكتاب أن تعرف الشدياق لا مارون عبود . فقد تكون مللت شقشقتي . أما أنا فآليت أن أظل أحشوك حتى تنفزر^(١) . فاسمع ولو شذرة مما يقوله الشدياق في أحوال السياسة :

« الأصل في السياسة أن تكون الدولة عارفة بأحوال رعيتها ، فتعاقب منهم أهل الشرور المفسدين ، وتكافي أهل الخير المحسنين . فالركن الأول عملت به جميع الدول ، أولاً لتأديب المسيء من حيث هو مسيء ، وثانياً لتسلم هي من شرهم وهو الباعث الأقوى .

« والركن الثاني بقي غير معمول به إلا ما ندر ، فان الدولة متى عرفت

(١) رسالة وردت للمؤلف دون توقيع .

أن أحداً من رعيته اخترع شيئاً نافعاً لها أو للمملكة ، أو مهلكاً لعدوها ، فربما عينت له وظيفة ينالها ، أو أكرمته برتبة أو نيشان . ومن فروع هذا الركن أن تكون الدولة باحثة عن لهم مزايا طبيعية ، وملكات غريزية ، فتربيتهم في مكاتبها إلى أن ينبغوا في ملكاتهم .

« والأصل في وظائف الدولة أن تكون عامة يشترك فيها كل من كان جديراً بها من رعاياها . إلا أنه كثيراً ما يقع أن خدّمة الدولة المتضلعين بأمورها يقصرون هذه المنافع على ذواتهم والمنتسبين إليهم ، فانهم يرشحون أولادهم لها ، فتصير هذه المنافع موروثه لهم . وهذه الطريقة شائعة عند جميع الدول ، وهي من وجهٍ عدلٍ ، ومن وجهٍ ظلمٍ . فوجه كونها عدلاً أن وظائف الدولة لا ينبغي تحويلها إلا لمن كان مستحقاً لها ، ووجه كونها ظلماً قصرها على أشخاص معينين . فاذا حصل تدارك لفرع الركن الثاني ، أعني تربية من لهم مزايا خلقية ، حصل التساوي في احراز تلك المنافع .

« وبهذا الاعتبار نستدل على أن رجال الدولة لا يهمهم هذا . ولذلك كان مهملًا عند جميع الدول . فان دول أوروبا ، مع بلوغها في السياسة والادارة أقصى درجة من النظام ، لم تلتفت إلى الاطلاع على هذه الحقيقة .

وفي الجملة فإنه لا يمكن لدولة من الدول أن تصل إلى حد الكمال ، وليس كمالها إلا أمراً نسبياً ، فما دامت أشباحنا تتغذى بالأغذية الكثيفة ، ونفوسنا تتقلب في الأهواء المتغايرة ، والأأنحاء المتباينة ، وفي كل يوم يعرض عليها أحوال متعارضة ، وأطوار متناقضة ، فالكمال منا بعيد .

« وبما يجب فعله على الدولة أن تتعرف ما عند غيرها من الأمور النافعة لتنهجها في بلادها ، كما يجب على رعيته أن يتفحصوا ما عند رعايا الدول الأخرى من الصنائع والحرف ليتعلموها منهم . ومع أن الدول الإسلامية في عهد الأمويين والعباسيين بلغت غاية العز والفخر ، لم يهتدوا أن تعرف ما كان عند دولة الصين من أسباب الترقى والتمدن . وهذا ابن بطوطة ، الذي جال في مشارق

الأرض ومقاربيها ، روى لنا كثيراً عن شعرة الهند ، وصعود سحرتها الى الجو ، وعن امور خسية رأها في الصين ، ولم يرو لنا أن أهل الصين كانوا يعرفون صنعة طبع الكتاب ، وعمل البارود وغيره ، (١) .

الشدياق اللغوي

كثيراً ما كنت أعزم على نفض يدي من أحمد فارس وكتبه ، لوعورة مسالكها ، ولكنني أعود فأتشدد وأقول :

حرام ان تظل الأمة العربية ، في عز نهضتها ، غافلة عن نابغتها ، فلا تستفيد من علمه ، وما فتح الله به عليه .

حقاً انك متعب يا شدياق افلو وضعنا معاجم اللغة كلها في كفة وسر الليال في كفة ، لشالت في الميزان . فكلمة البحر تكاد لا تفي صفة لأحمد فارس اللغوي . وهنا لا غير يصح ان يقال : هل ركبت البحر ؟ لا في كتاب سيبويه .

يهجس الشدياق باللغة في كل موقف ، فبينما هو يفتح عاماً من أعوام الجوائب يستطرد إلى البحث في اللغة ، وبينما هو يكتب في موضوع سياسي يستطرد إلى اللغة ، وبينما هو يكتب كتابه الخالد « الفاريات » إذا به يستوقفك أمام نهر من الألفاظ ، يلي بعضها بعضاً كياه النهر المتدفقة .

يقول لك الشدياق في مقدمة فارياته انه :

(١) كنز الرغائب ، جزء ١ ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

« بناء على اللغة ، وعلى خصائص فيها ، منها ان كل حرف يختص بمعنى من المعاني ، وهو سر من أسرار اللغة العربية الذي قل من تنبّه له . وقد وضعت لهذا كتاباً مخصوصاً سمّيته « منتهى العجب في لغة العرب » . فمن خصائص حرف الحاء السعة والانبساط ، ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة والفضاضة ، ومن خصائص حرف الميم القطع والامتئصال والكسر ، ومن خصائص حرف الهاء الحلق والغفلة والرت أي قلة الفطنة . ومن هذا الغريب أيضاً كون بعض الصيغ يختص بمعنى من المعاني (١) . »

وإذا فتحنا مقدمة سر الليال وجدناه يقول ، بعد أن فصل أساليب العرب ويّسن عجز غيرهم عن الإتيان بمثل فنونهم وأساليبهم وأنماط كلامهم شعراً نثراً :

« فأحمد الله على انها لغتي التي نشأت عليها وحبوت اليها ، وفيها لذتي تعبي وطاب لي نصبي ودأبي . ثم أحمدته ، عز وجل ، على أن آتاني نصيباً من غيرها ، حق صح لي أن أقول بتفضيلها عن يقين في النفس ، لا عن تخمين وحس ، فهي التي زينت كثيراً من لغات الافرنج وبيّضت وجوه الزنج . »

وبعد ان يقدم الأدلة على القلب والابدال اللذين أثرت بهما اللغة العربية يقول :

« وسياأتي مزيد بيان هذا ، وستراها كلها مندرجة في هذا الكتاب ، بما يقضي بالعجب العجيب ، ويعجب المتأمل فيه غاية الإعجاب . فإنه (أي كتابه) كشف مستور المباني التي لم يمد لإظهارها أحد قبلي باعه ، وأوضح من مشكلات المعاني ما خفي عن جمهور أرباب هذه الصناعة ، ومروجي هذه البضاعة . وإن

(١) الفاريابي ، جزء ١ ، ص ١ - ٢ .

كنت أقلهم علماً ، ودونهم فهماً ، فإنما هو سر كشفه الباري ، سبحانه وتعالى ، في بعض الليالي الشديدة ، والنفس قانطة من الفرج ومتمنية اللحاق بمن درج . ولذلك سميت المؤلف « سر الليال في القلب والابدال » ، وكان الأولى أن يسمى بأسرار اللغة أو أسرار الكلام . ولكن هكذا جرت التسمية فلم أعدل عنها ، لاعتقادي انها جرت على الوجه الذي جرى عليه الكتاب ، ولأن الناس يؤثرون علم سر الليل ... على سر اللغة (١) .

ولما كان صاحب البيت أدري بالذي فيه ، فلندع الإمام يحدثنا عن كتابه الذي لم يعمل مثله في لسان الغرب ، قال :

من فوائد سر الليال إذا اتخذت الفعل المضاعف أصلاً ، وفرعت عليه جميع الأفعال ، وجدت بينه وبينها تناسباً وتجانساً ، بحيث تتأمل في حقيقة الأصل وتدرک معناه . مثال ذلك : لفظه فت ، فإن معناه الدق والكسر بالاصبع ، ولازمه التفتح ، لأن كل ما انكسر انفتح . ثم تقول : فتنا ، كمنع ، كسر وأطفأ . وما فتنا مثلثة أي ما زال ، وحقيقة معناه ما انكسر وما انقطع . ثم فتح ضد أغلق وهو ظاهر . ثم الفتح ، أصل معناه . انكسر . تقول فتر الحر كما تقول انكسر الحر . ثم الفتح ، وهو طلب عن بحث ، كذا تعريف صاحب القاموس له . وحقيقة معناه : طلب فتحه وكشفه ، وهو أكثر ظهوراً في فتشت الثوب بالتخفيف والتشديد ، ثم فترسه بمعنى قطعه ، ومثله فترسه . ولا يخفى ان القطع والكسر من مورد واحد . ثم فتغه ، كمنعه ، وطئه حتى ينشدخ ، وهو مبني على الكسر والتلين . ثم فتقه شقه ، وهو جامع لمعنى الكسر والفتح . ثم الفتك أن يأتي الرجل صاحبه وهو غافل حتى يشد عليه فيقتله ، وهو غير منقطع عن معنى الكسر ، ولكنه خصص بهيئة معلومة . ثم قتله أي لواه ، ثم فتن الذهب والفضة

(١) سر الليال ، ص ٢ .

أذابها للاختبار ، هذا أصل المعنى ، وهو مبني على التكسير والتفتيح . وأصل
الفتنة الخبر ، بمعنى المهنة ، ثم اطلقت على اختلاف الناس في الآراء ، وعلى
الضلال والإضلال والجنون والإثم والكفر والفضيحة والعذاب وغير ذلك ، وكله
لا يخلو عن المناسبة .

ثم الفتى الشاب ، والفتى الشاب ، وحقيقة معناه تفتح الصبي في سنه ، والفتوى
يضم الفاء وفتحها ما أفتى به الفقيه ، وحقيقة معناه ما فتحه وكشفه ، ويؤيد
ذلك ان الفتح جاء بمعنى الحكم بين الخصمين ، وفتحه بمعنى قاضاه (١) .

ففي ما ذكر يدلنا الشيخ على خاصة جديدة من خواص الحرف غير تلك
التي رأيناها في مقدمة الفارياق . وملخص ذلك ان معنى الفعل المضاعف مثل :
فت ، أصل المعنى فتى ، وفتح ، وفتح ، وكل ما جاء من أفعال تبتدىء بالفاء
والتاء . وقد كان الشيخ يكتب ، كلما اقتضت الحال ، فصولاً في اللغة ، وهو ،
كما قلنا لك في ما سبق من فصول ، شديد الانصباب على ما ينقض عليه ، وإذا
مضى في تأييد رأي من آرائه لا ينثني أو تلين له مقاليد البحث . وما هو يأخذ
برأي جديد يعززه ببراهينه ، مستنداً إلى « سر الليال » :

وقد ذكرت في إحدى الجوائب ان اللغة العربية أصل للغة السريانية
والعبرانية ، وأوردت الدليل على ذلك من وجود علامات الاعراب في العربية ،
ثم قلت : فمن لم يقتنع بهذا الدليل رجعت إلى « سر الليال » ، والمراد بذلك ان
هذا الكتاب موضوع لتبيين مشتقات الألفاظ ، ونسق الأفعال بعضها ببعض
بإيضاح معانيها . وبهذه الطريقة تندفع دعوى من يدعي ان بعض هذه الألفاظ
مأخوذ من اللغات الأعجمية . مثال ذلك لفظ الكنز . زعم العلامة الحفاجي في
شفاء الغليل انه معرب : كنج ، وقال الثعالبي في فقه اللغة : فصل في ذكر أسماء

(١) مختارات الجوائب ، جزء ١ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

قائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد ثم ذكر منها الكنز. فكأنه يزعم ان ذلك على سبيل التوافق .

نقول في الجواب : بناء على ترتيب سر الليال ان كنه كنا وكنونا بمعنى ستره ، ومثله جنه ، ثم كنبه في جرابه ككوزه ، والكاتب : المعتلىء شعباً ، ثم كنت في خلقه قوي ، ثم كنت تقبض ، ثم كند النعمة كفرها ، وحقيقة معناه سترها . ومثلها في المآخذ غمط النعمة فإنه وارد من « غم » بمعنى ستر أيضاً . ثم كنز الشيء في الوعاء خبائه ، ويقرب منه جنز . ثم كنس الظبي دخل في كناسه ، فلم ينقطع عن الستر ، والكنيسة متعبد اليهود أو النصارى ، وحقيقة معناها مكان يستتر فيه الخ ...

إلى أن يقول :

فأنت ترى أن معنى الستر والجمع دائر في جميع هذه الألفاظ ، فإذا ادعى فارسي أن الكنز معرب كنج ، أو سرياني أن الكنيسة معرب كنشي بمعنى جماعة ، قلنا لهما : بل أنتم قوم لئع لم تحسنوا النطق بألفاظنا فبدلتموها وحرقتموها .

وقس على ذلك ما إذا كانت اللفظة جامدة ولكن تقدمها ألفاظ مشتقة جاءت على وتيرة واحدة ، فإننا نحكم بموافقة معناها لها . مثال ذلك : لفظة الشمس فإنها تظهر في أول الأمر أنها لفظة جامدة ، فإذا قابلتها بالشم والشمخ والشمر والشمز وغير ذلك مما يدل على الارتفاع ، حسيماً كان أو معنويماً ، حكمتنا للشمس بهذا المعنى . وبهذه الطريقة يبطل تمحل الذين يحاولون نسبة القصور إلى اللغة العربية ، فتراهم أبدأ حائمين حول لغات الأعاجم ويقولون : إن ألفاظ العرب مأخوذة منها من دون دليل ولا برهان ، وما ذلك لحصول بعض المشابهة بين العربية وغيرها ، كان الأولى لهم أن يقولوا في الأقل ان ذلك وقع على سبيل التوارد ، لا أن يجزموها بكونها معربة .

نعم إني لا أنكر أن يكون قد دخل في لغة العرب بعض ألفاظ من لغة المعجم وهي أسماء لأشياء لم تكن معروفة عند العرب كلفظة الاستبرق، مثلاً، إلا أن ما كان بخلاف ذلك لا ينبغي أن يحمل عليه ، فلا يصح أن يقال أن اللجام معرب ، لأن العرب عرفت الخيل وما يلزم لها قبل جميع الأمم . ومن هذا القبيل الكنز والحوان ونحوهما مما ذكر في شفاء الغليل ، وكليات أبي البقاء . ومما مر من تناسق الألفاظ في العربية تعلم أن هذه المزية مخصوصة بها .

والمزية الثانية اشتقاق عدة ألفاظ من أصل واحد كقولك من كتب : كتاب ومكتب ومكتب (بفتح الميم وكسرهما) وكاتب واستكتب فهذه المزية لا توجد في لغات المعجم مطردة . وقس على ذلك سائر المحاسن الفرزية التي اختصت بها هذه اللغة الأصيلة دون جميع اللغات . ومع هذا فإن الناس هنا يرغبون عنها إلى اللغات المشوهة بالتلفيق والترقيق والتجديع والتقطيع (١) .

إني لأقرّ بعجزني عن مجاراة الشيخ في ميدانه هذا ، فما رأينا قبله لغوياً بحث اللغة فرد ألفاظها إلى أصول قليلة اشتبكت فروعها فصارت أدغالا مخوفة، ولا من كشف عن خصائص الحرف فدلنا على حكمة الواضع فالشدياق عالم قارح، رأسه كمخازن الترانزيت التي تتكدس فيها البضائع أو كاهراء فرعون يوم أقام يوسف يعقوب قهرماناً له ، فهو مستودع الجرايات في هذه المجاعة . أغار على جاسوسه وسر لياليه كثيرون . فقي عدل بنيامين ألف كاس يوسفية ، تخبرنا أن الذين بحثوا اللغة والقواميس بعده عيال عليه كما كانوا على الجاحظ قبله . إنهم ينهبون ولا يستحون ، ويسرقون ثم ينسون أنهم سرقوا الرجل فيدعون معرفة ما سبق إليه ،

(١) منتخبات الجوائب ، جزء ١ ، ص ١٨٧ - ١٨٩ .

غير منوهين بذكر رجل جاهد ثمانين حولاً ، ولم يسام ... فما فهمه
الشدياق من أسرار اللغة لم يخطر ببال أحد . ولهذا اعجب بسر لياليه
أشد الاعجاب حتى أفرط في الثناء عليه وعقد الفصول معلناً فائدته لأولي
الألباب ، فكان كالكريم حين يخشى ان لا تاكل من ألوان مادبته كلها ،
فيتولى بنفسه أمر تشويقك وترغيبك .

أحمد المتمغرب

عجب الناس لهؤلاء المتمشرقين الذين درسوا أدبنا وكتبوا بلغتنا ،
حتى تمنى الأستاذ الجليل ابراهيم المنذر ، في مقال قدم به كتاب
« المستشرقون » للأستاذ العقيقي ، ان يكون عندنا متمغربون .

يا للعجب العجاب ! أما وجد المنذر فينا متمغرباً ؟

ألا يراهم في بيته حوله وحواليه ؟

اننا أحوج إلى التمشرق . فجبران متمغرب ، وغانم وخير الله مثله ،
والريحاني كذلك ، والقرم وفصيلته مثلهم ، والبانى والسمعاني والحاقلاني
ونوفل والتولاوي والفعالي متمغربون . فما أكثر الغربيين فينا وأقل
الشرقيين !

قد تمغربنا يا شيخنا الكريم ، وكتبنا بلغة القوم كما كتب نوابغهم .
أليس أبناؤنا متمغربين ايضاً ؟

اما هؤلاء المتمشرون فأثارهم أمامك ، وان كنت لم ترها فارجع إلى
الفاريق وكشف الخبا ، فعند أحمد الخبر اليقين .

اما إن كنت تبغي متمغرباً بالمعنى الأتم ، فهذا هو أمامك . هو هذا
الجهيد . لم أجد لفظه أصلح منها لأنعته بها ، فكانها وضعت لتقال فيه .
هو النائم في الحازمية نومة الأبد بعد ما ملا الدنيا نصف قرن . هذا الذي
تمغرب وثار للشرق من كتاب الغرب ، واكتشف من عيوب المغرب
أكثر مما اكتشفوا عندنا . ولكنه كان أعدل منهم فذكر ما لهم وما عليهم ،
بيناهم لا يرون عندنا إلا المخازي والمعائب . قد زيف بضاعة المتمشقين
المرجاة ، فاقراً تعلم أي مقدار من العلم بلغتنا عند هؤلاء الذين نمشي خلفهم
ثم لا نسأل إلى أين ...

ما رأي شيخنا الإبراهيم بتمشرق قرأ « حيلَ بينها » ، « جَبَلُ
« بينها » وذلك في قول الشاعر الأندلسي :

يارب أمّ وطفل حيلَ بينها كما تفرّق أرواح وأبدان

ثم شرحه شرحاً وافياً ، فصرف ساعات تامة في شرح جملة غير تامة ،
كما قال الشدياق .

اقرأ في الفاريق تلك الوعظة الشهيرة التي ألقاها أحد هؤلاء
المتمشقين في كنائسنا ، ولا ترم شيخنا بالغلو . فوالله وبالله وتالله ، قد
سمعت بأذني الثنتين أفطع منها^(١) . فهذا هو المتمغرب الكامل الثقافة .

(١) اقرأ الوعظة المذكورة في الفاريق ، جزء ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

عرف زهيراً كما عرف شكسبير وملتون ولامارتين وفرجيل، فحدثنا عن أدب الغرب وخصّ بالذكر منه الشعر ناعياً عليه رموزه وعموضه . انه لم يترك شاردة ولا واردة . وأذاع بالطبع كتباً عربية نفيسة كما أذاع المتمشرون . وحسبه انه نشرها سالمة من فاحش الخطأ الذي لا يدركه اولئك .

واني لأعجب من المتمشرون كراتشكوفسكي الروسي الذي عدّ شدياقنا من غير البلاد العربية . فلو قرأ الشدياق كلمته تلك لنهض من قبره ومشى اليه حاملاً إحدى الاسطواناتين يعاتبه بها عتاباً بشّارياً ، وأسمعه ما أسمعه سواه من أهل زمانه ... فالرجل يابى أن ينسب لغير بلاده ولو أعطيته ملء الأرض ذهباً . وحسبنا دليلاً على تعصّبه لجيله انه طاف أوروبا بزيته الشرقي ، وكم استغربوه ولم يبال . وكم هرب من غوغائهم في شوارع عواصمهم .

فيا أخي الشيخ ابراهيم ، ان شئت عملاً يذكر فخذ في عباب « سر لياليه » ، وهات حدث الناس ، ولا بأس عليك ان قلت : فيا لك من ليل تمطى بصلبه ...

أما الآن فالكلام للشدياق في كشف الحبا يصف لنا المتمشرون ، قال قدّس الله سره :

ان من يعرف منهم ، مثلاً ، بعض كلمات من اللغة العربية ، ومثلها من الفارسية او التركية ، فاذا ألف كتاباً بلغته أدرج فيه كل شيء يعرفه من غيرها ، ليوم الناس أنه لغوي . وما عليه أن يكتب تلك الألفاظ على حقها أو يخطئ.

فيها . وفي عنوان كتابه تعلق عليه جلاجل من الألقاب الطنانة فيكتب له أنه من أعضاء جمعية كذا ، وملخص كتاب كذا ، ومحرر نبذة كذا ، وخطيب مثابة كذا وهلم جرا . ولو عصرت كتابه كله لما بللت منه صدى مسألة ، وذلك لأنهم لا يأخذون اللغات عن أهلها . فمهما يخطر ببالهم في تأويلها يقذفوا به جزافاً من دون تخرج وينسبوا اليها ما ليس منها . انظر الى ريشردصون الذي ألف كتاب لغة يشتمل على لغته ، وعلى لغتي العرب والفرس ، فأقسم بالله أنه لم يكن يدري من لغتنا نصف ما أدريه أنا من لغته ، لا بل سؤلت له نفسه أيضاً أن يترجم العربي فخلط فيه ولفق ما شاء . فمثل الاضافة بقوله : نصرأ عقبه . وفسرها بأنها مشى مضاف الى العقبة .

وأورد حكاية من كتاب ألف ليلة وليلة عن ذلك الأحمق الذي قدر في باله أن يتزوج بنت الوزير ، فلما بلغ الى قوله : ولا اخلي روعي إلا في موضعها ، ترجمها بقوله : لا أعطي الحرية لنفسى ، أي لزوجتي ، إلا في حجرتها . وقوله أيضاً : ولا أزال كذلك حتى تم جلوتها . صحف جلوتها يجلدتها فقال : ولا أكف حتى يتم ذلها . وعند قوله : حتى يقول جميع من حضر ، كتب في الحاشية : حضر وحضرة بمنزلة السمو في الانكليزية ، وقس على ذلك .

وإذا ترجم أحدهم كتاباً رقعته بما عن له وسبكه في قالب لغته . فقد قرأت كثيراً مما ترجم من كلامنا الى كلامهم ، فاذا هو مسبوك في قوالب أفكارهم مما لم يخطر ببال المؤلف قط . وقرأت ترجمة منشور صدر من الملك في الحض على الجهاد ، من جملته : ليس لعباد النبي من خلاص في هذه الدنيا ولا في الآخرة إلا يجاهد الكفار . فانظر ان كان المسلمون يقولون ان النبي معبود .

وما رأيت أحداً تخرج من هذا التلفيق والافتراء والترقيع غير مستر «صال» الذي ترجم القرآن ، ومستر «لان» الذي ترجم حكايات ألف ليلة وليلة ، ومستر برسطون الذي ترجم خمساً وعشرين مقامة من مقامات الحريري . أما الأول فقد ذكر فلتير أنه مكث بين العرب سنين عديدة وأخذ عنهم علم

العربية حتى تهباً له ترجمة القرآن. ولست من ذلك على ثقة إذ الظاهر من مقدمته للترجمة انه لم يخالط العرب ، و كيفما كان فهو من المحققين . وأما الثاني فانه لبث في مصر وعاشر علماءها وأدباءها . وأما الثالث فانه كان قد سار الى الديار الشامية واستصحب بعض أهاليها . وما عدا هؤلاء الثلاثة فكما قال عقيل بن علقمة لعمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه :

خذا بطن هرشى ، أوقفها ، فانه كلا جانبي هرشى لمن طريق
فان أحدهم لا يبالي أن يؤدي معنى الترجمة بأي أسلوب خطر له . فلو قرأ
سبأ في كلامنا ، مثلاً ، بأن قال بعض السبابين لآخر : يحرق دينه ، ترجمه بأن
دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة والغيرة ، بحيث أنه يحرق جميع ما عداه
من الأديان ، أي يغلب عليها ، فهو الدين الحقيقي القاهر كما ورد : ان الله نار
آكلة (١) ...

الشدياق والحرية

الشدياق وإن كان اقطاعي الأب والجد ، فهو أول تآثر على الاقطاعية التي أذاقته وأذاقت بيته الأمرين .

فر من لبنان خوفاً على حرّيته ، وقد قال لجلسائه حين عاد إلى لبنان
خلسة عام ١٨٧٣ :

« ان رأس الفقير ليس بأضيق ولا أصغر من رأس الأمير ، وإن يكن هذا
أكبر عمامة منه وأغلظ قذالاً ... ارفعوا فرق المذاهب من بينكم ، فذلك أدعى
لكم إلى الحظ والسرور . اعلّموا ، هداكم الله ، ان فرق الآراء في الأديان لا يمنع
من الالفة والمخالّة (٢) . »

(١) كشف الخبايا ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) الفارياتي ، طبع باريس ، ص ٤٦٣ .

وإذا انتقلنا إلى ساحات الحرية الأخرى رأينا الشدياق جواراً سباقاً
في جميع ميادينها ، فهو ينتصر حتى للعبيد ، ويحمل على الاتجار بالرقيق
حملات شعواء . ولهذا نرى هذا الشدياق سابقاً معاصريه مراحل .

أما المرأة التي نبتهر اليوم بأننا من أنصارها وندعو لانصافها ، فقد
أنصفها الشدياق منذ قرن . وإذا قلنا ان الشدياق كان نصير المرأة فكأننا
لم نقل شيئاً ، لأن الشدياق أحب المرأة حباً جماً ، وهو يصرح انه بنى
كتابه الفارياق على اثنتين : اللغة والمرأة . فلا عجب ، اذن ، ان هب
لنصرتها ، محاولاً اتقاذها من غطسة الرجل الذي استبد بها مرة واحدة .

وجاهة الشدياق ونفوذه

كان الشدياق كما قال عمر عن نفسه: أخصر ، جواب أرض، ولكننا لم نشعر قط بحنينه إلى وطنه في كل ما كتب ونظم ، فكأنه قطع السرة بينه وبين بلاده... اما إذا عدنا إلى رسائله الخاصة التي نشرناها في عدد « المكشوف » الخاص ، فترى حينئذٍ إلى دار المنشأ والمربي في رسالته الأولى التي بعث بها من مالطة ، عام ١٨٤٠ ، جواباً إلى أخيه طنوس . فهو يقول فيها :

وحصل لي بورودها من السرور ما لا يكاد يتحمله متعمل ، وأكد لي صفو العيش في المستأنف أيضاً . غير اني كنت أرجو عند فض ختامها كثيراً من التعاريف لما انه قد مضت علينا سنون دون مراسلة ما ، وإذا بها قد أتحتني بسطرين فقط ، غير انه عم الصيد جوف الفرا ، وذلك لأنني أحرزت منها ما كنت أبغي خاصة وهو وجودكم سالمين . فأما اجمالكم في الأخبار عن صحة جميع الأهل فإنه وإن سر فلا يقوم مقام التفصيل ولا سيما مع أهمية المقام ، فقد والله أبديت الليل قلقاً للاطلاع على سلامة والدتنا العزيزة ، وقد استخبرت عن سلامتها من أخي غالب غير مرة فخبرتني عنها إخباراً مجملاً . فكيف بالافتناع والقلب

في التبايع ، والدمع في تهماع ، ومن أين السلو ، والبين في غلو ، والوجد في غو ،
فيا لله :

أما تغلط الأيام في بأن أرى حبيباً بداني أو عدواً مباعدا
هذا وقد حدث بعدنا وقائع شتى ، وهرمت فتيان وخلقت اخلاق ، وربما
استنسرت البغشان وتصقرت الغربان ، والعين غير شاهدة ، والخواطر غير
جاحدة .

وبعد عدة أسئلة يخبره انه أرسل شيئاً من الدراهم تحت يد الخواجه
طمسون الانكليزي المقيم في بيروت ، خدمة لوالدته العزيزة . والمبلغ
المذكور عشرون ريالاً فرنسائياً . ثم يخبره عن أحواله بالتفصيل ،
ثم يسأل :

وهل الأمراء الشهابيون في حالهم القديم ، وهل الحدث والحارة لم تزالا
كفيراً صغيراً ، وهل صارتا أمصاراً ؟ وهل الخواجا يوسف مخايل غب رجوعه
من مصر صار قاضياً أو مفتياً ؟ وهل انكسار ابرهيم ياغي لما يجبر ؟ وهل بينكم
وبين المعلم ناصيف اليازجي اتصال في شيء ، فإن كان فأبلغوه منا السلام .

والذي ينبغي أن نعلم من أحوال البلاد أحوال أولاد عمومنا جميعاً كل على
حدثه . وقد كنا سمعنا ان ابن عمنا انطون وجيه في الدولة البشيرية ، وان جفالا
مستخدم عند الأمير بمقام كريم ... وهل بينكم وبين عيلة بحري بك معرفة ،
وهل المعلم بطرس كرامه في وجاهة الموما اليه . أما من حادث يقتضي التعريف ؟

ثم يخبره أشياء عن مالطة وأحوالها ، الى أن يسأل :

وهل أخوالنا في كسروان سالمون ، وهل ابن خالنا بولس (البطرك بولس
مسعد) رجع من رومية وصار اكليروسياً ؟ وهل أهل بعبداء لم يزالوا أهل

جدال ومسارة ، وأهل الحدث أهل هلع ومداراة ؟ وهل من خبر عن عيشو
وبيفزلي ؟

وكل هذا التعريف عنه ينفي من وحشتنا في هذه الغربية ، وينقص من كيد
الدهر لنا ، فأما لو كنا في أطرافكم لما كان فيه كبير مزية .

إلى أن يقول أخيراً :

وأرجو أن تطالعوا رسالتي هذه قبل رد جوابها ، ولا تؤاخذوني بإطالة
المقال فإن الوجد يوجبه الخ^(١) ...

ثم كان الانتقال إلى لندرة وباريس فتونس فالآستانة .

وألقت حرب الأيام أوزارها فحسم الصلح ما اشتتهه الأعادي ، فصار أحمد
فارس أفندي ذلك الرجل الذي يُسار إليه بالبنان . وعلى عزه وجاهه ومجده
لم يتنكر لقومه ، فكان قصره في الآستانة العلية بيت العرب أجمعين يهرعون
إليه مستجيرين ، فيجبر على الصدور العظام ، وحيناً على جلاله مولانا السلطان
عبد الحميد ، ويكون له ما يريد .

فعندما ثار يوسف بك كرم في لبنان انتصرت له جوائب الشدياق فكسرت
شوكة خصومه عند الخاقان ، فعدّ ثائراً على داود باشا الأرمني لا على الدولة
العلية^(٢) .

حدثني صديقي الأديب الاستاذ واصف البارودي مفتش التربية الوطنية ،
قال : حدثني عمي الشيخ محمد ابراهيم الحسيني قال : كنا عند أحمد فارس فإذا

(١) تجد هذه الرسالة كاملة ، خطأ وطبعاً ، في المكشوف ، السنة الرابعة ،

العدد ١٧٠ ، ص ١٠ ، بتاريخ ١٧ تشرين الأول ١٩٣٨ .

(٢) تاريخ الدبس ، الجامع المفصل ، ص ٥٣١ .

بولده سليم يدخل علينا حاملاً ظرفاً مذهباً ويقول لأبيه : هذا الوسام المجيدي المرصع قد أنعم به عليك جلالة مولانا السلطان .

فهزّ أحمد رأسه وقال : مولانا السلطان ، أيّده الله ، يحسبنا تلاميذ مدارس فيشجعنا بالنياشين . ضعه هناك .

وبقيت أتردد على قصره الذي كان قبلة العرب الطارئين على عاصمة السلطان ، وكانت جميع حاجاتهم مقضية . وقد قلت في ذلك هذين البيتين :

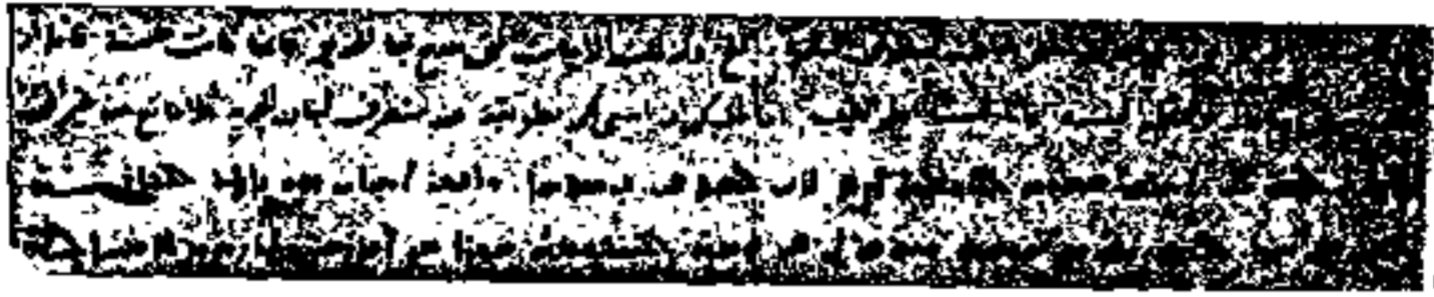
قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زارني فبفضله ، أو زرته فلفضله ، والفضل في الحالين له

ناهيك بأني مدين له بحياتي ، فلولا أحمد فارس كنت في الأبدية منذ زمان .
دفعني طيش الشباب ونخوته ، فرددت على فتوى صدرت عن مشيخة الإسلام ،
فدرى أحمد فارس بما بيّتوه لي ، فسفرني من اسطنبول قبل أن يقبضوا عليّ .
ثم تدارك أمري .

لقد انقطع عهد الحنين كما رأيت ، ولماذا يحنّ أحمد فارس بعد ، ما
دامت دنيا العرب في داره ، والسلطان يريد ويخشاه في وقت معاً ؟ كانت
يده لا تطاله ، لأنه حاصل على الرعوية الانكليزية ، كما مر في سيرة حياته .
يعلم السلطان ان أحمد فارس يؤيده ، ولكن هواه مع خديو مصر . وهذا
يتضح من صدور الارادة السنية بإرجاع أحمد فارس من مصر إلى الآستانة
ولم يسمح له بالذهاب إلى لبنان .

أما ميل أحمد إلى الخديو فيظهر جلياً من جوابه إلى ضاهر الشدياق .
كتب ضاهر هذا إلى عمه أحمد يسأله ان يوصي المتصرف الجديد به
(رستم باشا) فاجابه برسالة يعيننا منها هنا هذه الأسطر :

« أما طلبكم أن أسعى لكم بطريقة عند متصرف لبنان الجديد فلا مانع منه
غير اني ، يا ولدنا ، ليس لي تعلق بهذه الدولة أصلاً لأنني لست في خدمتها ،
وأكبر أعدائي هو ناظر الخارجية . فإذا كان هذا المتصرف من حزبه وعرف ان
في خدمة الحكومة بعضاً من أقاربي طردهم لا محالة . »



هذا ما كتبه بالقلمين العربي والكرشوتي كما نرى في هذا الرسم .
وفي ذيل هذه الرسالة عبارة اخرى كتبت بالقلم الكرشوتي ايضاً ،
هذا نصها :

سبب كون ناظر الخارجية عدواً لي كونه عدو أفندينا الحديو ، (١) .

ثم انقضى عهد متصرفية رستم باشا وجاء بعده واصا باشا . وكان
عهده عهد رشوة وبرطيل ، فضج لبنان من تصرف صهره كوبليان الذي
لم يكن يقضي أمراً ولو طفيفاً ، إلا بشمن غال . فنهض حزب لمقاومته ،
فاتصلوا بقصر الشدياق في الآستانة . وكان أحد رجال هذه الحملة علي واصا
باشا أحد أفراد بيت الشدياق ، وهو يوسف بك الشدياق . فاخذت حكومة
واصا باشا تترصده حتى وقع في الفخ ، وأوقف في طريقه إلى مركز عمله

(١) تقرأ الرسالة كاملة في العدد السابق ذكره من « المكشوف » ، ص ١١ .

بيروت ، في محل رعد وهاني التجاري . فعثروا معه على أوراق نأخذ وصفها وتفاصيل ما حدث عن مذكرات المرحوم جرجس بك صفا الخطية ، الموجودة نسخة عنها في حوزة الشيخ فؤاد حبش . واليك ما جاء فيها حرفياً :

وكانت هذه الأوراق حاوية كما يأتي ملخصها :

جرائد مصرية حاوية نشر فضائح واصه باشا وصهره قوبليان الأرمني و ... وحاشيتهم وأتباعهم ، وإشاعة معايبهم ، وتحارير من سليم أفندي الشدياق ابن عمه كتبها وأرسلها إلى يوسف بيك جواباً على تحارير كان أرسلها يوسف بيك إلى ابن عمه سليم . يقول في التحرير : إني رأيت انه يهكم أمر لبنان وشكل إدارته ، وقد تداولت مع سيدي الوالد . والذي يجب أن تعرفوه انه ليس لكم مساعد أو وسيلة إلا الجرائد وتحريك الصحافة ، وأن تكتبوا فيها كل ما تطلبونه من الإصلاح أو غيره . ويلزم أن تعرفوا ان الذي رفع شأن الشعوب وقلب التيجان وأسقط الحكومات إنما هو أهل السياسة ، وهم الذين هذبوا وأصلحوا وغيروا أحوال الأمم ، ولم تبق طريقة السيف والرمح في هذه الأيام ذات تأثير ، فإن استقلال الصرب واليونان والجبل الأسود والبانيا إنما فعلته السياسة . فإذا شتم أن يكون لكم صوت ولبلاكم نصيب فعليكم أن تلتجئوا للجرائد السياسية وهي عليها في هذه الأيام المدار النخ ...

وهكذا كان يوسف بيك كالأرض العطشانة أثارها وابل المطر ...

ومما وجد من الأوراق مع يوسف بيك مكتوب من سليم فارس الشدياق يقول له فيه كيف يجب أن يكون انتخاب مجلس الإدارة في لبنان ... وأن يعطى لمجلس الإدارة صلاحية أوسع مما هي في الحالة الحاضرة ، وأن يكون له حق المداخلة بأمور الإدارة ومراقبة سيرها وغير ذلك ، مما أثار غضب المتصرف ورجاله ، فأمر باعتقال يوسف بيك في أعماق السجن المعبد للقتلة ، ووضع في

غرفة معدودة النوافذ ، وكان يضيق عليه ويراد إهلاكه لأنه في نظرهم خيانتته هي بحق مولانا السلطان ، وبقي كذلك .

وحبس بالمعاملة ذاتها الشيخ فيليب الخازن لأنه تعرض لمثل هذه الامور ، وكتب في الجرائد يندد بالحكومة اللبنانية ، وانها ترتشي . ولم يحسر أحد أن يتكلم كلمة رجاء في تخفيف عقوبة يوسف بيك ، حتى ان الحاجات رعد وهاني لم يحسر واحد منهم أن يزوره في سجنه ويتداخل بشأنه . والرجل الوحيد الذي سعى يجيد ونشاط هو المرحوم نجا الشدياق ابن عمه ، فإنه مع انه كان على عداوة مع يوسف بيك ، ما فتىء يكتب سليم فارس ابن عمه حتى استصدر إرادة سنية تلفزيونية بإطلاقه ، فوصل التلفزيون من الأستانة إلى المتصرف نحو الساعة ١١ ليلا ، وفي الدقيقة نفسها أمر الباشا بإخلاء سبيل يوسف بيك ، وبأن يؤخذ منه ورقة مضاة منه عن دقيقة إخلاء سبيله . وقد اغتاض واصه باشا جداً من كبحه ، وإخراج يوسف بيك من السجن بإرادة سنية رغم أنف الباشا وأتباعه (١) .

هذا هو الشدياق ناسخ أوراق بعير بيعر ، ثم العطار صاحب ذلك الحمار ، ثم صاحب الخان ، ثم الذي كان ينجسي من القضاء المبرم والموت المحتم . ومع هذا الجاه العريض ما انفق عن مسامرة الكتاب الذي كان يرى فيه الحليف الأوفى والمجد الخالد .

(١) مذكرات جرجس بك صفنا من ص ٢٨٨ و ٢٨٩ و ٢٩٠ و ٢٩١ (والأصل محفوظ عند أحد أنجاله المحامي الاستاذ فيليب) .

نقد ذلك الزمان

هذا فصل كان يستحق كتاباً ليبدل على ما أفادت النهضة من تناطح اولئك الفحول (الأحذب والشدياق والأسير واليازجي والبستاني) عند حوض اللغة، فما الحيلة ونحن لا نستطيع ان نكبر هذا الكتاب «ليملاً العين»، كما تمنى الشدياق على حليفه الشيخ يوسف الأسير في رسالة كتبها إلى ابن عمه ضاهر الشدياق حول موضوعنا هذا.

ولست أتجرأ على الوعد بكتاب ثانٍ لئلا يظل نائماً إلى ان يُبعث الشدياق ويُنفخ في البوق... فالكتاب في لبنان مقطوع الظهر لا نصير له ولا ظهير، ولا سيما إذا كتب عن رجل كالشدياق وكان كاتبه مارون عبود. فلو كان الكتاب يضرب في السياسة بسهم لفاق سهمه سهمي فاطمة امرئ القيس... ولكن الكتاب لا يواجه السياسة الرخيصة لا من قريب ولا من بعيد. وأنكى ما يكون من أحوال «الكتاب» اننا نراه سلاح رجال الدولة في معرض الفخار باشعاع الفكر اللبناني، ثم لا يعطف عليه أحد منهم.

كلنا نعلم ان الأدب لا يطعم خبزاً ، ومع ذلك لا ننثني عنه ، فكأننا نحاول ملكاً او نموت فنعدنا ...

وإذا قلت لي : كيف طبع « شدياقك » كتبه الضخمة ؟ أجبتك :
كان وراءه سلاطين وملوك ووزراء وأمرء وتجار . وليس هذا بزعم
مقدمات كتبه الجليلة تنطق بحمد اولئك الذين شدوا إزره . ثم لا تنس
انه كان الصحافي العربي الأول في زمانه ... فقد أكل من جريدته ،
وأخلده تاريخ الأدب بكتبه .

وبعد ، فما لنا ولهذا الحديث . لنعد إلى موضوعنا .

حدثناك فيما مضى عن « ثلاث جبهات » في الأدب ، والآن نقول لك
ان الجبهات الثلاث أصبحت اثنتين . فكما في الحرب كذلك في الأدب .
اتحد اليازجي والبستاني فصارا جبهة واحدة تناضل ضد الشدياق ،
فانضم إلى جبهة الشدياق عالمان كبيران هما الشيخان ابراهيم الأحمد
ويوسف الأسير . فشمرت الحرب الأدبية عن ساقها فكانت عواناً ، ولكنها
عادت على النهضة الحديثة بالخير والبركة .

هذا ابراهيم اليازجي ينتقد كتب الشدياق أخذاً بشار أبيه ، وهذا
الشدياق يرد عليه في كتاب عنوانه « سلوان الشجي في الرد على ابراهيم
اليازجي » .

الكتاب منسوب إلى كاتب اسمه مخائيل عبد السيد . وليس مخائيل
هذا بطلاً وهياً كالحارث ابن همام او هي ابن بي ، بل هو شخص كان

حياً يرزق ، وقد أنشأ جريدة في مصر . بيد ان هذا الكتاب لا يصح ان ينسب اليه لأن ريح الشدياق فيه كما سترى .

أريناك ، فيما مضى ، شيئاً من تقدم لكتب النحو . وكان الشدياق رأى جفاف هذا النقد فلم يعجبه ذلك ، كما تلمح من رسالته إلى ضاهر ابن عمه ، لحناً او كلاله لست أدري . وقد نشرنا روم هذه الرسالة في عدد « المكشوف » الخاص بالشدياق ، ودللناك عليه . فهذه الرسالة تفضح سراً من أسرار هذه الحرب الأدبية .

قال الشدياق بعد المقدمة : « حظيت بكتوبكم المؤرخ في ٢٣ شباط ، وفهمت ما تضمنته . أما قولكم اني أشرت إلى جناب الشيخ يوسف الأسير بتوك انتقاد « جوف الفرا » الخ ... فلا يخطر ببالي اني فعلت ذلك . وإنما فهمت من فحوى كلامه ان الكتاب أشرف على التمام ، وانه بعد ذلك يبتدىء بالبيان وهو من قبيل التوكيد لما قرره في « إرشاد الوري » . قرأيت ان كلامه الأول حجة لا يحتاج إلى التوكيد ، فكنت اليه : ان الذين يدركون دقائق النحو قليلون بالنسبة إلى الذين يرتاحون للغة والأدب ، ولا سيما ان أغلاط ناصيف في ديوانه ومقاماته أكثر وأشهر ، فإذا شاء هذا فإني أراه الأولى .

« هذا ما خطر ببالي اني كتبتة ، وما كان لي أن أتطاول عليه وأقول له : افعل هذا ، ولا تفعل ذلك . ويا حبذا لو استمر في « إرشاد الوري » حتى يأتي كتاباً يعلأ العين حجمه ، فإني أظن ان كل ما أرسله منه لا يبلغ أكثر من ستين صفحة مطبوعة ، مع ان « سلوان الشجي » يزيد على المئة . وحاصل الكلام انه ما على المحسن من سبيل ، وان المراد إظهار الحق لا غير . فليختر ما يراه صواباً . وإن شاء الله بظاهر نفسه وخلوص نيته نكبح المعاندين ونهدي الضالين . »

ويظهر من هذه الرسالة ان ضاهر الشدياق قد شارك في هذه المعركة لأن أحمد يقول له فيما بعد :

« وقد شكرتك على ابطال « فصل الخطاب » (كتاب نحو لليازجي) وعلى كل ما أبديت من الغيرة في إظهار الحق إذ ليس لي أرب سواه . وما كان لي أن أنسى أنكم كنتم الوسيلة في إعادة المودة بيني وبين الشيخ يوسف ، فأنا لا أنسى المعروف ، وإنما الذي يؤخرني عن المكافأة انحراف الحال الخ ... »

فهذه الرسالة تدلنا على ان الشدياق يؤثر النقد في « اللغة والأدب » . وهذا ما قام به ابراهيم اليازجي ، وأذاعته « مجلة الجنان » للبيستاني . فرد الشدياق عليها معاً في كتابه « سلوان الشجي » ، فابتدأ ، بعد المقدمة ، بقوله :

« كيف لا والحسد أكبر العيوب ودعامة الذنوب ... وهو لعمرى صفة صاحب الجنان وحبيبه وخليه ابراهيم اليازجي الميآن ، هما اللذان حسدا صاحب الجوائب على ما ناله من شهرة الفضل والبراعة في هذا الزمان ، فتناديا عليه ونشرا ذمه في الجنان ، وتماديا في تخطئه بالزور والبهتان .

« أما ترجمة صاحب الجنان فهو أبو الحسد الذي قاده الغرور بجبل من مسد ، وتناهى به الافتراء إلى أبعد أمد :

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالفاً وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع

« ولقد عرف كل واحد أن صاحب الجنان هو من فاسدي الذهن والتصورات وقلبي المعلومات ، تدل عليه أقواله وكتابه وعبارته ، فإنك تجدها في غاية الركافة والتعقيد الذي ينفر منه كل ذي ذوق سليم ، وطبع مستقيم ... فحينما وجدت عبارة غير مسبوكة في قالب العربية ، قيل انها عبارة جنانية وركافة بستانية . ولذا قال بعض الأدباء : إذا لم تبطل هذه الألفاظ الجنانية الانثوية تفسد اللغة العربية . »

ثم يحمل على « محيط المحيط » فيندد به ما شاء ، ثم يعود إلى ابراهيم اليازجي ، فيقول :

« أما ترجمة ابراهيم اليازجي فهو صاحب السفاهة الكبرى والقذف والافتراء ، لم تكد عبارة له تخلو من التعقيد ، والتناول والتنديد . وقد بلغني ممن يوثق بكلامه انه أراد أن يحصل على شهرة بتخطئة صاحب الجوائب ، فحصل ما أراد ، وإن كان على طريق الفساد ، لأننا قبل وقاحته هذه لم يكن لنا علم بوجوده بين الأحياء ... »

إلى أن يقول : « واعتراضاته كلها مبنية على السفسة البستانية ... وأغرب ما في الأمر انه خطأه (أي خطأ الشدياق) في أشياء كثيرة استعملها أبوه الذي ادعى له العصمة ... فكان عليه أولاً أن يصلح عبارة أبيه ، ثم يتخطى لتخطئة من سواه .

« أما قوله (أي قول اليازجي) : ولقد كنت أحسب ان تمادي الأيام قد حان له أن يهذب من أخلاقه (أي أخلاق الشدياق) ويمكن عنده أسباب العلم والدمائة والصبر على المكروه ، فأكثر مما أرى من نفسه هذه المرة . فإذا دمه لم يزل على حرارته المعهودة ، أيام كانت تلك النار تقرى بفحم الشباب .

« أقول : هذه سفاهة بستانية سوقية ومهاترة جنانية زقاقية ... وجوابها الأخير :

يا ليت لي من جلد وجهك رقعةً فأقصد منها حافراً للشهب

« وصاحب الجوائب هو الغشمشم الذي يحطم جماعات المتأثرين ...

« أما قوله : انه ألم بابي المرحوم وخطأه عبثاً ، فأقول أولاً ان الإمام هنا ليس له معنى ، فإن الناس يلمون بالأحياء لا الأموات . »

وبعد أن ينتقد أخطاء عديدة في مجمع البحرين ، ينتقل إلى الرد على كلمة

المطل وغيرها فيطوف الشدياق على جميع علماء اللغة وعلى كل من كتب حرفاً في
الصرف . ويقع خلاف بينهم على صحة السجع ، والفاصلة فيه ، حتى اهتموا
للسناد ، ثم للسافة بين الجمل ، فيعيب الشدياق بذلك ناصيف فيقول بعد سرد
فقر كثيرة : وبين هذه الفقر فسحة تشبه شدى ابن اليازجي . إذا تشدى وتلظ
وتتطق ، وتقر وتلهوق ، وتنطق وتعمق ، وتمدح وتفيق ، وبالباطل تعلق ،
وإلى الأراذل تعلق (١) .

أرأيت ان ربح الشدياق فيه كما قلت لك ؟ فهذه المترادفات من بضاعته التي
تلا كتابه « الفاريق » .

ثم ينتقل إلى عبارات اخرى يسردها ليقول في نعتها : « وبين هذه الفقر
فسحة تكاد تكون وساداً لقفا ابن اليازجي . » ثم يمضي في عيب عبارات اخرى
ليقول : « وهنا أيضاً فسحة بين الفقر أوسع من عين ابن اليازجي ، حين يفتحها
للنظر في عيوب الناس . وقس على ذلك سائر التقليد مع كونه مبنياً على السجع . »

ثم يأتي على ذكر قول ناصيف اليازجي في مدح الشدياق :

أنا الوادي إذا ناديت لبي صداه فكان منك لك النداء
خلعت عليّ فضلاً أدعيه وحسي ان مثلك لي جلاء

فيجيب بقوله : وكيف لا يفعل ذلك صاحب الجوائب وهو بارع في اللغات
الافرنجية (٢) ؟

وينتقل إلى البستاني ليقول : لفتق قاموساً سماه « محيط المحيط » ، مع انه
« أنان من بحيرة لوط . »

(١) سلوان الشجي ، ص ٢١ .

(٢) سلوان الشجي ، ص ٣٠ .

فيرد اليازجي ويقول في سر الليال :

« ولقد خطر لي ما لو خطر له لما باشر تأليف هذا الكتاب ولا تجشم لأجله
عناء السهر ، وكدة القريحة في غير شيء » (١) .

ثم يقول اليازجي في مكان آخر : إن صاحبنا أصبح شديد النسيان ، وقاتل
الله الكبير (٢) .

وتنتقل جبهة الحرب إلى جريدة الجوائب فيرد صاحب سلوان الشجي :
« أما اعتراضه على قول محرر الجوائب ، « لا بد وأن يكون » فإن كان ذلك
عن جهل ، زاده الله جهلاً ، وإن كان مكابرة سلب الله عليه من يكابره ويكاريه ،
وإن كان لعدم وجود الكتب العربية عنده أتخفناه ببعضها ليرى منها طغيانه
وعجرفته .

« قال أبو البقاء في الكلبيات ، وقال ابن السيرافي : الواو تجيء بمعنى من ،
ومنه قولهم : ولا بد وأن يكون . وعلى ذلك جرت عبارة العلماء قديماً وحديثاً .
قال صاحب المثل السائر في ص ٢٩٥ : وإن كل ما يعدم به لا بد وأن يصيبهم .
وقال في ص ٣٠٠ : لا بد وأن يقع في زمن من الأزمان .

« فما تقول يا ابراهام في هذا ؟ وما اعتذارك عن التشنق به ؟ »

ويعضي الشدياق في الاحتجاج على كل جواز أخذه عليه اليازجي فإذا به كثير
الأدلة ... ثم ينتقل إلى الرد على عبارة أخرى فيقول :

« أما اعتراضه (أي اليازجي) على قوله : وإنيهم وإن يكونوا سيئي الأدب
على الطعام فهم متأدون » ، إذ يجب هنا إسقاط الفاء . وقوله : « وهما وإن

(١) سلوان الشجي ، ص ٤٤ .

(٢) سلوان الشجي ، ص ٧٧ .

أظهر له الخضوع ، ففي قلوبها منه حزازات ، ، وقوله : « فإني وإن كنت
بشراً مثلك لكنني وكيل . »

« فالجواب عليه : قال أبو البقاء ... قال الزمخشري ... وظل يقول وقال
قلان ، وقال فلان حتى انتهى الى قول الإمام علي :

« وإني وإن أصبحت بالموت موقناً

فلي أمل دون اليقين طويل . »

« ثم قال اليازجي : ومن زياداته المخلتة (أي زيادة مؤلف كتاب الساق
على الساق) قوله : « تنبه الغافلين ان وراءها لقولاً شديداً . »

« فكان الجواب : ان هذه العبارة صحيحة بدليل ما جاء في المغني ، وهو
قوله : اللام الزائدة وهي الداخلة في خبر المبتدأ في نحو قوله :

أمّ الحليس لعجوزٍ شهريه ترضى من اللحم بعظم الرقبه

« واعترض اليازجي على ورود الفاء مع لم في جواب إذا ، في قول مؤلف
كتاب الساق على الساق :

« فإذا رضيت فكل سخط هين وإذا وصلت فلم أبال بهاجر

« فكان الرد : إذا كان الفعل ماضياً لفظاً ومعنى وجب اقترانه بالفاء نحو :
إن كان قبصه قد من دبر فكذبت . »

وبعد احتدام الخلاف حول الفاء قامت القيامة حول الواو ، فقال صاحب
سلوان الشجعي : ومن أفضح ما هذي به وتشدق إنكاره الواو في قول صاحب
الجوائب : « ما من شاعر قال شعراً إلا وأخذ عليه . »

ثم انبرى يبرر وجود هذه الواو فقال : قال أبو البقاء في الكليات : وقد
تراد الواو بعد إلا لتأكيد الحكم المطلوب إثباته ، إذا كان في محل الرد والإنكار
كما في قوله : ما من أحد إلا وله طمع أو حسد .

وظل يستشهد ويستشهد بأقوال المتقدمين والمتأخرين حتى بلغ زهيراً
الذي قال :

نعم امرأ هرم لم تعر ثأبته إلا وكان لمراع يها وزرا
فالحديث الشريف :

ما بعث الله نبياً إلا وأمه بعض قومه . ما في الجنة من شجرة إلا وساقها
من ذهب .

هذا هو النقد اللغوي الذي تمناه الشدياق على الشيخ الأسير ، فكان هو له
في « سلوان الشجي » .

أما النقد الأدبي الذي دعا إليه الشدياق في رسالته الآتفة الذكر فقد قام به
الشيخ يوسف ، ونقد قصيدة الشيخ ناصيف اليازجي المشهورة :

لموت يولد منا كل مولود يا أيها الأم ربي الطفل للود

تذكر جيداً أننا قلنا لك ، فيما سبق ، ان الشيخ الأسير سماها « الدودية »
ووعدناك بنموذج من هذا النقد ، فاقراً قبل الابتداء بذلك كيف قدم لها
الشدياق ، بعد أن بين فضل الأسير في نقد ارجوزة الشيخ ناصيف :

« حسن ان نورد بعده ما يدل على فضله وسبقه في الفنون الأدبية ، وأن
يكون ما تقدم من أبياته في الأرجوزة شاهداً بذلك ، ومنحماً للماحك ، فدونك
نبذة من نقده للقصيدة التي سماها « الدودية » وهي من نظم مؤلف جوف
الفرأ^(١) . »

(١) إرشاد الوري ، ص ٨١ ، طبع الاستانة ، سنة ١٢٩٠ هـ .

الدودية

قال الشيخ الأسير بعد مقدمة قصيرة :

ولقد حاجني لذلك التأليف ، ما سمعته أمس من شعر ناصيف ، وهو المرثية التي مطلعها المصرع ، أشنع ما قيل وأبشع ما يسمع ، وهو قوله :

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود فالميت للدود والمولود للدود

وقد سحبها على هذا المسحب ، من شعر رأسها الى عجب الذنب ، ويا للعجب ولضيعة الأدب ، وما هي إلا ذنوب ذنوب ، ولكنها عيبة عيوب ، لأن أصل مطلعها عجز بيت من مقطوعة قديمة وهو :

ان دام هذا ولم تحدث له غير لم نبك ميتاً ولم نفرح بمولود
وقبله :

هذا الزمان الذي كنا نحاذره في قول كعب وفي قول ابن مسعود

فقد مرقة وبدل موضوعه المطبوع في المقطوعة ، فانظر لموقعه كيف ساقه صاحبه في طريق الخبر ، وعلقه على فساد الزمان ، وأسنده لنفسه ومن هو مثله في الأحزان ، فقد مهد له بما جعله مقولاً مقبولاً في مقعد صدق . وكذلك قول الحريري : يخلي بين ودوده ودوده ، ويخلو بزماره وعوده ، وانظر لموقعه في قول ناصيف كيف جعله مطلقاً ، بعد أن نقله للنهي المستقبح عند أول النهي ، لأنه غير مستطاع فهو غير مطاع . ثم قرنه بعجز تمجه الأسماع ، وتنفر عنه الطباع ، وجعله علة للصدر وحصر الميت والمولود في الدود . ومن ذا الذي لا يفرح بمولوده إلا ما ندر ، ولا يبكي على ميتة إلا أن يكون قلبه أقسى من الحجر .

وتقدير بيت ناصيف وتقريره : يا كل انسان ، لا تبك ميتاً ولو كان قريبك او حبيبك ، أي لا ترثه ولا تدمع عليه ، بصوت او بلا صوت ، لأن كل ميت ،

ومن الجملة ميتك ، إنما وجد لأن يأكله الدود . ولا تنس "مولود" ، ولو كان ابناً لك ، لأن كل مولود ، ومن الجملة ابنك ، فقد وجد لأجل أن يأكله الدود . ولا شك أن المولود هو الجسم المنظوي على النفس الناطقة وهي لا تكون طعمة للدود ، ولو قدرنا لأن يأكل جسمه الدود ، فليس كل جسم يأكله الدود . فان قيل أراد غير الأجسام المستثناة كجسم المسيح عليه السلام ، ونحوه من الأجسام ، قلنا : المراد لا يدفع الإراد .

وقد أظهر ناصيف في مقام الاضمار حيث لم يعد الميت والمولود مضميرين ، بل أعادها مظهرين ، وكذلك الدود ، إما للتلذذ ... وإما لزيادة التقرير ، وإنما قدرنا خطابه عمومياً ، وأصل الخطاب أن يكون لمعين بدليل قوله بعده :

وكل ما فوق وجه الأرض تنظره يطوى على عدم في ثوب موجود

وقد تبع في هذا مذهب السفسطائية القائلين : ان الأشياء معدومة في زي موجود . وهو باطل وعن البرهان عاطل ، ولا ريب أن النفوس الناطقة داخلة في كلامه لأنه أطلق النظر فيعم العقلي . وكونها تعدم مذهب غير مرض عند اولي الألباب ، ولا يخالف ذلك ما ورد في الكتاب العزيز وهو قوله تعالى : كل شيء هالك إلا وجهه ، لأن الهلاك الموت .

وقال ناصيف :

بش الحياة حياة لا رجاء لها ما بين تصويب أنفاس وتصعيد

أقول أين هذا من قول القائل :

نعم الحياة حياة ذي الدنيا لمن يخشى الإله ويرتجي منه النعم

وما الفرق بينها إلا الفرق بين شاكر النعمة العظيم وكافرهما ، لأنه لا شك أن معطي الحياة هو الله تعالى ، وقد امتن بها علينا . فإذا قال الانسان لربه : ان الحياة التي مننت بها علينا هي مذمومة فما يكون معنى ذلك إلا الكفر والكفران ، وعاقبة ذلك العقاب والحسران ، والعياذ بالله تعالى . وحاصل

معنى بيت ناصيف أن الحياة الدنيا مذمومة فيكون العدم خير منها، فبيته مبني على الباطل ومطوي على الرأي العاقل .

وقال :

لا تستقر بها عين على سنة إلا على خوف نوم غير محدود

فيه : ان النوم غير المحدود هو الذي لا نهاية له ، لأن كل ما له نهاية فهو محدود . ومراده بالنوم الموت كما هو ظاهر ، ويتضمن ذلك إنكار البعث ، والعياذ بالله تعالى ، قال :

ما أجهل المرء في الدنيا وأغفله ولا نحاشي سليمان بن داود

أقول : في ذلك تهور عظيم يدر به كل ذي عقل سليم . وقد أراد التعميم حيث قال بنون العظمة : ولا نحاشي سليمان مع ما أوتي من الحكمة ، وفصل الخطاب . فكم في هذا من إساءة أدب عند أولي الألباب ، وكيف يقال لمن علمه الله ، ما أجهله . نعم علم الخلق قليل بالنسبة لعلم الله تعالى ، ولكن لا يقول ما أجهل الأنبياء الأغبياء .

هان المعاد فما نفس به شغلت عن ربة العود أو عن رنة للعود

على أن قوله عن ربة العود أو عن رنة العود مسروق من قول الشاعر :

ألم أقل لك أن القوم بفتيتهم في ربة العود أم في ربة العود

ثم قال :

يا أعين الغيد تسبيننا لواحظها قفي انظري كيف تسي أعين الغيد
يبدو الهلال ويأتي العيد في رهج ماذا الهلال وماذا بهجة العيد

قوله : في رهج ، غلط قبيح . قال صاحب القاموس : الرهج الغبار ، والسحاب بلا ماء ، والشغب ، وناصيف أراد به الابتهاج . أخذه من قوله العامة :

لهذا العيد رهجة أي بهجة . ولا غرو فإنه كان عامياً ينقل كلام العامة . وذلك كقوله في القصيدة التي بعدها : فغارت ضحكاً عليها المنون ، وكقوله : مضى يجمع الأفضال وهي عبيده . وكقوله : سالت ذوائبها ولاح جبينها ، وكقوله : ان اللثيم مولع بخصاله ، وكقوله : ولرب أمرد عاقل في صغره ، وهي على وزن عنب . وقوله : قفي انظري أي قفي لتنظري كيف تصيرين بعد الموت ، فأظهر في مقام الاضمار وليس في محله ، لأنه يوم أنها تقف لتنظر خلفها . ويحتمل أنه أراد : انظري عين غيد مثلك ، فأخطأ ، لأن المعرفة اذا أعيدت كانت عين الاولى .

قال التهامي يعزي نفسه بابنه :

جاورت أعدائي وجاور ربه شتان بين جواره وجواري

فانظر لهذا ولما قاله ناصيف يعزي به صاحبه أيها أحسن ، بل ما هو القبيح منها وما هو الحسن ؟

وفي الحديث : من تعزى بعزاء الجاهلية فاعضوه بهن أبيه ، ولا تكنوا .

قال ناصيف :

إذا فجعت بمفقود صبرت له إني سأترك مفجوعاً بمفقود
يا من له منه أهل لا جزعت على أهل وهل لك ركن غير مهدود
ليس تعزيتك إجلالاً وتكرمة فأنت أدري ببرهات وتقليد

أقول : « الفجع » أن يوجع الإنسان بشيء يكرم عليه فيعدمه ، و«المفقود» المعدم ، و«الأهل» الزوجة والأقارب ، والمستحق ، و«الجزع» ضد الصبر ، و«الركن» الجانب الأقوى والأمر العظيم ، وما يتقوى به من جند وغيره ، والدليل القاطع اليقيني ، و«التقليد» العمل بقول الغير من دون اطلاع على دليله . وما أرى البيت الأول إلا مسروقاً من قول الشاعر :

فلا تكتحل عيناك يوماً بعبرة على ذاهب منها فإنك ذاهب
فأما صدر البيت الأخير فسروق من قصيدة ابن زيدون في خليلته ولادة ،
ومنها :

لسنا نسميك اجلالاً وتكرمة فقدرك المعنلي عن ذاك يغنيننا

أليس هذا سرقة قبيحة جداً حيث بدل التسمية بالتعزية ، ونقل خطاب
المؤنث للمذكر ، وقد علل ابن زيدون ترك التسمية أي ذكر العلم باغناء الوصف
عنه لتفردا به ، وناصف علل ترك التعزية يكون قريب المفقود أدري الناس
بالبرهان والتقليد . فهل من كان كذلك تترك تعزيتة ؟ بل الواقع ان تعزية الناس
تكثر لمن له أوليته خطر ، فإن قيل أراد انه لكثرة درايته بالبرهان والتقليد
لا يلزم له تعزية إذ لا توجهه ولا تحزنه المصيبة بحبيب ولا قريب ، قلنا ليس هو
بأعظم من الأنبياء الذين حزنوا وبكوا وتعزوا ، وان التعزية سنة قديمة متفق
على استحسانها من المساوي ومن الأعلى ومن الأدنى . على أن قوله : وهل لك
ركن غير مهدود ، ومن أشنع الخطاب وأبشع ما يقال عند المصاب ، فإنه بمعنى
ان كل أركانك مهدودة . ولا بد ان هل للاستفهام الانكاري بمعنى النفي ،
وركن نكرة في سياق النفي فتعم ، فمن يرضى بهذا الخطاب ولا يحشو في فم قائله
التراب !

وكذلك قوله : لا جزعت علي أهل ، فيكون المفهوم بل جزعوا عليك لأنك
تموت قبل كلهم .

فهذه القصيدة « الدودية » ، ومع ما فيها من السرقة والعوج والتعقيد اللفظي
والمعنوي ، غير معزية ولا مسلية ، ولا جارية على مذهب الرائيين . لا يقال انه
ضمن فيها شطر بيت ابن زيدون لأننا نقول ، كما قلنا في شطرها الأول ، انه غير
وبدل ، وإنما كان يظن أن أحداً لا يطلع على ما اطلع ، ولا يطلع حيث ظلم ،
وكان يجالس من يقول له : آه آه يا عالم العلماء ، ما أفصح كلامك ، وأحسن

نعمتك . لقد أحييت العلوم بفضلك الصيب ، حتى لم يذكر معك الحريري
وأبو الطيب . فيهتز وينسج من هذه الأشعار ويحوكها على نيرين ، فتخرج صفيقة
تلا العين ، ويمشي الحال على هذا المنوال .

وكلامنا هذا على هذه المرثية « الدودية » مناوشة لا مناقشة ، وسيأتي ان
شاء الله تعالى وزن سائر أشعاره بميزان الحرير حتى تتميز القضية من الفضة ،
ويكون ذلك كالشجا في حلق من يفضل أسافل الخلق ويخص أفاضلهم بالهجاء ،
ويزول الاشكال ويتضح الحال . قال :

والصبر كالصدر رحب عند صاحبه فإن صبرك مثل اليد في اليد
أقول : كان صوابه أن يقال :

والصبر عندك مثل الصدر متسع فإن ذلك مثل البحر في اليد
لأن قوله عند صاحبه مبهم ، وقوله : مثل اليد في اليد فاسد ، لأن الشيء
لا يكون ظرفاً لثله ، كما هو معلوم بداهة . وقال :

الله أية عين غير باكية ترى ، وأي فؤاد غير مفؤود
إن كان لا بد مما قد بليت به هان البلى بين موعود ومفؤود
أصل البيت الأول :

يا ويحه أي عين غير باكية له ، وأي فؤاد غير مفؤود

فسرقه وأفسده بحذف الضمير ووضع ترى الذي هو حشو، وبحذف يا ويحه ،
الذي معناه الترحم ، ووضع لفظة الجلالة المراد بها التعجب ، لأنه إذا كان كريماً
عند كل الناس لا يتعجب من بكائهم عليه ، وتألم أفئدتهم لفقده ، بخلاف ما إذا
كان غير ذلك . وبحذف الضمير يحهل من يبكي عليه ويتألم له . ولا يقال : إن
بكاهم وتألم فؤادهم حسبة الله تعالى ، لأنه فاسد لفظاً ومعنى ، كما لا يخفى .
والبيت الثاني مسلوخ من قول الآخر :

وإذا كانت آخر العمر موتاً فسواء طويلاً والقصير
ومثله قول الخيمي :

إذا كان موت المرء أفناه عمره ففي موته من يوم يولد يشرع

فسرق المعنى وأفسده بالفاظه ، لأن معنى بيته وتقديره : على فرض انه لا بد من الموت الذي قد بليت به ، أو من فقد الحبيب الذي منيت به أي امتحنت به ، يكون الفناء بين شيء موعود وشيء مفقود هيناً ، وهو فاسد بخلاف البيت المسروق ، فإنه قال : إذا كان لا بد من ذلك فسواء موعوده ومفقوده ، أو لا فرق لأن من طال عمره في طاعة الله ونفع الناس ليس كمن قصر عمره . وحق « البلا » أن يكتب بالألف وأصله المد . أما البلي بالكسر مقصوراً ، فصدر بلي الثوب يبلى ، أي خلق .

وقال ناصيف وهو آخر الدودية :

حاشاك من خبطة للقوم باطلة فمنها الأسى لفوات غير مردود
فالحم في القلب مثل السور في بلد والعلم في العقل مثل الطوق في الجيد

أقول : قوله « للقوم » مبهم لأنه لا يعلم من هم القوم إلا بقريظة خفية بأنهم المنكرون البعث . وقوله « لفوات » صوابه لفاتت ، ومنه قولهم : رد الفاتت صعب . وأما الفوات فعرض سيال لا يوصف بكونه مردوداً أو غير مردود ، كما هو ظاهر . وقوله « مثل السور في بلد » صوابه للبلد ، لأن السور لا يكون في البلد ، بل حوله . فلو قال : والحم للقلب مثل السور للبلد ، والعلم للعقل مثل الطوق للجيد ، لأصاب . على انه لا مناسبة بين الأخير وما قبله مع خلوه عن براعة مقطع وغيرها . وكل كلامه يدل على عدم كماله .

فإذا قال المطبلون : قد رضينا به ، قلنا : لا تفضلوه على الكاملين فتظلموهم ،

فتكونوا من المعتدين فيجب حينئذ كشف الغبار ، ليظهر الفارس من راكب
الحمار ، ومن اتبع الحق أسلم ، والله تعالى أعلم (١) .

ويتبع الشيخ الأسير هذا النقد بأمثلة من رثاء شعراء العرب والمولدين
كتمم ابن نويرة وابن خفاجة والتهامي ، ثم يقول :

فإذا تأملت ذلك رأيت فيه حكمة وبلاغة وتسلية ورجاء ... مما يستفيد
منه القارىء ويفهمه بلا تعقيد ، ولكن ما الذي يستفيدة من « دودية » ناصيف
غير الاستهانة بنفسه وبالأنبياء وظن السوء بكل الناس ، ويتعلم الغلط من الراجح
ونحوه ، والسرقه من الشعر ، وتبديل كلام الناس ... وربما جرته ما ذكره
ناصر لسوء الاعتقاد ويتعلم قلة الشكر لمن أنعم علينا من فضله بنعم لا تحصى ..
كما قال تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . فالحمد لله على نعمه ، والصلاة
والسلام على أشرف أممه (٢) .

هذا هو النقد الأدبي الذي دعا اليه الشدياق صديقه الشيخ يوسف
الأسير في رسالته إلى ضاهر الشدياق كما قرأت ، نقلنا منه أشياء وتركنا
أشياء ، ولا غاية لنا إلا الدلالة على فضل أولئك الجهابذة ، وتعريف الأدباء
المعاصرين ان نهضتهم هذه لم يقل لها كوني فكانت ، بل اقتضت تعباً
وجداً وكداً وسهر ليال من أسلافنا الأفاضل المجتهدين ، فكم قلبوا صفحات
تلك الكتب الخريفية الاوراق حتى تركوا لنا ربيع العقل والقلب .

(١) إرشاد الورى ، ص ٨١ - ٩١ .

(٢) إرشاد الورى ، ص ٩٣ .

فعلينا ان نجاهد جهادهم ذلك لتظل نهضتنا في تقدم مستمر ، فالوقوف
معناه التأخر فالانحلال .

لقد أفادت الأقطار العربية جمعاء من تلك المناظرة وذلك النقد .
والذي يدهش له التأمل هو هذه الوثبة العظمى ، فمن أقصى دركات
الركاكة والرطانة ، ومن ذلك اللحن وفقر الدم اللغوي إلى أسمى درجات
البلاغة والفصاحة . ومن لغة عامية منحطة - كما أريناك سابقاً - إلى
الصراع حول « الواو » إذا كان يجب إسقاطها أو لا .

الله أكبر ! من جهل النحو والاعراب إلى انتقاد فصحاء الاعراب ،
إلى انتقاد القاموس وتاج العروس .

قد يكون ، ولست أشك في ذلك ، نقد الشيخ الأسير ، بعد ابن الأثير
هو الأول من نوعه . فليرحم الله تلك النفوس التي شقت لنا الطريق بعد
امحاء معالمها . لقد عملت ما عليها ، فأحيت اللغة والأدب .

ومن ينكر فضل البستاني الذي أغنى المكتبة العربية بكتبه العلمية
الحديثة . ومن يجحد فضل اليازجي ؟ أما مضي الشدياق لسبيله وبقي هو
حارساً لحصن الفصاحة يرشد الكتاب إلى مواطن الخطأ فيتقون الزلل .

طوى الزمان ألوية أبطال تلك الحملة وانقشع غبار معاركهم فلاح لنا
صبح بسّام ، وتركوا لنا ميراثاً خالداً . فمن يقرأ نقد الأحمد والأسير
والشرتوني واليازجي والبستاني، وكل من سدّد قلماً في هذه الحومة الأدبية

يظن أنه يعيش في البصرة والكوفة ، ويشهد مناظرة سيويه والكسائي
وغيرهما .

ومن يقرأ كتب البستاني بحسب أنه في عصر المأمون لا في القرن
التاسع عشر .

وجماع الكلام ان منافستهم تلك كانت كثيرة الخير والبركات على لغة
الضاد التي كانت تحتضر ، فمن الله عليها بالشفاء على أيدي هؤلاء الآباء
الصالحين .

فلا يحسبن أحد انني أتعصب لصاحبي الشدياق إذا قلت ان محله من
نهضتنا محل القطب من الرحى . فهذا هو واقع الحال . فهو الفنان الأول
وصاحب أول أثر أدبي خالد . أما الذي في كتابه من أحماض ، وان
تجاوزت الحد ، فهو في نظري لا يضير الفن . وهل ضرر فن لافونتين ،
وألف ليلة وليلة ، وكتب الجاحظ ، ما في تلك الكتب من مجون ؟

وإن قيل : ولماذا تنبش القبور ، وتنشر لنا ما مضى وفات ؟ فأجيب
هيني من علماء الآثار ، فإذا نبش لنا أثري تمثالاً عارياً ، ألا نضعه في
المتحف لأنه مكشوف العورة ؟

هب أصحابنا هؤلاء كجرير والأخطل والفرزدق ، أفلا نقرأ تهاجيهم
ان هذا واجب ، وأكاد أقول انه مقدس . فعلى الابن أن يقرأ بفضل من
شاد له البيت الذي ياوي اليه . فإذا رمه ، أو فتح فيه نوافذ وشبايك على

الطراز الحديث ، فليس يعني ذلك ان ينسى من وطئ أسسه ورفع
أعمدته .

سدّد الله خطوات شبابنا ، وهداهم سبيل الرشاد ، وشجذ عزائمهم
ليخلقوا كما خلق أولئك ، ويحق لنا ان نقول :

تبي كما كانت أوائلنا تبي وتفعل «فوق» ما فعلوا

ما قيل فيه

أقوال معاصريه في كتابه « سر الليالي »

قال عبد الله باشا فكري :

– فلما أعوز الظفر بكتاب على ذلك الاسلوب ، وكادت تعجز الليالي والحبالي عن انتاج هذا المطلوب ، وفتق الله لودعي الفنون الأدبية والمعيتها ، وأبا عبيدة اللغة العربية وأصميتها ، احمد فارس ميدان البيان لا يجارى في مضار ، فخر هذا العصر على سوائف الأعصار ، آية الله في فصاحة القول وبلاغته ، وغاية الغايات في صناعة البيان وصياغته .

وقال عبد الرحمن أفندي النحاس نقيب أشرف بيروت :

– كشف أحمد فارس أسرار اللغة ومزاياها ، واستخرج خفايا الحبايا من زواياها :

وردوا مناهل من «جوائب» أحدي فهو الذي تهدي الورى آياته .

وقال الشيخ أحمد الرزقاني في الوقائع المصرية :

يا فارماً ما جال في مضاره
لو لم تكن سر العلوم لما أتى
فلنشكرنك بعد «والينا» الذي
متقدم إلا وثم يؤخر
«سر الليالي» عن مقامك يسفر
عن وصفه باع المدائح يقصر

وقال محمد أمين أفندي الجندي مفتي الشام وعضو شورى الدولة :

— المؤلف مخترع نظامه وتهذيبه ، ونسيج وحده في أمر تأليفه وترتيبه ،
فهو البعير الزاخر ، وكم ترك الأول للآخر .

وقال حسين باشا وزير معارف تونس :

— أما بعد ، فقد تشرف ودودك يا أحمد الحلال ، وفارس ميدان الكلام
والكمال ، بمطالعة تأليفك الأغر « سر الليال » ، الذي لم تسمح قريحة بمثاله ،
ولا نسج لغوي ، فيما علمت ، على منواله . ولم أدر بعد التأمل فيه بأي ثناء
جميل أثني عليك أ .. أ .. أ .. أم باستكشافك لما خفي من مصالح الأمة ،
مشيراً الى ما ينبغي أن تكون عليه سياسة ملكها ، ومناضلتك عنها دون
أضدادها ، والطاعنين في محاسن لغتها وشريعتها من حسادها . من لي بمدح من
فاق أقرانه ، وحبس « أيامه » على إيضاح اصول السياسة ، وتهذيب فروع
واجبات الرئاسة ، و « لياليه » على بيان أسرار اللغة ومبانيها . فقد أرىتنا
بهذا التأليف الجليل والدستور العديم المثيل ، ما يحقق لنا أن وراء المحيط محيطاً
آخر ، فهنيئاً لك السر الذي أطلعك الله عليه ... الخ .

وقال الشيخ ابراهيم الأحذب :

— كشف لنا الخبا عن أسرار لغة العرب ، وأبان منهج السلوك في معرفة
قنون الأدب . خبا نور « المصباح » عند اشراق نوره ، وأصبح « فقه اللغة »
غير فقيه بظهوره .. ما زال يحامي عن العرب ويناضل ، ويحجر اليهم رفع راية
الشرف فوق هام الهجرة بأعظم عامل .

وقال الخوري فرنسيس الشمالي (المطران جرمانوس الماروني الشاعر الشهير) :

أتى سرّ الليالي بالآلي	وغيري قال بالسحر الحلال
وان صال الجدال على أصول	فان قضاءه حسم الجدال
حوى « قلباً » تملك كل قلب	و « إبدالاً » به سعة المجال

وقال عبد الهادي نجا الابياري :

- ولكن لم يأتِ احد منهم بما يروق مجتلاه ومجتناه ، ويوصل به ما تقطع بين لفظه ومعناه ، حتى تنبه لذلك فارس ميدان البراعة ، ومالك زمام القرطاس والبراعة ، الفذ الذي عقلت عن توأمة فتاة الزمان ... بما ألقه من كتابه السحر الحلال ، المسمى بسر الليال ، ولا سيما بالطريقة التي ابتدعها ، والشريعة التي شرعها ، فقلدها نضاراً في جيد لغة العرب ، وخلدها نعمة سابغة على جميع أهل الأدب ، فهو منة من الله ملأت الصدور انشراحاً ... انه لهدي ورحمة للناس وبشرى لأولي الألباب ، أخرج الناس من ظلمات العمى والغي ، وألحق مشايخ الأدب بأولاد الحي .

وقال اباضه باشا :

مق تطلب الآداب أحمد فارس	ذكاه أتيناها بأحمد فارس
فسر الليالي فيض بحر أمده	نهاه فما يأتي بغير النفائس
شؤون أفادتها حنادس ظلمة	ولكنها ابيضت وجوه المدارس

ولما وقفت على عجب اختراعه وجدت لله شكراً حيث قيّض مثل هذا الهام لهذا التصنيف ... فقلت : اللهم انه لم ينقط الفلك عرائس « الأمالي » بمثل هذه اللآلي التي ازدرت « بالقاموس والصحاح » ، وجرت ذيل الأرب ، فعلا مقامها على « المقامات » ، وأميط عن وجوه « الجهرة » شتيت وجوه الدلالات والاقادات . ولعمري لو شامها « ابن الأثير » لم يبتدىء بالنهاية ، ولعد « نهايته » بالاضافة اليها بداية . ولو برزت نخباً لها لشارح القاموس ، لما وضع « التاج » على رأس « العروس » .

وقال الشيخ مصطفى العدوي الأزهري :

- بينا الناس متشوقة في كل عصر لرؤية الاعاجيب إذلاحت عليهم أنوار سنية .

أطلعت في سمائنا كوكب الكشف

فأغشت أبصارنا بالضياء

ثم قال في قصيدة :

إذ لغات العرب طرا قبله

« قلبها » خاوية من « الابدال » خال

وقال العلامة عبد الله بهاء الدين :

— أفشي خبراً طالما حدثنا به الرواة ، ولولا ذلك الفاضل لما وقف على هذا

السر المصون انسان ، ولبقي الى يوم النشر مطويّاً في خزائن الكتان .

وقال الخوري ارسانيوس الفاخوري الماروني الشاعر :

فيما له بالعلم أنت تمارس

ولفرقة الآداب أنت السائس

في سؤدد الاعراب انه جالس

من نوم جهل والعيون نواعس

يا أحد الأخلاق انك فارس

الفضل زيتان وأنت حويته

اعرابه سرّ « الليال » موضح

قد أيقظ الازهان صوت يراعه

وقال الشيخ يوسف النبهاني :

فأصبح سرّاً في الممالك ساريا

فقال « أيا قاموس » مالك هاذيا ؟

فصار بها البحر المحيط مساويا

وأسأل تكراراً جواب سؤاليا

أتى بعدها « سر الليال » منقحاً

أفانا كما شاء اللبيب مهذباً

وفاضت على كل الوري حسناته

أمولاي ، اني عائد بك لائداً

وقال الوزير محمد بيرم الشهير :

من نصحه الاسلام أنفع سائس

واحد لأحد فارس من قد أتى

وقال الفقيه الأشهر الشيخ يوسف الأسير :

الجواري المنشآت كفلك نوح

فتوعي كل فائدة وتوحي

فأحمد فارس بحر لديه

« جوائبه » تجوب الأرض طراً

وقال الشيخ عبد الله فيضي الموصللي :

فلقد حوت من الفنون عجائباً لله درك فارس الشدياق

وقال محمود صفوت في الوقائع المصرية :

يا أحمداً وافى بمعجز أحمد وأبى علاه أن يكون لنا العلا
من ذا يجاري فارساً من بعد ما قد أوقف الشعرا وقال لهم : هلا

وقال أحمد وهي المصري :

امام حوى علم الكتابين ، وانثنى يجرف فخاراً وهو سلمانُ فارس

وقال أحمد عزت الفاروقى :

روضة أصبح عند الوزرا وخديماً لأمير المؤمنين

وقال السيد ابراهيم فصيح الحيدري عضو مجلس المعارف :

— عذب الموارد ، ورتاد الشوارد ، شرّاد المعاند ، منطبق بلا هذر .

وقال المطران يوسف الدبس :

— عاون في ترجمة الأسفار المقدسة (التوراة) وتنقيحها وضبطها ، فكانت

أحسن الترجمات من حيث اللغة العربية النخ ...

أقوال مؤرخي الأدب

قال جرجي زيدان في « مشاهير الشرق » :

امتاز باتقان النظم والنثر ، وأجاد في كليهما ، فإذا نظم أو نثر فعل ذلك
عن سعة وارتياح ، كأنه وعى ألفاظ اللغة في صدره وأخذ عليها عهداً أن تأتيه
صاغرة متى احتاج إليها ... فترى كتاباته طلبتة طبيعية ليس فيها شيء من

التكلف أو التقعر ، على كونها فصيحة بليغة ، والسبب في ذلك حدة ذهنه ، وقوة ذاكرته ، وسعة اطلاعه ، وكثرة محفوظه ، وحرية قلمه .

وكان يطلق لقلمه العنان غير محاذر ، وأظنه السبب فيما تراه ببعض مؤلفاته من المجون الذي تنفر منه طباعتنا وتمجته أذواقنا .

ومن خصائص كتابة الشيخ أحمد فارس السلاسة وارتباط المعاني بعضها ببعض ، واتساقها مع التوسع في التعبير وتببع الموضوع إلى جزئياته ، ومراعاة الموضوع الأصلي والعود اليه .

ترى ذلك في كشف المخبا... حتى يخال لك أنه خرج عن الموضوع ، ثم لا تشعر إلا وقد عاد بك إليه بغير تكلف . كل ذلك بفناية السلاسة والطلاوة مع البلاغة .

وترى في مؤلفاته كثيراً من الألفاظ العربية عبّر بها عن معان حديثة افرنجية لم تكن عند العرب ، وهي في الغالب تدل على حسن اختياره .

ومن الأدلة على اقتداره في التعبير أنه مغالٍ ، فإذا مدح بلغ بمدوحه عنان السماء ، وإذا هجا أنزل مهجوه إلى دركات الجحيم .

ومن ميزة كتاباته أيضاً : عدم مراعاة خطة الكتاب قبله ، وهو اعتماد على النفس ، واستقلال في الرأي .

كأنني بالعلامة زيدان ، رحمه الله ، أراد بالتصير الأخير وصف تجديد الشدياق وفنه .

وقال في مكان آخر : كان (أي الشيخ ابراهيم اليازجي) يبائع في تنقيح ما يكتبه ، ويتأنق في اتقانه خوفاً من الانتقاد . ولعله تنبه لذلك على الخصوص منذ أخذ في الدفاع عن والده لما انتقده الشيخ أحمد فارس الشدياق ، وشدد النكير عليه ، وكان الشيخ ابراهيم في ابان شبابه فأجاد في الدفاع ، وتعود

الحذر من الخطأ بالمراجعة والتنقيح من ذلك الحين ...

وقال جبران في « دمة وابتسامة » :

— قال بلسان مصر تخاطب لبنان في مقال عنوانه « اللقاء » : أتخفتني
« بالفارس » فقلب ضعف قومي، وحبوتني « بالأديب » فأنهضهم، و « بالتجيب »
فأثلهم .

وقال جبر ضومط في « فلسفة اللغة العربية وتطورها » :

— وجد المرحوم فارس الشدياق فوجد كتاب الواسطة ، وكتاب كشف
الغبا ، ومائت كتاباته الأدبية البالغة مبالغها من الطلاوة والحسن .

وقال البروفسور جب :

— أما في سوريا فكان تأثير المرسلين عظيمًا، وخصوصاً في تلك المدارس التي
أسسوها فأثبتت الروح العربية ، خصوصاً بين نصارى لبنان . وكان أحمد
الشدياق أشهر رجال هذا العصر . تعلم علومه الأولى في لبنان ، ثم رحل الى مصر
وتأثر كثيراً بثقافتها حتى صار محرر «أوفيسيال غزت» (يريد الوقائع المصرية) .
ثم رحل الى عواصم أوروبا المختلفة وبقي فيها ردهاً من الزمن . وفي العقد الخامس
من عمره أسلم وهو في خدمة باي تونس ، ثم توجه الى القسطنطينية وبقي فيها
الى آخر العمر ، فكان منه ، وهو زعيم المدرسة الحديثة ، أحد الأبطال العظيم
المدافعين عن الاسلام .

إلفات نظر : نلفت نظر الاستاذ العلامة جب الى أن اللغات الأجنبية كانت
تعمل في مدارس لبنان قبل أن أسس المرسلون مدارسهم التي لا نجد ما أسدت
الى لبنان من حيث نشر العلم والثقافة . ونذكره ان الشدياق تلميذ احدي هذه
المدارس وهي «عين ورقة» الشهيرة التي أنجبت البستاني وغيره من فوايح لبنان .

وقال الزيات في « تاريخ الأدب العربي » :

- وأنشأ جريدة الجوائب وأودع فيها من فنون النثر وعيون الشعر وضروب السياسة ما رواه لسان الحميد ، وتناقلته برد الشرق والغرب . كان في سياسة الشرق مرجعاً وحجة ، فسعى إليه المجد والثراء ، وخطب وده الأمراء والعظماء . وورد الشدياق مصر وقد تنفس به العمر وخذد وجهه الكبر ، فأحسن المصريون وأميرهم لقاءه ووفادته .

كان الشدياق متضلماً من فنون الأدب ، متصرفاً في فنون الإنشاء ، من هزل ومجون ووعظ وأدب وسياسة ، حافظاً لمفردات اللسان ، بصيراً بمذاهب البيان ، يجيد النظم والنثر . وكان أسلوبه منسجم التراكيب ، متساوي المعنى ، موفور الأزواج ، شديد الاطناب ، كثير الاستطراد ، ظاهر المبالغة . أما شعره فأدنى رتبة من نثره ، وأقل جودة ، وأضعف ابتكاراً . فهو في نثره مجدد ، وفي النظم مقلد ، وفي كليهما بالنسبة إلى أهل عصره سابق مجيد .

وقد يؤخذ على المؤلف جرأته على الأدب ، وتطرفه في المجون ، واستعماله من الألفاظ ما لا يصدر منه عن مثله ، ولا يليق بفضله .

وقال الأب العنداري :

- وكان الشدياق ، على ما امتاز به من ثقافة وذكاء ، طافح الكتابة بالمجون والحلاعة ، متقلباً بأرائه ، يتظاهر بالدين مع من يريد التحجب إليه ، فكان بروستانياً مع البروتستان ، ومسلماً مع المسلمين . وكتب في الاسفار والمجتمع الإنساني ، الواسطة في أحوال مالطة ، خلط فيه أموراً كثيرة تسمى عنها بالخط من كرامة الدين . أما « كشف الحجاب » فأهم ما فيه اسمه الرنتان . وقد ترجم عن اللغة الانكليزية « شرح طبائع الحيوان » بمباراة سلسلة مما يحمل كتابه أول كتاب مترجم على أسلوب عربي فصيح .

وقال الأخ ساروفيم فيكتور في « تاريخ الآداب العربية » :

- كان فارس الشدياق وحيد زمانه ونايغة عصره في علوم اللغة والآداب ،

والكتابة والشعر ، وكان مع رجاحة عقله وحصافة رأيه واهي العقيدة مذبذباً في الدين ، عاشر الاميركان فجنح الى البروتستانتية ، ونزل تونس فأسلم وُسُمِّي أحمد ، وهذه خلة ذميمة في كل انسان فكيف بمن من عليه الخالق ، سبحانه وتعالى ، بالمواهب الغزيرة ، والمدارك السامية .

وجاء في « الفصل » (وضعته لجنة من شيوخ علماء مصر لوزارة المعارف) :

— كان الشدياق متبحراً في اللغة العربية متمكناً من فنونها ، واقفاً على أسرارها ودقائقها ، وقد أوتي مع هذا بياناً سهلاً تلين له وجوه المقاصد وترهف له الآذان ، ويهفو اليه مستصعب الازهان . وله كذلك شعر مشرق الديباجة ، رصين البناء .

وله مؤلفات جمة من أهمها « الفاريق » أجراه على اسلوب فكاهي بديع لم يسبق اليه في العربية ، لولا اسفاقه احياناً الى ألوان من المجون لا تحمد من مثله . ولقد تعمد أن يبذل فيه ما شاء الله من فنون المترادفات اللغوية في الاغراض المختلفة مما يدل على سعة علمه بدقائق العربية .

وقال جرجي كنعان في « الآداب العربية وتاريخها » :

— أول ما يظهر من أخلاق الشدياق هو نزوعه الى الحرية وفك القيود القديمة ، مع المحافظة على ما هو ضروري منها . كان فكها يأمر السامع بحلاوة حديثه . ومع ما نال من سمو المقام وعلو الرفعة ظل وديعاً لطيفاً . وكان عندما يقتنع بصلاحية أمر يحمل على خصومه حملة شعواء .

كان واسع الاطلاع جداً ، يحفظ كل اللغة العربية تقريباً . لذلك سهل عليه الانشاء نثراً ونظماً .

كان فنانياً مبدعاً في الانشاء ، ولذلك كان يملك على قارئه القلوب ، فأصبح قبلة الأنظار في الانشاء والتأليف مدة نصف قرن .

وقالت جريدة « القاهرة الحرة » في العدد ٥٢٣ :

— وقد خدم أفكار رجال الدولة العلية في سائر كتاباته السياسية ، ولم ييخل بأرائه السديدة عند كل ملّة كانت تحدث في الولايات المحروسة ، فكان في جميع المضلات يصف الدواء للداء غير خاش في الحق لومة ، أو متلبس بمظاهر الخداع والمخاتلة . وكانت جرائد باريس الخطيرة وصحف لندرة الشهيرة تأتي بذكره كثيراً في أغلب أقوالها عن سياسة الشرق مستندة في آرائها عليه ، مقدرة إياه حق قدره ، وكانت منزله عند كتاب الصحف في أوروبا سامية جداً .

وجاء في « دائرة المعارف » للبيستاني :

— نهج في كتابته نهجاً جديداً جمع فيه بين متانة العبارة ورقة الانشاء ، فلم يخالف الاقدمين ولم تثقل عبارته على أبناء العصر . وكان في اللغة بجرأ زاحراً لا يكاد يغيب شيء عنه من مفرداتها ، وشئت موادها . وهو مع ذلك جيد الانتقاد ، متوقد الذهن ، حسن التصرف بوصف مشهوداته ومسموعاته . وقد خاض في السياسة بجرأ لم يبلغ ساحله أكثر كتاب الشرق . واتخذ من اللغة أوضاعاً عبّر بها عن مصطلحات الافرنج ، فكانت « جوائبه » مثلاً تحذاه أكثر الكتاب .

ولولا افاضته في فاحش الجون ، وتصلبه في تعزيز الوجهة التي يوجه اليها قلبه ، لقلنا انه الامام الذي يرجع اليه ، والمثال الذي لا يعول إلا عليه .

وكتبت جريدة « البورص اجيبسيان » الافرنسية بتاريخ ٢٦ تموز ١٩٢٧ ، تحت عنوان « فارس الشدياق أديب الشرق الأدنى الكبير » ، ما يلي :

ما بين سنة ١٨٠٢ و ١٨٨٧ نشأ رجلان ان اختلفا موطناً ولغة فقد اتفقا في الاتجاه والمثل الأعلى . من المفيد جداً أن نعلم أن هذين الرجلين اللذين لم يتعارفا أبداً قد جريا لغاية واحدة طول حياتهما . فهذان الرجلان هما المعلمان المطلقان

للفتها ، قد تصرفا بها كما شاء بسهولة عجيبة . أسخطها محيطها فعاشا يهجون شعراً ونثراً المتسلطين في عصرهما مقبعين الاساءة والجور .

هاجم فكتور هيغو الهيئة الاجتماعية من الجهة المدنية فهجا العظماء وتابليون فأرسله إلى المنفى . أما الشدياق فانتقد في معظم كنبه رجال الدين الذين تتألم منهم بلاده ، وهم الذين سبوا موت أخيه الشاعر المعروف في الثانية والثلاثين لأنه بشر بالمذهب البروتستانتى . ثم انتهى أمر الشدياق إلى اعتناق الدين الاسلامي .

أما هيغو فأقامت له فرنسا التماثيل وتغننت بذكره . أما الشدياق فلم تذكره شعوب الشرق الأدنى إلا هذه السنة ، أي بعد مرور خمسين عاماً على وفاته ، إذ شعروا انهم لم يفعلوا شيئاً حتى الآن لنقادتهم الأكبر ، وسيد فقهاء لغتهم في القرن الثامن والتاسع عشر . أدركوا أن منشئ أشهر جريدة عربية (الجوائب) أمسى منسياً ، وان مؤسس الصحافة العربية لم يعرفه الشعب في احتفال وطني .

ففي تشرين الأول ستقام ببيروت أعظم حفلة عرفتها تلك البلاد ، يرأسها فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية ، وتمثل فيها أمم الشرق الأدنى لتكريم ذكر لبناني كان أجراً وأعظم نقادة ، بل أعظم علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وسيخلدون ذكره بتمثال يرفعونه له في بيروت سنة ١٩٣٨ .

فنتمنى للنايغة العظيم الذي دافع طويلاً عن مصر وخدمها في جريدته الشهيرة أن تكون حفلة ذكره لائحة بمقامه السامي .

قلت : ...

هيا اتبعني !

رياح الصحافة

قالت إحدى الصحف :

— في مطلع الصيف القادم يحتفل لبنان بنايغة العالم العربي في القرن

التاسع عشر أحمد فارس أفندي ، وستكون الحفلة جامعة عناصر العالم العربي ، وسيمثل فيها الغرب أيضاً ، فالرجل كان عالمياً خُصم جميع الأقطار ، ولهذا سيحضر الحفلة الأولى ، التي يرأسها فخامة رئيس الجمهورية الأستاذ اده ، جمهور من المستشرقين .

إت من ملأت شخصيته الشرق والغرب ، فاستقدمه باي تونس على سفينة حرية خاصة ، ثم طلبته الصدارة العظمى بأمر السلطان من سمو الباي ، وإن من يحل بباريس ولندن يؤلف ويعلم ، ثم يحوز الحماية الانكليزية في ذلك الزمان ، لجدير بأن ترحب حفلة ذكره بحضور الأستاذ اده ، فالاستاذ اده ابن بيت عربي أصيل منه الشاعر المعلم الشيخ الياس اده ، أحد مشاهير عصره في حكومة الأمراء ، وقد شغل مركزاً سياسياً في زمانه لا يقل شأناً عن مركز حفيده الأستاذ اده ، قرب الله اليوم الذي يكرم فيه لبنان موثاه النوابغ .

وقالت جريدة ثانية :

— حقاً ان الدعوة لمهرجان أحمد فارس الشدياق سترينا وجوهاً كريمة لا عهد لنا بها من قبل ، فيكون مطلع الصيف القادم نكتة قل ما جاد بها الزمان ، فيرى الكثيرون جمال لبنان ويتفرجون به كما كان شيخنا الشدياق وزوجته فرجة للناس في مالطة وانكلترا وباريس ، لأنه عاش بينهم بزيه العربي من البابوج الى الطربوش .

وقالت صحيفة ثالثة :

— يتأهب الاستاذ الجليل خليل بك كسيب نقيب الصحافة اللبنانية لتكون حفلة النقابة أبهى حفلات ذكرى الشدياق . ومن يستكثر هذا مق علم ان أعظم ما أقيم في هذه البلاد من حفلات ، تولته النقابة فسدت ثلثات كثيرة وبيّضت وجهنا . ومن عرف الاستاذ كسيب شهد له بالتضحية والتقدير العظيمين ، ولا سيما انه يعلم علم اليقين ان « الصحافة هي السلطة الرابعة » كما تقرأ ذلك في ديوانه .

إذن لا غرو إذا لمحننا هذه الحماسة ولمسناها ، فأحمد فارس أول صحافي عربي شرقي احترمه الشرق والغرب ، وأنقذ الفصحى من الركاسة ، منذ ولي تحرير « الوقائع المصرية » ، ثم « الرائد التونسي » ، وأخيراً في « الجوائب » الشهيرة التي أجاد في إنشائها وسبكها ، فولع الناس بمطالعتها ، وذاع صيتها في الآفاق الشرقية ، فبلغت الهند وفارس والعراق وسائر بلاد العرب ومصر والشام والمغرب ، حتى لم يغادر أسلوباً من أساليب الكتابة لم يطرقه : بين لغة وسياسة ومدح ورتاء ، وجد وهزل ، ولوم وعتاب ، وحزن وطرب ، فضلاً عن القصائد الرثانة والمقالات العديدة في العلم والأخلاق .

ولم تنحصر منزلة الجوائب في الشرق ولكنها دخلت الغرب ، وذكرت صحف لندن وباريس محررها في الكلام عن سياسة الشرق محتشدة بأقواله ، وكانت تلقبه بالسياسي الشهير ، والأخباري الذائع الصيت ، وقد خاطبه الملوك والأمراء والعظماء في سائر أقطار العالم الخ ..

فصحافي عربي كهذا من الطراز الأول تصدر أوروبا عن رأيه في المسألة الشرقية يستحق هذا الاهتمام الخطير الذي تبديه نقابة الصحافة . جزى الله الأستاذ الجليل خيراً عن النهضة فتكريم نوابغها توطيد لأركانها .

وقالت جريدة رابعة :

إن الدعوة إلى الاحتفال بذكرى الحسين الشدياق لمن أقدس واجبات كل شرقي فمن أقر له عزيز مصر بخدمته الجلى للشرق لجدير بأعظم تذكاراته .

وقالت جريدة خامسة :

ستمثل الطائفة المارونية في ذكرى فارس الشدياق ، ويتناسى رجال الدين هفوات ابنهم هذا . فالعلامة الدبسي قال - كما روي له - إن الرجل تاب في آخر العمر ، وإن كان هذا أو لم يكن فأحمد رجل جامع كما يبدو لنا مما كتب . وهو ممن رأوا في ذلك الزمان ان الدين لله والحياة للجميع ، وهذا هو المبدأ

السائد اليوم في لبنان ، فغبطة البطريرك عريضة صرح بهذا في مواقف شتى ، وهذا البطريرك الجسور كلي الصراحة متدين إلى أقصى حد ، ولكنه أيضاً مفكر متبحر ذو آراء سامية .

وقالت جريدة سادسة :

سيحضر سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الحفلة الكبرى التي ستقام في مطلع الصيف تكريماً لذكرى شيخنا الأعظم أحمد فارس أفندي ، وقد سمعنا من كثيرين ان أكثر المقتين في البلاد السورية سيكونون أيضاً . اننا لم نستغرب ذلك ولم نستبعده فالسلطان عبد الحميد وجه حضرة سماحتلو رشادتلو محمد ظافر أفندي ليعمله في حفلة جنازة الشدياق ، وهذا غريب الوقوع ، قد لا يظفر به الملوك .

وقالت جريدة سابعة :

— بلغنا ان مدرسة عين ورقة التي سماها الاستاذ مارون عبود في عكاظ مدرسة الحكمة ، سوربون الشرق ، ستمثل بشخص حضرة رئيسها الجليل الخوري حنا امطفان لأن المرحوم تلميذها ، كالبستاني وغيره من نوابغ القرن ، ويعده الخوري حنا بلاطة تاريخية يوسم بها ضريح الفقيد العظيم .

وكتبت جريدة ثامنة بعنوان : « الطائفية في لبنان » :

— يقال ان لبنان يتمسك بالطائفية بيديه الثنتين ، وهذا مجال واسع للطوائف كلها في يوم أحمد فارس الشدياق . ففي استطاعتها كلها أن تتنافس . أما اذا كانت الطائفية لا تذكر ، ولا يدين بها الناس إلا عند الأخذ ، ويتناسونها يوم العطاء والبذل فهذا شيء آخر . ان يوم الشدياق يوم بذل لتكريم سيد الكتاب بلا منازع في القرن التاسع عشر .

قلنا هذا لأن المرحوم أرضى الطوائف كلها في الشرق والغرب ، فقد ولد مارونياً ، وصار بروتستانياً مترجماً للتوراة ، ثم أسلم وملاً الدنيا مدحاً للعرب ،

وقضى حياته مهيباً بهم صائحاً ، فكان الذائد البطل عن بيضة الاسلام ، وان قال قائل : كيف يتناسى رجال الدين ما جاء في الفارياق ؟ قلنا : الرجل ثاب ، والتوبة التي تمحو القتل أفلا تمحو الكلام ؟ فالفارياق ما كان إلا ماجناً ، فهو لا يبنض أحداً كما صرح في آخر كتابه ، عليك به ان لم تصدق . ثم هب الفارياق مثل مار شينا الذي جاء وعصابته ليسرق الدير ويقتل الرهبان ، ولما سمع صلوات الآباء الاطهار حلت النعمة عليه ، وترهب وعصابته كلها . لا مثني وموحداً كالاملاك الذين ذكرهم المتنبي .

أما البروتستان فلا شك في انهم ذاكرون جهاد الرجل ونضال أخيه أسعد ، فيبدلون المال لإقامة أثر عظيم يليق بقدر الشدياق ، وكذلك يفعل الامير كان والانكليز وغيرهم من الاجانب البروتستان .

أما اذا أصاب الشدياق ما أصاب ذلك الذي أسلم الظهر ، ومات العصر ، فأنكره محمد ، ولم يعرفه يسوع ، فيا لحية الادب .

وقالت الجريدة نفسها بعد اسبوع :

بلغنا من مصدر نثق بكلامه ان الجامعة الأميركية ، وعلى رأسها الأستاذ الكامل بيار ضودج ، ستنفرد بحفلة رائعة لذكرى الشدياق يترأسها مندوب عن جمعية التوراة ، ويحضرها متمشرون كثيرون من كمبرج وأكسفورد وغيرها فالفقيد أفضل كثيراً على هاتين الجامعتين إذ علم هناك علماً صحيحاً ، وفهم العلماء شيئاً من أسرار اللغة التي لم يفتح صندوقها لأحد مثلما انفتح لهذا العبقرى .

وقالت صحيفة تاسعة :

من المؤكد ان كل حكومات الأقطار العربية ستوقد من يثلها في الاحتفال الفخم برجل كان خادماً لأمير المؤمنين ، ونجياً له ، ومدافعاً عنه ازاء الغرب ، وكان يجمع الكلمة حول عرشه باسم الإسلام ، وان صدق ما سمعناه بالتقليد كان هذا القبر الفخم المهجور في الحازمية قد بني من مال الذات الشاهانية ، فالرجل أسلم وحسن اسلامه ، ولا يرى في آثاره الباقية بعده ما يغمز عليه .

وقالت جريدة عاشره :

قال لنا قادم من القاهرة ان وفد مصر سيكون أضخم الوفود وأجلها ، فالمرحوم الشدياق لم يذكر مصر إلا بالخير في كتبه . وزد على ذلك أنه ، رحمه ، الله ، أتقن العلوم اللسانية حين اطمأن اليها ، وبدا نبوغه للناس حين ولي تحرير جريدة مصر الرسمية ، وكان حنينه إلى مصر هو الذي دفعه إلى زيارتها حتى جاءها يحمل على منكبيه أثقال ثلاثة وثمانين عاماً ، وزهير سئما في الثمانين وكانها زيارة الوداع لبلاد أحبها جداً فعاد منها إلى الآستانة ومات بعد عام في مصيفه بقاضي كوي .

وقالت صحيفة أخرى :

إن الصحافة المصرية وفي مقدمتها الأهرام والمقطم والسياسة والجهاد وغيرها تبذل جهوداً واسعة النطاق لتمثل تمثيلاً لائقاً بمقامها السامي في حفلة الخمسين لأحمد فارس الشدياق .

وقالت مجلة ...

إن رئيس المجمع العلمي الملكي وبعض أعضائه سيحضرون حفلة أحمد فارس بلبنان ، اعترافاً بفضل العظم ، فقد كان وحده في ذلك الزمان مجماً علمياً يترجم ويسمي الأشياء الجديدة بأسمائها ، وينسب وينعت ، ويضع ما تحتاج إليه الحياة والمحيط مما دل على بعد غورد وسلامة ذوقه ، وحسبك انه صاحب (الجاسوس على القاموس) .

وقالت مجلة أخرى :

هذه أول مرة يوفد الجامع الأزهر ممثلاً إلى خارج القطر المصري ، فقد قرر بعث بعض علمائه وشيوخه الأكبر ليمثلوه في حفلة شيخ العربية الأوحده أحمد فارس صاحب (سر الليال) الكتاب المفرد ، وكتاب (منتهى العجب في خصائص لغة العرب) الذي لم يعمل مثله أحد من المتقدمين والمتأخرين .

وقالت جريدة تونسية :

في لبنان اهتمام عظيم لإقامة ذكرى الحسين للعلامة الأوحيد والأديب المفرد أحمد فارس الشدياق ، إننا نذكر تونس برجل صرف فيها سنين كان فيها أعز الناس على الباي ، وأحب الخلق إلى الأمة . ولو لم تطلبه الصدارة العظمى من بابنا لظل أحمد عندنا ، ومات في بلادنا وكنا نحن القائمين بتكريم ذكره . إن الفرصة سانحة للتعرف بإخواننا في تلك الربوع وبهذا نقابل الجميل بالمثل فهل تتأخر .

وقالت جريدة أجنبية :

بلغنا ان الجالية الانكليزية تمد اكليلا فخماً يضعه سعادة القنصل البريطاني على ضريح الشدياق ، فالشدياق كان من التبعة الانكليزية وظل يباهي على تقربه من الباب العالي .

وقالت جريدة عربية برازيلية :

علينا أن لا ننسى الواجب المقدس نحو رجل كان قبلنا فائحاً ومبشراً باللغة العربية في كل الأقطار ، ان أقل شيء تقوم به الجالية هو الاكتاب لصنع تمثال ضخم لذلك الأسد اللبناني النائم في سفح لبنان ولا يشعر أحد أنه هناك ، لقد تعود المهاجرون البذل في كل موقف فالיום نريدكم .

وقالت جريدة نيويورك :

هل يكون حظ الشدياق من المعارف اللبنانية كحظ جبران الذي عاش عندنا ؟ إننا ندعو جاليتنا الكريمة التبرعات لطبع مؤلفات الشدياق النفسية طبعة أنيقة إقراراً بحمليه ، أما نشرت مطبعته في الآستانة أسفاراً كثيرة نادرة أفاد بها اللغة والأدب ، إن أحمد فارس كان وحده وزارة معارف فهو يستحق كل تكريم وإلى هذا نلقت الأنظار ، ونستحث المهم .

وأخيراً قالت صحيفة خطيرة تحت عنوان : الأمم ينوابها .

ليت الحكومة تقطع بضعة آلاف ليرة مما تنفقه على بناء (دار الآثار)
لتحفظ فيها آثاراً معدنية وخزفية ، فتحسن بها ضريح نابقتها فهو الأثر الفريد
الذي تفاخر به الشرق والغرب . فمها كتب الغرب ليشوهوا وجه الشرق المنير
فالشدياق تغداهم قبل أن يتعشونا . انتهى .

هذا ما حلم به عقلي الباطن ، وأنا واع لا نائم ولا حالم ، وفقنا جميعاً إلى
خدمة (المنقطعين) .

إلى اللقاء عند قبر الشدياق .

حكاية اليوبيل

صرخة في واد

عندما أرسلنا الصرخة تلو الصرخة لم نحسب انها جميعاً ستذهب في واد . فما أصدرنا بضع مقالات ، في نهاية عام ١٩٣٦ ، نذكر فيها العالم العربي بأديب النهضة الحديثة وواضع حجر الزاوية في بنيانها العلامة الأكبر أحمد فارس الشدياق ، حتى أهاب بنا صوت من بيروت : أن انزل العاصمة . فهبطنا اليها شاكرين للاستاذ محمد جميل بينهم دعوته التي شربنا فيها الشاي والقهوة ، وأكلنا من الحلوى أقراصاً مختلفة .

كنا أربعين ، ولكن غير الأربعين الخالدين ، فانتخبنا منا اثني عشر رسولاً ... حملناهم الدعوة للشدياق وأرسلناهم كالخراف ...

كانت همتنا عظيمة يوم بدأنا وتلك عادتنا ، نار هشيم ثم تنطفي . فما ذاعت الدعوة حتى انبعثت الهمم ، وأتانا من القاهرة نبأ الدكتور فيليب الشدياق (ابن عم المرحوم) يتبرع بمئة جنيه مصري لعمل تمثال للفقيد . فقلنا يا باريك الله ، أول الفيث ديمة مدرار !

ولكن المثل كذب وما صح هذه الخطرة . وتوالت جلسات اللجنة

المختارة حتى خطر بياها أن تفرع باب الحكومة ، فمئة فيليب
شجعته... ..

أما كرم الحكومة فكان حاتماً... ..

وإليك ما كتبه جريدة « صوت الأحرار » الخطيرة على أثر تلك
المقابلة تحت هذا العنوان الضخم . قل يا برك الله :

الجمهورية اللبنانية تقدر نوابغها

مهرجان الشدياق سيكون برعاية الحكومة

وزير التربية الوطنية يعد لجنة التكريم بالمساعدة المادية والمعنوية

« أوفدت لجنة تكريم إمام اللغة العربية وحجتها في القرن التاسع
عشر المأسوف عليه أحمد فارس الشدياق أربعة من أعضائها هم السادة :
محمد جميل بيهم رئيسها ، والشيخ يوسف زخريا ، وكرم ملحم كرم ،
ويوسف يزبك ، فقابلوا فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية (الاستاذ اميل
اده) ، وطلبوا اليه التلطف بقبول جعل مهرجان الشدياق تحت رعاية
فخامته . وقد استقبل اللبناني الأول وفد اللجنة بالحفاوة وقال : انه
شخصياً يعطف على مشروعها ويقدره حق قدره ، ولكنه يطلب الى
الوفد أن يجتمع بمعالي وزير التربية الوطنية ، ويتفق معه على تقرير
الأمر ، عملاً بنصوص الدستور

« وذهب الوفد الى معالي الاستاذ حبيب أبي شهلا ، فلقى من وزير
التربية الوطنية كل عطف وتشجيع وقال : انه مستعد لتسهيل مهمة

اللجنة بكل ما لديه من الوسائل المادية والمعنوية . وقد تلتطف فشكر اللجنة باسم الحكومة اللبنانية على اهتمامها بتكريم نابغة لبناني من نوابغ الأمة العربية ، ووعده بقبول رعاية المهرجان .

« وقد بسط الوفد لمعالي الوزير منهاج اللجنة لتكريم الشدياق ، ومنه : إعادة طبع بعض مؤلفاته ، واختيار مختارات منها ، ثم إقامة تمثال له ، وترميم ضريحه في الحازمية ، وجعل مدة المهرجان اسبوعاً كاملاً يشترك فيه المتمشرون ، ووفود الأقطار العربية ، وشعراؤها وكتابها ، وربما يفتتح المهرجان ويكون يومه الأول في بلدة الحدث ووطن الشدياق .

« ولم يفسح معالي الوزير في المجال للوفد لكي يطلب معونة الحكومة لتحقيق مهمة اللجنة ، بل أعلن لزاثيريه ، حالاً ، انه سيخصص مبلغاً من المال تسمح به حالة موازنة المعارف يكون فاتحة الاكتاب الذي ستجريه اللجنة لتحقيق منهاجها . ووعده بأن تشترك مدرسة الصنائع والفنون مع أحد مهندسي الحكومة ، لترميم الضريح ، فخرج الوفد من زيارته شاكرًا مثنيًا .

« أما اللجنة فسائرة في عملها بهمة ونشاط . وهي تجتمع كل يوم اثنين ، مساءً ، في مكتب رئيسها الفاضل لتقرير شغل الاسبوع .

« أخذ الله بيدها وكافأها على عنايتها بتكريم عبقرى كان مفخرة للبنان وللعرب وللشرق . »

ثم راحت وزارة أبو شهلا وجاءت بعدها وزارة أبي اللع ، ثم

سقطت هذه وجاءت وزارة ثابت، ولكن الوزارات لم تكن تحمل وتربط،
فمشت القضية على قدم وساق الى الاضمحلال ...

لم تبرّ الحكومة بشيء من وعدها ، والسبب « طبخاتنا » السياسية ،
فالقدر دائماً على النار ، والحكي أفضل من الميت ... فكل ما ملكت ايمان
الحكومة أرصد للمعركة الانتخابية الشهيرة ، وما يوم حليلة بسر ...

وهكذا ارتخت همة لجنة الشدياق ، إذ علم الأعضاء الكرام والرئيس
الهام انهم ينفخون في رماد ، ولكن الاستاذ بيهم لم ينقطع أمله ، فظل
يعالج هذا المسلول حتى ورد إليّ كتاب الدكتور فيليب الأخير ، فإذا
بالرجل رجع عن غيه ... وأبى دفع المئة جنيه وسبحان الهادي ...

وللحكاية تنمة لا بد منها :

كلفنا أحدنا ، الدكتور قسطنطين زريق ، أن يكتب بلسان اللجنة
للادي شدياق ، حفيذة أحمد في انكلترا ، فبخلت حتى بالجواب ، وبقي
الاستاذ بيهم وحده يهيمه أن « يختم القصة » ولو بمهرجان ...

وعلى هذا يوافقنا الكثيرون ، وخصوصاً الحكومة ، لتصدر
وتتبجح . ولكن من أين الفلوس لتنفقها على تكريم الذين يريدون أن
يتصدروا الحلقة ، مجاناً ، من رؤساء ووزراء ؟

انهم يريدون منا « الباج » دائماً ، فكأنتنا نعظمهم هم لا الشدياق .

يا ليت شعري ماذا يفيد المهرجان ، ونحن لا نستطيع أن نركز
بلاطة تدل الناس على المقبور هناك ؟ .. فلولا الرجل العامل ميشال

الباحوط مدير الأشغال العامة لظل ضريح أحمد فارس الشدياق في ذلك
المستنقع من حوله الشريط الشائك لصون البطاطا والباذنجان وما يقتضي
لها من غذاء ...

ولا تنسَ أن ضريح الشدياق لم ينقل حباً وكرامة ، بل لأن تقويم
خط طريق الشام قضى بذلك . وهكذا استراح شدياقنا من زيارة « ذوي
الحاجات » الكبيرة والصغيرة ...

وأخيراً اتنا « بمزيد الأسف » نعزّي أخانا الجليل الاستاذ بيهم ،
ونعزّي أنفسنا أيضاً عن خيبتنا في مشروع الشدياق ، « إلا المهرجان » ،
فهم ينتظرونه بصبر عظيم لأن بضاعتنا حكي والمهرجان بعضها .

أما وقد استرحنا من الخزي بفضل الفن الهندسي والباحوط ،
وأمحى العار الذي كان يستولي علينا ساعة نمر بقبر الشدياق ، فلا بأس
ان تركنا التمثال للنزيرة ، فلعلها تكون خيراً منا . فلجنة تمثال بودلير
نامت زهاء ربع قرن .

كان ينقص الشدياق قبر مكرم . أما وقد انتقل اليه ، فالحمد لله
والشكر للباحوط الذي جبر خاطرنا .

قد أحسن الفن الى الفنان ، فليمن الفارياق مستريحاً .

وبعد ، فما المقصد من المهرجان ؟ أالسمع صاحبنا شعر المناسبات ؟

حسبنا أن تقرأ نقده لهذا الشعر حتى نكره كل مهرجان على هذا

النمط .

اننا نرضي الشدياق ونكرمه ونستفيد ان قرأنا كتبه ودرسناها
واحدأً واحداً . ان عدداً كهذا يصدره « المكشوف »^(١) ، وينفق صاحبه
من كيسه ما ينفق لإحياء ذكرى هذا النابغة هو عندي خير من ألف
مهرجان .

لم يشأ الشيخ فؤاد حبيش أن تذهب ذكرى الشدياق مع الدوي ،
فأصدر عدداً ممتازاً من جريدته المكشوف تخليداً لهذه الذكرى ، فمحا
الخلف إساءة السلف .

شرد الشدياق بطرك حبيشي وكان ذلك التشريد جزيلاً الخير ،
وأحيا ذكره شيخ حبيشي ، فناب عن رجال الدولة الغارقين في حزيتهم
الى الآذان ، فلا يقيمون للآدب ورجاله أقلّ وزن ، فأسمى الآدب عندهم
أخذ جراية ونيل وظيفة ...

حاشية : بلسان الفقيد الغالي أشكر الذين واسونا وعزّونا ، وقام
الله من كل مكروه ، فلا فجعوا بأمانيتهم مثلنا ...

(١) اقرأ هذا المقال بالحرف الواحد في جريدة المكشوف ، العدد الخاص
بالشدياق الصادر بتاريخ ١٧ تشرين الأول ١٩٣٨ ، رقم ١٧٠ ص ٥ ، ولا تظن
أننا نطمع في الظهور ، فقلنا لم يتعود ذلك .

تفكير وتذكير

هذا يوم الشدياق يمر عليه عام ، والامة التي تريد أن تصير أمة لا تتحرك . الأفواه مكومة والأكياس مصرورة . كل الأبواب مسدودة سداً هرمسياً ، فما رأينا لفاضل صورة وجه ، ولم يقل لنا أحد : أين أنتم .
مر يوم الشدياق ، والامة في شخير ونخير ، عاملها مهموم يطارد الرغبة والرغيف هارب من الدرب ، وغنيها غارق في الليالي البيضاء والأعياد البرشاء ، وفقيرها يقطع أيامه السوداء من منحوس الى أنحس ، وموظفها ينظر الى السراي نظرة موسى الى العليقى ، والقلب يدق مئة وأربعين .

اليوم يوم الشدياق وما زلنا نلعب بأكر السياسة الصغرى ، يقامر بعضنا بعضاً على من يأخذ أمننا ويصير عمنا ...

الجنازة حامية والميت لا يستاهل هذه المناحة . الزعماء يطلسمون للعوام ، والعوام يجهلون نوابغهم الذين كسروا قيودهم وقطعوا الزناجير . فكيف تكون أمة اذا لم تكرم المحررين ؟ ومتى كانت أمة بلا نوابغ !!

مر يوم الشدياق ولم يزر أحد منا نزيل الحازمية في ذكرى الخمسين ،
ولم توضع زهرة ذابلة على ضريح صقر الغازي ، ولولا قضاء الفن وقدره
لظل في تلك الحفرة القدره ...

لقد أنشأ صقر قريش سلطنة عربية في الأندلس فصقر لبنان هذا
شيد مملكة أدبية عربية في الشرق والغرب هي أعلى من الممالك التي تبنى
على الاسل ، فأعاد للغة جمالها وبعث المؤودة من لحدها .

في مثل هذا اليوم سنة ١٨٨٧ احتضر النسر في اسطمبول ونام على
رجاء القيامة في لبنان ، أفلا تستطيع أمة بأسرها أن تنشر هذا المقبور .
مضى الصقر ملتفتاً صوب وكره ، ولكن لبنان أبا النسر لم يشهد مصرع
واحد منهم ليعلم كيف تموت نسوره النازحة .

كل أحد تتجمع الالوف منا للمراهنة على خيول السبق ، وكل عام
يزدحمون للمخاطرة على الجواد الذي يفوز بجائزة (الرئيس اده) . ومرة
واحدة لم تقدر أن نجتمعهم لنحيي ذكرى جوادنا الأصيل وعبثاً ، سعينا
لدى الرئيس لساوي بين الأدباء والخيول فلم نفلح ... ان الشدياق هو
الجواد الذي كانت الكرة الأرضية ميدانه ، كان الأسبق في مالطة ومصر
وباريس ولندن وتونس والآستانة . أجل لم نجتمع يوماً واحداً لنمشي في
موكب من كان وحده موكباً ، يهابه سلطان بني عثمان ويتواضع له عزيز
مصر ، ويحسب له حساباً باي تونس ، وتشغل كلمته بال بريطانيا العظمى .
لم نجتمع يوماً واحداً لتذكر جهاد (فارسنا) في ساحات العظامم ونقول
له بعد واحد وخمسين عاماً : عافاك يا بطل .

تنفق الدول الملايين لتعظم جنديها المجهول ونحن لا تنفق قرشاً
لنكرم فارسنا المعلوم ، الفارس الذي فتح حصون العقول برمح من
قصب ، وترس من ورق ، لم يفلتها حتى استولى على الأمد ، ولكن من
يسمع الطرش ؟

يا اورشليم ، يا اورشليم ، يا قاتلة الأنبياء ، كل أمجادك باطلة ، ولا
ميراث لك إلا نبوغ بنيك المتردين . كل ما فيك ضئيل إلا دولتك الأدبية
التي ناغت التاريخ صيباً ، ودرّبتة فتياً ، وروّضته عصياً ، فهل من
يعطف على هذه الدولة البائسة ؟ نحن مساكين (دولياً) عظماء (فكرياً)
فأين من يرفع السد من وجه النهر العجاج .

قلت مرة ، وأعيد القول اليوم : سئل أمير الجبل الأسود ما حاصلات
بلادك ، فأجاب منتفخاً : الأميرات ، والرئيس الأستاذ اده يخطب الناس
في فرنسا ويقول : انه ابن الذين اخترعوا الأيجدية ... يجيب بحق حين
يسأل : حاصلات دولتي النوابغ .

ولكن نوابغنا ويا للأسف يمشون وحدهم . أجل هذا ما تفعله النسور
أما الزراير فتطير أفواجاً وباشق واحد يشردها ...

ان موكب الشدياق يسير بلا طبل ولا زمر . مات الأدب في بيته
يوم مات ، فانقطع الحبل بينه وبين الطبالين والزمارين . والويل في هذا
البلد لمن يموت بلا عقب مذكور ، فإنه يضمحل ولو كان نبياً .

فيا ليت شعري اهكذا ينسى (إمام) صلت خلفه الملايين في مسجد
الأدب الحي ؟ اهكذا يهمل نابغة شيخه ابداعه على أدباء جيله ، وان رجلا

يجدد يوم كان التقليد يسوق الناس بعصاه ليستحق منكم يوماً يا أهل لبنان
وإلا فلا تذكروا القلم في نشيدكم ...

وأنتم يا أبناء الأقطار العربية ، هلا تذكرون شيخاً كان منزله بيت
العرب في الاستانة ، إن في المحفوظ من رسائله شواهد ان رفعت صوتها
أخجلت الذين يتبجحون بأمارتهم على الغوغاء ... وترأسهم على الدهماء
أفئسى الفضل ونقول : نحن العرب نرعى الذمم .

كان الشدياق ذا رئاستين، فإذا عملنا لثنى سد مسد الجموع . فالشدياق
السياسي أبو الصحافة العربية كان نصير العرب يوم كان اسمهم حصراً
يفت في عين الدولة ، وجوائبه تشهد له ، وتاريخ الدبس يؤيدني فاقراً
فيه كلام يوسف بك كرم .

كثيرون من أعيان هذا الجبل (الأشم) استمدوا نفوذهم من قصر
الشدياق في الاستانة ، وأكثر منهم اولئك الذين التجأوا اليه من كل قطر
فسد خلتهم وسودهم فإين من يذكر المعروف ويحفظ اليد .

والشدياق الأديب أحيا اللغة نصف قرن ، فكان المعلم الكامل ، ثم
غور تجديده في الذرية ، وانبثق ينابيع صافية جعلت صحراءنا غوطة .

قال الله لنوح : فتش فإن رأيت في هذه الأمة رجلاً صالحاً عفوت
عنها . اننا نكتب لعل الله ينجينا من الطوفان ...

اما واننا لم نجده فإلى الشدياق نقول : اعذرنا يا كريم ، فالتماثيل لا
ترفع تماثيل .

عدد المكشوف الخاص

الشدياق يبعث

تحت هذا العنوان كتبت جريدة « صوت الأحرار » بتاريخ ٨ آذار
١٩٣٨ :

« منذ خمسين سنة جيء بجثمان الفقيه العلامة أحمد فارس الشدياق من
اسطمبول إلى مسقط رأسه الحدث ، حيث دفن في مقبرة العائلة ، ثم نقل
إلى مقبرة خاصة في الحازمية بجوار مدافن المتصرفين .

« وحدث أخيراً انه بينما كان العمال يحفرون ، لأن الحكومة عدلت
طريق « عالية » رغبة في اختصار المسافة ، وتجنب الأكواع الخطرة ،
عثروا على نعش من الرصاص ، ففتحوه ، فإذا به يضم جثمان أحمد فارس
الشدياق .

« الجثمان على حاله ، وليشد ما كانت دهشة العمال عندما وجدوا الجثمان
لا يزال على حاله ، كان العلامة الشدياق ميت منذ يومين فقط . فلحيته

باقية ، وحاجباه باقيان أيضاً ، ولم يطرأ على شعره وعلى وجهه اي تبدل
او تغير .

« وليس هذا فقط ، بل ان الكفن الذي لفّ به ، وهو من الحرير
المعروف « بالتفتا » لا يزال على حاله ايضاً ، كما ان ختم دائرة الصحة في
اسطمبول ما برح موجوداً على التابوت .

« ولوحظ ان خشب التابوت في الداخل أصبح بالياً دون ان يؤثر
ذلك على الجثمان .

« الاحتفاظ بالجثمان ، وقد نقل التابوت إلى المدفن الجديد ، بعد ان
أقبل الناس في ضواحي الحازمية على المدفن للتفرج على جثمان مضي على
دفنه خمسون عاماً دون ان تتمكن هذه المدة الطويلة من إعادته إلى أصله ،
اي إلى التراب الذي خلق منه .

« فهل اتصل هذا النبا بالحكومة ، وهل فكرت في الاحتفاظ بالجثمان
لانه أثر تاريخي وأدبي خطير ؟ انتهى .

وشاع عند العوام ان الشدياق قدّيس لان جسده لم يبلى . فخطر لي
ان أكتب كلمة حول الموضوع ، فتخيلت انني أخطب الناس على قبر
الشدياق يوم يوييله ، فكتبت :

هيه يا أبا العباس ، يا عجيبة الدهر ، زدنا من غرائبك كما طلعت من
ظلمتك آية لهذا الجيل .

هيه يا أبا العباس ، لئن نام يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث
ليال ، فقد نمت في بطن الارض خمسين عاماً وظهرت بلحمك وعظمك ،

وان لم تكلمنا حواراً فقد حدثتنا اعتباراً .

هيه يا أبا العباس ، أيؤاجر فيك سلطان بني عثمان ، ويدفنك الفعلة
في لبنان ؟

أتحملك الغوغاء بعدما واكبك الوزراء والامراء ، وأنت على رمية
حجر من مدينة العلم والثقافة ؟ ان الزمان يمشي القهقري .

لقد أبعدك الباحوط عن جيرة الفجل واليقطين ، وعنبر السرقين...
وعطر المكارين ... ولم يهدم « كوعاً » إلا لبني قمة تاريخية ، فله الشكر .
يا معلم الجليل ، وأستاذ القرن ، من لنا بواحد يتم ما به ابتدأت ،
ويكشف ما كشفت من أسرار لغة العرب ؟

من يترك لنا كالفاريات آية العقل العربي ، يضعها في كفة ميزان
الأدب العالمي ، فيفتدينا كما افتديت جيلك ؟

ان مآثر آية الدماغ البشري ، فهبتنا شيئاً من قريحتك تمّ به ما
شيدته إلا بضعة مداميك . لقد كنت كلمة في فم الزمان ، فأوتيت ما لم
يؤت الخليل ، وأذركت ما لم يدرك الحريري وسيبويه .

لقد كنت جاحظاً آخر ، أودعت الطبيعة في هيكلك الصغير معاني
لم تجتمع لألف رجل جسيم ، كامل العقل والذكاء .

اذا فاخر الغرب باعترافات نوابغه حملنا « فارياتك » بيد لا ترتجف ،
وعين مفتوحة . لقد بحث اولئك أنفسهم في كتبهم ، أما أنت فرأيت
الدنيا كلها في نفسك . تناولها قلمك الساحر فرأيناها حية تسعى . فله

أدبك الحي ما أسماء ! قد حققت قول السلف : ان الانسان هو العالم الصغير .

اسمح لي أن أتلو على قبرك الفاتحة بالنيابة عن شخصك الغائب ، واذا كنت لا تزال تحن الى الألحان السريانية ومدارجها « وميامرها » فأنا أحسن ذلك ، إنما بصوت يذكر الآية الكريمة ...

اسمح لي أن أؤينك بالنيابة عن العرب فهم في شغل ، وعن لبنان ، فهو في غمرة لا تنجلي ... طبخات حصى يعلل بها الشعب : رويداً يا بنيّ ينضج الطعام ... ولكن لاُعمّر ...

لقد أحببتك يا شيخي العظيم، ووددتك مودة غير يقطينية ، فقل لي كيف تجدك في العالم الثاني ؟

أأنت ناعم البال في مخدعك الجديد ، وهل انتهى عذاب القبر بسلام، وهل سمع منكر ونكير بعض نكاتك الطريفة ؟

أعاتبك يسوع ؟ ألامك مار مارون ؟ وكيف كانت وقفتك بين رضوان ومار بطرس صاحب المفاتيح ؟

ليتك تكتب فاريافاً آخر عن الدنيا الاخرى ، يا أبا العباس !

أكلُ يشدّ صوب صدره في السماء ؟ وهل هناك معاهدات فيها المادة السادسة المكررة ، أم التعميم مشاع للناس كما كانت الأرض منذ البدء ؟

— حنانيك يا مارون ، فقد فلتقتني وقتلت الناس ، فما لك وما

وما لي يا صاحبي^(١) .

سمعت خفق المعاول فوق رأسي فحسبتها القارعة ، وان ستلتف
الساق بالساق والى ربك المساق ، ولكنتي لم أخف فقد ثقلت موازيني .
تسالني ماذا رأيت عندكم بعد خمسين عاماً ؟

اقول اتنا كنا خيراً منكم . كنا أحزاباً سياسية تتنازع الحكم ، لا
يقودنا القسيس ولا يسوقنا الامام .

لقد بكيت عليكم ورثيت لشعب تسوقه الطائفية بعصاها ، وتقوده
الى كلاً مستوبل .

قل للجماعة لا ينشغل بهم بقداستي ، فليس في اللحم والعظم بقوى .
قد عادت الروح الى مصيفها ، والجسم الى مشتاه ...

خبروني انكم ستحتفلون بذكرائي ، فلا شكر على الواجب ، ولكن
هيات ما تُعيدون ...

سائلوا عن أقاربي ، فإن وجدتموهم فيلغوم سلامي . كم وددت ان
أراهم قبل الالتفاف بالظلمة ثاني مرة ، ولكنهم أبطأوا ... ولن يغير الله
ما يقوم ...

وأخيراً ، لكي يصدر « العدد » لاتقاً بصاحبه ، رأينا ان نزور
الشدياق ، يوم ذكراه ، لنرى كيف حاله في بيته الجديد ، فنهضنا لهذه
الزيارة .

(١) ستقرأ ما كتب حول الشدياق وبوييه في كتاب عنوانه « جدد
وقدماء » لأن هذا الكتاب لا يتسع صدره لذلك .

كفّ الشيخ فؤاد حبيش يده عن أوراقه ، وقلبه يشتهيها . قرص
اذن التلفون وأخذ يستعرض أرقاماً توهمنا انها تفكّ لنا طلسم الأستاذ
بيهم ، ولكننا لم ندركه لننوب وإياه عن الوطن الغافي ... ذكرنا فضل
الأستاذ وجهاده في سبيل تكريم الشدياق . اما المادة السادسة المكررة فما
خطرت على البال .

ثم طرحنا الصوت ، تلفونياً طبعاً ، فيروت غير أبرشيتنا عين كفاع
فلبى المصور انطوان دقوني نداء صاحب المكشوف ، وبعد بضع دقائق
كنا في الحازمية ، بانتيون لبنان ، عند باب ضريح أحمد فارس نحاول
فتحه ولا تقدر .

ظننا صاحب الاذن جواسيس سياسيين ، فقابلنا بشنقة المهر ، وتزئير
علينا ما شاء ، وأبى ان يكون الفتح المبين إلا بأمر من له الأمر . فوجهنا
السائق إلى الباحوط ، فغاب ثم آب يجعل المرسوم . فزنا القبر بالتيابة عن
الأمة الكريمة زيارة رسمية ، إنما بلا زفازفات بخارية ، ولا أعلام خفاقة ،
فالحقوق محفوظة ...

وهكذا أدينا لأديبنا العظيم حقه ، بعد ان احرنجم الناس عن تكريمه .
وأفضل من أفضلهم صخرة لا تخدع الناس ولا تكذب
كانت هذه الزيارة جامعة مانعة ، وافية الكم والكيف ، كما يعبر المنطقة .
ناب الشيخ فؤاد حبيش عن الأعيان ، ومن كفؤاد حبيش الذي افتخر
الفرزدق بجده ، واعتز بخؤولته على جرير قائلاً :

يا ابن المراغة ، أين خالك ؟ اني خالي «حبيش» ذو الفعال الأفضل
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم واليه كلت حياء جفنة ينقل

أرأيت ما أعظم جدّ فؤاد ؟

أنت أحوجتنا ان نعاير السطول ، فلا تشك فيّ اذن ، ولا تحوجني
ان أفتح جرابي وأقول لك من انا . انا نبت عن العوام ، وهذا لبنانك
كله . وان قلت أين رجال الدين ، أجبتك : اذا كنت منهم ، ووقفني
الروح القدس في نصف الطريق ليريحك من شري ...

وقد تقول : وأين رجال الحكومة ؟

وانا أقول : الصحافة هي السلطة الرابعة ، فاعلم إن كنت جاهلاً .
ولكن لماذا تحتج الآن بما لا بد منه فيما بعد ، الشيخ فؤاد ومارون (حاف)
كنا موظفين ولم نفلح ...

أتريد صحافة ومعاهد علمية ؟

الشيخ صاحب المكشوف ، والمكشوف دار تصدر صحفاً لا صحيفة
وهي - اي المكشوف - جريدة سياسية وأدبية في وقت واحد .
وان لم تخن الذاكرة فجناب الشيخ ، أيده الله ، ومتع الأدب بطول
بقاه ، من أعضاء نقابة الصحافة ...

اما المعاهد العلمية ، كبيرها وصغيرها لأناثها وذكورها ، فانا أمثلها ،
وأمثل ايضاً « أبناء الأرملة » بكل جدارة واستحقاق ، غير الاستحقاق
اللبناني .

فقل اذن يا أخي مع أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في اثنين

اي انا وفؤاد حبيش، وما عليك لو انكسر البيت، شرط ان تسكت
ولا تلاحك .

اذن كانت الزيارة متممة . والشدياق لا ينقصه شيء ، فهو راض كل
كل الرضى عن بيته الجديد ، التنظيف الشريف ، الحسن الموقع ، العنبري
الهواء ، الكوثرى الماء . يطل من شباكه على السكة ، ويتمتع من شميم
عرار نجد ، قبل العشية وما بعدها ، برغم أنف الشاعر ...
لقد بات على كتف سكة الشرق والغرب ، وما عليه إلا ان يكتب
اسمه على باب داره بحرف ثخين ليعرف الأصحاب بيته .
لقد اشتبهنا المكث الطويل على صفته ، وتمنينا لو نسمع نغمات
طنبوره الشبيهة الشجية ، ونشرب القهوة لا المدام على ذكر الحبيب ...
قل سبحان من يغير ولا يتغير . فبعدها كنا نسد أنوفنا ان عبرنا
بذلك المكان ، صرنا نأذن للنسيم يفعل ما يشاء .
حقاً ان السيد ميشال الباحوط مدير الأشغال العامة المحترم - الحديث
رسمي مرة فقط ، وبعده نذ يصير ميشال كغيره - حقاً ان هذا الرجل قد
أحسن إلى الأمة والفن ، ودولة الأدب اللبنانية ، في وقت معاً .
فما أعظم القدر حين يسخر الرجال لأفضل الأعمال ، وما أجزل
عطاياه حين يسخو على رجل مهذب كـميشال الباحوط ! فرجل يبيض
وجه الأمة ، ورجل يصيره كالزفت .
لقد حق لنا اليوم ان نقول في الشدياق ما يقوله النصراني في التعليم
المسيحي : وأنزلوه من على الصليب ووضعوه في قبر جديد .
وما أنزل الباحوط الشدياق ، بل نشله من تلك الوهدة السائبة ونجاه
من تلك الروائح الظربانية . فجمم « الصقر » على القمة اعلاناً مشرفاً

لنبوغ لبنان . فهنيئاً لشدياقنا مقره الجديد ، فليست تروح عليه الابل
والشاء ، كما خاف ابو نواس على « درته » ، حاشاها . ليقبع فيه كالصياد
في داموسه ، فهو قادر بعد اليوم ان يستروح النساء من مسافة عشرة
أميال ...

ليس السامع كالرائي . فزري يا أخي ذلك المكان تقدر احسان مدير
الأشغال العامة ، فقد أصاب طريديتين برمية واحدة : قوم الطريق
الأعوج كمنجل عزرائيل ، ووضع سراج لبنان على منارة بعد ان كان تحت
مكيال لا يرى الداخلون نوره ...

وكان اعجاب الشيخ فؤاد بضريح الشدياق عظيماً . وأردنا ان تكون
لنا صورة تاريخية فتبركنا بمس تلبوت عهد لبنان ، غير خائفين ان نصعق
وقلنا للدقوني هات ما عندك . فصورنا عند الباب خاشعين ، وفوق القبر
مطمئنين . وان رأيت في يدي قلماً فليس لأعرفك اني غير أمي ، بل
لاني كنت أنقل لجنابك ما كتب على الأسطوانة التي تراني أناطحها ،
وهذا هو :

وردت من الرحمن بالعبو منهلاً	وقد فزت في إحسانه بالنفائس
وأودعت في هذا الضريح وغوره	وقد كنت في دنياي صدر المجالس
وفي سائر الأقطار جابت جوائي	بنشر أشم الطيب شم المعاطس
وجاوزت في الدنيا ثمانين حجة	بها كنت أجني العلم زاكي المغارس
لذاك أرى بالعلم حياً إذا غدا	أخو الجهل ميتاً رسمه شرّ دارس
لأنني به قد عشت أجني فنونه	بأفنان آداب زهت كالمرائس
ومولاي في دار الخلافة قد قضى	عليّ فقابلت القضا غير عابس

وجئت لأوطان ترابي غدا بها وما أنا من ورد النعم بآيس
لان هدى مولاي للرشد أرخوا أهل بدار الخلد أحمد فارس
ولد سنة ١٢١٩ ، وتوفي في ٢ محرم سنة ١٣٠٥ .

ثم عدنا من هذه الزيارة عودة ذلك الشاعر من منى . وصحت العزيمة
على إخراج « مكشوف » خاص بالشدياق ، حافل بالرسوم الطريفة ،
والوثائق العديدة بخط المرحوم ، وقد اقتسمنا خطبتينا بيننا ، فكانت
كما قال الشاعر :

منك السميد ، ومنى النار أضرمها والماء منى ، ومنك السمن والعسل
الكاف تعود إلى الشيخ ، والياء تعود إلي . وكل يتفق مما عنده .
وأخيراً لا بد من ختم هذا الكتاب بكلمة قلناها في فصل آخر نخاطب
الشدياق : اعذرنا يا كريم ، فالتأثيل لا تقيم تأثيل .

القسم الثاني

أَبُو الْعَلَاءِ الْمُعَرِّي
زَوْبِقَةُ الدَّهْرِ

ولو طارَ جريدٌ بقيةَ عمرِهِ
من الدهرِ، ما استطاعَ الخروجَ من الدهرِ
المعري

المفضلة العائلية

كيف كنت افهم المعري

١

يفتتح داعي دعاة التوحيد ، شيخ المعرة ، « ألفية » فلسفته ، بل كتاب المذهب : « لزوم ما لا يلزم » بقوله :
تُكْرَمُ أَوْصَالُ الْفَتَى بَعْدَ مَوْتِهِ وَهَنْ إِذَا طَالَ الزَّمَانُ هَبَاءً
فَخَفْتُ أَنْ يَزْعَجَهُ هَذَا الْإِكْرَامُ بَعْدَ الْفِ سَنَةٍ . وَكَأَنِّي بِهِ قَدْ نَظَرَ
إِلَيْهِ بَعَيْنَ الْغَيْبِ ، فَقَالَ :

وَأَكْرَمَنِي عَلَى عَيْبِي رَجَالٌ كَمَا رُوِيَ الْقَرِيضُ عَلَى الزَّحَافِ
وقفت حيران لا أدري ماذا أقول في هذا العرس ، فمن عادة البشر
تعظيم العريس ، مهما يكن شأنه ، فكيف بنا وعريسنا اليوم أعزب
الدهر كشيخنا أبي العلاء ، الذي يُكَالُ لَهُ الثَّنَاءُ بِالْمَدِّ ، وَيُقَاسُ بِالْأَمِيَانِ
والفراسخ ؟

إن شيخنا المعظم يحب المهجو ، ويسيء الظن ، وينهى عن المدح ،
حتى قال لنا :

فَلَا تَمْدِحَانِي ، بَيْنَ الثَّنَاءِ فَأَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَهْجَوَانِي

والعجيب الغريب أن يكذب الناس جميعهم : نبيهم ورسولهم ،
أديبهم وشاعرهم ، خواصهم وعوامهم . ابغضهم وجافاهم فتهافتوا على
سراج ينوس في مهب عواصف الدهر ، فجزاهم على ابتسام بابتسام ، حتى
إذا ما انصرفوا من تلك الحضرة المتألهة ، تقمص ربها روح ذاك
الصعلوك القائل : « ولي دونكم اهلون سيد عمّس » ... فقال
فيهم مثله :

والوحش في الفلوات أجمل عشرة للمرء من أهليه في الأمصار
وأوغل في مفاوز إساءة الظن فقال أيضاً :

أعدى عدو لابن آدم خيلته ولد يكون خروجه من ظهره
ثم رماه بالجهل المطبق واقصى الغباوة فقال :

لو قال سيد غضا بعثت بمله من عند ربي ، قال بعضهم : نعم
إذا نظرنا الى « الظاهر » أيقنا أن الشيخ الامام غضبان ، حردان
على الدنيا وبنيتها ، فالقى قنابل محشوة غازات وسموماً على مدينة المثل
العليا فاصابت الجميع :

قد ترامت الى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الأديان
أنا أعمى ، فكيف اهدى الى المنهج والناس كلهم عميان

قرأت في هذه الأشهر كل ما أملاه الإمام واخرجته المطابع ، وتبعت
آثاره في هوى « لزومياته » ، وتسلفت قمم « رسائله » متمسكاً النور من
« سقط زنده » و « ضوء سقطه » لعلي ادرك بعض « غاياته » ، وأشهد

تمثيل « فصوله » ، فكنت كمن يستنير بالحباحب . رأيتني في يهائم تكذب
فيها العين والاذن .

رأيت ، باديء ذي بدء ، رجلاً يقودني الى حيث لا يدري ولا
أدري ، فلم أجد أكفاً من كلمة ذلك الوزير الذي زاره فقال له : ما هذا
الذي يرويهِ الناس عنك ؟ فأجابهُ : قوم حسدوني فكذبوا علي . فسأله
الوزير : وعلى مَ حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟ فأجاب
المعري : والآخرة ...

وأطرق منطوياً على نفسه ، بل على سره الذي كان من كتمانهِ في جهد
جهيد .

أجل ، رأيتني باتباعي شيخ المعرة أصبحت لا دنيا ولا دين ولا
آخرة ، وهذا عجيب .

يدعو الرجل الى تطليق الدنيا ولا يرتجى غيرها ، فكيف يكون هذا؟
ما رأيت فلسفة بلا غاية الا فلسفة المعري . فقام في ذهني ، إذ ذاك ،
أن الرجل ساخط ، متبرم ، متشائم ، يهجو الأنام ، لا أكثر ولا أقل .
لا يرى الجمال فيفتنه سحره ، ويلطف مرارة عيشه . فاتبع « العقل » ،
والعقل يهدي ولكنه هادٍ زميت ، جاف العشرة .

ظننت ان الأكسير الذي يحلي مرارة العيش ليس في متناول يد
المعري . أخفق في طلب الدنيا لأنه غير مستطيع ، فانطوى على نفسه في
عقر بيته واستدار يفتح فحيحاً راعباً .

اتزوى كالحلده يقرض جنود التعاليم ليبيس ما غرسه السلف ، وصب

على الدنيا وبنيتها زيت سخطه المغلي ، فشواها بنساره وكبريته . كنت
أظن أن نسك أبي العلاء لا يراد منه الثواب ، ولكنه فعل ما فعله ديوجين
حين داس كبرياء أرسطو بكبرياء أكبر منها ...

يخيب بعضنا في الحياة ، فيهرع الى الدير . فإن كان رجلاً خطب ود
مريم وحل هذا الزواج الصوفي محل الزواج الآخر ، وتسامى صاحبه الى
المثل الأعلى ، فخدم البشرية خدمات جلى . وإن كان أنثى ، كانت
عريستها يسوع القائل : « من لا يترك من أجلي أباً أو أخاً أو امأ فهو لا
يستحقني » . فحباً بالعريس المرجى تقف حول سرير المريض ، وتحنو
على اللقيط ، وتعطف على اليتيم .

أما نسك شيخنا - رحمت الله عليه - فيسفر في ظاهره عن سخط
اشبه بالقذف . فهو يذم الأمهات والأخوات بارداً النعوت والألقاب .
يخاف عليهن حتى من اقرب الناس . ما قصر عن الخطيئة في شيء ، بل
ما خلته إلا مثله حين قرأت قوله :

بدء السعادة إن لم تخلق امرأة فهل تود جمدى أنها رجب
ولم تتب لاختيار كان منتجياً لكنك العود إذ يلحى وينتجب
وما احتجبت عن الأقوام من نسك وإنما أنت للنكراء محتجب

فهل تدل هذه الأبيات على شيء ؟ استغفر الله . اني ، علم الله ،
حسن الظن بالشيخ . ولكن ألا يحق لي أن أشك فيه كما شك هو لعلمي
أنه بعض الأنام ؟ ..

ولكن لا ، إنني أثق به ، إنه لصادق السريرة والعلائية . غير إنني

اسمح لوجداني أن يعتقد أن أبا العلاء فجع بالأنثى التي تعلقها قلبه ، وما هجا الدنيا ذاك المهجور المرّ إلا لأجل تلك التي لم ترع لهذا الضرير عهداً . وقد تكون هي التي حملته على الهجرة إلى العراق على قلة استطاعته .
يشير الشيخ على الناس بشيء ، ولكن اشارته تبعث على اليأس .
ويا ليته يأس مريح . انه يأس يستوي فيه الأعمى والبصير كقوله :
والخير أفضل ما اعتقدت فلا تكن

ههنا ، وصل بقبلة أو زمزم .”

كنت أحسب هذا نظرفاً من الشيخ - والشيخ كان ظريفاً في شبابه ولكن ظرفه تحول فيما بعد - فقلت اذ ذاك : « كم من متدين هو أسمى عقلاً منا ، فكيف يقرب هذا عن بصير كالمعري ؟ فإذا بي أرى الشيخ مدركا هذا ، يقر به ويقول في رسالة الغفران : وقد تجد الرجل حاذقاً في الصناعة ، بليفاً في النظر والحجة ، فإذا رجع الى الدنيا ألفي كأنه غير مقتاد ، وإنما يتبع ما اعتاد ، (ص ٢٥٥) .

لست بالمبشر في هذا المقال ، ولكني قرأت اللزوميات لأرى ما يدعو اليه أبو العلاء ، فلم أقع - اولا - على شيء ، فعدت من قراءتها وقراءة كل آثاره ، كما عاد صاحبنا من العراق راضياً من الغنيمة بالاياب .
رأيت رجلاً يهجو الدنيا ويذر بها كالمسيح ، ولكنه لا يترجى ملكوتاً

(١) إتنا لا نستغرب هذا القول من رجل قال :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتمدت ويهود حارت والمجوس مفضلله
إتنان أهل الأرهى : فوعقل بلا دين ، وآخر دّين لا عقل له

ولا نعيماً . فاذا نعمل نحن الذين لا نصلي ولا نشكر الا طمعاً بالثواب ؟
وأين هي الغاية نسعى لها ؟ بل أين هي الفلسفة التي يجب أن نُقرَّ له بها
ونضعه لأجلها بين حكاء الأجيال ؟

فنفضت يدي من صاحبي وقلت : لا هذا ولا ذلك . ما هناك الا
أعزب الدهر مقيم في غرفة سوداء ، يناجي الأشباح والأرواح . شفتان
ترتجفان وتتمتان ، يستعرض جبهة الأزل وساحات الأبد . يفكر دائماً
بالمعضلة السرمديّة ، ويصوب نحوها نبراس عقله ، فيهرب الظلام ولا
يكشف له النور عن شيء ، فيلتجئ الى ما طبع عليه ، أي السخر
والهزاء ، فيضحك من موكب الحياة الصاحب ، لأنه لا يقدر أن يماشيه ،
فيرى جميع الناس صماً عمياً بكماً :

أفضل من أفضلهم صخرةٌ لا تخدع الناس ولا تكذبُ

فقلت : تلك نتيجة مركب النقص ، كما يزعم علماء هذا الزمان .
عجز أبو العلاء ، فرأى جميع الناس أشراراً قساء القلوب ، يفتكون
بالضعيف ويصفون له « الفروج » لأنهم استضعفوه ، فلماذا لم يصفوا
شبل الأسد ؟

غضب المعري على المستطيعين ، لأنه غير مستطيع مثلهم ، فعند
النسل جنابة .

تحدث كثيراً عن المرأة لأنه يُحبها ، وأساء الظن بها لأنه يريد لها
ويغار عليها ، وهو عاجز من جهتين ، فقعد يكره الناس بالحياة ، وفي
الحياة ناموسٌ يجذبنا إليها ، فكيف يقوى على صده ضريرٌ ، ولا سيما إنه

يقول : « أمّ دفرٍ لقد هويتك جداً ... ؛ كما ستري . إذن ، غضباً
أبو العلاء على الدنيا لأنها لم تحسن استقباله ، فهجاها انتقاماً منها ، ولكنها
أجابته بقوله :

رُبُّ لِحْدٍ قد صار لِحداً مراراً ضاحكٍ من تراحمِ الأضدادِ
أقول هذا وأشهد أني ظلمت الشيخ - قبل أن أدرك سرّه - والله
وحده يعلم إن كنت أدركت شيئاً ...

٢

لم استغرب قولَ صاحبِ يتيمةِ الدهرِ انه عرف في معرفة النعمان
شاعراً ظريفاً اسمه أحمد بن سليمان ، فصاحبنا أبو العلاء ظريف حقاً . لا
بد هنا من تصفية حساب احدي مشاكل الرجل . فقد توهم الناس حق
الخواص من الادباء - هدانا الله واياهم - أن أبا العلاء خلق متزهاً عن
الشهوات ، بريئاً مما يسميه غيرنا الضعف البشري ، لا ينقصه شيء من
الكمال في نظرهم ، حتى كادوا يجعلونه بمعزلٍ من الغرائز ، كأنه غير
مركب من لحم ودم .

إن أبا العلاء ، أيها الفضلاء ، - وهذا لا يضير عصمته التي تزعمونها
له - قد تغزّل كالشعراء ، لأنه أحبّ مثلهم - الحب لا يضر يا سادة -
وأحسّ بما أحسّ به كل مركّب من نفس وجسد وله دماغ وقلب . إنه
لم يقل عبثاً :

ايا دارها بالخيف إن مزارها قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالٌ

وقال أيضاً :

أيا جارة البيت المنعُ جارهُ غَدَوْتُ وَمَنْ لِي عِنْدَكُمْ بِمَقِيلِ
لغيري زكاةٌ مِنْ جَمالٍ فَإِنْ تَكُنْ زكاةُ جَمالٍ فَاذكُرِي ابْنَ سَبِيلِ

وأبو العلاء مدح كالشعراء، وهنأ بالزفاف وغيره مثلهم، ولم يقصر
عن أبي الطيب في غلوّه وإيغاله، حتى قال لأحد زعماء الشيعة بهنته في
عرس :

كانها سرُّ الإله النبي . عِنْدَكَ دُونَ النَّاسِ يَسْتَكْتُمُ

وليس يبالي هذه المبالغة إلا من يطمع في حطام الدنيا، فابو العلاء قد
جنى مثل غيره غلة الشعر، وذاق بواكير محصله - قبل نسكه - .
وابو العلاء رثى كالشعراء، وهجا مثلهم، ولكن هجوه لا هجر فيه .
وافتخر وادعى مثل الشعراء بل أكثر منهم . فلنشق جيداً أن المعري
إنسانٌ مثلنا، أكل وشرب وتلذذ مثل الناس، وهو لم يكذب علينا
حين قال :

تَنَسَّكَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ ضَرُورَةً وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَقُومَ الصَّوَارِخُ
فَكَيْفَ تَرَجِي أَنْ تَثَابَ وَإِنَّمَا يَرَى النَّاسُ فَضْلَ النَّسْكِ وَالْمَرْءَ شَارِخُ

ويقول أيضاً معبراً عن اختباره الواسع الدائرة :

ان الشيبية تارٌ إن أردت بها امرأ فبادره إن الدهر مطفتها
أصاب جمرني قرٌ فانتبّهت له والنار تدفىء ضيفي حين أدفتها

وهو يعترف بأخذه قسطاً وافراً من نعيم الحياة حين يقول :

خَيْرُ الْبِرَايَا وَالتَّصَلُّكَ وَالْغِنَى

وخفض الحشايا والوجيف مع السفر

ويقول عن الدنيا ورياء البشر واطهارهم الصدوف عنها :

من لم ينلها أراك زهداً ومن لعير بصليانه

ثم لا يكتفي باخبارنا عن هذا التترك ، بل يقول لماذا فعل ذلك :

ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عني خسنه

ويقول أيضاً في آخر الشوط :

غنى وتصعلك وكري وسهد فقضينا الحياة بكل فن

زمان لا ينال بنوه خيراً إذا لم يلحظوه من التمني

عرفت صروفه فآزمت منها على من ابن تجربته من

لم يتزه أبو العلاء نفسه عن كل هذا ، ومع ذلك يقوم فينا ، بعد

عشرة قرون ، من يغار عليه ، ويأبى أن يقر له بذلك ، ليرينا اياه رجلاً

حلت عليه النعمة في البطن ... ثم يتساءل : « من أين له الغنى

وخفض الحشايا ؟ ما نشك في انه قد مر بها مرور الطيف في يوم من أيامه

التي قضاها عند اخواله بجلب ، او عند اصحابه بمدينة السلام . ولعله ظن

جلوسه على الفراش الوثير وتمتعه بالطعام الشهي ساعة من نهار في دار

سابور بن ازدشير ، أو عبد السلام بن الحسين ، ابتلاء للغنى . »

عجيب وألف عجيب أمر صاحبنا هذا . ترجح دائماً كفة الغرض

حيث ينصب ميزانه ، فهو إن وزن المعري تقصر جميع أثقال الدنيا

عن أن تزنه وتعادله ، وإن وضع فيه المتني شال ولم تواز شخصيته حبة خردل .

فاما أن أبا العلاء صادق ، واما أنه غير صادق ، فإن كان صادقاً فقد أقرنا وظهرنا على ضعفه هذا - ان سميناه ضعفاً - وإن كان غير صادق ، فلماذا نصدق ما زعمه ورواه عن زهده ؟ بل لماذا لا نشك بقوله على الأقل ، ان لم نكذب به ؟ فالذي عندي هو أن أبا العلاء بلا الدنيا ، وذاق حلاوتها ، وتكلم عن اختبار واعتبار ، فلا تنزهه عما لم ينزه هو نفسه عنه ، ولنصدق معاصره الذي وصفه بالظرف . هبوه أبا حنيفة الإمام المتبوع ، فقد كان في اول عهده من عشراء حماد عجرد وجماعته . وهبوه القديس أوغسطينوس يعترف ، فما ضر اعترافه علمه ولا قداسته .

فلنسمع اعتراف أبي العلاء . قد نسك شيخنا وترمت بعدما اخفق ، او قل « تحول » ظرفه حين مشى في جادة اخرى ، وامسى حبيساً . إنه لم يولد في البصرة ، بل في معرة النعمان ، والمعرة بلد منعزل ضيق ما فيه الا قيود وتقاليد .

تذكر الشيخ قول أبي نواس : « نعم إذا فنت لذات بغداد » ، فقصدها ، ولكنه عاد خائباً من باريس العالم القديم ، لأنه غير مستطيع ، فكان من امره ما كان . اتزوى في بيته يعلم الناس كباراً وصغاراً وهزأ بالناس أجمعين ، ويضحك من مطامعهم العجيبة ، وغلواهم فيه . قال شيخنا الجليل :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

قال قوم ، ولا أدينُ بما قالوه ، إن ابن آدمَ كابنِ عرسٍ
فقام منا من يزعمُ أنه سبق داروين الى علم النشوء والارتقاء .
إنه لا يعني في ما يقول أكثر مما نعتقده ، أي أن الإنسان مخلوقٌ من
ترابٍ ولا يعني بقوله : « إن ابن آدمَ كابنِ عرسٍ » أكثر مما يظن
الفلاسفة الماديون .

وغضب أبو العلاء على البشر حين اعتقد « الخير » مذهباً فقال :
أَقْلَقْتُمُ السَّابِحَ فِي لَجَّةٍ وَرَعْتُمُ فِي الْجَوِّ ذَاتِ الْجِنَاحِ
هَذَا وَأَنْتُمْ عَرَضَةٌ لِلْقَنَاقِ فَكَيْفَ لَوْ خَلَدْتُمْ يَا وَقَاحٍ ؟
فقام أيضاً من يظنُّ أنه ممن كُشِفَتْ لَهُمْ حُجُبُ الْغَيْبِ ، وقد نظر
إلى ما سيكون ، فحدثنا عن الطائرات والغواصات . وأبو العلاء المسكين
لا يعني إلا قنصَ الطير وصيدَ السمك ...

ألزم شيخنا نفسه ما ليس يلزمها فسخطَ على المتساقطين على مائدة
الدنيا كالذباب . ولو كان عنده علمُ هذا الزمانِ لحرمَ علينا شَمَّ الهِوَاءِ
وشرب الماء ، لأنَّ فيها حياة ، ولا تمتنع عن أكل العدس لأنه يلد
الطويرات ، ورفع يده عن سلة التين لأن التين ، إذا خمَّ ، يولد بنات عم
البرغش .

ضلالة هندية اعتقدها أبو العلاء ، وأراد أن يجعل نفسه حقل اختبار
لفلسفته كما فعل تولستوي حين خرف .

هكذا ظننت قبلما عرفت رأيه في « النفس » ، وقبلما بان لي أنه
يرجو ثواباً .

اعتكف أبو العلاء على درس أبي الطيب فكانت أولى صرخاته :
« نعتت الرضا - نتي على ضاحكِ المزن ، ، وابغض الدنيا وأهلها مثله
فاختار لها أبشع الألقاب وأوخمها . وهذه الكنية النتنة التي اطلقها عليها
مأخوذة من قول معلمه أبي الطيب :

وَقَتَلَنَ دَفْرًا وَالدَّهِيمَ فَمَا تَرَى أَمَّ الدَّهِيمِ وَأُمَّ دَفْرٍ ثَاكِلٌ
ثم ذهب في ذمها مذاهب أبعد يعرفها كل من له إلمامة بالادب .

أعجب شيخ المعرة بالمتني فتناول كلياته الفلسفية وطفق يبسطها
ويعططها ، فكان في نظري مكبراً فوتوغرافياً لصور المتني ، فترك لنا
هذا الميراث الفلسفي المنظوم . فما لزوميات أبي العلاء إلا كالفية ابن
مالك . هذه تتضمن صرفاً ونحواً ، وتلك تتضمن فلسفة لها صاحبها من
هنا وهناك ، فهو لمام فلسفة لا فيلسوف . وأعرف كثيراً من معازاة
وبقارة وبغالة عندنا يقولون عن الطقوس وغيرها ما قاله أبو العلاء ،
وقد يعبر بعضهم أحياناً بسخر مثل سخره ، ولكنه لا يحسن النظم
مثله .

وضع أبو العلاء الرجاجز في آخر اللجنة تحقيراً لفنهم ، فأين كان يضع
نفسه فيها لو سألناه ذلك ؟ لا شك أنه لا يجيب بيئته المشهور :
وإني وإن كنت الأخيرَ زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائلُ
فقد افحمه ذلك الصبي ، إن صحت الرواية ... أما أنا فأراه صادقاً
في هذا البيت بالنظر الى رسالة الغفران ، فهو أروع أثر عربي ينم عن
ظرفه ويبريء تلك التسمية . فمن شاء ان يتعرف به فليطلبه هناك .

أما لزومياته فقلما تجد فيها شعراً . ولنعظمه لأجل ذلك الأثر الخالد .
قد أخفق في ما كتبه بعدها من رسائل وفصول ، ولم يدرك غايةً
من الغايات ، لأن فكرة صاحبنا واحدة ، فهو منها كطائرٍ في قفص ، أو
أو كجوادٍ طوّل له ليرعى ، فخط دائرة بمقدار ذلك الحبل .

إن رائحة أعزب الدهر لا تعجبني . فالشعر ابن الحياة ، وكل شعر
يبتعد عنها ينفر منه القلب وتشمئز النفوس . ففي شعر أبي العلاء رائحة
يأس قتال ، ومن يتبعه كان مغفلاً يقع وياه في حفرة .

قد تدخل عقلي أفكار أبي العلاء الزهدية حين أشبع ميولي ، أما
حين أنشط فأراه أخا اليوم ينعب ولا يتعب .

إني لأكره النوح والنعيب ، وأحب الفن راقصاً في كل زمان ومكان
حتى على القبور . فليتنى أودع بطبلٍ وزمر ، فأدخل ذاك الباب بين
أجواق الزامرين والراقصين ، ولا أودع وداع يأسٍ كما زعم هو ...
لست ألوم الشيخ إن قال :

ضجعة الموت رقدةٌ يستریحُ الجسمُ

فيها والعيشُ مثلُ الشهادِ

ربما كان صادقاً ، ولكن لا ، فشعره غير مصداق لقوله ، ورحم الله

استاذة أبا الطيب إذا جابه عنا :

وإذا الشيخُ قالَ أفٍ فما ملَّ حياةٌ ولكنَّ الضعفَ ملأ

لقد كان أبو الطيب يلم من كل فن بطرف ، فللغيد عنده ساعة ثم

تنقضي ، أما أبو العلاء فيريد أن يجذبنا صوبه فما مثله إلا كمن ينادي :

« ترمس أحلى من اللوز ا » .

هيه ا يا ابا النزول ، فليصدقك غيري . أما انا فليست اذوق ترمسك
ما استطعت أكل اللوز والجوز ...

إني لأعجبُ ممن يقول :

تُحطِّمنا الأيامُ حتى كأننا زجاجٌ ولكن لا يعادُ له سبكُ

ثم يدعو الناس الى ترك أطايب الدنيا .

إن الفلسفة العلائية ترى كل ما على الارض ضلالاً وباطلاً، ثم لا ترجو
معاداً ، أليس هذا منتهى العجب ؟

انطقته بمزاعمه غريزته المؤودة ، فجسمه مقبرة عواطف ترجو
الحياة ، فولد تساميه تشاؤماً وياساً ، بل صاحت هامته : « اسقوني »
فقدم لها زاده الفلسفي المعفن .

شبع سليمان من لذائذ دنياه وأطايبها فقال لنا بعد ان مسح فمه :
« باطل الاباطيل وكل شيء باطل » . ولكن هذا قالها ولم يذق من حلاوة
دنياه غير التين ، كما زعموا .

لا تصدق ذلك ، فابو العلاء عرف جميع ملاذ الدنيا ، وذاق ضروب
حلاوتها كلها الا الخمرة .

- ٣ -

إن أعجبُ فأعجب من أعميين هما الضدان اللذان لا يجتمعان : أبو
معاذ ، أكمه البصرة ، الشره ، القرير إلى الأحمرين ، الخمر واللحم ،

وأبو العلاء ، ضريح المعرة وهو بحق صائم الدهر :
أنا صائمٌ طولَ الحياةِ وإنما فطري الحمامُ ويومذاك أعيدُ
أنا واثقٌ أن شيخنا ، قدس الله سره ، ما عيدٌ قط ، لا على لحمٍ ولا
على بيضٍ ... اللهم بعدما نسك . أما كيف يفطر وكيف يعيد أبو العلاء
إذ يموت ، فهذا يأتيك خبره في حينه ، فلا تستعجل الأمور قبل أوانها
فتعاقب بحرمانها .

إن أبا العلاء ربيب المتنبى في خطوط فلسفته الكبرى ، وهو أخو
الجاحظ في هزته المتلبس بالجد ، وسخريته المتعالية حتى على الخواص .
ليس أبو العلاء شاعر الفلاسفة ولا فيلسوف الشعراء ، فقد أبدته فلسفته
عن الشعر . ولا يصح أن نعدّه ، في لزومياته ، شاعراً ، إلا إذا جاز لنا
أن نحصى ابن مالك في الشعراء . ليست لزوميات شيخنا ديوان شعر ،
ولكنها كتاب جمع فيه مؤلفه أصول « مذهبه » وبسطها بسطاً معمى
تقية وإيثاراً للعافية . أما نبهنا إلى ذلك بقوله :

أوجز الدهرُ في المقالِ إلى أن جعلَ الصمتَ غايةَ الإيجازِ
لا تقيّدُ عليّ لفظي ، فإني مثل غيري تكلمي بالمجازِ

فمن هو هذا « الغير » يا ترى ؟

هذا ما يعني ويصنعك أيها القارىء اللبيب ، ففكر معي إلى حين
يفتح الله علينا

كان في نفس المعري حاجة ما اجتراً على مفاتحة الناس بها ، فلم يُن
بما مُني به المتنبى من قصاص وخيبة ...

أما المتنبي فأخفقَ في دعواه ولم يُخفقَ في فتنه الشعري ، والمعري
عكس الآية ، أخفق في الشعر وفاز بالتوحيد ، أعني التوحيد الذي يفهمه
هو و « الجماعة » القائلون : « الإسلام باب الايمان ، والإيمان باب
التوحيد » .

المعري رجل كلام وجدل ، مفكر حرّ حطّم سلاسل الوراثة
واغلاها ، فلم يشلّ عقله إذ واجه المُعضلات الأبدية التي لم تحلّ . القى
مشكلات عصره في قفص الاتهام وقعد يستنطق الاجيال ويقلب ما
تركت من الآثار بطناً لظهر ، ثم حبس احكامه عليها في سجون الاوزان
والقوافي . ناقش كل معضلة فمضى وكأنه لم يحلّ واحدة منها . أما
عارف سره فيدر كون بوضوح ما يعنيه صاحبهم اذ يقول :

غدوتُ مريضَ العقلِ والدينِ فالقني

لتعلمَ أنباءَ الامورِ الصحائحِ

بني زمني ، هل تعلمون سرائراً عَلمتُ ولكني بها غيرُ بائح ؟

إن المعلم من « سره » هذا في جهد جهيد ، مثله مثل امرأة ادركها

المخاض ، فهي تتوجع وتتألم ، والوضع منها بعيد .

أشعرنا ابو العلاء في مقدّمة لزومياته أنه يكتب كتاباً ، لا ينظم
ديواناً ، ولولا الاجترار والتكرار لقلت إنه أعد لكل فكرة زندانا ، اي
فصلاً . شكّ القدماء في كتبه النثرية فاتهموه بحاكة القرآن الكريم في
كتابه الفصول والغايات . وها أنا ألحظ ايضاً - وبعض الظنّ إثم - ان
كتابه الشعري ، لزوم ما لا يلزم ، مؤلف من مائة وثلاثة عشر فصلاً ،

وسور القرآن العزيز مائة وثلاث عشرة سورة ، فهل قصد ذلك يا ترى ؟
إن الشيخ ، رحمه الله ، متهم ، وهو ما كرر على فضله وتقاه . لقد
قال : « وإني وإن كنت الأخير زمانه ... » فمن ينفي عنه حسابان نفسه
« صاحب الزمان الأخير » المنتظر في دهره بفارغ الصبر ؟ وإني لأرى
رسالته « ملقى السبيل » أعلى ذرى التقليد المزعوم .

كل هذه المزاعم جائزة ، بل هي عندي تشبه اليقين . أما ظن
الفرنسيون مريدو « لامته » شيئاً من هذا بكتابتهم العظيم ، فالتفوا
حوله ؟

إن تلك الثورة العقلية الصاخبة في زمن أبي العلاء تُظنُّ بها الظنون ،
فلا تستغرب يا قارئ ما زعمت لك . وإني لأعتقد أن المعري نظم كتابه
طبقاً لترتيبه ، ولم يزج هنا وهناك إلا القليل . ومن تأمل رأى الضعف
ملوساً في آخره ، لأن الشيخ كان فيه بين جهدين : جهد العمل الجاهد ،
وجهد الثمانين .

أدرك الشيخ ، عفا الله عنه ، ما في شعره من جفاف ، فقال في ما
قدمه بين يدي لزوميانه : « وأضيف إلى ما سلف من الاعتذار أن من
سلك هذا الأسلوب ضعف ما ينطق به من النظام ، لأنه يتوخى الصادقة ،
ويطلب من الكلام البرة ، والشعر باب من ابواب الباطل ، فاذا أريد به
غير وجهه ضعف » .

لسنا نعفي شيخنا من جريرة هذا الزعم ، ونرد عليه قوله وبرهاتنا
من شعره وفيه ، فقصيدته « غير مجدٍ في ملتي » من اجود الشعر ، وفيها

الصادقة والبرّة من الكلام ، بل هي نواة فلسفته التي انبثقت منها تلك
النبعة التي لا يوازي باعلى نبتها الشجر ، كما قال الاخطل ، ومع ذلك لم
تضعف تلك القصيدة . فالشعر يضعف ويأتيه الباطل من الجهات الست
حين يصبح جدلاً كما فعل شيخنا الموقر ، او حين يصبح الفاظاً تُردّد
وتُتجترّ كما يفعل أكثر شعراء الجيل الطالع ... إن من يشغل باله النحو
والصرف في الشعر كأبي العلاء فيقول :

ستتبعه كعطفِ الفاء ليست بهلٍ او كثمّ على التراخي
لا يكون حظه من الشعر النقي الا قليلا . فتقافة ابي العلاء الفنية
مستمدة من جميع ما عرفه العرب ، وهو اعظم راوية عرفه ادبنا .
وغايته الاولى علم الكلام والجدل ومقارعة ائمة الاديان اجمع ، وفنه في اللغة
والنحو والصرف والعروض وكل ما انشأ لصون اللغة من علوم كما يرى
المفكر حين يقرأ آثاره كلها .

في شعره اللزومي ثورة تنفخ فيه حياة مبعثها روح الشاعر الشائرة
المتمردة الساخرة ، فلهج بعضه وطاب . سير الشاعر قريحته في غير
اتجاهها كما سير نفسه ففضى على الثنتين .

قد تسأل عن مشاكل النحو والصرف وغيرها التي أفسدت فنّ شيخ
المرة حتى في أروع آثاره ، « رسالة الغفران » ، فاسمع كيف يقول
واحكم أنت :

إذا غدوتُ عن الأوطان مرتحلاً
فضاه في البين حذفَ الواو من يعدُّ

ومع هذا عاد شيخنا من بغداد الى معرفته ولم يفارقها مفارقة الواو
مضارع وعد ، بل لزمها لزوماً ابدياً . وشاء النهي عن الزواج فالتجا الى
النحو والبديع فقال :

لا تَدُونُ من النساء فإنَّ غِبَّ الأري مرُّ
والباء مثل الباء تخفض للدناءة او تجرُّ

وادرك انه يخالف وصية زعيم المذهب القائل « واحدة تكفيكم »
فرجع عن غلظه . فتش فوجد في النحو معيناً فقال :

تزوج إن أردت فتاة صدق كضميرِ نعم دام على الضميرِ
والتفت نحو الدنيا ليخاطبها كعادته فوجد في إحدى القراءات
معيناً يهد له الطريق فقال :

أم دفرٍ لقد هويتك جداً اي ضبٍ تركت من غيرِ حرشِ
خففي الهمز في النواثب عني واحليني على قراءة ورشِ
ثم ورد منهل العروض فقال :

وإنك مقتضب الشعر لا يزيد بحال ولا ينقص
الدهر كالشاعر المقوي ونحن به مثل الفواصل مخفوض ومرفوع
وحدثنا عن محبته فاستجار بنعم وقال :

وما زال نعم الرأي لي أن منزلي كأني فيه مضمركن في نعم
واسمح لي ان اختم بهذا البيت من تلك البضاعة المزجاة :

وترفع اجساد ، وتُنصب مرة ، وتُخفض في هذا التراب ، وتُجزم

لم يبق إلا الشد والمد والقطع والوصل ، وفيها مجال فسيح للناظم .
إني لأعندره فيما أعنفه ، ولا أزعم إني ذكرت كل شيء . ولست بمحدثك
عما تعتمد من ضروب البديع الشنيع ، فالخط من قدر هذا النابغة لا
يخطر لي ببال . وأنا والله احترم اديه جداً . وقد زرت قبره الحقير قبل
أن دعا الريحاني الى الاحتفال بعمره الالفى . وكتبت ما كتبت عن تلك
الزيارة التي تركت في نفسي اسوأ الأثر . .

ان الشيخ الامام يدعوننا الى اتباعه في ترك الدنيا بقوله لنا :

وان شئنا أن نخلصنا من أذاتها فحطاً بها الانتقال واتباعنا

يذكرني قوله بالكلمة الانجيلية : « احمل صليبك واتبعني » ولكني
اجيب الشيخ : « ضرب الحبيب زيب » . ثم اصارحه بانتي لن اتبعه ولو
عمرت مثل متوشالحو . ان ناموس الحياة يريدنا ثقلاً لا خفافاً ، فكيف
نلقي العتاد ونهرب من المعركة؟ لو شئنا ان نعيش بعقلنا - كما يريد هو -
لوقفنا حركة الكون وصح فينا قول أبي الطيب : « ذو العقل يشقى في
في النعم بعقله » . فليتبّع أبو العلاء شيخه العقل . أما أنا فن الجهال لا
العقال . إن بعض العقل عقّال كما قال ابو الطيب ، فلننطلق .

وبالاختصار اقول: ان في أدب العميان جميعاً رائحة عفن لا تعجبني
ولا استطيعها ، ولم يخل منها حتى شعر بشار ، ذلك القطب الجنوبي
المتقد ، إن صحت تسمية المرّي قطباً شمالياً لصقيعه وجليده .

واخيراً ، أسأل ابا العلاء ان يغتفر لي وقاحتي وتطاولي على سدته
السنية ، لأنه أمرني أن أبتعد ما استطعت عن التقليد حتى في الصلاة :

في كل أمرك تقليدٌ رضيت به حتى مقالك: ربي واحد أحدُ
اني اتق برحابة صدر الشيخ ، ولكنني أخشى غضب من يؤمنون به
إيماناً اعمى ويريدون ان يتزهوه ...

إن من يقرأ ابا العلاء ويفكر بما يدعو اليه يظنه دهرياً عديمياً .
ورجل حكيم واع كابي العلاء لا يصح ان يكون بلا مذهب ، ناهيك بان
هذا مستحيل . فعمل النفس الحديث يثبت ان لا بد للإنسان من معتقد ،
بل لا بد له من التفكير في فرض حل المشكلة العظمى التي تواجهه كل
لحظة ، فما هو مذهب المعري النبي يبرر ذلك الزهد العنيف ؟
لولا هذا الفرض كان صاحبنا مجنوناً .

ولماذا يتنسك هذا النسك الأهوج من لا ينتظر حالة خيراً من التي
هو فيها ؟

لم يُعجب ابا العلاء سماع قوله تعالى حين تلاه في حضرته ذلك
المقري : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » .
اذن فما عساه يرجو وهو ذلك اللبيب اللبيب ، وعلى أي رجاء يموت ؟
إن تقل لا رجاء له كما يبدو لبعضهم من تردده وشكه ، فلماذا هذا
التقشف ؟

ألا يستطيع أن يعمل خيراً ويعيش مثل الناس ؟ فماذا يبرر هذا
الشذوذ ويعفي الرجل من البهلة فلا يكون هملاً ، كما حذرنا هو ، ولا
يترك سدى ؟

عبثاً نحاول حل مشكلة المعري على مذاهبنا المعلومة المكشوفة ، فهو

لا يدين بها ' وقد حمل عليها حملات عنيفة ' فلا نحاول تبرئته فنتمسك
بما هو أوهى من خيط العنكبوت . واني لاجل صدقه، فهو أجل وأسمى
من ان يكون ملحداً معطلاً ، كما سماه ابن الجوزي في ' تلبيس إبليس ' .
انه لم يصرح بدينه لا سراً ولا جهراً ، لا تلميحاً ولا تلويحاً ، حتى في
احرج الساعات وارذل العمر ، حين يسي الرجل إمعة ، ساعة هاجم
حصنه داعي الدعاة واراد ان يريح العالم من دينه ...

- لا تنس أنني أحدثك هنا عن فهمي الأول للمعري - كان في
استطاعته ان يقول كلمة واحدة تريحه وتغنيه عن ذلك اللف والدوران ،
ولكنه أبى أن يكون منافقاً ، ومذهبه يقوم على ' الصدق ' وإن جوز
الكذب عند الضرورة القصوى ، كما سترى .

إن لم يكن المعري يريد اشادة مذهب جديد ، فهو على الأقل ذو
مذهب . فما هو ذلك المذهب؟ هذا ما سيضطرب له الاستاذ رثيف خوري .
روي أن أبا العلاء ، حين كتب ' معجز أحمد ' ، قال : ' كان المتنبى
نظر الي بعين الغيب فقال :

أنا الذي نظرت الاعمى إلى ادبي واسمعت كلماتي من به صمم . '

وانا اقول : كاني بصديقي الأديب الكبير رثيف خوري قد دخل
مخدعي منذ شهور ، وقتش أوراقى - وفيها المحظورة قراءته والمباحة -
كاني به قد حضر إحدى الجلسات التي كنت استنطق فيها أبا العلاء
القائل :

لا تُخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وإن تفعل فانت مُغررٌ

واصمتُ فإنَّ الصمتَ يكفي أهله والنطقُ يظهرُ كامنًا ويُقرُّرُ
كانه درى بكل هذا ، فقال ما عزته اليه مجلة الاديب الغراء في عدد
ابي العلاء : اتنا في لبنان لن نترك أبا العلاء حتى نعطيه تذكرة هوية
طائفية .

هو ما تقول ، يا اخي ، ولا أشك في أنك تسلم بضرورة « الفرض »
لحل المشاكل العظمى ، وهل حل أعظم المشاكل الكونية غير الفرض ؟
ولهذا رأيت ان العضلة العلائية لا تُحمل إلا بهذه التذكرة ، فهي المفتاح
لهذا الباب الدهري المغلق .

ان للهوية ، يا رثيف ، شأنًا جليلاً في علم النفس ، فاسمح لي أن أمنح
المرتي هذه التذكرة واستسفره الى دولة الأدب ، فإن كان مرغوباً فيه
فاحفظها لديك ، وإلا فاعدها اليه وأقصيه الى الحدود ، فيعود من
حيث جاء .

حاشية - خاطبتك بيا اخي ، فلا يعز عليك ذلك . ما في ذلك غض
من فتوتك ، فالناس يعلمون أنك فتى . لا أعني ابن عشر ، بل اعني شاباً
مندفعاً كالتيار في بحر الانتاج ، وأرى في نتاجه اشياء يُكتب لها البقاء ،
واترجى ان يجتمع أشدك في الدهر العتيد كما يترجى المؤمن قيامته
بالنفس والجسد .

اللهم ، حقق لنا الامنيتين ، واهد شبابنا الحائر الى ذاته حيث يجد
الأدب الذي لا يموت ، فكثر ما تنتجه قرانهم كالزهرة المعروفة « شب
الليل » .

عَصْرُ الْأَسْرَارِ وَالْجَنَاءِ

عصر ابي العلاء

العصر الذي كان فيه ابو العلاء عصر ثائر فائر ، فبعد ان اشعلت « الفاطمية » القيروان والمغرب ، وافق دخول امامها - المعز لدين الله - مصر عام مَوْلِدِ المعري . وفي العقد الذي وُلِدَ فيه شيخُ المعرّة ودرج كانت جمعيةُ إخوانِ الصفاء تزدهر وتتموّنو الصبي (٩٧٠ - ٩٨٠) .

تأمل اي ثورات دينية واجتماعية وسياسية سبقت مولد هذا الغلام ، ورافقت حياته التي افتتحت بمحنة العمى . هبت عليها اعاصير النكبات فاطفاتها ، ولكن نورها لم ينطفئ ، وانما تغلغل في اعماق تلك النفس البائسة فاستحالت منارة عالمية تشع انواراً خالدة ولا ينفد زيت حكمتها الأزلية .

ها نحن اليوم نمشط - كما قال احد أدبائنا المعروفين في دفاعه عن أدبه - رأساً شمشونياً ، ونحمد الله على أننا لا نمشط رؤوساً قرعاء تعيي المقص والموسى ، ولا تجد أسنان المشط فيها مجالاً ...

ان الفترة العلائية كانت زبدة الحقة العربية ، وتركت في تاريخنا عصارة الفكر العربي . فما وثبت تلك الموجة البشرية من شط جزيرة

العرب حتى غدت تياراً جارفاً ألقى الى اليابسة حيتاناً روعت العالم .
انفتحت عين العربي على نور الحضارة فالقت عقله من غلال الصحراء
وقيودها ، فتفتق عن أكام سرية . استنارت بصيرته ففكر في المسألة
الخالدة المستعصية .

كان العربي ساذجاً يصدق كل ما يسمع ، لم يكن يؤمن إلا بلكوت
الرغيف ، فلا يحسب لما وراء القبر حساباً ، يعيش طبقاً للآية التي وصفته:
إنما حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر . او كما قال الشاعر
الجاهلي :

فدعني اروي هامتي في حياتها ستعلم إن متنا غداً أيننا الصدي
كانت القبيلة فوق الجميع ، وكان العربي وهاباً . فلما شعت
انوار الدين الجديد آمن سكان المدر منهم ايماناً لا يعتوره شك ،
فاندفعوا الى الفتوحات باسم الله العظيم ، فعضدهم سبحانه وتعالى ، وشد
ازرهم بملائكة غضاب ، كما قال شوقي ، فحاربوا معهم حتى غلب وزهق
الباطل .

ما انفصل العربي عن صحرائه واستقر في العمران حتى علق يفكر .
والحياة المستقرة مدعاة التفكير والتفلسف .

رأى عالماً لم يكن يتخيل له وجوداً . كان في جاهليته كالطفل الذي
يحسب ما تقع عليه عينه ، حول ضيعته ، كل الدنيا . عرف ادبانا غير دينه
الجديد المستحوذ على شعوره ، فاخذ يقابل ويقايس ويحلل ويعارض هذا
الدين بتلك المذاهب ، واستوى منه علماء فتح اذهانهم كتاب الله العزيز

الذي انزله على رسوله قرآناً عربياً .

نظروا الى اشياء غيرهم فتذكروا قوله تعالى : لكم دينكم ولي دين .
ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد ، فانبروا يجادلون اهل الكتاب ، ثم رأوا
ان ذلك لا يكفي ، ففي الميدان أهداف وأغراض لا بد من بلوغها والسعي
لادراك بعضها ، فهناك كتب الاقوام والجماعات الدينية فيها ما يوافق
الكتاب العزيز وفيها ما يعارضه ، ووقعوا على كتب أنتجها العقل
الانساني في عصوره المتقدمة ، كتب تدرس مسائل عويصة لا بد للمفكر
من التأمل في معضلاتها ليهتدي الى فك اختتامها فعكفوا عليها يتدارسونها .
ورأوا علوماً لا عهد لهم بها يذهب المتبحر فيها مذاهب شتى ، فهي تمس
يقينه حيناً وتشككه احياناً . فهناك الطب والصيدلة والكيمياء والحساب
والهندسة والهيئة والخيال والتنجيم وغيرها ، علوم كلها تنحس العقل
البشري المطمئن بمهراز الشك ، فيشرئب ويشب .

رأوا حولهم علماء يفلسفون في اديانهم ولا يقبلون الامور على علاقتها
كما تعلمهم اياها اديانهم في كتبها المنزلة ، لأن العقل يرفض الكثير منها ولا
يصدقها ، فنهجوا نهج اولئك العلماء .

حاول فريق منهم - كما في كل ملة - ان يوفق بين الحكمة والدين ،
وفريق آخر خلع نير الايمان وفكر تفكيراً حراً أدت به الى الكفر
والالحاد ، فطاح سيف الامام برؤوس كثيرة ليرد الأمة الى حظيرة
الاستسلام ، ولكن الدم لا يوقف تيار العقائد ولا يصدده ، فهو كالقصاد
يخفف الضغط ولكنه يعود .

كانت الثقافات المختلفة في تفاعل مستمر، تخلق كل يوم جسماً جديداً، فهناك ثقافة نصرانية سلاحها المنطق، ورجالها معروفون، فلسنا هنا تواريخهم ولا تترجم لهم، وثقافة يهودية ولأخبارها يد طولى في الشرح والتفسير والتأويل والاستنباط، ولهم تلمودهم، فغذوا الأذهان بأساطيرهم وحكاياتهم، فكان للمسلمين مثلها فيما بعد، وكما انتظر اليهود مجيء المسيح ولا يزالون، وكما يترقب النصارى المؤمنون المسيح الدجال، ثم المسيح الفادي ليقتله عند أبواب اورشليم المقدسة، تولدت في أذهان الخاصة والكافة من المسلمين حكاية المهدي الإمام المنتظر الذي وصفه ابن عربي فيما بعد بقوله :

« ان الله خليفة يخرج وقد امتلأت الارض جوراً وظلماً فيملأها قسطاً وعدلاً . لو لم يبق في الدنيا الا يوم واحد طول الله ذلك اليوم حتى يلي هذا الخليفة من عترة الرسول يواطىء اسمه اسم رسول الله ... وهو اجلى الجبهة ، اقنى الانف » ، الى آخر الاسطورة كما وردت في كتاب الفتوحات المكية .

وهناك الثقافة الفارسية وفيها كما في التوراة حكاية الخلق وما يليها من مبادئ وجدانية ، مبادئ يواجه بعضها بعضاً ، ويشبه بعضها بعضاً فتنبري الشكوك وتدلم ظلمات الظنون . وهناك المجوسية والزرادشتية والمانوية والمزدكية . وهناك ثقافة هندية قديمة الاجيال استمدت منها الاديان الجديدة بعض العناصر الغذائية . وهناك آراء ومذاهب لا نستطيع تفصيلها حتى ولا عدها ، فنحن لا نعد لقارئنا سمياً بل ما يقرب

من السندويش .

ونظر العرب الى الكتاب العزيز فرأوا غمائم الشك تنتشر في الاجواء حتى بلغت القحمة بزعم المعتزلة - النظام - ان ينكر الاعجاز ويقول : ان القرآن معجز بالنسبة الى عصره ، ولكن من الممكن ان يتوصل البشر الى تأليف مثله . فهال هذا القول العلماء المؤمنين ، فانبروا للدفاع والتأويل والتفسير ، وظهرت المذاهب الاربعة والسنة والشيعة ، ثم تناسلت البدع والطرق فلات الارض ، فكانت المعتزلة والرافضة والقدرية والجبورية والخوارج والمرجئة والمعطلة .

ومن الشيعة التي هي اعظم ثورة فكرية في الاسلام ظهرت الزيدية والكيسانية والامامية والموسوية والاسماعيلية والفاطمية والسيثية والباطنية والمشبهة والحلولية والقرمطية والصوفية ، ومن كل فرقة اشتقت عشرات الفرق وهكذا دواليك الى ما لا آخر له .

وظل تفاعل هذه المبادئ مستمراً حتى قام الاشعري محلها ، فكون منها مذهباً عرف باسمه وأحبه كثيرون واتبعوه .

اما الصوفية فظهر فيها أئمة لا يحصيهم العد ، وكلهم يحاولون التوفيق بين الدين والقلب . وذهبوا مذاهب غريبة ، فتعددت عندهم الطرق التي يزعم اصحابها انها تؤدي بهم الى الله ذاته لا الى ملكوته . كل واحد يزعم انه يقول الحق ، و « الله اعلم » كانت تقض اخيراً مشاكل الجميع .

في هذه الحقبة الثائرة المضطربة وبعدها وجد ابو العلاء . جاء وجميع هذه الآراء في طور النضج ، ولكنها لم تؤت ثمراً يؤكل ولا يرتكز عليه

عقل ذلك الفتى ، فحاول ان يخلق منها جميعاً شيئاً واحداً بعينه .

وكانت ثورات اجتماعية تغذيها فكر دينية ، فهناك القرامطة يغزون الشعوب المسلمة الآمنة ، ويهتكون المحارم باسم دعوتهم ، وهناك الفاطميون يدعون هؤلاء القرامطة الى الثوبان الى الحق والاخلاد الى السكينة ميينين لهم صدق الفاطمية ، وبطلان قرمطيتهم ، كما يتضح مما كتبه المعز الى زعيم القرامطة الحسن الأعصم يقول :

« فما من ناطق نطق ، ولا نبي بعث ، ولا وصي ظهر الا وقد اشار الينا ولوح بنا ودل علينا في كتابه وخطابه ، ومنار اعلامه ومرموز كلامه فيما هو موجود غير معدوم ، وظاهر وباطن يعلمه من سمع النداء ، وشاهد ورأى من الملاء الاعلى . فمن اغفل منكم او نسي ، او ضل او غوى ، فلينظر في الكتب الاولى والصحف المنزلة ، وليتأمل في القرآن وما فيه من البيان ، وليسأل اهل الذكر ان كان لا يعلم ، فقد امر الله عز وجل بالسؤال فقال : فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون .

« ومع هذا فما من جزيرة في الارض ولا اقليم الا ولنا فيه حجج و « دعاة » يدعون الينا ، ويدلون علينا ، وياخذون تبعتنا ، ويذكرون « رجعتنا » وينشرون علمنا ، وينفرون بأسنا ، ويبشرون بيامننا بتصاريف اللغات واختلاف الالسن ... فيا ايها الناكث الحانث ، ما الذي ارداك وصدك ؟ شيء شككت فيه ام استربت به ، ام كنت خلياً من « الحكمة » وخارجاً عن « الكلمة » ... حتى انقلبت على الادبار ، وتحملت الاوزار ، لتقيم « دعوة » قد درست ودولة قد طمست . انك

لمن الغاوين وانك لفي ضلال مبين .

وكانت الاقاليم والامصار تتذبذب بين تلك الدعوات تتحدث عنها -
كما تتحدث نحن اليوم عن شؤوننا العظمى وحوادث دهرنا الجلى ، عن
البلشفية والنازية والفاشية ، وعن ظهور المسحاء فقلما خلت برهة من
معتوهين يدعون انهم ذاك المنتظر - وكان الناس عامتهم وخاصتهم
للفاطمي المنتظر بالمرصاد . ينتظرونه ويروون عنه الغرائب ، كما يرقب
الفلكيون مذنب هالي الذي تحدث عنه ابو تمام ، فيخافونه ويخافون منه
على كرتهم الارضية ويخوفون الناس به ، والارض ما زالت ارضاً ،
وعقول بنيها هي هي .

وفي ليلة من ليالي ذلك الدهر العابس المضطرب كان فريق من اهل
المعرة في دار قاضيهم عبد الله بن سليمان - والد ابي العلاء - يتذاكرون
اخبار الحوادث وماجرباتها في دولة القاهرة الجديدة ، يتحدثون عن عظمة
الملك الفاطمي في عهد المعز لدين الله ، وكيف نما هذا الملك وزها في عهد
العزیز بالله ، وكيف حور الفاطميون وبدلوا حتى في الأذان ، فقالوا
«حي على خير العمل» بدلا من «حي على الفلاح» . ثم جرى حديث
«المهدي» ذلك الامام المنتظر : «فلا بد في آخر الزمان من ظهور رجل
من اهل البيت يؤيد الدين ، ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولي
على الممالك الاسلامية ، ويسمى بالمهدي . ويكون خروج الدجال وما بعده
من اشراط الساعة الثابتة في الصحيح على اثره ، وان عيسى ينزل من بعده
فيقتل الدجال او ينزل معه فيساعده على قتله ، ويأتى بالمهدي في صلاته .»

(مقدمة ابن خلدون ص ٣١١) .

فتذكروا عند هذا الحديث فقرة من كتاب المعز لدين الله الفاطمي
الفتاح الى الزعيم القرمطي الثائر عليه الانف الذكر . فانحرف مولانا
القاضي الى صندوقه كانت الى يمينه فاخرج منها كراساً ودفعه الى احدهم
فقرأ ما فيه على « الجماعة » ، وما نحن نورد منه ايضاً هنا ما يعني
بجئنا هذا :

« فان اعتبر معتبر ، وقام وتدبر ما في الارض وما في الاقطار والآثار
ومما في النفس من الصور المختلفة ، والاعضاء المؤتلفات ، والآيات
والعلامات والاتفاقات ، والاختراعات والاجناس والانواع ، ومما في
كون الابداع من الصور البشرية ، والآثار العلوية ، وما يشهد به حروف
المعجم ، والحساب المقوم ، وما جمعته الفرائض والسنن ، ومما جمعته
السنون من فصل وشهر ويوم ، وتصنيف القرآن من تحزيبه ، واسباعه ،
ومعانيه ، وارباعه ، وموضع الشرائع المتقدمة ، والسنن المحكمة ، وما
جمعته كلمة الاخلاص في تقاطيعها وحروفها وفصولها ، وما في الارض
من اقليم وجزيرة وبر وبحر وسهل وحقل وطول وعرض وفوق وتحت ،
الى ما اتفق في جميع الحروف من اسماء المدبرات السبعة والايام السبعة
النطقاء ، والاوصياء والخلفاء ، وما صدرت به الشرائع من فرض وسنة
وحدود ، وما في الحساب من آحاد وافراد وازواج واعداد ، تتاليثه
وترايبه ، واثننا عشرينه وتسايبعه ، وابواب العشرات والمئين والالوف ،
وكيف تجتمع وتشمل على ما اجتمع عليه ، وما تقدم من شاهد عدل ،

وقول صدق ، وحكمة حكيم ، وترتيب عليم ... وليعلم من الناس من كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ، أنا كلمات الله الازليات ، واسماؤه التامات ، وانواره الشعشعانيات ، واعلامه النيرات ، ومصايحه البيئات ، وبدايعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، واقداره النافذات ، لا يخرج منا امر ، ولا يخلو منا عصر ، وإنما لكما يقول سبحانه وتعالى : ما يكون نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم .

« فاستشعروا النظر ، فقد تقر في الناقور ، وفار التنور ، واتى النذير بين يدي عذاب شديد ، فمن شاء فلينظر ، ومن شاء فليتدبر ، وما على الرسول الا البلاغ المبين ... وكتبنا هذا من فسطاط مصر ، وقد جئناها على قدر مقدور ، ووقت مذکور ، فلا ترفع قدماً ، ولا نضع قدماً الا بعلم موضوع ، وحكم مجموع ، واجل معلوم ، وامر قد سبق ، وقضاء قد تحقق . »

فلما بلغ القارىء هذا الكلام كبر السامعون وقال قاضيهم الجليل : حقاً ان امر سادتنا الفاطميين يدعو الى التفكير والتأمل والتذكر ، فما نصرهم الا من الله . فأمن الشيوخ الآخرون على كلامه .

وكان الفتى - ابو العلاء - يسمع هذه الاحاديث وما يجول فيها من مناقشات ومذاكرات . ومذاكرات الرجال لقاح الالباب . كان الفتى يفكر اكثر من اولئك الشيوخ . كان يقبع في زاوية من

مجلس ابيه يسمع ويعي ، ويظل في بحر ان مستمر ، وينتظر تلك الساعات التي يعمر فيها المجلس ، ويكثر فيها الجدل حول المذاهب المنتشرة انتشاراً ذريعاً ، فتشعل عقله في وحدته ، وتستبد بذهنه حتى تصبح منه كالفكرة الثابتة . إنه وجد في زمن سداه ولحمته الجدل ، وخير كلمة تصف لنا ذلك العصر الحافل بالآراء المتضاربة هي التي كتبها الذهبي في حوادث سنة ٩٨٢ ، اي حين كان ابو العلاء ابن تيسع او عشر ، قال : « في هذا الزمان كانت الاهواء والبدع فاشية بمثل بغداد ومصر من الرفض والاعتزال . فآنا لله وآنا اليه راجعون . »

وقال غيره : « سمعت ابا محمد بن ابي زيد الفقيه يسأل ابا عمر بن سعدى عند وصوله من بلاد المشرق الى القيروان ، فقال : هل حضرت مجالس اهل الكلام ؟ قال : نعم ، مرتين ولم اعد اليها . قال : ولماذا؟ فقال : اما اول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرق من السنة والشيعه والكفار واليهود والنصارى والدهرية والمجوس ، ولكل فرقة رئيس يتكلم ويجادل عن مذهبه . فاذا جاء رئيس قاموا له كلهم على اقدامهم حتى يجلس . فاذا تكاملوا قال قائل من الكفار : قد اجتمعتم للمناظرة ، فلا يحتج احد بكتابه ولا بنبيّه ، فانتا لا تصدق ذلك ولا تعتدّ به ، واننا نتناظر بالعقل والقياس . فيقولون : نعم . ولما سمعت ذلك لم اعد . »

« ثم قيل لي : هذا مجلس آخر للكلام . فذهبت اليه ، فوجدتهم على مثل سيرة اصحابهم ، فقطعت مجالس اهل الكلام . »

في هذا العصر وجد الفتى ابو العلاء ، وكان بيت ابيه صورة مصغرة

عن تلك المجالس ، وان لم تبلغ ما بلغته تلك المجالس التي حدثناك عنها ، فكان الفتى يسمع تلك المشاحنات صغيراً ، وكان يلتفت سمعه شيخ من شيوخ مجلس ابيه حر التفكير اكثر من نظرائه ، يدس كلامه دساً ، ثم يتعوذ بالله متبرئاً من ذلك الكلام وقائله . فكان ابو العلاء يرتاح الى كلامه ويتمنى لو يتاح له ان ينفرد به ساعة عندما يكون والده جالساً للمظالم ، ليساله عن قضايا تملاً دماغه . ولكن الأعمى غير مستطيع ، فليصبر اذن حتى يؤذن الله بذلك ...

وسأل الفتى احدهم عن ذلك الشيخ فاجابه انه عابر في البلد يختلف اليه بين آونة واخرى ، فتاوه وسكت .

وسمع الفتى الحديث الذي رووه عن « الامام المنتظر » ، وفكر في ذاته لعله يكون هو ذاك الامام . فاخذ يقلب كلامهم على جميع وجوهه ، فوجد ان اسمه يواطىء تماماً اسم رسول الله ، فهو احمد بن عبد الله . وضرب يده الى ارنبة انفه فما رأى انفه اقنى ، وأمر يده على جبهته فما وجدها كما وصفوا جبهة الامام ، فقال في نفسه : قاتل الله الجدرى ، فلو كان مستطيعاً للبس قناعاً كما فعل المتمهدي الكذاب .. وهناك عائق اعظم خطراً من كل هذا ، فهو تنوخي من قضاة ، وقضاة من قحطان . اذن فلينبذ الفكرة وإن كان لا بد من شيء فليكن غير هذا . فعدي عن هذه الفكرة وان قال : « واني وان كنت الاخير زمانه ... »

بيد ان هذا الإمام المنتظر قد اعجبه جداً ، وترجى ان يظهر ويظهر الارض التي يرى ما فيها من فساد . فمال الى حيث يرتجى ان

يبرزغ الامام المهدي ، واخذ يغذي شعره الصياني بتلك الفكرة ، ففات
المتني في الغلو والايغال . وارتحل بعدما فجع بموت ابيه ، الى انطاكية
واللاذقية يطلب علم ما وراء الطبيعة ، فعاد منها وحكايات النصارى
والمجوس واليهود والمسلمين تتفاعل في عقله ، فكان له منها عنصر
جديد ، فقال :

في اللادقية ضجةٌ ما بين أحمدَ والمسيحِ
قسُ يُعالجُ دلبةً والشيخُ من حنقٍ يصيحُ
كلُّ يصححُ دينه يا ليتَ شعري ما الصحيحُ ؟

ثم استحال هذا الجسم الكياهووي الجديد جسماً آخر ما زلنا حائرين
في تحليله وردّه الى مواده الاولى .

انه يعصي علينا ، وإذا استجاب لنا من جهة ، حيرنا من جهات
أخرى كما تحير هو قبلنا ، فقال :

والذي حارت البرية فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جمادٍ
أجل ، إن أبا العلاء هو ذلك الرأس المحير الذي نشطه اليوم ،
فيخرج النور من تحت أسنان المشط ، فنوقد بين الشعر نار الجباحب .
كان ابو العلاء ينصرف الى الشطرنج واللهو في خانات المعرة ليريح
باله من شكوكه ، ولكن فكرته لا تفارقه ، فهو حائر بين هذه المذاهب
جميعها ، فهل من حل لهذه المعضلة ؟

وفيا كان يفكر ، ذات يوم ، في الاحداث السياسية ، وما يروى
من الاخبار والآراء العجيبة الغربية المتضادة عن « الفاطمي » - الحاكم

بأمر الله - الذي ولى الحكم صبياً تحت كنف الاوصياء ، ثم اشتد ساعده فاستبد بهم وبه ، ودانت لهيبته اعظم الرجال في دولته ، وخرت لها جبايرتها ساجدة . كان يفكر عصر النهار في تلك العضلات المستعصية على الحل ، فذهل عن العشاء ، ولكن خادمه نبهه الى ذلك فتعشى وعاد الى تفكيره .

وفيا هو كذلك اذا يبابه يُقرع ، ففتح ودخل شيخ ومعه شيخ آخر يسأل أبا العلاء خلوةً به . فعرفه ابو العلاء من صوته بعد سنين ، وذكر انه الشيخ الذي كان يلفت سمعه في مجلس ابيه . فصرف الضرير خادمه ليخلو له المكان بزائريه الكريمين .

وبدت على وجه أبي العلاء المتجهّم امارات الاستثناس ، وكانت جلسة طويلة تلتها جلسات اطول ، واليك خبرها :

دعوة أبي العلاء

٢

كانت تشغل بال أبي العلاء أخبار المعز لدين الله الفاطمي الذي دانت له مصر على يد قائده جوهر . وكان دوي تلك الكلمة التي سمعها المعري من ابيه عن هؤلاء الفاطميين لا يزال في اذنيه ، فهو دائم التفكير بها . وزاده هياماً بهم ما رواه احد المحدثين عن المعز ، انه دعا عدة من شيوخ كتامة في يوم بارد فأروه في مجلس مفروش باللبود وحواله كساء وعليه جبة ، وحواله ابواب مفتحة تفضي الى خزائن كتب ، وبين يديه دواة واوراق ، فقال : « يا اخواتنا ، اصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لام الامراء ، وإنما الآن بحيث تسمع كلامي : أترى اخواتنا يظنون اننا في مثل هذا اليوم ناكل ونشرب ونتقلب في المثلث والديباج والحريير والفتك والسمور والمسك والخمر والقباء كما يفعل ارباب الدنيا ؟ ثم رأيت ان انفذ اليكم فاحضركم لتشهدوا خالي اذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ، واني لا أفضلكم في احوالكم الا بما لا بد لي منه من دنياكم وبما خصني الله به من امامتكم ، واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب ، أجيب عنها بخطي ، واني لا اشتغل بشيء من

ملاذ الدنيا إلا بما يصون ارواحكم ، ويعمر بلادكم ويُذلّ اعداءكم ،
ويجمع اضدادكم ، فافعلوا ، يا شيوخ ، مثل ما أفعله ، ولا تُظهروا
التكبر فينزع الله النعمة عنكم ، وينقلها الى غيركم ، وتحننوا على من
وراءكم ممن لا يصل اليّ كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل ، ويكثر
الخير ، وينتشر العدل وأقبلوا بعدها على نساتكم والزموا « الواحدة »
التي تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن ، فينغص
عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتتهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ،
وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ، ونحن محتاجون
الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا انكم إذا لزمتم ما امرتكم
به ، رجوت ان يقرب الله بكم علينا أمر المشرق كما قرب امر المغرب
بكم . انهضوا رحمكم الله ونصركم . »

كان ابو العلاء في ذلك المساء يفكر بهذا الكلام الذي رأى فيه دستوراً
جديداً لم يسمع بمثله عن حياة الملوك في كل عصر ، فتمنى الاتصال بمثل
هؤلاء الأئمة والقادة الذين ينهجون للناس نهجاً جديداً قوياً ، فهاجت
قريحته فقال :

ملّ المقام فكم أعاشر أمةً أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحتها وهم أجراؤها

وسمع من الكثيرين عن الحاكم بامر الله وتعففه عن مال الرعية ،
والزهد في المال عموماً ، وقابل في نفسه بين الحاكم وبين الذين حكموا
ويحكمون « العواصم » ، فازداد تعلقاً بهذه الدولة الفتية التي استنها

هذه السلالة العريضة .

وبلغه خبر مرسوم الحاكم الذي يمنع فيه النساء من مغادرة دورهن والخروج الى الطرقات بالليل والنهار ، ولم يستثن من ذلك سوى النساء المتظلمات للشرع والخارجات الى الحج ، او المسافرات اللواتي تضطرهن ظروف قاهرة الى السفر والاماء اللاتي يرسم البيع ، والقابلات ، وغاسلات الموتى ، والارامل اللاتي يبعن الغزل ، وأن يكون خروج هؤلاء لمزاولة شؤونهن برقع خاصة ترفع الى القصر ، وتصدر بها «تصاريح» يقوم بتنفيذها مدير الشرطة . ومنع النساء من دخول الحمامات العامة ، ومنع الاساكفة من عمل اخفاهن . وامر الباعة ان يحملوا السلع والاطعمة ، وكل ما يباع في الاسواق الى الدروب ويبيعهوه من النساء في منازلهن ، وان يحمل الباعة اداة كالمغرفة لها ساعد طويل يمد الى المرأة وهي وراء الباب ، وفيه ما تشتريه ، فتتناوله وتضع مكانه الثمن ، ولا يسمح لها ان تبدو من وراء الباب .

وبلغ المعري ايضا خبر تحريم الحاكم النيذ وغيره من الخمر ، حتى منع بيع الزبيب والعسل الا ثلاثة ارطال فما دونها ، او لمن لا تتجه اليه مظنة اتخاذه مسكراً . وكانت عقوبات المخالفين تختلف بين التشهير والجلد واحيانا الاعدام .

وازداد اعجابه به اذ سمع عنه انه عندما حرم النيذ وامر باتلاف الكروم والزبيب والعسل ، تقدم الى قاضي القضاة شحص اتلفت بضاعته من الزبيب والعسل ، وادعى على الحاكم بانه اتلف ماله الحلال بغير حق ،

وانه لم يحرز الزبيب والعسل لصنع الخمر وانما لصنع الحلاوة فقط ،
وطالب الحاكم بان يعوض له ما اتلف من ماله وقيمته الف دينار ، فقبل
الحاكم الخصومة ، وطلب ان يحلف على صدق دعواه ، وانه انما احرز هذه
البضاعة لصنع الحلاوة فقط ، فحلف التاجر وحكم له بماله ، وادى له
الحاكم ما طلب .

فتهلل وجه ابي العلاء لهذا النبا ، وعرف ان في الدنيا نورا جديداً ،
كما قال والده منذ اعوام ، ولا بد لنوي الصلاح في هذه الارض من
مناصرته ليظل يهدي الناس .

ثم تذكر ما يتحدث الناس به عن زهد الحاكم وتقشفه وتواضعه ،
واحتقاره الرسوم والانقاب الضخمة ، وكيف استعاض عن الثياب
البيضاء بثياب سود ، فكان يرتدي جبة من الصوف الاسود العادي ، وقد
يرتدي جبة مرقعة من سائر الالوان ، وكيف كان يرتفع عن
مفاسد هذا المجتمع ، وعن غرائزه هو وشهواته النفسية الوضيعة ، حتى
أضرب عن جميع الملاذ الحسية والنفسية ، فأطلق نساءه وجواريه ،
ومنهن من غرقهن . واقتصر في طعامه على ايسر ما تقتضيه الحياة من
القوت المتواضع . وبالاختصار جذبته شخصية الحاكم بأمر الله الفذة ،
ورأى فيه رجلاً تقياً ، فأثره وباعه في ضميره ، ولا سيما اذ علم انه ينظر
الى الأديان كلها نظرة واحدة .

كل هذه الشؤون كانت تشغل عقل المعري حين دخل عليه الشيخان ،
كما تقدم . وبعد التحية والسلام قال له الشيخ الذي لا عهد له بصوته :

- بلغني أن الشيخ ، أيده الله ، من رجال الكلام ، وليس يقبل
الامور على علائها ، وأن عينه الثاقبة تخترق حجب « الظاهر » ، لتبلغ
« الباطن » وتستجلي غوامضه ، وتقف على اسراره .

فاجابه المعري : ليت لي عيناً تبصر فأرى من يحدثني ، فأقرأ على
الوجوه ما قد تخفيه الصدور ، ولا ينم عنه اللسان . العمى مصيبة ، يا
شيخي الاجل ، ولو اقلعت عن ذكره عندي لرحمتني ، ان ذكره
يوذيني ويؤلمني .

فقال الداعي : عفواً ايها المختار ، لا يعز عليك ذلك ، فانها محنة
تذهب وحالة تتبدل .

فردد المعري في نفسه : محنة تذهب ، حالة تتبدل ؟ كلام غريب .
قال هذا وسكت ، ولم يستفسر عن شيء ، ولكنه ظل يلوكها في
فكره ولا يستسيغها . فقال الداعية : سمعنا لك شعراً قلته في ابي ابراهيم
موسى بن اسحق :

وعلى الدهر من دماء الشهداء

علي ونجلي شاهدان

يا ابن مستعرض الصفوف بيذر

ومبيد الجموع من غطفان

أحد « الخمسة » الذين هم إلا
والشخص التي خلقن ضياء
قبل ان تُخلق السموات او
غراض في كل منطق والمعاني
قبل خلق المريخ والميزان
تؤمر افلاكهن بالدوران

يا أبا إبراهيم قصرَ عنك الشعرُ لما وصفتَ بالقرآنِ
أشرب العالمون حَبَّكَ طبعاً فهو فرضٌ في سائرِ الأديانِ
بانَ للمسلمينَ منكَ اعتقادُ ظفروا مِنه بالهدى والبيانِ

وقد سمعنا بيتَ آخرَ قلتَه لأحدِ رجالِ هذه العترة الطاهرة فزادنا
لك استحساناً زادك اللهُ عرفاناً ، قلت :

كانها سرُّ الآله النبي عندك دونَ الناسِ يستكتمُ

فجئناك لا لتزيدك اتصالاً بنا ، فانت منا جئناك ، بل أمرنا
« مولانا » ان تأتيك ونُلقي اليك بأسرارِ دعوتنا التي رأيناك ، بالطبع ،
مدعوّاً اليها . قد جرت عادةُ الله وسنته في عباده عندَ شرع من نصبه
ان يأخذ العهدَ على من يرشده ، ولذلك قال : « وإذا أخذنا من التبيينِ
ميثاقهم ، ومنك ومن نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ابنِ مريم ، وأخذنا
منهم ميثاقاً غليظاً . » ومن امثالِ هذا ، فقد اخبر اللهُ تعالى انه لم يملك
حقّه الا لمن أخذَ عهده ، فاعطينا صفقةَ يمينك ، وعاهدنا بالموكّد من ايمانك
وعقودك على ان لا تفشي لنا سراً ، ولا تظاهر علينا احداً ، ولا تطلب
لنا غيلةً ، ولا تكتننا نصحاً ، ولا توالي لنا عدواً .

وكان المعري يسمع وقمه مفتوح نصف فتحة ، يريد أن يُكشَف له
هذا السر ، ولا يريد أن يحلف قبلها يعلم . ورأى الداعية تردده فقال له :
اعطينا جعلاً من مالك نجعله مقدمةً أمامَ كشفنا لك الامور وتعريفك
اياها .

فادخل ابو العلاء ، وهو لا يدري ما يفعل ، يده في جيبه ، فوضع
يده عليها ذلك الشيخ الذي سمع صوته منذ سنين وقال له : قد عرفتك

صبياً ، عندما دعوت اباك ، فلا تُخرج شيئاً . مثلك لا تؤخذ منه
« النجوى » .

فانتفض المعري وقال : وما النجوى ؟

فأجابه شيخه : رسمٌ اختياري يؤديه المؤمنون .

فصاح المعري : اما كفانا ايماً لنا العتيق حتى تزيد حملنا اثقالاً عنيفة ؟

فقال الداعي : يراد بكلمة المؤمنين هنا من يعتقدون معتقدنا

ويناصرون دعوتنا ، فلندع هذه المجادلات العرضية ، وتهياً لأخطر منها
واجلاً شأناً .

وتتحنح الشيخُ الداعي ، واحكم جلسته ، وقال بصوت فخم : اعلم ،

يا احمد بن عبد الله ، يا أخانا الذي انتدبنا « مولانا » للاتصال به ، والبوح

له بجميع اسرار دعوتنا معتمدين على نبله وشرفه ، اعلم ، أيها المستجيب ،

أن الناس قلّدوا سفلتهم ، واطاعوا سادتهم وكبراءهم ، أتباعاً للملوك

وطلباً للدنيا التي هي في ايدي متبعي الائم واجناد الظلمة ، واعوان الفسقة

الذين يحبون العاجلة ويجتهدون في طلب الرئاسة على الضعفاء ومكابدة

رسول الله ، صَلَّى الله عليه وسلم ، في أمته ، وتغيير كتاب الله ، عز

وجل ، وتبديل سنة رسول الله (صلعم) ، ومخالفة دعوته واقساد

شريعته ، وسلوك غير طريقته ، ومعاندة الخلفاء والائمة من بعده . اعلم

ان دين محمد (صلعم) ما جاء بالتحلي ولا باماني الرجال ولا شهوات الناس ،

ولا بما حف على الالسنه وعرفته دهاء العامة ، ولكنه صعب مستصعب ،

وأمر مستقبل وعلم خفي ، ستره الله في حجبه وعظم شأنه عن ابتذال

اسراره ، فهو سر الله المكتوم ، وامره المستور الذي لا يطيق حمله ، ولا ينهض بأعبائه وثقله الا ملك مقرب ، او مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه بالتقوى .

فهز ابو العلاء كتفيه كأنه لم يسمع من داعيه شيئاً جديداً ، ثم قال له ضاحكاً : أعلى هذا جئت تحلفني يا شيخ ؟

فاجابه الداعية : لا ، يا أحمد بن عبد الله ، اسمع الآن . لا تستعجل . ففكر معنا : ما معنى رمي الجمار ، والعدو بين الصفا والمروة ، ولم كانت الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ، وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير ، ولا يغتسل من البول النجس الكثير ؟ وما بال الله خلق الدنيا في ستة ايام ، أعجز عن خلقها في ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلا والكاتبين الحافظين ؟ وما لنا لا نراها ؟ أخاف أن نكابره ونجاهده حتى ادلى العيون ، واقام علينا الشهود : وقيد ذلك في القرطاس بالكتابة ؟ وما تبديل الارض غير الارض ، وما عذاب جهنم ؟ وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب ؟ وما معنى : ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ؟ وما ابليس ، وما الشياطين وما صفوا به ، وأين مستقرهم ، وما مقدار قدرهم ؟ وما يا جوج وما جوج وهاروت وماروت ، وأين مستقرهم ؟ وما سبعة أبواب النار ، وما ثمانية أبواب الجنة ، وما شجرة الزقوم النابتة في الجحيم ، وما دابة الارض ورؤوس الشياطين والشجرة الملعونة في القرآن ، والتين والزيتون ، وما الخنثى الكنسى ، وما معنى الم ، وكهيعص ، وحم عسق ، ولم جعلت

السموات سبعا والارضون سبعا ، والمثاني في القرآن سبع آيات ، ولم
فجرت العيون اثني عشرة ، ولم جعلت الشهور اثني عشر شهراً ، وما
يعمل معكم عمل الكتاب والسنة ومعاني الفرائض اللازمة ؟

فكروا أولاً في أنفسكم ، اين ارواحكم ، وكيف صورها ، واين
مستقرها ، وما أول أمرها . والانسان ما هو ، وما حقيقته ، وما الفرق
بين حياته وحياة البهائم ، وفضل ما بين حياة البهائم وحياة الحشرات ،
وما الذي بانت به حياة الحشرات من حياة النبات . وما معنى قول
رسول الله (صلعم) : « خلقت حواء من ضلع آدم » . وما معنى قول
الفلاسفة : « الانسان عالم صغير والعالم انسان كبير » ، ولم كانت قامة
الانسان منتصبه دون غيره من الحيوانات ؟ ولم كان في يديه من الاصابع
عشر وفي رجليه عشر ، وفي كل اصبع من اصابع يديه ثلاثة شقوق الا
الابهام فان فيه شقين فقط؟ ولم كان في وجهه سبعة أثقب وفي سائر بدنه
ثقبان؟ ولم كان في ظهره اثنتا عشرة عقدة ، وفي عنقه سبع عقد؟ ولم
جعل عنقه صورة ميم ، ويدها هاء ، وبطنه ميماً ، ورجلاه دالا ، حتى
صار كتاباً مرسوماً يترجم عن محمد؟ ولم جعل اذا انتصبت قامته صورة
الف ، واذا ركع صارت صورة لام ، واذا سجد صارت صورة هاء ،
فكان كتاباً يدل على الله؟ ولم جعلت عظام الانسان كذا ، واعداد
اسنانه كذا ، والاعضاء الرئيسية كذا ، الى آخر ما هنالك من عروق
واعضاء ، ووجوه ومنافع الحيوان؟ ثم قال : فلنتفكر في حالنا ونعتبر
ونعلم أن النبي خلقنا حكيم غير مجازف ، وأنه فعل ذلك لحكمة وله فيها

اسرار خفية حتى جمع ما جمع وفرق ما فرق . كيف يسعنا الاعراض
عن هذه الامور والله تعالى يقول : « سنرى آياتنا في الآفاق وفي انفسهم
حتى نبين لهم انه الحق » . فاي شيء رآه الكفار في انفسهم وفي الآفاق
حتى عرفوا انه الحق ؟ واي حق عرفه من جحد الديانة ؟

ألا نرى أننا جهلنا انفسنا التي من جهلها كان حراً يا ان لا يعلم غيرها؟
فتنهّد ابو العلاء وقال : هذا ما يشغل بالي ، لا بل حرمني النوم .
أين كنتما فلم تأتيا لتفريج كربتي وتبديد حيرتي ؟ لا نوم الليلة ...
وطال الجدل بينهم ، وطلب ابو العلاء الاستراحة ، فلم يزد الدعاء ،
وضرب له موعداً الليلة القادمة ، وانصرف الشيخان من عنده بعدما
أكلا التين والفسق

٢

وقال أبو العلاء للشيخين لا نوم الليلة ، ولكن الشيخين ناما نوماً
هادئاً مطمئناً ، لأن فوزهما كان عظيماً . اما نظماً في سلك الدعوة أثن
درة كانت واسطة العقد الخالدة ؟

أما شيخ المعرة فبات وبات له ليلة دونها ليلة النبياني . انه لا يعنيه
راعي النجوم كالنابغة ، فسيان عنده غاب او آب ، الظلم مسارح
الافكار ، والليل أخفى للويل .

لقد طار نوم أبي العلاء ، فاستيقظت قريحته . القى رأسه على مخدته

فتواردت عليه الخواطر ، فطفق بهمهم ويدمدم . يردد الفاظاً معلومة
 يقلبها على جميع وجوهها . ظل يفعل ذلك حتى غفا قبيل الصبح بقليل .
 ولم يستيقظ « المدعو » العظيم الا على آذان العصر ، وهو يحسبه اذان
 الفجر ، فتغدى وعاد الى ابيات شعره ينقحها ويهذبها .

وكان بين آونة واخرى يصيح بخادمه : ماذا من النهار يا غياث ، أين
 صارت الشمس ؟

وكان الخادم يتعجب من حال سيده ، فما تعود منه هذه الاسئلة .
 ولما أذن المغرب أمر غياثاً ان يهيسء شيئاً يتنقل به . وجاء الشيخان
 في ميعادهما ، فرحب ابو العلاء بهما اجمل ترحيب واحرته ، وكانت
 مقدمة قصيرة ناقش فيها شيخه ، واخيراً عرض عليها ابياته التي
 نظمها امس بعد ذهابها :

عَجِبْتُ لِكِسْرِي وَأَشْيَاعِهِ	وَوَسَّلِ الْوَجْوهَ يَبُولُ الْبَقَرِ
وَقَوْلِ الْيَهُودِ إِلَهَ مَحَبِّ	رَشَاشِ الدَّمَاءِ وَرِيحِ الْقَتْرِ
وَقَوْلِ النَّصَارِيِّ إِلَهَ يُضَامُ	وَيُظَلَمُ حَقًّا وَلَا يَتَنَصَّرُ
وَقَوْمِ أَتَوَا مِنْ أَقْصَى الْبِلَادِ	لَرَمَى الْجَمَارِ وَلَثَمَ الْحَجَرَ
فِي عَجَبًا مِنْ مَقَالَاتِهِمْ	أَيَعْمَى عَنِ الْحَقِّ كُلُّ الْبَشَرِ ؟

فكبر الشيخان تكبيراً خطيراً أقل من وقارهما ، وحار في تعليقه
 جيران الضير . إن كلمة « الحق » كان لها في اذنيها دويٌّ دونه
 دويٌّ قنابل اليوم .

اما ابو العلاء فابتسم ، على غير عادته ، ابتسامة فارهة ، واعجبه

جداً استحسانها ، واطربه ثناؤها ، فتهدى في حرّيته الفكرية ، ولم
يحدّ من مداها كعادته ، فهو واثق من يخاطب .

فتح لهما صدره المحشو شكوكاً ووسوس ، فقال لهما : اسمعا ماذا
قلت في رثاء المغفور له اخيكم والذي :

فيا ليت شعري هل يخف وقاره إذا صار احد في القيامة كالعنه

وهل يرد الحوض الروي مبادراً مع الناس ام يخشى الزحام فيستاني

فتناظر الشيخان واهترت لحيتهما كما تهتر صفصافة مرت بها ربح

غير مهتاجة ، اما ابو العلاء فقال :

طلبت يقيناً من جهينة عنهم وأن تخبريني يا جهين سوى الظن

فإن تعهديني لا أزال مسائل فإني لم أعط الصحيح فاستغني

فصاح الشيخان : مرحى لك يا احمد .

وقال له الداعي : لقد خلقت منا ، ولا نظن أننا نزيدك علماً ،

ومع هذا سيأتك يقيننا .

فقال ابو العلاء : أستغفر الله ، أستغفر الله . واطرق قليلاً ثم قال :

عندي ثلاثة ابيات آخر أظن أنها تعجبكما ، وانشد :

ريب الزمان مفرق الالفين فاحكم إلهي بين ذلك وبينني

أنهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت أنت لقتلها ملكين

وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحاليين .

فصفق الشيخان حتى كادا أن يخرجوا من جلدهما ، كما عبر الجاحظ .

ادركا ان مدعوهما سباق قد لا يبلغ داعي الدعاة غايته ، فقال له الداعي :

يا اخانا أبا العلاء ، كان في نيّتنا ان نلقى اليك بالدعوة اقساطاً لأنها تسع مراتب ، ولكننا وجدناك في المرتبة العليا فطرةً وغريزةً ، فرأينا أن تضيعَ الوقتَ إثمٌ ، فوجب علينا ، والحالة هذه ان نراعي استجابتك لنا ، ونلقى دعوتنا عليك تبعاً لليلة ، فلعلك تدعو غيرك الى الحظيرة ، فيشدُّ ازرنا بك . أعطنا الآن صفقة يمينك .

فدَّ أبو العلاء يمينه معاهداً على كتم السرِّ الذي أتعبه حمله طوال الحياة ، ومات ولم يبيح به لأحد ، حتى ولا لداعي الدعاة المؤيد في الدين - ابي نصر هبة الله بن موسى - الذي تصدى له في آخر العمر ، كما يعلم كل من له إلمامٌ بأدب المعري . ولكنَّ الداعي عرف صاحبه فكان سكوت ، وكفى الله المؤمنين القتال .

ووجم أبو العلاء بعد اعطاء صفقة يمينه ، واطبق شفّته إطباقاً صارمة تمَّ عن تصوُّرٍ وتصميم ، ثم التفت الى الناحية التي يأتيه منها الصوت ، فقال الداعي : « إعلم ، يا احمد ، أن لكل عصر إماماً ، ولا بد للناس من إمامٍ يأخذون عنه » . ثم افاض في شرح جميع الرموز التي سألها عنها البارحة ، فاذا هي - في عرفهم - دلالة صارخة على « قائم الزمان الاخير » . ثم انتقل به الى شرح شعائر الاسلام من الصلاة والزكاة والطهارة وغير ذلك من الفرائض ، ففسرها بامور مخالفة للظاهر .

وتنحّج الداعية وسعل سعالاً اهتز له ابو العلاء ، وسكت الشيخ قليلاً ثم قال : إعلم ، يا احمد بن عبد الله ، أن هذه الاشياء وضعت على جهة الرموز لمصلحة العامة وسياستهم ، حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على

بعض، وتصدمهم عن الفساد في الارض هي حكمة من الناصبين للشرائع،
وقوة في حسن مياستهم لاتباعهم ، وإتقان منهم لما رتبوه من التواميس
ونحو ذلك

ونظر الداعي الى ابي العلاء التفاتة مستنطق يقرأ اسرار الصدور
على صفحات الوجوه ، فأدرك أن أبا العلاء يعتقد كل الاعتقاد ان احكام
الشريعة كلها موضوعة على سبيل الرمز لسياسة العامة وان لها - او ليس
لها - معاني اخر غير ما يدلُّ عليه الظاهر . فاسرع الداعي به ونقله الى
الكلام في الفلسفة ، وحثه على النظر في كلام افلاطون ، وارسطو ،
وفيثاغوروس ، ومن في معنهم ، ونهاه عن قبول الاخبار بالسمعيات ،
وزين له الاقتداء بالادلة العقلية والتعويل عليها .

فردَّ عليه أبو العلاء بابتسامة نصف ساخرة حين سمعه يحضه على
التبصُّر بكلام الفلاسفة ، وكأنه يقول له ما قاله ذلك الرجل السائل
المسيح عما يعمل ليث ملكوت السموات

فتوقف الداعي وأخذ ينظر الى رفيقه ، وأبو العلاء لا يدري لماذا
سكت ، ولكنه عرف ان هناك سبباً فقال لداعيه : ما خطبك ؟

فأجابه الداعي : ان الانتقال الى الدعوة السابعة يقتضي زمناً طويلاً .
فصاح به ابو العلاء : ان عقل من تدعوه اكبر بكثير من الزمن
الطويل الذي تريد ، هلمَّ بنا ، عجل علي فليست اصبر .

فقال الشيخ الذي عرفه ابو العلاء منذ سنين ، في حضرة ابيه ،
موجهاً كلمته الى شيخه : يا مولا ، ان الرجل كما سبق وقلت ، يفوتنا في

اعتقاده ، ولولا يقيني هذا ما دعوتك من مصر لتقوم بدعوته وتسمع
بإذنك وترى بعينك . لا بأس علينا ان فعلنا . سر به الى المرتبة السابعة
ولنتجز عملنا الليلة . لاشك في ان « دار الحكمة » ستكون راضية عنا ،
ومولانا ، صلى الله عليه وسلم ، يكون مغبوطاً ويبارك عملنا . نحن ندعو
الآن « حجة » لا مستجيباً ، وسيكون لهذا الحجة اعظم شأن في تاريخ
الدعوة .

فتوكل الداعي الاكبر على ربه وقال : اسمع ، ايها الاخ ، إن صاحب
الدلالة والناصب للشريعة لا يستغني بنفسه . ولا بد له من صاحب معه
يعبر عنه ليكون أحدهما الاصل ، والآخر عنه كان و صدر ، وهذا إنما هو
اشارة العالم السفلي لما يحويه العالم العلوي ، فان مدبر العالم ، في اصل
الترتيب وقوام النظام ، صدر عنه اول موجود بغير واسطة ولا سبب
نشأ عنه . واليه الاشارة بقوله تعالى : إنما أمره إذا أراد « شيئاً أن يقول
له كن فيكون » اشارة إلى الاول في الرتبة والآخر هو القدر الذي قال
فيه : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وهذا معنى ما نسمعه من ان الله أول
ما خلق القلم فقال للقلم اكتب ، فكتب في اللوح ما هو كائن .

فافتكر ابو العلاء هنيهة ، واخذ الداعي يمدق نظره اليه ليرى ما
يكون من شأنه . فاذا بأبي العلاء يقول : وهذا أعرفه ايضاً يا شيخني
الجليل ، فقد قال الفلاسفة : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد .

فصاح به الداعي : مديك لتصافح ، وتتابع ، فانت شيخني ايضاً
كما انا شيخك ، وهلم بنا الى المرتبة الثامنة .

اما الشيخ الذي عرفه ابو العلاء منذ سنين فدمعت عيناه ، وقال
الداعي : إن تقدم مدبر الوجود على الصادر عنه إنما هو تقدم السابق على
اللاحق ، والعلّة على المعلول ، فكانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر
الثاني بترتيب معروف . ومع ذلك ، يا أحمد ، فالسابق لا اسم له ولا صفة ،
ولا يعبر عنه ولا يقيد . لا يقال هو موجود ولا معدوم ، ولا عالم ولا
جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ، وكذلك سائر الصفات . فالاثبات يقتضي
الشركة بينه وبين المحدثات ، والنفي يقتضي التعطيل . إنه ليس بقديم
ولا محدث ، بل القديم امره وكلمته ، والمحدث خلقه وقطرته .

واستطرد الداعي قائلاً : إن « التالى » يدأب في اعماله حتى يلحق
بمنزلة « الصامت » ، وان « الصامت » في الارض يدأب في اعماله حتى
يصير بمنزلة الناطق وحاله سواء ^(١) . وان الداعي يدأب في اعماله حتى
يبلغ منزلة « السوس » وحاله سواء . وهكذا تجري امور العالم في
« اكواره » و « ادواره » .

وبان في وجه أبي العلاء اطمئنان كثير عندما انتهى به الداعي الى
هنا . ثم جزم الداعي جمزة كبرى فقال : ان معجزة النبي الصادق الناطق
ليست غير اشياء تنتظم بها سياسة الجمهور ، وتشمل السكافة مصلحتها
بترتيب من الحكمة يحوي معاني فلسفية تنبىء عن حقيقة آنية السماء
والارض وما يشتمل عليه العالم بأسره من الجواهر والاعراض ، فتارة
برموز يعقلها العالمون وتارة بإفصاح يعرفه كل أحد ، فينتظم بذلك للنبي
١ - اريد ان اذكر القارىء بقول عريس الدهور : « ارادوا منطقي وارادت

صمى » .

شريعة يتبعها الناس .

اسمع ايها الأخ الأكبر المستجيب .

فأصغى ابو العلاء كل الاصغاء حتى حبس انفاسه ، فقال داعي
الدعاة : إن القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها سوى ما يفهمه
العامة ، وغير ما يتبادر الذهن اليه . وليس هو الاحداث « أدوار » عند
انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد
جاء على ترتيب الطبائع .

ولما رأى الداعي ان تلميذه يقبل قبولاً لا شك فيه ما دعاه اليه ، طار
به الى القمة ، اى الى الدعوة التاسعة ، فقال له : قد صرت اهلاً لكشف
السر والافصاح عن الرموز ، فاعلم ان ما ذكر من الحدوث والاصول
رموز الى المبادئ وتقلب الجواهر . وانما الوحي هو صفاء النفس ، يا
ابن عبدالله ، فيجد النبي في فهمه ما يلقي اليه ، ويتنزل عليه ، فيبرزه الى
الناس ، ويعبر عنه بكلام الله الذي ينظم به النبي شريعته بحسب ما يراه
من المصلحة في سياسة الكافة . ولا يجب حينئذ العمل بشريعته تلك الا
بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء . اما « العارف » مثلك الآن ، يا
احمد ، فانه لا يلزمه العمل بها ، وتكفيه معرفته ، فانها اليقين الذي يجب
المصير اليه . وما عدا المعرفة من سائر المشروعات فانما هي أثقال وآصار
حملها الكفار أهل الجهالة لمعرفة الاعراض والاسباب .

واعلم ايضاً ، ايها المستنير ، أن الانبياء النطقاء أصحاب الشرائع إنما
هم لسياسة العامة . واعلم اخيراً : ان الفلاسفة هم انبياء حكمة الخاصة ،

وأن الإمام إنما وجوده في العالم الروحاني إذا صرنا بالرياضة في المعارف إليه ، وظهوره الآن إنما هو ظهور أمره ونهيه على لسان اوليائه .

وتشهد الثلاثة تنهيدة قارعة ، وقال الداعي لابي العلاء : هات يدك الآن ، وكن لنا ناصراً ، فانما نحن تقوى بامثالك واشباهك . ان في معرفة النعمان كثيراً من اخواننا حتى المغفور له والدك . ولكن السابق منهم لم يبلغ الدرجة الخامسة من درجات سلم الحكمة ، فتبهاً لنصرتنا بما اوتيت من ذكاء وفهم وجرأة ، واعلم ان حولك اناساً يفهمونك اذا حدثتهم ، فاهددهم وقدمهم وكن لهم في الملأ .

’ واخيراً اقول لك اتنا فضلناك على جميع الاخوان ، فلم نأخذ منك ميثاقاً . اني اتلو عليك خاتمة الميثاق الذي نأخذه على من ندعوهم لتعلم حقيقة أننا أجلناك وعظمنناك ، فاسمع بعض ما نقوله للمدعو :

’ وليس لك ان تتأول في هذه الايمان تأويلاً ، ولا تعتقد ما يحلها ، وانك ان فعلت شيئاً من ذلك فانت بريء من الله ورسوله وملائكته ، وجميع ما أنزل الله في كتبه ، وانت خارج من حزب الله وحزب اوليائه ، وبريء من حول الله وقوته ، وعليك لعنة الله ، والله عليك ان تحج الى بيته الحرام ثلاثين حجة ماشياً حافياً ، نذراً واجباً . وكل ما تملك في الوقت الذي تخالف يمينك فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين ، وكل مملوك لك من ذكر وانثى فهو حر لوجه الله ، وكل امرأة لك او تتزوجها الى وقت وفاتك فهي طالق ثلاثاً طلاق الحرج لا مثوبة لك ولا رجعة ، وكل ما كان لك من أهل ومال وغيرهما فهو حرام عليك . والله تعالى الشاهد

على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت ، وكفى بالله شهيداً بيننا وبينك . ،
فلم يدْرِ أبو العلاء ماذا يجيب ، فصمت . ولكنه تنكَّر فيما بعد
لحياته السابقة بعض التَّنكَّر ، وامسى ينكمش في بيته رويداً رويداً
حتى صارت داره مجلساً للمستجيبين المخلصين ، ومن في خاطره أن
يرحل الى العراق ، فاستشار الوالدة والاخوان ، ثم رحل اليه .

رسالة أبي العلاء إلى المعريين

لا يعني إن كان أبو العلاء ذهب إلى بغداد مرة أو مرتين أو عشر مرات . ولا يعني أرحل إلى عاصمة العالم القديم يريد التزيد من جاه الدنيا ومجدها وملاذها ، أم ذهب ينتجع علوم بغداد وأدبها وفلسفتها ، فيشهد عن كتب تلك الجامعات العلنية والسرية التي كانت تلتئم فيها كل اسبوع .

ولا يعني إن كانت أمه قبلت منه واعانته ، ولا إن كان خاله أبو طاهر أعد له سفينة اغتصبها منه عمال السلطان ، فسلك طريقاً مخوفة إلى موطن الفلسفة ومقر أهل الجدل ...

ولا يعني ، البتة ، إن أخفق أبو حامد الاسفراييني في إعادة سفينة أبي العلاء المقتصبة ، أو المصادرة ، ونجح رجل من آل حكار فمدح أبو العلاء لأجله هذه الاسرة واعترف بجميلها . ليست سفينة أبي العلاء تلك التي اوعز الله بصنعها إلى ابينا الثاني فعلم الناس فن الملاحة وابقى على جنس ابدعه على صورته ومثاله .

ولا يعني إن كان أبو العلاء جلس في بغداد مجلس التلميذ أو مجلس المناظر ، فالانسان دائماً تلميذ ومعلم .

ولا يعني ايضاً أن يكون عبد السلام بن الحسين البصري عرض على
أبي العلاء مكتبة كانت في يده ، فلم ير شيخ المعرة فيها شيئاً غريباً اذ
كان قد قرأ كتبها كلها في طرابلس ، إلا ديوان تيم اللات فاستعاره منه ،
ثم اختلف المؤرخون في اعادته الى صاحبه . وسواء عندي أممحة
كانت رواية القفطي والذهبي أم غير ممحة . ولا يعني أن اجث
وأجتر ما كتبه غيري عن حضور ابي العلاء المجمع السري المسمى « اخوان
الصفاء » بدار عبد السلام البصري ، كل يوم جمعة ، كما لا يعني حضوره
بجمع الشريف المرتضى ، ولا يعني أبداً صحة كلام سلامون
ومرغليوث .

ولا يعني أن يكون حب المعري للمتنبي جرّ عليه الاهانة العظمى ،
فسحب برجله من مجلس الشريف المرتضى واخرج . ولا يعني سبب
عودته من بغداد ولا ماذا لقي من عناء وتعب ، ولا حزنه على بغداد ،
وعلى موت أمه في غيابه .

كل هذا أدعه للمؤرخين وممحصي سير حياة الادباء ، والمدققين في
النصوص ، وهذا قد كفانيه البحاثة المدقق الاستاذ طه حسين بك في
كتابه « ذكرى ابي العلاء » ، إذ جمع فيه كل ما هبّ ودب عن المعري
وعصره ، فليراجعه من يتوخى التحقيق ويتطلب التوسع .

أما الذي يعني ، وقد يكون سئم القارئ وسبني مرات قبل ان
أبوح له به ، فهو تلك الرسالة التي وجهها أبو العلاء إلى المعريين حين
ترك بغداد .

إن ما سماه الناقد الفرنسي تبين « مرض العصر » يصح ان يطلق على

عصر أبي العلاء ، فمرض عصر المعري هو الجدل والشك ، وعليها بنت الدعوة الفاطمية أساسها ، ووجدت في شخصية أبي العلاء تربة صالحة ، فالقت فيها نواتها ، فانبثقت وانبسطت فروعها ، وامتصت جذورها كل ما في الماء والشمس والهواء من حياة. فأبو العلاء هو الفاطمي العظيم الذي لم يرتد ساعة ، وان رأى فاطميو اليوم في كتابه ، بل في كتبه شيئاً يستوقفهم لحظة فليذكروا أن شاعر الدعوة الأعظم كان قبل ما وصل اليهم من رسائل ، وأن عقلاً كعقل أبي العلاء يحق له ان يفسر ويؤول كما فسر وأوّل غيره من رجال الدعوات والديانات الذين جاؤوا على آثار المؤسسين ، وليذكروا ان في صلب الدعوة ما يبرر هذا النشوء والارتقاء الفكري ... وإلا فكيف يدأب «التالي» في أعماله حتى يلحق بمنزلة «الصامت» ، وكذلك «الصامت» حتى يلحق بمنزلة «الناطق» .

وليس كتاب لزوم ما لا يلزم غير كتاب الاخوان ، فلينعنم أخواتنا الدروز بالآ ، وليطمثنوا في خلواتهم ، فإن امام الدعوة الفاطمية الخالد لم يشك لحظة «بالمذهب» ، وما ارتد قط .

لست أقول إن أبا العلاء درزي اسماً ، فقد سموهم هكذا بعده ، ولكني أقول إن مذهبهم مذهبه ، وان ما نراه اليوم عند الطبقة «المتنزهة» من تقشف وزهد في الدنيا مأخوذ عن اثنين : الحاكم بأمر الله ، وحواريه أبي العلاء المعري . وهذا ما ستثبته بحوثنا الآتية فليصبر علينا القارىء .

قلت إن أبا العلاء فاطمي المذهب ، وقد ذهب إلى بغداد للكشف عن أحوال الدعوة هناك ، واتصل بجماعة اخوان الصفاء ، وجماعة الاخوان هؤلاء جمعية سرية كالفاطمية ، ومبادئها متفقة تقريباً ، فاعتقاد اخوان

الصفاء كمتعقد الفاطميين في الله والعقل ، وهذا أيضاً لا يعنيني بحته ،
فاكثر من أكتب لهم يعرفونه ، وإن كانوا نسوه فليراجعوه ، فلست
أعدّهم هنا لفحص البكالوريا أو الليسانس في الفلسفة والآداب . فالذي
يعنيني هو رسالة أبي العلاء التي كتبها الى اهل المعرة ، فقد دلّني - ولا
يعنيني ما يزعم غيري - على فاطمية ابي العلاء ، وأنه يعتنق عقيدة بعينها
فناصرها علناً ، واتقى السلطان بما بث بين أقواله مما يبعد عنه تهمة
الاحقاد لتبقى له حياته .

وسننظر ، أنا وانت ، يا قارئي العزيز ، في هذه الرسالة ، فان وافقتني
مقتنعاً فلا بأس ، وإلا فانا لست براجع عن فكري هذه ما لم تطردها من
رأسي فكرة اخرى اقرب منها إلى الصواب . فهلّم بنا الآن الى تلك
الرسالة ، واليكها بنصها وفصها ، كما عبر السلف الصالح :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب الى السكن المقيم بالمعرة ،
شملهم الله بالسعادة ، من احمد بن عبد الله بن سليمان ، خص به من عرفه
وداناه ، سلم الله « الجماعة » ولا أسلمها ، ولم شعثها ولا آلمها . »

اذا كانت الكلمة كائناً حياً كما تصور واعتقد فلي في بعض ألفاظ
هذه الرسالة أدلة تنصر زعمي وتؤيده ، فأبو العلاء لا يعني الصورة
الظاهرة ، ففي قوله « خص به من عرفه وداناه » معنى ابعد من المعنى
الظاهر السطحي . ويزداد قصده وضوحاً بقوله : سلم الله الجماعة ولا
أسلمها ، فلكلمة « الجماعة » معنى خاص تدلنا عليه دلالة صارخة العبارة
التي تليها : « ولم شعثها ولا آلمها » ، فلست اشك ان هناك جماعة بعينها
يقصدها شيخنا اذ يقول : « أما الآن فهذه « مناجاتي » إياهم منصرفي عن

العراق مجتمع أهل الجدل وموطن بقية السلف .

فما لا اشك فيه هو أن كلمة مناجاة ذات علاقة وثيقة بـ «النجوى»، وهي ما أطلقه الفاطميون اصطلاحاً على ما يؤخذ من «الاستجيب» كالرسم الذي تستوفيه الماسونية من المنخرطين في سلكها . وتدل العبارة كلها كما سيدلنا غيرها على أن أبا العلاء إنما رحل مصاباً بمرض العصر ، يطلب دواء له في بغداد مجتمع أهل الجدل .

ثم يقول : « بعد أن قضيتُ الحداثةَ فانقضت ، وودعتُ الشبيبة فمضت ، وحلّبت الدهر اشطره ، وجربت خيره وشره . » وفي هذه الفقرة أيضاً ما يؤيد زعمي أن أبا العلاء لم يطهر منذ حبل به في البطن ، ولكنه رجل طهر هو نفسه كما ستري .

ثم يقول : « فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروى من سانح النعام ، وما ألوت نصيحة لنفسي ، ولا قصرت في اجتذاب المنفعة إلى حيزي ، فاجمعت على ذلك واستخرت الله فيه ، بعد جلالة على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزماً وعدّه ، إذا تم ، رشداً . »

هب أن أبا العلاء استشار في أمره نفرأ يوثق بخصائلهم وفقاً للعادة المعروفة عندنا ، فما الذي يدعوّه إلى « الاعتراف » إلى أهل المعرفة ؟ وهل يمكن أن تكون هذه الرسالة موجّهة إليهم جميعاً ؟ وما يعني أهل بلدته منه لو لم تكن تجمعه وأكثرهم خطة متفق عليها ؟

ثم يقول : « وهو أمر أسري عليه بليل قضى برقه ، وخبث به النعامة ، ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غذي

الحقبة القادمة ، وسليل الفكر الطويل . « أليس في قوله » ولكنه غنيّ
الحقبة القادمة ، ما يوقف الفكر ، ويدلنا على أن الرجل يخاطب جماعة
يفهمون ما يعني ، وتربطه بهم علاقة أعظم من علاقة كل رجل بأهل بلده؟
ثم يقول : « وبأدب إلى إعلامهم ذلك مخافة أن يتفضل منهم
متفضل بالنهوض إلى المنزل الجارية عادي بسكناه ، ليلقاني فيه فيتعذر
ذلك عليه ، فاكون قد جمعت بين سمجين : سوء الأدب وسوء الطبيعة .
ورب ملوم لا ذنب له ، والمثل السائر يقول : خلّ امرءاً وما اختار . »

ان أبا العلاء يوضح للاخوان خطة لم يكونوا أليفوها بعد، ثم يوصيهم
بها في لزومياته كما سترى ، ويريد منهم الآن ان يوافقوه عليها ولا
يشجبوه . وعلى خطة أبي العلاء هذه يجري اليوم كبار عقّال الدروز ،
فاذا أرادوا أن ينفردوا ويلزموا بيوتهم يستشيرون المجلس . وقد يترك
الرجل منهم زوجته - بعد الحصول على رضاها - وينفرد في مكان ما
يغسل فيه أدران ماضيه ، ويطهر فيه نفسه طول حياته ، واشهر امكنة
التوحيد والانفراد عندهم « خلوات البياضة » وقلّ من لم يسمع باسمها ،
فهي أشبه بصوامع الحبساء عند النصارى .

وماذا يخشى أبو العلاء حتى يستمّيح أهل المعرة عذراً لو لم تكن
هناك رابطة تربطه بهم وقد أعطى لأجلها صفقة يمينه ؟

ويقول : « وما سمحت القرون بالأياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة :
نبذة كنبذة فتيق النجوم ، وانقضاباً من العالم كاتقضاب القائبة من القوب ،
وثباتاً في البلد ان جال أهله من خوف الروم . فان أبي من يشفق علي ،
أو يظهر الشفقة إلا النفرة مع السواد كانت نفرة الاغفر أو الادماء . »

ان عبارة « وما سمحت القرون بالإياب » التي مرت بنا هي اخت
« غني الحقب القادمة » التي مرت قبلها وكتاهما فاطميتان لا يدرك
معناها الحصري إلا الراسخون في علم العقيدة . وأرجو ان تحفظ هذه
« الاشياء الثلاثة » التي وعد بها أبو العلاء القرون حتى سمحت فهي
ستثبت لك فاطمية أبي العلاء حين يأتي الكلام على خروجه من محبسه
لاشترائه المعرة خطة غبن بعد بيعه وحدثه بيعة وكس ... أما الآن فسر
بنا الى تسميم نص الرسالة : « وأحلف ما سافرت استكثر من النشب ،
ولا اتكثر بقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم ، فشاهدت
انفس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه . والجاهل مغالب القدر . »
ولماذا يحلف أبو العلاء لقوم هو سيدهم ، وأذكارهم ، وافهمهم ،
واعلمهم ، ولماذا ينفي عنه السفر في طلب المال لولا ان الزهد في الدنيا
أساس العقيدة الفاطمية كما ستري ؟

ويختتم رسالته بقوله : « فلهيت عما استأثر به الزمان ، والله يجعلهم
احلاس الاوطان ، لا احلاس الخيول والركاب ، ويسبغ عليهم النعمة
سبوغ القمراء الطلقة على الظبي الغرير ، ويحسن جزاء البغداديين فقد
وصفوني بما لا أستحقه ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا عليّ
أموالهم عرض الجذ ، فصادفوني غير جندل بالصناعات ، ولا هش إلى
معروف الأقوام ، ورحلت وهم لرحيلي كارهون ، وحسبي الله وعليه
يتوكل المتوكلون . »

كلنا نعلم ان أبا العلاء رفض الهبات والعطايا في هذا الطور ، أي بعد
استجابته للدعوة الفاطمية ، وخصوصاً عندما نسك وزهد ليكون مثلاً

أعلى لجماعته كما جترى .

فلا يصح أن نسمي أبا العلاء درزياً لأن هذا الاسم لم يكن في زمنه ،
ولا أن نسمي أصحابنا الدروز دروزاً لأن هذا الاسم لصق بهم بعد
حين ، وهو في الحقيقة اسم لا يرضيهم ، وقد يرضى الانسان بما يكره إذا
غلب عليه واشتهر به .

ان سيرة المعري هي الدستور الاسمى لطبقة « الأجاويد » العليا
المعروفة عند الدروز بـ « المتزهة » . وهؤلاء المتزهة بل من هم دونهم في
طبقة « الجودة » لا يقبلون مالا من أحد مشكوكاً في انه غير حلال، ولهذا
قال أبو العلاء لآخوانه « الجماعة » في المعرة : « عرضوا علي أموالهم عرض
الجد ، فصادفوني غير جذل بالصنيمات . »

ان هذه الخصلة مقتبسة من إمام الدعوة وسيدها الاسمى الحاكم بأمر
الله ، فقد كان راغباً عن العطايا والهبات وقد رد مال متوفى أوصى له
به ، وكان يهب بلا حساب . أما كتب الى أمين الامناء حين توقف عن
الدفع : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، والمال مال الله عز وجل ،
والخلق عيال الله ، ونحن امناؤه في الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا
تقطعها والسلام » ٢

ومن يقرأ لزوميات المعري يرى انه كان يصور للناس شخصية الحاكم
وخصاله من حيث لا يدرون . أذكر لك واحدة الآن . إن كره الحاكم
للمال حمله على إلغاء المكوس ، وقد أیده شاعر دعوته في المعرة إذ رأى من
الحكام غير ذلك فقال :

وأرى ملوكاً لا تصون رعيةً فعلاماً تؤخذُ جزيةً ومكوساً ؟

كلنا نعلم أن أبا العلاء غاضب على الحكام ، ويراهم أجراء الأمة
الذين عدّوا مصالحها . ويتحدث عن ظلمهم وينتقدهم انتقاداً مؤلماً ،
ويعترض على إجراءاتهم . والتاريخ يثبتنا أن الحاكم بأمر الله كان جباراً ،
وقد أهدر دم الكثيرين ، وقتل كبار رجال دولته ، فلماذا يرضى عنه أبو
العلاء الذي لم يرضَ عن أحد ؟ فهو يحدثنا عنه مرةً في لزومياته بكل
أناة ورفق ، بل يتحدث عنه كما يتحدث نحن عن الانبياء والرسل ،
فيقول كلاماً لا لبس فيه ولا إبهام ، ولا مجاز ولا رموز ، كلاماً جليلاً
واضحاً لا يحتمل أقلّ تأويل ، فيمتدح الحاكم ويذمّ ابنه الظاهر بأمر
الله الذي تبرأ من رسالة أبيه ، واضطهد المستجيبين للدعوة اضطهاداً
فظيماً حتى علق رؤوسهم على صدور نسائهم ، فقال أبو العلاء مدافعاً
عن « مولاة » :

مضى قَبلَ مصر إلى ربه وخلقى الحكومة للخائل
وهو لا يعني غير الظاهر بأمر الله حين قال - وهذا البيت قد اوردته
في فصل سابق - :

اعدى عدوّ لابنِ آدمَ خلتهُ ولدٌ يكونُ خروجه من ظهره
وان تتبعني ايها القارىء الكريم بعد ان تتجرد من ذاتك التقليدية
فسنعود من رحلتنا هذه وانت واثق مثلي ان شيخ المعرة هو امام المذهب
الفاطمي ، وكتاب لزومياته هو كتاب المذهب ، إنما عليك ان تقرأ ما
اكتبه وما كتبه بامعان ، وتتبحر في عبارات « الدعوات التسع »
فتدرك مثلي وتبصر .

جَبَلِيسُ الْمُعَاذَةِ

مدرسة أبي العلاء

١

تكاثرتِ الطِّبَاءُ عَلَى خِرَاشٍ . فَلَا يَدْرِي خِرَاشٌ مَا يَصِيدُ
ولكنك ستعلم أن شيخنا ، حياهُ اللهُ ، صياد جبار متى سمعته يلى
على تلاميذه الذين ضاق بهم المكان ، فتخالك في آثينا لا في قرية من قرى
« العواصم » . وكان بين طلاب الشيخ واحد تجاوز سن الشباب ما عرف
شيخنا من أمره إلا أنه من القاهرة واسمه اسمعيل التميمي . راب الشيخ
أمر هذا الطالب ، فكيف يضرب إليه أكباد الإبل وهو من مصر ، وفي
مصر « دار الحكمة » ؟ نظمه الشيخ في إحدى حلقاته بعدما اعتذر له
بضيق المقام وما نفع الاعتذار . احتج التميمي ببعيد الشقة وأنه قصد
ليغرف من بحر علمه ويقتبس من حكمته . فتأفف أبو العلاء لأنه ضاق
ذرعاً بمريديه ، فبيوت المعرة تغص بهم وبيته لا يسعهم ، فاضطر إلى
جعلهم حلقات مختلفة ، فريق يجيء ، وفريق ينصرف ، والشيخ متربع
لا تحل له حبوة ، ولا يتزحزح إلا حين تدعوه حاجة كالأكل والشرب
وما يليها .

وإذا ما انصرف طلابه وخلت الدار فقد يعد أمالي الغد . أمالي
ممزوجة بكل ما يلابس الحياة ويلامسها من قريب وبعيد ، وشأنه مع
المسائل الخطيرة والخطرة شأن العصفور الدوري ينقد ويطير ، ثم يكر
ثانية ، وهكذا دواليك حتى يشبع ويشبع تلاميذه ... يعالج جميع
الموضوعات التي تنشأ رجلاً وتمتت أخلاقهم، فهو ينشد الكمال الانساني
دائماً ، كما ينشد الكمال الانشائي في ما ينظم ليملي معنياً باللغة التي كانت
ركن العلوم في ذلك الزمان ، بل كانت كل شيء . فيكثر من الغريب ،
ويرمز ويلمح ، ويطابق ويمجانس ، ويطوي وينشر ويوري ، ثم يعود
إلى إيضاح ما أملى وشرحه ، ويفذلك أخيراً آراءه لترسخ في الأذهان ،
أذهان مريديه الذين اعتقدوا أن عند الشيخ علم كل شيء لأنه ذاع عنه :

غدوت مريض العقل والدين فالتفتني
لتعلم انباء العلوم الصحاح

وقوله :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف
ولذلك تعجب أماليه بالتلميح ، وتضطرم فيها نيران الثورة على الأديان
جميعها ، فكانه جامعة دولية لا تخوم لها ولا حدود .

كان الإقبال عليه عظيماً فاستحالت وحدثته إلى مجتمع حي نابض
بقوة الشباب وتفكيره الصاخب ، وقد أشار أبو العلاء إلى مدرسته
هذه بقوله :

يزورني الناس هذا أرضه يمن من البلاد وهذا أرضه الطيبس

قالوا سمعنا حديثاً عنك ، قلت لهم
يبيغون مني معنى لست أحسنه
أعانتنا الله ، كل في معيشتهم
لا يبعد الله إلا معشراً لبسوا
فإن صدقت عرثهم أوجه عبس
يلقى العناء ، فدري فوقنا دبس

وحانت ساعة الاملاء فتحركت شفتا الشيخ فقال العريف : أقلامكم وأوراقكم . فاملئ الشيخ :

ملائك تحتها انس وسائمة
فلا تعلم صغير القوم معصية
فالسلك ما استطاع يومئذ لؤلؤة
لكن أصاب طريقاً نافذاً فسلك

فكتب التميمي ، وهو يصر شفتيه ، متعجباً لهذه العظة الضخمة
كيف برزت في هذا الثوب الدقيق ، وراح يفكر فيما كتب وإذا برفاقه قد
سبقوه ولم يلتقط هو إلا هذا البيت :

يا رضو لا أرجو لقاءك بل أخاف لقاء مالك

فضحك التميمي إذ درى ما عنى شيخه وعلم أنها على صعيد واحد .
وانتقل الشيخ إلى موضوع آخر بعد تفكير قليل وقال اكتبوا :

تقضى الناس جيلاً بعد جيلٍ
إذا رجع الحضيف إلى حجاب
وَهت أديانهم من كل وجه
تقدم صاحب التوراة موسى
وقال رجاله وحي أتاه
أرى أم القرى خصت بهجره
وخلفت النجوم كما تراها
تهاوت بالمذاهب وازدراها
فهل "عقل" يشد به عراها
وأوقع في الحسار من اقتراها
وقال الظالمون بل افتراها
وسارت نمل مكة عن قراها

وكم سرت الرفاقُ إلى صلاحِ فارستِ الشدائدَ في سراها
يوافون البنيةَ كلَّ عامِ ليُلقوا المخزياتِ على قراها
ضيوفُ ما قراها الله عفواً ولكن من فوائبه قراها
وما سيري إلى أحجارِ بيتِ كؤوسِ الخمرِ تُشرب في ذراها
فان الله غيرُ ملومٍ فعلى إذا أورى الوقودَ على وراها

فازداد التميمي تعجباً إذ سمع المعلم يتحدث عن الله، في البيت الأخير،
كانه يتحدث عن زميل له أو نظير فيحاول تبرئته إن فعل ما تمناه عليه.
وشرح الشيخ بعض كلمات مما أملاه، ودل على أنواع البديع، ثم عاد
يُلي فكتبوا :

أتتُ خنساءُ مكةَ كالثريا وختت في المواطنِ فرقدتها
وتوقف هنيهة ليشرح ما يعني بقوله خنساء، وكيف ورى ثم أتم :
ولو حلت بمنزلها وصامت لألفت ما تحاوله لئها
ولكن جاءتِ الجمراتِ ترمي وأبصارُ الغواةِ إلى يديها
وليس عمداً فيما أتته ولا اللهُ القديرُ بمحمديةِها

وكان الطلاب يكتبون ويتغامزون متعجبين، أما التميمي فما صدق
أنه يكتب ما كتب حتى نقلهم الشيخ إلى قضية من قضايا الكبرى فقال:
اكتبوا يا أولادي :

لو كان جسمك مطروحاً بهيئته بعد التلافِ طمعنا في تلافيه
إلادن عطل من راح تكون به ولم يُحطم فعات مرةً فيه
لكنه صار أجزاءً مقسمةً ثم استمرَّ هباءً في سوافيه

وانتقل إلى موضوع آخر أقل خطراً فأملى :

ألا تفكرُ قبلَ النسلِ في زمنٍ
ترجو له من نعيمِ الدهرِ ممتنعاً
شكلاً الذي فسهرت الليلَ وابتكرتُ
وأمه تسألُ العرافَ قاضيةً
وأنت أرشدُ منها حينَ تحملهُ
ولو رقى الطفلَ عيسى أو أعيدَ له
دنتَ عرضك حتى ما ترى دنساً
به حَلَلتَ فتدري أينَ تلقيه
وما علمتَ بأنَّ العيشَ يُشقيه
به الفتاةُ إلى شمْطاءَ ترقيه
عنه النذورَ لعلَّ اللهَ يُيقيه
إلى الطبيبِ يداويه ويشفيه
بقراطُ ما كان من موتٍ يوقيه
لكن قيصُك للأبصارِ تنقيه

ثم أملى أيضاً :

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منا
وما دانَ الفتى بحجى ولكن
وجاءتنا شرائعُ كلِّ قومٍ
وغيرَ بعضهم أقوالَ بعضٍ
على ما كان عودَهُ أبوه
يعلمهُ التدنُّنَ أقربوه
على آثارِ شيءٍ رتبوه
وأبطلتِ النهى ما أوجبوه
وأراد التميمي أن يطرح سؤالاً ، فقال المعري : اكتبوا ، ثم أسألوا

ما شئتم :

أسهبَ الناسُ في المقالِ وما يظفرُ
عجباً للمسيحِ عندَ النصارى
أسلمته إلى اليهودِ النصارى
يُشفقُ الحازمُ اللبيبُ على
إلا بزلةٍ سهوه
وإلى اللهِ والدِ نسبه
وأقروا بانهم صلبوه
الطفلِ إذا ما لِداتهُ ضربوه
صحيحاً فإين كان أبوه ؟

كيف خلى وليده للأعادي أم يظنون أنهم غلبوه ؟
وإذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه
لا يدينون ، بالعقول ، ولكن ، بأباطيل زخرف كذبوه
ووجه الشيخ وجهه شطر صوت التميمي وقال : سل الآن ما بدا
لك . فأجاب التميمي : أدركت يا شيخنا ما عنيت .

فقال أبو العلاء : اكتبوا إذن . وطفق يفسر كلمات الدرس ويشرح
الآيات ويعرب لتلاميذه ما أشكل عليهم ، ويحل الرموز . وأذن
العصر فانصرفوا .

وكان للشيخ تلميذ يؤثره ، وكان هذا الشاب يعين شيخه ، يقدم له
حذاءه ويأخذ بيده ليقوم إلى حاجته . ومن عمله أيضاً أن يكتب ما يليه
عليه ويحفظه في صندوقة موضوعة دائماً بقرب الشيخ . وسأل الشيخ
تلميذه عن الطالب الجديد ، أي التميمي ، ما سنه ؟ وماذا أبدى في أثناء
الدرس ، استحساناً أم استهجاناً ؟ وهل استغرب شيئاً مما أملي عليه ،
وأين يقيم ، وهل أكثرى بيتاً ؟ الخ ...

فأجاب الطالب : فوق الثلاثين ، فقال الشيخ : أف ! وأتم الفتى :
أما الدرس فقد دهشه . وظل الشيخ ساكناً فقال الشاب : ما عودتني مثل
هذه السؤالات ، أتخشى منه بأساً ؟ فأوماً الشيخ ان لا ، ثم قال : إنه آت
من مصر ، وسوء الظن من حسن الفطن . وتنهى أبو العلاء تنهيدة
يعرفها تلميذه أنها علامة الانصراف ، فقبل يده وخرج .

وشرع أبو العلاء ، على عادته ، يعد الأمايلي للدرس الآتي ، ومع الشمس جاء تلاميذه فجلسوا حوله في السماطين حتى إذا وفد المتأخرون صاروا حلقة. وكان التميمي قد بكر وقعد من الشيخ مقعد الطالب المدلل لا يفصل بينها أحد . وتحركت شفقا الشيخ للإملاء حركات بطيئة فسريرة ، وقد رفع رأسه كأنه ينظر إلى أعلى الجدار ، فتبها الطلاب لاقتبال البذور التي يلقيها الزارع الخالد ، فاملى ولكن من «سقط الزند» :

أرى العنقاء تكبرُ ان تصادا فعاندُ من تطيقُ له عنادا
وظنُّ بسائرِ الاخوانِ شراً ولا تامنُ على سرِّ فؤادا

وعض على كلمة سر كأنما هو يعني شيئاً ، ثم قال :

ولو خبرتهمُ الجوزاءُ خبري لما طلعتُ مخافةً أن تكادا
فأيُّ الناسِ أجعله صديقاً وأيُّ الأرضِ أسلكه ارتيادا
ولو أنَّ النجومَ لديَّ مالٌ نفتُ كفايَ أكثرها انتقادا
كأنِّي في لسانِ الدهرِ لفظٌ تضمَّنَ منه أغراضاً يعادا
يكرِّرُني ليفهمني رجالٌ كما كرَّرتُ معنىً مستعادا
ولو أني حببتُ الخلدَ فرداً لما أحببتُ بالدنيا انفرادا
فلا هطلتُ عليَّ ولا بارضي سحائبُ ليسَ تنتظمُ البلادا

وكان التميمي يكتب وعليه امارات التعجب . منكب على دفتره وقلمه بيده ، راصد كأنه الهر على باب الحجر . أما الطالب الأثير فكان

له بالمرصاد يحصي عليه أنفاسه . وهم الشيخ بالكلام فسمعت تكتكة
الأقلام في البواقيل وحفيف الدفاتر فقال :

أصبحتُ منحوساً كأنني ابنُ مسعود

وما أطفئ بان أهزلا
لي أملٌ فرقانهُ محمٌ
شيخاً أراني كطفيلٍ غدا
يركضُ في غاراته قرزلا
لا يكذبُ الناسُ على ربهم
ما حركَ العرشُ ولا زلزلا
فليتَ من يفري أحاديثه
مات فصيلاً قبل أن يبزلا
يا جدثي حسبك من رتبة
أنك من أجدائهم معزلا
أملني الدهر بأحداثه
فاشتقتُ في بطن الثرى منزلا
إن نشأت بنتك في نعمة
فالزمنها البيتَ والمغزلا
ذلك خيرٌ من شوارٍ لها
ومن عطايا والدٍ أجزلا

وتوقف الشيخ هنيهة عن الاملاء كعادته عند كل نهاية، فأخذ التميمي
يفكر في العلاقة بين الأبيات الأولى والأخيرة ، ولكنّه ألف أسلوب
الشيخ فيما بعد ، فأدرك أنها طريقته الخاصة ، وخطته أن يكر ويفر إلى
حصن آخر بعد كل حجر يرميه من منجنيقه . يفعل ذلك تقية ليشغل
قارنه بالجديد عما سبق . وتنحنح الشيخ ، فاستعدوا ، فأملى :

دعائكم إلى خير الأمور محمدٌ
وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم إلى تعظيم من خلق الضحى
وشهب الدجى من طالعات وآفل
وألزمتكم ما ليس يعجز حمله
أخا الضعف من فرض له ونوافل

وحدث على تطهير جسم وملبس
وحرّم خمرأ خلتُ ألبابَ شربها
يجرون ذيلَ الملكِ جرّ أوانسٍ
فصلى عليه اللهُ ما ذرّ شارقٍ
وعاقب في قذفِ النساءِ القوافلِ
من الطيشِ ألبابَ النعامِ الجوافلِ
لدى البدوِ أذبالِ الغوانيِ الروافلِ
وما فتّ مسكاً ذكره في المحافلِ

فصلوا جميعاً وسلموا ، وزفر الشيخ زفرة حرى وأملى :

لعلّ أناساً في المحاريبِ خوّفوا
إذا رامَ كيداً بالصلاةِ مقيمها
فلا يس فخاراً إلى الفخرِ عائدُ
لعلّ أناءٌ منه يُصنعُ مرةً
ويحملُ من أرضٍ لأخرى ومادري
وما الأرضُ إلا مثلنا الرزقُ تبتغي
لقد كذبوا حتى على الشمسِ إنها
بأي ، كناسٍ في المشاربِ أطربوا
فتاركها عمداً إلى اللهِ أقربُ
إلى عنصرِ الفخارِ للنفعِ يضربُ
فياكلُ فيه من أراد ويشربُ
فواهاً له بعد البلى يتغربُ
فتاكلُ من هذا الأنامِ وتشربُ
تهانُ إذا حان الشروقُ وتضربُ

فكان استحسان من سواد الطلبة ، فمضى الشيخ في الاملاء :

الافانعموا واحذروا في الحياة
أرى قدراً بثّ أحداثه
وان القنا حملتها الأكفُ
فلا تامنوا الشرّ من صاحبِ
أتوكمُ بأقيالهم والحسامِ
تلوا باطلاً وجلوا صارماً
أفيقوا فإن أحاديثهم
ملما يُسمي مزيلَ النعمِ
فخص بهنّ أناساً وعمِ
لظعنِ الكفاةِ وشلّ النعمِ
وإن كان خالا لكم وابنِ عمِ
فشدّ بهم زاعمُ ما زعمِ
وقالوا صدقنا فقلتم نعمِ
ضعافُ القواعدِ والمدعمِ

زخارفُ ما ثبتتُ في العقولِ عمى عليكم بهن المعصمِ
 يدول الزمانُ لغيرِ الكرامِ وتضحى ممالك قومٍ طعم
 وما تشعرُ الأبلُ أن الركبِ أعمتُ إلى الرملِ أم لم تعم
 وأدرك التميمي الآن كيف يطمر الشيخُ أغراضه، وينصب فخاخه
 ويسويها بالأرض ويذري عليها ما يغطيها، فلا يدري أين هي . وانتقل
 الشيخ دونما استراحة إلى لزومية أخرى فاملئ :

إذا مدحوا آدمياً مدحتُ مولى الموالى وربَّ الأممِ
 وذاك الغنيُّ عن المادحين ولكنْ لنفسي عقدتُ الذممِ
 ومغفرةُ اللهِ مرجوةُ إذا حبستُ أعظمي في الرممِ
 فيا ليتني هامداً لا أقومِ إذا نهضوا ينفضون اللممِ
 ونادى المنادي على غفلةٍ فلم يبقَ في اذنٍ من صممِ
 وجاءتُ صحائفٌ قد ضمنتُ كطائرٍ آثامهم واللممِ
 رأيتُ بني الدهرِ في غفلةٍ وليستُ جهالتهم بالأممِ
 فنسكُ أناسٍ لضعفِ العقولِ ونسكُ أناسٍ لبعدهم

وكان شرح فاستراحة قليلة ، ثم عاد الشيخ إلى الإملاء :

قد ندمننا على القبيحِ فامسينا على غيرِ قهوةٍ نتنادمِ
 خالق لا يشكُّ فيه قديمِ وزمانٍ على الأنامِ تقادمِ
 جائزٌ أن يكونَ آدمُ هذا قبله آدمٌ على إثرِ آدمِ
 خدمَ اللهَ غيرُنا وأراننا أهلُ غيِّ لربنا تتخادمِ
 لست أنفي عن قدرةِ اللهِ أشباحَ ضياءٍ بغيرِ لحمٍ ولا دمِ

وبصيرُ الأَقوامِ مثليَ أعمى فهلماوا في حندسٍ تتصادم
وأبدى التميمي حركة اشعرت الشيخ أن تلميذه أعرف من رفاقه .
ولم يعز ذلك إلى سنه بل ظن أنه من « المستجيبين » ، فابتسم وأملى :
اصحاب ليكة أهلكوا بظهيرة حميت ، وعادُ أهلكت بالصرصر .
كسرى اصاب الكسرُ جابرُ ملكه
والقصرُ كَرَّ على تطاول قيصر
فأبدى التلاميذ استحساناً عظيماً لهذا الجنس البارع ولكن الشيخ لم
يبال وأتم :

لا تحمدنَّ ولا تذمَّنَّ امرءاً فينا فقير مقصرٍ كمقصرٍ
آليتُ لا ينفكُ جسميَ في أذى حتى يعودَ إلى كريمِ العنصرِ
وإذا رجعتُ إليه صارتُ أعظمي ترباً تهافتُ في طوال الأعصرِ
واللهُ خالقنا اللطيفُ مكوّنُ ما لا يبينُ لسامعٍ أو مبصرِ
أيامَ لم تكُ في المواطنِ كوفةً لكوفٍ أو بصرةً لبصرِ
وبدت حركة استحسان فلم يعرها الشيخ اهتماماً وظل يملئ :

والعقلُ يعجبُ للشروعِ تجسٍ وتحنفٍ وتهودٍ وتنصرِ
فاحذرُ ولا تدعِ الأمورَ مضاعةً وانظرُ بقلبٍ مفكرٍ متبصرِ
فالنفسُ إن هي أطلقتُ من سجنها فكانها في شخصها لم تُحصِرِ
والطولُ في وسطِ البنانِ لعلِّ كالنقصِ في أيامها والحنصرِ
فضحك التميمي ضحكةً بلغ رنينها اذن الشيخ ، واستغرب

الآخرون ما بدا منه . أما الشيخ فعرف صاحبه كل المعرفة وأمل قصيدة
أخرى من وزنها وقافيتها ختمها بهذا البيت :
وإذا أردتم للبنين كرامةً فالخزم اجمع تركهم في الاظهر
وسئل الشيخ لماذا ، فقال اكتبوا :

جنى ابن ستين على نفسه بالولد الحادث ما لا يحب
تقول عرس الشيخ في نفسها لا كنت يا شرّ خليلٍ صحب
انفع منه عندها برجد اذهب قرأ أو سقاء سحب
وقال :

تفرقوا كي يقل شركم فانا الناس كلهم وسخ
قد نسخ الشرع في عصورهم فليتهم مثل شرعهم نسخوا
ثم قال :

من وسخ صاغ الفتى ربه فلا يقولن توسخت
وقال :

لو أن كل نفوس القوم رائية كراي نفسي تناءت عن خزاياها
وعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها
ثم وقف والتفت نحوهم وقال : اسالوا الآن لماذا ؟ - لتستأنف حياة
جديدة خيراً من هذه الحياة . وكأنه أدرك أنه تورط فقال اكتبوا :

ما اقدر الله ان يدعو بريته من تربهم فيعودوا كالذي كانوا
ان كان رضوى وقدس غير دائمة فهل تدوم لهذا الشخص أركان
ما أحسن الأرض لو كانت بغير أذى ونحن فيها لذكر الله سكان

فتهلل التميمي حتى أبدى نواجذه وقال بصوت مسموع : القضية
ثابتة . وعبس الشيخ فقط التميمي ضحكته قطاً . وأملى الشيخ :
ولو طارَ جبريلُ بقيةَ عمره من الدهر ما استطاعَ الخروجَ من الدهرِ
وقدزعموا الافلاك يدركها البلى فان كان حقاً فالنجاسة كالطهرِ
وأما الذي لا ريبَ فيه لعاقلي فقدرُ الليالي بالظلامية الزهرِ
وان صح ان النيرات محسة فماذا نكرتم من وداير ومن صهرِ
لعل سهيلاً وهو فحل كواكب تزوجَ بنتاً للسك على مهرِ
وعمَّ الضحك حلقة الشيخ ، وارتاح هو الى ارتياح تلاميذه وفهمهم
منطقه وما يريد وما يعني . وصرفهم لاستراحة قليلة واستدنى التميمي
قائلاً له : أكشف لي عن صفحتك ، فما خطبك ؟ عرفت انك منا ، فماذا
تبتغي في حلقتي ؟

فصرح له التميمي بانه موفد من لدن الحاكم بأمر الله ، ومهمته أن
يتلقى بعض الدروس ، ثم يتوجه بالشيخ إلى القاهرة ليلقي الدروس
على « الدعاة » في « دار الحكمة » .

فابتسم أبو العلاء وقال له : كان ذلك قبل النذر ، خذ عني ما تشاء ،
واكتب ما تشاء ، وخبر « الامام » بما رأيت وسمعت ، أما ذهابي إلى
القاهرة فهيات . هيات أن يحمل عني مولانا الحاكم وزر عيني . نحن
قوم ، وأنت من العارفين ، ندين بالصدق ، ومن يكذب على نفسه يكذب
على الامام والاخوان ، والعياذ بالله .

وكان أخذ ورد ، وتمادى التميمي حتى استولى على أمد الحديث .

ودخل التلاميذ وقعدوا فأملى الشيخ :

عمى العين يتلوه عمى الدين والهدى
لي الله غارات السنين فانها
وهيون ارزاء الحوادث اتني
فدعني وأهوالاً امارس ضنكها
فيلتي القصوى ثلاث ليالٍ
مبدلة ظلماتها بزيالٍ
وحيداً أعانيها بغير عيالٍ
واياك عني لا تقف بجيالي
فظن التميمي أنه يعنيه ولكنه كتب ما أملى :

جاء القرات وأمر الله أرسله
ما أبرم الملك إلا عاد منتقضا
مذاهب جعلوها من معاشهم
احذر سليلك فالنار التي خرجت
وكان ستر على الأديان فانخرقا
ولا تألف إلا شت وافترقا
من اعمل الفكر فيها تعطيه الأرقا
من زندها إن أصابت عودها احترقا

فردد تلميذ مرح بيتاً آخر اخذوه عن الشيخ منذ مدة :

عروسك أفعى فهب قريبها
فضحك بعض وتضحك بعض ، أما الشيخ فاتم :

وكلنا قوم سوء لا اخص به
اذا كشفت عن الرهبان حالهم
بعض الأنام ولكن اجمع الفرقا
فكلهم يتوخى التبر والورقا
واستراح قليلا ليوضح ما خفي على تلاميذه ، وينشر ما طوي ،

ثم انشد :

مساجدكم ومواخيركم
وما اتمم بالنبات الحميد
ولكن قتاد عديم الجناة
سواء فبعداً لكم من بشر
ولا بالنخيل ولا بالعشر
كثير الاذاة أبا غير شر

فيا ليتني في الثرى لا أقوم إن الله ناداكم أو حشر
وما سرني أنني في الحياة وإن بان لي شرف وانتشر
أرى أربعاً آزرت سبعة وتلك نوازل في اثني عشر

وختم درس ذلك اليوم بما يلي :

يقول لك العقل الذي بين الهدى إذا أنت لم تدرأ عدواً فداره
وقبل يد الجاني التي لست واصلاً إلى قطعها، وارقب سقوط جداره

وهكذا انقضت شهور والتميمي يدور حول الشيخ ويداوره ويأخذ
عنه ، ويزين له الإقامة في القصر ودار الحكمة ، والشيخ ثابت لا يتحول
ولا يتزعزع . وأدرك التميمي أن ما يأخذه من علم الشيخ وما ينقله عنه
إلى مولاه خير وأبقى ، فكتب دفاتر كثيرة أملاها عليه الشيخ . واكب
على الدفاتر التي لم تمل فأخذ منها ما شاء ولسان حاله يقول : أنا على سفر
فلا بد من زاد ...

٣

واتصلت حلقة الشيخ في غرة رمضان سنة ٤١١ هجرية فأملئ
على تلاميذه :

أنا صائمٌ طولَ الحياةِ وإنما فطري اللحمُ ويومَ ذاكَ أعيدُ
لونانٍ من ليلٍ وصبحٍ لو نأنا شعري وأضعفني الزمان الأيدُ
والناس كالأشعار ينطق دهرهم فمطلق معشر ومقيد

قالوا فلانٌ جيدٌ لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيدٌ
فأميرهم نال الإمارة بالخنا وتقيهم بصلاته متصيدٌ
كن ماتشاً مهجناً أو خالصاً وإذا رزقتَ غني فانت السيدُ
واصمتُ فما كثرَ الكلامُ على امرئِ

إلا وُظنُّ بأنه متريدٌ

ثم رجع إلى موضوعه الذي لا يبرح من فكره فكانه الفكرة الثابتة :
دينٌ وكفرٌ وأنبياءٌ تقصُّ، وقرآنٌ ينصُّ ، وتوراةٌ وإنجيلٌ
في كلِّ جيلٍ أباطيلٌ يُدانُ بها فهلُ تفرّدَ يوماً بالنهي جيلٌ ؟
ومن أتاه سجلُّ السعدِ عن قدرٍ عالٍ فليس له بالخلدِ تسجيلٌ
وما تزالُ لأهلِ الفضلِ منقصةٌ وللأصغرِ تعظيمٌ وتبجيلٌ

وانتقل إلى الكلام عن قدرة الله فأملئ :

إني ونفسي أبدأ في جذابٍ أكذبها وهي تحبُّ الكذابِ
إنْ أدخلِ النارَ فلي خالقٌ يحملُ عني مثقلاتِ العذابِ
يقدرُ أنْ يسكنني روضةً فيها ترامي بالمياه العذابِ
لا أطعمُ الغسلينَ في قعرها ولا أغادي بالمحيمِ المذابِ

وقال :

بإذنِ اللهِ ينفذُ كلُّ أمرٍ فمنه فيضٌ أدمعك السجومِ
يجوزُ بحكمه موتُ البرايا وأن تبقى السماءُ بلا نجومِ

وجاء حديث الخير ، فأحکم الشيخ قعدته وأملئ :

إن أتاه الخير من عسجدٍ لو خرَّ هضبٌ فوقه ما انتلم

إن زجر الله حديداً نبأ أو أمر الله حريراً كلم
وأمل أيضاً :

أأخشى عذاب الله والله عادل
وقد عشتُ عيشَ المستضامِ المعذبِ

وانتقل إلى عروض أخرى فأملى :
لك الملك إن تُتعمَ فذاك تفضلُ عليّ وإن عاقبتني فبواجبِ
يقومُ الفتى من قبره إن دعوتهُ وما جرتُ مخطوطٌ له في الرواجبِ
عصا النسكِ أحمى ثم من رمحِ عامرِ
وأشرف عند الفجرِ من قوسِ حاجبِ

ومديده نحو السماء وأنشد :

وما عندي وعند الله علمي إذا كذبت قوائلُ مسنداتِ
فهل علمت بغييبٍ من أمورِ نجومٍ للمغييبِ معرّياتِ
وليست بالقدراتِ في ضميري لعمرِكَ بل حوادثِ موجداتِ
ولو أمرَ النبي خلقَ البرايا تهاوتُ للدجى متسرّياتِ
وقد زعموا بأن لها عقولاً وأقضيةُ المليكِ مؤكّداتِ
وأن لبعضها لفظاً وفيها حواسدٌ مثلنا ومحسّداتِ

ثم أملى هذين البيتين :

يكر موتانا إلى الحشر إن قال لهم بارئهم كروا
يخلق منا آخر أولاً كانتا السنبلة والبر
وشاء شيخنا أن يرمي آخر سهم في جمعته ويعظم الله أعظم تعظيم

فقال اكتبوا ثراً : « يقدر ربنا أن يجعل الانسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجاري دمه ، ويجد الطعام بأذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشي إلى الغرض على هامته . وأن يقرن النير وسنير حتى يريا كفرسي رهان ، وينزل الوعل من النيق ومجاوره السوداني ، حتى يشد فيه الغرض ، وتكرب عليه الأرض ، وذلك من القدرة يسير ، سبحانك ملك الملوك وعظيم العظماء . »

واعتقد الشيخ أنه أدى أكبر تسبحة لله فدمعت عينه ورجف صوته .
من يدري ماذا كان يحول في خاطر الشيخ في تلك الساعة الخطيرة
من عمره ؟

قد يكون هذا - ولست أجزم فيما أزعم - وما زالت هذه قدرة الله
فلماذا لا ينظر إلى عبده الناسك فيقول له أبصر ، فيبصر ؟
وتجلد الشيخ وأملئ :

دموعي لا تجيبُ على الرزايا	ولو لاذاك ما فتئتُ سجوما
رضاً بقضاء ربك فهو حتمٌ	ولا تُظهِرُ لحادثةٍ وجوما
ولم زُحلا أو المريحَ فيها	ولا تلمُ الذي خلقَ النجوما
ولست أقولُ إن الشهبَ يوماً	لبعثِ محمدٍ جعلت رجوما
فامسكْ غربَ فيك ولا تعودُ	على القولِ الجراءة والهجومَا

وشاء أن يأتي على آخر الفكرة ويجلوها فقال :

زعمَ الناسُ أن قوماً من الأبرارِ عولوا بالجوِّ في الطيرانِ
ومشوا فوقَ صفحةِ الماءِ ، هذا الأفكُ ما جرى العصرانِ

وقال الشيخ : رمضان ضيق يا أولادي ، فلنختم درس هذا النهار ،
اكتبوا :

قلدتني الفتيا فتوجني غداً ناجاً باعفائي من التقليدِ
ومن الرزية أن يكون فؤادك الوقادُ في جسدٍ عليه بليدِ
وحوادثُ الأيام تُولدُ جلةً وتعودُ تصغرُ ضدَّ كلِّ وليدِ
- امضوا ، سلمكم الله .

٤

وبعد افطار غرة رمضان سنة ٤١١ ، دخل الداعي اسمعيل التميمي
على أبي العلاء فقال : قد تكون بلغت سيدي وشيخي أخبار مصر .
انها سوداء تستوكف العبرات . تحريق وقتل ، ونهب وسلب ،
واضطراب وفزع ، ثار العوام « بالدعاة » فقتلوا بعضهم وعقب ذلك
حرق مصر . وقد يكون مولانا الحاكم استطال بقائتي في المعرة ولكن
عذري معي ، فما أحمله إلى الحضرة من علم الشيخ يشفع بي عنده ، ويعزبه
في كربته . لست أشك في أنه سيعنّفني أشد التعنيف ، وإن أدركته في
ساعة شؤم فالويل لي .

- علام يعنّفك ؟

- لاني لم أقمُ بمهمتي . استسفرنني إليك ، وها أنا أعود وحمدي ،
والله ، يا سيدي ، أحليف لك أنني أخشى لقاءه .

.. تخاف مقابلته ؟

.. لست وحدي أخاف ذلك . صوت قوي مرعب كالرعد القاصف يحمل الروح الى سامعيه ، بنية قوية متينة كأنه من الجبابرة والعمالقة ، مبسوط الجسم ، مهيب الطلعة ، عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة ، نظرات حادة مروعة كنظرات الأسد ، لا يستطيع الانسان صبراً عليها . كثيرون سقطوا على الأرض وجلا منه وأخرسهم خطابه .

كان ابو العلاء يسمع كلام اسمعيل وكأنه في غيبوبة .

وسكت التميمي هنيهة فقال أبو العلاء : خلق عجيب .

.. نعم يا مولاي ، وخلقه أعجب من خلقه ، يشمئز من الدنيا ، عفيف طاهر ، صادق جواد ، نارة يتسع صدره فيحمل الأهرام والمقطم ، وأحياناً يخف حله فيقبل عزرائيل بخيله ورجله ، وهو في الحالين لا يجيد قيد انملة عن طريق الصدق والخير .

.. رغبتني فيه يا اسمعيل ، وزينت لي لقاءه ، لولا اني في قيدين ، وقيد واحد منهما كافٍ : العمى واليمين . العمى يا تميمي مصيبة إذا رافقه طبع سوداوي كطبعي . ما أنا أول أعمى ، ولكني أول رجل من العميان في هذه الغريزة . آنف ان أقاد كالكبش ، ولا اغتفر لنفسي زلة أو تقصيراً ، ولا أحمل منة . الله الله في . العلم يريد أن يظهر ، ولكن العمى يهيب بي : الزم مكانك فخير دواء لك هذه الخلوة فلا تبرحها .
ليته يستوي لي جناحان فاطير بهما إلى القاهرة ، ولكن الله لا يريد ، ولتكن ارادته يا أخي .

العمى محنة ولست أحمد الله عليه كما ادعى بشار ، فمن لي أن ابصر ساعة واحدة لأرى عجائب خالقي التي اتخيلها ولا أدركها تمام الإدراك .
توهم اني ادرك الاشياء ، ولكني أقولُ لك انني أدرك المرثيات ادراكاً ناقصاً . اتخيلها من كلام العارفين بها ، ولكن الكلمة ، يا اسمعيل ، لا تؤدي المعنى تماماً غير منقوص .

أعاني الله على محنتي وجعل خاتمة طريقي خيراً . فهل بعد الشقاء بقاء ؟ الله اعلم . ولكنني مؤمن بالخير ، ولا يكون المصير إلا خيراً ، ان شاء الله .

وبعدُ يا تيمي ، افما تقول لي ما حاجة مولانا الامام ، حرسه الله ، بهذا الجسد النحيل ؟ إن هواي معه وفكري عنده ، والهدف واحد ...
أما علمي فما حجبتة عنك ، فانت حامله إليه وهذا كل ما في جعبة الشيخ . ما لي وللحواضر يا اسمعيل ، سيان عندي الليل والنهار ، والقصر والكوخ . اتظن ان رحلتي الى الحاكم تريدني معرفة به ؟ لقد وصفته لي فتخيلته جسمانياً ، وما يبلغني عنه من التزاهة والزهد ومقاومة الشر يربطني به .

أنا معجب بأبيه من قبله وبه ايضاً ، وكلنا نسعى لنظهر أنفسنا وننقيها ، ناهيك بانتي أعلم ما علمت ، فارو له خبراً ما رأيت وسمعت .
اقرأ عليه ما نسخت من دفاتري .

لقد سئمت الاسفار التي يعجز عنها المستطيع بنفسه ، فكيف المستطيع بغيره مثلي ؟ اما قال الشاعر :

وماذا تبتغي الشعراءُ مني وقد جاوزت حدَّ الأربعين
فانا، يا أخي، أحبو إلى الخمسين، فالأجدر بي إن اتأهبَ للرحلةِ
الكبرى .

واطرق أبو العلاء وسكت .

وكان التميمي ينظر إلى شيخه والحزن يكسو وجهه ذبولاً وفتوراً.
ثم نهض اسمعيل وأخذ يد الشيخ وصافحه مودعاً . فأمسك المعري بيده
طويلاً وقال : وفقك الله يا اسمعيل ، ولا رأيت مشقة رحلتك . حقاً إن
السفر قطعة من العذاب . وإذا ما بلغت الحضرة فسلم على المولى الامام
وقل له : ان خادمه شيخ وشاب ، وكبر على السفر ، وإذا كان العذر من
شيم الكرام ، فاجدر به ان يكون إحدى خصال الامام ، فبصلاح الائمة
صلاح الامة ، لزال مولانا منار الملة ومستودع علوم الائمة .
وانحنى اسمعيل ليقبل يد الشيخ ، فانتفض أبو العلاء وهو يردد :
معاذ الله .

وخرج اسمعيل متعثراً بأذيال الخيبة، وعاد أبو العلاء يدمدم ويهمهم...
ودخل الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم وشرع يكتب،
والشيخ يملي .

معتقلا

١

خالط ابو العلاء الناس ، فلقني بينهم عناء وكداً . وارتحل من المعرة الى اللاذقية وانطاكية وطرابلس طالباً « علم الاوائل » ، فانفتح له كهف المعرفة، فمضى النفس برحلة الى العراق ، ولم يثنه عن ذلك عمساها ولا عجزه ولا بكاء أمه . فلقني في تلك الهجرة ما لقي . لم تشف نفسه ، ولا ابرأت سقمها تلك الجامعات العلمية ولا الجمعيات السرية ، كما كان يتربى ، فاتقلب راجعاً إلى المعرة بعد سنة وبضعة اشهر ، و « مرض العصر » قد تمكن منه كل التمکن ، فحاول الاستشفاء منه في وحدة قاسية فرضها على نفسه ولم يجد عن صراطها المستقيم قيد شعرة إلا مرة واحدة ، حين خرج الى « صالح » يشفع بالمعرة بلده ، فأسمعه « سجع الحمام » وسمع منه « زئير الاسد » ...

كان شيخنا نحيل الجسم غريب الاطوار ، حاد الذكاء والطبع . كان عجيب الذاكرة ، قفلة ، فجنى عليه ذكاؤه ، وحصرته ذاكرته في « نقطة البيكار » فعاش في بؤرة فكرة ثابتة . والفكرة الثابتة تكون في الحب كما تكون في الحرب ، وتكون في العفة كما تكون في الغلظة والشبق ،

وتكون في العلم كما تكون في الجهالة ، وتكون في الغزل كما تكون في
الفلسفة . فعمر بن ابي ربيعة وبشار كالمتني والمعري . لكل من هؤلاء
فكرة ثابتة لا يحيص عنها وان يختلف الاتجاه والهدف .

رأى أبو العلاء عطف الناس عليه صدقة واحساناً ومناً فأثر العزلة
في بيته القاتم الاعماق الخاوي المحترق ، ورفع عقيرته متغزلاً بتفرده
المبدع فقال :

وما للفتى إلا انفرادٌ ووحدةٌ إذا هو لم يرزق بلوغ المآربِ
ثم طفق ينمى على الناس مساوىء اخلاقهم ويعيرهم مكرم
ورياءهم ، فهم طغاة يعدو بعضهم على بعض ، كالذئب يأكل عند الغرة
النيبا ، وهم :

كلابٌ تغاوت أو تعاوتٌ لجيفةٍ وأحسبني قد صرتُ ألامها كلبا
اننا نجل قدر الشيخ ان يكون كما تواضع وقال ، ولكنه، رحمه الله ،
يحود بما جاد عن طبعٍ وقد يكون مصيباً إذ يقول :

انمازت الناس اخلاقٌ يعاش بها فإنهم عند سوء الطبع اسواءُ
أو كان كلُّ بني حواءٍ يشبهني فبئس ما ولدت للناس حواءُ
بعدي عن الناس برءٌ من سقامهم وقربهم للحجى والدين أدواءُ
ثم تفوز قدرٌ سويدائه فيشتما كصاحبنا الآخر - المتني - بلا
حساب فيقول :

وجوهكم كلفٌ وافواكم عدى واكبادكم سودٌ وأعينكم زرقُ
وما بي طرقٌ للمسير ولا السرى لأنني ضريرٌ لا تضيء لي الطرقُ

وتوغل في اساءة الظن بالانسانية ففضل على بنيتها الخطب اليابس ،
وهو فيما يقول كما قال النابغة في مدح صاحبه : ولا احاشي من الاقوام
من أحد .

النابغة استثنى واحداً ، وهو سليمان ، أما ابن سليمان هذا فقال :
عصا في يد الاعمى يروم بها الهدى ابرّ به من كل خدنٍ وصاحبِ
خيرٍ لعمري واهدى من « امامهم » عكازُ أعمى هدته إذ غدا السُّبُلَا
وتذكر الاعمى « الحبيس » ان ليس كل ضرير يستطيع ان يحكم على
نفسه بالحبس المؤبد فتذكر الرحمة ، وهي من طبيعه وطبع كل عاجز غير
مستطيع مثله ، فالان جانبه وقال يخاطبهم :

إذا مرّ أعمى فارحموه ، وأيقنوا ، وان لم تكفوا ، أن كلكم أعمى
ثم ذكر ان الناس يقولون : « اطردهم الاعمى واكسر عصاه ، ما
انت ادري من ربه النبي اعماه » ، فكيف يطلب منهم الحسنه بالدبوس
فيقول لهم : « أنتم عميان مثلي ، فلا تغرّكم عيونكم المفتحة ! » ففتش
عن شعر فيه تؤدة ورفق فقال :

تصدّقْ على الأعمى بأخذِ يمينه لتهديه ، وامتنُ بأفهامك الصّامِ
حسب المعري انه يستريح من تكاليف الحيلة إذا اعتزل الناس ، فما
انقضت سنة على تلك الرسالة التي وجهها الى « الجماعة » في المعرة معلناً
خطته الجديدة ، حتى طار له صيت في الاقطار ، والناس يعجبهم كل
غريب ، فتهافتوا عليه يطلبون عنده العلم في عصر الخفاء والاسرار ،
يحدوهم اليه قوله النبي ملا الآفاق :

بني زمني ، هل تعلمون سرائراً علمت ولكنني بها غير بائح .
والشيخ ، كما نبأنا ، عنده ما عند جميع الناس من شعور واحساس ،
فما ضاق ذرعاً بهؤلاء الذئاب ، نزلوا عنده أو جاوروه ، وشرع يملئ
عليهم فلسفته وآراءه . ثم ما تمالك ان قال :

وماذا يتبغي الجلساء عندي أرادوا منطقي وارتدت صمتي
وبما ان الكثيرين يفلسفون حول أقوال هذا الضير فما علينا لو القينا
دلونا بين الدلاء وتحذلقنا هنيهة ، فتساءل مثلهم : هل يريد أبو العلاء من
كلمة نطق وصمت شيئاً ابعد ؟ هل خطر على باله شيء مما سموه في عصره
الباطني « ناطقاً وصامتاً » ؟

انني لأرى الشيخ يمد جذوره في القلوب ، وينشر فروعه في
العقول ، وهو يجري لغاية في كل ما يكتب . انه يقف بيكاره عند نقطة
ويسط ساعده الآخر ليجعل كل شيء وسط الدائرة .

الأشبه عندي ان شيخنا يهدم ويبني ، يسرد كل ما عنده من أفكار
في احوال مختلفة ، وينظمها شعراً لتحفظ وترسخ في اذهان تلاميذه ،
فجاء ما نسميه « اللزوميات » صورة حقيقية للتفكير الانساني الذي
يختلف بين ليلة وضحاها . ولكن هذا الاختلاف الذي نرى لا يوارى عنا
وجه الرجل ، فله اساليب خاصة يصطنعها في بث ما يعتقد . فاذا رأته
يهاجم بعنف وعتو وطغيان فاعلم انه ينفي ويهدم ويقوض وينسف
ويدك دكاً . واذا رأته يوارى ويوارب ، ويلقي تبعة الكلام على غيره ،
فاعلم انه كالرجال السياسيين الذين يشيعون الشائعات عما ينوون عمله

وينتظرون بوادر تأثيره . فاذا قال الشيخ : « قال قوم ، او زعموا ، او يقال ، فاعلم انه يرائيك ويداورك ليري ما تبدي ، وكن واثقاً ان هذه الـ « يقال » وقال قوم ستصبح في مقام آخر عقيدة يدافع عنها الشيخ بسيف برهانه وترس منطقته .

أسمعت بالخلوطة ، تلك الاكلة المعمولة من جميع الحبوب التي تؤكل؟ ان هذه الحبوب متى اعتلجت في القدر تؤلف طعاماً خاصاً . وأبو العلاء هو تلك الخلوطة الفاطمية الطعم .

وإذا قلنا فاطمي ، فكأنتا تقول فيثاغوري افلاطوني فيه من الارسططالية بمقدار البهارات والابازير .

يضحكني ذلك الذي يتساءل : اين عرف أبو العلاء أبيقور ؟

وما شأن أبيقور هذا مع ابي العلاء ، وعند ابي العلاء الدعوة الفاطمية وعلومها السرية المستقاة من رأس نبع الفلسفة ؟ ما حاجة شيخنا إلى الجداول ، إلى ترجمة جالينوس لايقور ؟ ففلسفة اليونان ، في عهده ، قد تغلغلت في العقائد المشرقية وهضمها علماء المسلمين والشباب المفكر ، وكانت تغلي بها الصدور والضائر ، في عصر ابي العلاء ، غليان القدر على النار الدائمة ، لافوق نار الجباحب ، كما عبر ابو العلاء في الفصول والغايات عن حياته .

العنزة مقتولة والذئب حدها ، فما لنا نفتش عن الغريم ؟

تلك شنشنة نعرفها من أخزم ... يريدان يزعم انه اخترع

البارود ...

ان فلسفة أبي العلاء ، لا بل آراءه كلها نوعان : نوع مستعد ، كما قلت سابقاً ، من الاختبار الانساني ، وهو ما يطلق عليه اسم الفلسفة العامة ، وبالاختبار يهتدي كل من في رأسه عقل . ونوع يتجه اتجاهاً معلوماً ، ويعبر أو يترجم عن مذهب بعينه هو مذهب الفاطميين . فن نوع الفلسفة العامة قوله :

واعطِ أباك النصف حياً وميتاً وفضلْ عليه في كرامتها الأما
أقلك خفاً اذ اقلتك مثقلاً وارضعتِ الحولين واحتملت تما
وأقتك عن جهد ، وأفاك لذةً وضمتِ وشمّتِ مثلما ضم أو شماً

يذكرني قول المعري هذا خلفاً وقع بين خالي وجددي لامي . من جدي علي خالي بتخليفه اياه بما يشبه فلسفة الحبيس . وهنا أقول كما قال صاحبنا هناك ، عن المعري واييقور ولوكريس : لا أدري اهنا توارد خواطر بين المرحوم الخال طنوس والمعري ، ترى أين قرأ الخال لزوميات المعري حتى سرق فلسفته هذه ؟ انه لم يكن يقرأ ويكتب . اتظن ان خالي اخذ هذه الفلسفة العلائية عن الاطباء الدجالين ، عن جالينوس ، عن ابيقور ؟ ..

ألا يشبه قول المعري هذا قول صاحب ' الميجانا ' : امي وبيبي
كيفوا تا جيت انا ؟

فهل نعد هذا فلسفة ؟ لا ورحمة خالي الفيلسوف ، ان شيخنا اباالعلاء داعي طريقة وشاعر مذهب معروف لا صاحب فلسفة ، وهذا واضح في اقوال عديدة تنطق بما يعني نطقاً صريحاً .

واعجب من هذا زعم صاحبنا ان « الفصول والغايات » هي أصل اللزوميات مع ان رائحة الهرم تتبعث من الفصول والغايات ، وهي تدل دلالة صارخة على انها اعدت زاداً للرحلة الكبرى ... ففيها رائحة الزبور الداودية ، رائحة التوبة النصوح .

ان جميع رسائل المعري وفصوله مضمونها واحد ونواتها اللزوميات ، وكانا كتبها كلها ليقرر طريقته ويؤيد مذهبه .

ويتعجب بعضهم مما يرون عند الشيخ من متناقضات ويفتشون عن « سره » تحت الالفاظ ، واسخفهم تفتيشاً ذاك الذي قال بالتشابه بين المعري ولو كريس الشاعر اللاتيني ، إذ قرأ هذين البيتين :

تشابهت الخلائق والبرايا وإن مازتهم صور ركنه
وجرم في الحقيقة مثل جرم ولكن الحروف به عكسه
اني اراهم يتقرون جداً حتى يبعدوا بابي العلاء الى آفاق واجواء
غريبة عجيبة .

لا ادري إذا كان المعري يعني هؤلاء بقوله في سقط الزند :
يكررتني ليفهمني أناس كما كررت معنى مستعاداً
ولا عجب ، فلهؤلاء اضراب ، اعني اولئك المؤلفين الذين يغربون
في استيحاء نبوءة دانيال ورؤيا يوحنا واخبار نوستراداميس ...

والاعجب من هذا وذاك ان يقول هذا الرجل : « ان تكلف ابي العلاء قافيتين في اللزوميات والفصول نتيجة عبث وتسلية ونتيجة فراغ ولعب » ، كأنه يجهل ان المعري عاش في عصر الصنعة ، وانه معلم مدرسة

لو كانت في زماننا لسميت جامعة ، وكان عميدها سبعة دكاترة مثل تنين
الرؤيا ... فهو في تأليفه نثراً وشعراً يمد يده إلى كل دوحه ، وخصوصاً
إلى تلك التي أوفرت في أعلى عليين ، وإلى تلك التي نجمت في قعر
الجحيم .

فكر جبار يعنيه كل ما يعني طلابه الآتين اليه من كل فج عميق
يطلبون العلم عنده ، وهو يخاطبهم :

وكم شاهدت من عجبٍ وخطبٍ ومرُّ الدهرِ بالإنسانِ يسلي
تغيرُ دولته وظهورُ أخرى ونسخُ شرائعٍ وقيامُ رسلٍ
كان شيخهم يعالج جميع قضاياهم ويهذب نفوسهم وأجسادهم
وأخلاقهم ، فهو يعلمهم عملياً ونظرياً ، ومصدر نظرياته عقله الجبار ،
ومختبر عملياته جسده النحيل الذي قسا عليه اذ صيره حقل اختبار ،
فكان لمريديه وقاصدي فضله واعظاً باللسان والمثل ، يطبق علمه
على عمله .

وأى حرج على الشيخ ان ترك قضايا معلقة ؟ فكم ترك الفلاسفة قبله
من قضايا وقفوا حيالها حيارى . وان تناقض نفسه فليس هو باعظم من
أرسطو وأفلاطون ، فكم من تناقض عندهما .

ولكن أبا العلاء لم يناقض نفسه قط ، فما يعده بعضهم تناقضاً ليس
إلا تقية في عصر كانت فيه كلمة « علم الأوائل » تقضي على الرجل . وكم
قضت على رجال جاؤوا بعد المعري بقرن وقرنين .

ان ما يعدونه تناقضاً ليس إلا سخرية ، فاقراً بتأمل وتجرد تبين

صحة زعمي .

يظن بعضهم ان ابا العلاء يبتعد عن الفاطمية حين يقول نافياً
ظهور الامام :

يرتجى الناس ان يقوم « امامٌ ناطقٌ » في الكتيبة الحمراء
كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحمة عند المسير والإرساء
فاتفرد ما استطعت فالتقاتل الصادق يضحى ثقلاً على الجلساء

وهذا الظن منتهى الشطط لان « الامام » يتوارى في قمة الدعوة
الفاطمية - الدعوة التاسعة - ويحل محله العقل . يصير الامام رمزاً
لمعنى ليس أكثر ، واليك النص : « الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة ، وان
الامام انما وجوده في العالم الروحاني إذا صرنا اليه بالرياضة في المعارف ،
وظهوره الآن انما هو ظهور أمره ونهيه على لسان أوليائه . »

وفي هذا المعتقد ان الانسان ينتقل من حال إلى حال إذا صفى نفسه
وتقأها ، وهذه هي غايتهم من الزهد والتقشف ، أي بلوغ التسامي إلى
أعلى حد يستطيع بشري بلوغه .

٢

أما « العقل » العلائى فهو العقل اليوناني الفيثاغوري بعينه ، وكذلك
العقل الفاطمي ، والنفس والجسد العلائيان فيثاغوريان أيضاً ، فهو يرى
كما يرى الفيثاغوريون أن الطهارة في خلاص النفس من البدن ، لأن

الجسد قبرٌ للنفس وهو عدوها اللدود ، وفي هذا قال المعري :
أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيثِ
لفقدي ناظري ، ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيثِ
ومذهب الفيثاغوريين أن وسيلة النجاة هي التطهير والزهد وتغليب
العقل على الحواس . فان الحواس كثرة وشقاق تخدعنا بأمور زائلة ،
والعقل وحدة ومحبة ، والغاية القصوى العودة إلى المحبة والوحدة ، وإلى
هذا ذهب أفلاطون بعدم فقال : « إن حياة النفس لا تتحقق تماماً إلا
بخلاصها من المادة في عالم روحي مثلها » . و « العقيدة ثابتة » يدافع
عنها بشدة .

والفيثاغورية كالنظمت الدينية اليوم ، عاش أعضاؤها في عفة
وبساطة لبس وماكل ، وقد حرمت أكل لحم الحيوان وبعض النبات -
كما حرم الحاكم أكل الملوخية مثلاً .

لسنا نقول إن أبا العلاء هذا حذو هؤلاء ، كما أننا لا نتساءل إن كان
المعري عرف ذلك ومن أين عرفه ، فهو من لدات « اخوات الصفاء »
وقد حضر مجالسهم ، وقد يكون ناقشهم وجادلهم ، حين استشارهم قبل
أن يختط خطته التي سار عليها طول حياته .

أليس يقول كما مر بك في رسالته إلى « الجماعة » في المرة : « فاجعت
على ذلك واستخرت الله فيه ، بعد جلالة على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلمهم
رأه حزماً وعدّه ، إذا تم ، رشداً ؟ »

لا يليق باللييب أن يتساءل عن كل هذا لأن عصر المعري أنضج

عصور الفلسفة العربية ، وأبناؤه عرفوا مثلنا فلسفة اليونان وتأثروا بها . كانوا عصباً عصباً وجماعات جماعات يطعمون الأديان بهذه البراعم الجديدة القديمة، والحكومة تطاردهم وتقتلهم فرادى وثنى، صبراً وتقداً . تصلب وتغرق وتشرد وتنفي ، والفلسفة تزداد نمواً وانتشاراً .

كانوا يسمون هؤلاء زنادقة ، وأبو العلاء يحدد لهم لابن القارح بقوله : « أما غيظه - أي ابن القارح - على الزنادقة فأجره الله عليه كما أجره على الظلم في طريق مكة ، واصطلاء الشمس بعرفة ، ومبيته بالمزدلفة . » « ولا ريب أنه ابتهل إلى الله ، سبحانه ، في الأيام المحدودات والمعلومات أن يثبت هضاب الإسلام . ولكن الزندقة داء قديم ... وقد كانت ملوك الفرس تقتل على الزندقة . والزنادقة هم الذين يسمون « الدهرية » ولا يقولون بنبوّة ولا كتاب . » ويقول له في مقام آخر إذ يحدثه عن الحلوليين : « ولم تكن العرب الجاهلية تقدم على هذه العظائم ، بل كانت عقولهم تجنح إلى رأي الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء ، إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي . »

وبعد ، فما هو الدين عند المعري ؟ أليس كالذي عند سقراط : « تكريم الضمير النقي للعدالة الإلهية ، لا تقديم القرابين وتلاوة الصلوات من أيدٍ وأفواه ملطخة بالآثم . وإن النفس متميزة من البدن ، فلا تفسد بفساده ، بل تخلص بالموت من سجنها وتعود إلى صفاء طبيعتها ؟

القوانين العادلة صادرة عن العقل ومطابقة للطبيعة الحق ، فمن يحترم القوانين العادلة يحترم العقل والنظام الإلهي . والإنسان يريد الخير

دائماً ويهرب من الشر ، فمتى تبين ماهيته وعرف خيره بما هو إنسان ،
أراده حتماً ، أما الشهواني فرجل جهل نفسه وخيره ، ولا يعقل أن
يرتكب الشر عمداً ، وعلى ذلك فالفضيلة علم والرذيلة جهل . « وقد جاء
في كتب الفاطميين (الدروز) : « الناس مولودون جهالاً » .

هذا إيمان سقراط بالعقل وحبه للخير ، وما رأيت أبا العلاء يدعي
أكثر من هذا ، ولا يدعو إلى أبعد من ذلك .

وأبو العلاء لم يخفَ على معاصريه ، فعرفوه واكتشفوه قبل أن
نكتشفه نحن كما ادعى بعضنا . لقد عرف ابن الزيات الجاحظ
فقال : « أثق بظرفه ولا أثق بدينه » .

وبعد ، أليس كل ما تحدثنا عنه مدموجاً في الدعوات والعلوم
الفاطمية ؟ فلا حاجة إذن أن يفتش عنه أبو العلاء هنا وهناك ، كما أنه
ليس لنا أن نتساءل ان كان قرأ سقراط وأفلاطون وأبيقور ولو كريس
وموكريس ... فكل هذا كان معروفاً من القوم ، ناهيك بأن العقل
في كل زمان ومكان يدل على هذا ، وأبو العلاء لم يؤمن بغير العقل الذي
قدسه فلاسفة اليونان جميعاً وبه استعانت الدعوة الفاطمية وعليه بنت
أسسها ، حتى اليوم .

أما « الخير » فهو عندهم بمثابة الله ، بل هو الله ، وهذا ما دعا إليه
الفاطميون ، وأذنتوا به ، وذكروه مع الله : « حيّ على خير العمل . »
وفي الخير يقول أفلاطون : « الخير شيء أسمى من الماهية بما لا يقاس
كرامة وقدرأ ، وهو رباط كل شيء وأساسه ، والخير غاية العقل

التصوى . « والمعرك الأول يصير عند أرسطو « هو الخير بالذات فهو مبدأ الحركة ، هو المبدأ المتعلقة به السماء والطبيعة . »

ويقول أرسطو أيضاً : « كل فن وكل فحص عقلي ، وكل فعل وكل اختيار مروى فهو يرمى إلى خيرٍ ما ، لذلك رسم الخير بحقٍ انه ما اليه يقصد البشر وعلى معرفة الخير يتوقف توجيه الحياة . »

أما اللذة التي عافها المعري فهي عند المعلم الالهي « غاية العبيد والبهائم ، وهي حياة العوام الأجلاف » ، والسعادة تتحقق « بتأمل الخير الأعظم والاتحاد به » ، والميول تصير خيرةً باتباع العقل ، وشريرةً بعصيانه .

« ومن يتوهم أن المثابرة غير لازمة للحصول على الكمال مثله مثل المريض الذي يريد الشفاء ولا يستعمل وسائله . »

ويقول أرسطو : « الخير يسمى بأسماء كثيرة فيقال له الله ، أو العناية ، أو العقل . »

أما أبو العلاء فدعا إلى الخير ، وفهمه كما فهم النصارى « الندامة الكاملة » أي لا خوفاً من الجحيم ولا طمعاً بالنعيم ، وهي عندهم توصل إلى ملكوت الله توأ وبلا واسطة . أما الكهنة فيقولون إنها صعبة جداً فلا يخاطر المؤمن بنفسه ما زال الكاهن موجوداً . وشاعرنا يقول في هذا :

ولتفعل النفسُ الجميلَ لأنه خيرٌ وأحسنُ لا لأجل ثوابها



حالي جال الياس الراجي إذا رأيت الخير في رقدتي
وإنما أرجع أدراجي عدتها ليلة معراجي

*

فإن قدرت فلا تفعل سوى حسن بين الأنام وجانب كل ما قبحا

*

ما الخير صوم يذوب الصائمون به وإنما هو ترك الشر مطرحاً
ولا صلاة ولا صوف على الجسد وتفضع الصدر من غل ومن حسد

*

عش مجيراً أو غير مجبر الخير يهس بينهم
فالخلق مربوب مدير ويقام للسوات منبر

*

سافعل خيراً ما استطعت فلا تقم وينفر عقلي مفضباً إن تركته
على صلاة يوم أصبح هالكا سدى واتبعت الشافعي ومالكا

*

كن صاحب الخير تنويه وتفعله مع الأنام على أن لا يدينوكا

*

ولا تكن لسبيل الشر مبتكراً اصرف إلى الخير من نهج الهدى سبلك

*

والخير محبوب ولكنه يعجز عنه الحي أو يكسل

والأرضُ للطوفانِ مشتاقَةٌ لعلها من دونِ تغسلُ
قد كثرَ الشرُّ على ظهرها وأتهم المرسلَ والمرسلُ

✽

سأبع من يدعو إلى الخير جاهداً وأرحل عنها ما أمامي سوى عقلي

✽

إذا ما فعلتَ الخيرَ فاجعله خالصاً لربك وازجر عن مديحك السنا
فكونك في هذي الحياة مصيبةً يعزيك عنها أن تبرُّ وتحمينا

وأخيراً يصرخ :

والخيرُ أفضل ما اعتقدت ، فلاتكن هماً ، وصلُّ بقبلتي ، أو زمزم
لقد مرت بك كلمة « طوفان » فاعلم أن أبا العلاء لا يعني الطوفان
المعلوم ، وإنما يعني معنى فاطمياً أبعد وهو قوة الخير التي تطغى على كل
شيء في المنتهى فتغسل أدران الكون ، ويسود « أهل الخير » .

٣

أخالنا شعبنا كلاماً عن « العقل » و « الخير » العلائيين ، فلننتقل
إلى حياة شاعر العقل العملية .

بعد وفاة سقراط أسرف تلميذه انتستانس في محاكاته معيشة وحرية
قول ، وكذلك فعل تلامذة انتستانس ، فأوجبوا على « المرید » أن يعدل
عن خيرات الدنيا وملازمها ، وأن يتنزل عن مكاتته الاجتماعية ، ويرسل
شعر الرأس واللحية ، وسمي هؤلاء « بالكلبية » لاجتماعهم في مكان اسمه

« الكلب السريع » فكانوا يجابهون الحضور بنقائصهم في قول جريء ، مدعين أنهم يؤدون مهمة كلفهم بها الآله « تزوس » ، وما مهمتهم تلك غير ملاحظة عيوب الناس والتشهير بها ، متخذين من اسمهم - الكلبية - تشبيهاً . فيقولون أنهم حراس الفضيلة ينبحون على الرذيلة .

وفي الانجيل الطاهر شيء من هذا : « ملعون كل كلب لا ينبح » . فهل تقدر أن تقول كغيرنا أن شيخنا تشبه بهؤلاء وأولئك بالقول والعمل والزهد وشظف العيش ؟

وإذا التفتنا إلى « مولانا » الحاكم ، الإمام الفاطمي ، رأينا أنه نزع في آخر حياته ، قبل « الغيبة » ، إلى مثل هذا الزهد ، كما سترى . ناهيك بأننا لا نطلب شيئاً عند فلاسفة اليونان إلا وجدناه عند « الفاطمية » وتعاليمها السرية والعلنية ، قولاً وعملاً .

وفي استقصائي الأخير عن فلاسفة اليونان عامة ، والكليين خاصة ، رأيت أنهم أقل أهل بلادهم شعوراً بالوطنية الضيقة ، فهم لا يحرصون عليها ، أو لا يباليون بها ، بل يميلون إلى الإنسانية الجامعة : الدولية . وهذا ما وجدته عند شيخنا أبي العلاء ، فهو تنوخي عربي قح ، ولا يذكر القومية ولا العروبة ، ان لم يقل بالعكس ، كأنه ليس يعنيه من الدنيا الا المعرة والذين يسميهم « الجماعة » . وفيما خلا ذلك فهو يخاطب الناس اجمعين .

فهل هذا اتفاق أو تشبه بالفلاسفة ؟ لست أدري . والذي أدريه ان هذا هو الواقع . ولكن الذي يبدو لي هو ان الفاطمية لا تقوم على العروبة

وان كان ائمتها أحفاد النبي (صلعم) .

لم أر للعرب والعروبة ذكراً عند الشيخ ، بل رأيت يتعدى ذلك إلى التبرؤ من شعار قومه فيقول :

فشعاري « قاطع » وكان شعاراً لتنوخ في سالف الدهر « واصل »
وإذا فتشنا عن سبب ترك المعري الزواج ، فإننا نجد عند فلاسفة
اليونان أيضاً . فأبيقور يقول : « الصداقة نافعة لذينة ، والحكيم يتعهدوا
كوسيلة للسعادة ، ولكنه يتجنب الحب لأنه مصدر اضطراب للنفس .
كذلك لا يتزوج الحكيم في الاكثر لما يحجره الزواج من شواغل متعددة .
وللسبب عينه ينبذ الحكيم المناصب الحكومية وينفض يده من الشؤون
العامية . »

ولا أخالك نسيت ما مر بنا من قول المعز الفاطمي - جد الحاكم -
لجماعته : « واحدة تكفيكم . »

أما الجسم في رأي أبي العلاء ورأيهم فتوب يخلق وبيت يتهدم .
وما أجساد الصبيان الذين قضا صغاراً الا ثياب غير محكمة النسيج :
واعمارُ الذين قضا صغاراً كأثواب بلين وما لبسناه

وفي المذهب الفاطمي ان النفس لا تستطيع حياة بلا جسم ، ولذلك
عبّر عنها المعري بالقرون في رسالته إلى الجماعة . أما كيف نسج هذا
القميص - ومنها جاء التقمص عندهم - فإليك رأي الشيخ :

الخلق من اربع جمعة
ان السهي والسماك ما غفلا
نارٌ وماءٌ وتربةٌ وهوا
عن ذكر مولاها ولا سهوا

والنيران المواصلان سنا
والشمس والغيث طاهيان له
ان نله في أرضنا فما هبوا
يطعم أهل البلاد ما طهروا

رحم الله الشيخ ! الجسم طبخة طيبة يدب اليها الفساد متى بردت ،
فبالله نعوذ من البرد ، ومن النومة الطويلة في عب الأرض .

أما « الرجعة » أو « العودة » ، يراد بها عودة الإنسان إلى الحياة
بنفسه وجسده ، فأبو العلاء يمجدها . وهذا أيضاً من ذهب يوناني
فيثاغوري ، وفيه يقول أوديموس تلميذ أرسطو لتلاميذه : « إذا صدقنا
الفيثاغوريين فسيجيء يوم نجتمع به ثانية في هذا المكان فتجلسون كما أنتم
لتسمعوا إلي وأتحدث أنا اليكم كما أفعل الآن . »

وهذا ما يعبر عنه إخوان الصفاء بالكور والدور ، ويسمونه
« السنة الكبرى » ، ومقدارها ست وثلاثون ألف سنة .

ان ابا العلاء لا يؤمن بها ، ولكن لا تنس ان العودة والتناسخ غير
التقمص الذي يؤمن به ابو العلاء كما ستري . ولهذا يهاجم البعث بكل ما
فيه من قوى وسخر وهزء فيقول :

زعموا أنني سأرجع شرخا
وأزور الجنان أحبر فيها
وتزول العيون عني إذا حم
أيا طارق أصابك يا طارق
ضع دين « الداعي » فرحت تروم
كيف لي كيف لي وذاك التماسي
بعد طول المقام في الأرماس
بعين الحياة ثم انغماسي
حتى مساك للغني ماسي
الدين عند القسيس والشماس

وقد كتب في هذا كتاباً - « رسالة الغفران » - سخر به ايما سخر ،

كما انه نفي « العودة » نفيًا باتًا لا لبس فيه فقال :

أترجون أن « أعود » اليكم لا ترجوا فاني لا أعود
وقال في موضع آخر :

أسير وما أعود ، وما رجوعي وقد كان الرحيل رحيل قال

أمور يلتبس على البرايا كأن العقل منها في عقل

أما التناسخ فالشيخ ينفيه نفيًا ويشجبه شجبا ، وذلك ظاهر

خصوصاً في رسالة الغفران حيث يسخر بالنصيرية - جيرانه - أصحاب

هذا المعتقد - كما يقال - فيقول بلسان أحدهم :

واعجبي أمانا لصرف الليالي جعلت اختنا سكينه فاره

فاطردي هذه السناتير عنها واركيبها وما تضم الغراره

وكقوله في الزوميات :

يا آكل التفاح لا تبعدن ولا يقم يوم ردى تأكلك

قال النصيري ، وما قلته فاسمع وشجع في الوغى تأكلك

قد كنت في دهرك تفاحة وكان تفاحك ذا آكلك

فهل لي ان اظن كما ظن ذلك انه أخذها من قول افسانوفان حين مر

ذات يوم برجل يضرب كلباً فأخذته الشفقة فصاح وهو ينتحب : لا

تضربه يا هذا ، انها نفس صديق لي قد عرفته من صوته .

وللشيخ المعري خبران يشبهان ما حكى عن افسانوفان ، فقال في

رسالة الغفران : « وحدثت عن رجل من رؤساء المنجمين من أهل

حوران . أقام في بلدنا - المعرة - زمناً . فخرج مع قوم يتزهون فر

والثور يكرب ، فقال لأصحابه : لا شك في أن هذا الثور رجل كان

يعرف بخلف به « حران » . وجعل يصيح به : يا خلف ، فيتفق ان يخور
ذلك الثور فيقول لأصحابه : ألا ترون صحة ما خبرتكم به ؟
« وحكي لي عن رجل ممن يقول بالتناسخ انه قال : رأيت في النوم
أبي ، وهو يقول : ابني ، ان روحي قد نقلت إلى جمل أعور في قطار
فلان ، واني قد اشتيت بطيخة . فأخذت بطيخة وسألت عن ذلك
القطار ، فوجدت فيه جملاً أعور ، فدنوت منه بالبطيخة فأخذها أخذ
مريد مشته . »

أرأيت كيف يسخر ؟ ان أبا العلاء يساور ما يجحده مسورة ، فهو
يعتقد نوعاً من التناسخ ، وهو ما يعبر عنه بالمذهب الفاطمي - الدرزي -
بالتقمص ، فاسمع كيف يحدثنا الشيخ عن التناسخ .

وجدنا أتباع الشرع حزمًا لذي النهي ومن جرب الأيام لم ينكر النسخا
فما بال هذا العصر ما فيه آية من المسخ ان كانت يهود رأت مسخا
وقال باحكام التناسخ معشر غلوا فجازوا الفسخ في ذلك والرسخا
اليسر تدلك كلمة « غلوا » على ان الشيخ يرى النسخ ؟ وان كبرت
وقلت لا ، فسألك دلالة قاطعة مانعة ... اما الآن فاسمع ما هذا النسخ
والمسخ والفسخ والرسخ : فالنسخ هو نقل الروح من جسم إلى جسم
أرفع منه وهذا ما يعتقد الشيخ ويترجاه ، ولا اكراه في الدين . أما
المسخ فنقل الأرواح إلى أجسام البهائم ذوات الأربع ، والفسخ نقلها إلى
الحشرات ، والرسخ هو أن تنقل إلى النبات والجماد كالحجارة والحديد ،
وهذه الثلاثة الأخيرة ينكرها شيخنا كل الانكار . أما النسخ وهو ما
يسمونه التقمص فسنحدثك عنه قريباً جداً .

وقد علمنا مما قرأنا في أحد كتب المذهب الفاطمي ، ان اخواننا بني معروف يشجبون التناسخ ويلعنون النصيري الذي يقول بذلك ، اذ لا يعقل ان الله يعاقب رجلاً عاقلاً يدرك بمسحه خنزيراً أو بتحويله حديداً ، فالحكمة أن يكون عاقلاً ليعرف العذاب ويتوب .

وعند افلاطون يكون التناسخ بتحول بعض الاحياء الى بعض بحسب ما يكسبون أو يخسرون من العقل ، وفي هذا يقول أبو العلاء :
يقولون إن الجسم ينقلُ روحه الى غيره حتى يهذبها الصقلُ
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلّةً اذا لم يؤيد ما اتوك به العقل
فمش وادعاً وارفق بنفسك طالباً فان حسام الهند ينهكه الصقلُ
أما التقمص الذي قلت لك ان الشيخ يعتقدونه فنحن لا نفتري ذلك افتراء .

ويعتقد أبو العلاء ان هذا الجسم غير مسؤول عما جنى لانه لباس يبلى ، أو بيت يتداعى ، فيقول في هذا أبياتاً عديدة أذكر لك منها :
وجسمي شمعةٌ والنفسُ نارٌ اذا حان الردى خمدتُ بأفٍ

✽

تعود الى الأرض أجسادنا ونلحق بالعنصر الطاهر
ويقضي بنا فرضه ناسكٌ يمرّ اليدين على الظاهر

✽

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحق لسكان البرية أن يبكوا
تخطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعادله سبك
مضى الأثام ولولا علم حالهم نقلت قول زهير : أية سلكوا

في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا

✽

وردت إلى دار المصائب مجبراً وأصبحت فيها ليس يعجبني النقل

✽

والجسم للروح دار طالما لقيت هدماً وحق لرب الدار تحويل

✽

رأيتك في لسج من البحر سابجاً تلوم بني الدنيا وأنت سليم

يقول الحجى هل لي إذا مت راحة فان عذابي في الحياة أليم

وأجسامنا مثل الديار لأنفسـ جوائر منها جاهل ، وحليم

فاما انهدام قبل رحلة ظاعن وإما رحيل والمحل سليم

✽

وقد زعموا هذي النفوس بواقياً تشكل في أجسامها وتهذب

وتنقل منها فالسعيد مكرم بما هو لاقٍ والشقي مشذب

✽

حرق الهند من يموت فما زا روه في روحه ولا تبكير

واستراحوا من ضغطة القبر ميتاً وسؤال لمنكر ونكير

✽

ويبكم ان رأيتموني يوماً حبة في الثرى فلا تلتطوني

واليك الآن ، بعدما رأيت ما رأيت ، موافقته للمذهب الفاطمي

القائم اليوم بكل وضوح :

تقدم شخص مضى فأحدث منه البدل

✽

وتقدم الأرض نفوس أنت مخلوقة من أنفس ثلويه

وإذا رأيت ما يناقض هذا عند الشيخ فاعلم انه تقية ، ولا تحاول ان تفتش عن سره النبي يلهيك به .

وقبل ان تقفل باب هذا البحث ، لا بد من كلمة : خلط بعضهم في فهم ابي العلاء اذ رأوا في اللزوميات وغيرها حملة على الشيعة ، فهو لا يعني بذلك الشيعة المعروفة بل يعني جيرانه النصيريين الذين - يقال - انهم يحلون اخذ بناتهم واخواتهم فيقول فيهم :

اقرّوا بالاله واثبتوه وقالوا لا نبي ولا كتاب
ووطء بناتنا حلّ مباحٌ رويدكم فقد بطل العتاب
تمادوا في العتاب فلم يتوبوا ولو سمعوا صليلَ السيفِ تابوا
وظن بعضهم ان ابا العلاء يسخر ويهزأ في البيت الأخير ، فليس هنا شيء من هذا ، انه يعني النصيري الذي استجاب للدعوة الفاطمية ثم ارتد عنها وقال بمذهب خاص اجاز به نكح البنات والاخوات . ولا أتعجب انا ان رأيت ابا العلاء وكتاب المذهب الدرزي يشجبان هذا الرجل ويلعنانه ، فكلاهما يصدر عن نبع واحد هو « الفاطمية » .

وإذا اردت ان اطابق بين أقوال الشيخ والمذهب الفاطمي فالادلة صارخة ، وهذا هو سر ابي العلاء المكتوم النبي يقول فيه :

آه لاسرارِ الفؤادِ غواليها في الصدر أكنم دونها واجمجم
ولكنك ستري ، ان شاء الله ، ان سره لم يدفن معه ، بل باح به حين
اطمان الى رأسه ودمه .

رَبُّو الْعَالَمِ وَالْحَاكِمِ

الليلة الاولى

كانوا يصلون على أمير المؤمنين الفاطمي كما يصلّى على النبي ، فابطلها الإمام ابو علي ، اي الحاكم بأمر الله وحرّم تقبيل الأرض بين يديه ولثم يده وركابه اذ لا يجوز الانحناء الى الأرض لمخلوق . ومنع ضرب الطبول والأبواق حول القصر ، وركب يوم عيد الفطر الى المصلّى بلا زينة ولا موكب فخيم . ثم اخذ يرتدي ثياباً بسيطة ، أو درّاعة صوف بيضاء ، ويتعمم بفوطة ، وينتعل حذاء عرياً ساذجاً - مداساً - وغدا يطوف في القاهرة دون موكب ولا ضجة .

وبعد مرضه ، سنة ٤٠٧ هجرية ، جنح الى تصوف غريب ، فلم يقلّم أظافره ، وأطلق شعره حتى تدلى على كتفيه ، وبدل الثياب البيضاء الساذجة بثياب سود ، فكان يلبس جبة من الصوف الأسود العادي ربما لا يخلعها حتى يعلوها العرق والرثاثة ، وكثيراً ما تكون مرقعة من سائر الألوان .

وفي الليلة الخامسة والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١ كان الحاكم مختلياً فخطرت على باله عبارة الزعيم الباطني : « واذا ظفرت بالفلسفي فاختفظ به ... فعلى الفلاسفة معولنا . » فطفق يكررها .

وبينا هو هائم في جو تفكيره المعنوي، ينتظر ساعة الطواف ليرقب
النجم الذي يخشى ظهوره، إذا بالحاجب يستأذن للداعي اسمعيل التميمي،
فدخل منكس الطرف، وابتدر الحاكم الكلام بلهجة العاتب المؤنب:
عدت يا اسمعيل! حال الحول على غيبتك. وأين الرجل؟

فخر اسمعيل الى ذقنه ليقبل الأرض، فاتهره الحاكم: اتق الله،
أنسيت أننا نسخناها؟ قل، أين الشيخ؟

فرقع اسمعيل طرفه الى مولانا، فرآه منسدل الشعر طويل الأظافر،
وعليه مرقعة تتحدث كل رقعة منها بلسان غريب عن أفكار الفيلسوف
الهائم.

ارتاع الداعي وانحنى، وهو يقول بصوت كأنه يصدر من خلف
الزجاج: رخص لي الكلام يا مولانا.

فأجاب الحاكم: تكلم. ومتى كنا نحظر القول على دعائنا؟

فقال الداعي: رأيتني، يا مولاي، أمامك كالواقف أمام أسد الله،
فتذكرت قول الشاعر: لدى أسد... فجرى لسان الحاكم غير مختار
فأتم هو والداعي بيت زهير:

.. شاك السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

ولم ندر ما جال في خاطر مولانا حتى تبسم. وكأنه أدرك أنه زهي
وتكبر، فوبخ نفسه أمام الداعي بقوله لها: «رويدك لا تغتري، ما
صفوت ولا نقيت بعد» ثم تغير وجهه فألقت الى اسمعيل التفاتة
أرعبته، وقال له: قل، أين الرجل؟

فحنى اسمعيل رأسه وقال : لم يحيى يا مولانا .
 - عجيب ؟ أيؤثر المعرة على القاهرة ، وبيته على دار الحكمة ؟
 - نعم يا مولانا ، قال لي لن أبرح محبسي ، على هذا عاهدت القرون .
 فصاح الحاكم : القرون ؟ أهكذا عبر عن النفس ؟
 - نعم يا مولانا ، أنه لفاهم ، وقد أوضح هذا شعراً فقال :
 والجسم كالثوب على روحه ينزع إن يخلق أو يتسخ
 فاطرق الحاكم وقال : كأنه يسمع كل ما يقال في « دار الحكمة » .
 ثم حدق الى الداعي وقال : كيف لا يأتي إلينا والمجد ينتظره ؟
 - إنه يزدي كل مجدي يا مولانا ، يرى جلوسه على اللبد شتاءً وعلى
 الحصير صيفاً خيراً من ألف عرش .
 - عجيب ! ادعوته باسمي ؟ أدرى أني أريده سميراً ورفيقاً وجليسا
 ومناظراً ؟
 - نعم درى واحتج بيمينه ، فالتناوله .
 وهاج الحاكم تطاول اسمعيل فقال له : لولا حرمة الدعوة
 لأخذت أنفاسك .
 فصاح اسمعيل مرعوباً : عفواً يا مولانا ، وغفراً نك .
 - تكلم .
 - قد أطلعني الرجل على جميع ما يكتب وينظم ويملي على تلاميذه .
 قد تتلمذت له كل مدة غيبتي عن الحضرة . إنه يعمل « للدعوة » ما لا
 يعملها جميع الدعاة ، فبيته يعج بالوفود ، وفيه تلقى دروس لا تلقىها
 « دار الحكمة » . نحن ندعو سراً وهو يعلم جهراً . وكتابه الذي يمليه

على طلابه مرتب على نسق الدعوات . انه يرقبهم فيها درجةً درجة .
فاطرق الحاكم قليلا وسكت الداعي . وكان صمتٌ وجيزٌ قال
الحاكم على أثره : وماذا قال حين ذكرتني ؟

— قال إنك سراج المستنيرين ، وهو يقتفي أثرك وآثار آبائك ،
صلوات الله عليهم ، ليدرك ، عن طريق النسك والزهد ، صفاء النفس
ونقاءها ...

فسكت الحاكم هنيهةً وأطرق ، ثم رفع رأسه وقال : لا بد
من مجيئه .

— ماذا تريد منه يا مولانا وهو القائل :

توحد فإن الله ربك واحدٌ ولا ترغبين في عشرة الرؤساء
فقط الحاكم شفتيه حتى برز شارباه بروزاً عنيفاً ، فقال الداعي :
وهو يعلم اللاجئين اليه :

أفيقوا أفيقوا يا غواة ، فانما دياتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فادركوا وبادوا ، وماتت سنة اللؤماء
يقولون هذا الدهر قد حان موته ولم يبق في الأيام غير ذمء
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

فكاد الحاكم لا يصدق ما يسمع ، فقال الداعي : واسمع ، مولانا ، غير
مأمور ، ما يقول أيضاً :

هفت الخيفة ، والنصارى ما اهدت ويهود حارت ، والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض ذو " عقل " بلا دين وآخر دين لا عقل له

ورأى اسمعيل الحاكم مقبلاً عليه بوجهه ، فافرغ ما في جعبته حول
هذا الموضوع :

واخوانُ الفطانةِ في اختيالِهم كانوا لِقومِ لقومِ أنبياءُ
فأما هؤلاء فاهلُ مكرٍ وأما الأولون فأغبياءُ
إذا كان التقى بلهاً وعياً فأعيارُ المذلةِ أتقياءُ

✱

لو كنت يعقوب طير كنت أرشد في مسماك من أممٍ تنمى ليعقوبا
ضلوا بعجلٍ مصوغٍ من شنوفهم فاستنكروا مسمماً للشنف مثقوبا
ولن يقومَ مسيحٌ يجمعون له وخلت واعدم مَ الخلف عرقوبا

ويقول :

وموه الناس حتى ظن جاهلهم ان النبوة تمويه وتدليس
جاءت من الفلك العلوي حادثة فيها استوى جنباء القوم والليس

ويقول :

و «العقل» يعجب والشرائع كلها خبرٌ يقلد لم يقينه قانس
متجسوت ومسلمون ومعشر متصرفون وهاندوت رسائس
وبيوت نيران تزار تعبداً ومساجد معمورة وكنائس
والصابثون ينظمون كواكباً وطباع كل في الشرور حباتس
أنى ينال أخو الديانة سودداً ومأرب الرجل الشريف خسائس
وإذا الرئاسة لم تصن سياسة «عقلية» خطيء الصواب السائس

فهز الحاكم رأسه استحساناً للبيت الأخير فقال الداعي :
قالت معاشر لم يبعث الهكم إلى البرية عيساها ولا موسى
وإنما جعلوا للقوم مأكلة وصيروا لجميع الناس تاموسا
ولو قدرت لعاقبت الذين طغوا حتى يعود حليف الغي مرموسا

فتمتم الحاكم : ونحن لم نقدر . فقال الداعي :

بنت النصارى للمسيح كنائساً كانت تعيب الفعل من منتابها
ومتى ذكرت محمداً وكتابه جاءت يهود يجردها وكتابها
أفعله الإسلام ينكر منكر والله ربك صاغها وأتى بها
أين الهدى فنرومه بمشقة في اليد ساطية على منتابها

فقال الحاكم : ما هذا اللسان يا اسمعيل ا فقال الداعي : لم أفرغ بعد ،

وأنشد :

إن الشرائع ألفت بيننا إحنا وأورثتنا أفانين العداوات
وهل أبيع نساء الروم عن عرض للعرب إلا بأحكام النبوات

فقال الحاكم : ما أضعفنا غيرهن .

فقال اسمعيل :

مسيحية من قبلها موسوية حكت لك أخباراً بعيداً ثبوتها
وفارس قد شبت لها النار وادعت لنيرانها أن لا يجوز خبوتها
فأهذه الأيام غير نظائرها تساوت بها آحادها وسبوتها

وقال في التقليد :

ضلت يهود وإنما توراتها كذب من العلماء والأخبار

قد أسندوا عن مثلهم ثم اعتلوا
وإذا غلبت مناظلاً عن دينه
فتم يقول :

وكم من فقيه خابطٍ في ضلاله
وقارئكم يرجو بتطريبه الغني
فما لعذاب فوقكم لا يعمكم
وقال :

توافقت اليهود مع النصارى
وما اصطلحوا على ترك الدنيا
وقال :

أمرٌ تستخفُّ بها حلومٌ
كتابٌ محمدٍ وكتابٌ موسى
نبتٌ أمماً فما قبلت وبارت
وما يدري الفتى لمن الثبورُ
وانجيل ابن مريم والزبورُ
نصيحتها فكل القوم بورُ

ويقول في هذا أخيراً ، وله أقوال كثيرة في هذا الباب غير هذه

لا متسع لذكرها :

ناديت حتى بدا في المنطق الصحل
رجوا إماماً بحق أن يقوم لهم
وأجرؤ ، يا مولانا ، وقد رأيت الرضا في وجهك الرباني ، أن أسمعك
تخالف الناس والأغراض والملل
هيات لا بل حول ثم مرتحل

قوله في الحكم :

ملّ المقام فكم أعاشر أمةً أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وغدوا مصالحها وهم أجراؤها
فهتف الحاكم : لقد صدق ، ولهذا تقتل بعضهم ونحبس بعضاً .
فقال الداعي : ويقول فينا ، نحن الدعاة ، ويزعم أنه لا يخفى عليك
ذلك . وسجد وقال : ومعاذ الله أن يخفى على نوركم شيء :

علم « الامام » ولا أقول بظنة . أن « الدعاة » بسعيها تتكسب
فقال الحاكم : لا فض فوه .

فقال الداعي : وسوف تقول يا مولانا ، هذا نفيرنا في الشام يؤلب
الناس تحت لواء دعوتنا متى سمعت قوله :

أرى عالماً يرجون عفواً مليكهم بتقبيل ركنٍ واتخاذٍ صليبٍ
فغفرانك اللهم ، هل أنا طارح بمكة في وفدٍ ثياب سلبية

ويقول :

ما الركن في قول ناسٍ لست أذكرهم إلا بقية أوثانٍ وأنصابٍ
أما الصلاة فاسمع قوله فيها :

يقولون هلاً تشهد « الجمع » التي رجونا بها عفواً من الله أو قرباً
وهل لي خير في الحضور وإنما ازاحم من أختيارهم لربلا جرباً

فاضطرب الحاكم إذ تذكر أنه ألغى الصلاة ومنع الحج .

وتفخ في البوق إيداناً بالطواف ، فخرج الحاكم وهو يقول للداعي
اسمعيل : تعود إلي في مثل هذه الساعة غداً ، وأما شيخك فيزور القاهرة
أما راغباً وأما راهباً .

الليلة الثانية

ونجاء الداعي اسمعيل في الموعد المضروب فالقى الحاكم متهيئاً
للسماع فقال :

ويقول في الدين والنفس :

يا ظالماً عقدَ اليدينِ مصلياً
أتظنُّ أنك للمحاسنِ كاسبٌ
ومع الفتى من نفسه نيةٌ
من دون ظلمك يُعقد الزائرُ
وخبيءٌ أمرِك شرّةٌ وشنارُ
ما زالَ يحلِفُ أنها دينارُ

✽

توهمتَ يا مغرورٌ ، أنك دينٌ
تسير الى البيت الحرام تنسكاً

ويقول :

عليّ عَيْنُ اللهِ مِإِ لَكَ دِينٌ
ويشكوك جارٌ بانسٍ وخدينُ

سبحٌ وصلٌ وطفٌ بمكة زائراً
جهلَ الديانةَ من إذا عرضت له

ويقول :

سبعينَ لاسبعاً فلستَ بتاسكٍ
أطباعه لم يلفَ بالتماسكِ

الدينُ انصافك الاقوامَ كلهمُ
والمرءُ يعييه قودُ النفسِ مصحبةٌ

وأَيُّ دينٍ لآبي الحقِّ إن وجبا
للخيرِ، وهو يقودُ العسكرَ اللجبا

ففارق الحاكم شيء من ابته ووقاره وهتف : ويلى عليك ، وويلي
منك ، نفسي اوماذا يقول في الجسم ؟
وإنما الجسم ترب خير حالته سقيا الغنائم فاستسقوا له السحبا

*

جسمي أودى مر السنين به فلتطلب النفس منزلا بدله

*

قلمت ظفري تارات وما جسدي إلا كذاك متى ما فارق الروحا

*

ويصبح الجسم بعد الروح منتبذا صفراً كنبذك مكسور البواقيل

*

يا نفس جسمك سربال له خطر قد أخلقتة الليالي فاتركيه لقي
فإن خرجت إلى بؤسى فواخرجي وما يبدل في حال سربال
فما يزينك لبس المخلق البالي وإن نقلت إلى نعى فطوبى لي

وكان الحاكم يسمع وهو مختار ، فقال اسمعيل :

وسيسمع مولانا أوضح :

وإن صدئت أرواحنا في جسومنا فيوشك يوماً أن يعاودها الصقل

*

والله ينقل من شاء رتبة بعد رتبة
وقد أملى علي قصيدة طويلة على التباء في المرأة كأنه استمدها من
« السجل المكرم » فالتمس من مولانا أن يشرفها بالمطالعة في خلوته ، وقد

قال لي : مولانا الحاكم ، سلمه الله ، عرف جرثومة الشر فسد على الحية
باب الحجر ، أطال الله مدته .

وأخذ الحاكم القصيدة وكأنه غير منتبه ، وتحركت شفتاه ولم يعلم
أحد ماذا قال ... ثم التفت الى الداعي وقال :

– ألم يقل غير هذه القصيدة ؟

– بلى يا مولانا ، هو عدو المرأة الألد .

فطابت نفس الحاكم للحديث فقال :

أسمعنا .

فقال اسمعيل :

إن الغواني جمّة تبعاتها
سرحان ضان حين غاب رعاتها
ذكرت به الحاجات مستمعاتها
آلافه فتجيب ممتنعاتها

لا تتبعن الغانيات ممشياً
واحذر مقال الناس إنك بينها
ودع القراءة إن ظننت جهيرها
فالصوت هدر الفحل تؤنس ركزه

✽

فلا يدخل على الحرم الوليد
فانت وإن رزقت حجى بليد
فقد بات في الأضرار غير سديد
فلا يأمن منها ابتغاء جديد

إذا بلغ الوليد لديك عشراً
فإن خالفتني وعصيت أمري
ومن جمع الضرات يطلب لذة
وإن يلتمس أخرى جديداً الحاجة

ويقول ، يا مولانا ، في المرأة والحمام :

نصحتك أجسام البرية أجناس
وخير من الأعراس برس وعرناس

ولا تلجى الحمامَ قد جاء ناصحٌ بتحريمه من قبل أن يفسدَ الناسُ
فكيف به لما اغتدى في طريقه رقيبٌ وحواشٍ وتنجٍ وأشماشُ
تخافين شيطاناً من الجنِّ مارداً وعندك شيطانٌ من الأانسِ خناسُ
ووافقت الأبيات هوى الحاكم لأنه منع كل هذا ، ولحظ ذلك

اسماعيل فقال :

تزوجَ بعد واحدةٍ ثلاثاً
فيرضيها إذا قنعت بقوتِ
ومن جمع اثنتين فما توخى
وعقلك يا أخا السبعين واهٍ
ظلمتَ وكلنا جانٍ ظلوم
فتذكر الحاكم كلمة جده « واحدة تكفيكم » وقال : يا سبحان الله !

فقال اسماعيل :

لا تجلسن حرةً موفقةً
فذاك خيرٌ لها واسم
ويقول :

هل قبلت من ناصحِ أمةٍ
كنائسٍ يجمعها وصلةٌ
ما بالها عذراء أو ثيباً
راحت إلى القس بتقريبها
قد جرّبت من فعله شيئاً
وربها تسخط بل زوجها
تغدو إلى الفصح بصلبانها
بين غوانيتها وشبانها
كوردة الجاني بآبائها
وبيتها أولى بقربانها
والطيب جارٍ بجرانها
السائس في طاعة ربانها

وزارت الدير وأثوابها ضامنة فتنة رهبانها
وقال الداعي : أما الحخرة يا مولانا ، فهو ألد أعدائها وعلى دين مولانا
في كرهها وتحريمها ، هو على دينك في كل مذاهبه ، هو حواريك .

فابتسم مولانا هذه المرة ولم يمتعض بل قال للداعي : كذا تقول ؟
فاجابه الداعي : نعم يا مولانا ، نعم . وإذا شئت فاسمعك ما يقول فيها :
البابلية باب كل بليّة فتوقين هجوم ذلك الباب
وإذا تأملت الحوادث أقيمت صهب الدنان اعادي الألباب

قل للمدامة وهي ضد للنهي
لو كان لم يحظر ك غير أذية
لكن حاك العقل وهو مؤمر
وتقول :

هي الراح أهل لطول الهجاء
قبيح بمن عدّ بعض البحار
وإن خصها معشر بالمدح
تغريقه نفسه في قدح
وتقول :

آياتي نبي يجعل الحمر طلبة
فتحمل ثقلا من همومي وأحزاني
فقطب الحاكم عند سماعه هذا البيت ، أما اسمعيل فآتم :
وهيئات لو حلت لما كنت شارباً مخففة في الحلم كفة ميزاني
وتفخ في البوق إيداناً بالطواف ، فانصرف الحاكم مسروراً جداً
وقال لاسمعيل : تعود غداً أيضاً . فانصرف اسمعيل من الحضرة وهو
ظان أنه صرف الحاكم عن استدعاء أبي العلاء .

الليلة الاخيرة

وفي الليلة السابعة والعشرين من شوال سنة ٤١١ كان الداعي اسمعيل منتصباً لذن الحاكم بأمر الله ، ومولانا الحاكم مضطرب كئيب . وكان سكوت وكان كلام فقال الداعي : ويقول في البعث والحساب :
قالوا جهنم قلتُ إن شرارها واهيها يصلها المتشررون
لا تخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وان تفعل فانت مفرر
ويقول في البعث أقوالاً ذات باطن وظاهر وهذا أسلوبه في
بث أفكاره :

لو هب هجاء قوم في الثرى سكنوا لضاقت المدن والبيد الاماليس
ويقول :

لو صح ما قال رسطاليس من قدم وهب من مات لم يجمعهم الفلك
ويقول :

لو قام أموات «العواصم» وحدها أعياء الحل على المقيم الساكن
لغدوا وقد ملا البسيطة بعضهم ورأيت أكثرهم بغير أماكن
ويقول :

وأعجب ما تخشاه دعوة هاتفِ
فيا ليتنا عشنا حياةً بلا ردى
أتيمّ فهبوا يا نيام إلى الحشرِ
يد الدهر أو متنا مماتاً بلا نشرِ
ويقول :

وقيل لا بعث يرجى للثواب وما
وكيف للجسم أن يدعى إلى رغد
من بعد ما رمّ في الغبراء أو أزلا
ظهر وأيسر ما لاقاء ان جزلا
ويقول :

إذا حان يومي فلاوسد بموضع
فيا ليتني لا أشهد الحشر فيهم
من الأرض لم يحفر به أحد قبراً
إذا بعثوا شعناً رؤوسهم غرباً
ويقول :

قال المنجم والطبيب كلاهما
إن صح قولكما فليست بخاسر
لا تبعث الأموات قلت اليكما
أو صح قولي فالخسار عليكما
ويقول في هذا أخيراً ، وألفت نظر مولانا إلى ما فيه :

إن كنت صاحب جنة في ربوة فوق أن ينتابها إعصار
لم أسمعك يا مولانا ، إلا تتقاً من قصائد ، ولو أردت أن أتلو على
مسامعك العلوية كل ما نقلت عن الشيخ لاتقضى الليل ، ولكن لا بد من
اطلاعتك على بعض ما يقول في التحول :

أتيت لي خالفاً حكيماً ولست من معشر نفاة
خبطت في حندس مقيم وأعجزت علتى شفاتي

فَإِن تَرَابَهُ إِلَى تَرَابٍ وَبِئْسَ مَفَاةً إِلَى سَفَاةٍ

ويقول :

الغيبُ مجهولٌ يحسارُ دليُّه واللبُّ يأمرُ أهلهُ أن يتَّقوا
لا تظلموا الموتى وإن طالَ المدى إني أخافُ عليكمُ أن تلتقوا

أما مذهبنا فاسمع ماذا يقول فيه . وكيف يدعو إليه :

والخيرُ أفضلُ ما اعتقدتَ فلا تكن هملًا ، وصلُّ بقبلةٍ أو زمزمِ .

فصاح الحاكم : حيِّ على خير العمل ، برك الله فيه . هو منا ، هو

من « أهل الخير » .

فقال الداعي : ويقول أيضاً ملمحاً إلى دعوتنا :

بني زمني هل تعلمون سرائراً علمتُ ولكني بها غيرُ بائحِ
متى ما كشفتُم عن حقائقِ دينكم فكشفتُم عن مخزباتِ الفضائحِ

فهتف الحاكم : صانه الله ، ولا كشف له سترأ .

فقال اسمعيل : واليك قولاً لا التباس فيه :

دعا موسى فزال ، وقام عيسى وجاء محمدٌ بصلاةٍ خمسِ-
وقيلَ يجيء دينٌ غيرُ هذا وأودى الناس بين غدٍ وأمسِ-
فمن لي أن يعودَ الدينُ غصاً فينتقعُ من تنسكٍ بعد خمسِ-

فأبرقت عينا الحاكم حين سمع البيت الأخير . وأدرك اسمعيل في

تلك اللحظة شيئاً لم يكن يدركه من قبل . فصاح الحاكم : هيه يا

اسمعيل ! فتأسك الداعي بعد ترزعزع وقال :

ومها كان في دنياك هني فما تخليك من قر وشمس
إذا قلت الحال رفعت صوتي وإن قلت الصحيح أطلت همسي
فهتف الحاكم لا بد من مجيئه الينا رضي أم أبي .

فانحنى اسمعيل متضرعاً : رحماك مولانا ، دعه في وحدته ينشر
تعاليمكم ، فهو هناك أنفع لنا منه هنا . ماذا يستفيد شيخ مثله من دار
الحكمة ، وهو الذي يقول في العقل :
فشاور العقل واترك غيره هدرأ فالعقل خير مشير ضمّه النادي

✽

عليك العقل وافعل ما رآه فإن العقل مشتار الشوار
ولا تقبل من التوراة حكماً فإن الحق عنها في توار

✽

الناس مختلفون ، قيل المرء لا يحزى على عمله وقيل يجازى
والله حق في تدبر أمره عرف اليقين وآنس الاعجازا
فاسأل حجاجك إذا أردت هداية واحبس لسانك أن يقول مجازا

✽

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وأرحل عنها ما أمامي سوى عقلي
وأشعر أن العقل يصحب ثلثة وينفر أخرى وهو غير مليم
وقال أناس ليس عيسى مقرباً فقيلاً ولا موساكم بكليم
ويقول :

تستروا بأمور في دياتهم وإنما دينهم دين الزناديق
تكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق
وأخيراً ينضو كل لبس ويقف على قمة « الدعوة » ويهتف بالناس :
أيها الغرّ إن خصصت بعقل فاسألنه فكل عقل نبي
وظن اسمعيل أنه أوتي فصل الخطاب فالتفت الى الحاكم ولسان حاله
كانه يقول : وبعد هذا ماذا ؟ فإذا بالحاكم يقول : لا بد من حضوره ،
ارجع اليه يا اسمعيل ، وقل له : الحاكم بأمر الله يريد أن يفضي اليك
بسر الأسرار ، فبدار.. بدار... « المهلة » تكاد تنتهي . آه من « النجم
المشؤوم » اذا طلع !

لم يدرك اسمعيل ماذا عنى الحاكم بـ « النجم المشؤوم » فقال : تسمع
لي يا مولانا أن أتلو عليك ثلاثة آيات تثبت لك أن الرجل منا وفينا ،
وأنه يعرف أسرار « دار الحكمة » جميعها ؟ اسمع كيف يخاطبنا وبأي
رفق ، بينا هو ينازل غيرنا بحججه وبراهينه .

فوضع الحاكم يده خلف أذنه ، فقال اسمعيل :

نبذتم الأديان من خلفكم وليس في « الحكمة » أن تُنبذا
لا قاضي مصر أطعمتم ولا الحبر ولا القس ولا الموبدا
ان ذكرت ملتكم عندهم قال جميع القوم لا حبنا

فقال الحاكم : قد أمرت بأعداد بريد خاص يحملك غداً إلى معرة

النعمان ، فاستعد .

فمضى الداعي اسمعيل التميمي القهقري حتى خرج من الحضرة .
نوى في تلك اللحظة أن يتوارى في بلاد الشام الى أن يقضي الله أمراً
كان مفعولاً .

ونفخ في البوق فركب الحاكم حماره « القمر » وخرج كعادته ،
وانتهى به الطواف الى خلوته في المقطم فطلع « النجم المشؤوم » ولم
يعد الحاكم .

بَعْدَ الْعَاصِفَةِ

الحصن الذي لم يسكت

« غاب » الحاكم ولم يعد فكث الإرجاف ، وكل ما عرف من أمر « غيبته » حتى الساعة : انه قام بطوافه الليلي ليلة الاثنين في ٢٧ شوال سنة ٤١١ هجرية ، بعد أن ذكر لوالدته انه يتوقع في الغد قطعاً في طالعها يتذر به ظهور نجم معين وانه يتوجس خيفة من ظهوره ، ويخشى أن يصيبها شر ولا سيما من أخته - ست الملك . وأعطى أمه مفاتيح خزانه مليئة بالمال لتحويلها الى قصرها ، فجزعت أمه ، وتضرعت إليه ألا يخرج ، فوعدها بذلك ، ولبث أرقاً والضجر يكاد يقتله حتى مضى من الليل ثلثاه . وعندئذ قال لامه : لا بد من ركوبي الليلة وإلا خرجت روحي . ثم ركب وخرج .

وخرج القضاة والأشراف والقواد في اليوم التالي الى الجبل فبحثوا عنه حتى آخر النهار ولم يعثروا له على أثر ، وظلوا يخرجون كل يوم حتى كان يوم « الخميس » آخر شوال فعثروا على حمار الحاكم الأشهب ، المسمى القمر ، وقد قطعت ساقاه الأماميتان ، وعليه سرجه ولجامه ، وإذا أثر رجل خلف الحمار وأثر رجل أمامه ، فاقترفوا الأثر فعثروا على ثياب الحاكم وهي سبع جيب لم تحمل أضرارها .

وكثر اللغو إذ طالت الغيبة ، فجلس الظاهر لإعزاز دين الله على كرسى الخلافة يوم عيد الأضحى سنة ٤١١ ، أي بعد غياب أبيه بستة أسابيع .

وشاعت شائعات تترى عن ظهور الحاكم هنا وهناك ، وعاش الناس حقبة يرجفون ويلغون منتظرين الرجعة حتى ظهر رجل يشبهه في عهد المستنصر سنة ٤٣٤ فادعى أنه هو الحاكم وأنه بعث بعد موته ، فوقع الجند بالمدعي وشتوا أنصاره . وفي هذا قال أبو العلاء :

مضى قيل مصر إلى ربه وخلص السياسة للخائل
وقالوا « يعود » فقلنا يجوز بقدره خالقنا الأثل
إذا هب زيد إلى طيء وقام كليب إلى وائل

واضطهد الظاهر لإعزاز دين الله دعاة أبيه أشد الاضطهاد ، فقتل منهم وصلب وسجن حتى روي أنهم كانوا يقطعون رأس أحد هؤلاء الدعاة ويعلقونه على صدر أخته أو زوجته . فتفرق الدعاة تحت كل كوكب ولم يرتد منهم إلا القليل . ظلوا يناضلون سرا ولجا أكثرهم إلى لبنان وسوريا الشامية ، فتواروا عن العيون ، وبثوا دعوتهم ثم أقفل الباب .

وفي سنة ٤١٤ أذاع الظاهر لإعزاز دين الله وثيقة رسمية هالك ما جاء فيها نقلا عن كتاب الحاكم بأمر الله لعنان :

« وذهبت طائفة من النصرانية إلى الغلو في أيينا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ، رضوان الله عليه ، غلت وادعت فيه ما ادعت النصارى في

المسيح ، ونجمت عن هؤلاء الكفرة فرقة سخيقة العقول ، ضالة يجهلها
عن سواء السبيل ، فغلوا فينا غلواً كبيراً ، وقالوا في آباءنا وأجدادنا
منكراً من القول وزوراً ، ونسبونا بعلوم الأشنع ، وجهلهم المستفطع ،
الى ما لا يليق بنا ذكره . وإنا لنبرأ الى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة
الضلال ، ونسأل الله أن يحسن معونتنا على اعزاز دينه ، وتوطيد قواعده
وتمكينه ، والعمل بما أمرنا به جده المصطفى وأبونا علي المرتضى ،
وأسلافنا البررة أعلام الهدى . وقد علمتم يا معاشر أولياتنا ودعاتنا ما
حكمننا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفساق والفجرة المراق وتفريقنا
لهم في البلاد كل مفرق ، فظعنوا في الآفاق هاربين ، وشردوا مطرودين
خائفين .

ثم اعترف الظاهر الى الله « بأنه وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين
مخلوقون اقتداراً ، ومربوبون اقتساراً لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ،
ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى ، وان جميع من خرج منهم عن حد
العبودية والأمانة لله عز وجل فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .
وانه قد قدم انذاره لهم بالتوبة الى الله تعالى من كفرهم ، فمن أصر فسيف
الحق يستأصله .

أسكتت قلعة الظاهر لإعزاز دين الله جميع حصون الدعوة لأبيه
الحاكم بأمر الله ، فاستحالت الصيحة الصاخبة هماً ونجوى فأصبح
حديثها وشوشة في الحلوات .

إن القوة لا تعجز عن شيء مثل عجزها عن خنق العقائد ، فانها

تكن كمن النار تحت الرماد . وهذا النبي كان ، فقد هرب جميع الدعوة
من القاهرة وانتشروا في الأقطار يسرون النجوى، يكتمون سرهم حتى
عن الأذان المشنفة كما يقول أبو العلاء :

ولا حلّ سري قطّ في أذنٍ سامعٍ وشفاه أو قرطاه يستمعان
كل الحصون سكنت إلا حصن المعرفة الجبار فإنه ظل يعمل ويعلم ،
ويهاجم النصيرية متابعاً الظاهر لإعزاز دين الله ، يؤيد الدعوة الفاطمية
الأصيلة ولا يؤمن إلا بنبيه « العقل » ولا يعتقد إلا بالخير ، ولا يحرص
إلا على النفس .

هذا هو الثالث الذي يعني أبا العلاء ، فهو يترك كل ما عداه هدراً ،
وظل أبو العلاء يلى ، بل تطور أملاؤه فامسى كأنه يقرر مذهباً بعينه ،
بعدما كان يعلم طلابه آراء عامة .

كان فيما مضى هداماً ، وها هو يمسي بناءً ، يشيد صرح مذهبهِ علناً ،
ولا سياً بعدما سُمت كلمتهُ ووجهه صالح بن مرداس المعرفة ، وأدى إلى
« اخوانه » الذين يسميهم تارة المعاشر وحيناً الجماعة وطوراً القوم كما
يقتضي الوزن ، أصدق خدمة وأجلّها ، فاتقدهم من برائن أسد الدولة
صالح بن مرداس ، فعاشوا في ظل شيخهم المعري آمين ، وله عليهم
امرة مطاعة ، امرة لا يؤيدها سيف ولا يدعمها رمح ، ولا تحوطها قوة ،
امرة قائمة على أسس الدعوة القائمة على العقل والخير والصدق .

كانت امرة ابي العلاء على المعرفة كالامارات المثالية التي صبا إليها
الفلاسفة فنعم بال الامام وقال في ذلك :

نجى المعاشرَ من براثنِ صالحِ ربُّ يُفرِّجُ كلَّ أمرٍ مُعْضِلٍ
ما كان لي فيه جناحٌ بعوضةٍ اللهُ ألبسهم جناحَ تفضلِ
ولكن الصيت الذي انتشر ، وهذا الجاه الطويل العريض ، وهذا
الحير الذي تتج عن خروج ابي العلاء الى صالح لم يرض ابا العلاء .
لقي الامام من صالح احتفاءً عظيماً ، فالتاريخ يروي أنه قيل
لصالح وهو محاصر المعرة : أن باب المدينة قد فتح ، وخرج منه أعمى
يقوده انسان .

فقال صالح : هو أبو العلاء ، فدعوا القتال لتتنظر ماذا يريد .
وكان لأبي العلاء ! أراد . سلام واطمئنان للمعرة ، وسيادة للامام ،
ولكنه لم يزه ولم يبطر .

الرجل الذي اقتدت كلمته نفوساً بريئة وحمى وطنه من القتل
والدمار لم يرض عن نفسه فيما بعد . لم يغفر لنفسه خطيئة عرضية لا
يتخرج منها الصالحون الأبرار ، وهي كذبة المديح ، فقال مكفراً موجحاً
نفسه التي آلى أن يطهرها وينقيها بنسكه :

تَقَيَّبْتُ فِي مَتَلِي بَرَهَةً سَتِيرَ الْعِيُوبِ قَعِيدَ الْحَسَدِ
فَلَمَّا مَضَى الْعَمْرُ إِلَّا الْأَقْلُ وَحَمَّ لِرُوحِي فِرَاقُ الْجَسَدِ
بُعِثْتُ شَفِيعاً إِلَى صَالِحٍ وَذَاكَ مِنَ الْقَوْمِ رَأْيٍ فَسَدِ
فَيَسْمَعُ مِنِّي سَجْعَ الْحَمَامِ وَأَسْمَعُ مِنْهُ زَيْرَ الْأَسَدِ
فَلَا يَعْجِبُنِي هَذَا النِّفَاقُ فَكَمْ تَفَقَّتْ مَحَنَةٌ مَا كَسَدِ

وكان الشيخ وبنه ضميره لانه دان صالحاً ، ولانه لم ير الصلاح الذي
ينشده فيمن وهبه ايام صالح فقال :

ما لمت في أفعاله صالحاً
يا قوم لو كنت أميراً لكم
وإنما سائسكم دائب
وردتم «الأجن» من دينكم
عالمكم يضرب في غمرة
فعرّفوني بفتى منكم
بل خلته أحسن مني ضمير
ذمتم في الغيب ذاك الأمير
يرعى المطايا ويسوق الحمير
وما ظفرتم بالصريح النمير
كالعلاج بالقفر يلس الغمير
لا يمتري الناس ولكن يدير

إن صاحبنا صالح بن مرداس يسميه اخواتنا الفاطميون - الدروز
- حتى اليوم : « لا صالح » ، لانه اضطهد الاخوان وجنف عليهم .

ثم انقضى عهد الظاهر لإعزاز دين الله العصب ، وفي هذا العهد لم
يسكت حصن المعرة كما قلنا ، وجاء عهد المستنصر فرأى هذا الخليفة أن
الدعوة الفاطمية في تقهقر ، فحول وجهه شطر المعرة ، صوب ابي
العلاء ، فوهب له ما في خزائن المعرة من مال حلال ، فرفضه الامام ،
وتزل له عين خراجها فلم يقبل مال الظلم . ثم التفت المستنصر ناحية
أخرى فوجه أبياتاً مروية الى داعي الدعاء الملقب بالمؤيد في الدين
يستنصره :

يا حجة مشهورة في الورى
شيعتنا قد عدموا رشدهم
فانشر لهم ماشئت من علمنا
وطود علم أعجز المرتقى
في الغرب يا صاح ، وفي المشرق
وكن لهم كالوالد المشفق

إن كنتَ في «دعوتنا» آخرأ فقد تجاوزتَ مدى السَّبِقِ
مثلك لا يوجد فيمن مضى من سائر الناس ولا من بقي
وإن تعجبَ الناسُ كيف لم يقتل أبو العلاء على الزندقة فلأنهم لا
يعلمون ، أو لا يريدون أن يعلموا ، أنه فاطمي المذهب ، وأن للفاطمية
التفوذ والسيطرة على وطنه - سياسياً ودينياً - وإن ضعفت أحياناً
سيطرة الفاطميين السياسية فلم يضعف نفوذهم الديني ، فقد كان إقليم
حلب على مذهب «الامامية» .

أما داعي الدعاة الذي مررتنا به مرور الكرام فسنعرج عليه ،
والموعد قريب .

مذهب ابي العلاء

الفاطمية مذهب فلسفي ، كما علمت ، وقد أصبح ابو العلاء فيما أثبت وقرّر في « اللزوميات » شيخها الاعظم وامامها الباقي ، فهو لم يدع شيئاً يعني « المستجيب » الى هذه الدعوة إلا ذكره له وفنده ، وهو لا يقرر القضية مرة ومرتين بل يعالجها في كل أبواب كتابه الذي سميناه فيما سبق كتاب المذهب .

ولما كانت الغريزة الجنسية أقوى ما في الانسان بل المخلوقات من غرائز لأنها مستودع بقاء النوع ، فقد أكثر ابو العلاء الكلام على المرأة والنسل .

ومن طالع سيرة المعز والعزیز والحاكم الفاطميين رأى ابا العلاء لا يخرج في حدود تعاليمه عن تخوم آراء هؤلاء الائمة الثلاثة . ومن أسعده الحظ وقرأ رسالة النساء الكبيرة في كتب الدروز يرى أن التبع واحد . كلهم يريد أن يقصي المرأة وينحيا خوفاً من الفتنة ، وغيره على العريض .

ظن بعضهم ، وأنا كنت من هذا البعض ، أن المعري لم يرد أن يتزوج لأنه لا يريد أن يجني على أحد كما جنى أبوه عليه ، ولكن ليس

السبب هناك ، إنما هناك سبب آخر وهو مذهب يؤثر العفة ، ويحدد النسل عند الاضطرار ، ولا يسمح بتعدد الزوجات ، يشور للعرض المهور ثورته للدم المهدور ، ناهيك بأن تقليل النسل تقريب للساعة التي يسود فيها الخير هذه الدنيا .

قال ابو العلاء يتذكر شبابه :

سقى لايام الشباب
ايام أمل أن امس
وأفيض احساني على
والآن تعجز همتي
وما حسرت مطيتي
الفرقدين براحتي
جاري ثم وجارتي
عما ينال بخطوتي

أما تركه الزواج فيقول فيه :

أنا للضرورة في الحياة مقارن
وضرورة من شيمتين لأنني
من مذهبي الآ أشد بفضة
لكن أقضي 'مدتي' بتقنع
ما زلت أسبح في البحار الموج
مذ كنت لم احجج ولم أتزوج
قدحي ولا أصفي لشرب معوج
يفني وأفرح باليسير الأروج

وعلى المرأة ، في مذهبه ، أن تلزم بيتها ، وقد أشرنا إلى كثير من أقواله في ذلك ، وثابته الطويلة توضح منهجه ، فكانه في تلك القصيدة يكتب سورة النساء ويحدد مواقفها من الحياة ، وهو في مواضع كثيرة من كتابه يوضح أشياء يرى أن يرأعها الأخوان كقوله في زواج ابن الأربعين مثلا :

إذا ما تقضى الأربعون فلا ترد
سوى امرأة في الأربعين لها قسم

فان الذي وفى الثلاثين وارتقى
زمان البغواني عصر جسمك زائد
عليهن عشرآ للفناء به وسم
وهن عناء بعد أن يقف الجسم

أما تعدد الزوجات فيعارضه ولا يراه صواباً :

إذا كنت ذا ثنتين فاعدل أو اتحد
بنفسك فالتوحيد أولى من العدل

وعند اخواننا الدروز كلمة مذهبية هذا نصها : ان المتعفف يحسب

في عداد الملائكة الاطهار . وسياتي التفصيل .

ويرى أن تصان المرأة وتقصى ، وإن تفعل غير ذلك فانت

المجرم لاهي :

إذا أمنت على مال اخا ثقة
فاحذر أخاك ولا تأمن على الحرم

فالطبع في كل جيل طبع ملامة
وليس في الطبع مجبول على الكرم

ويقول أيضاً فيصيب عصفورين بحجر واحد :

شر على المرأة في حمامها
أرسالك الفاضل في زمامها

ومشيها تضرب في أكمامها
يفوح ربا الطيب من أمامها

زائرة المسجد في إمامها
تاتم والخيبة في اتمامها

ويتعجب ابو العلاء من رجل يكون عيالا على زوجته فيقول :

عجبت لكهل قاعد بين نسوة
يقات بمباردت عليه المرادن

يعال على ذم ويزجر عن قلى
كما زجرت بين الجياد الكوادن

ويقول في المنجمين والمرأة :

أما لامير هذا العصر عقل

فكم قطعوا الطريق على ضعيف

يقيم عن الطريق ذوي النجوم

ولم يعفوا النساء من الهجوم

وحيث عرض ذكر المنجمين فلا بأس من جلاء رأيه فيهم :
سالت منجمها عن الطفل الذي في المهد كم هو عائش من دهره
فأجابها مئة ليربح درهما وأتى الحمام وليدها في شهره
يعني : يا كل حلاوته وأمه تقبره ، كما قال المثل العامي .

ويوصي الرجل الرشيد بالاحتفاظ بزوجه حتى آخر العمر ، وهذا
ما أراه عند اخواتنا الدروز :

إذا كان لك امرأة عجوزُ

فلا تأخذُ بها أبداً كعابا

وإن كانت أقل بهاء وجهٍ

فأجدر أن تكون أقل عابا

وأعرف منهم من لم يرزق عقبا ولم يطلق ، وإن كان ذلك جائزا له .
وأبو العلاء قليل الثقة بالمرأة ، كثير الشك بمحاصنتها حتى يمنع دخول
الوليد عليها كما مر ، وإن كان لا بد من تعليمها فليكن معلمها شيخا
فانيا . ويغالي فيحذر من القراءة الجوذة بحضرتها ، فالصوت هدر الفحل
كما سبق ، أما ميله الى ترك الزواج وتحديد النسل فهذا يعرفه جميع الناس
حتى العوام ويتمثلون به عند الغضب والحرد على المرأة والولد وإليك
ما زعم :

إذا شئت يوماً وصلة بقرينة

فخير نساء العالمين عقيما

ويقول :

قد بكرت لا يعوقها سبل

كهرة الروض في بنات سبل

الى طيب على الطريق لكبي

تأخذ من عنده دواء حبل

كم قذفت عرس بانس بحصى

كل حصة منها نظير جبل

وأكره ما يكره زواج الشيخ العاجز المتصالي :

وعرسه في تعبٍ دائمٍ لا تخضب الكف ولا تكتحل
ملت وإن أحسن أيامه تقول في النفس متى يرتحل
أما النسل فينصح بالاقبال إن كان لا بد منه :

إن كنت تهدي لي وأجزيك مثله فإن الهدايا بيننا تعب الرسل
فدونك شغلا غير هذا لعله يعود بنفع لا كشغلك بالنسل
ولا أخالك نسيت رأي الفيلسوف اليوناني في زواج الحكيم . أما
رأيه الأخير في النسل فهو هذا :

دنياك دار كل ساكنها متوقع سبباً من النقل
والنسل أفضل ما فعلت بها وإذا سعيت له فعن عقل
أما اباحة النساء فلا يوافق أفلاطون عليها بل يسفها ويشجبها :
شر النساء مشاعات غدون سدى كالأرض يحملن أولاداً مشاعينا



برئت إلى الخلاق من أهل مذهب يرون من الحق الإباحة للنسل
وقد تكون جرائم أولياء العهد في التاريخ، وجعل الحاكم ولي عهده
عبد الرحيم بن الياس بدلاً من ابنه ، كرهت الشيخ بالنسل ، ولا سيما
بعدهما رأى الظاهر يفعل ما فعل ، فقال :
اعدى عدو لابن آدم نفسه ثم ابنه وافاه يهدم ما بنى
ويلتفت إلى المرأة فيقول لها :
أحاضنة الغلام ذمت منه أذاك فارضمي حنثاً وضمي

أما النفس والجسم فقد أقرأتك ما قال فيها ، وقد أعجبني هذات
البيتان فاحب أن تشار كني فيها :

النفس عند فراقها جثمانها محزونة لدروس ربع عامر
كحامة صيدت فتننت جيدها أسفا لتنظر حال وكر دامر

أما الخير فهو أساس المذهب الفاطمي ، وقد أشرنا اليه كثيرا ،
وابو العلاء يدفعه حب الخير حتى يتناول به الحيوان ، فاسمع كيف
يحث على الخير :

قبيح مقال الناس جئناه مرة فكان قليلا خيره لم يعاون
إذا أنت لم تعط الفقير فلا بين له منك وجه المعرض المتهاون

وكانه يعرف ما يقوله المثل عندنا : قل لها ولا تقطعها . الحسنة
القليلة تدفع بلايا كثيرة ، فيقول :

إذا طرق المسكين بابك فاحبه قليلا ولو مقدار حبة خردل
ولا تحترق شيئا تساعفه به فكم من حصة أيدت ظهر مجدل

ومثلنا يقول أيضا « بحصة تسند خاية » .

ويوصي الامام بعبادة المرضى والاحسان الى الفقراء منهم :

إذا عدت في مرض مكررا فحقف وخف أن تمل العليلا
وإن كان ذا فاقة مقترأ فأسعف وإن كان نيلا قليلا

ويتناول الانسان والحيوان معا فيقول :

أسات بعبدك في عسفه وحملت غيرك ما لم يطق

ولا يفوتنك أن تقسيم الثروة في موطن أبي العلاء لا يرضى عنه
حتى الساعة ، ويقول في الحيوان :
تسريح كفي برغوثة ظفرت به أرباً من درهم تُعطيه محتاجا
لا فرق بين الأسك الجون اطلقه وجون كندة أمسى يعقد التاجا
كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة ويروم العيش مهتاجا
ويوغل فيقول :

فاجعل حذائي خشباً إنني أريد إبقاء على الدارش
وقصيدته الحائية مشهورة وفيها يحرم كل ما الحياة فيه حاضرة أو
كائنة . ويسخط على أمير يبيع جواريه وله في بطونهن ودائع فيقول :
أزال الله خيراً عن أمير له ولدٌ على علم يباعُ
جوارٍ كالتياقٍ يسقن عنه وفي أحشائهن له رباعُ
أما الصلاة والزكاة فشأنها عظيم عنده ، وكذلك هما عند اخواتنا
الدروز ، فالصلاة هي صلة المخلوق بالخالق ، والزكاة عمل الخير فعلاً ، ثم
إعطاء المال ، وهاك قول الإمام :
إذا صلوا فصلٌ وعفٌ وابذلُ زكاتك واجتنبُ قالاً وقيلاً
ولا ترهفُ مدى لعبيط نخض ولا تشهرُ على قرنٍ صقيلاً
ثم يوصي بالصمت لأن الكلمة كثيراً ما تكون شعبة شر فيقول :
أوجز الدهرُ بالقال إلى أن جعل الصمتُ غايةً الإيجاز
*
أصمت الشهور فهلا صمتُ ولا صوم حتى تطيل الصموتا
وما أجل قوله هذا :

بالصمتِ يدركُ طامراً ما ناله وتخبىب منه بعوضة مهذار
أما السلوك في الحياة فقوامه ترك الشر والاعتداء ، ولكنه يوصي
بالدفاع الشريف فيقول :

ادفعِ الشرَّ إذا جاء بشرَّ وتواضعْ انما أنتَ بشرٌ
هذه الأجسام تربُّ هامدٌ فمن الجهل افتخارٌ وأشرٌ

ويقول في الكذب ، ودعامة المذهب الصدق :

إن عذبَ المين بأقواهم فإن صدقي بفمي أعذب



أهوى الحياة وحسي من معايها أني أعيشُ بتمويهٍ وتدليسٍ-
فاكم حديثك لا يشعرُ به أحدٌ من رهطِ جبريل أو من حزبِ إبليس
وأخيراً يقول :

أصدقُ إلى أن تظنَّ الصدقَ مهلكةً وعند ذلك فاقعدُ كاذباً وقم-
وما أخاله يعني إلا قولهم : «الضرورات تبيح المحظورات» . وإذا
جاز للإنسان أن يدافع عن نفسه ، إذا تعرضت للهلاك ، بالنار والحديد
أفلا يصونها بكذبة ؟ ..

ولكن الشيخ ما كذب قط حتى في أعصب الساعات ، وما أكثرها
في تاريخ حياة الأحرار . وكأنه قد اعنته مداواة البشر فأيس منهم وقال
مع اشعيا :

أ يكونُ رفعُ للشور فينتهي عادٌ ويقنعُ بالنباتِ الضيغمُ ؟

أما الحلال والحرام فللشيخ فيها رأي لا يجيد عنه متزهةُ الدروز
أبدأ ولو جرّ إلى الهلاك . قال الشيخ :

لا تأنفن من احترافك طالباً حلاً وعدّ مكاسب الفجار
ويقول في مال الظالمين ، وهذا سنقول فيه كلاماً :

متى ما تُصِيب يوماً طعاماً لظالمٍ فقم عنه ، وافغر بعده فم قالسٍ .
ويرى أن كل ما في الكون يسبح الله ولا يمن ، أو لا يطلب أجراً ،
إلا الإنسان فيخاطبه قائلاً :

كلُّ يُسَبِّحُ فافهم التقديس في صوت الغراب وفي صياح الجدجد
ثم يقول في الإنسان ، هذا المخلوق المتغطرس المتكبر الذي يظن أن
الكون خلق لخدمته ، كما قال النبي داود في المزمور الثامن : « بالمجد
والكرامة كلته ، وعلى أعمال يديك سلطته . أما أبو العلاء فيرى غير
ذلك ويقول :

فلكٌ يدورٌ بحكمةٍ وله بلا ريبٍ مديرٌ
إن من مالكننا بما نهوى فمالكننا قديرٌ
أو لا فعالم آدمٍ باهانة المولى جديرٌ

ثم يشتد غضب الشيخ في مكان آخر فينكر « الغائية » التي يزعمها
البشر فيقول :

تورعوا يا بني حواء عن كذبٍ فما لكم عند ربِّ صاغكم خطرٌ
لم تجذبوا لقبيح من فعالكم ولم يجثكم لحسن التوبة المطرُ
ويقول في الخمرة التي يناهضها « عقال » الدروز في زماننا ، بل ذهبوا

أبعد مما ذهب اليه المعري فتورعوا عن التدخين وما يشبهه :
لو كانت الخمر حلا ما سمحتُ بها يوماً لنفسي لا سرا ولا علنا
فليغفر اللهُ كم تطفئ ما ربنا وربنا قد أحل الطيبات لنا
ومن مذهبه طرد كل خرافة من أذهان الاخوان ، فيقول في الجن
وأشباه الجن :

قد عشتُ عمراً طويلاً ما علمت به حساً يحسّ الجنّي ولا ملك
ويقول :

فاخش المليك ولا توجد على رهبٍ إن أنت بالجن في الظلماء خشيتا
فانما تلك أخبار ملققة لخدعة الغافل الحوشي حوشيتا
أما اليمين فينتهي عنها في كل حال :

لا تحلفن على صدق ولا كذب فما يفيدك إلا المائم الحلف
وهو يرى أن الناس لا يتدينون إلا خوفاً فيقول :
والناس يطغون في دنياهم اشراً لولا المخافة ما زكوا وما سجدوا
حتى يخاطب السيف بسخره المعهود فيقول :

خير وشر وليل بعده وضحي والناس في الدهر مثل الدهر قسمان
واللب حارب تركيباً يجاهد فالعقل والطبع حتى الموت خصمان
هل ألد السيف أو قلت ديانتته أو كان صاحب توحيد وإيمان
ورابني منه ترك الجاحدين سدى لم يفجعوا برؤوس منذ أزمان
أما نحن فنشكر إلهاد السيف في زمن الشيخ فسلم لنا ... أما الدين
عنده وقد سبق الكلام عنه فهو :

الدين هجر الفتى اللذات عن يسر في صحة واقتدار منه ما عمرا
ورحم الله عمي النبي كان يقول : توبة المريض مريضة .

أما أخلاق الامام الخاصة فيعرفنا بها بقوله :

وتؤثرُ حالةَ الزميتِ نفسي وأكره شيمةَ الرجلِ المفنِّ
ثم يرد على الذين يزعمون أن النجوم عاقلة ، وقد سبقت كلمة حول
هذه الفكرة ، فيتهكم ويتساءل إن كانت أديانهم مختلفة مثل أدياننا ، حتى
ينتهي الى رأيه في النسل فيقول :

إن شئت أن تكفى الحمامَ فلا تعشْ هذي الحياةُ الى المنيةِ سلِّمُ
أما كرهه الدنيا فمعروفٌ مشهورٌ ، ومع كل ذلك يصدق فيعلن أنه
راحلٌ عنها كارهاً ، استطاب البقاء على علاته ، وحسبه أنه يتزود منها
ما يلي .

خابَ الذي سارَ عن دنياهُ مرتحلاً وليس في كفه من دينه طرفُ
لا خيرَ للمرءِ إلا خيرَ آخرةٍ يبقى عليه فذاك العز والشرفُ
ثم يرى كما رأى ابنُ سينا : " وكلُّ الشكِّ في أمرِ الخروجِ " . ولكنه
يجعل هذا الشك حقيقةً ملموسة فيقول :

أما الحقيقةُ فهي أني ذاهبٌ والله يعلمُ بالذي أنا باقٍ
وأظنني من بعد لست بذاكرٍ ما كان من يسرٍ ومن إملاقٍ
يا مرحباً بالموت من متنظِّرٍ إن كان ثم تعارفٌ وتلاقٍ

ولذلك فخير ما يعمل الانسان هو تطهير نفسه ليكون أحسن
حالا فيقول :

ومن يطهرُ بخوفِ الله مهجته فذاك إنسانٌ قومٌ يشبهُ الملكا

ويضحكُ ممن يوصي عند الموت فيقول بلمهجته المعهودة :

يوصي الفتى عند الحمام كأنه يمرُّ فيقضي حاجةً ويعودُ

وما دامت الحياة شقاءً ، فالشيخ يتمنى قصرَ العمر :

وددتُ أنْ إلهي كان غادرنِي و "مدتي" في يديه أقصر المددِ

وهذه "المدة" من كلام الاخوان اليوم ، وكذلك المهلة وقد سمعت

قولهم ، إن كنتَ ممن عاشرهم : "دامت مهلتك" . أما الملوك فشعاره

أخيراً فيهم كما قال السيد المسيح : " أعطوا ما لقيصر لقيصر " :

وأخشَ الملوك وياسرها بطاعتها فالملك للارض مثل الماطرِ الثاني

إن يظلموا فلهم نفعٌ يعاشُ به وكم حموك برجلٍ أو بفرسانِ

أما الصلاة فليس لها عنده مكان خاص بل يقول فيها :

متى يقومُ إمامٌ يستفيدُ لنا فتعرف العذلَ أجبالٌ وغيطان

صلّوا بحيثُ أردتمْ فالبلادُ إذنُ كأنما كلها للإبلِ أعطانُ

ويقول :

القدسُ لم يفرض عليك مزاره فاسجد لربك في الحياة مقدساً



متى يخلص التقوى إلى الله لا تغضُ عطاياهُ من صلى وقبلته الشرق

والإتكال على الله هو كل شيء في نظر الشيخ ، فالله كريم يعطي

بلا حساب :

لا تخبانُ لغدٍ رزقاً وبعد غدٍ فكل يوم يوافي رزقه معه

واذخرُ جيلاً لأدنى القوتِ تدركهُ وللقيامَةِ تعرفُ ذاكَ أجمعهُ
فرقُ تلاكِمْ فيما شئتَ محترماً فليسَ يذرفُ خلفَ النعشِ أدمعهُ
وافعلُ بغيركَ ما تهواهُ يفعلهُ وأسمعِ الناسَ ما تختارُ مسمعهُ
ويقولُ أيضاً قولاً جميلاً ، وقد أحسن الأداء :

واطلبِ الرزقَ بالمرورِ من الشجِ راء لا من أسنةٍ ومناصلِ
وتشبههُ بالطيرِ تغدو خماساً وتعدّ اليسارَ ملءَ الحواصلِ
وأراني لست في حاجةٍ الى لفتِ نظركَ إن كنتَ ممن قرأوا الانجيلِ .
ويقولُ في أساليبِ الحياة :

ويعجبني دأبُ الذين ترهبوا سوى أكلهمُ كد النفوسِ الشحائحِ
وأطيبُ منهمُ مطعماً في حياتهمُ ساعةً حلالِ بين غادرٍ ورائحِ
فما حبسَ النفسَ المسيحُ تعبداً ولكن مشى في الأرض مشيةً سائحِ
ويقولُ في صلاةِ المعبولِ :

صلاةُ الأميرِ الكاسميِّ بمسجِدِ أبرّ وأوفى من صلاةِ البطارقِ
أما النواميسُ التي تعقدُ القضايا وتخلقُ المشاكلَ فيقولُ فيها :
تمسّ منا للديانةِ معشرُ وقد بطلتْ عندَ اللبيبِ النواميسُ
ويقولُ في الفقهاءِ شرّاحِ النواميسِ :

أجازَ الشافعيُّ فعالَ شيءٍ وقالَ أبو حنيفةٍ لا يجوزُ
فضلَ الشيبِ والشبانِ منا وما اهتدتِ الفتاةُ ولا العجوزُ
ولم آمنُ على الفقهاءِ حبساً إذا ما قيلَ للفقهاءِ جوزوا
ثم ينسبُ هذا التفريقَ إلى طباعِ البشرِ فيقولُ :
لولا عداوةُ أصلِ في طباعهمُ كانتُ مساجدُ مقروناً بها البيعُ

وأخيراً يعدي عن كل هذا فيقول :
 إذا الانسان كَفَّ الشَّرَّ عني فسقيا في البلاد له ورعيا
 ويدرس إن أرادَ كتابَ موسى ويضمُرُ إن أحبَّ ولاءَ شعيا
 والشيخ لا يترك شيئاً إلا ويحدث الاخوان عنه ، فها هو يحرم البكاء
 على الميتِ لأن الموت انتقال وراحة وتغير منزل و « القضية ثابتة » كما
 يقول أفلاطون ، فيقول ، وسترى أيضاً قولاً مثل هذا قبل أن يفارق :
 بكى جزعاً لميتِهِ كفورُ فجاءَ بمنتهى الرأي الأفينِ
 مصيبةُ دينهِ لو كان يدري أجلُّ من المصيبةِ بالدفينِ
 وهو يزعم أنه لا يخشى الموت ، مع أني رأيتُه خائفاً جداً مع إيمانه
 بعقيدته الثابتة :

ولست كموسى أهاب الحمام ولكن أود لقاء الملك
 ويعرض له الشك في الله ، ولكن شكه هذا ابن عم الايمان فيقول :
 أما الإله فامرٌ لستُ مدركه فاحذر لجيلك فوق الأرض اسخطا
 هبهُ اغوسطينوس أو توما الاكوييني ، فقد اعتورهما مثل هذا كما
 يعتور أكبر النساك والحبساء .

ها هو الشيخ يقترب من هوة الأبدية ، فاسمع ما يقول وكيف يعلن
 امامته ، ويبوح بالسر الذي اتعبه وأتعب الناس به ، وحمل داعي الدعوة
 على تحبير تلك الرسائل :

لو اتبعوني ويحسبهم هديتهم الى الحق أو نهج لذاك مقارب
 فما للفتى إلا انفراد ووحدة إذا هو لم يرزق بلوغ المآرب
 وكان الامام قد شعر بدنو الرحيل فقال :

أُتَّفِقُ فِي الْحَيَاةِ كَفَعَلِ غَيْرِي وَكُلُّ النَّاسِ شَأْنُهُمُ النِّيفَاقُ
أَعْلَى مَهْجَتِي وَيَصِيحُ دَهْرِي أَلَا تَغْدُو فَقَدْ ذَهَبَ الرِّفَاقُ

ثم يوصينا بقراءة كتابه هذا ، وقد فعلنا ذلك مرات :
اقرأ كتابي اذا ضمَّ الثرى جسدي فإنه لك من قاله خلفُ
صدقت أيها الامام .

ويوصي الاخوان باتباع خطته ، وقد فعلوا أيضاً :
إن مات صاحبكم فجدوا بعده في النسك واتخذوا الخشوع جليسا
وأشهد ، وشهادتي حق هي ، لأنني أعيش وعشت بينهم قرابة ربع
قرن ، إن « أجاويدهم » لا يتصرون عن شيخهم ابي العلاء ، إن لم يكن
بعض « المتزهة » منهم قد تجاوزه . وها هو الشيخُ يعلن مذهبه الذي
كتمه عنا طول العمر فيقول أولاً :

وإن تسألوا عن مذهبي فهو خشية من الله لا طوعاً أبث ولا جبراً
ويقول أيضاً :

إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده بنصح فاتا منهم لبراه
وهو لم يخف هذا التوحيد المجرّد عن كل شيء في منتصف
العمر فقال :

يوحدانية العلام « دنا » فدعني أقطع الأيام وحدي
وها هو يعلن ذلك السر المكتوم فيقول :
طوى عنك سر أصحاب قبل شبيهه فلما انجلى عنه المشيب جلاه
ولا ملك إلا للذي عز وجهه ودامت على مر الزمان علاه
ويقول أيضاً :

إذا سألوا عن مذهبي فهو بينٌ
خلقت من الدنيا وعشت كآهلها
وأشهد أني بالقضاء حللتها
فهل أنا إلا مثل غيري أبله
أجد كما جدوا وأهو كما هوا
وأرحل عنها خائفاً أتاله
ويدنو الموت منه فيحس به الشيخ فيصف لنا حاله :

قد خف جرمي وصار جرمي
نفسى أولى بمن عناها
ويخشى أن يباح عليه، ومن له لينوح عليه ، فيقول معلماً الاخوان :
أثقل من هضبة علياً
من هؤلاء وهؤلاء
قبيح أن يحس نجيب بك
فاوصيكم بدنيانا هواناً
ثم يختم كتاب حياته ومذهبه بهذين البيتين :

ازول وليس في الخلاق شك
خذوا سيري فهن لكم صلاح
فلا تبكوا علي ولا تبكوا
وصلوا في حياتكم وزكوا
لا أدري أيها القارىء ، وقد فرغت من الكلام على رأيي في مذهب
ابي العلاء ، إن كنت صرت لي حزباً . فان كنت لا توافقني فأنا مستعد
أن أتبعك إن جئت برأي يستظهر على زعمي ، وسوف أنتقل الى المواطن
التي يتفق فيها أبو العلاء مع فاطمي اليوم وسيكون سبيلنا الى ذلك
إثبات وقائع لا استشهاد في الشعر ، فقد فرغنا من هذا ، وما ذكرنا ما
ذكرناه لك إلا لنطبق أعمال الجماعة على أقوال الامام فترى أنهم اخوان
يتبعون منهجاً واحداً ، لا يختلف إلا في قضية واحدة لا مجال لذكرها .
وإن كان هناك بعض اختلاف ، واعتقد أنه غير موجود ، فعند الدروز
كلمة تشير الى التطور الذي لا بد منه ، وليس يجري عصرنا كسائر الأعصار .

خِلالِ أَلْفِ سِنِّينَا

أراجيف واساطير

أما منافسة الشيخين أبي العلاء وداعي الدعوة فإن دلتني على شيء فتدلتني على أن الرجلين فرسا رهان ، يجريان لغاية واحدة . كلاهما باطني ينتهي الى قمة الدعوة ، ويعتصم بالعقل وحده ، ولم يكتب داعي الدعوة الى أبي العلاء إلا رغبة منه في ادراك سره ، لأن الباطنيين مولعون بالاسرار ... وليس فيما كتب داعي الدعوة الى أبي العلاء ما يدل على أنه يناهضه ، ولا على أنه يبحث عن حقيقة دينه ، فالقصد هو ادراك السر الذي ذاع أمره وأوهم أبو العلاء أنه عنده ولا يبوح به .

وما رأيت أبا نصر بن أبي عمران - داعي الدعوة - إلا مبجلاً ومعظماً لأبي العلاء ، عارفاً سره كما يجب ، فهو يقول : « والدليل على كونه - أي أبي العلاء - ناظراً لمعاده ، بدقيق النظر الذي لا يكاد يجري معه جارٍ في ميدانه ، سلوكه في المسلك الذي سلكه في الزهد ، وقصده شطف العيش وتعوضه عن لذيذ الطعام بالكريمه ، وعن لين اللباس بالخشن ، وتعففه عن أن يجعل جوفه للحيوان مدفناً ، أو أن يذوق من درها لبناً ، وأن يستطعم من طعام استكدت عليه في حرثه وانشائه . وليست هذه

الطريقة إلا طريقة من يعتقد أنه إذا آلمها ، ونال نيلا منها ، استوفى
جزاء فعله بها . ومن كانت هذه نصبت في سلامة البهيمة العجباء منه ،
فكيف في إثارة سلامة الإنسان الناطق العاقل من يده ولسانه . »

ثم تجري الرسالة الأولى جري الند في مخاطبة الند ، بل سؤال « من
يتوكأ على عصا العقل » .

هذا ما ورد في رسالة داعي الدعاة الأولى . أما رسالته الثالثة ، وهي
الأخيرة ، فلم يجب عليها أبو العلاء لأنه كما ذكر لداعي الدعاة في رسالته
الأخيرة : « وإني لأعجز إذا اضطجعت عن القعود ، فرما استعنت
بانسان فإذا هم بأعانتني وبسط يديه لينهضني ، اضطربت عظامي ، لأنهن
عاريات من كسوة كانت عليهن ، فعرتهن منها الأوقات المتأدية . وإنما
عنيت ما كان عليهن من لحم . »

لم يجب عنها أبو العلاء لأنه مات ، وإليك ما يعيننا مما جاء فيها :
« ما فاتحت الشيخ ، أحسن الله توفيقه ، بالقول إلا مفاحة متناكر ، مؤثر
لأن يخفي من أين جاءه السؤال ، فيكون الجواب بإسترسال ورفض
حشمة ، وحذف تكلف الخطاب بسيدنا ، والرئيس ، وما يجري هذا
المجري ، إذ كان حكم ما تتجاري فيه موجبا أن لا يتخلله شيء من
زخارف الدنيا ، ولأنني أعتقد أن سيدي ، بالحقيقة ، من تستقل دون
يده يدي أخذاً منه للدنيا ، أو تمتاز نفسي من نفسه استفادة من معالم
الأخرى .

« فلا أدري كيف انعكست الحال ، حتى صار الشيخ ، أدام الله

تأييده ، يخاطبني بسيدنا ، والرئيس ، ولست مفضلاً عنه في دنيا ولا دين ، بل شاداً إليه راحلتى لاستفادة ، إن وردت موردها ، أو صادفت نهلاً أو عللاً منها ، قابلتها بالشكر لنعمته ، والإسجال على نفسي بسيادته .
« وبعد فاني أعلمه ، أدام الله سلامته ، إنني شققت الأرض بطنها وظهرها من أقصى ديارى إلى مصر ، وشاهدت الناس بين رجلين : أما منتحلاً لشريعة صبا إليها ، ولهج بها إلى الحد الذي إن قيل له من أخبار شرعه ، أن فيلاً طار ، أو جملاً باض ، لما قابله إلا بالقبول والتصديق ، ولكن يكفر من يرى غير رأيه فيه ، ويسفه ويلعنه .
« فالعقل عند من هذه سبيله في مهواة ومضيعة ، فليس يكاد ينبعث لأن يعلم أن هذه الشريعة التي ينتحلها لم يطوق طوقها ، ولم يسور أسوارها إلا بعد لموع نور العقل منه .

« أو منتحلاً للعقل يقول : « إنه حجة الله تعالى على عباده » مبطلاً لجميع ما الناس فيه ، مستخفاً بأوضاع الشرائع معترفاً مع ذلك بوجوب المساعدة عليها ، وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ، ولجاماً على رؤوس المجرمين المجازفين ، لا على أنها ذخيرة العقبي ، أو منجاة في الديار الأخرى .

« فلما رمت بي المرامي إلى ديار الشام ومصر ، سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضل في الأدب والعلم ، قد اتفقت عليه الأقاويل ، ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفي أمره متبيلبين ، فكل يذهب فيه مذهباً ، ويتبعه في تقاسيم الظنون سبباً .

وحضرت مجلساً جليلاً أجري فيه ذكره ، فقال الحاضرون فيه غثاً
ومميئاً ، فحفظته بالغيب وقلت : إن المعلوم من صلابته في زهده يحميه
من الظنة والريب . وقام في نفسي أن عنده من حقائق دين الله سرّاً ، قد
أسبل عليه من التقية ستراً ، وأمرأ تميز به من قوم يكفر بعضهم بعضاً .
ولما سمعت البيت :

غدوت مريضَ العقلِ والدينِ فالتفني

لتعلمَ أنباءَ الأمورِ الصحائح

وثقت من خلدي فيما حدثت عهدوه وقلت : إن لساناً يستطيع بمثل
هذه الدعوى نطقاً ... للسان « صامت » عنده كل « ناطق » ... فقصدته
قصد موسى للطور اقتبس ناراً ... فادليت دلوي بالمسألة « الخفية » التي
سالت ... »

ثم يعتذر الداعي عن كل ما سلف في رسائله ويختم هذه الرسالة بقوله :
« وقبل وبعد ، فأنا أعتذر عن سر له ، أدام الله سلامته ، أديته ، وزمان
منه بالقراءة والإجابة شغلته ، لأنني ، من حيث ما نفعته ، ضررته ،
والله تعالى يعلم أني ما قصدت به غير الاستفادة من علمه والاعتراف من
بحره والسلام . »

ولست أدري كيف يحسب مثل هذا الكلام تهجماً على قدس الشيخ ،
وأن يقال أن داعي الدعوة أمر باحضاره إلى حلب ، ولما علم أبو العلاء أنه
يحمل للقتل أو الإسلام ، سم نفسه فمات .

هذه أولى الأراجيف ، فداعي الدعوة كما تلمح من مخاطبته أبا العلاء

يعلم أنه يخاطب أستاذاً أو زميلاً على الأقل ، وقد خاطبه بالمصطلحات والتعابير الفاطمية ، واعتذر له عن إزعاجه إياه بالرد عليه . أما قول داعي الدعاة أن الناس مختلفون في دين أبي العلاء فهو يقول حقاً ولهذا كتب إليه ، ولما علم أنه من « الجماعة » تركه وبالغ في تعظيمه والاعتذار إليه . أما الآخرون فاسمع كيف يخاطبونه :

كَلْبٌ عَوَى بِمَعْرَةَ النِّعْمَانِ لَمَّا خَلَا مِنْ رَبْقَةِ الْإِيمَانِ
أَمْعَرَةَ النِّعْمَانِ مَا أَنْجَبَتْ إِذْ أَخْرَجَتْ مِنْكَ مَعْرَةَ الْعِمْيَانِ

ومن أرجافهم حول ذكائه حكوا أن اثنين تكلما أمامه شيئاً كثيراً بلسان أذربيجان فأعاد أبو العلاء على اللفظ بعينه من غير أن يخرم منه حرفاً ، ولم ينقص ولم يزد . وروى بعض طلبية أبي العلاء أن جاراً له أعجمياً غاب عن المعرة ، وحضر رجل من بلده يبحث عنه ، فوجده غائباً ، ولم يمكنه المقام فأشار عليه أبو العلاء أن يذكر حاجته ، فجعل الرجل يتكلم بالفارسية وأبو العلاء مصغراً إليه ، ولم يكن يعرفها ، إلى أن فرغ من كلامه ومضى الرجل . وقدم جاره الفارسي الغائب فجعل يردد عليه ما سمعه بلفظه ، والرجل يستغيث ويلطم ، إلى أن فرغ من الحديث . وسئل عن حاله ، فأخبر بموت أبيه وأخوته ، وجماعة من أهله .

قلت : ولو كان مات جميع من في بلده لكان الخبر أضخم وأروع . وقد رؤوا أخباراً كثيرة مثل هذه لا حاجة إلى إثباتها .

ومن الأساطير المعزوة إليه واحدة رويت عن الغزالي عن يوسف بن

علي بأرض الهركار أنه قال : دخلت معرة النعمان ، وقد وشى وزير
محمود بن صالح إليه بأن المعري زنديق لا يرى افساد الصور ، ويزعم أن
الرسالة - أي النبوة - تحصل بصفاء العقل . فامر محمود بحمله إليه من
المعرة ، وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ،
فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال : يا ابن أخي ، قد نزلت بنا هذه
الحادثة ، والمملك محمود يطلبك ، فان منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك كان
عاراً علينا عند ذوي النعام ، ويركب تنوخ الذل والعار .

فقال أبو العلاء : هوّن عليك يا عم ، ولا بأس عليك ، فلي سلطان
يذب عني . ثم قام فاغتسل ، وصلى إلى نصف الليل ثم قال لغلامه : أنظر
إلى المريخ أين هو .

فقال الغلام : في منزلة كذا . فقال : زنه ، واضرب تحته وتدا ،
وشد في رجلي خيطاً واربطه إلى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه
وهو يقول : يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، يا صانع المخلوقات ، وموجد
الموجدات ، أنا في عزك الذي لا يرام ، وكنفك الذي لا يضام ، الضيوف
الضيوف ، الوزير الوزير . ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا بهذة عظيمة .
فسأل عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بهنا فقتلت
الخمسين وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر :
لا تزعجوا الشيخ ، فقد وقع الحمام على الوزير .

قال يوسف بن علي : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعري فقال : زعموا
إنني زنديق . ثم قال : اكتب . وأملى علي أبياتاً من قصيدة أولها :

أستغفر الله في أمني وأوجالي من غفلي وتوالي سوء أعمالي
ومن عناكب الأساطير المنسوجة أيضاً حول الشيخ هذان الحلمان :
الأول : روى القفطي عن القاضي أبي عمرو بن عبد الله الكرجي ،
أنه كان وهو طالب يقع في دين أبي العلاء ، فرأى فيما يرى النائم كأنه في
مسجد ، وكان على صفة فيه رجلاً شيخاً ضريراً بادناً ، وإلى جانبه غلام
يشبه أن يكون قائده ، قال القاضي : وكنت واقفاً تحت الصفة في نفر
من الناس ، وهذا الشيخ يتكلم كلاماً لم أفهمه ، ثم التفت إلي وقال : ما
حملك على الوقعة في ديني ، وما يدريك لعل الله غفر لي . قال : فاستحييت
منه وسألت عنه ، ف قيل : هو أبو العلاء . فلما أصبحت أقلعت عن النيل
منه ، واستغفرت الله لي وله .

الثاني : رواه غرس النعمة عن غلام سماه أباه غالب ، قال : وهو من
أهل الخير والصلاح ، وله فقه ودين ، فلما ورد إلينا الخبر بموت أبي العلاء
تذاكرنا ما كان له من كفر وإلحاد ، فأتينا من ذلك على شيء كثير ،
والغلام يسمع ، فلما كان الغد أقبل إلينا يحدثنا : أنه رأى فيما يرى النائم
شيخاً مكفوفاً على عاتقيه حيطان ، رأسها إلى فخذيته ، فها ترفعان
رأسيهما إلى وجهه ، فتقطعان منه قطعاً تزدردانهما ، والشيخ يصيح
ويستغيث ، فسأل عنه ، ف قيل : هو أبو العلاء المعري الملحد .

وحكاية أخرى سمعناها ونحن صبيان لأدري إلى من تسند ، قال الراوي :
صعد أبو العلاء إلى جبل قرب المعرة يعرف اليوم بجبل « الزاوية » ،
وأخذ يصيح : هوذا جبل أعلى من الطور ، ورجل أعظم من موسى ،

فكلمني يا من كلمت موسى . وفعل ذلك ثلاثاً ، ولما يجبه أحد . فانحدر
عن الجبل وهو يردد :

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
وحكاية اخرى رواها المرحوم احمد تيمور باشا في كتابه « ابو العلاء
المعري » ص ١٣ قال :

وقبره معروف الى اليوم ، اي سنة ١٣٢٧ ، بالمعرة ولاهلها اعتقاد
كبير فيه ، ويزعمون أن الماء إذا بيّت في قارورة عند قبره ، وشربه في
الغد صبي به حبسة في لسانه ، أو بلادة في ذهنه ، زال ذلك عنه ببركة
ابي العلاء .

أقول : أما أنا فحين زرت المعرة وسالت عن سبب مجيئي اليها
فاجبت: زيارة قبر ابي العلاء ، سأل أحد المعريين رجلاً آخر منها وكلاهما
من عوامها : منو ابو العلاء ؟ فاجابه : واحد كان مثل عنتر والزناقي
خليفه ...

رحم الله الشيخ الامام ، فما يرجف الناس ، ولا يحوكون الاساطير
إلا حول شخوص النوابغ .

شاعر العقل الفاطمي

طلق ابو العلاء الدنيا الثلاث فكان عمله بدعة في الاسلام . مسح يده
من جميع ملذاتها فعاش عيشة الحبساء المنفردين في الصوامع ، معدياً عما
استثناه منها حين أطراها بقوله :

ويعجبني عيشُ الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائحِ
وعلى هذا نساك الفاطميين اليوم ، فمال الوقف لا يأكله فاطمي
زمت ، فهو في نظرهم مثل مال الحكام . وعندهم : حلالك تعبك ، بعرق
جبينك تأكل خبزك . هم يحرصون الحلال في ثلاثة : أجر الفاعل والزراع
والفلاح ، فأحد مشايخهم الاتقياء - الشيخ محمد صالح ، من جرمانا ، غوطة
الشام - كان يوزع غلة أراضيه على فقراء الملة ، ويعيش من ثمن السلال
والخوص التي كان يصنعها هو ويبيعها في دمشق . فلم يمد يده الى حاصلاته
لأنه لم يتعب في استثمارها .

وقد رأيت في الفصل المعقود تحت عنوان : « مذهب ابي العلاء ،
ان الشيخ ينصح « الأخ » ان يتقيا ما أكل إذا عرف انه مال ظالم . وهذا
ما يفعلونه اليوم ، فيتجنبون الحكام ويتعدون عنهم ، ويرفضون
عطاياهم - كما فعل ابو العلاء قبلهم . ان « الأجاويد » منهم يستنكرون

استئجار أوقاف الحكومات ، ولا ياكلون عند حاكم ، او من اعتقدوا انه
مغتصب مال الآخرين . وامتناعهم عن أكل حاصلات الأراضي المقتسبة
يعرفه اقل الناس اختباراً لهم ، فهم لا ياكلون من غلة تلك الأراضي
ولو بالثمن .

وما لنا نبعد الى الغوطة لنحدثك عن الشيخ محمد صالح ، ولندع ذكر
« المتزهة » اخوان المعري في خلوات البيضة ، فضالتنا التي تنشدها
قريبة من عاليه في ضيعة « فعصريته » رجال يلقبونهم في الشوف
بالجويدين الزرق ، فهؤلاء الرجال لا يأخذون اعاشة من الحكومة في
وقتنا الحاضر^(١) ، ولا يشربون ماء من احدى القرى المجاورة لهم لأن
أهلها لا جويدين منهم .

وفي عاصمة الشوف - بعقلين - سيدة فاضلة لم تكن تستحل الأكل
من مال ولدها لأنه موظف ، فكانت تستبدل المال بمال آخر من عند رجل
تثق بدينه لتستحل الأكل . ولم تاكل من ثمار أرض شراها ولدها ، بل
تختار ذلك من ثمار العقارات الموروثة لأنها حلال ، وكانت تعيش مع بنيتها
وأحفادها وهي منقطعة عنهم فيما عيس المذهب .

وهذا ابو العلاء يقول لابن القارح في رسالة الغفران عن دنائره التي
سُرقت : « وهذه ، ولا ريب ، من دنائير مصر ، لم تجيء من عند السوق ،
ولكن من عند الملوك . »

لسنا نقول هذا لنزعم لك أن أبا العلاء درزي ، او لنقول انه كالطبقة

(١) كان ذلك في أيام الحرب وتوزيع الأعاشة .

السامية من عقلاء هذه الطائفة الذين بلغوا ما يسمونه ختام الدين . فمن
قال أن أبا العلاء مثل هؤلاء هو كالقائل مثلا : نابليون بونابرت والبابا
لاون الثالث كانا يستعطان مثل مارون عبود .

ان طلائع هذا الزهد العلائي قد بدت مع المعز جد الحاكم فتغلى عن
الكرسي مدة سنة لابنه العزيز بالله ، ثم نما هذا الزهد واستفحل أمره مع
الحاكم قبل « الغيبة » بقليل . أما ابو العلاء فتنسك وسأل الاخوان أن
يكونوا له شيعة في طريقه ، فوضع لهم في « اللزوميات » الأصول والمبادئ
الزهدية ، ولما قربت ساعته خاطبهم بقوله :

أزولُ وليسَ في الخلاقِ شكٌ فلا تبكوا عليّ ولا تبكوا
خذوا سيريّ فهنّ لكم صلاحٌ وصلوا في حياتكم وزكّوا

إذا قابلنا بين قول ابي العلاء هذا وبين ما يفعله أجاويد الدروز
اليوم رأينا أنهم يحملون جزءاً ولا ينتحبون على فقيد مها عز وغلا ، كما
فعل الأمير السيد حين فقد ابنه ، وسياتيك خبر هذا .

ومن كلام الدروز في هذا الصدد « إذا أصبتم بعزير فعليكم أن تصبروا
لثلاث فقدوا الأجر ، فمن جزع من قضاء الله عبر به القضاء ولزم الأثم .
ومن صبر على القضاء خف عنه المصاب ولزمه الأجر وإذا كان لا بد من
عبور القضاء فالأولى أن نصبر ، ابتغاء للشواب وحذر غضب الله » .

ومن كلماتهم الماثورة : « من يبك على رأس ميت فكانه يحارب الله » .
واني لأرى أبا العلاء يلح بقوله : « فلا تبكوا علي ولا تبكوا » ،

إلى النبي الكريم ، لأنه بكى واستبكى ، ومن قرأ رسالتي المعري إلى داعي الدعوة يرى ترجيحاً لظننا هذا .

ان أبا العلاء يبحث على الزهد ويحرص على كتمان « السر » وعلى كل ما أراه بارزاً في المذهب الفاطمي اليوم . وأراه يتكلم كمن له سلطان ، فلا يستند إلى تقليد ولا إلى أسناد لأنه لا يتجاوز تخوم منطقة العقل . والعقل في المذهب هو « الإمام » المعصوم . والعقل الفاطمي هو العلة الأولى وضابط الكون . ولئن كان لا بد للعقل من شيخ فأبو العلاء هو شيخ مشايخ العقل ، وأول من جهر معلناً امامته المطلقة وأمر باتباع وحيه وهداه .

من عادة المؤمنين أن يكونوا عمل فبركة ، أي غطاء واحداً . وأبو العلاء مؤمن ولكنه ليس من نمط اخوانه تماماً . ففي كتبه زاد للاخوان والذرية ، ووصيته لهم تنحصر باتقاء الله وعمل الخير ، وتطهير النفس من المعاصي ، والابتعاد عن اللذات التي ينبذها طلاب الكمال .

ليست الفضيلة عند أرسطو طبيعة ، فالطبيعة قوى واستعدادات ، والفضيلة تكتسب بمداونة الطبيعة ، أي أن تطبع النفس على حالات معينة . الفضيلة عندنا تتعلم كما يتعلم كل فن ، باتيان أفعال مطابقة لكمال ذلك الفن . ومن توهم أن المثابرة غير لازمة للحصول على الكمال فمثلته كمثل المريض الذي يريد الشفاء ولا يستعمل وسائله . وهذا ما قصده أبو العلاء من سيرته ونسكه .

لا استغرب أن يظهر الجزع والخوف إذا تصور نفسه ذاهبة بذهاب

جسده . وحقه أن يهتف « واشجيا » وان يحزنه قول ذلك الزائر له :
وعلى مَ حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟

كان ابو العلاء خائفاً على نفسه ، حريصاً على تنقيتها ، ويحزنه وجودها في الجسم الذي هو ألد أعدائها . كان يظن دائماً أنه مقصر فيذم نفسه ويقول أنه أبو النزول لا أبو العلاء . وفاطميو اليوم يقولون : من يظن بنفسه الخير فهو معدوم الخير . ويحكون عن « الشيخ الفاضل » أحد كبار عقال وادي التيم ، وهو من ذوي العمامة المكورة . انه ظل خائفاً على نفسه ، ولم يثق بخلاصها ونجاتها من أحابيل الجسد ، إلا قبل موته يبضع دقائق فقال مخاطبها : « روحى يا مباركة ، الآن أمنت عليك » . ويقول الفاطميون بضرورة التوبة قبل العجز ، ويسمون توبة الشيخ توبة فزع ، وكذلك قال أبو العلاء : « فليتنى ابهت لشانى قبل شيب المباح » .

طرق ابو العلاء هذا الموضوع كثيراً وحث على طاعة الله وترك المعاصي والانصراف عن الدنيا قبل أن تنصرف هي عنا . أما « الرحمة » عندهم فلا تعطى إلا مستحقها ، وليست دينونة كما يتوهم بعضنا ولكنها شهادة تؤدى ومعاذ الله أن تكون زوراً . والقصد منها حث الأحياء على طلب الكمال والتجمل بمكارم الأخلاق . والسكوت عنها رفض لها . وقد لا يرحم الأخ أخاه إن شك بفضله .

انهم لا يؤمنون بالامتسقاء وغير ذلك من طلبات البشر ، وعندهم كلمة ماثورة : « لا تنقص من ملكه تعالى معصية عاص ، ولا تزيد في

ملكه طاعة مطيع ، وإنما هي أعمالكم ترد اليكم . وأبو العلاء ، كما مر بنا ، يهزأ ممن يتصورون أن المطر لم يتزل لأنهم عصوا الله فيستسقونه بتضرعاتهم وصلواتهم .

يقول أبو العلاء ، كما مر بك : « لا طوقاً أبت ولا جبراً » ، والانسان عند الفاطميين مسير ومخير : مخير فيما يحده العقل ، ومسير في الأمور التي لا قبل له بها . وهذا كله محصور بكلماتهم الماثورة : « أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر أشكل عليكم قال الله ردوه . ومرتكب الكبائر عندهم ، كالقاتل والزاني ، لا يسلم » الحكمة ، وإن تاب توبة نصوحاً يسلم شرحها فقط .

إذا رأيت عند أبي العلاء تناقضاً فاعلم أن ذلك تقيّة واستتار ، فهو لا يريد ، كما قال ، أن يسخط جيله كل الاسخاط ، فترك لهم ما يتلهون به عنه ، ولكنه في كل حال لا يحدد مذهبه ولا يعترف بغيره صراحة . ومن الجنون المطبق أن نخال أبا العلاء معتقداً بالفناء ، ثم يتنسك هذا النسك الصارم .

أجهل أن عقله لا يسلم بما صارت إليه حمدونة ورفيقتها توفيق السوداء ولكنه يعتقد بخلود غير خلودنا ، ولهذا روى لنا ما خلقتة مخيلته من خبر هاتين المرأتين ، واليكه كما ورد في رسالة الغفران :

« ويخلو - اي ابن القارح - بحوريتين من الحور العين ، فاذا بهره ما يراه من الجمال قال : أعزز علي بهلاك الكندي ، اني لا ذكر بكما قوله : كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها ام الرباب بماسل .

إذا قامتنا تَضَوِّعُ المسك منها نَسِيمُ الصبا جاءتُ بريا القرنفلِـ
وأين صاحبته منكما ، لا كرامة لهما ولا نعمة ، جلسة معكما بمقدار
دقيقة من دقائق الدنيا خير من ملك بني آكل المرار وبني النضر بالحيرة
وآل جفنة ملوك الشام .

ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضاها ويقول: أن امرأ القيس
لمسكين مسكين ، تحترق عظامه في السعير ، وأنا أتمثل بقوله :

كان المدامَ و صوبَ الغمامِ و ريحَ الخزامى ونشرَ القطرِ
يعلّ به برد أنيابها إذا غرّد الطائرُ المستحِرُّ

فتستغرب إحداها ضحكاً فيقول : ممّ تضحكين ؟ فتقول : فرحاً
بتفضل الله . أتدري من أنا يا علي بن منصور ؟ فيقول : أنت من حور
الجنان اللواتي خلقهن الله جزاء للمتقين ، وقال فيكن كأنهن الياقوت
والمرجان . فتقول : أنا كذلك بانعام الله العظيم ، على اني كنت في الدار
العاجلة أعرف بجمدونة ، واسكن في باب العراق بحلب ، وأبي صاحب
رحى ، وتزوجني رجل يبيع السقط فطلقني لرائحة كرهها من في .
وكنت من أقبح نساء حلب . فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا . وتوفرت
على العبادة . وأكلت من مغزلي ومردني فصيرني ذلك الى ما ترى .

وتقول الأخرى : أتدري من أنا يا علي بن منصور؟ أنا توفيق السوداء
التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد ، على زمان ابي منصور محمد بن علي
الخازن . وكنت أخرج الكتب الى النساخ . فيقول : لا إله إلا الله ا

لقد كنت سوداء ، فصرت أنصع من الكافور . فتقول : أتعجب من هذا ، والشاعر يقول لبعض المخلوقين :

لو أن من نوره مثقال خردلة في السودِ كلهمُ لبيضتِ السودُ

أيتوحد ويتنسك هذا النسك الصارم من لا يرجو حسن العقبى ؟

يقول أرسطو : « المنفرد أما بهيمة وأما إله . » ويأبى أدبنا وأدب كل ذي عقل حتى من ألد أعداء أبي العلاء أن نعدّه بهيمة . ويأبى توحيد المعري المنزه أن نسميه إلهاً ولو بالمعنى اليوناني . فشيخنا يرى تطهير النفس بالنسك ويعتقد بخلودها .

كان الشيخ مهتاجاً قبل أن يبلغ ذروة الحلم و«الجودة»، فعنف الناس فظن دارسوه أنه متشائم، لا تشاؤم ولا تفاؤل، ما هناك إلا توييخ وتبكيك التماساً للصالح . أراد الإصلاح فصك الانسانية صكة أعمى ...

تعرض أبو العلاء لجميع الشؤون الاجتماعية حتى تقسيم الثروة فسخط على أهل عصره . وقد كان توزيع الثروة ولا يزال، حيث عاش أبو العلاء، غير عادل . أما الخثرة ، مشكلة المشاكل ، فهو أبغض الناس لها ، والفاطميون اليوم من مذهبه هذا ، انهم يتحوبون من عصرها ويبيعها وقبض أثمانها ، وقد ذهبوا الى أبعد من ذلك فحرموا التدخين والتسعط، ولكنهم أباحوا القهوة ويؤثرون التعفف عنها .

أما العقل الفاطمي فهو : « الله هو معل العلة الاولى التي هي العقل، والعقل هو مبدع الكون ومدبره ، فالخالق منزّه مستريح . »
والعقل الانساني عندهم نوعان : جسماني وروحاني . فالجسماني هو

العقل المعلوم ، والروحاني هو عقل أرسطو . الجسماني فعال ومنفعل ، يتأثر ويؤثر ، وهو يمثل العقل الروحاني في فضائله وأعماله الحسنی .
و « الصدق » رأس الايمان ، وهو يمثل العقل ، أما الشيطان فيمثل الكذب .

ويغلو الفاطميون في الصدق غلواً كبيراً ، فإذا قال « جويد » منهم كلمة فعلية أن يقوم بها ، وإذا نوى فلا بد من التنفيذ ، وكلمة « طلع قول » مشهورة عنهم .

حكى أن أحدهم قال لاهله أنه ذاهب لزيارة أحد الاخوان في إحدى القرى المجاورة - ببيصور - فما خرج من باب بيته حتى رأى أخاه الذي يقصد زيارته قدام الباب . دعاه الى بيته وذهب هو الى زيارته كما عزم ، ثم رجع إليه وقص عليه الخبر . ومثل هذه حكايات كثيرة تروى ينفذ بها « القول » تنفيذاً لا هوادة فيه ولا رفق .

أما الصوم عندهم فصومان : جسدي ، ويكون في التعفف عن المآكل والمشارب ، ونفسي ، وهو ترك المعاصي والمآثم ، والصوم الأخير أجل وأسمى عند أبي العلاء وعندهم .

إن الجسد قيص يبلى . ينزع ثم يؤخذ غيره . والنفوس هي هي لا تزيد ولا تنقص . أما « الحساب » فيدان الشخص باعتباره كائناً خالداً ، ويحاسب على جميع ما مر به من أطوار . أما الثواب فيكون بالملذات الروحية لا الجسدية . ففي الملكوت الفاطمي تتنقى النفوس وتتطهر بدورانها . وفي تنقلها من قيص الى قيص - أي من جسد الى جسد -

قد تلاقي عناءً وجهداً، وفي هذا يقول أبو العلاء، ولا بأس من إعادته هنا: يقولون ان الجسم تنقل روحه الى غيره حتى يهذبها الصقلُ فعش وادعاً وارفق بنفسك طالباً فإن حسام الهند ينهكه الصقلُ وتر النفس في دورانها بمجالات مختلفة ، وتظل كذلك حتى تتطهر - ان كانت سالحة - وبعد هذا التطهير يكون «الدهر» وهو عالم لا قوي فيه ولا ضعيف . يسود فيه العدل ، ونظمه كلها واحدة وحكومته كذلك ، ولا عذاب ولا شقاء . وقد أشار أبو العلاء الى هذا بقوله :

ما أحسن الأرض لو كانت بغير أذى

ونحن فيها لذكر الله سكان

أما النفوس الشريرة فتظل معذبة بجميع أنواع العذابات المعروفة ، والعذاب الأكبر هو عذاب الضمير ، وعذاب الندم على ما فات ، لأنها لم تنتفع من أدوارها الماضية . أما النفوس الصالحة فتكتسب الجمال، والعمر التام ، وراحة الضمير ، والابتعاد عن الأمراض والمصائب . فما هنالك إلا غبطة روحية في «دهر» لانهاية له ، يتغير النظام الأرضي ويحل محله نظام إلهي ويحكمه «الإمام» الممثل بالعقل .

فن أقوالهم : «الفكرة الالهية ابتدأت مع ابراهيم كالحبة ، وفي عهد المسيح ازهرت ، وفي عهد محمد نضجت ، ونحن قطفناها» .

ليس للخلود عندهم محل معين ، البقاء هنا كما قلنا ، وما الجسد إلا وسيلة لاظهار القوى الروحية . الخير يمثل العقل ، وبعمل الخير تنفذ إرادة العقل الذي هو «الامام» وبهذا يكتسب الأجر . وقد قال في هذا أبو العلاء قولاً لا التباس فيه :

سأتبع من يدعو الى « الخير » جاهداً

وارحل عنها ما « امامي » سوى عقلي

والشجاعة عندهم رأس الفضائل ، فالعاقل يكون شجاعاً صادقاً متعافياً لا يهاب أحداً ولا يخاف غير الخالق . وليس بعاقل من لم يتصف بالحلم وسعة الصدر والترفع عن بذىء الكلام . وهم يتحوبون من ذكر القرد ولا يعتقدون بالجن والشياطين ، وقد أشار الى هذا شاعر العقل كما رأيت . أما الزواج فهم في سنته كما وصى أبو العلاء . ليس للفقير أن يتزوج وإن تزوج فليقلل من المحروسين ما استطاع ، والزواج للنسل فقط . ولا يجمع الفاطمي بين ثنتين ، وإذا طلقها فلا تعود . والطلاق من حقوق الاثنتين ، ولا يكون إلا لعلة عظيمة ، وإن طلقها ظالماً فلها نصف ما يملك حتى القميص الذي على جلده . ومن يتعفف يكن من الملائكة المقربين . اما ملائكتهم فغير مجنحة ، وثالوثهم مؤلف من العقل والنفس والكلمة .

ان للعقال الفاطميين خطة ضيقة جداً ، وما خطة هؤلاء إلا خطة المعري نفسها : انزواء وانفراد وترويض للنفس ، وتذليل لها بالتقشف والحرمان من الملذات ، حتى روى لي منهم شيخ موقر ان أحدهم عاش مع زوجته أربعين سنة كان يعاملها في أثنائها كأخت ، ولا يكون هذا إلا بعد التراضي ، فالنساء في المذهب الفاطمي كالرجال سواء بسواء ، وتعففهم ونسكهم وزهدهم عملاً بالآية : « ادخلوا من الباب الضيق » . إن المذهب يجيز هذا الزهد للاخوان ، فللعاقل ان يختار أسلوباً

معيناً لحياته ، بشرط ألا يتنافى مع المبدأ العام ، وهو ألا يقاطع حيث يقتضي أن يواصل . فحفظ الاخوان واجب ، وللأخ على أخيه حق بكل ما هو حلال . وتنحصر صفات العقائل عندهم في عفة اليد والقلب واللسان .

وللعلم عندهم أجل شأن ، فهم يتبرأون من الجهال ، فكانهم يعملون بالكلمة اليونانية: «اطلب المعرفة لأجل المعرفة وهي تجلب لك السعادة». ان كل « اسرار » ابي العلاء التي قال انه « يستر دونها ويجمع » هي هنا . و « السر » محتوم به على الاخوان الفاطميين الموحدين ، فهم كما قال الشاعر في العشاق ، وأظنه السهروردي :

« بالسر » إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح ما شبهت بعض دارسي ابي العلاء الا بالجرذان التي في قبو الخمر عندي . يقرطون الفلّين والشمع الأحمر ، ومتى هرقت الخمرة المعتقة هربوا مولين الادبار ...

بعد اربعماية سنة

وما أعودُ الى الدنيا وقد زعموا ان الزمانَ يمثلي سوفَ يحكي
وارحتا لشبيهي في حوادثه ينكيه ما كان في الأيام ينكيه
المرى

إذا شبننا المذهب الفاطمي بالكرة كان المعري قطبها الشمالي والسيد
عبد الله قطبها الجنوبي . وإذا تكلمنا بلغة الباطنيين كان المعري جناحها
الأيمن والسيد عبد الله جناحها الأيسر . والامير السيد صاحب المقام
الشهير - في عبيه ، لبنان - هو ابن عم المعري الحكيم الخالد .

جاء التنوخيون لبنان من معرة النعمان ، والدروز يسمونها معرة
الاخوان ، جاؤوا الشوف يحملون معهم المذهب فحلوا بين اخوان لهم .
وساهموا في محاربة الحملة الصليبية وصدها عن الثغور ، فنالوا حظوة عند
السلطين وحكوا اقليماً خطيراً من لبنان . كانوا باطنيين نحلة فصاروا
فاطميين منهباً . وقد عززوا هذا المذهب في الشوف حيث لا تزال لهم
آثار خالدة وذكريات طيبة .

والامير السيد عبد الله هو أكبر أئمة الطائفة الدرزية ، ومصالح
« المذهب » ، ومنظم أصوله وقواعده .

أنجبت الأسرة التنوخية رجالاً عظاماً في عصرهم ، وكان لها في كل ميدان أبطال ، فكان هذا البيت العريق بيت علم وأدب وشعر وسياسة وفضيلة وزهد وتقوى واحسان وحلم ورحمة وفروسية . واشتهر منه رجال في الفنون كاللوسيقى والصياغة والخط وعلم النجوم والطب والشرع والفقه والحديث والفرائض . أما واسطة هذا العقد الثمين فالأمير السيد عبد الله الدالة عليه آثاره القائمة في عبيه ، فهي مزار للناس من فاطميين مؤمنين بفضل السيد ، ومن معجبين بتلك الشخصية التي لعبت اسمى الأدوار في العصور الاستبدادية المظلمة ، كما يتضح من ترجمته هذه المكتوبة بقلم فاطمي أديب ، من « مستلهمي الحكمة » :

« الأمير جمال الدين عبد الله بن سليمان ... بن تنوخ بن قحطان بن عوف بن النعمان بن المنذر المعروف بابن ماء السماء . ولد في عبيه لبنان ، ونشأ كما نشأ أتراكه الأمراء في ذلك الزمن محباً للفروسية والصيد والقنص . ولما بلغ أشده مال الى الدين ، ولم يتصل بأسراره حتى هجر سلوكه السابق وتحلى بجلية المتقين واتسم بسمة أهل الدين ، من تمسك بالتقوى والصدق والوفاء وترفع عن الشهوات والشبهات وهجر الخمر وسائر المنكرات .

« وعكف على علوم زمانه فدرسها وتبحر في علمي الشرع واللسان وتضلع من مذهب « التوحيد » تضلعاً بذفيه السابق واللاحق وشرحه شرحاً وافياً محللاً مشكلاته وغوامضه . ثم عن له إصلاح النظام الاجتماعي الاقطاعي المخالف للمذهب فنأدى بالمساواة المطلقة بين الناس وان لا ميزة

إلا بالعلم والعمل . فثار به العامة وتقم عليه الخاصة فهاجر الى دمشق كعبة العلم ومحج العلماء في عصره . وهناك تفرغ بكليته للعلم والتعليم، وناظر الأئمة والعلماء فغلبهم وبهرم بسعة علمه وتقواه وفضله حتى لقب بالسيد وعرف بذلك . مكث في دمشق بضع سنوات نبه فيها ذكره ، وأصبحت داره محجة للعلماء والكبراء وتجاوزت شهرته دمشق الى لبنان فعقد امراء البلاد وكبرائها وشيوخها اجتماعاً عاماً أقروا فيه ايفاد نخبة منهم الى دمشق ليتوسلوا الى أميرهم المصلح بالعودة إليهم خاضعين لما يفرضه عليهم من اصلاح ، فعاد الامير السيد الى بلاده المحتاجة الى علمه وفضله فاحتفل بمقدمه السكان اياماً احتفالاً ، وتقاطرت الوفود من سائر الطبقات الى داره في عييه ، ولازمه الكثيرون طلباً للعلم . فزهّد في الدنيا على بسطة عيشه وسعة يده وتكشف تقشفاً عظيماً . كان يقضي نهاره صائماً معلماً وليله مصلياً متهجداً . كان جواداً كريماً على زائريه ومريديه، تحفل مواعده بطيبات المآكل ولكنه حرمها على نفسه الطاهرة.

« وأوجب على اتباعه معاملة الناس حسب أعمالهم الخيرية ، فأهل التقوى والعلم مقدمون على سواهم ضارباً عرض الحائط بالانساب والميزات الاجتماعية .

« فرض العلم على الجنسين الذكور والاناث ، وحدد النسل ، وأباح الزواج للنسل المحدد فقط، وما خرج عنه يحسب ضرباً من الزنى . وحرم على الفقير المعدم الزواج رحمة بالاولاد ورفعاً للمستوى . وأوجب على الآباء حين يوصون بترائهم لابنائهم أن يفضلوا الخيّر من الابناء على

سواهم وأن يحرموا الأشرار منهم . وأجاز للآب الوصية لمن شاء من
أخوانه الاتقياء إذا لم يسعد بأبناء خيرين . ثم فرض الصدقات وكان كل
عام يملا خرجاً من المال يطوف به القرى موزعاً على المحتاجين والمعدمين
أخذاً من الأعتياء مبالغ معينة لاجل الصدقة فيعود إلى عبيته وخرجه
ملوء كما كان .

كان يقول للناس : « من كان محتاجاً فليأخذ . ومن كان مستطيعاً
فليضع » . ويدير ظهره لكيلا يرى من أخذ ومن أعطى ومن كلامه
المأثور في هذا الصدد : « لو أن الغني بذل ، والفقير قنع ، لم يكن في
البلاد فقير » .

« فجع الأمير السيد بولده الوحيد الأمير عبد الخالق ليلة عرسه .
رفسته فرسه فقضت عليه . ولما استبطا الوالد عودة ولده نزل إلى
الاسطبل فرأى وحيداً ميتاً فعاد وأمر بنصب الموائد للمدعوين ، فبسطت
وأكلوا وقاموا بواجب التهنية والتبريك بالزفاف . فاجابهم السيد قائلاً :
« أجركم الله بالعريس » . وحظر عليهم التدب والبكاء والنواح لأنه
مخالف للدين ، فما الابناء إلا ودائع عند الآباء وكل مستودع أمين . فمتى
شاء الله استرد وديعته ، وعلينا تسليمها بطيبة نفس وسرور . إن
أرواحنا مودعة في هذه الأجساد المنحلة ، يأخذها الله متى شاء .

« أيها الناس ، لا فوت من الموت فلکم عند الله من الخير ما تكسبون
ومن الشر ما تفعلون ، ونحن وإياكم في قبضة ملك الممالك ، فطوبى لمن
قبل أوامر الله وأطاعه ، وجعل مدته من الدهر ساعة .

« أيها الناظرون اليّ ، أتظنون أن صبري على فقد ولدي جهالة ، أو ترك تعرضي للقضاء ضلالة ، أو اني نسيت علمه وفضله ، وطاعته وصبره ؟ »^(١) . ودفن وحيداً ولم يذرف عليه عبرة واحدة .

« كان الأمير السيد غنياً واسع الاقطاعات يملك قرى عديدة وقفها جميعها على أعمال البر . وعم احسانه جميع مواطنيه من سائر الطوائف فجعل لعائلة سر كيس المسيحية في عييه غللاً معيناً كل عام ، لهم ولذريتهم من بعدهم ما دامت أوقافه . ووصيته المشهورة تنص على ذلك نصاً صريحاً . ولهذا قال فيه المؤرخ ابن سباط : انه كان محبوباً من جميع الأسباط كما ورد في تاريخ أعيان لبنان للشدياق .

« أوجب السيد على اخوانه الترفع عن أكل الحرام والشبهات والرياء ومال الظلمة وأوقافهم وغللهم ، وحرّم أكل غلال الأراضي المقتصبة ونهى عن قبول أموال الحكام ومن يتصل بهم .

« تأليفه : شرح الامير المذهبي . وكتاب لغوي مسمى سفينة اللغة العربية . » انتهى .

أما وفاة الامير السيد فكانت - كما روى الامير حيدر في تاريخه المشهور - في اليوم السابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٨٨٤ هجرية ، فأقام تلاميذه رئيساً يرشدهم بعده ويشير عليهم ابن عمه الامير سيف الدين زنكي . وكان لفقد الامير رجة عظيمة في البلاد ، واجتمع يوم مآته ودفنه امم لا تحصى من جميع البلدان .

(١) ارجع الى خطبته هذه في تاريخ الامير حيدر ص ٦٠٤ طبعة مصر لمغيب .

بين شيخين

كان شيخى الاول البّي نشأت في حجره كالذي ذكره داعي الدعاة في رسالته الثالثة الى ابي العلاء : « ان قيل له في أخبار شرعه أن فيلا طار ، أو جملا باض ، لما قابله الا بالقبول والتصديق » .

كان ، رحمه الله ، كثيراً ما يقرئني في كتاب « ميزان الزمان » تأليف الانبا نيرامبرك اليسوعي ، وخصوصاً في الفصول التي تتحدث عن جهنم ، والايام التي تسبق القيامة فالديوثونة الغامة ، فأقلق واضطرب ويركبني في الليل كابوس يتمطى بصليه ويردف اعجازاً ، وينوء بكلكلي ... فاستيقظ مرتجفاً كالورقة ، وأحياناً باكياً .

كثيراً ما كانت تتوسل المرحومة والديني الى عمها شيخى ليكف عن اقرائي في هذا الكتاب الذي تفرع قراءته الكبار ، كما سمعتها تقول . اما جدي فلم يكن يرعوي ، وكان يجيبها : العلم في الصغر كالنقش في الحجر . فهو يريد أن يوطد بنيان الدين ومخافة الله في صدر خليفته العتيد ...

قرأنا مرة : انه في سنة ألف وخمسة وسبع وثلاثين أمطر الله على

مدينة بولونيا حجارة ثقيل كل واحد منها ينيف على أربعة أرتال ونصف،
ويؤيد صاحب ميزان الزمان هذا الزعم بقوله : فلم يأت حزقيال النبي
باخبار واهية بقوله : أنه في انتهاء العالم تقع حجارة ثقيلة جداً . ويقول
صاحب الجليان ان ثقل كل حجر يوازي قناطير كثيرة . ثم يقول :
خبرونا أنه في بلاد سبتيا سمعت رعود مفزعة مات من صوتها خلق
كثير ، فماذا يكون ضجيج العواصف الأخيرة وشدة أرهاها حيناً يريد
الله أن يلاشي هذا العالم ؟

فسالته وعيناي مغرورقتان : متى تكون نهاية العالم ؟ فاجابني :
تؤلف ولا تؤلفان ، ومعنى ذلك لا تبلغ الألفين بعد المسيح حتى يكون
الكتاب قد تم .

فقلت : اذا تكون النهاية على ايامنا ؟ فنظر إلي بعينين تفيضان
حناناً وحباً وقال : لا تخف ، ان تلك الساعة لا يعلمها أحد ولا الابن إلا
الآب . هكذا يقول الرب يسوع في انجيله الطاهر .

وانصرفت إلى اللعب ولكن تصور² تلك الحجارة لم يبرح مخيلتي،
كنت انتظر تساقطها بين ساعة وأخرى ، وأخاف أن أنهض في الصباح
على خبر القيامة ...

وكنا نقرأ مرة عن عذاب الهالكين فبلغنا هذه العبارة : ولهذا قال
القديس نيقولاوس نيصص : انه لو يضطرم كل الحطب الذي في العالم
ويصير جميعه ناراً واحدة متقدة لم تكن قوتها توازي شرارة واحدة من
نار جهنم .

فقلت له بسذاجة الاطفال : الاذاوا خلص اتلطب نطفي

نار جهنم ؟

فاجابني : قال المخلص : ان دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ .
وبلغنا مرة خيراً مزعجاً جداً اليك نصه : ذكر الانبا كاتبراني
انه كان في نواحي مملكة النمسا جندي باسل ، كان محباً ركوب الخيل
وسباقها ، وتمرغاً في حياة اللذات الدنسة ، فمات موتاً شقيماً ، وكانت
له امرأة تقيسة عابدة سالكة في طريق القداسة فاختطفت بالروح .
فراحت زوجها كأنه عاتش بعد في جسده . وبهذه الرؤيا عرفت شقاء حاله
لانيها أبصرت حوله جماً غفيراً من الشياطين . وقد أمرهم ان يكونهم بان
يلبسوا ضيقهم الجديد ثوباً من حديد داخله أشواك حديدية مستوتة
وحسك حاد . ثم أمرهم بعد ذلك أن يضعوا على رأسه خوذة حديدية
وأن يسروها بسمار طويل ينفذ من رأسه الى رجليه .

فقلت : اوف ا

فقال : اقرأ قدامك . فأذعنت وقرأت خوفاً من العصا : ثم يعلقوا
على عنقه ترساً حديدياً ثقيلاً يرضض عظامه . فتمم الشياطين أوامر
ان يكونهم بتدقيق واسراع . فحينئذ قال لهم الاركون هكذا :
إن هذا الرجل كان يحب هو الركض على الخيل ، والحمام ، واستنشاق
الروايح الذكية ، والرقاد على الفرش الناعمة ، والتنعم في اللذات اللحمية ،
فقدموا له قليلاً مما يناسب ذلك من الملتذات المستعملة ها هنا . فامسكته
حينئذ الشياطين وأدخلوه في وسط لهيب متقد . ثم بعدما احترق هناك

مدة اضجعوه على فراش من حديد محمى ، عليه ضفدعة طول الفراش ،
بأعين مرعبة جداً ، فامتدت عليه تلك الضفدعة واعتنقتة اعتناقاً شديداً .
فهذا ما رآته امرأته الفاضلة . فلترهبين إذا العدل الإلهي ولنتحققن
غاية التحقيق أن الذي أخطانا به هنا بأعظم استلذاذ نعاقب عليه هناك
باشد تعذيب .

وكنت أتهد بعد كل قراءة واصعد الزفرات كمن تسلق عقبة عمودية
دون أقل استراحة . كان جدي يتلذذ بهذه الأخبار ثم ينصرف بعدها الى
صلاته ، فيصلي صلاة حارة ، وكثيراً ما كانت تدمع عيناه ، وتلرة يسمع
المارة بكاءه .

وقرأنا مرة عن أنواع العذاب الجهنمي : إن العقل يتعذب بأفكار
مؤلمة محزنة جداً ، فلا يجد حينئذ أرسطو لذة في حكمته ، ولا سنيكا في
فلسفته ، ولا جالينوس في طبيه ، ولا غيرهم من العلماء في علومهم
ومعارفهم .

وقد جاء في الاخبار أنه ظهر ، لاسقف من أساقفة باريس ، معلم ما ،
كان قد هلك في جهنم ، فسأله الأسقف : هل بقي لك شيء من العلوم
في جهنم ؟

فأجابه المعلم الشقي : اني لست أعرف الآن سوى ثلاثة أشياء : أولها
انه قد حتم علي بالهلاك الأبدي ، ثانيها انه لا رجوع بهذا الحكم ، ثالثها اني
خسرت مشاهدة الله الى الابد لاجل ملذات الجسد .

وقرأنا مرة عن الدينونة العامة وهو رأي للقديس توما اللاهوتي :

ما أكثر ما كان مجد اسكندر الكبير ويوليوس قيصر في هذه الحياة ، ولكن كيف حصل على هذا الشرف ؟ أليس بالجور والظلم ، وسفك دماء أناس أبرياء ؟ فهذه الافعال التي مدحت في دهور كثيرة سوف تهان وتشنع في اليوم الاخير ، قصاصاً من امتداحها الماضي . وهكذا يصير بالآباء الذين يولدون ثانية ويحيون بأشخاص أولادهم . فيدانون ويشجبون ثانية بمقدار أمثالهم الرديئة التي قدموها لأولادهم .

وقد قال أيضاً القديس المتقدم ذكره : « انه من أجل أن الجسد يبقى في الارض بعد الموت فيجب أن يدان كل انسان ثانية في الدينونة العامة ، لان أجساداً كثيرة من أجساد الابرار دفنت في بطون الوحوش الضارية ، وقد حرم الدفن كثير منها . وبخلاف ذلك أجساد كثيرة من أجساد الاشرار دفنت باكرام جزيل في قبور مفخمة . فهذا الانعكاس يصلحه الله في ذلك اليوم - يوم الدينونة العامة . فالخاطيء الذي وضع جسده في قبر مزخرف يشاهده حينئذ في حال الاهانة والشقاء والعذاب . أما البار الذي لم يدفن بعد موته لكن قبيراً في جوف الغربان أو بطون الوحوش فانه يشاهد جسده مكللاً بالنور » .

فقلت لجدي : وكيف يرجع الجسد بعدما أكلته الغربان والوحوش ؟ فأجابني بكل ما فيه من قوى الايمان والرجاء والمحبة : الذي قال لها كوني فكانت قادر على كل شيء .

قال هذا وفتح شحيمته يصلي ، وأخذت أنا شحيمتي . كنا نصلي معاً

(١) الاخبار منقولة بالحرف عن كتاب ميزان الزمان طبعة سنة ١٨٦٣ .

جوقين : بيت مني وبيت منه ، وكل ذلك باللغة السريانية ، ولا فرق بيننا إلا أن صوته رخيم جهوري كأنه الارغن . وكان بعد كل صلاة يعرب لي ما اعتقد انني لم أفهمه من شعر مار أفرام ومار يعقوب . ثم نخم النهار بالتسبيح والتهليل والتلبية وكل ذلك باللغة السريانية :

شوبجو وهودرو وقولوسو لابوهه ايتيوا غنيزو

* * *

وتدور الايام ، وما أسرع دورانها ، فاذا بي وأنا أحبوا الى الستين ، يستوقفني في طريق الحياة شيخ آخر غير شيخ عين كفاع ، هو شيخ المعرة المناوح لشيخ عين كفاع ، الشيخان توأمان ، والتوأمان لا يلتقيان ، كما قال شاعر الانكليز كبلنغ .

ان شيخي هذا بصد ذلك ، لا يصدق شيئاً مما يصدقه جدي ، ينتحل العقل ، كما قال داعي الدعاة أيضاً ، ويزعم انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطلا لجميع ما الناس فيه ، مستخفاً بأوضاع الشرائع . وهو القائل :
اثنان اهل الارض ، ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له
انه لا يعني ان الدين لا عقل له ، ولكنه يريد أن يقول ، وهذا الذي يفهم من كلامه في رسالة الغفران : ان الدين يهمل عقله ولا يحكمه في دينه ومعتقده فيمضي على آثار السلف .

لست أحدثك عن آراء شيخي الجديد فقد مرت بك كلها ، ولا يجوز أن تقلل من قدرك فندلك على الفرق ما بين شيخي . انه لو اوضح .

ولكني أريد أن تفهم عني ان شيخي^٢ مختلفان متفقان ، متفقان سيرة
وسريرة ونسكاً ، ومختلفان كل الاختلاف في الطريق التي تؤدي الى
الطاحون . فجلي لا يعرف إلا أن المسيح قال : أنا هو الطريق والحق
والحياة . وأبو العلاء يعتقد ما عرفت .

كلا الشيخين ناسك متقشف يخاف ربه . وكلاهما علمني : أن أسمى ما
يسعى اليه المرء هو أن يتقي الله ويعمل الخير ، لا طمعاً بالنعيم ولا خوفاً
من الجحيم .

أحسن الله جزاء شيخي^٢، وعسى أن يجمعني بهما - انصح للاموات
وشك التقاء - كما قال شيخي اليوم ، وأن يجملي في آخر العمر بما
جملها به من خير وصدق ومحبة .

كان شيخي الاول لاهوتياً قديراً في عصره . لا يجيد قيد شعرة عن
الانطوين ، والفونس ليكوري ، وتوما الاكويني ، وعمما أقرته وأثبتته
وتقره وتثبتته روما العظمى من تعاليم ، ولا يصغي إلا الى دعوة القلب .
وكان شيخي الثاني لاحقاً بابناء الاكروبول لا يسمع إلا صوت عقله .
أما أنا فواقف على مفرق الطرق انتظر ساعة النعمة ، وارقب فكاك
المشاكل ...

عنزة ولو طارت

هذا ما سيقوله اولو العناد الذين تأبى عليهم غطرتهم أن يدعنا
للحجج والبراهين والادلة . سوف يتمسكون ، كما تمسكوا بالامس ،
بآيات قالها المعري تقيّة - والتقية موسى بها في المذهب الفاطمي .

فيا أصدقائي !

إذا لم تشاؤوا ان يكون المعري فاطميا قلنا لكم ان الفاطميين
علائيون . فشيخ المعرة لم يقل الشعر حبا بالنظم ، كما ظننتم ، ولكنه
يؤيد مذهبها ، ويضع أصول طريقة في شعره ، وهو أبعد أثرا في الحكمة
والدين منه في الشعر والادب .

وقبل وبعد فلست أزعم ، ايها القارئ ، إلا أنني سلمتكم مصباحا
يضيء سبيلكم الى دهاليز هذا الاعمى البصير .

غفر الله لنا وله .

هالبه - عين كفاع ، ١٩٤٤ .

القسم الثالث

بيع النوازل المندرية

قريحة وقادة وبصيرة نفاذة
وذخيرة من الأدب فياضة ألهمت
صاحبها بآثار روائع فنسب
إلى فترات الزمان وبدائع الدهر .

الفصل الأول

عصر بديع الزمان

١ - الحالة السياسية

سئل أحد الساسة الأتراك : متى ابتدأت انكسارات الدولة العثمانية ، فأجاب : منذ أول انتصار . ثم فسّر جوابه هذا بقوله : لأنها لم تفرض لغتها على المغلوبين .

أما الدولة العربية فهي بالعكس . أخفقت في السياسة والحكم ، وبفضل القرآن الكريم انتصرت في الدين واللغة انتصاراً لا مثيل له في تواريخ الأمم والشعوب . ما شبّهت الدولة عن الطّوق^(١) حتى دبّ الاضطراب إلى سياستها ، فنذ بيعة أبي بكر أبدت الفتنة أذنيها ، وكان في كل عهد مرتدون ، وثوار ، وخوارج ، فلا يحمد السلطان النار في جهة حتى تضطرم في ناحية أخرى ، وحسبك أن الخلفاء الراشدين الصالحين الأربعة لم يمّت أحد منهم حتف أنفه^(٢) غير أبي بكر الصديق . ثم لم تخضع الديار الإسلامية كلها لسلطان واحد إلا في زمن الأمويين .

ولما حُتم القضاء عليهم وهزم مروان الجعدي ، وآل الملك إلى بني العباس نبتت على الأثر دولة أموية جديدة في الأندلس تركت في العالم القديم ما أثر

(١) الطوق حلّ للمنق . وشب عن الطوق : نما وكبر . قاله جذيمة في ابن أخته عمرو ابن عدى ، وقصة ذلك أن عمراً لما ترعرع كان يخرج مع الخدم يجتنون للملك الكأة فخرج يوماً وعليه حلّ وثياب فققد زماناً فلما وجد يمّث به إلى أمه فأدخلته الحمام وألبسته وطوقته طوقاً كان له من ذهب فلما رآه جذيمة قال : شب عمرو عن الطوق .

(٢) مات حتف أنفه : مات من غير قتل ولا ضرب بل على فراشه . قال السموي : وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل يوماً حيث كان قتيل

عزّ نظيرها حضارةً وعلماً وعمراً ، حتى قال أحد المؤرخين الغربيين في عبد الرحمن الناصر : إنه ملك يصلح لسياسة أعظم دولة في القرن العشرين .
والرشيد الذي قال للغمامة : أمطري حيث شئت فإن خراجك يأتي ،
لم يسلم عهده الذهبي من تفسّخ . ففي زمن ولايته أنشأ العلويون دولة جديدة في المغرب الأقصى عرفت بالدولة الإدريسية . وأراد هارون أن يتقّى شرها ، على بعد المزار ، فعمل ما تعمله الدول اليوم ، فأنشأ إمارة بني الأغلب في إفريقيا .
وعلى خطة الرشيد درج ابنه المأمون فأقطع قائده طاهر بن الحسين خراسان ، فكانت إمارة بني طاهر التي دامت زهاء خمسين سنة وأكثر .

ثم أخذ الضعف يدب في جسم الدولة رويداً رويداً ، فنشأت دول أكبر وأخطر ، فكانت الدولة الصفارية في فارس ، ثم السامانية التي أزاحتها عن تخومها واستولت على فارس وما وراء النهر . وظهرت الدولة الزيارية في جرجان ، ثم كانت الدولة البويهية التي لم تكتف بفارس بل بسطت سلطانها على العراق أيضاً ، وغلبت الخليفة على أمره حتى لم يبق له من الملك إلا الاسم ، بل شاركه بعضهم في خطبة الجمعة .

هذا ما آلت إليه الدولة العباسية في القرن الرابع الذي هو قرن المقامات والنثر المنمّق . كان الخليفة في هذا العصر يُؤمر فيُطيع ، ولم يعد له من رقعة الدولة الواسعة غير بغداد ، بل بغداد نفسها كانت معرضة دائماً لغارات هؤلاء الملوك الذين استقل كل واحد منهم بمقاطعة ، بل بالعاصمة نفسها ، وحجر على الخليفة وعيّن له مبلغاً من المال لنفقته .

ومن طالع التواريخ رأى أن أعمار الخلفاء لم تبق بيد الله كما نقول . بل صارت بيد خدامهم ، فهم الذين يعزلون خليفة ويولون آخر ، ومن عصى فالعصا .
ففي أثناء أربعة عشر عاماً — من سنة ٣٢٠ إلى ٣٣٤ — نصبوا وعزلوا سبعة خلفاء ، منهم من قتل ، ومنهم من سملت عيناه ،^(١) . ومنهم من قتل صبراً .

وحاول القاهر بالله ، أحد خلفاء هذا القرن ، أن يعيد الخلافة جذعة ، فضيقوا عليه وحاصروه في دار الخلافة وفتشوا الداخل عليه والخارج من عنده ، حتى

(١) سمل : فقأ .

أدخل أحمد بن زبيرك الذي جعل على حراسته يده في اللبن المحمول إلى الخليفة لئلا يكون فيه رقعة .

ولما عرف القاهر أنهم عازمون على خلعهم تغدأهم قبل أن يتعشوا به . « ذبح على بن بليق ووضع رأسه في طشت . ثم مشى ، والطشت أمامه ، حتى دخل على والده بليق أبي على فوضع الطشت بين يديه ، وفيه رأس ابنه ، فلما رآه بكى . ثم أمر بذبح بليق ، فذبح ووضع رأسه في الطشت . وحمل الطشت أمام القاهر ومشى حتى دخل على مؤنس . فوضع الرأسين أمامه . فلما رآهما مؤنس تشهد . ثم أمر بذبح مؤنس فذبحوه وجعلوا رأسه في طشت . وأمر فطيف بالرؤوس الثلاثة في جانبي بغداد ، ونودي : هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى في فساد دولته (١) » .

ولكن كل هذا الإرهاب والتبثيل لم يحل دون خلعهم ، فما دامت خلافته إلا سنة وسبعة أشهر ، وهو أول من سملت عيناه من الخلفاء . ويقال إنه كان يستعطي في آخر أيامه .

وكثيراً ما صاروا في هذا العصر يُصفتون مال الخليفة ويتركونه صفراليدين . وأخيراً صار الحكم فريسة القوى المستأسد ، فكل من رأى في نفسه قوة استبدت بمقاطعة وأقام نفسه ملكاً عليها . كان لقب « الحضرة » مختصاً ببغداد ، أما في هذا القرن الذي نلمّ بفذلكة من تاريخه السياسي فأصبح في كل بلد « حضرات » وكثرت الألقاب ، فمن يمين الدولة إلى عضدها ، ومن ملك الملوك إلى الشاه والشار ، إلى السلطان ، فصحّ فيها ما قيل في الأندلس :

ألقاب مملكة في غير موضعها كاهراً يحكى انتفاخاً صورة الأسد
ولاً عجب أن سمى المتنبي هذه الحقبة من الزمن دولة الخدم ، فأكثر هؤلاء كانوا خدماً أما واستحالوا قواداً ، ثم صاروا ملوكاً . فأصدق وصف للمملكة العربية في هذا القرن ، هو ما قاله فيها أبو الطيب ابن ذلك القرن :

بكل أرضٍ وطشها أممٌ تُرعى بعيدٍ كأنها غنمٌ
يستخشن الخبز حين يلمسه وكان يُبرى بظفره القلمُ

(١) التاريخ الإسلامي ، للغياط ص ٢٦ جزء ٤ .

وإنما الناسُ بالملوك وما تفلح عربٌ ملوكها عَجَمٌ
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهدٌ لهم ولا ذمٌ
وقال أيضاً في هؤلاء معللاً نفسه بإحدى الممالك مثلهم :

لأتركنَّ وجوهَ الخيلِ ساهمةً والحربُ أقومٌ من ساقٍ على قدمٍ
بكلِّ منصلتٍ ما زال منتظري حتى أدلتُ له من دولة الخدمِ

ولماذا لا يعلل نفسه بالسلطان عبقرى كالمتنبي بعد ما رأى الثورات تلى الثورات
والغزوات تلى الغزوات، خليفة يقتل ليولئى غيره ولاية اسمية. أما الفعل والسلطان
ففي يد مَنْ وصفهم المتنبي. كان الخلفاء قابعين في قصورهم يتلمسون رؤوسهم
كل مساء وكل صباح ليروا ألا تزال في مواضعها أم أطاح بها أحد موالئهم
وخدامهم. وكما كانت الدولة مقسمة في العراق وفارس كقطع الشطرنج،
كذلك كان الأمر في جميع الأقطار، فهنا ملك الحمدانيين وهناك ملك
الإخشيديين إلى آخر ما هنالك من ضروب التوزيع.

في هذا العصر امتدت الأيدي إلى الخلفاء فهانت على الفرس والترك
معاظسهم وسبأهم^(١). وبعد سكنى القصور التي وصفها ابن الخطيب البغدادي
وصفاً كأنه الكذب، صار الخليفة كواحد من الناس، مصيره في يد البويهيين
والترك، يتقاتلون في عاصمته ولا يعنيه من الأمر إلا أن يلقب المتغلب باللقب
الذي يقترحه حتى ضربت السكة باسم بعض هؤلاء. وهكذا أمسى الخلفاء
كما قال الأخطل في بني يربوع قوم جرير :

مخلفون ويقضى الناس أمرهم وهم بغيب، وفي عمياء ما شعروا
أما تاريخ مصير الخلافة فيلخص بما يلي : كلما قوى واحد في هذا العصر
عنا له الخليفة وخلع عليه. لقب محمد بن طنجج بالإخشيد أى ملك الملوك.
ولقب بعده ابن رائق بأمير الأمراء وأمر أن يخطب له على المنابر، ثم فاض نهر
الألقاب حتى صار أخيراً كل أمير مستقل يلقب نفسه، ومن يسأل عن خليفة

(١) المعاطس : جمع معطس وهو الأنف . واليبال : جمع سبلة وهي مقدم اللحية .
وهذا التعبير كناية عن الذل والهوان .

أعزل ، لا مال ولا رجال ! ! أما هؤلاء الأمراء والملوك ، أو السلاطين المستقلون فكثيراً ما كانوا يذهبون ضحايا بعضهم بعضاً ، ومن عزّ بز^(١) . كما أن الخلفاء أمسوا يُجسّون ويُقتلون صبراً كما فعل معز الدولة بالمستكني .

وأخيراً صار أمر الخلافة في أدنى الدرجات فسلبوهم كل سلطانهم ، ولم يتركوا للخليفة وزيراً ، ما بقي له غير كاتب يدير أملاكه .

ومن يستغرب ، بعد هذا ، قول المتنبي لسيف الدولة :

ويا عجباً من دائل أنت سيفه^١ أما يتوقّى شفرتي ما تقلدنا

ومن جعل الضرغام للصيد بازه^٢ تصيده^٣ الضرغام فيما تصيدنا

وينبئنا التاريخ أن سيف الدولة حاول امتلاك بغداد ولكنه لم يفلح ، فعاد

إلى مستقره وأنشأ « حضرة » تضاهي حضرة بغداد في أيام عز الخلافة .

حقاً إننا في عصر صار كله « حضرات » كما قلنا ، وصح في حكاه قول

الشاعر في الأندلس :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة منها أمير المؤمنين وسنبر^٤

أما أشهر هذه الدويلات ، وأزهرها ، فكانت دولة السامانيين والبويهيين .

كان كل هؤلاء الملوك أو أشباه الملوك يقلدون الخلفاء القدامى ، لا خلفاء عصرهم

الذين أمسوا نكرات ، ويطمعون بأن يزينوا « حضراتهم » بالشعراء والكتاب

والعلماء ، وكل منهم ينافس الآخر . أما روى أن عضد الدولة أرسل إلى

المتنبي من يسأله : من أجزل عطاء أسيف الدولة أم عضد الدولة ؟

وأخر من يعنينا أمره في الربع الأخير من هذا القرن ، هو الناصر لدين الله

أبو القاسم محمود بن سبكتكين الذي قضى على الدولة السامانية ثم غزا الهند

غزوات كثيرة وامتلك أكثرها . وما سبكتكين هذا إلا واحد من غلمان أبي

إسحق البتكين ، قائد جيش غزنة في الدولة السامانية . ولى العسكر لما مات

مولاه القائد واستقل بالملك . ولما مات قام بعده ابنه محمود . كان لقبه ،

أولاً ، يعين الدولة فأبدل به لقب السلطان حين استبدت بالأمر ، فكان أول

(١) من عزبز : مثل يضرب للسلب والغلبة .

من نُقِبَ بالسلطان في الإسلام ، ثم عظم أمره واستولى على خراسان وقطع منها
خطبة السامانيين ، وقرض دولتهم .

٢ - الحالة الاجتماعية

ما أشبه الليلة بالبارحة !

كان المال هو الغرض الأول في هذا العصر ، فالخليفة يصفى أموال وزرائه
ويقتلهم أو يصلبهم . أما قال أحمد بن الخطيب وزير المتصر لما خلع عليه
للوزارة : « مثلى مثل الناقة التي تزين للنحر »^(١) .

كان الخلفاء يتركون وزراءهم وعمامهم وولاتهم هملاً كالغنم في المرعى ، حتى
إذا ما سموا ذبحوهم . وأخيراً جاءت نوبة الخلفاء أنفسهم فصار عمالهم يفعلون
بهم كما كانوا يفعلون هم بغيرهم ؛ كما فعل بهاء الدولة البويهى بالطائع حين
أخذ ما يملك ثم خلعه . أما وقف القاهر المسمول في جامع المنصور ، وعليه
مبطنه بيضاء ، وقال للناس : تصدقوا على فأنا من قد عرفتم .

أهل الخلفاء شؤون الدولة الجلتى ، وصارت الكلمة في القصور للخدم
والنساء ، وللجواوى والغلمان . أما قال إسماعيل بن أحمد في غلام له : « يصلح
للفراش وللهراش » . وقصة تَمِيل القهرمانة جارية المقندر ، أما كانت تقعد
للمظالم ، فتعرض عليها شكاوى الخاصة والعامة ، ويحضر مجلسها - محكمتها
بلغت اليوم - الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم في حين يكون الخليفة غارقاً
في مجلس اللهو والطرب .

قال بشار :

ضاعت خلافتكم يا قوم فاتمسوا خليفة الله بين الزق والعود
فقتل بهذا البيت ، أما في هذا القرن فصار المحجون والتهتك شيئاً لا يستحي به .
وإذا ما قل مال الخلفاء والأمراء والولاة فتشوا عن الأغنياء من الرعية وأخذوا
أموالهم لينفقوها في قصورهم .

(١) يقال : نحر الناقة وذبح الشاة

وكثر في هذا العصر اقتناء السراري والغلمان فقلما خلا قصر من المئات منهم ومنهن . وهذا صاحبنا المتنبي ينظم قصيدة في رثاء يماك غلام سيف الدولة أو مملوكه ، ولا يتورع أن يقول فيه :

وإن الذي أمست نزاراً عبيدهُ غنيّ عن استعبادهِ لغريبِ

ولا أذكر لمن قرأت هذا القول : « رغبتني في الوزارة اقتناء الغلمان » .

وملخص القول أن هذا العصر كان عصر ترف في القصور والدور ، وهذا الترف جرّ إلى الفتن والحروب والمصادرات وكبس البيوت حتى صارت الثروة خطراً على صاحبها . فما قولك بوزير عنده من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ! أبداع هذا كبيرة أو صغيرة لا يرتكبها في سبيل ابتزاز الأموال ؟ !

إن هذا الترف الذي رافق الخلافة العباسية منذ هارون حتى صار الخلف يسعى جهده ليفوق السلف ، هو الذي جرّ إلى سقوط الخلافة في هذا العصر . ثم عارض الخلفاء في ميدانهم هذا وزراءهم وأمراءهم وعمّالهم ، أما الرعية فكانت كبش التضحية .

فالوزير ابن الفرات كان يستغلّ من ضياعه في كل سنة ألف دينار وينفقها . قيل إنه كان لا يأكل إلا بملاعق من البلّور ولا يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة . فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة . . .

وهاك هذه الحكاية الطريفة عن الوزير المهلبى : « كان له ندماء يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة أو التبسط في القصف والحلاعة وهم : ابن قريعة ، وابن معروف ، والقاضي التنوخى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان الوزير المهلبى . فإذا تكامل الأوس وطاب المجلس ، ولذّ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار^(١) ، وتقلبوا في أعطاف العيش ، بين الحفة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها ، مملوءاً شرباً قطربلياً أو عكبرياً ، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ، ويرش

(١) العقار : الخمر .

بها بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم ، وعليهم المصبيغات ومخائق البرم^(١) والمنثور^(٢) .

إن الثروة التي كانت في بيوت هؤلاء تكاد أخبارها لا تصدق . أما الشعب المسكين فكان في كل قطر طريد الفقر واليؤس ، تأكل رغبته الحياة المتكلفون يجمع المكوس والضرائب وليس من يسألهم عما يفعلون . لا يهمهم إلا جمع المال ليدفعوا ما تكفلوا به للولاة ، ويصبحوا هم أغنياء يعيشون كالطبقة العليا . اقرأ رسالة بديع الزمان التي يشكو فيها البخري .

فالحليفة ، أو الإقطاعي الذي استبدَّ بقطر من الأقطار ، ورجال هؤلاء وأهلهم ، وأتباعهم ، وأتباع أتباعهم ، أولئك كلهم هم الغارقون في النعيم ، أما الشعب المسكين فكله في جحيم ، وتجي منه الضرائب مئتي وثلاث ورباع ، وتتأبه الجماعات من حين إلى آخر ، فيلجأ إلى سلطان ربما سمع صوت الرعية ورثى لها ، وربما لا . كل هذا توضحه لنا رسائل بديع الزمان .

٣ - الحالة الأدبية

هذا العصر الذي سميناه عصر « الحضرات » تستطيع أن تسميه بحق زبدة الحقب . لقد نكبت فيه الخلافة بمجدها وعزها وأبتها ، ولكن الأدب كان له في كل مصر مرتع ، فلا تكاد تضيق مدينة بشاعر أو كاتب أو عالم حتى ينتقل إلى غيرها ليحل فيها على الرحب والسعة . لا بل كان هؤلاء الملوك الصغار يستقدمون إلى « حضراتهم » كبار الشعراء والكتّاب ويستزيرونهم . وحادث الصاحب بن عباد مع المتنبي مشهور . ثم ألم يستقدمه كافور وابن العميد وعضد الدولة . . . أجل كثر في هذا العصر الملوك والوزراء المشبهون بالملوك ، فكثرت الرواد من أهل الأدب ورجال العلم ، فنفتحت المتوجات القلمية في أسواق العواصم . . . واشتد التنافس بينهم فأدى ذلك إلى تنافس الشعراء وكثرت أفكارها ليأتوا بالبدع . فهذه حضرة سيف الدولة في حلب اتسع لأعظم شعراء

(١) المخائق : جمع مخنقة وهي القلادة . والبرم : ثمر شجر العضاة .

(٢) « يتيمية الدهر » جزء ٢ ص ١٠٦ .

العصر وكتابه وعلمائه ، وعلى حضرته هذه قس الحضرات الأخر ، وإن كانت دونها ، كالحضرات السامانية ، والبويهية ، والزيارية ، والغزنوية والسبكتيكية حتى الخلفيّة . فهذا أحمد بن خلف ، على ضيق رقعة ملكه في سجستان كان معطاء يحب العلم والعلماء حتى قال فيه ابن الأثير المؤرخ : « وكان خلف مشهوراً بطلب العلم وجمع العلماء ، وله كتاب صنفه في تفسير القرآن من أكبر الكتب »

خص « بديعنا » خلفاً هذا بمقامات ورسائل ، وقد يكون هو أول من فتح أبواب الرزق بوجه « الهمداني » حتى صار ملاكاً كبيراً في هراة ، كما يتضح من رسالة كتبها إلى أبيه يدعوه إلى الإقامة عنده في هراة قال : « فلم لا ينشط ! والله لا يضيع بذلك المكان درهماً إلا عوضته ديناراً ، ولا يعدم هناك داراً إلا أفدته ديناراً ، أخاف والله أن أموت وفي النفس حاجة لم أقضها ، ومنية لم أحظ ببعضها . لا يفعل سيدنا الشيخ والضم بالولد أولى من الضم بالبلد . وقد رسمت لموصل كتابي هذا أن ينقده مائة دينار بشرط أن يخرج ، وأن يرتب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العم ، فليتفضلاً ، وليقوموا ويرحلا . ويستصحب الأخ أبا سعيد ، وليأتني بأهله أجمعين ، فما يعجبني لقاء ليس له بقاء ، فإن لم يمكن استصحاب القوم فلا يتأخر بنفسه . فسرد على خمسمائة نيران^(١) وألف أكار ، وأحوال منتظمة وأسباب مستقيمة » .

أرأيت ما أحرز هذا الأديب من ثروة ! ! خمسمائة نيران ، أي خمسمائة زوج بقر ، وألف عامل تعمل في أرض « سيدنا » الذي كتب في أول أمره إلى الخوارزمي يعاتبه بما يلي : « الأستاذ أبو بكر ، والله يطيل بقاءه ، أزرى بضيفه إذ وجده يضرب إليه آباط القلّة في أطمار الغربية ، فأعمل في رتبته أنواع المصارفة ، وفي الاهتزاز له أنواع المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، وإشارة بشطر الكف ، ودفع في صدر القيام عن التمام ، ومضغ الكلام ، وتكلف لرد السلام ... ولست مع هذه الحال وفي هذه الأسماح أتقرّر صف النعال » .

(١) نيران : جمع نير .

تلك كانت حال الأدباء الموهوبين ، يخرج أحدهم من بلده طريداً شريداً فيرد الحضرات فإذا لم يتفق في بلد يسمّ بلدًا آخر. ويظل على ذلك حتى يجد لبضاعته سوقاً ، فيلبس إذ ذاك الديباج ، ويركب البغلة ، ويقتني العبيد ، ويتتاع الجوارى والغلمان . . . هذا إن لم يصبح وزيراً خطيراً له « حضرة » ينتجها الأدباء والشعراء ، كما فعل ابن العميد والصاحب ففتحها للأدب سوقاً كالتى في حلب ومصر ، وكل بلد فيه ملك من هؤلاء الملوك الذين ينافس بعضهم بعضاً في تزيين حضراتهم بالأدمغة الكبيرة والعقول الراجحة والعقريات النادرة . لقد كان هبوط الخلافة في القرن الرابع ارتفاعاً للأدب ، فلولا هذه الحضرات التى تدفقت منها الأموال كالأنهار لم يبدع الهمدانى مقاماته التى كان لها أبعد الأثر فى الأدب العربى .

إن عصرًا عملت فيه ألف ليلة وليلة ، وقصة عنتره ، لمو عصر يستحق أن يُسمّى زبدة الحقب ، كما قال أبو تمام فى وقعة عمورية . . . ما رأيت عصرًا حفل بالأدباء والعلماء والشعراء كهذا العصر . أليس هو عصر المتنبى ، وابن العميد ، وابن عباد ، والحوارزى ، وبديع الزمان ، والتوحيدى ، والصابى ، وابن فارس ، وابن دريد ، والشريف الرضى ، وابن حجاج ، والشعالى ، وأبى فراس ، وكشاجم ، والفارابى ، والأصفهانى ، والجوهري ، والزوزنى ، والأشعري ، والعكبرى ، والتهامى ، وابن يوسف ، وابن سينا ، والمعري ، والقالى ، والخرجاني ، والطبرى ، والمسعودى ، والرازى ، وابن النديم ، وابن عبد ربه . وابن هانى ، والنامى ، والبيغاء ، والوأواء ، وابن خالويه ، وابن جنسى ، وأبى على الفارسى ؟ !

كان فى كل قطر ملوك ، وكان فى كل قطر رجال فادى هذا إلى إنتاج أدبى عظيم لم ير مثله فى العصور السابقة . إذا كان فى العصور الأولى بضعة عشر عظيمًا ، فى هذا العصر من عظماء المملكة الأدبية عشرات ما ذكرت منهم إلا الرؤوس .

فابن لنكك المحروم قال الهجاء المرّ كابن الرومى ، وابن حجّاج وابن

سكرة وغيرهم أعادوا عهد أبي نواس في المجون ، ولولا أننا ننظر إلى آدابنا نظرة الأثرى إلى « الأنتيكا » لقلت إن هذا العصر خير عصورنا الأدبية في الكمية والكيفية ، ولا أستثنى من القدماء إلا الجاحظ الذي لا يجارى ، وكلهم عيال عليه كما قال فيه ابن العميد .

كان الأدب في هذا العصر صورة صادقة للحياة ، وما المقامات إلا وليدة مظاهر اجتماعية أشار إليها الجاحظ من قبل . إنه البؤس الذي فتق الخيل لا يتراز الأموال ، وإنه فساد الأخلاق الذي دعا البديع إلى تصوير الشذاذ والمتشردين ، كما صور حالة العلماء ومجالسهم ، والأغنياء الحديثى النعمة الذين يريدون مجارة كبار رجال الدولة في قصورهم .

أما الترف والنعم فيصفه هو وغيره ، ولعل هذا التأنق في الإنشاء هو من وحى صور الحياة الاجتماعية . فهذه الزركمة فيه توى إلى الحياة الاصطناعية التي كان يجيها المترفون . وبالاختصار كان هذا العصر عصر علم وأدب وشعر وتأليف وفلسفة ، ولا تنس أيضاً أنه عصر الفاطميين ، الذين عمروا العقول بفلسفتهم ونظرياتهم ، والأرض بقصورهم ومبانيهم للحكمة والعلم والتعليم .

الفصل الثاني

بديع الزمان في عَصِيرِهِ

١ - حياة بديع الزمان

١ - نشأته :

كنيته أبو الفضل ، ولقبه بديع الزمان ، واسمه أحمد بن الحسين . ولد في همدان واستقر في خراسان ، ومات فيها بمدينة هراة سنة ٣٩٨ هـ .
أما لقب بديع الزمان فلست أدري كيف أحرزه . ما أحسب هذا اللقب إلا من صنعه ، أو من صنع صاحب اليتيمة لكي تم له السجعة ويقول : « هو بديع الزمان ، ومعجزة همدان . . . » واتفاق اسمه مع اسم أبي الطيب يوقف في نفسى الشك . ولعل هذا الشك قد تسرب إليها من قراءتي أولى رسائله الموجهة إلى الفضل بن أحمد الإسفرائيني ، وهو أول من استوزر لابن سيكتكين ، فاتح السند والهند ، ومبيد الدولة السامانية التي بسطت سلطانها على فارس زمناً حتى استطال الناس مدتها ، وتعجبوا من طول بقائها ، وقال فيها محمد بن زيد الداعي : « ما أشبه الدولة السامانية ، في طول ثباتها وقلة كفاتها ، إلا بالسماء التي رفعها الله بلا عمد » .

قال البديع في رسالته إلى الإسفرائيني : « إني عبد الشيخ واسمى أحمد ، وهمدان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد » . ومن يصل بنسبه إلى مضر ، وهو فارسي لا شك فيه ، لا يبعد أن يطبق المفضل ليكون له اسم شاعر الدهر أبي الطيب . . .

هذا ما يبدو لي في اسمه . أما الذي جعلني أشك في اسم أبيه أيضاً ، فهو قول الحاكم أبي سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست جامع رسائل البديع .

قال - حين بلغ الرسائل التي تبادلها البديع وأبوه : « ولوالده إليه كتب ورقاع أنشأها هو - أي البديع - ونسبها إلى والده ليقرأها الأفاضل من الكتاب فيستدلوا بها على فضل والده » .

ومن يفعل هذا ، كما قال معاصره ، لا يخشى التصرف باسمه واسم أبيه ليأتي اسمه كما يتمنى ويرغب . وهب هذا هو اسم أبيه فلا شك عندي في أنه بدون ال . أعرف جيداً أن الاسم لا يقدم ولا يؤخر ولكنها فكرة عرضت لي فلم أبقها في صدري .

كان معلمه الأول الأستاذ أبا الحسن أحمد بن فارس ، وفي الثانية عشرة غادر بلده . ولما بلغ الري اتصل بالصاحب بن عباد غلاماً ، ولزم دار كتبه ، فطبع على غرار - تلك المدرسة وتأثر أساليبها . وهب ذاكرة قوية ، وحافظة نادرة ، فكان قفلة لا يفلت من خاطره ما يعلق به . ولعل هذا هو الذي حمل معاصريه على القول فيه :

« إنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا ينحرم منها حرفاً . وينظر في أربع أو خمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره ، نظرة واحدة ثم يملئها عن ظهر قلبه ، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطوره ، ثم هلم جراً إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه » . إنها مبالغتات نسبوا مثلها إلى المتنبي والمعري وأبي تمام ، وهي عندي إلى الحكايات أقرب منها إلى التاريخ الرصين ، فليست الأذهان دفاتر ، ولا آلات تصوير شمسية حتى تحفظ وتلتقط آثار الأدباء كما هي .

أما قولهم : « وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطوره » . فهو مبنى على تلك الرسالة التي رواها لنا البديع في مناظرته أبا بكر الخوارزمي ، ولعل هذه الرسالة هي التي أوحى إلى الحريري مقامته : المغربية والفهقرية .

ثم غادر حضرة الصاحب وقصد جرجان ، حيث خالط علماءها وهم من الإسماعيلية ، فعاش بينهم حيناً مقتبساً من علومهم وفلسفتهم الباطنية . وانصرف

من عندهم إلى نيسابور فكانت له معركة أدبية فاصلة مع شيخ كتاب عصره
أبي بكر الخوارزمي ، فهبت ريحه واغتنمها . . . وفي نيسابور أملى مقاماته
المشهورة . ويزعم المؤرخون أنها أربعمئة عدداً ، ولكن هذا غير صحيح . لم يقل
ذلك أحد غير الهمداني نفسه ، حين قال من رسالة ينتقد فيها قصيدة
للخوارزمي :

« ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر
مفتريات ، ثم عرضها على الأسماع والضمائر ، وأهداها إلى الأمصار والبصائر ،
فإذا كانت تقبلها ولا تزجتها ، أو تأخذها ولا تمجتها ، كان يعترض علينا
بالقدح ، وعلى إملاتنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ويتداركه وهنه ، فيعلم أن من
أملى من مقامات الكندية أربعمئة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ،
وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف عيوبه ، والسلام » .

وفي هذا المعنى أيضاً كتب رسالة تهديد ، أو إنذار بالحرب ، إلى أبي
المظفر في شأن أبيه أبي الحسين البغوي الذي لا يعجبه نثر البديع ، فراح
ينذره بأن من أملى من مقامات الكندية أربعمئة مقامة حقيق ألا يهاج لكشف
عيوبه .

واستطاب البديع الأسفار بعد تغلبه على أبي بكر ، ولا سيما بعد أن مات
هذا ، فراح ينتقل من حضرة إلى حضرة ، فجاب خراسان وسجستان وغزنة
وكرمان متكسباً بأدبه من شعر ومثور : مقامات ورسائل وقصائد ، فحسنت
حاله بعد ما كانت حاشيته رقيقة يوم ورد على الخوارزمي أشعث أغبر منخرق
السربال .

فاز البديع بأعطيات الملوك والوزراء والأمراء والرؤساء ، وكأنه رأى هراة
نقطة الدائرة من تلك الحضرات فآلى فيها عصا الترحال ، وسعد جده فصاهر
أحد أشرافها فاقتنى الضياع ومن فيها ، حتى كتب إلى والده يقول له ، كما مر ،
تقع عينك على خمسمئة نيران وألف أكار .

وحكى أنه مات مسموماً ، وقيل إنه مات بداء السكنة ، ودفن حياً .

ب - في هراة :

قضى الأستاذ أطيب أيامه في هراة ، ولأجل هراة الحميلة لم يردّ على أمّه ، بل هجاها ، كما سيمر بك . . . ولا بدع أن يطلق همدان من وقع في شرك هذه البلدة الحميلة التي يصفها ياقوت في معجم البلدان : « هراة مدينة عظيمة مشهورة من مدن خراسان . لم أر بخراسان عند كوفى بها في سنة ٦٠٧ مدينة أجمل ولا أعظم ، ولا أفخر ولا أحسن ، ولا أكثر أهلاً منها ، وفيها بساتين كثيرة ، ومياه غزيرة ، وخيرات كثيرة ، محشوة بالعلماء ، ومملوءة بأهل الفضل والثراء » .

وكان الأستاذ هناك صهر البلد ، فقرت عينه بعد تلك السخونة . كانت أيامه فيها حلوة لولا أبو البخري الذي كدّرها عليه . ومع ذلك قضى في أخريات العمر حياة لا كلفة فيها . ثم مات بغتة فاستراح من الأوجاع والآلام النفسية والجسدية ، ولكن تلك الفزعة التي لقيها في القبر - إن صح أنه دفن حياً - قد كفت ووفت .

أما حياته في هذه المدينة الغراء فقد رسم لها الشيخ ، أولاً ، صورة جدية ثم أتبعها بصورة أخرى هزلية . كتب البديع إلى الوزير الميكالى ابن أبى بريدة يقول :

« ولو رأنى الأستاذ وأنا في قميص بأذنين ، وقباء ضيق الردين ، وعمامة كقبة الحجاج ، وخف فاسد المزاج ، أعلاه جراب ، وأسفله خراب ، على يردون عبدى التقطيع يرقص كالرضيع ، لعلم كيف تجرى الفرسان ، وكيف يمسح الإنسان » .

ومع ذلك ، وإن كان الأستاذ على هذه الحال التي وصفها ، فهو يؤثر أن يظلّ بين أكاربه وبقراته ، ويعتبر في آخر هذه الرسالة عن الشخصون إلى « حضرة » الميكالى حتى يقول في ختامها :

« والله لقد رأيت يدي تجت أفواه الأمراء والوزراء ، وقد نظرت يمينه ، فلم أر إلا محنة ، وعطفت يسرة ، فلم أر إلا حسرة » .

رحم الله أبا الطيب الذي قال :

وإذا الشيخُ قالَ أفٍ فإِملْ حياةً ، ولكن الضعف ملاً
الغنى بطراً . كان الهمداني يقطع القلوات إلى الحضرات ماشياً غالباً ،
وراكباً حيناً ، مدعياً بالسلب تارة على الأعراب ، وطوراً على الأتراك .
وها هو هنا يعتذر عن الشخوص إلى « حضرة » الوزير الميكالي ، وكأنى أتخيله
بعد ما كتب الرسالة السابقة ، يطويها ويضعها تحت الوسادة ، ثم يأخذ ورقة
أخرى ليديج رسالة ثانية إلى صديق يصف له بقرة ويسأله أن يفتش عنها
ويشترىها له . وكأنى أسمع يبربر متأففاً عند ما هم بكتابة الرسالة : « استرارة
البقر خير من زيارة البشر . . . » ثم ينكب ليكتب ما يلي :

« وقد احتيج في الدار إلى بقرة يحلب درها ، فلتكن صفوفاً تجمع بين
قعبين في حلبة ، كما تنظم بين دلوين في شربة ، ونياً العين وصفها كما يملأ
اليد خلفها ، وليزن مشيها سعة الذرع كما يزين درها سعة الضرع . ولتكن
عوان السن بين البكر والمسنة ، ولتكن طروح الفحل رموح الرجل ، وليصف
لونها صفاء لبناً ، وليكن ثمنها كفاء سمها ، ولتكن رخصة اللحم جمه الشحم ،
كثيرة الطعم سريعة الهضم ، صافية كالجون فاقعة اللون ، واسعة البطن وطيبة
الظهر ، ممتلئة الصهوة فسيحة اللهوة ، لا تضيق بطنها عن العلف فيؤديها
إلى التلف ، ترد الهول ولا تخافه ، رشرب الرنق ولا تعافه ، واجهد أن تكون
كبيرة الخلق لتكون في العين أهيب ، ضيقة الخلق ليكون صوتها في الأذن
أطيب ، واحذر أن تكون نطوحاً أو سلوحاً ، وإياك أن تبعثها ملوحاً أو رشوحاً .
ولتكن مطاوعة عند الحلب لا تمنع نفسها ولا تكثر لحسها ، وداهية في الرعى
لأقرب سعى ، حمقاء على الحوض كالنعجة لا تأمن من البعجة ، ألوفة للراعي
الذي يرعاها ، مجيبة لصوته إذا دعاها ، مهتدية إلى المنزل بغير هاد ، ذاهبة
إلى المرعى بغير قياد . ولا أظنك تجدها ، اللهم ، إلا أن يمسخ القاضي بقرة ،
وهو على رأى التناسخ جنائر . . . »

فاجهد بجهدك وابذل ما عندك ، واجعل اهتمامك أمامك وحرصك قدامك

يوفق سعيك ويحسن هديك ، واستعن بالله تعالى فإنه نعم المولى ونعم المعين والسلام .

حقاً لو وجدت هذه البقرة البديعية لاستحق صاحبها الوسام الزراعى من الدرجة الأولى ، وسهرت الدولة على سلامتها أكثر من البشر . . . الحمد لله الذى جعل من هذا السبب مزارعاً فخصّ البقر بالثقات أدبية كريمة لم يرمقها بها أحد من قبل ، وقلما جاد هو بمثلها على إخوانه البشر . . .

٢ - رأى الكتاب فيه

لا تعجبنى تلك الجيوش من النعوت الجراة التى كان يحشدتها الثعالبي حين يترجم لأدباء اليتيمة وشعرائها . فكأنه كان يفتش عن ألقاظ وتعايير لينظمها صفوفاً عسكرية تعرض فى ميادين الأذهان ، وتؤدى التحية لكل ذى فضل . وهاك نموذجاً مما قاله فى المترجم له : « هو بديع الزمان . ومعجزة همدان ، ونادرة الفاك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يدرك قرينه فى طرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته . ولم ير ، ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب . . . »

ألا ترى معى أن صاحبنا الثعالبي يكيل المدح بالمدح ، وأن مثل هذا الكلام أقرب إلى الهذر منه إلى الجلد . عفواً لقد جاءت السجعة ، فكرهت أن أقول لها ما قاله جرير لصائدة القلوب^(١) . . .

أما الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن دوست ، جامع رسائل الهمداني فكان كلامه موزوناً تقبله النفس ، قال فى مقدمة الرسائل يصف البديع للذى سأله جمع آثاره : « وكان أبو الفضل طلق البديهة ، سمح القريحة ، شديد العارضة ، زلال الكلام عذبه ، فصيح اللسان عضبه ، إن دعا الكتابة أجابته

(١) يشير المؤلف إلى قول جرير :

طرتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

عفواً ، وأعطته قيادها صفواً ، أو القوافي أتمه ملء الصدور على التوافي . ثم كانت له طرق في الفروع هو افترعها . وسنن في المعاني هو اخترعها »
 هذا كلام رجل يفصل الثوب على القد فيقف عنده القارئ متأملاً . أما القول : « بديع الزمان ، ومعجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارده » ،
 فعبارات تحتوي على كل شيء ، وتكاد تكون لا شيء .

٣ - خلق البديع وخلقته

وصفه ابن دوست بقوله : « وكان أبو الفضل وضى الطلعة ، رضى العشرة ، فتان المشاهدة ، سحر المفاتحة ، غاية في الظرف ، آية في اللطف ، معشوق الشيمة ، مرزوقاً فضل القيمة » . أما صاحب اليتيمة فيقول في هذا :
 « وكان مع هذا كله مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصع الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلو الصداقة ، مرّ العداوة » .

وأما البديع نفسه فيلقى بعض الضوء على شكله وطباعه . حين يقول معتذراً في إحدى رسائله إلى رئيس استقلمه إليه ، إنه : « همداني المولد ، جبيلي المنبت ، ناري المزاج ، ضعيف البنية ، يابس العظام ، حاد الطبع ، حديث السن » .
 إلى أن يختم هذه السلسلة بقوله : « ألا يرحم لحمي الضعيف في هذا الهواء الكثيف ؟ والأمراض لا تعبت من عبده بشحم ولحم ، إنما تصل إلى العظم فتنتقصه ، وإلى الروح فتستخلصه » .

وفي رسالة أخرى إلى رئيس بلخ وعميدها يصف أسلوب عيشه بعد الثلاثين فيقول : « ورقات تدرس ، وشجرات تغرس ، وشويبات تحرس ، واللبن الرائب ، والبرّ الحليط ، وعريش كعريش^(١) موسى » .

إنها حياة فلاح لا حياة رجل يملك ألف رقبة بشر وألف رأس بقر
 كما قال لوالده . ولعلّ الأستاذ هنا ، على عادة ذلك العصر ، يتخنى ما يملك

(١) العريش : الكوخ .

إما خوفاً من الطمع فيه، وإما طمعاً بأعطية من هذا الرئيس العميد. وعلى كل حال أرى أن لمخلفتين : طالب علم وطالب مال ، قد اجتمعتا فيه ، وصاحباهما لا يشبعان .

كان شيخ همدان في صباه وشبابه أخوا سفر جواب أرض . جاء حضرة الصباح ابن اثني عشر ولزمها حتى اشتد ساعده ، ولعله تركها مغاضباً لأنه في إحدى رسائله وقصائده يقف من الصباح موقف النابغة من نعمانه . ثم ظل يتتبع الحضرات حتى بعدما أثرى واستقر في هراة . لقد طاب له المقام فيها ، ولكن « الحيرى » و « ابن البخري » والحياة كانوا يقضون مضجعه مطالبين بدفع الضرائب ، والشيخ تعود أن يقبض لا أن يدفع . . . ولهذا ترى نيران الشكوى تتصاعد من رسائله سوداء قائمة كدخان الأتون في عدائه الأول . . . ومن شدة إلحاح هؤلاء عليه نراه يختم رسالة لهذا العميد : « وأسأل الله خاتمة خير وعاجل وفاة ، إن بطن الأرض أوسع من ظهرها وأرفق بأهلها » . كما يقول في رسالة أخرى : « والله لولا يد تحت الحجر ، وكبد تحت الحنجر ، وطفلة كفرخ يومين قد حببت إلى العيش ، وسلت عن رأسي الطيش ، لشمخت بأنفي في هذا المقام ، ولكن صبر جميل والله المستعان » .

ولقد وصف هو نفسه وصدق في الوصف حيث قال :

خُلِقْتُ كما ترى صعب الثقافِ أردّ يد المعاند في الخلافِ
ولى جسدٌ كواحدة المثاني له كبد كالثالث الأثافي
هلمّ إلى نحيف الجسم مني لتنظر كيف آثار النحافِ

كان العرب يقولون غليظ الكبد . أما صاحبنا فصور تلك الغلاظة أصدق تصوير . إنه سبّاب شتّام ، هماز غمّاز تخشى بواده ، وحسبك منه ما رواه عن نفسه فقال : « قدمت على الصباح ولى اثنتا عشرة سنة ، فبينما أنا عنده في دار الكتب إذ دخل أبو الحسن الحميري الشاعر ، وكان شيخاً مبعجلاً فقالوا له : إن هذا الصبي لشاعر ، يعنوني بذلك » . أما الشيخ فنظم له بيتين

مهذبين ليختبر ما عنده، فأجابه البديع جواباً بذيئاً لا يصدر إلا عن الرعاع .
ومن يطلع على نثره وشعره الصاخبين يرى أن شيخنا ، إذا استولى على أمد
الغضب ، يستعمل الخاء والراء وكأنه ينثر المسك والند والعنبر . . . غضوب
حتى الثورة المجنونة . وكما أن الفرن والتنور لا يخرجان الخبز رافحاً إلا إذ حيا ،
كذلك كان بديع الزمان .

قال الحجاج في جرير : « إنه لجرو هراش » ولعل هذه تصدق على
شيخ همدان . فهو أناني لا يرى فوق نفسه من مزيد ، والويل لمن يفضل
الحوارزمي عليه ، فما عنده له غير النار والكبريت . وحسبك أن تقرأ قوله
في الرسائل والمقامات : « من لقينا بأنف طويل قابلناه بخراطوم فيل » ،
لتدرك مبلغ شراسته ، وهذا شأن كل من يضحخ أمره بعد عسر ، ويستغنى
بعد قلة . إن هذه الحصال الطاغية ، والاعتداد بالنفس الذي يجرّ إلى الخطأ
من قدر الآخرين كانت تقلقل دائماً مركز الشيخ ، فينتقل من حضرة إلى
حضرة تاركاً في كل واد أثراً من ثعلبة . . . قال في رسالته لأبي نصر المرزيان
يوضح له لماذا خرج من جرجان ووقع في خراسان : « أما السبب فهو أن
أناساً غيروا السلطان ولا أعلم كيف احتالوا ، وما الذي قالوا . . . وأشار على
إخواني بمفارقة مكاني ، وبقيت لا أعلم أينما أضرب أم شامة ، ونجداً أقصد
أم تهامة . ونظرت فإذا أنا بين جودين : إما أن أجود بيأسى وإما أن أجود
برأسى ، وبين ركوبين ؛ إما المفازة . وإما الجنازة . وبين طريقين : إما
الغربة ، وإما التربة . وبين راحلتين : إما ظهور الجمال أو أعناق الرجال » .
لم يكن الدهاء ينقص شيخنا الهمداني ، فهو واسع الحيلة ، طب كعنترة
بأخذ الأمراء والوزراء . يصيب مقاتلهم - ولو مؤقتاً - يصمهم بسجعه ،
وينصب لهم شرك الإطناب ، وهم أبله من الحمام فيسقطون فيها .

أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
وهكذا لم يبق ملك منهم إلا قرص أبو الفضل عجيب « حضرته » وجدح
منه سويقه . . . ولا أستبعد أن يكون مات مسموماً ، لأنه لم يسلم من لسانه أحد .
فالأنانية هي القطب الذي دارت عليه رحى حياته ، أقلقه حب الظهور

وأزعجه ، فلا يكاد يسمع أن أحداً قدّم عليه كاتباً حتى يهبّ لمقاضاته كأن له عنده ديناً ، فتراه في كل مقام يمجّن ويمزح ويتهمك ، بل يكشف العورات ليرينا أنه قادر على القول في كل غرض ، فهو من هذه الناحية أسلط لسان وأقذع هجاء ، بل هو أحسد من مشى عليها . وحسبك منه أنه أراد أن يضع نفسه فوق الجاحظ كما سترى ، فهو لو يستطيع أن يمحو معالم العبقريّة من الدنيا حتى لا يبقى إلا هو لفعل . وقد أحسن ابن شهيد حين سمى في « التوايح والزوايح » . شيطان البديع « زبدة الحقب » . فشيخنا ، غفر الله ذنوبه ، كان كبطل مقاماته يدور مع الزمان كيفما دار ، فكل من يتغلب وجبت عليه مدحته ، يهمه أن يفوز ولو بشيء من الأسلاب ، ولتكون فيما بعد كلمته مسموعة عند أولى الأمر ، فيوصيهم بهذا ، ويسألهم قضاء حاجة ذاك ، لينعم بجاه ونفوذ بين الجماعة الذين حلّ عندهم .

كان يتشيع ويتسنن مطابقاً مقتضى الحال ، ولا لوم عليه ولا حرج ، ولعل الأبيات الآتية من شعره تصور لنا ما إنطوى عليه :

ويكّ هذا الزمان زورُ فلا يغرّنك الغرورُ
 زوقُ، ومخرقُ، وكُلُّ، وأطرقُ واسرقُ، وطَلَبِيقُ، لمن ترورُ
 لا تلتزم حالةً ولكن دُرُّ بالليالي كما تدورُ

ولا بدع أن أتى هذا ممن لا يظنّ بالناس إلا شرّاً ، فيقول لنا في ديوانه :

كذلك الناسُ خداعُ إلى جانب خداعِ
 يعيئونَ مع الذئبِ ويبكونَ مع الراعى

وكان الشيخ ، غفر الله له ، قد علم أنه فظ غليظ القلب والكبد ، وكان يتوقع من الأيام أن تكسر شرّته وتعدّل أخلاطه ، ولكنه يشس أخيراً من كل خير طلبه عند الليالي ، فصاح هذه الصبيحة المثولة :

خليلىّ واهماً للياليّ وصرفيها لقد ثقفت إلا كعوب خلاثي

٤ - شخصيته

يقرر البديع قضية يسميها الخراسانية الهمدانية، وكأنه مسلم بها، في رسالة إلى الوزير أبي نصر بن أبي بريدة، وهي منشورة بكاملها في مختارات الرسائل ومنها يقول: « وإن فعلت فلأني خراساني: وأعز موجود في الخراسانية الإنسانية ». ويوضح هذا أكثر في رسالة أجاب بها أستاذه أحمد بن فارس، وهي منشورة برمتها أيضاً: « واثنتان، أيده الله، قلما تجتمعان: الخراسانية والإنسانية. وأنا وإن لم أكن خراساني الطينة فإني خراساني المدينة، والمرء من حيث يوجد، لا من حيث يولد، والإنسان من حيث يثبت، لا من حيث ينبت، فإذا انضاف إلى خراسان ولادة همدان، ارتفع القلم، وسقط التكليف. فالجرح جبار، والجاني حمار ».

تري ما خطب خراسان وهمدان؟ يروي الجاحظ في «بخلاته» حكاية ديك مرو، وحكاية خاقان بن صبيح عن مسرجة رجل من أهل خراسان وفتيلتها الدقيقة، والعود المربوط فيها، وما دار بين المروي والخراساني من دروس اقتصادية ختمها خاقان بقوله: في تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس - أي في البخل - وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان.

ولست أظن البديع يعني غير هذا بكلمة «الإنسانية». أليس هو في صراع دائم مع العمال والجباة، ومع أبيه وعمه، فبعد أن أصبح ذاك الثرى صاحب الخمسمائة نيران وألف أكتار لم نجد نفسه على أبيه إلا بمئة دينار، ولا تدفع له إلا بشرط أن ينتقل إلى هراة، والشيخ لا يترك وطنه، فكأن الولد يعجز أباه حتى لا يعطيه شيئاً من ثروته الطائلة.

ويظهر أن الوالد عجز عن أن ينال شيئاً من ولده الذي تكتى بأبي الفضل، ولا فضل، فاستكتب أمه رسالة في هذا الموضوع. ولكن بديع الزمان صخر لا يؤثر به شيء حتى مرداة عمرو بن كلثوم الطاحنة. فما ردّ عليها، بل قال فيها هذه الأبيات الثلاثة:

وعجوز كأنَّها قوسٌ لامٍ فلقوها من نبعةٍ شرِّ فلقِ
كاتبتني شوقاً إلىّ وقالتُ : أخذَ اللهُ يا بنيّ ، بحقي
قلتُ لا أستطيعُ تركَ بلادِ قد وفي اللهُ في ثراها برزقي

وكتابه لأستاذه ابن فارس أليس شهادةً صارخةً على الحراسانية والإنسانية؟!
إذا يشكو الدهر ابن فارس ؟ أليس لأنه في خصاصة وبلغه أن تلميذه أمشي من
الأغنياء وهو في حاجة إلى ما يتبلّغ به ، فما كان من الأستاذ البديع إلا أن
أجابه عن الكلام بكلام ، واحتجّ بالحراسانية والهمدانية بكل وقاحة . . .

هذه واحدة وهي البخل وهو شرّ الخصال ، وأضف إليها واحدة أخرى
أبشع منها وهي الكبرياء ، فالأستاذ أبو الفضل ، غفر الله له ، بلغ بالكبرياء
حد التعجرف والطغيان ، « فالقيام له » في المجالس ، عند القلوم والذهب ،
أمر لا هوادة عنده فيه . بدأ بذلك عند الخوارزمي ، وكانت عاقبته تلك المعركة
الأدبية التي تجاوز فيها البديع حدود أدب اللسان ، فكان أشبه بأبناء الشوارع . . .
عتب الأستاذ عليّ أبي بكر لأنه « دفع في صدر القيام عن التمام » أي لم تتصب
قائمة الخوارزمي الانتصاب التام ، حين استقبال البديع ، فشنّ هذا عليه الغارة .
وهذا « القيام » يرافقنا في رسائله . فما هوذا يلدج رسالة إلى أبي سعيد بن
شابور لأنه قام له حين دخل عليه ، ثم ترك القيام حين خرج من عنده ،
فحشد عبارات اللوم والتعنيف ، قال : « فأول ما أعتب عايه قعوده في المجلس
عما بذله في أوله ، وثناقله في عجز الأمر عما حرص عليه في صدره ، من توفير
سلام ، وإيفاء قيام . . . على أتى دخلت عليه وأنا أحمد الهمداني ، وخرجت
من عنده وأنا أحمد الهمداني ، فإن كان قيامه قد سرّ ، فقعوده ما ضرّ ،
وبلغني أن كاتبه أبا الفضل بن نصرويه حكم للخوارزمي عليّ بالفضل

فقلت ولم أملك سوابق عبرتي متى كان حكم الله في كرب النخل

وأما ذلك الوقح الوسخ ولا أعرف اسمه ، وأحسب أن كنيته أبو الفضل ، أو
أبو الطهر ! وما كان فهو اسم مفخّم ، ومعنى مرخّم . فما أحوجه إلى سونيز عقل ،
وسعتر فطانة ، حتى تحلّ مكالمته . وما كان أحسن حال السادة عند اللقاء حتى

يكون حاله . نعم استنتت الفصل حتى القرعاء . وفي ختام هذه الرسالة يعين مكاناً للاجتماع عند الشيخ أبي القاسم ليعتذر إليه عما جرى من تقصير بحقه .

وهناك مكتوب آخر يوجهه إلى القاضي أبي نصر بن سهل أمر من هذا لهجة إذ يقول : « ما للقاضي ، أعزه الله ، يلقاني بوجه كأنه الزقوم ، ويراني فلا يقوم ؟ ! أنا أسأله أن يقتدى بغيره لا ألت لقيامه أهلاً ! لعن الله أكثرنا جهلاً ، وأقلنا فضلاً ، وأحسننا أصلاً . تلك القلنسوة ليست بأول قلانس الحكام ، وتلك الشيبة ليست بأول شيبة في الإسلام ، ونحن نخ . . . في خير من تلك القلنسوة ، ونصنع خيراً من تلك القمحدوة^(١) . فليحسن العشرة معي من بعد ، ولست من رعيته ، وليجمل الصحبة في ظاهره إن لم يحملها من نيته . أو فليفعل ما شاء فإنها شقشقة هدرت ، والجميل أجمل والسلام » .

ألا ترى معي أن الأستاذ يفرض نفسه على البشرية فرضاً ، وأنه يشبه بشاراً من هذه الناحية كل الشبه ، فهو ينحى باللوم والسب والشتم على من لا يرضى غطرسته وكبرياهه ، أو يفضل الخوارزمي عليه .

قد يقال لماذا لم يعنك إلا بجمل الأستاذ وكبرياؤه ؟ الجواب أن كبرياء الأستاذ خلقت رسائله النارية ، وبخله وجه المال أبدع مقاماته الطريفة ، كما سرى .

(١) القمحدوة : مؤخر القذال .

الفصل الثالث

جوانب بديع الزمان

١ - آثار البديع

ليس لبديع الزمان من آثار غير الرسائل والمقامات والديوان ، وهذه كلها لو جمعت في كتاب واحد لما بلغ حجمه حجم ديوان البحترى ، ولكن الأدب ليس كالخطب ليباع بالقناطير ، وهو لا يقاس بالكيلومترات كالصحارى ، فهذه الآثار ، على صغرها ، بوأت الرجل منزلته العليا في الأدب العربى ، فكان بعيد الأثر فيه .

وليس هذا النثر ولا هذه الرسائل من مواليد القرن الرابع . فالسجع قديم الميلاد كبير السن ، والرسائل هى لغة الناس الطبيعية ، وقد استعملوها حين عرفوا الورقة والقلم . كانوا يعتمدون في بدء أمرهم على الوفود ، فهبى الزعيم بضع عبارات يعبر فيها عن غرض الجماعة الذين استسفروه ، ثم نابت الرسائل عن وفود القبائل . كانت الرسالة العربية ، في بدء عهدها ، وجيزة قصيرة ، صريحة واضحة ، لا تفخيم فيها ولا مداورة ، كرسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : « أما بعد ، فقد ظهر من مالك ما لم يكن في رزقك ، وما كان لك قبل أن أستعملك ، فأنتى لك هذا ؟ فاكتب إلى من أين لك هذا المال ؟ وعجل » .

وكما كتب أحد الخلفاء إلى أحد عماله : « أحبيناك فولييناك ، اختبرناك فعزلناك ، يدك فى الكتاب ، رجلك فى الركاب ، والسلام » .
وكما كتب غيره إلى عامل له ينثروه : « كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما تعتدل وإما تعتزل ، والسلام » .

ولما آلت إمامة رسائل الدواوين إلى الفرس المستعربين طال سَفَرُ الكلام ،
 وتمطت المقدمات . فطَوَّأ ما شَاؤُوا ، وأكثروا التبجيل والتعظيم . ومشت الرسالة
 مع الدهور والعصور ، فصارت آلة الوزارات وسلْمها ، واستقل ، إذ ذلك ،
 أدب الرسائل ، فوضعت له خطط ورسوم اتبعتها كتاب الدواوين وغيرهم
 من المرسلين . ولما جاء القرن الرابع عُنِيَ مشاهيره بتجويدها . فدبَّجوها وزوَّقوها
 ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولما كان السلطان لمن ينتزعه انتزاعاً أخذ هؤلاء
 الكتاب المرسلون يبجلونهم ويعظمونهم طمعاً بما عندهم من نهاب وسبايا ،
 وخوفاً من سيفهم المسلول ولا يدري متى يقع ويحصد .

وكان البديع من فرسان هذا الميدان فكتب وحبر ، وعرض بضاعته في
 الأسواق الأدبية فراجت . وهبت ريحه حين ناظر أبا بكر الخوارزمي ، شيخ
 المرسلين في ذلك الزمن ، فراح ينتقل من حضرة إلى حضرة وفي خُرْجِه رسائله
 ومقاماته وقصائده . كان له الإبداع والحلق في المقامات ، والتفوق في الرسائل ،
 والسوق الماشية في الشعر . . .

١ - رسائله :

البديع في رسائله يصح فيه قول الأخطل في الفرات :
 وما الفرات إذا جاشت حوالبه في حافتيه وفي أوساطه العشرُ
 مسحفرٌ من جبال الروم يستره منها أكافيفُ ، فيها دونه ، زورُ
 هذا هو بديع الزمان في رسائله . هائج صائل ، يكسر الجرة خلف المولى
 ويسبّ أباه وأمه إذا اقتضت الحال ، وينقش بساط من يلي الأحكام بشفتيه ،
 ويسجد لمن عنده المال . . . كنا نفتش ، حين ندرس شاعراً ، عن رسالة
 نستدل بها على ما عنده من طباع وأخلاق وشيم ، أما الآن فنحمد الله على
 أن أمامنا مجموعة رسائل تدلنا على كل ما عند صاحبنا الحمداني .

فهذا الزخرف والنقش والتروير ، وهذه المبالغة والتواضع لمن يمدح ، أو لمن
 يطمع منه ، ولو بكلمة ثناء ، دليل صارخ على ميراثه الجنسي ، فهو في
 سنه وشتمه في هذه الرسائل ، أشبه بالسامانيين ، فأخلاقه أخلاقهم ، وبضاعته

بضاعتهم . إن الصنعة في رسائله أكثر منها في مقاماته ، فهو هنا يترسم خطي
الصاحب فلا يدع سجة تفلت منه ، بل يشتمر وراءها ليقتنصها ويوسع لها
المحل اللائق بها .

إنه يختلف عن معاصريه في صورته الفارسية التي رسمها قلمه يدققة ، فاستعار
من لعبة الشطرنج صوراً بارعة ، وأغرق في التشايبه ، والاستعارات ، والكنايات
والمحسنات اللفظية ، والرمز ، والتلميح والإشارات ، فجاء كلامه مزوفاً مزخرفاً
ككل شيء في ذلك العصر ، ولذلك بلغ به اعتداده بهذا الزخرف والبهرج أن تطاول
إلى مقام الجاحظ ، فقال في إحدى مقاماته : وهل للجاحظ غير عريان الكلام ؟
وكان الأدب العاري من سمات بعض معاصريه فجاراهم هو في هذا المضمار ،
فما نزه قلمه عن الألفاظ البديثة في رسائله ، ولا عن الحكايات المنحطة في
بعض مقاماته . استجدي في آثاره الثلاثة ومدح ، وعزى وعاتب واستعجب ،
وسب وأوصى وتوسل ، فجاءت هذه دليلاً صارخاً على أخلاقه وطباعه ،
أما اللون الصارخ في الرسائل الهمدانية فهو الشكوى والسب والتذمر .

أما صناعة البديع فهي واحدة في شعره ونثره ، ولكنه في الرسائل والشعر
متعمّل ومتصنع بينما هو في المقامات رجل فن كما ستري

كان البديع ، كزملائه كتاب هذا العصر ، يغير على أبي الطيب وغيره
من قدماء ومحدثين فيحل منظومهم كما حل الخوارزمي بيت المتنبي فقال :
« فم المريض يستثقل وقع الغذاء ويستمرّ طعم الماء (١) » ، وكذلك فعل البديع
فشنّ غارات شعواء عليه وعلى غيره ، ففصل ذلك الشعر على هنداز مشوره ،
فقال في رسالة إلى سهل بن محمد بن سليمان : « لو تعمّد في الردى ، لصرت
إليه مشرق الوجه راضياً ، وألوفاً لوردت إلى الصبا ، لفارقت شبي موجع
القلب باكياً (٢) »

(١) بيت المتنبي :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرأ به الماء الزلالا

(٢) بيت المتنبي :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شبي موجع القلب باكياً

وكما كتب إلى القاسم الكرجي : « وقد حضرت داره وقيلت جداره ، وما بي حب الحيطان لكن شغفاً بالقطآن ، ولا عشق الجدران ولكن شوقاً إلى السكان (١) » .

وأما الجناس فكان عند هؤلاء غاية غايات الإبداع ، فاقراً رسالته أتى كتبها إلى سعيد الإسماعيلي يشكو العرب مدعيّاً أنهم قطعوا عليه الطريق ، فراح فيها يذم الدهر الذي « ما ترك فضة إلا فضها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا علقاً إلا علقه ، ولا عقاراً إلا عقره ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مالا إلا مال إليه ، ولا حالاً إلا حال عليه ، ولا سيداً إلا استبد به ، ولا بزّة إلا بزّها ، ولا خلعة إلا خلعها » .

ولا تنس أن الشيخ كان يحلى كلامه بما يدور من الكلام الذي صقلته السنة العوام ، كما في رسالته إلى الشيخ أبي جعفر الميكالي بستمبحة : « أو لم تكن خمر فخل ، وبذل الموجود غاية الجود ، وماش خير من لاش (٢) ، ومار هو خير من فرس ليس ، وزيت خير من ليت ، وعصفور في الكف خير من كركى في الجوّ » .

وأحياناً كان يرسم خطى الصاحب وابن العميد في استعمال حروف البحر ، فيكتب إلى أخيه : « وجدتنى بك آنس ، وعلبك أقدر ، ولك أملك ، وفيك أنطق ، ومعك أجراً وأجرى » .

وهو مع تلك الحرية في استخدام الألفاظ يجيب الوزير أبا العباس الإسفرائيني خاتماً الرسالة بقوله : « وخلة أخرى ، وهى أنى مفتون بكلامى ، معجب بصوب أقالمى وذوب أفكارى ، لا أزه إلا لمن يعتقد فيه اعتقادى ، ويميل إليه كفؤادى ، وينظر إليه بعين رأسى » .

ومن طبيعة الهمداني أن يغالى مادحاً وهاجياً وشاكراً ، فالإقتصاد في الكلام ليس من طبعه ، فيقول مثلاً للشيخ أبي العباس : « وإن أرضيتني في ذلك

(١) أخذ هذا من ذلك الشاعر الذي قال :

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

(٢) استعمالها الجاحظ بمعنى لاشى .

الحديث ، من صاحب المواريث ، فيدٌ غراء ، لا تسعها الأرض والسماء .
أما المناداة بالويل والثبور فقرأها في رسائل الشكوى من القضاة والحياة
حين يقربون صوب كيسه فتقوم إذ ذاك القيامة . وإذا أرضاه الحاكم بقضاء
حاجة أو بتعظيم بالقيام - وهذا يهمة كثيراً - هاجمه بطوفان من المديح كأن
يقول : « فقبلت من يمناه مفتاح الأرزاق ، وفتاح الآفاق . وصادفت من
الشيخ ملكاً يشاهد عياناً ، وجيلاً قد سمي إنساناً ، وبحراً أمسك عناناً » .

ثم يستطرد إلى الحوارزمي فيقول مشيراً إلى تغلبه عليه بتلك المناظرة : « ومي
استراد زدنا ، وإن عادت العقرب عدنا . وما كنت أظنه يرتقى بنفسه إلى طلب
مساماتي بعد ما سقيته كأس الحنظل ، وأطعمته الخ . . . بالخردل . فإن كان
الشقاء قد استغواه والحينُ قد استعواه ، فالنفس منتظرة ، والعين ناظرة ، والنعل
حاضرة » .

ثم يستمطر في الرسالة زابل شتائم لا يحسن سردها سواه ، وما رأيتها تنقاد إلا
له . ولا تنس أن للأستاذ في رسائله مراجعات ، فما كتبه إلى الإسفرائيني في
فتح بهاضية رأيناها يكرره لأستاذه ابن فارس . وفي الرسائل أيضاً تكرارات
لبعض ما جاء في المقامات . وكان كثير المعاتبة في رسائله المرة ، وهو في
هذا ابن عم ابن الرومي ، يضيق صدره بمن يحتجبون عنه . ولسيدنا الشيخ
رسالة أشبه برسائل المهاجرين إلى أهلهم عندنا ، مشحونة « سلامات » إلى
هذا وهاتيك وتلك ، ويقول فيها عن عودته إلى همدان ما تعود هؤلاء أن يقولوه
معتذرين عن الرجوع إلى الأوطان . . .

وبعد ، فرسائل البديع لا تمل ، وإن كانت تدور على لولب واحد ،
وهو الشكوى والتذمر في الغالب . وقد بدا لي أنه لا يوفق في إخوانياته توفيقه
في هجائياته ، فمدحه فارسي جامد ، وتشوقه أقل من هامد ، ولذلك لا تراه
يجيد إلا إذا هجا أو ذم ، وما أظن أحداً ، شاعراً كان أم نائراً ، بلغ من
هجو « القاضي » ما بلغه البديع من ذم أبي بكر الخيري ، فهذه الرسالة هي
آية من آيات الشعر الرفيع في الهجاء .

إن نفس البديع المشتعلة تشغلك بها عنه الصنعة في رسائله وأكثر مقاماته ،

فهو يتدمج فيما يكتب من موضوعات فتخرج كأنها جزء منه ، فنقرأها ولا نشعر أننا نقرأ سجماً نكرهه كرهاً يعادل محبتهم له في ذلك الزمان .

ب - مقاماته :

إن خطة المقامات هي من عمل البديع ، فلا لابن فارس ولا لابن دريد يد في صنعها . فالهمداني هو الذي ألبسها هذا الطراز الموشى ، وعلى طريقه هذه التي شقها سارت عجلة الأدب ألف عام . فعبثاً نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع . أما المادة فسرى أن صاحبنا قد قشها^(١) من هنا وهناك ، وكأني به كان يحاول فيما سرده من قصص ، أن يكون له في كل غرض قول يحاول أن يبرز به المتقدمين وإنما بأسلوب آخر . يدلنا على هذا ما قاله في « المقامة الجاحظية » بلسان بطله أبي الفتح - أي الهمداني - يقول : « إن الجاحظ منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معنائه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات » .

لقد كفانا الشيخ الإمام محمد عبده ، منذ نصف قرن وأكثر ، مؤونة الرد على البديع حيث قال في ما علقه من حواش على هذه المقامة : « وهذه الأوصاف التي يعدها كأنها من مناقص كلام الجاحظ ، هي أعلى مزايا الكلام عند أهله ، وهي التي ترفع مقامه على غيره . وهذا المذهب الذي سلكه الجاحظ هو مذهب رجال البلاغة الأولين ، ومجال فرسانها السابقين . أما المصنوعات ، فهي من أحداث الموضوعات ، لا ينظر إليها إلا صبية هذه الصناعة^(٢) » .

فكأني : بالبديع ، بعدما فرغ من أبي بكر ، قد أراد التطاول إلى سدة الجاحظ العليا ، فقشر له الإمام العصا ، ومن قرع الباب سمع الجواب .
لا تفتش عن أخذ عنه البديع مقاماته فهو مبدعها ، ولا عبرة بالحكايات

(١) قشها : جمعها .

(٢) « مقامات الهمداني » . طبعة بيروت ص ٨١ الحاشية .

والنواذر فهذه كانت ولا تزال ، وقد نجد اليوم رجالاً كأنهم بطل بديع الزمان
يحتالون وينصبون ، وينتقلون من مكان إلى مكان ، وفي كل مكان تراهم
غيرهم ، ولكن إذا فتشنا مقاماته الإحدى والحمسين رأينا في الكثير منها
أشياء أخذها البديع من عند غيره ، وجلاها وأبرزها بأسلوبه المصنوع فصارت
كأنها له .

فلنبداً باللاحظ . رحم الله ابن العميد الذي قال فيه : « كل الذين
جاؤوا بعده عيال عليه » . فالمقامة العلمية التي يصف فيها البديع العلم هي
معارضة لوصف اللاحظ للكتاب ، ولكن أين البديع المليح من ذلك الوجه القبيح !!
فقد قصر فيها عن أبي عثمان تقصيراً فاضحاً .

ومن قرأ بخلاء اللاحظ ووقف على حديث خالد بن يزيد عرف أن
شيخنا اللاحظ هو أول من حدثنا عن القصص والتكديبة ، والمكدين ، وأن
البديع ، غفر الله له ، أخذ هذا الحديث أيضاً وفصله مقامتين : الوصية ،
والرصافية . وما أظن قصيدة أبي دلف الخزرجي المشهورة في الساسانيين إلا
من موحيات اللاحظ . وفي المقامة السجستانية سياء من حديث خالد أيضاً ،
وهناك ومضات آخر نلمحها هنا وهناك .

وإذا انتقلنا إلى المقامات الأخرى رأينا الهمداني يغير في التي سماها المقامة
الحميرية على أبي نواس وغيره . فبديع الزمان في وصف الحمرة ومجالس اللهور ،
وتهافت الشباب على اللذات ووصف الغلمان يريد أن يكون له في النثر ما كان
لأبي نواس وغيره في الشعر ، ولا عجب فنثر هؤلاء هو شعر طليق ، كالذي
نسميه اليوم بالشعر المنشور . ولم يقف البديع عند هذا الحد بل جمع في المقامة
الهمدانية جميع أوصاف الخليل ، المتفرقة في منظوم العرب ومشورهم . ثم شاء
أن يضرب في النقد بسهم فراح يباري الراوة فيه ، وذلك في مقاماته : الشعرية
والعراقية والقريضية فبدأ في اثنتين منهما رمآزاً ساخرآ متهاكماً .

أما التشاتم في المقامة الدينارية ، فله شبيه في حكاية أبي القاسم البغدادي
وفي رسالة للخوارزمي . وإذا نظرنا نظرة عامة إلى هذه المقامات رأيناها معرضاً
لصور الحياة الاجتماعية في عصر البديع : عصر تحصيل المال من طريقه

الحرام والحلال . فبديع الزمان يعالج فيها الأزمات النفسية والعقد الوجدانية الفاشية في عصره ، ويرسم لنا صوراً اجتماعية أوحى بها إليه زمنه ومحيطه . رأيناه يصور لنا الغنى الطازج الحديث النعمة ، كما يصور لنا البطولة المقرونة بالدهاء ، ثم لا ينسى المدح الذي يستخدم له بطله أبا الفتح ، فيفتح الله عليه أبواب الرزق ، ويغرقه طوفان « خلف بن أحمد » . . . فالمقامات : الناجية ، والنيسابورية ، والخلفية ، والملوكية ، والتيمية ، والسارية ، كل هذه جميعها في مدح « خلف » الذي خلف على الهمداني وأغناه ، ولا لوم ولا تريب على البديع إن رأيناه يتخصّ هذا الرجل الكريم بأكثر من عشر مقاماته . وبعض رسائله وقصائده ديوانه فما شكر السوق إلا من ربح .

إن في حكايات البديع احتيالا ودهاء . فتارة يضحك ضحكة بلهاء وتارة صفراء ، كما يحدث لكل قارئ بعد مطالعة المقامة الأصفهانية ، إنك لتشبتّ من عمل أبي الفتح بالمصلين حين تركهم في سجدتهم الطويلة ، فتعجب من نفس ميتة يحملها جسد نين لا يحترم أقدس أقداس البشرية إذا كان يفوز باللون من حطام الدنيا .

وتمرّ بمقامات البديع فتعجب بالمقامة المضيرية إذ تراها قصة عصرية قد تنوء عن مضارعتها اليوم قصة في تحليل الشخصيات ودرس النفسيات . وهناك فكاهة طريفة في المقامة الحلوانية . والمقامة الأسدية والبشرية تعدّان من الأفاصيص ذوات العقد ، وإن كان إلى جانب هذه قصص كالمقامة الأزربيجانية التي تبدو كأنها كتبت بلا استعداد . . . فلا هي قصة ولا هي كلام طريف . وفي الجرجانية والبصرية يصور لنا الهمداني من نسميهم اليوم « شحاذين بشرف » .

ويوفق الأستاذ إلى صنع إطار لقصته بأوجز كلام كما ترى حين يصور لك بطل المقامة المكفوفية . أما في المقامات المدحية « الخلفية » فلا يوفق الأستاذ لا في القصّ ولا في الطرافة ، وقد يجوز لنا أن نقول له كما قال هو لبطله : إنك لشحاذ . وسرى إذا كنت تشاركنا في هذا الرأي حين تطالع بعضها في مختارات المقامات .

أما الأسلوب فهو هو ، فالبديع خلّاق عبارات كقولهِ : ليلة نابغية ، وليلة في غير زيّها ... إلخ ، كما أنه مغوار على غيره كما قلنا في غير هذا المقام . وقد رأيت تكرير عبارات وأفكار في المقامات والرسائل ولست أدري أيهما أسبق ، ففي المقامة النيسابورية ، وهى في مدح خلف ، كلام مأخوذ من رسالته في هجو القاضى .

والرسالة التى تحمل رقم ١٥٦ فى طبعة بيروت شرح الأحذب ، تشبه مقامة الوصية وبعضها منقول بالحرف . وفيهما كلتيهما آراء بخلاء الجاحظ فى الكرم .

أما التعابير الخاصة فتجدها فى أكثر المقامات . وخصوصاً المقامات : القرذية والأرمنية والحمرية وغيرها . وهناك مقامات مقصرة عن أخواتها ، أو هى على غرار واحد ، حتى ينجيل إلى أنه عملها ليتم بها عدداً نوى أن يبلغه ، فإذا قرأت الهيدية والمجاعية رأيتهما توأمتين . . .

بقى علينا أن نقول كلمة أخيرة وهى جواب عن هذا السؤال الذى كثيراً ما يرد : هل المقامة قصة ؟ نعم يا سيدى ، إنها قصة . والفرق بينها وبين قصص اليوم كالفرق بين هندامك أنت وهندام جدك ، رحمه الله ، ورحمى معه . ولكن ليست كل مقامات البديع قصصاً فقسم منها لا شىء ، والقسم الآخر شىء عظيم ، وحسب الرجل ما خلق . إنه لفنان بديع .

ج - ديوانه :

البديع فى مقاماته ورسائله أشعر منه فى ديوانه^(١) . وإن كان قد خلق فى المقامة البشرية بطلاً أسطورياً جعله شاعراً تاريخياً حقيقياً . لقد تفوق البديع فى هذه القصيدة ، وما أحسبه إلا متخيلاً أبا بكر الخوارزمى حين قال منها :

فخرٌ مجدلاً بدم كانى هدمت به بناءً مشمخراً
وقلت له يعزُّ على أنى قتلتُ مناسي جلدأً وقهراً

(١) « ديوان البديع » طبعة مصر سنة ١٩٠٣ ، ناشره محمد شكرى الملكى .

إن لثر البديع أثراً بعيداً في شعره . فهو لا يتخلى عن السجع والازدواج في هذا الشعر ، كقوله ، مثلاً ، في مدح صاحب الجيش أبي علي :

ما السيفُ محتظماً ، والسيلُ مرتكماً ، والبحرُ ملتظماً ، والليلُ مقتربا
أمضى شباً منك ، أدهى منك صاعقةٌ أجدى يمينا ، وأدنى منك مطلباً
وكادَ يحكيك صوبُ الغيثِ منسكباً لو كان طلقَ الحياَ يمطرُ الذهبا
والدهرُ لو لم يخنْ ، والشمسُ لو نطقتْ والليثُ لو لم يُصَبَدْ ، والبحرُ لو عذبا
أما الصناعة وقلّة الأناقة فكثيرة كهذا البيت :

وليل كذ كراه ، كعناه ، كاسمه ، كدين ابن عباد ، كإدبار فائق
أما الجناس العارم والعبارات الثرية ، فتراها أين توجهت في ديوانه الصغير ؛
تأمل هذه الأبيات :

وكنْتُ إذا ما الليلُ ماج ظلامهُ جعلت على تياره جسرتي جسرى
بمشفرة كالطود دائمة السرى كأنّ على الشعري بها أو على شعري
وقد عجبتُ شمُّ الهضابِ فما درت أبا العيس نسرى ، أم بأجنحةِ النسر
فيا ربّ أندى فرعهُ المجدُ فارعهُ ولا تُخلِ ذاك الصدرَ من ذلك الصدرِ

هذه بعض أبيات قالها في مدح الوزير الشيخ أبي نصر بن زيد ، ولا شك في أنها نفقت عنده في ذلك الزمان ، أما في سوق الأدب فلا رواج لها اليوم .

وفي ديوان الشيخ كثير من المعميات والأحاجي ، وترجمة شعر فارسي ، وقد طبخ لنا في هذا الديوان ما نسميه في لبنان « مخلوطة » فنظم قصيدة غزلية ممزوجة بالألغاز الفارسية ، وقد نشرناها في المختارات الشعرية للتفكّهة ، وله أيضاً أراجيز وقصائد مصطنعات كلها مبالغات واستعارات وتشبيهات حتى إنى عددت له واحداً وعشرين بيتاً بدأها كلها بكأنّ ، وهذا يدلنا على الهتافات وعلى التشايه المرغوب فيها عندهم . ولعل أبرز صفة لهذا العصر هي هذه القوالب البيانية والمحسنات اللفظية ، ولو كان في هؤلاء الممدوحين من يشبه الرشيد ، وسيف الدولة ، وابن العميد ، لما أقدم البديع على قول مثل هذا الشعر فيهم .

رحم الله البديع ، وجلّ من لا عيب فيه وعلا .

٢ - الأديب السياسي

تقدم لنا القول إنه يعيننا أمر الناصر لدين الله أبي القاسم محمود بن سبكتكين أكثر من سواه ، لأنه هو الذي سلب ملك خلف بن أحمد ملك كرمان ، وخلف بن أحمد هذا كان يعطي ويجزل العطاء وهو ممدوح بديع الزمان الذي خصه بمقامات ورسائل وقصائد ستقرأ بعضها في بابها .

أما سبكتكين فامتدحه بقصائد ، ورسائل وجهها إلى وزيره الإسفرائيني . وهذه إحداها ننشرها هنا للدلالة على مشاركة أديبنا البديع في سياسة عصره . كتب إليه عندما انهزم السامانيون بباب مرو :

وردد رقعة الشيخ الجليل ، أدام الله بسطته مني ، على صدر انتظرها
وقلب استشعرها ، وإني لا أغلط في قوم أميرهم صبي ، ولا في دولة عميدها
خصي ، وسنانها حلتقي ، ونصيرها شقي ، وعدوها قوي ، إني إذا لغوي ، يا قوم ،
بماذا ينصرون ! أبحال عليه اعتمادهم ، أم بجمع هو أمدادهم ، أم بعدل به
اعتضادهم ، أم لرأي هو عمادهم ؟ هل هم إلا سطور في قطور ! إن الله
تعالى علم أنهم إن ملكوا لم يتصلحوا ، وأمرهم ألا يفلحوا ، فسمعوا وأطاعوا .
طائفة من المداير ، وقوفهم بين النار والنير . إن أقاموا فالسيوف الهندوانية ،
وأن أيمنوا فالأتراك والخانية^(١) ، وإن أيسروا فجرجان والخرجانية ، وإن استأخروا
فالعطش والبرية . هو الموت إن شاء الله آخذاً بالحلاقيم ، محيطاً بالظاعن منهم والمقيم .
جرجان يا مداير ، جرجان ، إن بها أكلتة من التين ، وموتة في الحين ،
نظرة إلى الثمار ، والأخرى إلى التابوت والحفّار ، ونجاراً إذا رأى الخراساني نجّر
التابوت على قدّه ، وأسلف الحفّار على لحده ، وعطاراً يعدّ الحنوط برسمه .
وبها للغريب ثلاث فتحات للكيس : أولها لكراء البيوت ، والثانية لابتياح
القوت ، والثالثة ثمن التابوت ، أغلى الله بهم أسواق النجارين والحفارين
والمُكارين . آمين يا رب العالمين . وله أيضاً رسالة وجهها إلى هذا الوزير

(١) نسبة إلى أيلك خان ، وهم جماعة أعانوا على السامانية في هذه الهزيمة .

يمتدح فيها ابن سبكتكين ، وفيها وصف طريف لفتح بهاضية ، ثم وصف للهند وتعظيم لهذا السلطان الذي فتحها . وسرى ، حين تقرأها في مكانها ، أن البديع جاء بالبديع فتكسب بالمقامات والرسائل والقصائد .

٣ - الأديب الاجتماعي

شارك بديع الزمان في وصف أحوال عصره الاجتماعية ، وهذا ما كتبه من رسالة مع الوفد طلباً للنظر لأهل هراة وفيه وصف البؤس الذي ليس فوقه بؤس . قال :

« ولا أزيد الشيخ علماً بهراة وأهلها ، إنه قد شاهد أحوالهم ، وعرف ما عليهم وما لهم ، ولم يغب عن ثاقب فطنته إلا القليل . ولكني أخبره بما عرض لها ولم : فيهم فشت الأمراض الحادة فخبطت عشواء وأفنت رجالا ، ثم جد الغلاء ، وفقد الطعام ، ووقع الموت العام . فمن الناس من لم يطعم أسبوعاً حتى هلك جوعاً ، ومنهم من تبلغ بالميتة إلى يومنا هذا ، وهو ينتظر نجبه ، ليلحق صحبه . ومنهم من لا يجد القوت على كفه حتى يموت ، والباقون أحياء كأنهم أموات ، ترعد فرائصهم من هذه البوائق . وإن هول السلطان أعظم وأطم ، وأمر " المطالبات " أكبر وأهم . . . »

وكان هذه الرسالة لم تشر فكتب رسالة أخرى إلى الشيخ السيد ابن أحمد جاء فيها بعد التوطئة : « وقد علم الشيخ ما منى به أهل هراة من محن الخانية ، ثم ما أرهاقهم من الحقوق الديوانية ، ثم ما زيد عليهم من علاة المصادرة الحادثة ، ثم ما كشف الأستار ، وأظهر العوار ، وقبح النوار من غلاء الأسعار ، حقاً لقد أكلت الحيفة وهي خائسة ، وطحنت عظام الميتة وهي يابسة ، وعُدِم القوت وثمنه موجود ، وتركت العبادات وهجرت النياحات ، وأفردت الجنائر ، وتخطى الموتى وهم بالشوارع مطروحون . ولقد دخلت المسجد الجامع يوم أمس فرأيت تحت كل أسطوانة عليلا ، وكلمت أحدهم فلم يبع إلا قليلا . . . » إلى أن يقول : « ومن الواجب على السلطان ، أعز الله نصره ، في مثل

هذا العام ، أن يتعهد الناس بالطعام ، ويتخول الرعية بالإنعام ، ويبدل فيهم
الرغائب ليؤمن الساكن وليتألف الغائب . والبلاء كل البلاء إن طلب هذا المال
الموظف فتذهب الحاسة الباقية »

هاتان مقطعتان من رسالتين تعينان القارئ على مقابلة ذلك البطر بهذا
الجوع . وكذلك يفعل فساد الحكم ، وموت ضمير الرعاة في كل عصر .
إني أصدق كل ما كتبه البديع في وصف بؤس أهل بلده ، فقد رأيت
بأمّ عيني هذه المشاهد بل أعظم منها في ضيعتي ، إيّان الحرب الأولى
عام ١٩١٦ .

٤ - طابعه الأدبي

جاء البديع والنثر المسجوع والمزدوج بينخ على الأذهان بكلكله وجرانه .
كان لواء مدرسة ابن العميد يرفرف على الدواوين ، والصاحب يزجي الصفوف
تحت الدرفس وكان أكبر ما يبغى في همدان أن ينضوي تحت هذا
اللواء ، فأتيج له من حضرة الصاحب ما أراد ، ثم انصرف عنها تامّ الألواح
مكتمل العدة ، فقصده كاتب عصره ، أبا بكر الخوارزمي في نيسابور ، فأبدي
الشر نواجذه منذ وقعت العين على العين ، وأراد البديع المنازلة الأدبية فكانت
وفاز ، وانتهت إليه الزعامة الأدبية حين خلت الدنيا من خصمه .

قد يكون البديع غالي في وصف مناظرته مع أبي بكر ، ولكن الذي لا شك
فيه ، هو أن هذا الشاب خاض المعركة مستعداً وولجها أبو بكر مستخفاً ،
ساعد البديع شبابه ، وحدة ذهنه ، وسلاطة لسانه ، فكان يستولي دائماً على
المبادرة ، ويرى خصمه بقذائف نوادره ونكاته بلا حذر . فما قولك بشاب
يقول لشيخ جليل كأبي بكر : « إنك كهل وأنت شاعر ، وكنت شاباً وأنت
مقامر ، وكنت صبيّاً وأنت مؤاجر !! » ثم يقول له مزدرياً شعره الذي أنشده في
تلك المناظرة : « فكره أبو بكر ، أيده الله ، أن تكون الهرة أعقل منه ، لأنها
تحدث فتغطّي » . ثم قوله له : « والله لو أن قفاك غدا في درج ، في خرج ،
في برج ، لأخذك من النعال ما قدم وما حدث » .

وبعد هذا ماذا ؟ فتح الله على البديع ، فأملى مقاماته الشهيرة فأحلتها في النثر محل امرئ القيس في الشعر ، ومشت الذرية على الطريق التي شقها في مقاماته ، فكان الحريري أول من حاول وأفلح ، ففتن الناس ببهلوانياته ومعجزاته ولغوياته ونحوياته ... ثم أخذ الكتاب يطبعون على هذا الغرار البديعي الحريري نحواً من تسعة قرون ، سود السجع فيها وجوه الأوراق وغلّ أعناق الأقلام ، وما أزيح هذا الكابوس عن صدر الأدب العربي إلا في أخريات القرن التاسع عشر .

فالبديع كما يقول الحريري في مقدمة مقاماته « سباق غايات وصاحب آيات » ، وعندى أنه ليس لأستاذه ابن فارس في اصطناع المقامة يد ، فشيخنا الهمداني عبقرى من الطراز الأول ، ولو أنصف الذين قسموا ميراث الأساليب القديمة ، لما حرموا البديع هذه الإمامة ، بل كان هو رأس هذه الطبقة لا ابن العميد .

قال القدماء : « بدت الكتابة بعد الحميد وختمت بابن العميد » ، وأين ابن العميد من نابغتنا هذا ؟ ! أما تجاوز سلطان الهمداني الأدبي لسان العرب وتغلغل في الفارسية والسريانية والعبرانية ، فحاول جميع هؤلاء أن يقلدوه . ويكتبوا مقامات في تلك اللغات كما كتب . إن في إنشاء ابن العميد ترف القصور وأناقها ، ولكنه يكاد يكون معدوم الحرارة ، في حين ترى النار المتأججة في رسائل البديع ، قام يحمدها كره الدهور والعصور ، فمن يقرأ رسالته إلى ذلك الموظف المعزول ولا يحسب أنها كتبت أمس ؟ ! ثم من يطالع رسالته في ذم أبي بكر الخيري ولا يظن أنها كتبت أول من أمس ؟ !

أما خدع البديع تاريخ الأدب العربي تسعة قرون في قصيدة وصف بها قتال بشر بن عوانة للأسد حتى قال ابن الأثير الذي يدعى علم كل شيء ، في نقد قصيدتي البحترى والمتنبى في قتال الأسد : « ولفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر ، لأنه قصر عنه تقصيراً كثيراً » . وما بشر بن عوانة إلا البديع الذي خلق هذا البطل الأسطوري فيبلغ من القصة والقصص ما يعدّ أكبر أمنية يصبو إليها كبار القصصيين العالمين

اليوم . لى أن يخلقوا بطلا خالداً كأبطال شكسبير وموليير .
 فالبحرئى كما يفهم من فقد ابن الأثير مقصر عن البديع ، وإن كان
 البديع هو الذى انسحب على ذيل البحرئى
 نعم إن البديع وابن العميد والصاحب والحوارزى شعراء انصرفوا إلى النثر
 بل قل الشعر المنثور ، لأنهم لم يقدروا على مجازاة المتنبئ شاعر العصر بل
 شاعر جميع العصور الأدبية العربية ، ومثل هذا حدث ويحدث عند جميع
 الأمم ، فأكابر القصصيين هم شعراء قصروا عن نوابغ الشعراء ، فكانوا فى
 منثورهم أشعر منهم فى منظومهم ، وهذا ما أصاب كتاب القرن الرابع قبلهم ،
 قصروا عن أبى الطيب فراحوا يجلون شعره ويسرقون معانيه وبعض تعابيرها الخاصة
 كما قال صاحبنا البديع لأحدهم فى إحدى رسائله السامئة : « اسكت يا بعض
 الأنام . . . » أخذه من قول شاعر العرب الأعظم :

وصرتُ أشكُ فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام
 وإذا ابهر بديع الزمان وادعى فهو على حق ، بل هو سيد الموقف وأمير
 الكلام فى هذه الحقبة من تاريخ الأدب ، ولم يفقه الحريرى فى العبارة التى
 لا غبار عليها إلا لأنه نحوى لغوى وشاعر أيضاً ، أما الفن فى المقامات فبقى
 وظلّ وسوف يبقى للبديع .

البديع أديب طريف ، قصصى ملهم يريك بعيدات الشخصوس كما هى .
 أما الحريرى فعبارته صلبة منحوتة ، وفى مقاماته جفاف أسلوب العلماء والنحاة .
 فالعبقرية الفنية البعيدة عن التحكيك والتعمل إنما تجدها فى رسائل بديع الزمان
 ومقاماته . إن حلو الكلام ومره لهذا الرجل ، وإذا كان الجاحظ أحلّ النثر
 محل الشعر ، فأهدى والكتاب إلى الخلفاء والوزراء ، فها هو ذا البديع ينهج
 نهجه فتحلّ المقامة والرسالة محل القصيدة ويجاز عليهما ويعطى ، وإن كان
 بينهما مسافات شاسعة . فالجاحظ يتنفس من كير ولا يضيق صدره عن ميدان
 مهما كان طويل الأمد ، فى حين نرى البديع ضيق المنخرين والصدر قصير
 النفس .

ثم أليس سواء لدى الفن ، أربعمائة مقامة أملى الهمدانى أم خمسين ؟

فالمقامة المضيرية وبضع أخوات لها تغنى عن ألف ، وهي كافية لتحلّ صاحبها حيث حل . كان البديع واقعياً أكثر منه خيالياً ، وإن توكأ على عصا الاستعارات والتشاييه والكنايات ، وزين كلامه بالمجانسة والتلميحات والإشارات . إنه مادي لا يفلسف ولا يفكر بما وراء الطبيعة ، يتشيع للإثراء والوجاهة الأدبية ، كما يتضح من مناظرته لأبي بكر . رأى السيد أبا الحسين « يضرب عن الخوارزمي بسيفين لأمر كان قد موّه عليه » . فقال البديع : « أيها السيد ، إذا سار غيري في التشيع برجلين طرت بجنّاحين ، فإن كنت أبلغت غير الواجب ، فلا يحملنك على ترك الواجب . ثم إن لي في آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر . . . وللآخرة قلبها لا للحاضرة إلخ » .

والبديع يبتكر في الألفاظ أكثر من ابتكاره في المعاني ، ويعول على الكلام المستعمل لعلمه أنه أشد تأثيراً في النفوس ، وقلما ذكر آية أو حديثاً أو كلمة مأثورة بحروفها ، بل يكتفي بالإيماء إليها ثم يمضي ، ولذلك يصعب على القارئ العادي أن يدرك كل ما يعنى . وهو ليس ذلك القابض على خناق اللفظة ، فإذا جاءت على هينها كان ، وإلا فهو يضع محلها غيرها ، وإذا لم يجد عرب ، وأخذ من الشارع ولا بأس في ذلك عنده . ولعل هذا من أثر اللسان الفارسي فيه . فكم من ألفاظ ساسانية نجدناها عنده قاعدة مطمئنة لا تشكو فراقاً ولا غربة ، بل كأنها بين قومها وأهلها .

والبديع يدرك أن الحملة الطويلة ضعيفة الوقع ، ولذلك ترى جملة خفيفة وخصوصاً عندما ينبرى للهجاء ، بل قل للسب ، لأن هجاء صاحبنا سباً وشتاماً .

فهو عندي لم ينفرد في مقاماته أكثر من تفرّده في رسائله التي بلغ فيها ما لم يبلغه أكابر الشعراء الهجائين العرب . فهو يمجن ويمزح ، ويتهم ويكشف العورات ليكون له في كل عرس قرص ، ويرينا أنه ذلك القادر على القول في

كل غرض ومطلب . إنه في مجونه وهجائه مرّ موبع . هو فيهما أقرب إلى بشار منه إلى أبي نواس الخفيف الظل .

ولكن نفس البديع نفس فتان أصيل يعرف كيف يبتدىء وكيف ينهى ، وله كلمات مسكّنة ونهايات طريفة . كقوله في مقامه الرصافية : « وفتش الغلام البيت فلم يجد سوى البيت » .

وكقوله لبطله في ختام المقامة الإبلية : « يا أبا الفتح ، شحذت على إبليس ! إنك لشحاذا ! »

وكقوله بلسان الحمّامى الذى زجر بطل الهمداني : « اسكت يا فضولى » . إن هذا السخط على كل شيء هو الذى أنطق البديع بما نطق ، ولعل أخلاقه السرية أشبه بأخلاق بطله أبي الفتح . كان داهية مثله في فتح أبواب الرزق ، فالشعراء قبل البديع كانوا يصفون الناقة ليبالغوا في وصف مشقات السفر ، ويكبروا مصائبهم في عين الممدوح ليكبر الجائزة ، أما صاحبنا الهمداني فكبطل مقاماته يدعى أن داهية نزلت به قبل بلوغه « الحضرة » ؛ تارة يزعم أن العرب قطعوا عليه الطريق وشلتحوه ، « وورد نيسابور براحة أنتى من الراحة ، وكيس أخلى من جوف حمار ، وزى أوحش من طلعة المعلم » ؛ وطوراً يتهم بذلك الأتراك كما سترى في رسائله .

وقد يتساءل القارىء إن كان البديع سيد القلم فلماذا لم يستوزر ؟ ! أما الجواب عن هذا فأظن أن أنانيته وعجرفته ، ولسانه الطويل ، وحرصه بل شحه وتكالبه على المال قد حالت دون بقائه في القصور . وإنا نحمد الله على هذا ، فلو استقر البديع ورضى لما خرج من رأسه ما خرج من رسائل هجاء تعد آيات من آيات سحر الكلام .

الفصل الرابع

مِنتخبات من آثار بديع الزمان

١ - الرسائل

١- من رسائله المدحية

سيوف الحق

كتب إلى الشيخ أبي العباس الفضل بن أحمد الإسفرائيني
وزير محمود بن سبكتكين عندما فتح بهاضية في الهند

إن الله وهو العليّ العظيم المعطى ما شاء ، منّ على الإنسان بهذا اللسان ،
خلق ابن آدم وأودع فكّيه مضغّة لحم يصرفها في القرون الماضية ، ويخبر بها عن
الأمم الآتية ، يخبر بها عما كان بعد ما خلّق ، وعما يكون قبل أن يُخلّق ،
ينطق بالتواريخ عما وقع من خطب ، وجرى من حرب ، وكان من يابس
ورطب ، وينطق بالوحي عما سيكون بعد ، وصدق عن الله بالوعد ، ولم ينطق
التاريخ بما كان ولا الوحي بما يكون بأن الله تعالى خصّ أحداً من عباده ، ليس
بالتبيين ، بما خصّ به الأمير السيد يمين الدولة ، وأمين الملة ، ودون الجاحد إن
جحد أخبار الدولة العباسية ، والمدّة المروانية ، والسنين الحربية ، والبيعة الهاشمية ،
والأيام الأموية ، والإمارة العدوية ، والخلافة التيمية ، وعهد الرسالة ، وزمان
الفترة . ولولا الإطالة لعددنا إلى عاد وثمود بطناً بطناً ، وإلى نوح وآدم قرناً
قرناً . ثم لم يجد قائل مقالاً أن ملكاً وإن علا أمره ، وعظم قدره ، وكبر

سلطانه ، وهبت ريحه ، طرق الهند فأسر طاغيتها بسطة ملك ثم خلاه ، وعرض الأرض قوة قلب وصبح سجستان وهي المدينة العذراء ، والحطة العوراء ، والطية الغراء ، فأخذ ملكها إخذة عزّ وعنف ، ثم خلاه تخلية فضل ولطف ، ثم لم يلبث أن خاض البحر إلى بهاضية والسييل والليل جنودها ، والشوك والشجر سلاحها ، والضحّ (١) والريح طريقها ، والبر والبحر حصارها ، والخنّ والإنس أنصارها ، فقتل رجالها ، وغنم أموالها ، وساق أقيالها (٢) ، وكسر أصنامها ، وهدم أعلامها ، كل ذلك في فسحة شتوة قبل أن يتطرقها الصيف ، توسطها السيف ، وهو الله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء .

ثم حكمت علماء الأمة ، واتفق قول الأئمة أن سيوف الحق أربعة وسائرهما للنار ، سيف رسول الله في المشركين ، وسيف أبي بكر في المرتدين ، وسيف عليّ في الباغين ، وسيف القصاص في المشركين ، وسيف الأمير ، وفقه الله ، في مواقفه لا تخرج عن هذه الأقسام ، سيفه بظاهر هراة فيمن عطل الحدّ واتهم بأنه ارتدّ ، وسيفه بظاهر غزنة سدّ في وجه العقوق ، نوعاً من الكفر والفسوق ، وسيفه بظاهر سجستان في من نبه الحرب بعد رقودها ، وخلع الطاعة بعد قبولها . وسيفه الآن في ديار الهند سيف قرنت به الفتوح ، وأثنت عليه الملائكة والروح ، وذلت الأصنام ، وعزّ به الإسلام ، والنبي عليه السلام ، واختصّ بفضله الإمام ، واشترك في خيره الأنام ، وأرخت بذكره الأيام ، وأحفيت بشرحه الأقلام .

وسنذكر من حديث الهند وبلادها ، وغلظ أكبادها ، وشدة أحقادها ، وقوة اعتقادها ، وصدق جلالها ، وكثرة أجنادها نُبذاً ليعلم السامع أي غزوة غزاها الأمير السيد . إنها بلاد لو لم تُحيتها السحاب بدراً ، لأهلكتها الشمس

(١) الشمس

(٢) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس والملك من ملوك حير

بجرّها ، فهي دولة بين الماء والنار ، ونوبة^(١) بين الشمس والأمطار ، تقدّمها صعاب الجبال وتحجبها رحاب القفار ، ويعصمها ملتف الغياض^(٢) ، وتحفها طواغى الأنهار ، حتى إذا خُرقت هذه الحجب خُلِص إلى عدد الرمل والحصى رجالاتاً ، وشبه الجبال أفيالاً ، وأنزاع المخاض جلاداً ، ومسناف الجمال طعاناً ، وأركان الجبال ثباتاً ، ثم لا يعرفون غدراً ولا بياتاً ، ولا يخافون موتاً ولا حياة ، ولا يباليون على أى جنبه وقع الأمر ، وينامون وتحتهم الجمر ، وربما عمد أحدهم لغير ضرورة داعية ، ولا حمية باعثة ، فاتخذ لرأسه من الطين إكليلاً ، ثم قور قحفه^(٣) فحشاه فتيلاً ، ثم أضرم فى الفتيل ناراً ولم يتأوه ، والنار تحطمه عضواً فعضواً ، وتأكله جزءاً فجزءاً . فأما محرق نفسه ومفرقها ، وآكل لحمه ، ومفصل عظمه ، والراى بها من شاهق ، فأكثر من أن يعدّ ، وأقلهم من يموت حتف أنفه ، فإذا مات هذه الميتة أحدهم سُبَّ بها أعقابه ، وعظم عندهم عقابه .

بلادٌ هذه حالها ، وفيلة تلك أهوالها ، وجبالٌ فى السماء قِلالها^(٤) ، وفلاةٌ يلمع آلهما ، وغياضٌ ضيقٌ مجالها ، وأنهارٌ كثيرةٌ أوحالها ، وطريقٌ طويلٌ مطالها ، ثم الهند ورجالها ، والهندوانية واستعمالها . زحم الأمير السيد ، أدام الله ظله ، هذه الأهوال بمنكبه محتسباً نفسه ، معتمداً نصر الله وعونه ، فركض إليهم بعون من الله لا يُخذل ، ومدد من التوفيق لا يفتر ، وقلب من الأهوال لا يجبن ، وحث على المطلوب لا يقصر ، وسيف على الضريبة لا ينكل ، فسهل الله له الصعب ، وكشف به الخطب ، ورجع ثانياً من عنانه بالأسارى

(١) دولة .

(٢) الغياض : جمع غيضة وهي مجتمع الشجر فى مفيض الماء .

(٣) قور الشيء : قطعه من وسطه خرقاً مستديراً . والقحف : ما انفلق من الجسمة

فانفصل . أو إناء مثل قحف الرأس كأنه نصف قلع .

(٤) القلال : جمع قلة وهي أعلى الجبل .

تنظمهم الأغلال ، والسبايا تنقلهم الجمال ، والفيلة كأنها الجبال ، والأموال
ولا الرمال .

فتح ذخره الله عن الملوك السالفة الحالية ، الكفة الطاغية ، الجبارة العاتية ،
حتى اسمه بناره ، وجعله بعض آثاره ، والحمد لله معز الدين وأهله ، ومذل
الشرك وحزبه ، وصلى الله على محمد وآله .

الأب والابن

وكتب إلى الشيخ الإمام أبي الطيب سهل مادحاً خلف
ابن أحمد ومؤرخاً ما وقع له مع ابنه حين ثار عليه .

ولمّا وقع بخراسان ما وقع من حرب ، وجرى ما جرى من خطب ،
واضطربت الأمور ، واختلفت السيوف ، والتقت الجموع ، وظفر من ظفر ،
وخسر من خسر ، كتبني الله في الأعلى مقاماً ، ثم ألهمني من الامتداد ،
عن تلك البلاد ، والإقلاع عن تلك البقاع . واعترضتنا في الطريق الأتراك ،
وأحسن الله الدفاع عن خير الأعلاق^(١) وهو الرأس ، بما دون الأعراض وهو
اللباس ، فلم نجزع لمرض الحال ، مع سلامة النفوس ، ولم نحزن لذّهاب
المال ، مع بقاء الرؤوس . وسرنا حتى وردنا عرصة^(٢) العدل ، وساحة الفضل ،
ومربع الحمد ، ومشعر^(٣) المجيد ، ومطلع الجود ومترع الأصل ، ومشعر الدين
ومفرع الشكر ، ومصرع الفقر ، « حضرة » الملك العادل أبي أحمد خلف بن
أحمد ، فكان ما أضعناه ، كأننا زرعتاه ، فأثبت سبع سنابل . وكان ما فقدناه ،

(١) الأعلاق : الأشياء النفيسة .

(٢) العرصة : الساحة .

(٣) المشعر : المورد .

كأننا أقرضناه ، هذا الملك العادل ، وكأنما سمى خلفاً ، ليكون عن كل فائت خلفاً ، وعن كل ما مضى عوضاً ، وكأنما جئناه ليضيّق علينا العالم ، ويغض إلينا بني آدم ، فيجعل حبسنا سجستان وقيدنا الإحسان . وكأنما خلق للدنيا تحجيلاً^(١) ، وللملوك تخجيلاً ، وكان هذا العالم قد أحسن عملاً ، فجُعِل هذا الملك ثوابه ، وكأنّ هذا الملك قد أذنب مثلاً فجُعِل هذا العالم عقابه . وكأنه جسم والعرض عفاة^(٢) ، وكأنه ذاته ، والمكارم صفاته . فهو البحر يمشى على رجلين ، والمجد يتصور في العين ، والعدل يتقسم ، والجود يتجسم ، والنجم يتكلم . فلما التقينا فرشت الأرض بيدي فرشاً ، ونقشت التراب بفضي نقشاً ، وخطا إلى خطوات كادت الأرض لا تسعها ، وكادت الملائكة ترفعها ، ثم إنه زيف بليقاي وفود الكلام ، كما زيفت بليقاه ملوك الأنام ، وأفسدني على الناس ، من جميع الأجناس ، فما أرضى غيره أحداً ، ولا أجد مثله أبداً ، وإن طلبت ملكاً في أخلاقه ، ميتٌ ولم ألقه ، أو كريماً في جوده ، عدمت قبل وجوده . فحرس الله سلطانه من ملك وسع أرزاق ، فضيقت أخلاق ، وأغلى ثمني فما يشتريني أحد ، وعظم أمرى فما يسعني بلد ، وهذا وصف إن أطلته طال ، ونشر الأذيال ، واستغرق القرطاس بل الأنفاس ، واستنفد الأعمار ، بل الأعصار ولم يبلغ المعشار ، وأفنى الأقلام ، بل الكلام ، ولم يبلغ التمام .

ما ظنُّ الشيخ بملك شهدت له الفراسة رضيعاً ، بأن لا يكون رضيعاً ، والمحافل فطيماً ، بأن يكون سمحاً كريماً . والشواهد صبيهاً ، بأن يتزل مكاناً علياً . والشماثل غلاماً ، أن يكون ملكاً هاماً . فلما أيفع^(٣) وارتفع ، طالبته

(١) التحجيل : بياض في قوائم الفرس .

(٢) العفاة : جمع عاف وهو الفقير .

(٣) أيفع : بلغ حد الشباب .

الهمة العليا برفض الدنيا ، حتى يؤدّي فرض الله في الحج ، فقام عن سرير الملك إلى سبيل النسك ، فحجّ البيت ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه ، ومباحه ومحظوره ومتن الحديث وصدره .

وكان استخلف على رعيته بعض خدمه وأوصى بهم كبيراً ، لا يظلمهم نقيراً^(١) فبسط ذلك العامل يده في المظالم يحتقبها^(٢) ، والمحارم يرتكبها ، فكرّ عليهم كرهة القمر ، ورجع إليهم رجعة المطر ، فحاربته وقهره ، ومحا الله أثره . ثم حملت له الأعداء العصى ، وحنّت إليه القسي ، والله من ورائه ، يكلّؤه^(٣) من أعدائه ، فما مرّ يوم من تلك السنين إلا نقصهم وازداد . فكم ركن هدم ، وجيش هزم ، وكيد عدم . فلما أقاموا طويلاً ، ولم يعتوا فتبلاً ، لم يكن أكثر من أن جاؤوه أمراء ، فعادوا فقراء ، ولبثوا أسراء ، ورجعوا صاغرين ، وانقلبوا خاسرين . وتبعهم كيد النافذ ، ومكره الآخذ ، يقفو آثارهم ، ويكسع أدبارهم ، واشتملت جريدة ما لقي من الحروب ، مع أبناء الذنوب ، وأولاد الدروب ، على بضعة عشر حرباً أخفها مع بضعة عشر ألف رجل ، وكتب الله له في جميعها النصر ، عادة في ملك صحب الدهر ، فلم يشرب الخمر ، ولم يسمع الزمر ، ولم يعرف النقر ، ولم يلعب القمّر^(٤) . تشحن دور الملوك بالمعازف ، وداره بالمصاحف ، وتأنس مجالسهم بالقيان ، ومجلسه بالقرآن ، ويألف أبوابهم حملة الظلم ، وبابه حملة العلم . وتعبث أيديهم بالعود ، ويده بالعود ، وتلعب أناملهم بالزمار ، وأنامله بالدقاتر ، يدخرون الدراهم ، ويدخرون المكارم ، ويقتنون الجواهر ، ويقتني المآثر ، ويعدون نقيس الأخلاق ، ويعدون نقيس الأخلاق ، وكثيراً ما ينشدني :

(١) النقير : الحفرة الصغيرة في ظهر النواة .

(٢) احتقب الإثم : جمعه .

(٣) يكلّؤه : يرباه .

(٤) القمّر : المراهنة واللعب في القمار .

فهنّ إذا جمعتهنّ. دراهمٌ ومنّ إذا فرقتهنّ مكارمٌ

ألمّ بهذه السدّة ، في هذه المدة فلان فرجع بثلاثين ألف دينار ، وقد نزلت بهذا المقام ، في هذه الأيام ، فاختلفت بين الخيل والخوّل (١) ، ومجلسي بين الحلّي والحلّل ، وسيأتيه العم بتفصيل ما أجملت .

ثم إن لهذا الملك عند الله تعالى دعاءً مستجاباً يصعد بلا حجاب ، واعتبر ذلك في خطب وقع في هذه السنة فكشفه الله بدعائه ، وردّ الكيد في نحر أعدائه . وكان بعض أولاده - كرمهم الله تعالى - يشرب في السرّ شرب المصّر ، فبلغه الخبر فقطبه ، على من اختصّه ، وذهبت النفرة طولا وعرضاً ، وجرّ الحديد بعضه بعضاً ، وأفضى إلى اسمالة قلوب العسكر ، لركوب المنكر ، من إظهار العصيان والعقوق ، برفع المنجنوق (٢) وضرب البوق ، وظابقه على ذلك جملة من الجنود ليسعوا في الظلم ، فلا يؤخذوا بالجرم ، وينسلوا عن لحام الشرع ، ويأمنوا عليه ألم الرّدع ، ودبّ الشيطان بينهم ودرج ، وأولج هذا الابن وخرج ، وأتبعه الملك العادل بأكثر حجّابه وزعماء بابه ، ونفر من غلمانته ليردّه إلى مكانه ، فلما بلغوا معسكره صاروا معه يداً واحدة ، وقدماً قاصدة ، وأظهروا شعار الدولة والعصيان على وليهم وولي نعمهم ، ومالك لحمهم ودمهم ، واتصل الخبر فكادت العقول تطير والقلوب تطيش ولم يؤمن من الحاضرين أن يكونوا مع الغائبين ، ومن المقيمين أن يكونوا كالدّاهيين . فلما جنّ الليل أردفهم بجماعة من الأعراب ، وقام إلى المحراب ، يستنجد الله تعالى على ولده ، ويسأله أن يجعله في يده ، فلما التقت الفئتان أوحى الله تعالى إلى الرّعب أن يدهشه وإلى الرمل أن يوحشه ، فقهر ذلك الجمع وقسر ، وقصّ جناحه وكسر ، وأفلت الكل وأسر ، ولجأ من أفلت إلى ابن سمجور وحارب في عسكره ، فلما التقى

(١) الخوّل : العبيد والإماء .

(٢) لعله المنجنيق : آلة عربية ترمى بها الحجارة .

الجمعان بباب هراة وفي عسكره الحاجب النادب ، وزعيم بابه الذهاب ، أوحى الله تعالى إلى فرسيهما فوقفا ، فأسر كل واحد منهما وحده ، وأسر من كان معهما بعده ، فكُيِّبُوا في الحديد وردوا إلى مولاهم ، فلما مثل الحاجب بين يديه قال : كيف رأيت الله يا ظالم نفسه ! ألم أشركك وحيداً ، ألم أربك وليداً ، ألم أغنك فقيراً ، ألم أرفعك حقيراً ، ألم تهرب مستجيراً ، ألم تكن للظالمين نصيراً ، ألم تأتني أسيراً ، أأست به جديراً ، أأست عليه قديراً ؟! فما أجاب بأفصح من السكوت ، فلما سمع الملك العادل صليل الحديد في رجليه ، بعد وسواس المنطقة عليه ، رثى لشقوته ، فعفا عن قدرته ، وتلك عادته فيمن خصه بجرم ، ولا يعفو عن مستوجب حداً ، ولو عزَّ جديراً ، ثم إنه أطلق عن ولده وحبس من كان يسعى في الدولة بفساد .

وذكر الشيخ أبو فلان أن أبا فلان زاد على خراجه توابع ونوافل وضعف عليه مؤناً ولواحق ، وأمرني أن أكتبه ليرفع من الزيادة ما أثبت ، ويحصد من النكاية ما أنبت ، فقلت : اللهم غفراً كيف يحتمني ، وهل يوقر فضلي ، من لا يوقر أصلي ! وكيف أكتب سلطاناً لا يعلم أن الدرهم يؤخذ من مالي خبيث الأحدثوة قليل المغوثة . إن رأى الشيخ أن يُعفيني من مكاتبته .

وهلم إلى ملك وجد خراجين لم تزل الملوك من أسلافه يستأدونها ويسمون الأول أصيلاً ويتأولون في الثاني تأويلاً ، ويسمّون أحدهما فرضاً ، والآخر قرضاً ، فعمد إلى الخراج الأول فتحيفه^(١) ، وإلى الآخر فحذفه . فأما أبو فلان فإن استصوب الشيخ أن يعرض عليه الفصل من كتابي عرض ، ولا يستوحش من خشونة الأقوال ، فهي من خشونة الأفعال من جهته ، فإن جاز لنا أن نقول ، ثم إن استأنف الحسني عرفني لأحسن الخطاب ، وأعرف ما خبث مما طاب ، ويتوب الله على من تاب .

(١) تحيف الشيء : تنقصه وأخذ من جوانبه

استعطاف

وكتب إلى أبي بكر الخوارزمي :

أنا لقرب الأستاذ ، أطال الله بقاءه ، كما طرب النشوان مالت به الخمر ،
ومن الارتياح للقائه ، كما انتفض العصفور بقله القطر ، ومن الامتراج بولائه ،
كما التقت الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمرآه ، كما اهترت تحت
البارح الغصن الرطب . فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين
قصبتي العراق وخراسان . بل ما بين عتبي نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهترزه
اضيف في بردة جمال . وجلدة حمال :

رث الشائيل منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب

وهو أيده الله ولي أنعامه بإنقاذ غلامه إلى مستقرتي ، لأفضي إليه بسرّي ،
إن شاء الله تعالى .

ب - من رسائل العتاب والاعتذار

زهد واعتذار

وكتب إلى الأمير أبي أحمد خلف بن أحمد معاتباً ومدلاً :

كتابي ، أطال الله بقاءك ، وقد كنت نذرت ألا أخاطب حضرتك ، ثم
روى لي القاضي حديثاً طرق إلى نقض ما نذرت طريقتاً ، وسمعت منشداً ينشد :

لحي الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً

فقلت أنا معنى هذا البيت ، لأنى قاعد فى البيت ، آكل طيب الطعام ،
 وألبس ليين الثياب ، ويُفاض على نزل^(١) ، ولا يُفوض إلى شغل ، ويملا
 لى وطب^(٢) ، ولا يدفع بى خطب ، وهذا والله عيش العجائز ، والزمن العاجز ،
 وكنت أيام مقام الأمير أرى المسافة بين الرتب قريبة ، وأجدنى أولاً كالثانى
 وثانياً كالأول ، وأرى الآن ترتيباً جديداً ، وتفاوتاً بعيداً ، وكنت أحسبى
 متأخراً إذا شاء تقدم ، ومتواضعاً لو أراد تعظم ، ومسوداً لو زاحم من ساد ،
 لملك الوساد . وأرانى الآن مُحوجاً إلى التأخر ، مُلتجأ إلى التصغر ، ولعل جرمماً
 تصور ، أو رأياً تغير ، أو اعتقاداً أخلف ، أو ظناً اختلف ، فإن لم يكن
 شىء مما سردت وأوردت ، فالغلط فى صدر القصة كان ، وفى عجزها بان ،
 وإن كان كذا فبالله ما أرضى ، ولو صارت السماء أرضاً ، ولا أريد ، ولو انقطع
 الوريد^(٣) . وإنى لأستحي من الله أن أرى لى المثل الأدنى فى القوس منزع
 أنا ، وإن لم أكن بالعراق أمير البصرة ، وبيخارى زعيم الحضرة ، فاعجبنى
 عن همدان فقر إلى جوع وعرى ، ولا ساقى إلى سجستان طمع فى شبع
 ورى ، وإنما نحوم حول المراد :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال

لا يكثر الأمير على من خلعه وصيلاته^(٤) ، فوالله لو علمت أن قصارى
 أمرى سجستان أليها^(٥) ، وضياعها أقينتها ، وغلمانها أشرىها ، وأموالها أتسع
 فيها ، ولا مطمع فى زيادة بعد ، لآثرت الزهد على الطلب . الرأس ، أبد الله

(١) ما يعد للضيف .

(٢) رق .

(٣) الوريد : عرق فى المتق .

(٤) الصلات : جمع صلة وهى العطية .

(٥) أليها : أكون والياً عليها .

الأمير ، كثير الخبوط والضيف كثير التخليط ، وصب هذا الماء خير من شربه ، وبعُد هذا الضيف أولى من قربه .

وكأني بالأمير يقول ، إذا قرئت هذه الفصول : الحمداني رأى بهذه الحضرة من الإنعام ، ما لم يره في المنام ، فكيف من الأنام ، ولعله أنشأ هذا الكتاب سكران ، فعدل به عادل السكر عن طريق السكر ، وكأنه نسي مورده ، الذي أشبه مولده ، وإنما رفع لحنه ، حين أشبع بطنه ، واللثيم إذا جاع ابتغى ، وإذا شبع طغى ، والحمداني لو ترك بجلدته ، يرقص تحت رعدته ، ما تربح في قعدته ، ولا تجشأ من معدته . ولكنه حين لبس الحلة ، وركب البغلة ، وملك الخيل والحول تمنى الدول ، ورأس اللثيم يحتمل الوهن ، ولا يحتمل الدهن ، وظهر الشقى يحمل عدلتين من الفحم ، ولا يحمل رطلين من الشحم ، ولولا الشعر ما نهقت الحمير ، ولو لم يتسع محاله ، لم يتسع محاله ، وكذا الكلب يزمن حين يسمن ، ولا يتبع حين يشبع ، وعند الجوع بهم بالرجوع ، وهذا المقترح (١) من دعاه ! ولو لم يكن عقيباً ما تدحرج .

ذكرت هذه الكلمات ليعلم الأمير أني لم أنسها ، ومع تصور هذه الجملة أثار على لحظاته ، وأواخذ الأمير بحركاته وسكناته ، وأرى أنه سعاد مني بأكثر مما سعدت منه . وآنف أن يقال سماه الحمداني حيث سماه سواه ، ويقاس على هذا ما عداه ، اللهم إلا أن أكون ضيفاً كالأضياف يقيم اليوم ويرحل غداً ، فلا أنافس أحداً . والأمير ، أيده الله ، يأخذ هذا المعنى فيكسره لفظاً ليتن المأخذ ، سهل المقطع ، ويرقيه إلى سمعه ويوجب عبده في الحال بما عنده ، والسلام .

(١) الطالب بتحكم .

الأدب والذهب

وكتب رقعة إلى مستمع عاوده مراراً :

عافاك الله ، مثَّلُ الإنسان ، في الإحسان ، مثَّلُ الأشجار ، في الإثمار ، سبيل من أتى بالحسنة . أن يرفه إلى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدي ، وهما فؤادي ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالوفود ، وأما اليد فتولع بالحدود ، ولكن هذا الخلق النفيس ، لا يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يحتمله الغريم ، ولا قرابة بين الأدب والذهب ، قلما جمعت بينهما . والأدب لا يمكن ثَرْدُهُ^(١) في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، ولي مع الأدب نادرة .

جهدت في هذه الأيام بالطبّاخ ، أن يطبخ من جيميّة الشماخ^(٢) ، لونا فلم يفعل ، وبالقصّاب ، أن يسمع أدب الكتاب ، فلم يقبل ، واحتج في البيت إلى شيء من الزيت فأنشدت شيئاً من شعر الكميّ ألفاً ومثني بيت فلم يُغْنِ . ولو وقعت أرجوزة العجاج ، في توابل السكباج ، ما عدمتها عندي ، ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ ! فإن كنت تحسب اختلافك إلى ، إفضالا على ، فراحتي ، ألا تطرق ساحتي ، وفرجي ، ألا تجي ، والسلام .

ملاحظة

وله يعاتب بعض أصدقائه على التعييس وعدم البشاشة :

الوحشة ، أطال الله بقاء الشيخ ، تقتدح في الصدر اقتداح النار في الزند ، فإن أطفئت بارت وتلاشت ، وإن عاشت طارت وطاشت ، والقطر إذا تدارك

(١) ثرده : أعده ثريداً وهو الخبز المفتوت الملتوت بالمرق .

(٢) الشماخ والكميت والمعجاج شعراء مشهورون .

على الإناء امتلاً وفاض ، والعت إذا ترك فرّخ وباض ، ونحن أولو هذه الصنعة
لا يطردها سوطٌ كالجفاء ، ولا يعقلنا شركٌ كالنداء ، ثم على كل حال ، ننظر
من عال ، على الكريم نظرَ إدلال ، وعلى اللئيم نظرَ إذلال ، فمن لقينا بأنفٍ
طويل ، لقيناه بخرطومٍ فيل ، ومن لحظنا بنظرٍ شزر ، بعناه بثمرٍ نزر ،
وعندى أن الشيخ الرئيس لم يفرسني ليقطعني فتاه ، ولا اشتراني لبيعي سواه .

ويحك ! سلمت عليه الغداة فردّ جواباً يردّ مثله على الوكلاء ، بشرط
الإيماء ، واقتصر من البشاشة ، على تحريك الشاشة ، ومن الإقبال ، على
تعويج السبال ، وعهدى بذلك الرئيس يخرق إلى بساطه عمدواً ، وساطه
حببواً ، فهذا الفاضل أجلُّ من والده الفقيه ، أيده الله ، يوصيه بحسن العشرة
معي من بعد ، فالتتية يوم ، وللجبروت قوم ، وما أريد بعد هذا الإعتاب
إعتاباً ، ولا عن هذه الرقعة جواباً ، فإنى لا أمكنه بعدها من أن يستهين ،
ولا أسلم عليه حتى يهين ، والحمد لله رب العالمين .

تثقيف وتقويم

وكتب إلى الشيخ أبي عبد الله الحسين بن يحيى (١) :

كتابي ، أطال الله بقاء الشيخ ، وللشيخ لذةٌ في السبِّ والعتب ، وطبيعةٌ
في العنف والعسف ، فإذا أعوزه من يغضب عليه ، فأنا بين يديه ، وإذا لم يجد
من يصونه فأنا زبونه ، والولدُ عبدٌ ليست له قيمة ، والظفر به غنيمة ، والوالد
مولى أحسن أم أساء ، فليفعل ما شاء ، لا يعدمه الله منى جسداً لا يتألم بالضرب ،
وقلباً لا يتظلم من العتب ، هنيئاً (له) ما استحل من عِرْضِي وأكل من لحمي ،
فما يأكل إلا لحمه ، ولا يضميم إلا بعضه .

(١) يبسط في هذه آراء في التعلم والتعليم .

وكأني به وقد استجدت إخواناً ولا بأس ، فإن كانت للجديد لذة فللقديم
حرمة ، والأخوة برودة لا تضيق عن اثنين ، ولو شاء لعاشرنا في البيئتين .
وكان سألتني أن أروى له منزلاً ماؤه روي ، ومرعاه غدي ، وأكاتبه لينهض إليه
راحلته ، فهناك نيسابور ضالته التي نشدتها ، وقد وجدتها ، وخراسان منيئته
التي طلبتها ، وقد أصبتها ، وهذه الدولة بغيته التي أردتها ، فقد وردتها ، فإن
صدقني رائداً ، فليأتني قاصداً ، وإن رضيتني مشيراً فليجئني سريعاً ، وهيهات
أن يترك أروند وهضابها ، وترمد وشعابها ، وماوسا ورياضها ، فيعتاض عنها
كرم العهد ، ولو علم أن رياض الأخوة أنضر ، وشعاب المروءة أطيب ، وأنه
لا يعدم من نيسابور مثل تلك المترهات ، وخيراً من تلك المتوجهات ، لحث
إليها ركابه .

وأما أنا وأخباري بهذه الناحية ، فتقلب في ثوب العافية ، موفر بهذه الحضرة ،
مرموق بعين القبول ، هذه جملة حالي ووراءها تفصيل ، منها عليه دليل .

وأما الأخ أبو سعيد ، جعلني الله فداه ، ورزقني لقاءه ، فقد شكرت
بره ، ولولا إشفاق من ضعف تركيبه ، ولطف ترتيبه ، وعلمي أنه لا يحتمل
وعناء السفر لسألت الشيخ إهداءه إلى لأتولى تعليمه وتقويمه ، لكنه رطب العظام ،
لطيف الأركان ، لا أنخاطر بإنهاضه من ذلك المكان ، حتى يعقد محته في عظامه ،
وأتق بقوة الواحه . وبلغني أنه ابتداءً مجمل اللغة فأين بلغ منه ؟ والشيخ لا يحمل
عليه بعويص اللغة حتى يعلم سهلها ، ولا يأخذ بما أحننتني به ، فالعمر لا يتسع
للعلوم أجمع فلينفق على أحسنها ، ويكفيه من اللغة علم مستحسنها ، دون
مستهجنها ، ومن الإعراب معرفة أصوله ، وما لا غناء به عنه من فروعه ، ثم
يأخذ به علوم كتاب الله تعالى حتى يرد على قررة عين لي ولك ، وصلى الله على
محمد وآله .

فاقة وخصاصة

وكتب هذه الرسالة اعتذاراً :

كتابى وقد توسطت الشباب وتطرفت الشيب ، وقبضت من إثر الزمان ،
ونظرت فى عقب الأمور ، وطرت مع الملوك ، ووقعت مع الخطوب :

ورافقتُها والحنُّ تنهى وتأمُرُ فقارقتُها والموتُ خزبانُ ينظرُ

وعددت من سنَى خمساً وعشرين ، وما عددت أشهرها ، حتى حلبت
أشطرها^(١) ، ولا سلمت رستها^(٢) ، حتى استوفيت ثمنها ، وأنا بما منح الله
الأستاذ كلَّ يوم من مزيد منتظم الأمور ، موفور السرور ، والحمد لله حق
حمده ، والصلاة على رسوله محمد عبده .

وقولُ الأستاذ نعمةً لو صادفتُ أرضاً ، وصنيعةً لو أصابت موضعاً ،
فكأننى به يقول : هذا الكافر للنعمة طوانا حين نشرناه ، وجفانا حين برزناه ،
وغاب سنين فلا كتابَ شكرٍ كتب ، ولا قصيدة مدحٍ نظم ، ولا يوماً من
أيامى ذكر ، ولا يداً من أيادى نشر . وإن فعلت فلائى خراسانى ، وأعزَّ موجودٍ
فى الخراسانية ، الإنسانية . ولو رأنى الأستاذ وأنا فى قميص بأذنين ، وقباء^(٣)
ضيق الرُدْنَيْنِ^(٤) ، وعمامة كقبّة الحجّاج ، وخفّ فاسد المزاج ، أعلاه
جراب ، وأسفله خراب على برذون^(٥) عبدى التقطيع ، يرقص كالرضيع ،
لعلم كيف تجرى الفرسان وكيف يمسخ الإنسان .

(١) يقال : حلب أشطر الدعر أى جربه وعرف خيره وشره .

(٢) الرسن : المقود .

(٣) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٤) الرذن : أصل الكم أو طرفه الواسع .

(٥) البرذون : دابة الحمل الثقيلة .

وقد علم الله أنى فارقت تلك الحضرة مفارقة أيينا الجنة ، ولكن الحر لا
يجنح إلى القيامة ، على الدعامة بالهامه ، إذا وجد وجهاً خصيباً ، ومرعى رطيباً .
والله لقد رأيت يدي تجت أفواه الأمراء والوزراء ، وقد نظرت بمنة ، فلم أر إلا
محنة ، وعطفت يسرة ، فلم أر إلا حسرة :

فإن متُّ لم أهلك وفي النفس حاجة وفي العمر إلا قد قضيت قضاءها

لا شماتة

جواب إلى من كتب إليه يهته بمرض خصه أبو بكر الخوارزمي :

الحرّ ، أطال الله بقاءك ، ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ، ووصف
أحواله صفتي ، إذا نظر علم أن نعيم الدهر ما دامت معلومة فهي أمانى ، فإن
وجدت فهي عواري ، وإن مَحَنَ الزمان وإن مطلت فستنفد ، وإن لم تُصِبْ
فكأن قد ، فكيف يشمت بالحنّة من لا يأمنها في نفسه ، ولا يعلمها في جنسه ،
والشامت إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت ، وما أقبح الشماتة :
بمن أمين الإماتة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظه ،
والدهر غرثان^(١) طعمه الخيار^(٢) ، وظمان شربه الأحرار ، فهل يشمت المرء
بأنياب آكله ، أم يُسَرَّ العاقل بسلاح قاتله ؟ ! . وهذا الفاضل ، شفاه الله ،
وإن ظاهر بالعداوة قليلا ، فقد باطناه ودّاً جميلاً ، والحر عند الحميّة لا
يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور
حالي إلا بصورتها من التوجع لعلته ، والتحرّز لمرضته ، وقاه الله المكروه ، ووقاني
سماع السوء فيه ، بحوله ولطفه .

(١) غرثان : جوعان .

(٢) الخيار : جمع خير وهو الكريم .

ج - من رسائل القلم والدم

قاضي السوء

وكتب إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد يشكو أبا بكر الهجري :

الظلامَةُ ، أطل الله بقاء القاضي ، إذا أتت من مجلس القضاء لم تترق
إلا إلى سيد القضاة ، وما كنت لأقصر سيادته على الحكام ، دون جميع الأنام ،
لولا اتصالم بسببه ، واتسامهم بلقبه ، وهم القضاة اتسموا باسمه ، متطفلين
على قسمته . ألم أديم في الصحة كأديمه ، أو قديم في الشرف كقديمه ،
أو حديث في الكرم كطريفه ؟ فهنيئاً لهم الأسماء وله المعاني ، ولا زالت لهم
الظواهر وله الجواهر ، ولا غرروا إن سمو قضاة فما كل مائع ماء ولا كل سقف
سما ، ولا كل سيرة عدل العُمَرين^(١) ، ولا كل قاضٍ قاضي الحرمين ،
ويا لثارات القضاء ! ما أرخص ما بيع ، وأسرع ما أضيع ، وألبسته الأندال
قبل خلو الديار وموت الخيار ، ألا يغارون لخلي الحسناء ، على السوداء ، ومركب
أولى السياسة تحت الساسة ، ومترل الأنبياء من تصدّر الأغبياء ، وحمى البراة
من صيد البغاث ، ومربع الذكور من تسلط الإناث ، ويا للرجال وأبن الرجال ؟
وُلّي القضاء من لا يملك من آلاته غير المبال ، ولا يعرف من أدواته
غير الاختزال ، ولا يتوجه من أحكامه إلا في الاستحلال ، ولا يرى التفرقة إلا
في العيال ، ولا يحسن من الفقه غير جمع المال ، ولم يتقن من الفرائض إلا قلة
الاحتفال وكثرة الافتعال ، ولم يدرس من أبواب الجدل إلا قبح الفعال وزور
المقال . ذاك أبو فلان الفلاني أضاعه الله كما أضاع أمانته ، وخان خزائنه ،
ولا حاطه من قاضٍ في صولة جندي وسبلة كردي ، فما أشبهه في قضاياها ،
وتحيره بين خطاياها ، إلا بالصبيّ يسلم إلى عديله ، ويلف وجهه في منديله ،

(١) العمران : أبو بكر وعمر .

ويجتمع عليه أترابه فيحني قذاله^(١). وكل رفعة بصفعة ، ويسأل عن ضاربيها ، فإن غلط في صاحبها ، أعيد على وجهه اللف ، وعلى قذاله الكف ، وكذا من شغل أيام صباه بما شغل ، وفعل أيام الشباب ما فعل ، ثم جلس للقضاء كهلاً ، ووسع كل شيء جهلاً .

وبعد ، فإن القضاء من القضية ، والحية لا تلد غير الحية ، فمن اعترى إلى أبي كأييه ، واقترن بأخ كأييه ، لم يُلَمَّ على جهله ، فهو الشيء من أهله ، والفرع في أصله . والعلم ، أطال الله بقاء القاضي ، شيء كما تعرفه بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط باللجام ، ولا يورث عن الأعمام ، ولا يكتب للثام . وزرع لا يزكو في كل أرض حتى يصادف من الحرص ثرى طيباً ، ومن التوفيق مطراً صيباً ، ومن الطبع جواً صافياً ، ومن الجهد روحاً دائماً ، ومن الصبر سقيماً نافعاً ، والعلم علق لا يُباع ممن زاد ، وصيد لا يألف الأوغاد ، وشيء لا يدرك إلا بتزع الروح ، وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، ورد الضجر ، وركوب الخطر ، وإدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، ثم هو معتاص على من زكا زرعه ، وخلا ذرعه ، وكرم أصله وفرعه ، ووعى بصره وسمعه ، وصفا ذهنه وطبعه ، فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء ، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالغناء ، وأفرغ جده على الكيس ، ومزله على الكأس . والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس ، ولا يغرس إلا في النفس ، وصيد لا يقع إلا في البئر ، ثم لا ينشب إلا في الصدر ، وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ ، ثم لا يعقله إلا شرك الحفظ ، وبحر لا يخوضه الملاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبل لا يتسّم إلا بخطا الفكر ، وسما لا يصعد إليها إلا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد .

أيكفي أن يصبح المرء بين الزق والعود ، ويمسى موجبات الخلود ، حتى يتم شبابه ، وتشيب أترابه ، ثم يلبس دنيته ، ليخلع دينيته ، ويسوى طيلسانه

(١) القذال : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .

ليحرف يده ولسانه ، ويقصر مسبأله لبطل حباله ، ويبدى شقاشقه ليغطفى
مخارقه ويبيّض لحيته ليسود صحيفته ، ويظهر ورعه ، ليخفى طمعه ، ويغشى
مخراجه ، ليملاً جرابه ، ويكثر دعاءه ، ليحشو وعاءه ، ويرجو أن يخرج من
بين هذه الأحوال عالماً ، ويقعد حاكماً ، هذا إذا المجد كاله بقفزان . كلاً
حتى ينسى الشهوات ، ويجوب الفلوات ، ويعتصد المحابر ، ويحتضن الدفاتر ،
ويتبع الخواطر ، ويحالف الأسفار ، ويعتاد القفار ، ويصل الليلة باليوم ،
ويعتاض السهر من النوم ، ويحمل على الروح ، ويحني على العين ، وينفق من
العيش ، ويخزن في القلب ، ولا يسترىح من النظر إلا إلى التحقيق ، ولا من
التحقيق إلا إلى التعليق . وحامل هذه الكلف إن أخطأه رائد التوفيق ، فقد ضل
سواء الطريق ، وهذا الخيري رجلٌ سفلة طلب الرئاسة بغير تحصيل آلتها ،
وأعجله حصول الأمنية عن تمحل أدواتها :

والكلب أحسن حالةً وهو النهاية في الحساسة

ممن تصدر للرياسة قبل إيتان الرياسة

قول المظالم وهو لا يعلم أسرارها ، وحمل الأمانة وهو لا يعرف مقدارها ،
والأمانة عند الفاسق ، خفيفةٌ المحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، ويحملها
الجهال ، وقعد مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين كتاب الله يتلى ،
وحديث رسوله يروى ، وبين البينة والدعوى ، فقبّحه الله من حاكم لا شاهد
أعدلٌ عنده من السلّة والحام ، يلبى بهما إلى الحكام ، ولا مزكى أصدقٌ لديه
من الصّفّر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحبّ إليه من غمزات الخصوم ،
على الكيس المختوم ، ولا وكيل أوقع برفاقه من خبيثة الذيل ، وحمّال الليل ،
ولا كفيل أعزُّ عليه من المنديل والطبق ، في وقى الغسق والقلق ، ولا حكومة
أبغضٌ إليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس ،
ثم الويل للفقير إذا ظلّم فما يغنيه موقف الحكم ، إلا بالقتل من الظلم ، ولا يجيره
مجلس القضاء ، إلا بالنار من الرمضاء .

وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود ، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضى وأقاربه . وما ظن القاضى يقوم يحملون الأمانة على متونهم ، ويأكلون النار في بطونهم ، حتى تغلظ قصراتهم^(١) من مال اليتامى ، وتضمن أكفالم من مال الأيتامى ، وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور ، وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من الكسوة والقوت ، وما قولك في رجل يعادى الله في الفليس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل السميت ، وباطن أصحاب السبت ، فعله الظلم البحت ، وأكله الحرام السُّحَّت^(٢) ، وما رأيك في سوسٍ لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجرادٍ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا يتقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟ ! وما زلت أبغض حال القضاة طبعاً وجبلةً ، حتى أبغضتهم ديناً وملةً ، وألعنهم دربةً ، حتى لعنتهم قربةً ، بما شاهدت من هذا الخيرى وقاسيت ، وعانيت من خبطه وخطبه ما عانيت ، وسأسوق حديثي معه :

إنه أصلحه الله قد فتش أعطاف نيسابور فما وجد إلا رأسى دبة^(٣) وإلا لحينى مذبة^(٤) ، فجنى لى على خمسة آلاف درهم أرقى في كسبها ماء العمر ، وأخرجتها من أنياب الخطوب الحمر ، وخمسة أشهر من عمرى كل يوم منها خير من عمر شريح القاضى في أمر الباغ^(٥) المعروف بباغ أسد . عقده لى إجاره ثلاث سنين واحتملت دخله أياماً قلائل ، ثم لم يكن مثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج فى طلبه ، حتى عبر جيحون بسبيه ، يطلبه فى كل

(١) رقابهم .

(٢) الحرام ومال الظلم .

(٣) طريقة .

(٤) ما يطرد به الذبان .

(٥) البستان .

منهلة، وينشده في كل مرحلة، وهو لا يجده ، حتى جاوز خراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ، فلما لم يجده ، وأيس عاد وقد طالت أسفاره ، ولم يحصل حماره ، حتى إذا حصل في بلده ، بين أهله وولده ، أحب الله أن يلطف له لطفاً ليعتبر به . فنظر ذات يوم إلى إصطبله فإذا الحمار بسرجه وبلحامه ، وثفره^(١) وحزامه ، قائماً على المعلق ينش .

وأنا أيضاً ما زال يردّ ذنبي في هذا الباغى يأمل يرخييه ويشده ، وطمع يرمله ويمدّه ، حتى صار الباغ بأرضه ومائه ، وزرعه وبنائه ، في يد الحمداني أليس ، أطال الله بقاء القاضي ، يعامل مثلي بمثلها إلا سخيّ أو سخيّف ، أما السخيّ فالذي لا يبالي بما يؤول إليه عقباه ، ولا يرجعه الصفع على قفاه ، والله المستعان والقاضي الفاضل المستجار ، ولعن الله الحيري ووقتاً قطعته بذكره ، وقرطاساً دنسته باسمه ، والحمد لله .

جفوة ونفار

وكتب إليه رجل عزل عن ولاية حنة يشمد وداده فأجابه بهذه الرسالة التي عارضها الكثيرون :

وردت رقعتك ، أطال الله بقاءك ، فأعرتُها طرفَ التعرّز ، ومددت إليها يدَ التعرّز ، وجمعت عنها ذيلَ التعرّز^(٢) ، فلم تندّ على كبدي ، ولم تحظ بناظري ويدي ، وخطبت من مودتي ما لم أجلك لها كفوّاً ، وطلبت من عشرتي ما لم أرك لها رضا . وقلتُ : هذا الذي رفع عنا أجنان طرفه ، وشال بشعرات أنفه ، وتاه بحسن قدّه ، وزها بورد خدّه ، ولم يسقنا من نوته^(٣) ، ولم نسر بضوته ، والآن إذ نسخ الدهر آية حسنه ، وأقام مائدة غصنه ، وقتاً^(٤) غرب

(١) سير في مؤخر السرج يوضع تحت ذنب الدابة .

(٢) أي الاختراز منها .

(٣) المطر .

(٤) فناء القدر تكن عليها .

عُجْبُهُ ، وكَفَّ زهو زهره ، وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله (١) ،
وأكسفت باله ، ومسخت جماله ، وغيّرت خاله ، وكدّرت شرعته (٢) ، جاء
يستقى من جُرْفنا جُرْفًا ، ويعرف من طيينا عرفًا ، فهلا يا أبا الفضل مهلا :
أرغبتَ فينا إذ عسلا لك الشعرُ في خدِّ قَحِيلِ (٣)
وخرجتَ عن حدِّ الظبّا ء وصرت في حدِّ الإبلِ
الآن تطلب عشري عُدُّ للعداوةِ يا خَجِيلِ

وتناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرًا ، وتلحظنا شزرًا ، وتجالس من حضر ،
ونسرق إليك النظر ، ونهتر لكلامك ، ونهش لسلامك :

ومن لك بالعين التي كان مدةً إليك بها في سالف الدهر ينظرُ
أيامَ كنت تمايل ، والأعضاء تترايل ، وتتغنج ، والأجساد تتفالج ،
وتلقت ، والأكباد تنفتت ، وتخطر وترفل ، والوجدُ يعلو بنا ويسفل ، وتُدبر ،
وتُقبل ، فتَمّتي وتخبّل ، وتصدّ وتُعرض ، فتُضني وتُعرض :

وتبسمُ عن ألمي كأنَّ منورًا تخلّل حرّ الرمل غَضَّ له ندى
فاقصر الآن فإنه سوق كسد ، ومتاع فسد ، ودولة عرضت ، وأيام انقضت :

وعهد تفاقٍ مضى وخطب كسادٍ نزل
وخدُّ كأنَّ لم يكن وخطُّ كأنَّ لم يترك

يوم صار أمس ، وحسرة بقيت في النفس ، وثغرٌ غاض ماؤه فلا يرشف ،
وريقٌ خدع فلا ينشف ، وتمايل لا يُعجب ، وثنٌّ لا يطرب ، ومقالة لا تجرح
الحاظها ، وشفة لا تفتن ألفاظها ، فحتّام تدلّ وإلام ، وكيم نحتمل ،
وعلام ، وأن أن تدعن الآن . وقد بلغني الوقت ما أنت متعاطيه من تمويه
يجوز بعد العشاء في الغسق ، وتشبيهه يفتضح عند ذوى البصر ، وإفنائك لتلك

(٤) أي أنه التحى فذهب جماله .

(٥) محل الماء .

(٦) جلد على عظم .

الشعرات حنًا وحصًا^(١) ، وإسباغك لها زنتفًا وقصًا ، وسيكفينا الدهر مؤونة
الإنكار عليك بما يزف إليك ، من بنات الشعر وأمهاته .

فأما ما استأذنت رأبي فيه من الاختلاف إلى مجلسي فما أقل نشاطي لك
وأضيق بساطي عنك ، وأشبع قلبي منك ، وأشد استغنائى عن حضورك ، فإن
حضرت فأنت كغاش نروض عليه الحلم ، وتعلم به الصبر ، وتكلف فيه
الاحتمال ونغضى منه الجفن على قذى ، ونطوى منه الصدر على أذى ، ونجعله
للعيون تأديبًا وللقلوب تأنيبًا .

ما لك يا أبا الفضل ، تعاض من الرغبة عنا رغبة فينا ! ومن ذلك التدلل
علينا تدللًا لنا ! ومن ذلك التعالى تبصصًا ، ومن الغالى ترخصًا ! وما بال
الدهر أبدلك من الترايد تنقصًا ، ومن التسحب على الإخوان تقمصًا . ولئن
اعتضت عن ذلك الذهاب رجوعًا ، لقد اعتضنا عن هذا النزاع نزوعًا ، فأنأ
برحلك وجانبك ، ملتي حبلك على غاربك ، لا أؤثر قربك ، ولا أند^(٢)
سربك ، ولو أحبيت أن أوجعك لقلت :

ما يفعل الله باليهود ولا يعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه ما يفعل الشعر بالحدود

(١) حلق الشعر .

(٢) نده : صاح زاجرًا

شكوى وسعاية

كتب إلى الشيخ الفاضل ابن أحمد الإسفرائيني وهو أول
من استوزر لمحمود بن سبكتكين فاتح الهند والهند :

كتابي والشمرة ، أدام الله عز الشيخ الجليل ، تخرج من أكامها ، فتكون
مرة قبل تمامها ، ثم تصير مزة كثيراً من أيامها ، ثم تكون فجأة عفصة (١) ،
ثم لا يزال الليل والنهار ينضجانها حتى تصبح رطباً جنيباً ، وتؤكل حلواً هنيئاً ،
وقد تصورني الشيخ الجليل حجراً لا يؤثر في الماء والنار ، ولا ينضجني الليل
والنهار ، وللشباب نزقة طيش ثم يربعون ، إذا جاء الأربعون ، ويتزعون ، وإن
كانوا لا يوزعون .

ولقد نظرت في المرأة فوجدت الشيب يتلهث وينهب ، والشباب يتأهب
ويذهب ، وما أسرج هذا الأشهب إلا لسير ، وأسأل الله خاتمة خير ، وأنا
أرجو أن يكون ما نسبني إليه وليّ النعمة ، أدام الله علوه ، من الظلم والعدوان
مطايبة ومزاحاً ، فإن كان اعتقاداً فلا متى الويل ، وسال بي السيل . فأما الحجاج
وتوابعه فوالله ما أحوج عاملاً إلى اقتضائه ، إنما الحديث في جزاف يطلب ،
ومحال يكتب . فأما حقوق الديوان أصلاً وفرعاً فلا يدعى العمّال على باقياً
إلا غرمت للدرهم ديناراً . أجنون أنا ! وأما الشركاء فهم يقدونني بالأمهات
والآباء . وقد سمع الشيخ الجليل كلامهم والذكري تنفع المؤمنين .

ومما أطرف به المجلس العالي ، زاده الله شرفاً ، أنه كان في جيرتنا رجل
يكنى أبا الهول ، كنا نسميه أسطوانة المسجد لكثرة صلاته ، وكان له عمّ موسر
لا عقب له ، فرزق ولدأ على كبر السن . فحمل أبا الهول فرط غمّه ، أن زوى

(١) مرة تسب القبض .

الله عنه ميراث عمه . على ترك الصلاة أصلاً ، فكان لا يؤدى فرضاً ولا نفلاً ،
ولا يردّ سلاماً ، ولا يعمل في الخير عملاً . . .

وقد وجدت لأبي الهول عبدلاً^(١) ، وهو أبو فلان . كان فيما مضى يعتقد
في كل شهر عبداً ، ويصلي بالليل ورداً ، ويتخذ مصانع وربطاً ، فرجع من
الحضرة ، وقد سلخه الله من كل خير ، وضربه في قالب عير ، فهو الآن
لا يشهد جامعاً ولا الجمعة ، ولا يصلي في الظاهر ركعة ، ولا يعطي فقيراً حبة ،
ولا يرزق طفل منه محبة . وقد اتخذ نقباء وأعواناً ، وارتبط رجالة وفرساناً .
وقد ملأ الرستاق والبلد أجعالاتاً^(٢) . وما سجين أحد قبلي على سعاية ، ولو لا
أمر خصتي لرأيت حقاً لله أن أنهض إلى المجلس العالي لتصوير حاله ، وقد
طويت هذا الكتاب على ما عاملني به ، وإذا كانت هذه حالي ، وأنا أمشي
بالنهار على الماء ، وأعرج بالليل إلى السماء ، علم الشيخ الجليل حال العامة .
وإذا أنعم بالنظر في الرقعة التي طويت كتابي هذا عليها ، وفي جواب القاضي
في آخرها وعلى ظهرها ، علم صدق ما يقوله العبد .

وللشيخ الجليل في تأهيل العبد للجواب وزجر هذا الطويل عما يتعاطاه رأيه
العالي إن شاء الله .

الوجه اللحم

وكتب إليه أيضاً في شأن أبي البخري :

جزى الله الشيخ الجليل ، السيد النبيل ، أفضل ما جازى مولى عن عبده ،
وأضعف الله له من عنده ، ومن قال جزاك الله خيراً فقد أولى جميلاً ، وأعطى

(١) مائل .

(٢) خرائب .

جزيلاً ، وما قصر من اتخذ الله وكيلاً . وما بي ، أدام الله تمكين الشيخ
 الجليل ، مالٌ حصل ، أو حقٌ وصل . إني لا أعلم في كنفه المال ، وأبلغ
 في دولته الآمال . ولكن أبا البختری حماني لذيد النوم ، ومنعني بياض اليوم .
 أني يكون مثلي وأنا سحتب^(١) ضرب ، يعث به صفعان كأنه درب ، وكنت
 أسمع بطرار^(٢) كأنه النبل ، ولم أسمع بمختال كأنه الطبل ، ويقولون لص
 كالحية في الظلم ، وطرار كالزلم^(٣) ، فأما طرار كالسلم^(٤) ، ولص في طول
 المنارة ، وعرض الغرارة ، فلا إلا هذا الحر ، وعنوان الأحق كنيته ، ثم بنيته ،
 ثم حليته ، ثم مشيته ، والله ما أعرف معنى أبي البختری ، فهلا أبو حامد ،
 وأبو خالد ، وإن امرأة تقعد مدة^(٥) تعصر بطنها وظهرها ، وتعد يومها وشهرها ،
 ثم تسميه أبا البختری ، لرعناء لا تستحق مهرها ، وخليقة أن تطم نهرها ، فلا
 تلد دهرها . ثم الوجه اللحم ، لا يحمله كريم ، والأنف السمين ، لا ينقله
 الأمين ، والقطف سير الحمير ، والهرولة مشية الخنازير .

مجمع الرذائل

وكتب إل عمار بن الحسين :

ما أجد لعمار مثلاً إلا الغراب ، لا يقع إلا مذموماً على أي جنب وقع ،
 إن نعب فروع النذير ، وإن حجتل فشيبة الأسير ، وإن شحج فصوت
 الحمير ، وإن أكل فدبر البعير ، وإن سرق فبلغة الفقير . كذلك عمار إن
 حذفت عينه فالحين^(٥) ، وإن حذفت ميمه فالشئين ، وإن حذفت رآؤه
 فالريين ، وإن صحف خطه فالميمين^(٦) ، وإن لاصفته فالمعاذير الكاذبة ،

(١) جرى .

(٢) لص يشق الثوب لسلب ما فيه .

(٣) السهم .

(٤) شجرة كبيرة .

(٥) الحين : الهلاك .

(٦) المين : الكذب .

وإن استقصيته فالوجه العيوس ، وإن صدقته فالظفر اللثيم ، وإن كذبه فالعقاب
الأكيم ، وإن زرتة فالحجاب الثقيل ، وإن لم ترره فالعتاب الطويل .

تعريض

وكتب في نقض قصيدة أبي بكر الخوارزمي :

سألت ، أمتع الله بك ، عن الخوارزمي وشعره ، وقلت إنى لأجد فيه بيتاً
لو رثى في المنام لأوجب الغسل حساً ، وبعده بيتاً إذا سرد ينقض الطهارة
مساً ، ولعمري إن هذين البيتين لو كانا تيتين ما نبتتا في أرض ، أو تمرتين ما جنيتا
من غصن . فكذلك إذا كانا شعرين يبعد أن يصلدا عن صدر ، أو يطبعا من
طبع ، أو يصبأ على قالب قلب ، أو يكونا نفسى نفس ، فقد يسمن
الشاعر ثم يغث ، ويمجد القائل ثم يرث ، ولكن لا كما تراه في شعر أبي بكر .
وما كنت لأكشف تلك الأسرار ، وأهتك هذه الأستار ، وأظهر منه العار
والعوار ، لولا ما بلغنا عنه من اعتراض علينا في ما أملينا ، وتجهيز قدح علينا
في ما روينا ، من مقامات الإسكندري ، من قوله إننا لا نحسن سواها ، وإننا
نقف عند منتهاها . ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ،
أو عشر مفتريات . ثم عرضها على الأسماع والضماير ، وأهداها إلى الأبصار
والبصائر ، فإن كانت قبلها ولا تزجتها ، أو تأخذها ولا تمجتها ، كان يعترض
علينا بالقدح ، وعلى إملائنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ويتداركه وهنه ، فيعلم
أن من أملى من مقامات الكدية أربعمئة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً
ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف عيوبه . والسلام .

ساكن الإصطبل

وكتب إليه أيضاً :

قد بعث إلى الشيخ ، أطال الله بقاءه ، بأصل مال مجونه ، وأصان إن شاء الله عن فروعه ، فأما القسمة الواقعة لفلان فلو كان حمارى لتفشت على بطنه التبن ، ونقلت على ظهره اللبن . أفأؤدى عنه الغرامة ، لا ولا كرامة ، أنا والله لا أربط في الإصطبل ، مثل ذلك الطبل ، إني لأتفس بالعدار ، على ذلك الحمار . من ذلك الثور ، حتى يحتمل منه الجور ! الموت ولا هذا الصوت ، والمنية ، ولا هذه الدنية ، والسلام .

هـ - من الرسائل الأهلية :

إغراء

كتب إلى أبيه يستقدمه إلى هراة :

كتابى ، أطال الله بقاء سيدنا ، من بوشنج ، أسوة بيعقوب فى ولده ، إذ ظمن إليه من بلده ، وليس العائق سور الأعراف^(١) ، ولا رمل الأحقاف ، ولا جبل قاف^(٢) ، فلم لا ينشط ، والله لا يضيع بذلك المكان درهماً إلا عوّضته ديناراً ، ولا يعدم هناك داراً ، إلا أفدته ديناراً . أخاف والله أن أموت وفى النفس حاجة لم أقضها ، ومنية لم أحظ ببعضها . لا يفعل سيدنا الشيخ ، والضم بالولد أولى من الضم بالبلد وقد رسمت لموصل كتابى هذا أن يتقدمه مئة دينار بشرط أن يخرج ، وأنى يرتب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العم فليفضل وليقوما ويرحلا . ويستصحب الأخ أبا سعيد ، وليأتنى بأهله أجمعين ، فما

(١) سور بين الجنة والنار .

(٢) جبل يقال إنه محيط بالأرض

يعجبني لقاء ليس له بقاء، ولا وصل بعده فراق . فإن لم يمكن استصحاب القوم
فلا يتأخر بنفسه ، فسيرد على خمسمائة نيران ، وألف أكار ، وأحوالٍ متظمة
وأسباب مستقيمة .

غري خالك

وكتب إلى ابن أخته :

أنت ولدي ما دمت والعلمُ شأنك ، والمدرسةُ مكانك ، المحبرةُ حليفك ،
والدفترُ أليفك ، فإن قصرت ، ولا إخالك ، فغري خالك ، والسلام .

فضيلة القصد

وكتب أيضاً إلى وارث مال :

وصلت رقتك يا سيدي ، والمصاب لعمرُ الله كبير ، وأنت بالجزع
جدير ، ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأعزّة رُشد كأنه الغي ، وقد
مات الميت فليحي الحى ، فاشدد على مالك بالحمس^(١) ، فانت اليوم
غيرك بالأمس .

قد كان ذلك الشيخ ، رحمه الله ، وكيلك ، تضحك ويبكي لك ،
وقد مولك بما ألف بين سراه^(٢) وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره .
وسيعجم الشيطان عودك^(٣) فإن استلانه رماك يقوم يقولون : خير المال ما أتلف
بين الشراب والشباب ، وأنفق بين الحجاب^(٤) والأحباب ، والعيش بين الأقداح
والقِداح^(٥) ، ولولا الاستعمال لما أريد المال . فإن أطعتهم فاليوم في الشراب
وغداً في الخراب ، واليوم واطرباً للكاس ، وغداً واحترَباً من الإفلاس .

(١) يقصد الأصابع الخمس .

(٢) السرى : السير ليلاً .

(٣) عجم العود : امتحنه .

(٤) الفقايق التي تطفو عند مزج الحمرة .

(٥) قِداح الميسر .

يا مولاي ، ذلك الخارج من العود يسميه العاقل فقراً ، والجاهل فقراً ،
 وذلك المسموع من الناي هو اليوم في الآذان زمر ، وغداً في الأبواب سمر (١)
 والعمر مع هذه الآلات ساعة ، والقنطار في هذا العمل بضاعة ، وإن لم يجد
 الشيطان مغزراً في عودك من هذا الوجه رماك بأخرين يمثلون الفقر حذاء عينك ،
 فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك ، وتناقش عينك ، وتمنع نفسك ، وتبوء في دنياك
 بوزرك ، وتراه في الآخرة في ميزان غيرك . لا . ولكن قصداً بين الطريقين ،
 وميلاً عن الفريقين ، لا منع ولا إسراف . والبخل فقر حاضر وضير عاجل ،
 وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه ، فليكن لله في مالك قسط ، والمرودة قسم ،
 فصل الرحيم ما استطعت ، وقدر إذا قطعت . فلأن تكون في جانب التقدير ،
 خير لك من أن تكون في جانب التبذير .

٢ - المقامات

١ - من المقامات الأدبية :

المقامة القريضية

حدثنا عيسى بن هشام قال : طرحني النوى مطارحها حتى إذا وطئت
 جرجان الأقصى ، فاستظهرت على الأيام بضياح أجلت فيها يد العمارة ،
 وأموال وقفها على التجارة ، وحانوت جعلته مثابة (٢) ، ورُفقة اتخذتها صحابة
 وجعلت للدار ، حاشيتي النهار ، وللحانوت ما بينهما ، فجلسنا يوماً نتذاكر
 القريض وأهله ، وتلقاها شاب قد جلس غير بعيد يُنصت وكأنه يفهم ،
 ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الكلام بنا ميسلته ، وجرّ الجدل فينا

(١) شدة بالسماز

(٢) مرجع .

ذَيْلَهُ ، قال : قد أصبمَ عُدَيْقَهُ ، ووافيمَ جُذَيْلَهُ (١) ، ولو شئت للفظت
وأفضت ، ولو قلت لأصدرت وأوردت ، ولحلوت الحق في معرض بيان يسمع
الصم ، ويتزل العصم (٢)

قللت : يا فاضلُ ادُنْ فقد منَّيت ، وهات فقد أثنيت . فدنا وقال :
سلوني أجيبكم ، واسمعوا أعجبكم ، فقلنا : ما تقول في امرئ القيس؟ قال : هو
أول من وقف بالديار وعمرَ صاتها . واغتدى والطير في وكُناتها ، ووصف الخيل
بصفاتهما ، ولم يقل الشعرُ كاسباً ، ولم يجد القول راغباً ، ففَضَلَ مَنْ تفتق
للحيلة لسانه ، وانتجع للرجبة بسانه .

قلنا : فما تقول في النابغة؟ قال : يثلبُ إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ،
ويعتذر إذا رهب ، ولا يرمى إلا صائباً .

قلنا فما تقول في زهير؟ قال : يذيبُ الشعرُ والشعرُ يذيبُهُ ، ويدعو القول
والسحر يجيبُهُ .

قلنا : فما تقول في طرفة؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتُها ، وكتر القوافي
ومدينتُها ، مات ولم تظهر أسرار دقائمه ، ولم تفتح أغلاق خزائمه .

قلنا : فما تقول في جرير والفرزدق ، وأيهما أسبق؟ فقال : جرير أرقُّ
شعراً ، وأغزرُ غزراً ، والفرزدقُ أمتنُ صخراً ، وأكثرُ فخراً ، وجرير أوجع
هجواً ، وأشرفُ يوماً ، والفرزدقُ أكثرُ روماً ، وأكرمُ قوماً ، وجرير إذا نسب
أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا افتخر أجزى ،
وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفى .

(١) أخذها من قول من قال : أنا عذيقها المرجب وجذيلها المحكك ، أي أنه ابن
بجدها وعمدة فيها .

(٢) إشارة إلى قول امرئ القيس : فأنزل منه العصم من كل منزل . والعصم : جمع أعصم
وهو الظبي الذي في ذراعه بياض .

قلنا : فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر من المعاني حظاً ، والمتأخرون أطف صنعاً وأرق نسجاً .
قلنا : فلو أريت من أشعارك ، ورويت لنا من أخبارك ، قال : نخذهما في معرض واحد ، وقال :

أما ترَوِّني أتغشى طيمراً ^(١)	ممتطياً في الضرّ أمراً مرّاً
مُضْطَبِيناً ^(٢) على الليالي غمراً	مُلاقياً منها صروفاً حمراً
أقصى أمانى طلوعِ الشعري ^(٣)	فقد عُنينا بالأمانى دهرًا
وكان هذا الحُرُّ أعلى قدرا	وماءُ هذا الوجه أغلى سعيراً
ضربتُ للسَّرا قِباباً خضراً	في دار دارا وإوانِ كسرى
فانقلبَ الدهرُ لبطنٍ ظهراً	وعاد عُرْفُ العيشِ عندي نكراً
لم يبقَ من وفري إلا ذكراً	ثم إلى اليومِ هلمَّ جترّاً
لولا عجوزٌ لي بسرٍّ منْ را ^(٤)	وأفرخُ دون جبالِ بصرى
قد جلب الدهرُ عليهم ضرّاً	قتلتُ يا سادةُ نفسى صبراً

قال عيسى بن هشام : فأنته ما تاح ، وأعرض عنا فراح ، فجعلت أنفيه وأثبته ، وأنكره وكأني أعرفه ، ثم دلتني عليه ثناباه فقلت : الإسكندري والله ، فقد كان فارقتنا خيشفاً^(٥) ، وواقانا جليفاً ، ونهضت على إثره ، ثم قبضت على خصره ، وقلت : ألسنت أبا الفتح ، ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، فأى عجوز لك بسرٍّ من را ؟ ! فضحك إلي وقال :

ويحك هذا الزمانُ زورٌ	فلا يغرنك الغرورُ
لا تلتزم حالةً ولكنْ	درُ بالليالي كما تسدورُ

(١) ثوب بال .

(٢) حاملًا .

(٣) كوكب .

(٤) سر من را أو سر من رأى : بلدة قرب بغداد .

(٥) الخشف : ولد اللطي ويريد به هنا غلاماً .

المقامة الجاحظية

حدثنا عيسى بن هشام قال : أنارتني ورفقةٌ وليمة فأجبت إليها للحديث
المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دعيتُ إلى كُرَاعٍ (١) لأجبت ،
ولو أهدى إلى ذراعٍ لقبلت ، فأفضى بنا السير إلى دار :

تركتُ والحسنَ تأخذُهُ تتقى منه وتنتخبُ
فانتقتُ منه طرائفه واستزادتُ بعضَ ما تهبُ

قد فرش بساطها ، وبسطت أنماطها ، ومدت سباطها ، وقومٍ قد أخذوا
الوقت بين آس مخضود (٢) ، ووردٍ منضود ، ودنٍ مفصود ، ونأيٍ وعود ،
فصرنا إليهم وصاروا إلينا . ثم عكفنا على حيوانٍ قد ملكت حياضه ، ونورت
رياضه ، واصطفقت جفانه ، واختلفت ألوانه ، فمن حالك بإزائه ناصع ،
ومن قانٍ تلقاءه فاقع ، ومعنا على الطعام رجلٌ تسافر يده على الحيوان ، وتسفر
بين الألوان ، وتأخذ وجوه الرغفان (٣) ، وتفقا عيون الحيفان ، وترعى أرض
الجيران ، وتجولُ في القصعة ، كالرُخ (٤) في الرقعة . يزحم باللقمة اللقمة ،
ويهزم بالمضغة المضغة ، وهو مع ذلك ساكت لا ينبسُ بحرفٍ . ونحن في
الحديث نجرى معه حتى وقف بنا على ذكر الجاحظ وخطابته ، ووصف ابن
المقفع وذُربته ، ووافق أول الحديث آخر الحيوان ، وزلنا عن ذلك المكان ،
فقال الرجل : أين أنتم من الحديث الذي كنتم فيه ؟ فأخذنا في وصف الجاحظ
ولسنه (٥) ، وحسن سنننه في الفصاحة وسنننه فيما عرفناه ، فقال : يا قومُ

(١) الكراع : مستدق الساق .

(٢) ملوى .

(٣) جمع رغيف .

(٤) واحد من حجارة الشطرنج .

(٥) السن : ملاقاة اللسان .

لكل عمل رجال ، ولكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ، ولكل زمان جاحظ ،
ولو انتقدتم ، لبطل ما اعتقدتم .

فكل كَشَسَرَ له عن ناب الإنكار ، وأشم بأشْف الإكبار ، وضحكتُ
له لأجلَب ما عنده ، وقلت : أفدنا وزدنا ، فقال : إن الجاحظ في أحد
شقي البلاغة يقطف^(١) ، وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن
نثره ، ولم يزرر كلامه بشعره ، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً ؟

قلنا : لا ، قال : فهلموا إلى كلامه ، فهو بعيد الإشارات ، قليل
الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام^(٢) يستعمله ، نفور من
من معاصمه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟
فقلنا : لا ، قال : فهل تحب أن تسمع من الكلام ما يخفف عن منكبيك
وينم على ما في يديك ، فقلت : إى والله . قال : فأطلق لي عن خنصر^(٣) ،
بما يعين على شكرك ، فنلته ردائي ، فقال :

لعمرو الذي ألقى على ثيابه لقد حُشيتُ تلك الثيابُ به مجدا
ففي قَمَرتهُ المكرماتُ رداءهُ وما ضربتُ قِدْحاً^(٤) ولا نصبتُ نرداً^(٥)
أعدُ نظراً يا من حبانى ثيابه ولا تدع الأيامَ تهدينى هدأ
وقل للألى إن أسفروا أسفروا ضحى وإن طلَعوا في غمَّةٍ طلَعوا سعدا
صِلوا رَحيمَ العلياءِ وبلُّوا لَهاتِها^(٦) فخيرُ النسدى ما سحَّ وأبلهُ نقدا

قال عيسى بن هشام : فارتاحت الجماعة إليه ، وانثالت الصلوات عليه ،
وقلت لما تأنسنا : من أين مطلع هذا البدر ، فقال :

إسكندرية دارى لو قرَّ فيها قرارى
لكن ليلى بنجدى وبالبحجازِ نهارى

(١) يقصر .

(٢) أى الكلام الذى لا تزينه المحسنات البديعية والبيانية .

(٣) يعنى هات أعطنا شيئاً ، أو كما يقول المنجمون : بيض الكتاب ، أى ادفع شيئاً

(٤) أحد السهام التى يتقارون بها .

(٥) النرد تطلق اليوم على ما يسونه (طاراة الزهر) .

(٦) لحمة ندلاة في سقف الحنك .

المقامة المضيرية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ، ومعى أبو الفتح الإسكندري ، رجلٌ الفصاحة يدعوها فتجيئُهُ ، والبلاغة يأمرها فتطيعهُ ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدّمتُ إلينا مضيرة^(١) تشتى على الحضارة ، وترجرجُ في الحضارة ، وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية ، رحمه الله ، بالإمامة ، في قصة يزلّ عنها الطرف ، ويموجُ فيها الظرف ، فلما أخذت من الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الإسكندري يلعنُها وصاحبها ، ويمقتها وأكلها ، ويثلبها وطابخها ، وظنناهم يمزح ، فإذا الأمر بالضد ، وإذا المزاح عين الجلد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلّبت لها الأفواه^(٢) ، وتلمظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى في إثرها الفؤاد ، ولكننا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال : قصتي معها أطول من مصيبي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت وإضاعة الوقت ، قلنا : هات .

قال : دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم^(٣) ، إلى أن أجبته إليها وقمنا ، فجعل طول الطريق يشي على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حذقتها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها ، ويقول : يا مولاي ، لو رأيتها ، والحرقرة في وسطها ، وهي تلور في الدور ، من التنور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتلدق بيديها الأبرار . ولو رأيت الدخان وقد غبّر في ذلك الوجه الحميل ، وأثر

(١) لعلها تشبه ما نسميه اليوم كبة أرنية أو الكبة بلبنية .

(٢) سال لعابها .

(٣) أهل الكهف ، وكلبهم مشهور .

في ذلك الحدّ الصقيل ، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقتني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظيعيته ، ولا سببا إن! كانت من طيبته . وهي ابنة عمي لَحًا . طيبتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي ، وأرومتها أرومتي . لكنها أوسع مني خُلُقًا ، وأحسن خُلُقًا . وصدعتني بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلته . ثم قال : يا مولاي ، ترى هذه المحلة . هي أشرف محالّ بغداد يتنافس الأخيار في نزولها . ويتغابرو الكبار في حلولها . ثم لا يسكنها غير التجار . وإنما المرءُ بالجار . وداري في السُّطّة^(١) من قلاذتها ، والنقطة من دائرتها . كم تقدر يا مولاي ، أنفق على كل دار منها ؟ قلبه تخمينًا ، إن لم تعرفه يقينًا . قلت : الكثير . فقال : يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ! وتنفس الصُّعداء ، وقال سبحان من يعلم الأشياء .

وانتهينا إلى باب داره . فقال : هذه داري كم تقدر يا مولاي ، أنفقتُ على هذه الطاقة . أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ رأيت بالله مثلها ؟! انظر إلى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خُطَّ بالبركار . وانظر إلى حذق النجار في صنعة هذا الباب . اتخذه من كم ؟ قل : ومن أين أعلم . هو ساجٌ من قطعة واحدة لا مَارُوض^(٢) ولا عفن . إذا حُرِّك أن ، وإذ يُنْقَر طن . من اتخذه يا سيدي ؟ اتخذه أبو إسحق بن محمد البصري ، وهو ، والله ، رجل نظيف الأثواب . بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد في العمل . لله درُّ ذلك الرجل ! بحياتي لا استعنت إلا به على مثله .

وهذه الحلقة تراها ؟ اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنائير معزّية ، وكم فيها يا سيدي من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهي تدور

(١) الوسط .

(٢) المَارُوض . الذي أكلته الأرضة .

بلولب في الباب . بالله دورها ، ثم انقراها وأبصرها ، وبجياتي عليك لا اشتريت
الحلتي إلا منه فليس يبيع إلا الأغلاق .

ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال : عمرك الله يا دار ، ولا خربك يا جدار ،
فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ! تأمل بالله معارجها
وتبين دواخلها وخوارجها ، واصلني : كيف حصلتها ، وكم من حيلة احتلتها ،
حتى عقدتها ؟ كان لي جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال
ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلف
خلفاً أتلفه بين الحمر والزمر ، ومزقه بين الرد والقمر ، وأشفت أن يسوقه
قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها في أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة
للخطر . ثم أراها ، وقد فاتني سراها ، فأتقطع عليها حسرات ، إلى يوم الممات ،
فعمدت إلى أثواب لا تنض^(١) تجارتها ، فحملتها إليه وعرضتها عليه ، وساومتها
على أن يشتريها نسيئة^(٢) ، والمدير يحسب النسيئة عطية ، والمتخلف يعتدّها
هدية ، وسأته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لي ، ثم تغافلت عن اقتضائه
حتى كادت حاشية حاله ترق فأتيته فاقترضته ، واستمهلتني فأنظرته ، والتمس
غيرها من الثياب فأحضرتة ، وسأته أن يجعل داره رهينة لدي ، ووثيقة في يدي ،
ففعل . ثم درجته بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لي بجدّ صاعد ، وبخت
مساعد ، وقوة مساعد ، ورب ساع لقاعد ، وأنا بحمد الله مجلود في مثل هذه
الأحوال محمود ، وحسبك يامولاي ، أني كنت منذ ليال نائماً في البيت مع من
فيه إذ قرع علينا الباب ، فقلت : من الطارق المتأب ؟ فإذا امرأة معها عقد
لآل . في جلدة ماء ورقة آل . تعرضه للبيع ، فأخذته منها إخذة خلتس ،
واشتريته بثمان بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله ودولتك .
وإنما حدثتكم بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة ، والسعادة تنبسط الماء
من الحجارة ، الله أكبر ! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك .

(١) كاسدة ، غير نافقة

(٢) بيع بثمان مؤجل .

اشترت هذا الحصير في المناداة ، وقد أُخرج من دور آل الفُرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات . وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد . والدهر حبلى ليس يدري ما تلد . ثم اتفق أنى حضرتُ باب الطاق . وهذا يعرض في الأسواق . فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمل بالله دقته ولينه ، وصنعتة ولونه ، فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في الندر . وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله . وله ابن يخلفه الآن في حانوته لا توجد أعلاق الحصر إلا عنده . فبِحياتي لا اشترت الحصر إلا من دكانه ، فالمؤمن ناصحٌ لإخوانه ، لا سبياً من تحرّم بخوانه .

ونعود إلى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام . الطستَ والماء ، فقلت : الله أكبر ربما قرب الفرج ، وسهل الخرج . وتقدم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ؟ إنه روى الأصل عراقى النشء . تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وانفض عن ذراعك ، وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر . ففعل الغلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ! اشتراه والله ، أبو العباس ، من النخاس . ضع الطست ، وهات الإبريق ، فوضعه الغلام وأخذ التاجر قلبه وأدار فيه النظر ثم نقره ، فقال : انظر إلى هذا الشبه^(١) كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شَبَّهُ الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان^(٢) الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها . تأمل حسنه وسلنى : متى اشتريته ! اشتريته والله عام المجاعة ، وادّخرته لهذه الساعة . يا غلام ، الإبريق ، فقدّمه ، وأخذ التاجر قلبه ، ثم قال : وأنبوه منه . لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست إلا في هذا البيت . ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف .

(١) الشبه : النحاس الأصفر أو البرونز .

(٢) الرث البالي .

أرسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه !
 أزرق كعين السنور ، وصاف كقضيب البلور ، استقي من الفرات واستعمل
 بعد اليات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ،
 الشأن في الإناء ، لا يدلّك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه . وهذا
 المنديل ! سلني عن قصته . فهو نسج جرجان ، وعمل أرجان ، وقع إلى
 فاشريته ، فاتخذت امرأتى بعضه سراويلا ، واتخذت بعضه منديلاً ، دخل في
 سراويلها عشرون ذراعاً ، وانترعت من يدها هذا القلندر انتراعاً ، وأسلمته إلى
 المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه . ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ،
 وادّخرته للظرف ، من الأضياف ، لم تذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء
 لما قبيها ، فلكل علق يوم ، ولكل آلة قوم .

يا غلام ، الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع (١) .
 والطعام ، فقد كثر الكلام ، فأنى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ،
 ونقره بالبنان ، وعجمه بالأسنان ، وقال : عمّر الله بغداد فما أجود متاعها ،
 وأظرف صنّاعها !

تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر إلى عرض منته ، وخفة وزنه ، وصلابة
 عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فنى الأكل ! ؟ فقال : الآن
 عجل يا غلام ، الطعام . لكن الخوان قوائمه منه

قال أبو الفتح : فجاشت نفسي وقلت : لقد بى الخبيز وآلاته ، والخبز
 وصفاته ، والحنطة من أين اشتريت أصلاً ، وكيف اكرى لها حملاً ، وفي أى
 رحى طحن ، وإجانة (٢) عجن ، وأى تنور سجر ، وخباز استاجر ، وبقى
 الحطب من أين احتطب ، ومتى جلب وكيف صفف حتى يجف وجبس ،
 حتى يبس . وبقى الخباز ووصفه ، والتلميذ ونعته ، والدقيق وملحه ، والخمير

(١) المجالدة والمقاتلة .

(٢) المكن الذي يعجن فيه .

وشرحه ، والملح وملاحته ، وبقيت السكرجات^(١) من اتخذها ، وكيف انتقذها^(٢) ، ومن عملها ، والحل كيف انتقى عنبه ، أو اشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته واستخلص له . وكيف قُير حُبّه^(٣) ، وكم يساوى دَنّه ؛ وبقى البقل كيف احتيل له حتى قطف ، وفي أي مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نُظف ، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووقى شحمها ، ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودُقّت أزارها ، حتى أجيد طبخها وعُقّد مرقها ، وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم .

فقلتُ ، فقال : أين تريد ؟ ! فقلت : حاجة أقضيها ، فقال : يا مولاي تريد كنيفاً يُزرى بريعي الأمير ، وخريفي الوزير ، قد جُصّص أعلاه وصهرج أسفله ، وسُطّح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذرّ فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه بابٌ غيرانه^(٤) من خليطى ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه . فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب .

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح يا أبا الفتح ! المضيرة . وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقى رجل "الحجر" بعمامته فغاص في هامته . فأخذت من النعال بما قدم وحدث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت إلى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك النحس ، فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت . فهل أنا في ذا يا آل همدان ظالم ؟ !

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ونذرنا نذره ، وقلنا : قديماً جنت المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار .

(١) أنية الطعام .

(٢) كيف اتصلت إليه بالشراء .

(٣) الحايبة .

(٤) فواصله .

المقامة البشرية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكاً
فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها وقال :

ما رأيت كالיום ! فقالت :

أعجبَ بشراً حورٌ في عيني وساعدُ أبيضُ كاللُّجَيْنِ
ودونه مسرحَ طرفِ العَيْنِ خَمَصَانَةٌ ترفلُ في حِجْلَيْنِ^(١)
أحسنُ مَنْ يمشى على رِجْلَيْنِ لو ضَمَّ بِشْرٌ بينها وبيني
أدامَ هجرى وأطالَ بيتي^(٢) ولو بقيسُ زينتها بزَيْنِي
لأسفرَ الصبحُ لدى عَيْنِي

قال بشر : ويحك ! من عَسَيْتِ ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال :
أهى من الحسن بحيثُ وصفت . قالت : وأزيد وأكثر ، فأنشأ يقول :

ويحكِ يا ذاتَ الثنايا البيضِ^(٣) ما خِلتُنِي منك بمُستعِضِ
فالآن إذ لوحتِ بالتعريضِ خلوتِ جواً فاصفري وبيضي^(٤)
لا ضمَّ نجفناى على تغميضِ ما لم أشلُ عرضى من الحضيضِ^(٥)

(١) خصاصة : خامرة الكشح . الحجل : الخللخال .

(٢) البين : الفراق .

(٣) الثنايا : الأسنان .

(٤) إشارة إلى قول كليب وائل للقبرة التي نزلت حماه :

يا لك قبرة بمحجر خلا لك الجو فيضى واصفري

ونقرى ما شئت أن تنقرى

(٥) أشل : أرفع .

فَقَالَتْ :

كَمْ خَاطَبَ فِي أَمْرِهَا الْحَيَّ وَهِيَ إِلَيْكَ ابْنَةُ عَمِّ لَحَيًّا

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى عَمِّهِ يَخْطُبُ ابْنَتَهُ ، وَمَنْعَهُ الْعَمُّ أَمْنِيَّتَهُ ، فَأَلَى أَلَا يُرْعَى (١) عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِنْ لَمْ يَزُوجْهُ ابْنَتَهُ ، ثُمَّ كَثُرَتْ مَضْرَأَاتُهُ فِيهِمْ ، وَاتَّصَلَتْ مَعْرَتُهُ إِلَيْهِمْ ، فَاجْتَمَعَ رِجَالُ الْحَيِّ إِلَى عَمِّهِ وَقَالُوا : كَفَّ عَنَّا مَجْنُونُكَ فَقَالَ : لَا تَلْبَسُونِي عَارًا ، وَأَمْهَلُونِي حَتَّى أَهْلِكَ بِبَعْضِ الْحَيْلِ ، فَقَالُوا : أَنْتَ وَذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ عَمُّهُ : إِنِّي آلَيْتُ أَنْ لَا أُزَوِّجَ ابْنَتِي هَذِهِ إِلَّا مَنْ يَسُوقُ إِلَيْهَا أَلْفَ نَاقَةٍ مَهْرًا وَلَا أَرْضَاهَا إِلَّا مِنْ نُوْقٍ خَزَاعَةٍ ، وَغَرَضُ الْعَمِّ كَانَ أَنْ يَسْلُكَ بِبَشَرِ الطَّرِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَزَاعَةِ فَيَفْتَرِسَهُ الْأَسَدُ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ قَدْ كَانَتْ تَحَامَتُ عَنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ وَكَانَ فِيهِ أَسَدٌ يُسَمَّى دَاذًا وَحِيَّةٌ تَدْعَى شَجَاعًا يَقُولُ فِيهَا قَائِلُهُمْ :

أَفْتَكُ مِنْ دَاذٍ وَمِنْ شَجَاعٍ إِنْ يَكُ دَاذٌ سَيِّدَ السَّبَاعِ

فَلِإِنِّهَا سَيِّدَةُ الْأَفَاعِي

ثُمَّ إِنْ بَشَّرًا سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ فَمَا نَصَفَهُ (٢) حَتَّى لَقِيَ الْأَسَدَ وَقَمَصَ مَهْرَهُ فَتَزَلَّ وَعَقَرَهُ ، ثُمَّ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ إِلَى الْأَسَدِ وَاعْتَرَضَهُ ، وَقَطَعَهُ (٣) ثُمَّ كَتَبَ بِلُحْمِ الْأَسَدِ عَلَى قَمِيصِهِ إِلَى ابْنَتِهِ عَمُّهُ :

أَفَاطِمَ لَوْ شَهِدْتِ بِيْطْنَ خَبْتِ وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبُ أُنْحَاكَ بِشْرًا
إِذَا لَرَأَيْتِ لَيْثًا زَارَ لَيْثًا هَزْبِرًا أَغْلِبَا لَاقَى هَزْبِرًا
تَبْهِنَسُ (٤) ثُمَّ أَحْجَمَ عَنْهُ مَهْرِي مَحَاذِرَةً فَقُلْتُ : عُنُقْرَتَ مُهْرًا
أَنْلِ قَسْدِي ظَهَرَ الْأَرْضَ إِنِّي رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهْرًا

(١) يَبِي .

(٢) نَصَفَهُ : بَلَغَ مَتَمِّفَهُ .

(٣) قَطَعَهُ عَرْضًا .

(٤) تَبْخَرُ .

وقلتُ وقد أبدى نصالاً^(١)
 يكفكفُ غيلةً إحدى يديه
 يُدلُّ بمخالبٍ وبمجدٍ نابٍ
 وفي يُمنى ماضى الحدِّ أبى
 ألم يبلغك ما فعلتُ ظباهُ
 وقلبي مثلُ قلبك ليس يخشى
 وأنت ترومُ للأشبال قوتاً
 فقيمَ تسومُ مثلي أن يولى
 نصحتكَ فالتمسُ ياليتُ غيرى
 فلماً ظنَّ أن الغشَّ نصحي
 مشى ومثيتُ من أسدين راما
 هزرتُ له الحسامَ فخلتُ أنى
 وجدتُ له يجائشةً أرتةُ
 وأطلقتُ المهندَ من يمينى
 فخرتُ مجدلاً بدمٍ كأنى
 وقلتُ لهُ يعزُّ على أنى
 ولكن رمتَ شيئاً لم يرمهُ
 تحاول أن تعلمنى فراراً
 فلا تجزعُ فقد لاقيتَ حرّاً
 فإن تكُ قد قُلتَ فليس عاراً

محدةً ووجهاً مكفهراً
 ويسطُ للوثوبِ على أُخرى
 وباللحظات تحسبهنَّ جَمراً
 بمضربه قراعُ الموتِ أثراً^(٢) :
 بكاظمةٍ غداةً لقيتُ عمراً
 مصاولتُ فكيف يخافُ ذُعراً
 وأطلبُ لابنةَ الأعمامِ متهراً
 ويجعلُ في يديكَ النفسَ قسراً
 طعاماً إن لحمى كانَ مرّاً
 وخالفتى كأنى قلتُ هُجراً
 مراماً كان إذ طلباهُ وعرّاً
 شققتُ به لى الظلماء فجراً
 بأن كذبتهُ ما منته غلداً
 فقَدَّ له من الأضلاعِ عشراً
 هدمتُ به بناءً مشمخراً
 قتلتُ مناسي جلدًا وقهراً
 سواك فلم أُطِقْ ياليتُ صبراً
 لعمرُ أيلك قد حاولتَ نُكراً
 بمآذِرُ أن يُعابَ فتَ حرّاً
 فقد لاقيتَ ذا طرفينِ حرّاً

(١) حديدة السيف وهو يعنى أنياباً .

(٢) الأثر : يضم الهزئة نروب الجراح وثلمات السيوف .

فلما بلغت الآيات عمه ندم على ما^(١) منعه تزويجها ، ونحشى أن تغتاله
الحية فقام في أثره وبلغه وقد ملكته سورة الحية ، فلما رأى عمه أخذته حمية
الجاهلية فجعل يده في فم الحية وحكم سيفه فيها فقال :

بشر إلى المجد بعيد همه لما رآه بالعراء عمه
قد ثكلته نفسه وأمه بجاشت به جائشة تهمه
قام إلى ابن للفلا يؤمه فغاب فيه يده وكمه
ونفسه نفسى وسمى سمه

فلما قتل الحية قال عمه : إني عرضتك طمعاً في أمر قد ثنى الله عناني
عنه ، فارجع لأزوجك ابنتي . فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخراً حتى طلع
أمرد كشق القمر على فرسه مدججاً في سلاحه ، فقال بشر : يا عم ، إني
أسمع حساً صيداً ، وخرج فإذا بغيلام على قيد ، فقال : ثكلتك أمك يا بشر ،
إن قتلت دودةً وبهيمة تملأ ماضغيتك فخراً ! أنت في أمان إن سلّمت عمك .
فقال بشر : من أنت لا أم لك ، قال : اليوم الأسود والموت الأحمر ، فقال
بشر : ثكلتك من سلحتك^(٢) . فقال : يا بشر ، ومن سلحتك .

وكرر كل واحد منهما على صاحبه ، فلم يتمكن بشر منه ، وأمكن الغلام
عشرون طعنة في كلية بشر كلما مسه شبا السنان^(٣) حماه عن بدنه إبقاءً عليه ،
ثم قال : يا بشر كيف ترى ، أليس لو أردت لأطعمتك أنياب الرمح ؟ ثم
ألقى رمحه واستل سيفه فضرب بشراً عشرين ضربة بعرض السيف ولم يتمكن بشر
من واحدة ، ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب في أمان ، قال : نعم ولكن
بشريطة أن تقول لي من أنت ، فقال : أنا ابنك . فقال : يا سبحان الله

(١) ما مصدرية بمعنى أن .

(٢) من أقتك من بطنها .

(٣) شبا السنان : حده .

ما قاربت عقيلة قط فأنى لهذه المنحة ! فقال : أنا ابن المرأة التي دلتك على
ابنة عمك فقال بشر :

تلك العصا من هذه العُصِيَّة^(١) هل تسلد الحيةُ إلا الحيةُ
وحلف لا ركبَ حصانًا ولا تزوجَ حصانًا^(٢) ، ثم زوج ابنة عمه لابنه .

المقامة الأسدية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلُغني من مقامات الإسكندري
ومقالاته ما يصغني إليه النَّفُور^(٣) ، ويتنفض له العصفور ، ويروي لنا من
شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقةً ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقةً ، وأنا أسأل
الله بقاءه ، حتى أرزق لقاءه ، وأتعجب من قعود همته بحالته ، مع حسن آله ،
وقد ضرب الدهر شؤونه بأسداد^(٤) دونه ، وهلمَّ جرًا ، إلى أن اتفقت لي حاجة
بمحض ، فشحذت إليها الحرص ، في صحبة أفرادٍ كنجوم الليل ، أحلام^(٥)
لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق نتهب مسافته ، ونستأصل شافته ، ولم نزل
نفرى أسنةً التجاد بتلك الجياد ، حتى صرن كالعصي ، ورجعن كالقسي .
وتاح لنا وادي في سفح جبل ذي آلاءٍ وأثل^(٦) ، كالعداري يسرحن الضفائر
ويتشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ، ونزلنا نغور ونغور ، وربطنا الأفراس
بالأمراس ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا إلا سهيل الخيل . ونظرت إلى فرسي
وقد أرفف أذنيه ، وطمح بعينه ، يحد^(٧) قوى الخيل بمشافره ، ويخذ خد^(٧)

(١) العصا من العصية : مثل قديم فالعصا اسم فرس جذيمة الأبرش والعصية اسم أمها .

(٢) الحصان : بفتح الحاء المرأة المفيفة .

(٣) النفور : وزن فعول : الكثير النفار .

(٤) جمع سد .

(٥) ملازمين لها .

(٦) شجر .

(٧) يقطع .

الأرض بجوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأيوان وقطعت الجبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحدٍ منا إلى سلاحه فإذا السبعُ في فروة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخاً في إهابه ، كاشراً عن أنيابه ، بطرفٍ قد ملئ صلفاً ، وأنفٍ قد حُشى أنفياً ، وصدرٍ لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا خطبٌ ملمٌ ، وحادثٌ مهمٌ ، وتبادر إليه من سرعان^(١) الرفقة فتي :

أخضرُ الجليدةِ في بيتِ العرَبِ يملأُ الدُّثُو إلى عَقْدِ الكَرَبِ^(٢)

بقلبٍ ساقه قَدْرٌ ، وسيفٍ كله أثرٌ ، وملكته سورة الأسد فخانته أرض قلمه ، حتى سقط ليدِه وفه ، وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ، ودعا الحين أخاه بمثل ما دعاه فصار إليه ، وعقل الرعب يديه ، فأخذ أرضه ، واقترش الليث صدره ، ولكني رميته بعمامي وشغلت فه ، حتى حننتُ دمه . وقام الفتي فتوججاً^(٣) بطنه حتى هلك الفتي من خوفه ، والأسد للوجأة في جوفه ، ونهضنا في إثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت وتركنا ما أفلت ، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه .

فلما حثونا التربَ فوق ريفنا جزعنا ولكن أيّ ساعةٍ مجزعٍ

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها ، وسرنا حتى إذا ضمرت المَزَادُ^(٤) ، ونقد الزاد أو كاد يدركه النقاد ، ولم نملك الذهب ولا الرجوع ، ونخنا القاتلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصمنا صمده ، وقصمنا قصده ، ولما بلغنا نزل عن حرّ فرسه ، ينقش الأرض بشفتيه ، ويلقي التراب بيديه ، وعمدني من بين الجماعة فقبل ركابي ، وتحرم بجنابي ، ونظرتُ فإذا هو وجهٌ يبرق برق العارض المتهلل ، وقوام مني ما ترقّ العين فيه تسهل ، وعارض قد أخضر ،

(١) جمع سريع .

(٢) الشطر الثاني من البيت مثل يراد به بلوغ الغاية والنهاية .

(٣) شق .

(٤) المزاد : جمع مزادة وهي قرية الماء .

وشارب قد طر^(١) ، وساعد ملآن ، وقضيب ريان ، ونجار تركي ، وزى ملكي .

فقلنا : مالك لا أبنا لك ! فقال : أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بيهم ، فهمت على وجهي إلى حيث تراني . وشهدت شواهد حاله ، على صدق مقاله ، ثم قال : أنا اليوم عبدك ، ومالي مالك ، فقلت : بشرى لك وبك . أدأك سيرك إلى فناء رحب ، وعيش رطب .

وهنأني الجماعة ، وجعل ينظر ففتنتنا الحاظه ، وينطق فقتلنا ألقاظه ، فقال : يا سادة ، إن في سفح الجبل عيناً وقد ركبتم فلاة عوراء ، فخذوا من هنالك الماء ، فلوينا الأعتة إلى حيث أشار ، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان وركب الجنادب^(٢) العيدان ، ! فقال : ألا تقيلون^(٣) في هذا الظل الرحب ، على هذا الماء العذب ، فقلنا : أنت وذاك .

فتزل عن فرسه وحل منطقته ، ونحي قرطقتة^(٤) ، فما استر عنا إلا بغلالة تم على بدنه ، فما شككنا أنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان ، وهرب من رضوان . وعمد إلى السروج فحطها ، وإلى الأفراس فحشها ، وإلى الأمكنة فرشها ، وقد حارت البصائر فيه ، ووقفت الأبصار عليه ، فقلت : يا فتى ، ما أطفك في الخدمة ، وأحسنك في الحملة ، فالويل لمن فارقت ، وطوبى لمن رافقت ، فكيف شكر الله على النعمة بك ؟ ! فقال ما سترونه مني أكثر . أتعجبكم خفتي في الخدمة ، وحسني في الحملة ، فكيف لو رأيتموني في الرفقة ، أريكم من حيدتي طرفاً ، لتردادوا بي شغفًا ؟ فقلنا : هات ، فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوق سهماً فرماه في السماء ، وأتبعه بآخر فشقه في الهواء .

(١) طلع .

(٢) نوح من الجراد .

(٣) أي ألا تستلمون إلى القيلولة وهي النوم بعد الظهر .

(٤) قباء بلا بطانة .

وقال : سأريكم نوعاً آخر ، ثم عمداً إلى كنانتي فأخذها وإلى فرسي فعلاه ، ورمى أحدنا بسهم أثبتته في صدره ، وآخر طيره من ظهره ، فقلت : ويحك ما تصنع ؟ ! قال : اسكت يا لكع^(١) ، والله ليشدنَّ كل منكم يد رفيقه ، أو لأغصنه برفيقه .

فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة ، وسروجنا محطوطة ، وأسلحتنا بعيدة وهو راكب ونحن رجالة ، والقوس في يده يرشقُ بها الظهور ، ويمشقُ بها البطون والصدور ، وحين رأينا الجد ، أخذنا القد^(٢) ، فشد بعضنا بعضاً ، وبقيت وحدي لا أجد من يشدّ يدي ، فقال : اخرج بإهابك ، عن ثيابك ، فخرجت . ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر ، ويترع ثيابه ، وصار إلى ، وعلى خفّان جديدان ، فقال : على خلعه ، ثم دنا إلى ليطرع الخفّ ، ومددت يدي إلى سكين كان معي في الخفّ ، وهو في شغله فأثبتته في بطنه ، وأبسنته من متنته ، فما زاد على فم فغره^(٣) ، وألقمه حجيره .

وقمت إلى أصحابي فحلت أيديهم وتوزعنا سكب القتيلين ، وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه ، وصار لرمسه ، وصرنا إلى الطريق ووردنا حمص بعد ليالٍ خمس ، فلما انتهينا إلى فرضة^(٤) من سوقها رأينا رجلاً قد قام على رأس ابنه وبنيته ، يجراب وعصية وهو يقول :

رحمَ الله من حشاً في جرابي مكارمة
 رحمَ الله من رناً لسعيد وفاطمة
 إنه خادمٌ لكم وهي لا شك خادمة

(١) النيم .

(٢) سير من جلد .

(٣) فتحه .

(٤) الفضة : المنفرج .

قال عيسى بن هشام : فقلت إن هذا الرجل هو الإسكندري الذي سمعت
به ، سألت عنه فإذا هو هو فدللت إليه ، وقلت : احتكم حكمتك ،
فقال : درهم ، فقلت :

لك درهمٌ في مثله ما دام يسعدني النفسُ
فاحسب حسابك والتمس كما أنيل الملتمسُ

وقلت له : درهمٌ في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيتُ إلى
العشرين ثم قلت : كم معك ؟ قال : عشرون رغيفاً ، فأمرت له بها ، وقلتُ :
لا تصر مع الحيدلان ، ولا حيلة مع الحرمان .

المقامة المكفوفية

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : كنت أجتازُ في بعض بلادِ الأهواز ، وقصاراي لفظةٌ شَرُودٌ أصيدُها ، وكلمة بليغة أُستريدها ، فأداني السيرُ إلى رقعةٍ فسيحة من البلد ، وإذا هناك قوم مجتمعون على رجل يستمعون إليه وهو يخبطُ الأرض بعصا على إيقاعٍ لا يختلف ، وعلمت أن مع الإيقاع لحنًا ، ولم أبعُدْ لأنال من السَّماعِ حظًا ، أو أسمع من الفصيح لفظًا ، فما زلت بالنظارة أزحم هذا وأدفع ذاك حتى وصلت إلى الرجل ، وسرحتُ الطرفَ منه إلى حُرُقة^(١) كالقرني ، أعمى مكفوف ، في شَملةِ صوف ، يدور كالخُنُروف^(٢) ، متبرنسا بأطول منه ، معتمداً على عصا فيها جلاجل يخبط الأرض بها على إيقاع غَنَج ، بلحنٍ هَزَج ، وصوتٍ شَج ، من صدرٍ حَرَج ، وهو يقول :

يا قومُ قد أثقلَ ديني ظهري	وطالبتني طَلَّتِي ^(٣) بالمهرِ
أصبحتُ من بعد غنِّي ووفري	ساكنَ قفري وحليفَ فقري
يا قومُ هل بينكم من حرِّ	يعينني على صروف الدهرِ
يا قومُ قد عيل لفقري صَبْرِي	وانكشفتُ عني ذبولُ السَّترِ
وفضَّ ذا الدهرُ بأيدي البتْرِ	ما كان لي من فضةٍ وتبْرِ
أوى إلى بيتِ كَفَيْدِ شِبْرِ	خاملَ قَدْرٍ وصغيرَ قِدرِ

(١) قصير كبير البطن . والقرني الخنساء .

(٢) لعبة للعيان شبه بها امرؤ القيس : درير كخنُروف الوليد . إلخ .

(٣) الزوجة .

لو ختم الله بخير أمرى أعقبى عن عسر يسر
 هل من فى فيكم كريم النجبر (١) محاسب فى عظيم الأجر
 إن لم يكن مغنماً للشكر

قال عيسى بن هشام : فرق له والله قلبى ، واغرورقت له عيني ، فقلته
 ديناراً كان معى ، فما لبث أن قال :

يا حسنّها فاقعة (٢) صفراءُ ممشوقةٌ منقوشةٌ قوراءُ
 يكادُ أن يقطرَ منها الماءُ قد أثرتّها همةٌ علياءُ
 نفس فتى بملكه السخاءُ يصرفه فيه كما يشاءُ
 ياذا الذى يعنيه ذا الثناءُ ما يتحصى قدرَكَ الإطراءُ
 امضِ إلى الله لك الجزاءُ

ورحم الله من شدتها فى قرن (٣) مثلها ، وآنسها بأختها ، فنالها الناس
 ما نالوه ، ثم فارقهم وتبعته وعلمت أنه متغام لسرعة ما عرف الدينار ، فلما
 نظمتنا خلكوةً مددتُ يمانى إلى يسرى عضديته وقلت : والله لشرينتى
 سرك ، أو لأكشفن سرك ، ففتح عن توأمتى لوز (٤) . وحدثت لثامه عن
 وجهه فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلت : أنت أبو الفتح !
 فقال : لا

أنا أبو قلمون فى كل لونٍ أكونُ
 اخترت من الكسب دوناً فإن دهرَكَ دونُ
 زج الزمان بجموق إن الزمان زبون (٥)
 لا تكذب بعقلٍ ما العقل إلا الجنونُ

(١) الأصل .

(٢) شديدة الصفرة .

(٣) النير .

(٤) يقصد ما تقوله العزام : عيون لوزية .

(٥) يشبه الزمان ببيمة ترفس وقت الحلب .

المقامة الفزارية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت في بعض بلاد فنزارة مرتحلاً نجية ،
وقائداً جنيبة^(١) ، بسبحان بي سببحاً ، وأنا أهم بالوطن فلا الليل يثنى
بوعيده ، ولا البعد يلوحي بيده ، فظللت أخطبُ ورقَ النهار بعصا التسيار ،
وأخوض بطن الليل . بحوافر الليل . فينا أنا في ليلة يضل فيها الغطاط^(٢) .
ولا يبسر فينا الوطواط ، أسيح سبوحاً ولا سانح إلا السبع ، ولا بارح إلا
الضبع ، إذ عن لي راكب تام الآلات يوم الأثلاث ، يطوى إلى منشور
النلوات ، فأخذني منه ما يأخذ الأعزل ، من شاكي السلاح . لكني تجللت
فقلت أرضك لا أم لك فدونك شرط الحداد ، وخرط القتاد ، وخصم ضخم ،
وحمية أزدية ، وأنا سلم إن شئت ، وحرب إن أردت ، فقل لي من أنت ؟
فقال : سلماً أصبت ، فقلت : خيراً أجبت ، فمن أنت ؟ قال :
نصيح إن شاورت ، فصيح إن حاورت ، ودون اسمي لثام ، لا تميظه الأعلام .
قلت : فما الطعنة^(٣) ؟ قال أجوب جيوب البلاد ، حتى أقع على جفنة
جواد ، ولي فؤاد يخدمه لسان ، وبيان يرقمه بنان ، وقصاراي كريم يخفض لي
جنيبته^(٤) ، وينفض إلى حقيته ، كابن حر طلع على بالأمس ، طلوع
الشمس . وغرب عني بغروبها ، لكنه غاب ولم يغب تذكاره ، وودع وشيعتي
آثاره ، ولا ينبيئك عنها ، أقرب منها ، وأوماً إلى ما كان لبسه .
فقلت : شحاذ ورب الكعبة أخاذ ، له في الصنعة نفاذ ، بل هو فيها
أستاذ ، ولا بد من أن ترشح له وتسح عليه .

(١) دابة أخرى يركبها إذا تعبت الأول وهكذا .

(٢) القطا .

(٣) اخرفة : أسلوب المعاش .

(٤) فردة الحمل .

فقلت : يا فتى ، قد جلبت عبارتك فأين شعرك من كلامك ؟ فقال :
وأين كلامي من شعري ! ثم استمد غريزته ، ورفع عقبرته بصوت ملاً الوادى
وأنشأ يقول :

وأروعَ أهداهُ لىّ الليلُ والفلا
عرضتُ على نارِ المكالمِ عودَهُ
ونخادعتُه عن مالهٍ فخدعتُهُ
ولما تجالينا وأحمدَ منطقي
وخمسُ تمسُّ الأرضَ لكن كلاً ولا
فكان مُعمّماً فى السيادةِ مُخوِّلاً
وساهلتُهُ من بسرهِ فتسهلاً
بلانى من نظمِ القريضِ بما بلا
فما هزَّ إلا صارماً حين هزّنى
ولم أرهُ إلا أغرَّ محجلاً
وما تحتُه إلا أغرَّ محجلاً

فقلت له : على رسالك يا فتى . ولك فيما يصحبنى حكلك . فقال :
الحقبة بما فيها ، فقلت : إن^(١) وحاملتها ، ثم قبضت بجمعى عليه وقلت :
لا والذى ألهمها لئساً ، وشقها من واحدةٍ خمساً ، لا تزايلتى أو أعلم
علمك ، فتحدّر لثامه عن وجهه فإذا هو ، والله ، شيخنا أبو الفتح الإسكندرى .
فما لبث أن قلت .

توشحت أبا الفتح بهذا السيفِ عتالا
فما تصنعُ بالسيفِ إذا لم تكُ قتالا
فتصنعُ ما أنتَ حليّت به سيفك خلعالا

(١) إنه هنا بمعنى نم .

المقامة الوصية

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما جهّز أبو الفتح الإسكندري ولده للتجارة أقعده بوصية فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم :

يا بُنى - إني وإن وثقتُ بِمِثَانَةِ عَقْلِكَ ، وَطَهَارَةِ أَصْلِكَ ، فَإِنِّي شَفِيقٌ
وَالشَّفِيقُ سِيءُ الظَّنِّ ، وَلستُ آمِنُ عَلَيْكَ النَّفْسَ وَسُلْطَانَهَا ، وَالشَّهْوَةَ وَشَيْطَانَهَا
فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِمَا نَهَارَكَ بِالصَّوْمِ ، وَلَيْلَكَ بِالنَّوْمِ . إِنَّهُ لَسَبُوسٌ ظَهَارَتُهُ
الجُوعُ ، وَبَطَانَتُهُ المَجْجُوعُ ، وَمَا لِسَهُمَا أُسْدٌ إِلَّا لَانَتْ سَوْرَتُهُ ، أَفْهَمْتَهُمَا
يا ابن الخبيثة !

وكما أخشى عليك ذلك فلا آمنُ عليك لِيَصِيْنِ أَحَدُهُمَا الكَرَمَ . واسم
الآخر القَرَمُ^(١) فإياك وإياهما . إن الكرم أسرعُ في المال من السوس ، وإن
القَرَمَ أشأمُ من البَسُوسِ^(٢) ، ودعني من قولهم : إن الله كريم ! إنها خدعة
الصبي عن اللبن - بلى إن الله لكريم ، ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه ،
وينقنا ولا يضره ، ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم خصاله ، فأما كرم
لا يزيدك حتى ينقصني ، ولا يربشك حتى يبريني ، فخذلانٌ لا أقول عبقرى :

(١) القرم : شدة الشهوة إلى أكل اللحم .

(٢) البسوس : غالة جساس بن مرة يضرب بها المثل في الشؤم ذلك أنها كانت السبب
في نشوب الحرب بين بكر وثعلب بأبيات من الشعر أوغرت بها صدر جساس فقتل كليب وأثر
في ناقة لرجل من جرم يسمى سعداً كان كليب قد قتلها لأنه وجدها في مرعاه وكان جساس
قد حمى الرجل . أما الأبيات وتسمى بالموثبات فهي هذه :

لعسرى لو أصبحت في دار منتقد	لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة	متى يعد فيها القذب يعد على شاتي
فيا سعد لا تفرر بنفسك وارتحل	فإنك في قوم عن إجار أموات
ودرنك أذوادى إليك فإني	محاذرة أن يفدروا بيناتي
وسر فحور جرم إن جرمنا أعزة	ولا تك فينا لاهياً بين نسوات

ولكن بقري : أفهمتهما يا ابن المشؤومة .

إنما التجارة تُنبطُ الماءَ من الحجارة ، وبين الأكلة والأكلة ربح البحر ،
يبد أن لا خطر ، والصينُ غير أن لا سفر . أفتركه وهو معرضٌ ثم تطلبه وهو
مُعوز ، أفهمتها لا أم لك !

إنه المال عافاك الله فلا تنفقن إلا من الربح ، وعليك بالخبز والملح ،
ولك في الحلّ والبصل رُخصة ما لم تدممهما ، ولم تجمع بينهما ، واللحم لحمك
وما أراك تأكله ، والحلو طعامٌ من لا يباني على أى جنبيه يقع ، والوجبات عيش
الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الثوت ، وعلى الشَّبَعِ داعية الموت ، ثم
كن مع الناس كلاعب الشطرنج : خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك .
يا بنى ، قد أسمعتُ وأبلغت . فإن قبلتَ فالله حسبك ، وإن أبيتَ فالله
حسيبك^(١) ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(١) يحاسبك .

المقامة الملوكية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت في منصرفي من اليمن ، وتوجهي إلى نحو الوطن : أسرى ذات ليلة لا سانح بها إلا الضبُّع ، ولا بارح إلا السبُّع . فلما انتضيت نصلُ الصباح ، وبرز جبين المصباح ، عن لي في البراح^(١) . راكبٌ شاكي السلاح ، فأخذني منه ما يأخذ الأعزل ، من مثله إذا أقبل ، لكنني تجللت فوقفت ، وقلت : أرضك لا أم لك ، فدوني شرط الحداد ، وخرط القتاد ، وحمية أزدية ، وأنا سلم إن كنت ، فن أنت ، فقال : سلماً أصبت ، ورفيقاً كما أحبيت ، فقلت : خيراً أجبت ، وصرنا فلما تخالينا ، وحين تجالينا ، أجلت القصة عن أبي الفتح الإسكندري ، وسألني عن أكرم من لقيته من الملوك ، فذكرت ملوك الشام ، ومن بها من الكرام ، وملوك العراق ومن بها من الأشراف ، وأمراء الأطراف ، وصفت الذكر ، إلى ملوك مصر ، فرويت ما رأيت وحدثته بعوارف ملوك اليمن ، ولطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الحملة ، بذكر سيف الدولة : فأنشأ يقول :

يا ساريًا بنجوم الليل بمدحها ولو رأى الشمس لم يعرف لها خطرا
وواصفًا للسواقى هميك لم تزر البحر المحيط ألم تعرف له خبيرًا
من أبصر الدر لم يعدل به حجرًا ومن رأى « خلقًا » لم يذكر البشرًا
زره تزر ملكاً يعطى بأربعة لم يحوها أحد وانظر إليه ترى
أيامه غررًا ، ووجهه قمرًا وعزمه قدرًا ، وسيبه مطرًا
ما زلت أمدح أقوامًا أظنهم صفو الزمان فكانوا عنده كلدرا

(١) الأرض الجرداء الواسعة .

قال عيسى بن هشام ، فقلتُ : من هذا الملك الرحيم الكريم ، فقال : كيف يكون ، ما لم تبلغه الظنون ، وكيف أقول ، ما لم تقبله العقول ، ومتى كان ملك يأنف الأكارم ، إن بعثت بالدراهم ، والذهب . أيسر ما يهب . والألف ، لا يعمه إلا الخلف ، وهذا جبل الكحل قد أضرَّ به الميل^(١) . فكيف لا يؤثر ذلك العطاء الجزيل ، وهل يجوز أن يكون ملك يرجع من البذل إلى مرفه ، ومن الخلق إلى شرفه ، ومن الدين إلى كلفه ، ومن الملك إلى كنفه . ومن الأصل إلى سلفه ، ومن النسل إلى خلفه .

فليت شعري من هذى مآثره ماذا السدى بيلوغ النجم ينتظر

المقامة النيسابورية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ بنيسابور ، يوم الجمعة ، فحضرت المفروضة ، ولما قضيتها اجتاز بي رجل قد لبس دثبة ، وتحنَّك سنبة^(٢) . فقلت لمُصَلِّ يجنبي : من هذا ؟ قال : هذا سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف . وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ، وقد لبس دثبته وخلع دينيته ، وسوى طيلسانه ، وحرف يده ولسانه ، وقصر سباله ، وأطال حباله ، وأبدى نقاشقه . وغطى مخارقه ، وبيض لحيته ، وسود صحيفته ، وأظهر ورعه . وسر طمعه .

قلت : لعن الله هذا . فمن أنت ، قال : أنا رجل أعرف بالإسكندرية . فقلت : سقى الله أرضاً أنبت هذا الفضل ، وأناً : تب سنا النسل ، فأين تريد ؟

(١) ما يكتحل به .

(٢) قلنسوة القباضي .

(٣) نسبة إلى أهل السنة .

قال : الكعبة ، فقلت بئح بئح بأكلها ولما تطبخ^(١) ، ونحن إذا رفاق .
 فقال : كيف ذلك وأنا مصعد وأنت مصوب ، قلت : فكيف تصعد إلى
 الكعبة ؟ قال : أمّا إني أريد كعبة المحتاج ، لا كعبة الحاج ، ومشعر
 الكرم ، لا مشعر الحرم ، وبيت السبي ، لا الهدى^(٢) وقبلة الصلوات^(٣) ،
 لا قبلة الصلاة ، ومنى الضيف ، لا منى الخيف^(٤) ، قلت وأين هذه المكارم .
 وأنشأ يقول :

بميت الدين والملك المؤيد ونخذ المكرات به مورد
 بأرض تبت الآمال فيها لأن سحابها خلف بن أحمد

المقامة الخلفية

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما وليت أحكام البصرة . وانحدرت إليها
 على الحضرة : صحبني في المركب شاب كأنه العافية في البدن ، فقال : إني
 في أعطاف الأرض وأطرافها ضائع لكني أعدّ معدّ ألف ، وأقوم مقام
 صف ، وهل لك أن تتخذني صنيعه : ولا تطلب مني ذريعة ، فقلت : وأي
 ذريعة آكد من فضلك : وأي وسيلة أعظم من عقلك ، لا بل أخدمك خدمة
 الرقيق ، وأشاركك في السعة والضيق . وسرنا ، فلما وصلنا البصرة غاب عني
 أياماً فضقت لغييبته ذرعاً ، ولم أملك صبراً ، فأخذت أفتش جيوب البلد
 حتى وجدته . فقلت : ما الذي أنكرته ولم هجرت ، فقال : إن الوحشة تقدح
 في الصدر اقتداح النار في الزند : فإن أطفئت نارت وتلاشت وإن عاشت

(١) يعني زيارة الكعبة وثوابها .

(٢) ما يساق من أنعام ليضحى بها .

(٣) المطايا .

(٤) بلدة قرب مكة المكرمة .

طارت وطاشت ، والقطر إذا تتابع على الإناء امتلاً وفاض ، والعتب إذا ترك
فرخ وباض ، وألحرث لا يعلقه شرآك كالعطاء ، ولا يطرده سوط كالجفاء ،
وعلى كل حال ، ننظر من عال ، على الكريم نظر إدلال ، وعلى اللثيم نظر
إذلال ، فن لقينا بأنف طويل ، لقينا بخرطوم فيل ، ومن لحظنا بنظر شرر ،
بعناه بثمان نزر ، وأنت لم تغرسي ليقلعي غلامك . ولا اشتريتي لتبيعي
خدأ أمك ، والمرء من غلمانه ، كالكتاب من عنوانه ، فإن كان جفاؤهم شيئاً
أمرت به فما الذي أوجب ، وإن لم تكن علمت به كان أعجب ، ثم قال :

ظفرتُ يدا خلف بن أحمدَ إنه سهلُ الفِئاءِ مؤدَّبُ الخُدَّامِ
أوما رأيت الجودَ يجتازُ السورى ويحبلُ من يدهِ بدارِ مُقامِ
قال عيسى بن هشام : ثم أعرض وتبعته أستعطفه وما زلت ألاحظه حتى
انصرف ، بعد أن حلف : لا أوردتُ من أسماء عشرته ، فوهبتُ له حرمة .

٣ - الديوان

من المديح

الملك السباق

قال يمدح أبا الحارث الفريغوني أمير جوزجان

صل الملك الكريم لام تبنى وأين وقد تجاوزت السماء
أجيدك لا يراك الله إلا علاء أو عطاء أو وفاء
ولو ذوبتني ما كنت إلا ولاء أو دعاء أو ثناء
منحتك من سواء الصدر ودأ يكاد لفرطه يروى الظماء
أبعجزني إذا احتكوا هنا وللكلي إذا مرضوا شفاء !
جريت مع الملوك إلى مداها ففتهم سناء وارتقاء
فضلتهم ندى وفضلت مالا ومن طلب الشاء رمى الثراء
أمن جمع الدراهم واقتناها كن جمع النهي ؟ ليسوا سواء
يكاد التخت يورق جاتباه ويقطر عوده لنا وماء
إذا خطرت له قدمك تسمى إلى أعوده أو قيل جاء

سيد الأمراء

وقال يمدح صاحب الجيش أبا علي :

على أن لا أريح العيس والقنبا وألبس البيد والظلماء واليلبا
وأترك الخود معسولا مقبلها وأهجر الكأس يغدو شربها طربا

وطفلة كفضيب البان منعطفاً
 تظلُّ تنثر من أجنانها حبباً
 قالت وقد علفت ذيلي تودعني
 لا درّ درّ المعالي لا يزال لها
 فقلت ردّي قناع الصبر إن لنا
 أبي المقام بدار الذلّ لي كرم
 وعزّة لا تزال الدهر ضاربة
 يا سيدّ الأمراء افخر ، فما ملك
 إذا دعتك المعالي عرف هامتها
 أين الذين أعدوا المال من ملك
 ما السيف محتطماً ، والسيل مرتكماً
 أمضى شباً منك ، أدهى منك صاعقة
 وكاد يحكيك صوب الغيب منسكباً
 والدهر لو لم يخزن ، والشمس لو نطقت
 يا من يراه ملوك الأرض فوقهم
 لا تكذبين فخير القول أصدقهُ
 فما السموءل عهداً ، والخليل قرى
 من الأمير بمعشار إذا اقتسما
 ولا ابن حجر ، ولا الديان يعشرنى
 هذا لركبته . هذا لرهبته .
 إذا مشت وهلال الشهر منتقباً
 دوني وتنظم من أسنانها حبباً
 والوجد يخنقها بالدمع منسكباً
 برق يشوقك لا هوناً ولا كتباً
 إليك أوبة مشتاق ومنقلباً
 وهمّة تصل التخويد والحبيباً
 دون الأمير وفوق المشتري طنباً
 إلا تمناك مولى واشتهاك أبا
 لم ترض كسرى ولا من قبله ذنباً
 يرى الذخيرة ما أعطى وما وهباً
 والبحر ملتطماً ، واللبل مقترباً
 أجدى يمينا ، وأدنى منك مطلباً
 لو كان طلق الحجياً يطر الذهباً
 والليث لو لم يصد ، والبحر لو عذبا
 كما يرون على أبراجها الشهباً
 ولا تهابن في أمثالها العربا
 ولا ابن سعدى ندى والشنفرى غلباً
 ما أثر المجد فيما أسلفوا هباً
 والمأزق ، ولا القيسى متدباً
 هذا لرغبته . هذا إذا طرباً

ابن السماء

وقال يمدح الأمير العنبري :

يا كعبةً آمالنا حُجَّاجُهُ
سقفًا وفوق المشتري معراجُهُ
وعليكَ بعد لِحَامِهِ إِسْرَاجُهُ
شكرًا تَمُوجُ عَلَيْكُمْ أَمْوَاجُهُ
وبخاطرٍ لا يَنْتَهِي عَجَّاجُهُ
وحتى الأمير العنبريَّ وقلْ له
أنت ابن بيتٍ في السماء مكانه
أركبني فرسَ الكرامة ملجمًا
ولئن فعلتَ لأشكرتك في الوري
بمدائحٍ لا ينمحي ديباجها

أنا العبد

ومن قصيدة قالها في مدح الأمير أبي علي ابن ناصر الدولة :

وما حالُ صبِّ بالعراق فؤاده
علي أن في قرب الأمير وبسطه
ألم تر أن الملك قرَّ قراره
سحابٌ ولكنَّ الدنانير صوبه
وأبلج كالصبح الأغرَّ جبينه
تذلُّ له الأقدارُ وهي جنوده
يموج به في الحربِ صافٍ أديمه
ألم تر غرَّ شسَّستان كيف تغورت
حنانك حسَّادي كثيرٌ كما ترى
ومن حلَّ من عليك حيثُ تحلتي
أنا العبدُ لا يَأْبَى عليك ولاؤه

أسيرٌ وثاوي في خراسان سائرُهُ
لنا عَوْضًا لا يخلف الظنَّ ماطره
إذا زُيِّنت باسم الأمير منابرُهُ
وليثٌ ولكنَّ الملوك عقائره
ضياءٌ . وكالليلِ البهيم عساكره
وتخدمه الأيامُ وهي عشائره
حفوزٌ لهاماتِ الملوك حوافره
معاقلها لما انتحتها بصائره
ومن حسنتُ عيناه تُكثِرُ ضرائره
تصدِّي له قاصي المحلِّ وقاصيره
خلوصًا ولا تخطو ذراكَ مفاخره

بحر جواهر

وقال من قصيدة يمدح الأمير خلف بن أحمد :

وفي خلتفٍ إن ألحقتنا يدُ المنى
فلما وردنا موسمَ الملكِ أقبلتُ
ولما انجلى بلسر الدجى من جبينه
جلبنا إليه الفضلَ وهو أميرُهُ
وُبُحِتُ فقال الناسُ من ذا؟ وقال من
ولاحت لنا منه عيوبٌ كثيرةٌ
ولادته في عالمٍ دونَ قدره
وما ملك إلا يؤدّي خراجته
أيا جابر العظم المهيبض لقاءه
أتأمرُ لي ببِدْرَةٍ كلَّ نظرةٍ
فإن يكُ بحرٌ أغرق الناسَ ماؤه

لنا خلتفٍ لا يخلتفُ الظنَّ ماطرُهُ
وفودُ الغنى واستقبلتنا بوادرُهُ
أعرنا الثرى حرَّ الوجوه تعافره
وبعنا عليه بزّه وهو تاجرُهُ
أجابهُم : عبدُ الأميرِ وشاعره
ولا عيبَ فيه غيرَ ما أنا ذاكره
وفي زمنٍ مثل اسمه لا يقادره
إليه على رغمٍ ونحن نصنادره
ولا يجبر العظم الذي هو كاسره
إلى الشغل باستيفاء ما أنت أمره
فإنك بحرٌ أغرقتني جواهرُهُ

يد الندى والنار

وله من قصيدة في خلف بن أحمد :

وليلٍ كذكراهُ كمناهُ كاسمه
شققنا بأيدي العيسِ بردَ ظلامه
ترجَ بنا الأسفارُ في كلِّ شاهقٍ
كانَ مطايانا سفارُ كاتما

كدينِ ابنِ عبّادٍ كإدبارِ فائقِ
وبتنا على وعدٍ من السيرِ صادقِ
وترمى بنا الآمال من كلِّ حالقِ
تمدُّ إليهنَّ الفلا كفَّ سارقِ

كأنَّ نجومَ الليلِ نظَّارةٌ لنا
 كأنَّ نسيمَ الصبحِ فرصةٌ آيسٌ
 كأنَّ سماءَ الدجنِ لولا انقشاعها
 تعجبٌ من آمالنا والعوائقِ
 كأنَّ سرابَ القيظِ خجلةٌ وامقٌ
 يدّ أخلاّفٍ عند النداء والصواعقِ

ابن خاقان

وقال يمدح يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين :

تعالى اللهُ ما شاءَ وزاد اللهُ إيماني
 أفريدونُ في التاجِ أم الإسكندرُ الثاني
 أم الرجعةُ قد عادتُ إلينا سليمانِ
 أطلتُ شمسُ محمودٍ على أنجمِ سامانِ
 وأمسي آلُ بهرامٍ عبيداً لابنِ خاقانِ
 إذا ما ركبَ الفيلَ لحربٍ أو لميدانِ
 رأتُ عيناكِ سلطاناً على منكبِ شيطانِ
 فمن واسطةِ الهندِ إلى ساحةِ جرجانِ
 ومن قاصيةِ السندِ إلى أقصى خراسانِ
 على مقبلِ العمرِ وفي مفتاحِ الشانِ
 فيوماً رُسلُ الشاهِ ويوماً رُسلُ الخانِ
 فما يعزبُ بالمغَرِّ بٍ عن طاعتكِ اثنانِ
 أيا واليَ بغدادِ ويا صاحبَ همدانِ
 تأملْ مائتي فيلٍ على سبعةِ أركانِ
 يُقلِّبنَ أساطينَ ويلعسنَ بثعبانِ
 ويأجوجُ ومأجوجُ من الجندِ تموجانِ

ب - من الرثاء

حزن وندم

وقال يرثي الأستاذ أبا بكر الخوارزمي :

حنانك من نفس خافتِ
أبا بكرٍ اسمعُ وقل كيفَ ذا
تحملتُ فيك من الحزنِ ما
حلفتُ لقد متَّ عن معشرٍ
يقولونَ أنتَ بهِ شامتٌ
وعزتُ على معاداته
وقال الأناجُ خلاً الجوى لى
أبيضُ ولكن إلى عاقري
وليبك من كمدٍ ثابتِ
ولستَ بمسعةِ الصائتِ
تحمله ابنك من صامتِ
غيبينَ عن خطرِ المائتِ
فقلتُ الثرى بفهمِ الشامتِ
ولا متداركَ للفائتِ
لعمري ولكن على عانتِ
وأصفرُ لكن على ساكتِ

ج - من الاعتذار

مخلص الود

وقال قصيدة طويلة في العاصب ابن عباد منها هذا الاستعجاب والاعتذار إليه :

أكافي الكفاة استبق مني ومن دمي
أفي موجب الفضل الذي أنت أهله
أبعدَ مقاماتي لديك وهجرتي
وجوابة للأفق فيك طردتها
وقفتُ بها أستطلع الرأي منشداً
وقلتُ - وأعلى الله قولك - جودِ
حشاشة مجدٍ في البلاد مُشردِ
توعدتُ مثلي، أم قضية سؤددِ
إليك، وإنفاق طريقي ومتلدي
غدت بين مشورٍ وبين مقصدِ
وقلتُ - وأعلى الله قولك - جودِ

فأينَ زمانى بالخوانِ حضرتُهُ
وما لى (وأبوابُ الرجا فيك جمّةٌ)
ولا باعُ آمالى إليك بقاصِ
فماذا عسى الواشونَ خاضوا على دى
وأية نارٍ شبّهها أى مؤقِدِ
فإن كنت حقاً موعدى بكريمةِ
وإن تنوَّت حريكاً وهذيب جانبِ
حنانيك من ظنِّ لمولاك جائرِ
ولم تمضها فى مخلص الودِّ نيّةٌ
ولا أنا إلا فى ولائك محتبِ
وعذرى عند الله فيك ممهدٌ
وعقد ولائى فى ذراك مؤكّدٌ
ولست لائى واجدٌ منك مهرباً
ولكن سأللى العذرَ فى كل حالةِ
فتبدى لك الأيامُ ما أنا عنده

وأين إلى البابِ الرفيع تردّدى
وقنتُ ببابٍ من رجائك موصدِ
ولا وجهُ أعمالى لديك بأسودِ
ومن أى وجهٍ ثار لى أى مؤيدِ
وأى عظيمٍ حاجٍ من أيّما ددِ
فرأيتك فى تعجيل يومى عن غدِ
فقد صكّ فى ذرعى وقد فُتت فى يدِ
ولبيك من رأى على العبد معتدِ
يروح إليه الموت منها ويغتدى
ولا أنا إلا بالهوى لك مرتدِ
وإن كان عند الناس غير ممهدِ
وإن لم يكن عقد المنى بمؤكّدِ
أحسُّ ركابى فدأ فدأ بعد فدقدِ
بشكرك فى يومى مغيبى ومشهدِ
(ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ)

صولة النحيف

وقال يفتخر موطأً مدح الشيخ أبي نصر زيد :

خُلِقْتُ كما ترى صعب الثقافِ أردُّ يدَ المعانيدِ في الخلافِ
ولي جسدٌ كواحدةِ المشائى له كجبدٌ كثالثةِ الأثافِ
هلمَّ إلى نحيفِ الجسمِ منى لتنظرَ كيفَ آثارُ النحافِ
ألم ترَ أنَّ طائشةً لظاهما نتيجة هذه القصبِ العجافِ
صحبتُ الدهرَ قبلَ نباتِ فيهِ فلا تغرركِ خافيةِ الغدافِ
نزلتُ من الزمانِ ومن بنيهِ على غصنينِ من شجرِ الخلافِ
فلم أصحبُ عدواً في صديقي ولم أشربُ ذعافاً في سلافِ
ولم أرَ غيرَ معتقنينِ وجداً وبينهما خلافٌ في غلافِ
على شفتيهما ضحكُ التهاني وفي كبديهما وخزُّ الأثافِ

قصيدة عربية فارسية

قرة عيني بذكاء محبتي أي فلكا
تريدُ أن تقتلني نه درست كردي درلكا
وانه حمي ليلك أن ينصبَ دوني شركا
أما كني صدغك لي إلى الردي معركا

وَأَنْتَى لَا أَرْقُدُ اللَّيْلُ وَأَرْعَى الْفَلَكَا
كَأَنَّمَا أَلْتَحَفُ الْجَبَرُ وَأَعْلُو الْحَسَا
أَذَابِي فَرَطُ الضَّنَا وَهَدَّتْنِي طُولُ الْبِكَا
أُبْحَتَ رُوحِي وَوَدَى بِي هِدَادُ رُوحَا
وَرَنَهُ دَهِي بُوْسَهُ زَلْبُ يَهْلُ يَبْسُومُ لَبَكَا
فَغَاظَهُ قَوْلِي لَهُ فَقَالَ بَسْ وَيْ نَهْوَكَا
تَرِيدُ تَقْيِيلُ فِي إِلَيْكَ لَا أُمُّ لَكَا
لَوْ لَمْ يَنْتَمِ لَمْ يَحْتَلَمْ يَا طَرَّةُ قَدْ سَلَبْتُ
وَمَقَلَّةٌ مِنْ نَفْسَتِي فِيهِ بِسْحَرٍ هَلَكَا
هُوَكَ إِذْ أَجْحَفَ بِي بِأَيِّ عُلُقٍ فَتَكَا
تَفْعَلُ الْخَاطِئُكُ بِي مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ بَكَا
وَكُرْتُو دَا دَمُ نَهْ دَهِي يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمَشْتَكِي
يَكْرَزُمْ جَامَهُ دَرَمٌ سَيِّ قَاضِي وَحَكَا
وَقَالَ إِذْ هَدَدْتُهُ مَبْحَانٍ مِنْ أَرْفَعَكَا
قَاضِي إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ يَصِيدُ السَّمَا
يَنْصَبُ فِي أَسْفَلِهِ لِكُلِّ حَوْتٍ شَبَكَا
أَفُ لِقَاضٍ يَبْتَغِي مِنَ الْمَعَاصِي دَرَكَا

القسم الرابع

أَمِينُ الرَّحْمَانِ

إلى النبي قال : قل كلمتك وامش .
البساطة روح الفن ، والانسجام روح الجمال .
العمال ، عبيد وسادة ، هم مطبخ الجمهورية ، بل معدتها الهاضمة .
إخواني العرب : ساووا بين الشعوب العربية كلها ، من حلب إلى
عدن ، ومن العريش إلى خافقين ، وافتحوا مكة للعالم أجمع ، وعلموا
وحرروا المرأة .
إلى غوستاف له بون الشرق .
إلى روح فيلسوف الفريكة المخلص لإنسانيته أهدي هذا الكتاب .

مارون عبود

عين كفاع ١٩٥٢ / ٩ / ٣٠

فيلسوف الفريكة

١٨٧٦ - ١٩٤٠

نشأته ، عبقريته ، وشهرته

ما ألفت السير على الطرق المعبدة لأترجم لأمين الريحاني كما اعتسأد الكتاب أن يفعلوا، فأمين بن فارس الريحاني ولد في قرية تدعى الفريكة، وقد أسماها حين شبّ وكتب في واديا مقالها الرائع الذي مطلعها : « وادي الفريكة مهيب وجميل غير أن هيئته أكثر من جماله ، وهو عميق ملتو ينحدر من قرية صغيرة ليغسل رجليه في نهر الكلب » .

في بيت لبناني ، طعماً ولوناً ، نشأ أمين ، وذلك البيت القائم على كتف كنيسة مار مارون ، الناظر من عل إلى الوادي المتجهم وصخوره المنتصبة كالجبابة الواقفين على السلاح ، قد أمسى بفضل نبوغ صاحبه مزاراً للناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم . وضع أمين بعد عودته الثانية من رحلته الأميركية سجلاً في صحن ذلك البيت فانطوى على الآلاف من أسماء الزائرين ، المعجبين بأدب الريحاني الثائر المتحرر .

نشأ أمين نشأة طائفة ، وكان في صغره لا يهدأ ولا يستقر . ركب بغلا في الرابعة من عمره فرمحه ذلك البغل اللعين ولكنه نجح وسلم ، وبعد ستين عاماً مرت على حادثة البغل ركب الدراجة فسقط في قناة الطريق ، ولفظ روحه بعد بضعة عشر يوماً .

تحت الزيتونة تلمذ أولاً لخورى الضيعة خادم كنيسة مار مارون وخدم له القداس وقرأ الرسائل والسنكسار ... وبعد عامين انتقل إلى مدرسة حديثة أنشأها نعوم المكرزل فدرس فيها مبادئ العربية والفرنسية .

واعتلّت صحته بعد رحمة البغل فنذرت والدته لقسيس كفيفان - الحرديني - وألبسته الطوق الفضي المبارك بوضعه على ضريح القديس ، ثم أزارته والدته مقام الطوباوي الجديد ، وهو يرقل في قباز مخطط معصفر ، وعلى رأسه طربوش تعلوه كوفية بيضاء ، (قلب لبنان ٢٥١) .

وحوالي السنة الثانية عشرة من عمره - كما جاء في مقدمة ملوك العرب - أو العاشرة ، كما كتب في مقدمة - المغرب الأقصى - هاجر الريحاني الى أميركا مرافقاً عمه عبده وأستاذه نعوم المكرزل . وفي نيويورك درس الانجليزية عاماً واحداً ، ثم أخذ ينصرف الى محل عمه وأبيه نهراً ، وإلى الدرس ليلاً ، ولم تعجبه التجارة فعاف دفاتر المحل وانضم الى جوقه تمثيلية . وأخفت الجوقة ولكن أميناً الذي أخفق في التمثيل لم يخفق في تمثل الثقافة الانكليزية فدخل كلية الحقوق . ثم ولاها

ظهره ليكون محامياً عن أمته غير ماجور، ووكيلاً مسخراً عن الرأي العام، وكاتباً جباراً عنيداً يقول كلمته ويمشي .

وساعت صحته بعد سنوات فعاد الى لبنان ، فكان معلماً للانكليزية في مدرسة قرنة شهوان ، جارة الفريكة ، وهناك تمكن من العربية ما أمكن ، وعرف الأدب العربي وشعره ، ووقعت الطيور على أشكالها ، فعرف أبا العلاء المعري الذي ترجم بعض لزومياته بلغة شكسبير ، فانفتحت بوجهه أبواب الشهرة في الشرق والغرب . ومضى يكتب بالقلم الانجليزي فاحتل مقاماً رفيعاً بين أدبائه . وكما توج فولتير من قبل توج الريحاني بإكليل من الغار في حفلة شائقة أقامها على شرفه نادي الثريا الأميركاني ، كما أنبأنا سليم سر كيس في مجلته المعروفة باسمه ، قال : لم أحضر حتى الآن حفلة تتويج ملك من ملوك البلدان والأبدان فهذه لا يدعى اليها إلا أصحاب التيجان ومن كان على طريقتهم .

على أنني وفقت الى حضور حفلة تتويج أحد ملوك البيان ، أريد به أمين الريحاني الكاتب البليغ والشاعر المجيد ، صاحب المؤلفات الراقية في اللغتين العربية والانجليزية .

تلك حفلة أقامها نفر من أمراء الشعر والنثر الأميركان في مدينة نيويورك ، تكريماً لوطينا أمين الريحاني على أثر ما تبينوه في مؤلفاته من الأدب الجم . وذلك على أثر انتشار كتابه « اللزوميات » باللغة الانجليزية .

وبعد أن وصف سليم سر كيس ما في المأدبة من تائق وإسراف أمير كيين ، وما ألقى وأنشد من نثر وشعر ، قال : « ومثلت لنا سيدة أميركية - لا أذكر اسمها - دوراً غريباً عجيباً لم أسمع نظيره من قبل ، ولا سمعت مثله حتى الآن . ذلك أنها وقفت وأخذت تصفر بفمها صغيراً مثلت لنا فيه معركة حربية ، من ابتداء الموسيقى العسكرية الى زحف الجيش ، الى القتال فاصوات المدافع فالبنادق ، فأنين الجرحى ، الى آخر ما هناك مما حيسر العقول . ولما فرغ الفضلاء من أقوالهم دعى أمين ريجاني الى منبر خاص أقيم هناك ، وألقى الرئيس - رئيس نادي الثريا الأميركي - خطاب الثناء والإطراء والإعجاب ، ثم تناول الإكليل وتوج به الأمين » .

ومشى أمين يضرب في دنيا الشهرة ، فبرز في اللسانين الانكليزي والعربي فامسى بعد الجهاد ذلك الأديب العالمي ، فذكر اسمه في دليل مشاهير كتاب أميركا وكندا (سنة ١٩٣٠ - ٣١ ص ١٨٧) وفي دليل مشاهير الأدباء المطبوع في انكلترا (صفحة ٣٦٦ حرف الراء) .

فبعد المجون الذي خاض عبا به أمين الممثل الخائب ، ترصن الريجاني وأمسى تلك الشخصية التي احترمها ملوك عصره في كل قارة من قارات الأرض ، فكانت تقام له الحفلات التكريمية في جميع القارات حيث تحل ركابه ، وحسبك أن تقول في أسلوبه الانكليزي الرفيع جريدة بوستون هرالذ : لقد تبوأ الرأس الشرقي مقعده في الأدب الانكليزي بظهور كتاب « خالد » . أما جريدة نيويورك بوست فقالت : إن لأمين الريجاني منحة سامية من جمال اللغة .

وقضى أمين حياته لا يستقر ، فإذا ملَّ الشرق غرباً ، وإذا سئم الغرب شرقاً ، وهكذا دواليك إلى أن منَّ الله عليه بالموت في البقعة التي أحبها ، واستراح جثمانه في الرابع عشر من أيلول عام ١٩٤٠ من جهاده، ونام على كتف الوادي الذي أحبه نومة الأبد .

تأليفه :

كثيرة ستسمع ببعضها مما قيل عنها حين ظهرت في عالم الأدب الرفيع، وتتعرف على بعضها الآخر في الفصول التي ستقرأها ، ولكنك لا تظفر باللذة كاملة إلا إذا قرأتها كلها .

الكاتب الشاعر الانكليزي

كتب أمين ، أولاً بلغة شكبير فاسمع الأميركان والانكليز صوتاً شرقياً ، فاصفوا اليه واسترعى انتباههم . ولما كنت لا أستطيع تقدير قيمته الانكلوميركية فأبي بأس عليّ إذا استعنت بأقلام القوم الذين يزنون الذهب « بالبنس » ؟! فاقراً هذه الجزازات التي جمعتها لي ولك ، أيها القارئ ، من هنا وهناك وهناك .

الزوميات :

عندما انتشرت ترجمة الريحاني للرباعيات المعربة الى اللغة الانجليزية نوّعت بها الجرائد الاميركية بين مقرظة ومنتقدة . وطبعت الترجمة في

انكلترا أيضاً وقرظتها الجرائد الانكليزية وانتقدتها أكثر من الاميركية ،
فقال فيها أدوين ماركهام وهو من كبار شعراء أميركا : ولأمين الريحاني
خاطر شريف في الحياة ، وسهولة ورقة في التعبير .

وقال أيضاً : أبو العلاء شاعر حقيقي « مبدع » وله فلسفة أسمى
وأنبى من فلسفة عمر الخيام ، وفي ترجمة الريحاني لمنتخباته مزايا شعرية
نادرة .

وقال كليتون سكولارد : لو كان لي مجثم في حديقة تزهو فيها زهور
دمشق فما كان أسعدني أن أقضي سويعات العصر والغروب متصفحاً
اللزوميات ، ترجمة الريحاني .

خالد :

قصة فلسفية مزينة ببعض الرسوم التي جادت بها ريشة جبران خليل
جبران . تناول الريحاني في هذه القصة حياة بطلها - خالد - بالتحليل
والدرس ، فنقد بلسانه سيئات وحسنات الشرق والغرب . فوصفت
وصفاً دقيقاً حافلاً بالسخر والتهمك الريحانيين ، بلغة انكليزية رفيعة
يحسده عليها كتاب الانكليز أنفسهم .

قالت مجلة « ريفيو أوف ريفيوز » في كتاب خالد :

هذه أول مرة يظهر فيها كتاب لأجنبي يتكلم فيه عن الأميركان
بسخرية ناعمة . إن كتاب خالد يُعدُّ من الكتب الممتازة في الأدب
الانجليزي .

وكتب ريتشارد لي كالياني أحد شعراء أميركا المعروفين ما يلي :
إنها المرة الأولى التي أقع فيها على كتاب قيم ومغر في حياتي. فكتاب
خالد هو كتاب عاشه المؤلف ثم كتبه . وفي هذه الحالة تقع قيمة الكتاب
في كامل معرفته .

وقال في مناسبة أخرى : هذا أصدق كتاب رأيته وأوفرها تملكاً
للخواطر .

وقالت جريدة الأخبار بمصر في ١٤ ك ٢ سنة ١٩١٢ :

لعل الريحاني أبرع سوري كتب باللغة الانكليزية . والريحاني في
كتاب خالد شديد الإعجاب بالأمة الأميركية ويزعم أنها ستسود على الأقطار
يوماً ، وأن أفرادها سيصبحون في الزمن القادم بمثابة الآلهة السائدين على
طوائف الأمم بقوة علمهم وسمو مداركهم بالرغم من انتقاده القاسي
لعاداتهم وملكته التكالب على المال .

أناشيد الصوفية :

وكتب أحد أدباء الانكليز عن ديوان الريحاني « أناشيد الصوفية »
فقال :

« إنه جامع بين عظمة آثار الشرق وجمال معاني الغرب .

جادة الرؤيا :

عندما ظهر هذا الكتاب كتبت النيويورك تايمس عنه ما يلي : في هذا

الكتاب جمع الريحاني مقالاته الاجتماعية السياسية العربية في الشرق والغرب . وللريحاني جمال فريد في النثر . وفي هذا الكتاب تتبين مقدرته الانجليزية وطريقته الجميلة الخاصة ، تلك الطريقة الجميلة الخاصة بمسجتها الشرقية الممتازة ، وبسخريتها الأميركية الرفيعة .

أنشودة الصوفيين ،

وفي هذا الديوان قالت التاميس أيضاً : إن الريحاني شاعر عميق ذو خيال خصب ومقدرة شعرية عالية . وإن شعره يزداد جمالاً في صورته الشرقية البديعة .

ملوك العرب :

كتبت عنه جريدة روما الايطالية حين ظهر بالانكليزية واصفة أولاً فصول الكتاب والطريقة التي كتب بها ثم قالت: نرى كل ذلك أمامنا ليس فقط ككلام مموّه بعبارات جميلة بل كلوحة حية صنعتها يد أشهر مصورينا العظام .

وقال الاستاذ ا. س يهودا المستشرق الألماني في كتاب أرسله الى الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف :

« قرأت كتاب ملوك العرب بكل اعتناء ، ولم أرَ كتاباً أكمل وأحسن وأنفع وأبدع منه ، وهو يفوق كل ما كتب حتى الآن في هذا الموضوع . وقد لفت نظر كثيرين من رفقائي منذ طبع فاستحسنوه

مثلي ، حتى ان احد الاساتذة في كلية هيدلبرغ يقرأه الآن مع تلاميذه
المستشرقين .

ابن سعود : بلاده ، شعبه :

كتب السرادينون روس في الاوبزرغر عندما قرأه :

هذه أول مرة نعطي مؤلفاً مكتوباً بالانكليزية عن رجل لغته
العربية . إن هذا الكتاب ذو قيمة كبيرة لدرس السياسة الراهنة والحقائق
الموثوقة . وهو ذو ناحيتين مختلفتين ، الناحية السياسية ، والناحية
التاريخية الوصفية . وقد أجاد المؤلف في الاثنتين .

وكتبت مجلة بوك ريفيو ما يلي : كل كتاب يديجه قلم أمين الريحاني
يعد ثروة أدبية في العالم العربي ، وكتابه ابن سعود يعد أحسن كتاب
كتب عن البلاد العربية حتى الساعة .

منشء العربية الحديثة :

وكتب هوتن منفلن عن هذا الكتاب ما يلي : إن الريحاني هو الرجل
الوحيد الذي جاب الجزيرة العربية كلها في سياحة واحدة ، وكتابه
الانكليزي يمتاز عن غيره في وصفه الجميل ، وفي سرد الحوادث الاجتماعية
والسياسية والاقتصادية .

أقوال عامة

كان لكتابات الريحاني عن بلاد العرب وملوكها ، وخصيصاً ابن سعود ، أبعد الأثر في الجرائد والمجلات الانكليزية العديدة - ومنها مجلة آسيا الشهيرة - فكانت تلك الكتابات خير وسيلة لتعريف الغرب على الشرق ورجالاته . لقد حلت تلك الكتابات محلها الأسمى في النفوس لأن لكتابها منزلة رفيعة عند قراء الانكليزية .

ولهذا كتبت عنه مجلة آسيا ما تعريبه :

« إن كثيرين من الأوربيين - سياسيين وجنوداً وعلماء - زاروا بلاد العرب . فهناك مثلاً (بر كهارت) و (بورتون) و (دوتي) الذين طافوا أنحاء بلاد العرب الوسطى والغربية . و (فلي) الذي اجتاز الصحراء من خليج العجم إلى البحر الأحمر ، ولكن قلّ بين الرحالة والسائحين من كانت له الفرص المساعدة على التعرف الصحيح ، وحق المعرفة ، في بلاد العرب وملوكها كأمين الريحاني .

إن العربية هي لغته وهو يتقنها كما يتقن الانكليزية، ويكتب ببلاغة في اللغتين ، وقد تنقل في جميع أنحاء الجزيرة وغايته إيجاد حلف عربي يجمع ملك الحجاز وإمام اليمن والسيد الإدريسي وسلطان نجد في هذا الاتفاق ، فيوجد امبراطورية عربية تعمل في سبيل السلام والتمدن » .

وكتب رئيس نادي الثريا في الولايات المتحدة ، وهو ناد - كما مر -

يضم كبار أدباء أميركا في الولايات المتحدة : « إن أمين الريحاني هو أفصح خطيب دخل دائرتنا » .

واعترافاً بنبوغه وعبقريته قد دعاه المستر ماركهام ، أشعر شعراء الولايات المتحدة ، الى مادبة تعود أن يقيمها للخلص من زملائه كل عام .
ودبج (فاركاس لا فيلا) الكاتب الشهير الذي يعد عند الاسبان بمنزلة مكسيم غوركي الروسي ، فصولاً تحت عنوان « أطواق الذهب » تحدث فيها عن طائفة من جبابرة الفكر في هذا العصر فقال عن الريحاني ما يلي :
« بماذا تراني أحدثك عن أمين الريحاني الشاعر الحقيقي الساحر .
يخلبني بعمق فكرته ورحابة آفاق تأملاته وخياله . فقد تجنح فكره واختمر خياله الخصب النامي حتى أصبح شعراً ، وحتى تحول الى خمرة معتقة إذا سكبت في الأقداح لا تعافها الأفواه .

لقد نشأ هذا الشاعر في بوادي الشرق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وفي ظل ظلال الجوامع العالية . ففي وسط هذه التأثيرات الصامتة ملاجرة أحلامه وتصوراته وخيالاته ، وعندما نما فكره وارتفعت شجيرة أحلامه أفرغها شعراً عميقاً وطروباً في أفواه الآلهة ... » .

وقال الاستاذ كراتشكوفسكي المستشرق الروسي في كتاب أرسله الى صديق له :

« إنك لتسمع غالباً في كتابات الريحاني المبتكرة أصواتاً حربية جريئة بعيدة الصدى ، فهو ينشد الثورة ويدعو الناس الى التأخي . ومع

ذلك فالقوة في نبوغه ليست فقط في هذه الناحية من أدبه .

وقال أيضاً :

الريحاني هو أكبر كاتب عربي في هذا الزمان .

وكتب نظمي نسيم في جريدة السائح النيويوركية : لا أحسب أن في العالم العربي شخصاً آخر يحسن اللغة الانكليزية كالريحاني ، ولم أعرف أو أسمع أن كاتباً من كتابنا الذين هنا وفي سوريا ومصر وانكلترا وكل مكان آخر ، قد جلس على عرش لغة بيكن وشكسبير كما جلس ويجلس أمين الريحاني .

وآخر كلمة ندوتها في هذا الموضوع هي التي تنقلها عن كتاب أمين « المغرب الأقصى » الذي أخرجه حديثاً « دار المعارف » الرصينة . قال المقيم العام الاسباني في حفلة معهد الدروس المغربية بتطوان : « نحتفل اليوم في هذه المؤسسة باستقبال مفخرة من مفاخر الثقافة العربية، الاستاذ أمين الريحاني الذي شرفنا بقبول تسميته مديراً شرفياً لمعهد الدروس المغربية . قد كان من أعز رغائبنا أن يتعرف الى هذه المنطقة السعيدة ويرى بعيني رأسه عمل فرنكو .

إننا ننتظر حكمة وتقده كسلطة لا جدال حولها في العالم العربي ...
إننا نترك الأمر لحكم التاريخ ، والآن لشهادة أمين الريحاني .

* * *

هذه كلمات تدل على المنزلة السامية التي احتلها أمين في نفوس رجالات
العالم قديمه وجديده .

في لغة الضاد

راود أمين لغته عن نفسها فما لانت له في أوائل كتبه : الثورة
الفرنسية ، والمحالفة الثلاثية حتى ولا الريحانيات ، ولكن اميناً كان يرمي
الى غرض أسمى من التزويق والتنميق . كان يعنيه أولاً ان يعبر عن
فكرة إصلاحية ، ولهذا كتب المحالفة الثلاثية ، والثورة الفرنسية ،
والتساهل الديني ، والمكاري والكاهن ، ومع ذلك لم يعن الناس بعبارته
لأن فكرته الجريئة شغلتهم عن كل ذلك ، ولذلك قالت جريدة الشمس
النيويوركية - سنة ١٩٠٤ - عن المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية :

إن هذا الكتيب الصغير خلق ثورة فكرية في الجالية السورية وبعض
الاميركان في هذه المدينة حتى إن أحدهم قال: إن إميل زولا نفسه لم يكن
قاسياً بكتاباتة كما كان الريحاني في المحالفة الثلاثية .

وكتب ج. معلوف في ابي الهول :

أتى امين الريحاني الولايات المتحدة وهو صغير فقدرت له الظروف
ان يتقلب في أحوال شتى . فعندما كان يافعاً افتتن بالتمثيل فكان يمثل
على المراسح الاميركية روايات شكسبير ، ومن ذلك اكتسب مقدرته
الفاقة في آداب اللغة الانجليزية وحسن الإلقاء . ثم تعلم التصوير الهزلي

- والصور التي في كتابه المحالفة الثلاثية هي تصوير يده - وكان لمدة متولياً إدارة محل أبيه التجارية فعرف كفاية عن معاملات الناس المادية . وهكذا درس أدوار الحياة قبل ان يصل الى الثلاثين من عمره .

عرفت الريحاني لأول مرة في حفلة جمعية السيدات السوريات في نيويورك ، فكان الريحاني مندوباً من قبل جمعية الشبان السوريين ليخطب في تلك الحفلة ، فخطب بالانجليزية لأنه لم يكن يحسن الإلقاء بالعربية آنئذٍ، ثم ساح الى الوطن وبعد رجوعه سمعته يخطب مرة أخرى في حفلة جمعية الشبان المارونية في نيويورك وكانت تلك أكبر حفلة سورية ، فخطب بالعربية في موضوع التساهل الديني ، كقاعدة لإصلاح الشرق . ومع انه تكلم بحرية وجرأة لم يسبق لها مثيل ، كان يقاطع بتصفيق الاستحسان من الجمهور . ثم ألف كتابه (المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية) وقصده هدم الخرافات الدينية ، ولكنه كان شديد اللهجة فصادف اضطهاداً عاماً وقامت عليه الجرائد والإكليروس . حتى إنه قبل ان ينتشر كتابه (المحالفة الثلاثية) لم يكن أحد يجسر على ان يقول كلمة بندي سلطان ، فصار بعد ذلك أشد الانتقاد هيناً ومقبولاً ، وصار الناس ، ومنهم الكتاب ، يتمتعون بالدرجة الوسطى من حرية القول . والفضل في ذلك للريحاني . ثم ترجم مختارات من أشعار ابي العلاء فكان لها دوي في اميركا واوروبا .

وكتب حبيب البشعلاني بعد ما سمعه يخطب : ومضى الريحاني في المجالس والنوادي الأدبية يثير سكوتها ، ويبعث نفسياتها الوجلة

ويوقظها على الثورة ، وينادي من فوق منابرها بالهدم والتحطيم ، معلناً الثورة على المجتمع وتقاليد وسلطاته الموبوءة بالجور ، وعلى خوله وقعوده ، لا يستثنى تقليداً اجتماعياً كان او سياسياً حتى الدين ورجاله ، وهما أعز تمكيناً من النفوس وأقوى سلطاناً في المجتمع الشرقي .

كان عليك ، في ذلك العهد ، لتدرك سر هذا الرسول الخارج المنادي بدعوته ، أن تسمعه داعياً خاطباً لا أن تقرأه كاتباً منشوراً في الصحف ، والريحاني جليل المنطق مهيب الموقف قوي الإيمان بدعوته فيبعثها محرقة ونظيره في الإلقاء قليل) .

وبعد هذا جاء الريحاني جيئة لا أدري عددها الترتيبي ، فراح يذيع في صحف العالم العربي ريحانياته فلفتت إليه أنظار الأدباء والكتاب . وقالت فيها مي : إن الريحانيات كانت من الكتب الخمسة أو الستة التي عرفتنى بإيمان الفكر الحر في العالم العربي الحديث في صيغتي الشعر والنثر . وقال فليكس فارس : لقد أصبح كوخ الريحاني في أعالي الوادي محجاً يؤمه كل من استطاب نفحات الأدب ، والشعر والأدب دولة ، الفلاسفة ملوكها ، والشعراء أمراؤها .

وكتب الدكتور منصور فهمي : لقد تبيّنت من القطعة التي سمعتها (من إنشاء الريحاني) أسلوب العظمة الكتابية وصفاء النفس ، والروح الثائرة على النظم العتيقة .

أمين الرحالة

وخطر لأمين أن يرحل في سبيل الوحدة العربية تركاً للصوفية وخيمة الدرويش وكوزه وإبريقه ، فاستقبلته الأقطار العربية استقبالا منقطع النظير استحقه جاهه الأدبي، فكتبت جريدة الأهرام عند وصوله إلى القاهرة سنة ١٩٢٢ : (هو الكاتب المشهور والمفكر المدقق صاحب التأليف الثمينة باللغتين العربية والانكليزية ، وخير ممثل للنبوغ الشرقي في العالمين الأميركي والأوربي) .

وعندما أقيمت له حفلات التكريم في مصر قبل سياحته في جزيرة العربية أقام له أحمد زكي باشا حفلة دعاها (صحراوية) وكان الحاضرون لا يقلون عن خمسة آلاف شخص ، وقد حملت رقعة الدعوة ما يلي :

أحمد زكي باشا يرجو مشاركته في تكريم ثالث الثلاثة بعد الجعدي والذبياني ، نابغة العرب الجديد أمين الريحاني بتناول الشاي على سباط بدوي فوق بساط الرمل وتحت ظلال الأشجار الحرام التي غرسها الصحابة الكرام في سفح الأهرام ، يشرف عليها بلبيث « أبو الهول » الفصيح بإشارته ، البليغ في صمته ، القائم على الدوام بحراسة كنانة الله في أرضه .

وقد نظم أحمد شوقي قصيدة لهذه الحفلة العظيمة التي حضرها أساطين مصر حتى شيخ الأزهر ، ومما قال فيها مخاطباً الأهرام :

هنا الأمين بجائطيك مطوفاً

متقلم الحجاج والوفاد

إن يعده منك الخلود فشعره
باق وليس بيانه لنفاد
إليه (أمين) لمست كل محجب
في الحسن من أثر العقول وباد
إلى أن يقول :

رفعوا لك الريحان كاسمك طيباً
إن العمار تحية الأجداد
وتخيروا للمهرجان مكانه
وجعلت موضع الاحتفاء فؤادي

إلى أن قال يحثه على تجديد لغته العربية :
لم يكفهم شطر النبوغ ، فزدهم
إن كنت بالشطرين غير جواد
أودع لسانك واللغات فربما
غنى الأصيل بمنطق الأجداد
إن الذي ملأ اللغات محاسناً
جعل الجمال وسره في الضاد

أما مي فقالت : إن الريحاني وجبران توأمان ، عبقريتان ساميتا
برزتا إلى عالم الوجود تحت سماء سوريا ، والقرن الماضي ينحدر إلى خاتمتا
غادرا الشرق ونزعا إلى وسط حار ، كله عمل ، كله نشاط وعظمة . وه

اليوم يداعبان الذبوع بما يبذرانه من آيات خالدة . ولسوف تكون تلك
الآيات حديثاً منقولاً فاتح الشذى يطير بأجنحة الزمن من قرن إلى قرن .
ولسوف يتوجهها الغد بإكليل وضعه من قبل على رأس شكسبير . كرموا
اليوم ضيفكم وانصتوا الى تلك القيثارة الغازفة فما هي باقية بينكم سرمداً .

في العراق :

ولم تقصر العراق عن مصر في تكريم الأمين فاقامت له حفلات عظيمة
كمصر . لم يظفر أديب من قبل ، بما ظفر به الريحاني ، إذ لم يبق شاعر
كبير في مصر والعراق وجميع الأقطار العربية إلا قال فيه خير شعره .
كانت زيارة أمين لقاحاً للأذهان والعقول ، داعية إلى الثورة الفكرية التي
رأيناها فيما بعد . فهذا شاعر العراق الأمثل معروف الرصافي يخاطب
الريحاني قائلاً :

من أين يرجى للعراق تقدم
وسيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند
جبانه ، والمال عند بخيله
والرأي عند طريده ، والعلم عند
غريبه ، والحكم عند دخيله
وقد استبد قليله بكثيره
ظلماً ، وذلّ كثيره لقليله

وهذا الشاعر الفيلسوف الزهاوي يقول :

أقول للغرب وهو اليوم ذو قدر
يلقي على الشرق كف القاهر البطر
كفك ما أنت تأتيه من الضرر
للشرق أرهقت لا تخشى حزازه
يا غرب إنك مغرور به أشرُّ

إلى أن قال :

خفف من الوطء فالأيام تنقلب
الشرق يشبه بركاناً به حمم
أخاف من أنه يا غرب ينفجر

وكان فيلسوف الفريكة قد أصبح المنقذ المنتظر حتى هتف به ثالث شعراء العراق محمد الجواهري :

أمثف القلم الني آلى على
أن ليس ترجح كفة استعباد
ومشيداً للشرق ركناً يلتجى
منه بأمنع ذمة وعماد
أنصف شكيّة شاعر قد حلقت
بالصبر منه فظائع الأنكاد

وهكذا مضى الشاعر يبيث شكواه ببلاغته وحماسه المعهودة .

إن لهذه الحفلات التكريمية كتباً جمعت ما قيل فيها ، وليس يتسع هذا المجال للتحدث عنها وعن المتكلمين فيها جميعاً .

رسول الوحلة العربية

لا بدع إن سبق الريحاني الساسة إلى التفكير بجامعة عربية ، وهل نستغرب ذلك والتاريخ ينبئنا أن الفكرة السياسية يتمخض بها ، أولاً ، دماغ أديب أو فيلسوف . زج الريحاني نفسه في هذا المضمار ، وكله إيمان بحيوية الأمة التي « في عروقه شيء من دمها » فمشى رافعاً علمها في الخافقين ما يئس أمين قط من فوز دعوته ولو بعد حين ، وقد حققت الأيام الكثير من أمانيه الكبيرة ولكنه لم يرَ بعينيه ما دعا إليه لسانه . وما أظنه إلا عابثاً حين شبه نفسه بدون كيشوت في مقدمة كتابه « المغرب الأقصى » الذي أخرجته حديثاً « دار المعارف المصرية » بحلة قشبية بعد موته . قال أمين رحمه الله :

« ورأيتني أعيد الكيخوتية - عفواً يا سيدي سرفنتس - إلى أصلها العربي ، وإن تغرب لسانها . رأيتني أشحذ القلم واللسان بالانكليزية ، وأحبر المقالات وأؤلف الكتب بالانكليزية وأقف على منابر الجمعيات والجامعات الأميركية ، الانكليزية ، لأفهم العالم الجديد ، رومان هذا الزمان ، إن في العالم غير أميركا والأميركان ، وأنهم هالكون حتماً إذا

استمروا في جهلهم واستقووا . والغريب العجيب انهم مثل البرابرة في الطهر والسذاجة قلباً ووجهاً ، كانوا يصفقون للخطيب – أي للريحاني ويرحبون به ويعلمه . فازدادت الرغبتان ، رغبتهم في التعلم ورغبتني في التعليم – بارك الله فيّ وفيهم .

« وتبعت الرحلات العربية رحلات أميركية ، على أن نكبة فلسطين بالصهيونية نقلتني من التعميم إلى التخصيص ، دفاعاً عن إخواني العرب في وطنهم الذي يريده اليهود وطناً قومياً لهم . »

إلى أن قال : وهذا اللبناني العربي يحمل الترس والرمح – كما حملها طون كينخوتيه ده لامنشا حقبة من الدهر ، في سبيل العدل والفضيلة – على معاقل إسرائيل ، على حصون يهوذا . ويلك يا نيويورك ، ويلك ، اكتبني الحججة لليهود بقاء الذهب ، وسجلها في سجل الصيارفة ، والكهان ، ومثلي رواياتها بالأفلام والكلام ، على ألفي مسرح وشاشة .

« وبعد ذلك ؟ ماذا بعد ذلك ، ستفيقين ذات يوم قبل صياح الديك ، وستصفرين صفير الهول والهلع ، ستسمعين صوتاً يناديك ويقول : صدق العربي البار ، الحق أصدق أنباء من الدولار ! » المغرب الأقصى ص ١٠ .

والغريب من أمر هذا الرجل ان الدول كانت تدعوه لتسمع أقواله فيوبخها ويؤنبها ، ويختم كلامه بالدعاء للعرب . فما هو في المغرب الأقصى يداعب المقيم العام الإسباني فيجيبه المقيم العام : « اسأل نفسك يا ريحاني ، إنك تحمل منذ أربعين سنة الرمح الذي حمله ضون كينخوته ، وأنا مثلك

– حامل ذلك الرمح – إننا إخوان . وإن لنا في العالم ، على ما فيه من المنكرات ، إخواناً ... المحبة ياريجاني تحل مشاكل العالم كلها ، نعم لولا محبتى للعرب لما استطعت ان أقوم بعمل واحد فيه شيء من الخير الكبير .
أما أمين فيختم هذا الفصل بهذا الدعاء الصادق: « جمع الله كلمة العرب فيضيء نورهم مرة أخرى في العالم . » (ص ٢٩٦) .

وبلغ من عروبة أمين التي كان فيها عربياً أكثر من سادة العرب أن دعت الأحزاب الفلسطينية للتوسط بينها في أمر الصلح ، كما جاءه ، من قبل ، عام ١٩٢٤ ، وزير خارجية الحجاز موفداً رسمياً ليتوسط في الصلح بين الملك حسين والعاقل السعودي .

والرسائل العديدة التي عنده من ملوك العرب تؤيد ما نزعم ولو أن هذه العجالة تتسع لها لذكرنا الكثير منها ولكننا نكتفي بشيء من مكتوبي الإمام يحيى :

« ويسرنا إرسال نسخة من المؤلف إن شاء الله بالواسطة التي وصل بها الكتاب ، وقد وصل ما أتحفتمونا واننا نهدي لكم التشكر وحسن الثناء ، لما تقومون به من الأعمال الخيرية وخدمة العنصر العربي ووحده التي سيحقق الله وجودها الفعلي في الزمن القريب ويسرنا دوام مواصلة تحريركم البديع ونسأل الله لنا ولكم التوفيق إلى أقوم الطريق ١٥ رجب ١٣٤٣ . »

وفي كتاب آخر يقول الإمام للأمين : ولا تدعوا ممكناً في رعاية

الجامعة العربية وما نال به حقوقها المنصوبة وقول الحق مقبول ينتصر له ذوو العقول .

وقد كتب اليه الأمير شكيب أرسلان من جنيف عام ١٩٢٩ في ١٨ شباط ما يلي :

« وأصل إن شاء الله إلى بيروت في أوائل مارس ، وبعد أن أبقى في الشويفات جمعة من الزمن أتوجه إلى الشام لتسلم عملي الجديد رئاسة المجمع العلمي ، وفي آخر الصيف قد أعود إلى جنيف لأن بقائي في هذه الوظيفة موقوف على تصديق المعاهدة السورية الافرنسية ، فإن انتهى الأمر بعدم تصديقها فلست مقيماً ببلاد تحت انتداب الأجانب أيّاً كانوا » .

وكتب إليه سعيد العاصي عن جده عام ١٣٤٣ :

« بعد اطلاعي على كتاب ملوك العرب علمت بأنكم رسول الوطنية في عصرنا ولو أنكم تغاليتم في ابن سعود » .

ومن مونتريال كندا جاءه كتاب من السيد شاهين عبود بتاريخ ٣ حزيران ١٩٢٩ تقتطف منه هذه العبارة :

« أما وللعرب عاطفة الريحاني وثباته وقلمه وروحه الشديدة الإيمان بالوحدة التي يسعى إليها كل ذي ضمير حي ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

أما الصحف والمجلات العربية الكبرى فأكبرت عمل الأمين وجهاده فقال المقتطف عن كتابه « حول شواطئ البلاد العربية » ما يلي :

« شدّ الريحاني رحاله إلى بلاد العرب في ١٩٢٢ مؤثراً شظف العيش على نعمائه في دور العالم الجديد ، لأن له غرضاً يختلف عن أغراض سابقه الأعلام ، دومي وبالغريف وبوخارديت وبرطن وغيرهم ، وغيرهم . غرضه أن ينقل إلى ملوك العرب وأمرائها رسالة علوية ، هي رسالة الاتحاد والتعاون لعلها تكون ركناً لتجديد الحضارة العربية وبعثها . وإن ما فعله في هذا السبيل والذي تقرأه في كتبه الانكليزية (ابن سعود ، بلاده وشعبه) وفي (صحراء وأعالي البلاد العربية) ، وهذا الأخير (حول شواطئ بلاد العرب) لأنصح دليل على تلك الجهود التي بذلها في سبيل الوحدة . وإنك لا تقع ، في كتب الريحاني على الوصف المضجر الذي تقع عليه عادة في كتب الرحلات ، لأن الريحاني الفيلسوف الأديب يجمع بين الوصف الشعري والحكمة والفلسفة والسرد الروائي والتقارير العلمي في فصل واحد . فتقرأ الكتاب كما تقرأ الرواية الأخاذة .

وكتبت اللطائف المصورة عدد ٦٩٤ السنة ١٤ :

« لا نخطيء أو نغالي إذا قلنا ان ليس بين أبناء اللغة العربية من خدم بقلمه البلاد العربية بوجه عام ، ونجد والحجاز وملكها بنوع خاص ، بقدر خدمات الاستاذ الرحالة الفيلسوف السيد أمين الريحاني ، سواء أكان بمؤلفاته الانكليزية والعريسية ، أو بما نشره في أمهات الصحف والمجلات في أميركا وأوروبا ومصر وسوريا . »

وكتبت مرآة الغرب في نيويورك في مراجعة كتاب الريحاني الانكليزي (حول الشواطئ العربية) :

« إن حول الشواطىء العربية ، من خير ما يجري به قلم باعتبار اللغة والتفنن وسعة الاطلاع وغزارة المادة . إلا أن الريحاني عربي أكثر من كل قرشي وقحطاني وعدناني ونجدي ويماني وحضري وبدوي معاً . وله في سياسته ومبادئه ملء حرية وكل حقه إذا هو لم يناقش اللبنانيين حساباً يجهله أو يتجاهله . إن كتابات الريحاني في العرب ومالكهم وأمرائهم ومشائخهم أفضل من كل ما كتب في الموضوع لأنها خلاصة أفضل ما كتب ، ولولا تعصب المؤلف لهذه الأمة الكريمة التي تحتاج الى النقد فوق ما تحتاج الى الاطراء لكانت كتاباته خالدة ، وهي بدون شك طويلة العمر . »

وأصدر الريحاني كتاب (النكبات) فحمل الكثيرون على المؤلف فكتب الكرمللي يقول :

« إن غرض الريحاني من كتاب النكبات هو أن يفتح أعيننا على الماضي لنعتبر لا لتتغنى ونعيش في خيال ما فعله آباؤنا . فما كان عليه الآباء من الرفعة ، كما قال جمال الدين الأفغاني ، لا ينفي ما نحن عليه اليوم من الخمول والضعف . »

كتب الريحاني النكبات ليفتح عقولنا على حقائق مخزية لنحاول نحن أن نكتب صفحة خالدة أجمل من الصفحة التي كتبها لنا أسلافنا في سوريا .

أمين واليسوعيين :

وشاع أن أمين الريحاني قد أسلم فكتبت (البشير) فيما كتبت هذه
العبارة :

« فما قول فيلسوف الفريكة بهذه الرواية ؟ أثبتتها أم يكذبها ؟ وإذا
كان أسلم أيكون أميناً على مذهبه الجديد كما كان أميناً على نصرانيته » ١٢ .

أما للريحاني فكتب يحيب عندما سئل عن هذه الإشاعة بما يأتي :

« ما علمت بهذا الخبر إلا يوم دخولي دمشق، والتي أعثقه أن مصدر
هذه الإشاعة هو كتاب أرسلته الى الصديق سليم سر كيس يوم كنت في
ضيافة ابن سعود وقد جاءت فيه هذه العبارة : « علي أنتي إذا وجدت
القضية العربية بحاجة لأن (أتوهب) فساتوهب . علي أنكم تعلمون أنني
رجل أعتبر جميع الأديان محصورة بمعرفة الله ، فأكون قد أسأت الى
سمعة ملوك وأمراء العرب الذين زرتهم إذا قيل أنني اضطررت الى
الدخول في الإسلام لأتمكن من التقرب اليهم . ومع كل هذا فلا أنكر أنني
أمام هدوء البادية وعظمتها ، وتلقاء ما كنت أشاهده من انعكاف جميع
الوهابيين على الصلوات الخمس ، يومياً ، حتى كنت أجد نفسي وحيداً
فريداً في وقت من أوقات الصلاة التي لا يعفني منها هناك لا صغير ولا
كبير . استولت علي عاطفة حب مناجاة الله فألفت لنفسي صلاة خصوصية
كنت أتلوها كلما وجدت نفسي فريداً والقوم في عبادة ربهم . والصلاة
هي « النجوى » . »

ورغم ما كان بين أمين الريحاني وبين اليسوعيين من العداء المستحکم فإنهم عند درسه في أميركا كتاب مسلك النفس الذي وضعه في الانكليزية لم يتكلفوا إلا إظهار الحق فقالوا :

« مسلك النفس مقالة كتب بعضها في أميركا والبعض الآخر في سوريا والمؤلف يعالج مشاكل حياتنا اليوم واضطراباتنا وينبها إلى وجوب محاسبة أنفسنا، ويقول إن القلق المستولي علينا إنما هو ناشئ عن التكالب في سبيل الماديات . ها هنا مصدر الاضطرابات في الحياة الاجتماعية منها والدينية والاقتصادية .. فلو أن المؤلف أمسك قليلا عن عدائه للكنيسة عداء يكاد يكون فولتيرياً (نسبة إلى فلتير) وقلل من الانتقاد لها، وأكثر من التسخط على ماديات هذا الزمان لكان يصل صوته إلى القلوب والعقول فينفع برسالته أمة استحوذ عليها القلق والاضطراب » .

ثم كتبت في مجلة المشرق في (أيار ١٩٣٤) تقول : « لا نعرف أديبا خدم بلاده والأقطار العربية بأسرها كأمين الريحاني ، ولو كانت خدماته مقتصرة على المؤلفات التي وضعها في اللغة العربية لتساوى مع عشرات الباحثين من أبناء الوطن الذين يكتبون في محيط ضيق . ولكن الريحاني خدم بلاده ولغته بنقل أمانيتها وآدابها إلى لغة الانكليزية، فتعرفنا الأميركان والانكليزي على منتجاتنا الأدبية وتمنياتنا الوطنية » .

وفي هذا المقام أرى لزاما على أن أذكر أن كتابات أمين الريحاني قد نقلت إلى أكثر من خمسة عشر لسانا ، أما ما طبع من الفصول التي حبرها أمين بالقلم الانكليزي فلا يقل عن عشرة مجلدات ، ولكنه لا يزال منشورا

هنا وهناك في زهاء مئتي صحيفة ومجلة انكليزية كانت تتسابق إلى نشر هذه الآثار .

أمين والانتداب

كان أمين عدو الانتداب رقم واحد ، فبعد ثورته على الشعر الباكستاني التي كان لها ما بعدها ، ألهبت قرائح الأدباء والمتأديين فحملوا الأقلام والنبايت ، هذا مع الريحاني وذاك مع الأخطل الصغير ، وسالت بأعناق الفصول أباطح الصحف ... ثم لم يشأ الأمين أن تقف تلك المعركة الأدبية عند ذلك الحد فأصدر كتاباً بعنوانه « أنتم الشعراء » فانبرى للرد عليه ثلاثة كتاب بكتاب بعنوانه : أجل نحن الشعراء . وإذا تأملنا النهضة الأدبية اليوم رأينا الجيل الطالع يريد أن يتوجه الأدب في الطريق النضالية التي شقها الريحاني .

أعلن أمين تلك الحملة الشعواء في حفلة الجامعة الوطنية بعاليه عام ١٩٣٣ وغمز من قناة الانتداب على سمع الكونت دي سالان الذي كان يمثل المندوب السامي فيها. ظن الناس بعد سماع تلك الخطبة النارية أن سيكون حظ أمين النفي ، ولكن لكل أجل كتاب . أجل النفي الى ما بعد خطبة ألقاها الريحاني ، بعد قليل من الزمن ، في بيروت ، قال فيها : « لقد انتقلنا وما تغيرنا ، إلا إذا حسبنا الرجوع إلى الوراء تغييراً . من عهد عبد الحميد الى عهد عبد البعل ، ومن ظلم ظاهر إلى ظلم خفي . من

ظلم مختل الى ظلم منظم ، ومن ظلم يحمل التّبوت والكرباج فتتبعها الناس، الى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات... من استبداد يمنح الامتيازات ليدفع ديونه الاوربية إلى استبداد يستثمر الامتيازات ليزيد ثروته ويفقر البلاد . من استبداد يفرّق ويسود لمجد الدولة إلى استبداد يفرّق ويسود للاستعمار . من عبد الحميد إلى الانتداب ، من عبودية أدبية روحية إلى عبودية اقتصادية مادية . من عبودية بطنها ملآن إلى عبودية الجماعة ، من خازوق واحد قائم تحت عين الشمس إلى خوازيق تنجرها لنا الليالي، من دستور منشور إلى دستور معلق .

من عهد عبد الحميد إلى عهد دي مارتل ، هذا العهد السعيد ، هل تقدمنا ؟ هل ارتفعت أخلاقنا ؟

كان عندنا حانات وخانات فصار عندنا مرابع وأرتيستات . كان عندنا كازينو واحد للقمار في صوفر ، فصار عندنا كازينات ، وحلقات لسباق الخيل وللبينات ...

ولما فرغ من التعداد قال : منذ ثلاثين سنة وأنا أضرب الطينة بالحائط ، فهل الحق على الطينة إذا كانت لا تلتصق أم على الحائط ، أم على اليد الضاربة ؟

لا أجيب على هذا السؤال ولكن قبل أن أستودعكم الله أقول لكم هذه الكلمة ، أقول لكم كلمتين ، ثلاث كلمات . الأولى : إن خلاص الإنسان

بيده، انهضوا ينهض الله معكم. الثانية: إن الامة التي تكثر فيها الطفيليات لا تعيش طويلاً . فكروا بالانتاج قبل أن يهلككم الاستهلاك .

أما الكلمة الثالثة فهي هذه : جارك القريب خير من أخيك البعيد . بل خير من أمك الحنون البعيدة ، والسلام عليكم .

قال أمين قبل أن يختم خطابه « أستودعكم الله » فما كاد يخرج من بوابة التياترو الكبير حتى اعتقل ونفي ردهاً من الزمن ، فكتبت اليه بعد العودة رسالة فيها مداعبة مرة ، فأجاب عليها برسالة كانت نبؤة ، وقد نشرت روسماً - كليشه - في ديواني زوابع ، فارجع اليها إذا لذ لك أن تطالعها لتعلم أن هذا الجبار لم يلق سلاحه بل كان سيفه مخدته .

أمين واللغة

قضى أمين حياته في صراع مع لغة الضاد ، آلى على نفسه أن يجيد البيان فيها فكان له ما أراد ، ولكن كتابته لم تسلم من هينات هينات ، كان يتمسك بها خصومه وينعون ذلك عليه . وها هو يحدثنا عن نفسه في هذا المجال في مقدمة كتابه ملوك العرب :

« عدت إلى بلادي وكنت لا أعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون أن أرثي لحالي . وبيننا أنا أتخبط في دياجى اللغة عثرت على كتاب شعر - لزوميات المعري - أنساني الكساني وسيبويه ، وكل من علّم حرفاً في البصرة والكوفة » .

وقال في رسالة يجيب الاستاذ جرجي نقولا باز : « لقد نقحت
وصححت مقالاتي العربية جهدي ... أي والله حين تمر في مخيلتي الفناء
السببية يعتريني صراع ، شديد ، ولما أفكر في الفرق بين المفعول به
والمفعول معه والمفعول فيه يحل المغص بي ، ومعني ، وفي ، فأود لو عفاني
الدهر من لغة حمير ولغة تميم ومذاهب البصريين والكوفيين . »

وقد آلمه نقد كتاب له لم أعرف أيها هو لأنه لم يسمّه في الرسالة التي
عثرت عليها ، كما لم يسم المنتقد . لا بأس في نشر هذه الرسالة التي تدل على
صراحة أمين .

« صديقي القديم العزيز :

السلام عليك ورحمة الله ، لقد رايتني أمر في انتقادك (لغة الكتاب)
وعلى الأخص لغة المجددين منهم ، فهل لك أن تنير الذهن مني فتزيل الريب
والحيرة؟ ما رأيك مرة تنتقد لغة كاتب من كتّاب المسلمين فهل المسيحيون ،
وخدمهم ، يمتازون بهذا الشيء الذي يسمونه العبث باللغة ، أو ليس بين
المسلمين النوابغ من يشدون بالذنب مثلنا وتظنون أنهم ملكوا الناصية ؟
أنر ذهني ، زادك الله نوراً ، أليس في كتّاب المسلمين من يغلط
غلطة واحدة لغوية ، صرفية أو نحوية؟! أليس في كتّاب المسلمين من
تقصر مبانيه ، ولو في فترة من فترات الإلهام والإبداع ، دون معانيه ،
أو معانيه دون مبانيه ؟ عهدتك عادلاً وعهدتك حكيماً ، ولكنني أراك

في هذه الأيام مثل سواك، كن هم دونك علماً وأدباً ، تنقاد إلى ذلك الروح الخبيث الذي لا يرى في صلات الحياة الأدبية شيئاً يوازي ذرة من الميراث القديم ... على اني أسالك ، وأرجوك ، وأتوسل اليك ان تذكرنا ، وأنت في نعيم اللغة من الخالدين ، اذكرنا من فضلك وتصدق علينا بشعرة واحدة من تلك (الناصية) الكريمة ، ناصية اللغة ، لنحرقها عندما نكون في خطر من غارات الجهابذة اللغويين والسلام عليك .

لا أطيل الكلام هنا لأن الريحاني مات وفي قلبه شيء من ' حتى ' .

وصية أمين

كتبها في أيلول ١٩٣١ وهي ليست وصية لفرد من الناس بل لأمة عاش أمين لأجلها ولذلك تجد فيها نقاطاً فلسفية اجتماعية سياسية دينية .
جاء في الوصية الثامنة ما يأتي :

إن الوحدة العربية المؤسسة على القومية لا على الدين هي وحدة مقدسة فأوصيكم بها . واعلموا أن لا خلاص للأقليات من ربة الأجانب ، أو في الأقل من التدخل الأجنبي ، إلا باتحادهم مع العرب ، بل بامتزاجهم بالأكثرية امتزاجاً عقلياً أدبياً روحياً ، فتصبح البلاد ولا أكثرية فيها ولا أقليات . واعلموا كذلك ان لا مستقبل مجيداً للعرب ولا وحدة عزيزة

شاملة بغير الحكم المدني الديمقراطي القائم على العدل والمساواة بالحقوق والواجبات .

واعلموا أخيراً وتأكدوا أن في الدولة العربية الكبرى ستضمحل العصبية الدينية والطائفية كلها، أو ستنحصر في دوائرها الخاصة بها ولا تتعداها . وسيقوم مقامها في الوطن عصبية الجنس واللغة والثقافة ، وقد ارتبطت كلها بالمثل الانساني الأعلى ، وبالمصلحة المشتركة المتبادلة بين الأهالي جميعاً على السواء .

وفي الوصية (١٤) : « إن أنوار العالم القديمة على وشك الانطفاء كلها فتيقظوا وراقبوا المصاييح الجديدة وسيروا في مقدمة المستنيرين بأنوارها .

وفي الوصية (١٩) : « لا أظن أن المسيحيين والمسلمين او اليهود والبوذيين يسارعون ويتسابقون للصلاة على جثماني . ولا أظنهم ، إذا فعلوا ينفعونني لأنني لا أعتقد بنفع الصلاة لغير صاحبها ، ولا أعتقد بنفعها إلا إذا كانت محض روحية ، أي محصورة في التأمل ، ولا تتجاوز الى الطلب والاستغاثة . فالتأمل الروحي هو للنفس كالنور للحياة النباتية ، فتتغذى به أزهار الألوهية ، ويفوح طيبها في بساتين الحياة . وكل امرئ من هذا القبيل هو كاهن او إمام نفسه ، يفيدها باجتهاده ، ولا يفيد سواها . أما الصلاة التي هي طلبات يوجهها المرء الى خالقه فإنما هي صبيانية ، بل فيها شيء من الجحود ، كأن الله لا يعلم بما في القلوب ، كما جاء في الأديان كلها . او كأنه ، سبحانه وتعالى ، مثل الانسان ينسى او يتناسى . فإذا كانت

نفس الميت ، مثلاً ، في حاجة الى الصلوات ، فقد أصبح أقرب الى العلم الإلهي مما كان في الحياة ، وقد أصبح ولا شغل يشغله عن الصلاة ، فلا تكلفوا أنفسكم إذا أيها الآباء المحترمون وأيها الأحياء . وبكلمة بسيطة صريحة وجيزة لا أريد ان يصلي على جثمانى أحد من رجال الدين او غيرهم .

الريحاني الكاتب

طاقته الفنية وآراؤه الاجتماعية

دبّ أمين الريحاني ونشأ على كتف واد رهب من أودية لبنان ، وترعرع ، كما رأيت ، كأكثر نوابغنا في مدرسة غير ذات جدران ، في ظل السنديانة والهيكل . ثم ارتقى إلى مدرسة أعلى رتبة فألم بمبادئ اللغتين العربية والفرنسية ثم التحق بأبيه فارس المهاجر قبل أن يبلغ رشد . وفي أميركا أتقن اللغة الانكليزية فبرع فيها ، وبعد محاولات لم يفلح فيها احتراف الأدب فصار فيه كأخي الخنساء ، علماً في رأسه نار . لم تكن شهرته في الشرق أقل منها في الغرب ، بل كان صلة التعارف بين المشرقين ، مسموع الكلمة عند التوأمين ، وكثيراً ما حاول الجمع بينهما ، وإن قال الشاعر الانكليزي (كيلنغ) : لن يجتمعا .

كانت لأمين رحلات بين أميركا ولبنان فمن هناك إلى هنا ، ومن هنا إلى هناك . حمل إلى أميركا أكياساً من صوفية الشرق وفلسفته ، وجاء إلى الشرق بحمولة من (عملية) العالم الجديد ، وصناديق من منتوجات

حرة كتب عليها : سريعة الانفجار . كانت رسالته أحياناً غير مرغوب فيها ولكنه فرضها على الناس فرضاً . له رسالة لا بد من أن يؤديها وحسبه ما يعلق منها بالأذهان . فهو لا يلح على الناس ولا يلحف ، يقول كلمته ويمشي كما قلنا . يكفيه أن يدعك تفكر بما قال ليعتقد أنه خرج من المعركة ظافراً .

وجهه كأنه وجه الفرزدق ، وعينان كحامتين تجثمان على بركان فائر ، وأنف بين أنف ابن حرب وأنف بلقيس ، وفم صارم كأنه باب السجن . أذنان كمرحتين صغيرتين ، وجبهة كأنها مرج ابن عامر . هذا خلقه ، أما خلقه فلا يسف في حديثه ولا يتزمت ، هو بين بين في معاشرته الناس ، لا يفتح الزجاجاة فيفوح المسك والعنبر ، ولا يسدها سداً هرمسياً ، لم ينطق بكلمة فاجرة ينفر منها أشد الناس تمسكاً بالعرف ، ولا تفوح رائحة أحماضه في المجلس فتعمي وتضم .

منذ خطت يد الريحاني أول كلمة عربية أعلن الرجل استقلاله الناجز تفكيراً وتعبيراً . ظل في مهب رياح التطور الفكري حصّة من الزمن يترجح بين صوفية مائعة ، وعملية حديدية . أما في التعبير والاسلوب فما انفك يبدع قوالب خاصة حتى آخر ساعة . لم يبال أمين ، وشعاره : قل كلمتك وامش ، بما يقوله غيره . لبس بذلته ولا يمنعه ما يقول الناس فيها ما دام هو راضياً عنها .

أعطى من السخر شيئاً كثيراً ، ولكنه سخر مستور غير مفضوح ،

لا يشمر بكرم فضاح كالتي رآها في الصحراء تعبر النهر . ولا يسكت إذا وجد مجال القول ذا سعة . ليس في كتابنا أصرح منه ولا أجراً ، يطلب الحقيقة دائماً، ويقولها كل حين . إذا قال صدق، ولا يوارب ولا يداجي، يسكت حتى يستطيع الصدق . حاد المزاج ناري الشعور ، ولكنه ضابط نفسه . يخرج عاطفته الثائرة بأسلوب غير مبتذل . أشد سلاحه التهمك ، وتهكه يؤلم ولا يضحك ، ترثي لمن يتناوله ذلك الموضع الذي ينحدر الى الأعماق حيث اللب والرعب والحقد كسهم البحتري الذي أطلقه على ذاك الذئب .

أمسك بالحبل من طرفيه منذ الساعة الاولى . ترجم رباعيات أبي العلاء الى اللغة الانكليزية ، وأخرج الى العربية (التساهل الديني) و (المكاري والكاهن) و (المحالفة الثلاثية) فكانه وضع بها من حيث لا يدري أساس رسالته التي تناولتها يد التطور ، فتذبذبت حيناً كرقاص الساعة الهادي ، بين روح هائمة وجسد يرى في المادة ملاذ . قد تجلت هذه المبادئ متحدة في صلاته التي كان يتلوها - كما روي - في البادية . بادية العربية السعيدة .

الريحاني في هذه الصلاة رجل يريد روحاً وعقلاً وجسداً ليؤدي رسالة بني أمه ، رساله العروبة الموحدة . رسالة الفلاح العربي وإحياء المجد العربي القديم . فقبل أن يظهر رسالة أمين النبيلة فلنر العناصر التي تؤلف هذه الشخصية الفريدة ، هذه العبقرية التي مرت في سماتنا مرور الشهاب المتهاوي فروع الليل ، وشق أحشاء ظلماته . ثم عقب ذلك النور الثاقب ظلمة مدلهمة تكاد الكف تلمس جلدتها .

إن حب الطبيعة هو العنصر الأول الذي تتألف منه شخصية الريحاني فأمين ككل جبلي دب تحت الخيمة الكبرى تصبحه الشمس وتمسيه ، يصفحه التسيم ويضربه الهواء. يسامر النجوم والقمر. وموسيقى الطبيعة تدغدغه بلا انقطاع . يتمتع طليقاً بجمال الفصول الأربعة ، فمن مرح الربيع إلى كآبة الخريف ، ومن جدّ الصيف إلى جهومة الشتاء . ولد حراً يعترف من عطايا الطبيعة ومواهبها ويخزن ما استطاع منها في غضون عبقريته وجيوبها إلى الساعة المنتظرة ، ساعة الرسالة التي خلق لها رسالة الأدب الرفيع والنضال القومي في الشرق والغرب . وقد عجز بهذه العواطف شعره المنشور الذي أبدعه في الأدب العربي ، فزادت به ثروتنا الأدبية وأصبح ميداناً مفتوحاً للذين لا يحسنون الشعر المقيد ، وأمين واحد منهم . فهذا الشعر الريحاني يعبق منه أريج الأزهار ، وتحشرج فيه العواصف والأعصار ، حافل بانين الناي وطقطقة الرعاة ، وزقزقة الرعاة ، وزقزقة العصافير .

في هذا الشعر الذي تعرفنا به أجزاء الريحانيات الأربعة موسيقى شاعر ملهم ، وحنين واله ، لا أثر للتكلف فيه ، بل هو صرخات نفس تتألم ولا تجد عزاء إلا في حضن الطبيعة التي تتعلق بنيتها حيناً ، وتعض وتلبط أحياناً . موسيقى تبطننت شعر أمين المنشور الذي أملاه عليه وجدانه الثائر قبل أن ينفجر مصلحاً كبيراً ، وسياسياً مسموع الصوت نافذ الكلمة ، يقتحم المخاطر في سبيل تحقيق الوحدة العربية . ولكن كتابته في الشؤون السياسية وشجونها هي من صميم قلب الأدب ، ففي

الريحانيات وملوك العرب وكل ما كتب أمين ترى ما التقطه ذهن هذا الأديب الأصيل من مشاهد فرسها أبدع رسم .

وإلى عنصر الطبيعة ينضم عنصران آخران يتصلان به ويتفرعان منه هما : المهاجرة ، والمطالعة . فالهجرة مدرسة الريحاني وجامعته الكبرى التي تلقى فيها دروسه وكان أستاذ نفسه . ففيلسوف الفريكة لم يتلقَ علومه في الجامعات الرسمية ، هو ابن همة نفسه ، ابن رغبة فائقة الوصف ، نهم إلى الاكتشاف عن طريق البصر والبصيرة ، يتلقى الدروس حيث حل ، يرى وينتقد ، ويحكم ويستنتج ، ويدرك ويدخر إلى حين الحاجة . ففي التأمل الذي لا ينتهي ، وفي الاستكشاف المستمر في الكتب والمتاحف ، وغرائب الدنيا وعجائبها التي شاهد جملها ، تغذى ذهن الأمين ورتع ، وأخرج البدائع والطرائف .

أما المطالعة فلا تسل عن عشق الريحاني لها . ولا تسل عن مغامراته فيها ، فالرجل لم يتعلم لغته على أستاذ ، بل عكف على مطالعة آداب أمته بجشع ورغبة كما ينبئنا في مقدمة « ملوك العرب » . وظل يروض نفسه عليها حتى أسلس قيادها . إن اطلاع أمين الواسع العميق يبدو في ملوك العرب حيث لا يغفل عن شعر أو نادرة يؤيد بها قوله ويدعم كلامه . وقد ياتيك بالفاظ وضعية لا تنقاد في الاستعمال إلا للجهاينة اللغة والاختصاصيين فيها . يدللك هذا الاستعمال والاستشهاد على سعة اطلاعه ، كما يدللك (اللحن) - وهو نادر في ملوك العرب ، كثير في (الريحانيات) - على أنه معلم نفسه كما قال .

فمن هذه العناصر الثلاثة تتألف شخصية الريحاني ، فإذا أضفنا إليها قريحته الوقادة ، ولسانه الذرب ، ونفسه اللينة العريكة ، رأينا الرجل العربي الفذ الذي أجّله ملوك العرب وكرمّوه، ووقّره الأدباء والشعراء وعظّموه . لم يذق أديب عربي في عصرنا الحاضر ما ذاقه الريحاني من تعظيم وتبجيل ، فبيته كان مزاراً إذا حل . وهو كان موضوعاً يتساجل فيه أكابر الشعراء إن رحل .

لقد مر أمين في أدوار عديدة ، فحبه الطبيعة واطلاعه الواسع على آداب أمته وتاريخها ربطه بوطنه ، ونفسه الأبية التي تكره التدجيل والمحاباة والرياء سلخته من مدينة الغرب وجذبتة الى أمته ، فأطل عليها من تلك النافذة ، نافذة حب الوطن الذي تثيره محبة الطبيعة. إن ضوضاء أميركا يكرها رجل نشأ كالريحاني ، ولهذا ظل يعمل مسيراً بعوامل باطنية حتى أفلت منها عائداً إلى بلاده يدعو الى الاتحاد والاخاء والحرية .

في المخالفة الثلاثية

قال الحجاج في إحدى خطبه النارية: إن العلم يوشك أن يرفع، ورفع ذهاب العلماء . لقد كادت أقطارنا العربية ان تفقد هؤلاء ولكن ما نرجوه من الأحياء يحملنا على مخالفة رأي الحجاج . إن ثلاثة آلاف سنة تكون أرزة خالدة في رأس لبنان ، أما دماغ كدماغ أمين الريحاني فلا أستطيع تحديد الزمن الذي يصنعه .

عرفته صلباً كالآلماس وان لم يكن له بريقه ولمعانه . ربطته بالمطران
الزغبي صداقة غير حائلة ، ولكن ذلك المطران التقى لم يستطع أن يأخذ
من عقيدة صاحبه لا حقاً ولا باطلاً . بقي المطران في حظيرته يرعى
خرافه ، وظل أمين جاداً وراء قطيع يرعاه في مروج الفلسفة الحديثة .

الريحاني وجه لبناني محض استمد لونه من أديم الجبل . مربوع القامة
كبير الهامة . كان وجهه ثعلبياً في فتوته وشبابه ، ثم استحال وجهه أسد
غضنفر حين اكتهل وحباً الى الحسين . ترفرف على محياه المهابة متوقراً ،
ويقرب من القلب متبسماً ، أما اذا حمى غضبه فشرارة من جهنم ...
يصيح ويماحك ويظفي سراجاً مشعلاً ...

تدارسنا أدبه تلاميذ ، وأول فصل عرفني به ، قرأته في المقتطف
موضوعه « وادي الفريكة » . وفي جامعة العالم رأيت الريحاني ، أول
مرة ، على منبر جمعية شمس البر ببيروت « ١٩ آذار سنة ١٩٠٨ » . سمعته
يخطب الناس فخلت أن عاموس النبي قد أفلت من بين الرعاة ليتنبأ قبل
الزلزلة بسنتين ...

علقت بذاكرتي عبارته هذه : الكاهن والطبيب والمحامي ثلاثة عقبان
من بيضة واحدة . وارتسم في مخيلتي يومذاك شكله القسسي أو الفلسفي :
شعر مسترسل كما قال امرؤ القيس : غدائره مستشزرات ... ولم تفارق
مسمعي نبرات صوته الخورسي وحركاته المسرحية التي تلبس عبارته
ثوباً جديداً ، وتودع فيها روحاً محيياً .

أمين ثائر متمرد ، هو رجل كفاح ومن كتاب المعارك . يثير خلفه ،
وحوله ، وفوقه ، وتحتة غباراً لا يشق ، يقول كلمته ويمشي ، ينفض نعله
على عتبة كوخه ، ويعد حذاء جديداً لرحلة أجد . الريحاني يؤمن بأدبه
واثق بأنه خلق أدباً جديداً رحمة بالناس ، وقد أشار الى هذا حين ناجى
جبران يوم عاد الى وطنه محمولا :

« جبران ، أخي ورفيقي وحببي ،

ان للشهرة يوماً ، وللحزن يوماً ، والباقي للبنان ،

لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون الذي يضمك اليوم ، وغداً
يضمني اليه .

ومها يكن من رسالة حملناها الى الشرق والغرب فسوف ينصف
الزمان .

ومها يكن من أدب بدعناه ونشرناه رافة بالناس فسيعدل المستقبل .

وان ترابي ، غداً ، في الفريكة يناجي ترابك في الوادي المقدس .

ومن ظلال الصنوبر ، الذي سيظل ضريحي ، سيحمل النسيم قبلات
عطرة ، صباح مساء ، الى ضريحك في ظلال الأرز .

ان شيئاً من هذا لم يكن . لا صنوبر ولا بلوط . قبر متواضع في
العراء ، حده شجرة او شجرتان لا أذكر ما اسمها ، وقد جمعنا رفاتنا في

صندوق حين ماتت شقيقته سعدى ، لتوسع لها في ذلك المدفن العائلي في
(الشاوية) .

يخلط أمين - دائماً - التصوف بالعمل المجدي ، يقدم (بزوراً
للزارعين) وهو كبير الأمل بالغلة ، ما تنكب عن صراطه قط . أغراه
لقب الفيلسوف فطرب وانتشى وتفلسف حتى في المواضيع التي لا تربطها
بالفلسفة أصرة قربي . كان الإصلاح الديني هدفه الأسمى ، وأولى معاركه
ذلك الخطاب الذي أذاع اسمه بين الناطقين بالضاد . القاه ليلة ٩ شباط
سنة ١٩٠٠ ، فهبت بعده ريح الأمين وكتب إليه البطريرك الماروني مجابياً .

« ما قلتموه في هذا الشأن ، وان قلتموه عن مقصد حسن ، فهو خاضع
لتأويلات عديدة . يمكننا التساهل من حيث الطقوس والعوائد المذهبية ،
وأما الحقائق الموحاة من الله فلا يمكن التساهل بها مطلقاً ... ثم اننا لم
نستصوب ما قاله من اعترضكم ، في هذه المناسبة ، من الكلام الجارج
الخارج عن حد الاعتدال » .

ونوهت الصحف العربية في العالمين بجرأة أمين فاشتد ساعده ورمى .
كتب « المكاري والكاهن » فارتقى في سماء الشهرة درجات ، وأخيراً
كتب « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » فبلغ الأوج . انقسم فيه
الناس ، فأصبح فيلسوف الفريكة عند بعض ، والفيلسوف الصغير عند
آخرين ، ولكنه ظل يقول كلمته ويمشي .

ثم كتب بلغة شكسبير فعرفه الغرب كما عرفه الشرق وصار من كبار
الكتاب في اللسانين السامي والآري .

الريحاني هو ابو الشعر المنشور في الأدب العربي ، وهو الذي مهد
الطريق لجبران وعبدها ، ولكن جبران طار بهذا الأسلوب على أجنحة
رياح الفن والإلهام ، ولم يقع الا على أعلى الندى .

الشعر المنشور بناء بلا زوايا ، فيه جمال مطلق . له أعداء ألداء حيث
وجد ، فعدوه لعبة يتلهى بها المقصرون عن الشعر (الرسمي) . وله
أحباب أوفياء يرون فيه متعة لا ترى في الشعر المقيد . فلا بدع ، اذن ان
اختلف القوم عندنا في هذا اللون الجديد من الأدب . اذكر لك قول ناقد
فرنسي راح يتهم بهذا الشعر متمثلاً بقول لافونتين بلسان الخفاش :

« أنا عصفور ، وهذان جناحاي . انا فارة ، فلتحي الجرذان ! »

ومهما يكن من شيء فادبنا العربي مديون لأمين بهذا اللون الطريف ،
إن النواة في أدب أمين محسوسة ملموسة . هو رجل كفاح قبل أن يكون
صاحب خيال وشعر منشور مائع ك شعر الذين قلدوا الريحاني « وأكلوا من
جفنته ، وشربوا من إبريقه ، وناموا في خيمته » . كان الريحاني في كل ما
كتبه رجل كفاح وإن رأيناه يتدروش حيناً ويتصوف تارة . وفي كل
أطواره كان يشتد كأن النبوة خلعت عليه مسحها .

ما اشتد ساعد جبران وتوغل في أدغال صوفية الشعر المنشور ، حتى رأينا الريحاني يطير عنها الى قمة أخرى تاركاً لها رداءه كإيليا . فلم يقم منا ، بعد الشدياق ، من جالس ملوك الأرض والرؤساء مجالسة الند للند كالريحاني . حمل هذا النابغة العصامي لواء الشرق العربي في الغرب ، وفاق الشدياق في المعترك السياسي بقلمه الأجنبي . أبدى للعالم وللمستعمرين من بني أمه وجه العرب النبيل بكل ما فيه من خطوط فارقة ، وعلامات مميزة ، فسمعت كلمته في أعظم نوادي الغرب وقصور الملوك والرؤساء . ظل أميناً لرسالته في الحقيقة والخيال ولم يحد عنها قيد شعرة ، ومن قرأ جميع ما كتبه يده يرى أنه لم ينقض بنداً واحداً من بنود المحالفة الثلاثية . وإذا صح النبا الذي نشرته جريدة البشير الغراء يكون الذي (انمسخ) واعترف وتناول هو أخوه ألبير وصهره يوسف صادر وصديقه ابراهيم حتى . أما أنا فاقدر أن الريحاني لم ينقض حرفاً من المحالفة ، فقد عرفته صلب العقيدة . ثم ظهر في تركته - ما ترك إلا الحبر والورق - ما صدق ما زعمت .

* * *

يسال الكثير من الأدباء والمتأدبين عن المحالفة الثلاثية النادرة الوجود ، وهذا الكتاب عاد إليّ بعد هجرة طالت ثلث قرن ، استعاره مني الخوري ي. ع. فراودته نفسه أن يملكه ، وبعد أخذ ورد وتوسط محام

صديق لي وله (ا. خ.) رجع الحروف الضال الى قطيعي ، وهو الآن في مكتبتني ، محوط باسم الله والحرية .

الكتاب يحمل هذه العبارة بخط الريحاني : « هدية المؤلف الى صديقه مارون عبود ، الفريكة ٩ حزيران سنة ١٩٠٨ » . أجل قد صرت ، بعد تلك الزيارة الطريفة التي تحدثت عنها في كتابي (مجددون ومجترون) بمناسبة الكلام عن فليكس فارس ، صديق الأمين .

المخالفة الثلاثية كتاب رمزي تلبس فيه الحيوانات الجيب والطيالس : الحصان والبغل والحمار والثعلب والجمال والثور . ويتخلقون بأخلاقنا ويتحدثون بلغتنا . أما حكايته فهي أن هذه الاسرة الكريمة أشفتت من زوال مجدها وأبهتها واندحار عظمتها أمام البخار والكهرباء والقطار والأتومبيل . فدعاهم الحصان سيد هذه البطون والأفخاذ الى مؤتمر يعقد في اسطبله لبحثوا عما يدعم سلطانهم فلا ينهار . وكانت اجتمع طريف تبادلوا فيه الأنخاب وشرحوا العضلات الكبرى . فظهر في المجتمع الثعلب - هو أمين - فأنكر وجحد ، وأنذر وحذر ، وازدرى ما يحترم اولئك . وأخيراً أخذ الثعلب المتمرد بجريرة الكفار المارقين ، وحوكم أمام المجلس كجاحد ، وساموه أشد أنواع التعذيب . وأخيراً قضا عليه بالموت - إلا إذا تاب ورجع واعترف وآمن بما جحد ، ولكن الثعلب لم يرجع عن غيه .

الجلاد : ألا تريد أن تنكر اعتقادك إذن .

الشعلب : إني أموت لأن الحيوانات نيام ، أما أنتم فستموتون لأنهم سيكونون أيقاظاً .

فالقى الجلاد به في النار قائلاً : « فلتكلم مشيئة الله » .

وكذلك قال الشعلب الذي يعتقد بالله وحده . ثم ظهر الأسد - المعني هو الأسد الذي انتصر من سبط يهوذا - فخاطب الحصان والحمار والبغل : أطلب رحمة وليس ضحية ، وقال وقال... ثم تلبدت السماء بالغيوم وغاب الأسد في سيارته عن الأبصار .

قد يقال : ولماذا اختار أمين السيارة ، ألم تكن الطائرة أنسب ؟ نعم يا سيدي . ولكن هذا الكتاب قد كتب قبل ميلاد الطائرة وذريتها الكريمة ...

أما الحصان والبغل والحمار فذهبوا إلى اسطبلهم منكسين وجوههم خاسئين . وبينما هم ذات يوم ينوؤن تحت أحمالهم ، على طريق السكة الحديدية، إذ صفر قطار ، العلم القائد عربات البخار الكهربية والاختراعات ، ومرّ عليهم ، فسحقهم سحقاً ، وتطايرت رؤوسهم وبقايا أجسادهم في الجو وتشتت أعضاءهم المنقطعة على طريق التمدن الحديث .

قلت لك إن كتاب المحالفة الثلاثية نادر ، ولهذا سبب لا بد من اطلاعك عليه . زعموا أن ناراً سقطت على مطبعة الهدى التي طبعته سنة ١٩٠٣ فاحترق . ومنهم من يغرب في الأسطورة ، فيقول : إن النار أكلته وحده ،

كما كانت تأكل النباتات في عهد بني إسرائيل . ومنهم من قال : إن المطبوعة
والمطبوعات احترقت جميعاً .

سيان عندي هذا وذاك . إن جزء جدعون حكاية طريفة سواء إن
ابتلت وحدها أو تبللت الأرض دونها ، فكتابي عندي .

كان أمين حين كتب المحالفة الثلاثية رطب العود فصاحة وتركيباً ،
أما عقله فناضج ، وهو في كل طور قلماً بالي بسيبويه والفيروزآبادي ، بيد
أن لفته قد صحت في آخر العهد ، فعبرت بالتدقيق عما يحول في ذلك الرأس
الكبير .

من حسن حظي أنني عدته بعد كبوته المشؤومة ، فرأيته في مستشفى
ريز ممدداً على سريره . خلت المصيبة هينة ، ولم أكن أدري أنها النومة
الأخيرة فلجات إلى النادرة كعادتي معه ، كلما التقينا ، فقلت له :

أتركب يا أخي في الستين كما كنت في العشرين والثلاثين . فابتسم
ابتسامة جارحة وقال : ما كل الوقعات تكون في الجورة ، روح بقا .

فقلت له : كل البلاء فيها ومنها يا أمين ... ورحت من عنده مطمئناً
إليه حتى نعي إليّ في عين كفاع ، بعد مفارقتة بأسبوع . ثم سمعت ما حف
بسرير موته من أقاويل فتذكرت قوله : الكاهن والطبيب والمحامي ثلاثة
عقبان من بيضة واحدة .

أما العقاب الأخير فما انقض على هذه الفريسة ، لأنها لم تترك شيئاً .
اللهم إلا ذكرى العبقريّة الفذة الخالدة .
لا بد من واحدة .

زرت مرة أم أمين ، في غرفتها الخاصة ، فكانت جدرانها معرض
صور قديسين وقديسات كأنها حائط اللعازارية قبلما هدموه . كان قد ثقل
سمعها ، فقال لي أمين ، بعد أن استعرضنا تلك الإيقونات وسميتها له
بأسماؤها ، لأنني اختصاصي : ما رأيك يا مارون ، سنبقي لذكراها بعد
الوفاة هذه وهذه .

قلت : ولماذا آثرتها ، قال : لأنها تخصها بعبادة .

قلت : تريد أن تقول بعبادة ، فنكزني قائلاً : وطّي صوتك .

وعدنا إلى الحديث معها فوعدها وعد حر بالغفران الكامل عند الموت
بدون اعتراف ومناولة شرط الندامة بقلبيها ، فتهللت وتعللت . ولكني لم
أبر بوعدي ، فطالبني أمين بذلك أكثر من مرة لأن أمه تلح عليه - لبيتك
تقرأ الخطاب والجواب في هذا الصدد .

أسفت جداً لأن أم أمين ماتت ولما تفرز بهذه النعمة ، وان تكن قد لا
تحتاج إليها لصلاحها وتقواها . والتقيننا مرة بعد موت تلك الأم الطاهرة
فقال لي أمين : ما قولتك ، أتدخل أم أمين الديار السماوية بدون (باصك) ...
فأجبتة : إذا قالت إنها أمك فمار بطرس لا يردّها .

فانتفضت يد أمين التي كتبت المحالفة الثلاثية ، فاصيبت بما أصيب ،
وكرر في الضحك ، وكان صمت ...

وقصارى القول أن فيلسوفنا عاش حراً ومات حراً ، وما أقل من
ترافقهم مبادئهم كاملة حتى يبلغوا الماوى الضيق .

لست أزعم أنني أحطتكم علماً بالريحاني ، ففي ريجانياته وكتب
رحلاته ، ورواياته خير كثير وسوف نمر بها عجالي ، كما مر أمين بالدهناء .

إن تأليفه أشبه بمحصن أعد فيه صاحبه عدداً وعتاداً ، منها القديم ،
ومنها الحديث ، من زمن اليونان والرومان إلى عصر الانكليز والأميركان ،
من الكبش والمنجنيق إلى الطائرات والدبابات ، ومن المدي الحجرية إلى
الخناجر الفولاذية ، والسيوف اليمنية ، إلى القنابل الديناميتية - لم تكن
النرية والهيدروجينية خلقت بعد - فيهاجم بها من مرامي حصنه كل من
خفق برأسه أمام مرقبه العالي . ولم ينج الحكام والمستعمرون من قذائفه
هذه فأذاقوه طعم التشريد والإبعاد .

أما أسلوب أمين ، أسلوب الشعر المنشور وغيره ، فله وحده ولا يد
لغيره فيه ، وبه غزا العالم العربي فترة من الزمن ، فكان في كل قطر حلتته
ركابه منارة تتجه نحوها الأنظار ، وقد أقر له بذلك أبطال الفكر وقادة
الأقلام في كل قطر ، حتى في لندن ونيويورك . كان أديباً عالمياً ، وسفيراً

عالمياً عربياً شرقياً - مسخراً - رفع رأس بلاده في أكبر عواصم العالم الحديث .

حيا الله تلك العظام الرميعة ، فهي لم تسترح إلا في القبر . أحب ذلك الوادي - وادي الفريكة - صغيراً ، فنام على كتفه في (الشاوية) نومة الأبد .

طاب نومك يا صديقي .

في الريحانيات

- ١ -

نكاد نجد في كتاب (الريحانيات) - وهو بضعة مجلدات - شخصية أمين كاملة ، فلا يفوتنا خط من خطوطها الأصيلة ، ولذلك قال لنا : « إن اعتقادي كامل بل ظاهر في سطور هذا الكتاب وأضعافها ، فعلى القارئ أن يعمل الفكرة قليلاً » .

لقد عملت بنصحه ، وشكرته لأنه كفاني مؤونة عناء التفتيش عن عناصر شخصيته ، وإن كنت لا أكتفي بهذا ، بل سوف ألحق به في كل مكان فلا أدع مخزماً طلع به . أما الآن فنحن هنا ، ولهذا أقول : كانت فيلسوف الفريكة من رجال السمات ، وإن لم يكن كثير الصلاة ، قد أخذ السجود جبهته ، كالقاضي أبي يوسف . فالذي يسميه غيري إلحاداً وكفراً

وزندقة أسميه أنا « تبدّلاً » . فليس أمين من المعطلة ولكنه مؤمن حر
ترك بنيات الطريق ليسير في الجادة. وما اتجأه إلى الطبيعة وجعله منها
هيكلاً له إلا ضرب من أكليريكية أخرى ، وإن عدّه الناس مارقاً . هذا
ما يسميه علماء النفس استعادة رغبات الطفولة . فأمين في أحلام يقظته
يحقق فكرة لم تتحقق ، فقد تكون (لقنته) أمه ، صغيراً ، أن ستراه يوماً
خادماً لمذبح كنيسة مار مارون ، جارة بيتهم .

ما كتب أمين مقال (أبرشية الفريكة) إلا مدفوعاً بالانفعالات
الباطنية التي يخضع لها من حيث لا يدري حتى في تمرده. ففي عروق أمين
شيء من دم خدام المذبح ، فجد جده كان مطراناً يدعى باسيلوس ، كما
خبرنا الاستاذ جرجي نقولا باز ، الأخصائي في تراجم الأدباء اليوم ، ونصير
المرأة سابقاً.. فمن صلب ذلك المطران الجليل تمشى أمين في ظهور الأجداد
حتى وصل إلينا ، فتكررت « الرغوة » وأصبحت هذه « الصفوة » كما
عبر الكاهن الجليل الأستاذ نعيمه - أحد الأبدال الأربعين المستقرين في
لبنان - حين ابتهل مع أمين من أجله ، وأجل نفسه ، وأجل هذا العالم
المنكوب برغوته ...

لم تكن « المحالفة الثلاثية » إلا مجمع أبرشية فيلسوف الفريكة ، عليه
اعتمد أسقفها العظيم في تديرها وإدارتها روحياً - لا تنسَ أنها أبرشية
بلا رعية - أما (الريحانيات) فهي مواعظ هذا الحبر اللاطقي لا يعيد
فيها قيد شعرة عما رسمه في مجمعه الأول . وقد أعلن ذلك ، أو جدد نذره ،
بعد ثلاثين عاماً ، حين طبعت ثانية قصة « المكاري والكاهن » فقرر متابعة

هذه الحرب العوان التي قامت طول الحياة بدون هدنة تذكر .

ثم دامت إلى أن أذن الله لهذا الجندي بالإجازة الأخيرة ، وقد أجز كما علمنا في ١٣ أيلول عام ١٩٤٠ .

لا بدع إن ظل صاحبنا يناضل في هذا الجهاد ، فهو يرى الثبات من الفضائل العظمى ، كما قال ، حين مات زعيم المذهب الدارويني في الشرق : « مات شبلي الشميل ثابتاً لا شك في اعتقاده ، او عدم اعتقاده ، وأمره في الآخرة لربه » .

نشأ الريحاني على كتف ذلك الوادي بين ذراعي والدة صالحة حصان ، اتقد قلبها إيماناً فشع فضائل دينية لا تعرف الحدود ، وبعد امتلاء رثيته من هواء ذلك البيت العامر بوصايا الله العشر ووصايا الكنيسة السبع تنشق هواء أنقى تحت الزيتونة عند خوري الضيعة . ولعله الخوري يوسف يواكيم النبي تخيله أمين في قصته « المكاري والكاهن » ، فهده الصراط المستقيم مكافأة عن جميله ، فمات المسكين في مغارة قزحيا ، حيث منح الشهادة الفلسفية الكبرى ممهورة بطابع ذلك المعهد ، مداس أبي القاسم الطنبوري .

أما حب الطبيعة الذي تعج به الريحانيات فغرسه فيه ذلك المحيط الواسع الطليق حيث قضى اثني عشر عاماً تناجيه الطيور الفصيحة من الحسون وغيره فتنسيه غطرسه معلمه القسيس . ركب الولد رأسه فهام بين أشداق الصخور المتبسمة عن الزهور البهية الذكية ، فرأى في حضن

الطبيعة جمالا دونه وجه معلمه الكالح . وقد يكون هذا هو النبي دس في نفسه تلك البغضة للطقوس التي بشم منها صغيراً ، فثار عليها كبيراً ، ورب أكلة حرمت أكالات .

إن ما لمحتة في الريحانيات يؤكد لي هذا، فحافظه أمين محشوة عبارات طقسية تراكت فيها حين كان العلم كالنقش في الحجر ، ولكن حجر أمين كان رخوآ... فامحت المعاني وبقيت الألفاظ رغماً من التكرار الذي يزعم غوستاف ليبون أنه يصير الصدق كذباً. أما انا فارى ان الريحاني، وان حمل على الطقوس حملاته العنيفة ، فهو يعمل مثلها ، إنما بصورة اخرى ، أي انه يمثل الرواية عينها ولكن على مسرح في الهواء الطلق ، وهذا صحي أكثر ...

يخبر أمين أن في عروقه شيئاً من دم العرب ويعترف بعرقه الفينيقي بخطبة في صيدا. ثم يرى في كتابه ملوك العرب أنه عربي أميركي انكليزي في شخصية لبنانية . وكل هذا التنوع ، بل كل الذي صادفه من إعظام وإجلال في عواصم الدنيا لم ينسه الفريكة ولبنان .

أما كيف ضيع الفيلسوف إيمانه وشك منذ حدثته ، فأليك ما يقول في ذلك : « وأذكر اني صليت مرة في نوبة غضب وحسد، فدعوت بالموت على ولد سبقني الى نقطة مستحبة تظلها صخرة ، وقد نبت فيها طيب البنفسج الغزير . وما هو إلا اسبوع حتى انتشر الجدرى فذهب بحياة ذلك الولد ، رفيقي في اللعب . فنقمت على القديس لأنه استجاب طلبتي .

وآليت على نفسي ألا اصلي له بعد ذلك وألا اجمع الأزهار باسمه . لأنه اذا كان قد سمع صلاتي ، فما احراه ان يسمع مني ايضاً صوت الندامة .

أفلا يستوجب ما رواه لنا الأمين ان نعدّه في الأبرار والصدّيقين ونذكره في الطوباويين ولا سيما بعد ان بكر في اجتراح العجائب ... فقتل بمعونة قديسه وشفاعته طفلاً بزهرة !! ليتك تماديت يا عزيزي في صلواتك الحارة المقبولة لتمحو بها العالم بعناية قديسك السميع المجيب ...

إن فيك يا اخي شرارة متقدة، إذا ما اخمدت قلبها اشتعلت اطرافها وهي التي قولتلك : « اسفي على امرىء يدب حول جذور الدين في قيود من الإيمان صدأى ». دنت بالحب العام فرأيت ناره طاهرة مطهرة، وسمعت، وحدك ، جوزة أفقا تناديك « وإن رقاغ الإيمان مثل فلس الأرملة » ولكنك أنفت من هذه الرقاغ فقلت : « وإن كان ثوبي مرقعا ، او عقيدتي مرقعة ، فلا بد ان تأتي ساعة أنسى فيها نفسي فيزول انتباهي ، فتبدو ذلتي » .

وقد تقول ايها القارىء ، بعد كل هذا : وما اعتقاد أمين ؟ فاجيبك : ان اعتقاده كمعتقد اكثر الناس ، والخلاف قائم بينه وبين مكفريه على الدرب لا على الطاحون ، الفرق بينه وبين مكفريه انه يرد الأمانة عيناً ، ديناراً بطفرائه ونقشه ، والصارف يريدونه « فرطاً » ليعلق بالكيس منه شيء وإلا فما الفائدة ... يريد أمين ان يتصل بالمعمل توأ ، اما اولئك فيأبون ان يكون شيء له من هذا بدون واسطتهم .

يقول لنا أمين : « وأما دين أجدادي فقد كان في جيب قبائلي يوم

ركبت البحر مرتحلاً، ولكنه يقول أيضاً : السير في شوارع المدن الكبرى يذكر الإنسان بالإنسان ، واما السير في الوادي او الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم . اما خلود النفس فيقول فيه : « نعم انا على يقين ان الفكر لا يموت والنفس لا تفنى » . وفي أثناء كلامه عن الشميل ايضا يصرح : « ولا ريب عندي انه سيكون من المقربين إذا آمننا بما أنزل في الكتب المقدسة . بل إني على يقين انه أسعد حالاً اليوم – ولا عدمية لمن كان مصباح هدى في الناس – مما كان بالأمس » . أليس لمثل هذا القول استحق أرسطو الوثني لقب المعلم الإلهي ؟

اما صلاة أمين المؤمن فطويلة واليك شذرة منها : « أبانا الذي في السهوات، كن معي في الحياة وفي الممات، وإذا زدتنى قوة فزدني، يارب، تواضعاً، ولا تمت فيّ فضيلة إلا لتحبي فيّ أخرى . انت منحتني عقلاً لأفكر ، فإذا فكرت قليلاً فلا تلمني – إن وكلاءه الجبريون يلومون – خذني بحلمك الواسع يارب ، وإذا طلبت منك الرحمة لعبادك في أرضك فاستجب ، يارب ، طلبتي » .

وله صلاة أرفع من هذه كان يصليها في الصحراء وقد جاء فيها :
« إنك إلهي ولا إله لي الآن . وقد أجابه إلهه كما يقول :

« اني نبض الحياة فيك ، وروح الحب فيك ، ونور الحكمة فيك ،
كن عليها أميناً فهي الألوهية ديناً وبقيناً » .

فالريحاني إذن مؤمن كبير حتى في ليالي شكه المدلّمة ، لأنه لم يجحد المحرك الأول قط فقال في شعره المنشور يخاطب أخاه الإنسان : « في وفيك

سر أبدي عظيم ، لا يكشف الحديث من العلم عن غامضه ولا القديم .
الجرذان في قبوك لا يعرفون إذا كان القبو ثابتاً الى الأبد او الى حين . لا
يعرفون من شيده ولماذا ، انما هم يعيشون في زاوية منه ، فيضاعفون نسلهم
ويضاعفون بذلك عذابك .

وأما الشياطين ، وهي عقيدة جوهرية جداً ، فيقول فيهم امين :
« ليس هنالك شياطين غير بشرية ، وعالم الجن هو عالم الوهم والخيال » .
وأخيراً يلخص امين دينه بهذه الكلمة الواضحة : « لا دين لي اسماً ورسماً ،
ولكني أعتقد بالله أئبنا اجمعين وأعتقد كذلك بالإخاء البشري » .

فما تقدم يتضح لنا ان الريحاني هو عدو التقاليد لا عدو الله والبشر ،
كما يحاول ان يقنعنا نفر من الناس . ان اعتقادي الراسخ بالله هو من تلك
التركة التي اورثته إياها الأم ، وهذا الميراث لا يزول منا حتى تزول
ذواتنا .

يقول علماء النفس : إن الانسان يتفلسف من قيود الدين في دور
المراهقة . وحسب تحقيق الأستاذ باز كان امين في هذا الطور حين ترك
دين اجداده على المرفأ في جيب قبائه كما صرح لنا ... فشكراً لأمه الصالحة
التي لقنته تلقيناً لا إكراه فيه ولا رعب ، حب الله والإيمان به . فليتعض
المربون وليعلموا ان الدين لا يعلم بالعصا . وكيفما كان شان الريحاني فهو
ذو عقيدة ثابتة وليس كالذي نظم في رباعياته خطرات افكار الفلاسفة
شعراً . إن للريحاني معتقداً ما حاد عنه قط ، وقد لخصه الشاعر العربي
بقوله :

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم
وما عليك إذا أذنت من باس
إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً
الشرك بالله والإضرار بالناس

أما ما يعتقده أمين في قصيدته المنشورة « ربة الوادي » ، وخصوصاً
في النشيد الخالد الذي نظمه في رثاء اخته الطفل فأشهد أنني عجزت عن
فهمها . تراءى لي أمين في القصيدة الأولى انه أقدم من الهيولي ، ولعله من
لدات الله ورفقائه في المدرسة ... وقد كنا يتنزهان معاً على وجه النمر
حين كانت الأرض خراباً يباباً . إنه وجد منذ الأزل وسيكون بعد
الأبد . ولعلها شطحة صوفية مرت في سماء حياته مرور النيزك في ليالي
الصيف .

وأما قصيدته في ابن اخته ففيها من هذه الطلاسم والعقد المنفوثة ،
ولكنها تفهم بعد إعنات الروية ، لقد تكلم فيه وجدان شاعر كبير أبرز
لنا كلامه في ثوب بهيج منمنم ، وهكذا صار ذاك الطفل خالداً بلا جد
ولا كد :

فديوان ربك هذا الوجود وفيه السخيف وفيه البديع
وأنت ابن اختي بيت القصيد وخالك شاعر رب الربيع
صدقت يا أمين ، فما قصرت أبداً عن جون روسكين ، فانت شيخ

مشايخ شعراء الطبيعة عندنا ، لقد خلّدت وخلّدت كما خلّد شكسبير
(صاحبه) المجهول .

فمن هذه النوافذ التي رأيت خلص أمين الى مقاومة التعصب الذي
رآه شر الآفات في أمة تشعبت أديانها وتفرقت . كان لا بد من حملاته
المعهودة على الفئة التي هي ملح الأرض ، فكانت الحرب بينها سجالات .
فكل ما كتبه في الريحانيات تفوح منه هذه الرائحة ، ثرة بالتهديد
والتقريع ، وطوراً بالسخر والهزاء ، وأحياناً بالتهكم ، وآونة بالتصريح
والغمز . مساكين (أباؤنا) رجال الدين فهم لا يكرهون جميعاً ، ولكن
القضية عند أمين قضية حرب وجهاد، فهو لا يستثنى من المعسكر أحداً:
إنها الحرب .

تذكر انني قلت لك ان الريحاني من كتاب المعارك ، وأمد كلام
عريته المنبر ، يهاجم منه خصومه فيبغتهم ، ثم يدعهم وشأنهم كالمصعوقين
وفي كل مقام له مقال يثار حوله الجدل. اسمع ما جاء به أمه - وأمه أمته -
عند عودته أخيراً الى «أبرشية الفريكة» :

« قالت الأم : وما الذي جئتني به بعد هجر طويل من البلدان التي
سحت فيها ؟ »

جئتك بسكينة الدهماء والنفود، تلك التي تملأ النفس ورعاً وخشوعاً
فتزول منها الهواجس كلها والهموم .
- لا تنفعني يا بني ، لا تنفعني .

– جئتك بقناعة البدوي ومروءته ، بشجاعة البدوي وحريته ،
باستقلال البدوي واطمئنانه .

– لا تنفمني يا بني ، لا تنفمني .

– جئتك بالشمم العربي والاباء ، ببساطة العيش وكرم الاخلاق ،
بالجرأة والبطولة في الشدة والرخاء .

– جئتك يا أمي ، بفكرة سامية من المدينة الأوربية – العمل الصالح
أصح الأديان – وجئتك كذلك بجرية الفرنسي في ثورته، ونشاط الأميركي
في عمله ، وبإيمان الأحرار أجمعين بالحياة والناس .

– لا تنفمني يا بني لا تنفمني .

– وماذا تبغين يا أماء ، يا روح الأمة التاعسة الحزينة ، ماذا تبغين ؟

– رؤوس الاله الذي رأته عيناك ، إله التفرقة والتعصب والشقاق ،

لا أبتغي اليوم سواها .

– ٢ –

وبعد تلك الجولات والحملات ينغمس أمين في المعركة حتى يستولي
على الأمد . كان قصاراه ان يتساهل رجال الدين مع معادليهم في المذاهب ،
ثم سولت له النفس أكثر من ذلك .

– ٦٣٨ –

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على

حب الرضاع وإن تفضمه ينظم

هكذا قال شاعر البردة ، وهكذا نرى الريحاني ، فتطور واتجه
صوب العمل المجدي فصاح بلسان الشرق ، في مصر ، يوم أقيمت له حفلة
تكريم في سفح الأهرام :

« أنا الشرق ،

عندي فلسفات ، وعندي أديان ، فمن يبيعي بها طيارات .

أتحسبها سفاهة مني ، أو تظنها تجديفاً .

قد يكون ذلك قد يكون .

وهناك سر أهمسه في أذنك يا فتى الغرب .

ليست الأديان والفلسفات ما تظنها .

وليست ما تظن أنني أظنها .

فلا للحراثة هي ، ولا للتجارة ، ولا للسياسة ، ولا للتقشف .

إنما الأديان والفلسفات كمصافي الماء .

هي مصافي الحياة ، تصفيها في الأقل من بعض الحشرات والجراثيم .

فأثار هنا الكلام معركة نقد حامية الوطيس ، فقال في ذلك أمين :

« والعجيب الغريب أن ذكاء بعض الأدباء والشعراء كبا كبوة عند هذه

الكلمة التمثيلية ، فاستعاذ بالله من طمطباتيات الشعر المنشور ، واعتصم

منها بشيء من الأدب القديم العقيم ، وبأشياء من السخافات في النقد
والمبتذلات .

ولم تكن هذه المعركة بدون تطور سابق ، فقد سبقتها هذه الكلمة في
صيدا : « الكتب المقدسة تصلح الحياة ولكنها لا تعمر البلاد ، والعلوم
المادية تعمر البلاد ولكنها لا تصلح الحياة . إذن كتبكم المقدسة احفظوها ،
وكتب العلم عززوها » ٧٦ - ٢ .

إن الريحاني من المؤمنين حتى اليقين بعجائب التطعيم ، ولهذا قال
يخاطب تمثال الحرية النيويوركي :

« متى تحولين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية » . وبعد نجوى
قصيرة خاطب البواخر من على جسر بروكلين صائحاً بها : « خذي ،
خذي معك ولو زجاجة صغيرة من هذا الماء المقدس ورشي منها سواحل
مصر وسوريا وفلسطين وأرمينيا والأناضول ، احملي الى الشرق شيئاً من
نشاط الغرب ، وعودي الى الغرب بشيء من تقاعد الشرق . احملي الى
الهندبالة من حكمة الأميركيين العملية ، وعودي الى نيويورك ببضعة
أكياس من بذور الفلسفة الهندية ، اقدفي على مصر وسوريا بفيض من ثمار
العلوم الهندسية ، واقفلي الى هذه البلاد بفيض من المكارم العربية .

أيتها البواخر الآبية حيي عن جسر بروكلين خرائب تدمر وقلعة
بعلبك ، واقرئي أهرام مصر سلام هذه المعالم الشاهقة المشعشة بالكهرباء .
سيرى أيتها السفن بسلام وارجمي بسلام » .

الأتب عليك من بين هذه السطور نفحة من نفحات أنبياء التوراة،
المبشرين بالويل والشبور ... ولو قرأت الرياحاني بحذافيره لرأيت خيرات
كثيرة ، إنه في مكان آخر يصيح بأم تاطحات السحاب ، ويسمي بناتها
دعامل الأرض ، وأخيراً نهتف بمدينة الدولار : « يا نوير كليم يا نوير كليم .
ليذكرنا بصرخة السيد المسيح ، يا أورشليم يا أورشليم » ...

والغريب من أمر هذا الرجل أنه صريح قاس يشتم سامعيه ولا يبالي
كانه نبي له سلطان ، فهو يريدهم أمة تجمع بين فلسفة الروحانيين وفلسفة
الماديين ، يريد لقومه حياة تعظم فيها قوة الجسد وقوة العقل ، وقوة
الروح ، فينادي بالذهب النيتشي الذي توكا على عصاه الاستاذ الرياشي في
درس نفسية الرسول الكريم . قال أمين : « وقد يأتي يوم يشاهد فيه أبناء
الأرض رجل المستقبل العظيم ، وقد ترقى فيه القوى الحيوية كلها ، أي
القوى الحيوانية والبشرية والإلهية ، إلى منتهى الدرجات ، فالإنسان
مركب من هذه القوى كلها وهي كامنة فيه إلى الأبد . نعم إنني ممن
يعتقدون بالنشوء والارتقاء ولا حاجة إلى أن يؤيد العلماء اعتقادي ،
فإنني لمؤيده بما أعرفه وبما أجهله من لوح هذا الوجود » .

ولصاحبنا تنبؤات سياسية صريحة نجدها في الصفحة ١١٥ وما يليها
من الجزء الثاني من ربحانياته وهي تدل على بعد نظر الرجل وشدة إيمانه
برسالته القومية التي عاش لها ومات عليها .

لست أدري كيف أطبق بين قوله : « أحب أن تشع حياتي ولا أحبها
ان تفرقع . أحب ان تكون كأحد الكواكب السماوية ، كسهم من الأسهم

النارية ، وبين قولي إنه من كتاب المارك . فما قولك ، هديت وإياك ، في هذا الحل الوسط وهو أن صاحبنا يفرقع ليدوم إشعاعه ، ولهذا أثر أن يكون كلامه « كلام شاعر مفتون لا كلام متصوف مغبون » .

أحب الريحاني الطبيعة في لبنان عامة وفي أدبه خاصة حباً فائقاً ، ولكنه لا يدين بوحدة الوجود ليؤلها ويندغم فيها ادماً لا ينفك . إن داء أمين لقديم ، هذا الداء الذي لا يزيله الاستهواء والإيحاء ، بل هو يشتد حيناً إلى قوة ضاعت منه في وادي الفريكة ، فيتبدل أسفه على الشباب الضائع حباً غريباً لتلك الصخور العابسة ، فيراها أجمل من الأولب وأبدع من الأكروبول . ها هو في مقاله « غصن ورد » يزرع حبه في سهول الحريرة ، في أنجاد العلم ، على شط نهر الفلسفة ، في غياض الحضارة وفي حقول التجارة ، فيذوي ويذبل ويبس ، حتى إذا ما زرعه في الأرض التي تقبها فارس الريحاني أبوه ، وصلت تحت أشجارها امه ، على كتف هذا الوادي الذي ردد صراخه صغيراً ، غرسه هناك فثبت ونطق ايضاً ...

لقد صدق علماء النفس ، فإذا كانت نزهة واحدة جميلة ، كما قالوا ، تجذب الطفل الى الأبد ، فكيف بمن ينشأ نشأة أمين الجبلية اللبنانية . ولهذا يرى أمين في العراء هيكلًا يوحى ما لا توحيه جميع مباني الناس « إن في ورقة من أوراق التوت سرًا لا يكشفه اللاهوت » . الى الوادي إذا . هناك بين اشجار البطم والزمزريق وتحت أدواح الصنوبر والسنديان أشيد هيكل الإيمان . أراني هناك في بيتي ، في بيت الطبيعة ، بل في بيت الله .

في ظل القويسة والغار ، وبين الصعر والوزال الخنشار ، وبالتقرب
من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء ، وفوق النهر الجاري تحت
قدمي هذا الوادي الرهيب، أبنى لك أيتها النفس هيكلاً من الإيمان . يؤمه
في المستقبل البعيد من إخواني والقريب .

بل أقيم فيه تمثالا للوداد والإخاء . وأدعو اليه كل بشر تحت السماء .
ومع هذه الدعوة إلى الطبيعة، إلى دين السداجة والبساطة فهو يترجى
القيامة كالمؤمنين الرسميين تماماً ، وفي هذا يقول مفتتحاً قصيدة من شعره
المنثور كتبها تذكراً لراحيل دريان :

« على أبواب الجنة تنتظر الأرواح احبابها ،

بل تنتظر الأحباب ارواحها .

آه على المحبين ، المودعين والراحلين » .

وأمين يعلم حقاً أننا مهما تطهرنا من الماضي البعيد، ومهما تعالينا بهمنا
عن الناس ، يظل لنا زملاء وأنداد بين السواد من الناس ، فمن رعيان
البقر والمعزى من يفهم ما نفهم ، ويزعم ما نزعم ، ولكنه لم يؤت منحة
الأنبياء ، فصاحة اللسان وسحر البيان : « إن في قلبي ، اليوم ، شيئاً من
قلب جاري ، وفي قلب الغاب أثراً من آثاري . إلا ان قلبي في عقل هذا
القروي . وعقله في قلبي الخفي . والذي يراه هو تحت الكلاء أراه أنا في
السماء » .

اليوم وكل يوم يا صديقي ، فمهما انتفضت وتنصت فصبغة امك لن

تفارقك جميعها ، ولهذا رأيت (المسيح خير من تالم في الحياة ، وجئت
الكنيسة - بعد القطيعة - لتردد مع الناس ذكر أمير الناس) وفي إحدى
غفلات عقله اليقظ يسأل الريحاني المسيح قائلاً :

« سيدي ، دعني ألقى على كتفك رأسي ، فيذوب تلج فتوري
وياسي » .

ألا ترى مثلي انه يريد ان يكون يوحنا ثانياً ، ففيه حيرة لا يكاد
يعتق نفسه من عبوديتها حتى يجده في اغلالها ، فهو كمن تسوقه عاطفته
إلى حيث لا يريد ، ويتم كلامه عما في نفسه الخفية ، وهو يظن أنه ألقاها
عنه كصحيفة المتلمس ، وإليك الختام :

« وبينما انا اكله - الضمير يعود الى المسيح - في البستان أطل البدر
من شرفة لبنان ، فتركني ذو الجلال مكاني كالخيال ، وذاب في القمر
فوق الجبال » .

فما تقول في (ذو الجلال) أليست من فلتات العقل الباطن . إذا كان
الله يطلب كما علم السيد المسيح : يا بني اعطني قلبك ، فصاحبنا امين
طوباوي من طغمة الأبرار والصديقين ، فالعقل الخفي كالكنيسة البطرسية
التي لا تغش ولا تغش ...

إن فيلسوف الفريكة لا يحدد شيئاً ، فمن آمن بالله واعتقد أن للجنة
ابواباً تدخل منها الأرواح وتنتظر أصحابها عند ابوابها ، هو مؤمن كبير
يستحق التعظيم والتبجيل . وإذا كان الريحاني قد حارب طقوساً فهو

قد دعا إلى طقوس ، إنه لا يريد الإنسان هملاً ، يريد كالمسيح هيكلاً لا يبع فيه ولا شراء . يريد أن يكون رواقياً من المشاة ، لا أكاديمياً على المقاعد الثابتة ... يريد أن يحيي العبادة في برية جنشار ، وعلى بحيرة طبريا ، وفي ضواحي المجدل . وهذا يثبت لنا ان صاحبنا يحاول أن يفلت فيقبض عليه عقله الباطن ، وتتنصر الملكات والعادات المغروزة في اعصابه .

قال غوستاف له بون : « لا يقدر عالم على الافتخار بأنه خرج من دائرة المعتقد خروجاً أبدياً . إن حب الاطلاع على الأسرار والاحتياج الى التدين ، وأمل الحياة بعد موت ، مشاعر قوية لا تموت ابداً » .

أما صاحبه جبران - والريحاني سابق - فقد اتصل من الطقوس كافة في (نبيه) فلم يوص بالصلاة ولا العبادات لا في الوادي ولا على الجبل ، لم يتخذ له كاهناً لا الحسنون ولا الدوري ... وكلا الرجلين العبقريين خطب بنت المسيح الصغرى التي اسمها محبة . ومن آمن بالمحبة دان بدين البشرية الأسمى . ومن هنا انحرف امين الى الاجتماعيات فنادى الشرقيين جميعاً : فليحب بعضهم بعضاً ، اتحدوا .

وأمين ، حتى في اجتماعياته ، عاطفي المنطق كرجال الدين يخاطب الوجدان لا العقل ، فكأنه يعلم أن الجمهور يفكر بقلبه ، وهكذا كانت يستولي على الجماعات ويقنعمهم إلى حين في غفلة من الملكات والعادات

والتقاليد ، حتى إذا تحول عن تخومهم لحقت به تعاليمه تلك إلى أبرشية
الفريكة ...

* * *

لست أزعم أنني أحطتكم علماً بالريحاني، ففي ريحانياته خير كثير .
إنها كما قلنا سابقاً ، أشبه بمحصن أعد فيه صاحبه عدداً وعتاداً منها القديم
ومنها الحديث، من زمن اليونان والرومان إلى عهد الأنكليز والأميركان...
أذيق طعم الإبعاد فتالم ، ولولا العجوز بمنيج ما خاف ابو فراس اسباب
المنية ... إن محبة ام امين فرضت عليه الهدنة فسكت حيناً، وهو الرجل
الضرب الذي عرفناه في معلقة طرفة ، ولسانه أمضى من سيفه الذي إذا
قيل مهلاً قال حاجزه قد .

أما الأسلوب ، فأسلوب ابي الشعر المنشور له ، ولا يد لغيره فيه ، وبه
غزا العالم العربي فترة من الزمن ، فكان في كل قطر حلت ركابه كالمنارة
فتتجه إليه ابصار الشعب وملوكه ورؤسائه .

إن اسلوب الريحانيات يفيض شاعرية وإن شابته ، احياناً ، ألفاظ
مرصوفة مرصوفة . وجل قد تموت عند سماعها من الضحك ، وتؤمن
لأجلها بالبعث ، إذ تراك تسمع لغة شق أنار وسطيح .

في الريحانيات لوان من الأدب : لون، وهو السواد الأعظم ، يغلب
عليه الويل والشبور ، لون يكتسي صبغة نبوية. ولون آخر فيه من سحر
هاروت وماروت شيء كثير ، وهو الناحية الشعرية من أدبه .

في اللون الأول يلبس أمين فرو عاموس ، وفي اللون الثاني عليه
طيلسان مطرز موسى بالأزاهر التي لم يلبس سليمان يوم عرسه كواحدة
منها .

إن الريحاني ذو خيال واسع ونفس يتنازعها المرح والزمت . سخر
كلذع الزنابير ، وهزء كلسع العقارب . أما التهمم الذي ترائح إليه نفسك
فلا تجده في « الريحانيات » انه في « رحلات » أمين تلك الكتب الفريدة
في أدبنا ، والتي بينها وبين كشف الخبا ، والواسطة في معرفة أحوال
مالطة أقرب النسب . الريحاني في هذه الرحلات واحد دهره بكل ما في
هذه الكلمة من معنى ، فهو في رحلاته التي سأحدثك عنها قصاص ومحدث
لبق أوتي من قوة الابداع البياني شيئاً كثيراً .

أما « اللحن » في إنشائه ففأش في « ريحانياته » وقد قل في كتبه
الأخرى ، وندر وقوعه في رحلاته . الريحاني في كتبه الأولى يقول لقد
القوم قد غليت ، ولباب الدار مغلوق ، وحدّ أبي الأسود جهنم ... قد
يجر المثني بالألف ويرفع الحال ، ويخفض التمييز ، ويصوغ المضارع على
هواه ، ثم لا يرضن بالتنادر على شيوخ النحو واللغة ، ويتهمم بهم وبانصارهم
تهكماً مرأ ...

فلو كان صديقنا أمين في عهد عبد الملك بن مروان الذي قال لخالد بن
يزيد : أفي عبد الله تكلمني ، وقد دخل عليّ فما أقام لسانه لحناً ، لما دخل

عليه كما دخل على الحسين وابن سعود ، وفيصل وغيرهم من أصحاب
الجلالة .

إن الريحاني معذور ، فحسبه ما حصل ، فهو استاذ نفسه كما نعلم . إن
كتبه لا تحتاج إلى تصحيح عنيف ، فأخطاؤه نحوية صرفية ليس غير . وجل
من لا عيب فيه - كما يقولون .

أمين الناقد

إن النقد هو أبرز سجايا أمين الريحاني ، فهو ناقد اجتماعي في خطبه ومقالاته ، في كتب رحلاته وفي رواياته ، وقلما خطت تلك اليد المتمردة حرفاً يخلو من نقد ، وقلما تحدث إلى الناس ولم يكن للنقد المكان الأول في حديثه . وهو أيضاً ناقد فني للرسم والتصوير ، فإذا شئت معرفة قدرته عليه فاقراً تلك الفصول التي عقدها حول الفن الإسباني في كتابه « المغرب الأقصى » .

أما النقد الأدبي فقد كتب فيه فصلاً طريفه في كتابه : « ملوك العرب وقلب العراق » . كان الكتاب يبعثون اليه بما ينشرون من كتب فيبيدي رأيه فيها . ولما تكاثرت الظباء على خراش طبع أمين رسالة كانت يملأ ما فيها من فراغ باسم المؤلف واسم كتابه ، ثم يوجه تلك الرسالة - الكليشه - الى اصحاب الكتب التي لا تستحق الاهتمام . أما الكتب التي يؤبه لها فكان يكتب الى اصحابها مناقشاً منتقداً ، وهو في كل هذا ساخر ماكر ... لم يقع في يدي شيء من تلك الرسائل لأنقل اليك أيها القارئ

العزیز شیئاً منها ، ولهذا آثرت ان اتقل بعض نماذج من نقده لشعراء العراق ، وفي هذا النقد يتناول الريحاني شخصية من ينتقد بتصوير كاريكاتيري . قال في احدهم :

« هو في السبعين من سنه الزمني ، وفي العشرين من سنه الشعري . وهو في المصائب ابوها وخالها . على ان السنين والعرج والدرد لا تفل من عزيمته ، ولا تؤثر على نشاطه ، ولا تجرؤ ان تدنو من صوته وقلبه وروحه . فاذا كان لا يستطيع ان يقف كالرمح فإن في نبراته رماحاً ، وفي نظراته شراراً . يحسن المجون فيضحك حتى الجائع في جنازة ، ويسترسل في الشجون فيبكي حتى إبليس . له لهجة الأنبياء وما يصحبها من آيات ، ومن آفات ... وله في التجديف لفظ شريف ، وفي التهكم كلمات تبكم . فهو يقتل إلحاد الخيام بشكوك المعري ليصنع منها سوطاً لشیطانه ومطية لبيانه .

إن للزهاوي آثاراً شعرية نفيسة ، وأنفسها في نظري وأحقها بطول البقاء قصيدته او ملحمته (ثورة في الجحيم) . فكأنه ، وإن اقتفى فيها أثر شاعرین عربي وغربي ، دانتة والمعري ، ليقف في التقليد عند الفكرة الأصلية الأولى ، فهو يخرق الموضوع من باب جديد ، وقد جاءه - أي الموضوع - كسلم مشكك في إيمانه ، وجاء فيه باللطائف والطرائف الفكرية والخيالية .

وبعد أن لخص أمين موضوع « ثورة في الجحيم » ووصف جبن الشاعر

أمام الملكين منكر ونكير قال ناقلاً : « فلا عجب إذا جبن وارتاب وفقد حتى لغة الشعر فنطق بالثر المنظوم » ... ثم دلّ على الفاظ النثر المنظوم وعدّ منها - لسوء حظي - و (فيه بثور) قائلاً : « إنها من مالوف النثر بل من الحشو ايضاً . أما الوصف فلم ير في وصف الزهاوي للجحيم شيئاً جديداً » بل جاء « وصفه للجحيم والنعيم وصفاً تقليدياً ، صورته دكناً واستعاراته بائخة » .

وقال في الشيخ رضا الشبيبي : « ومع ذلك فهو لا يزال في قيود اختارها لنفسه ، هي قيود التقاليد او بعضها في الشعر والدين . فإن كان قد نفّس غبار النجف عن جبته ، وعنكبوت النجف عن عنته ، فهو لا ينبذ ، - ولا أظنه يستطيع أن ينبذ - من عقله ومن قلبه ما ورثه الشيعي العربي من الأجداد ، أي الإرث الشعري الأدبي الديني . وهذا ما يميزه عن الشعراء الآخرين . فقد يكون أفق شعره دون آفاقهم اتساعاً ، وقد يكون خياله مثل صناعته الشعرية من المقلد المألوف ، ولكنه شديد الحس ، صادق اللهجة ، نقي الفكر ، نقي العبارة ، مع شيء فيها من التجهم والقساوة ، شاعر تقليدي يحترم الماضي ، ويتورع للحاضر ، وينظر إلى المستقبل بعين الرضا والاطمئنان ، وقد يعد ، وهو ضمن دائرة محدودة ، وإن ضاقت ، من المتمردين .

في مجموعة متسلسلة من الشعر أشبه بملحمة وجدانية تتجلى روح الشبيبي في نضارتها ومئاتها ، وفي يقينها وحيرتها ، فهي تحلق في سماء الخيال والحقيقة حول رواسيها العالية ، فتشب من قنة إلى قنة ثم تعود

سليمة آمنة إلى بستانها في (الكراةة) .

وأخيراً قال في صاحبنا النجفي : « هو طير ولا كالأطيّار ، له منقار البومة وصدر الورقاء ، وجانح الهدهد ، وذنب الطاووس وله في الشدو هديل الحمام وصفير البلبيل ، وعندلة العندليب ، هو طير غريب يدعى بين الناس بأحمد الصافي ، ويعرف بالشاعر المجدد والشاعر البائس .

ولد في النجف الأشرف يوم كان الحسن الخلقي والصحة والنعمة تثر كلها في الكون الأعلى ، فأرماقته بنظرة ساعة الولادة ، ولا دنت بعد ذلك من ملعبه ، او من رحله ، او من كوخه .

تنقل من كوخ الى كوخ ، ومن بلد الى بلد ، ومن مستشفى لا يشفي الى مستشفى لا يرحم ، وهو في كل أحواله مجهول غريب . كان يدعى عجبياً في النجف ، وعريبياً في بلاد العجم ، أقسام بين البدو فظنوه من الحضر ، وجاء سورية فظنه أهلها من البدو .

إنه لطير غريب عجيب ، يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما ، وهو كما ألحت وليد برج النحوس . فالدمائة أمه ، والبؤس أبوه ، والسقم أخوه ، والفقر ابن عمه . أما الروح منه فسليمة قوية .

وتذكر الريحاني بهذه المناسبة حملته على الشعر الباكي فقال :

فإذا نحن حملنا على الشعر الباكي الذي ألفه شبان هذا الزمان ، فإننا نحمل على التعمد والتعمل والتخنث في الشعر الباكي ، نحمل على دموع الزور وعلى دموع الخوف والجبانة ، وعلى دموع الشعراء السوداء ،

المكونة من الحبر المزوج بماء العواطف الأسن . أما دموع هذا الشاعر فهي مثل اسمه صافية ، ومثل نفسه صادقة . وهي من نفسه ومن قلبه ، لا من حبر شعره وتبره .

وبقي أن أقول كلمة واحدة في آفة له شعرية تكاد تكون آفة الشعر العربي وخصوصاً في هذا الزمان ، أي الإسراف في الخيال، وفي الألفاظ، وفي المعاني . فالصافي غير صافٍ في عقلياته ، وما هو فيها بالمبتكر المجدد ، وكذلك قل في قصائده الوطنية التي قلما تمتاز عن شعره من سواه .

هذه فقرات من نقد أمين الأدبي أرجو أن تقدم للقارئ صورة عن هذا الكاتب الفذ الذي عالج مواضيع كثيرة في أغراض مختلفة وكان فيها جميعاً بارز الشخصية .

الريحاني المجاهد

بين الجبل والصحرَاء

عاد الريحاني من أمريكا أول مرة ، ولا ثروة له إلا شهرة عاش مغبوطاً بها. عرفته آثاره العربية ببني أمه، وعرفه أبو العلاء بالأمريكان والانكليز إذ ترجمه إلى لغة شكسبير . أضف إلى هذا شعره الانكليزي الخاص وتأليفه التي خطها قلمه بلغة وطنه الثاني . فكان بيته في الفريكة محجة للأدباء من غربيين وشرقيين يحجون إلى تلك الصومعة فيروت ناسكها الذي يجرها إلى بيروت متى قرصه البرد ، وإلى نيويورك متى قلّ الزاد .. يحمل إلى صحف لندن ونيويورك ما يكفيه أجرة مؤونة العيش حيناً في الفريكة فيلسوفاً وناسكاً وشاعراً وأديباً ، وسياسياً ، وعالماً ، يراقب الدنيا عن كئيب فيأخذ منها مادة المعرفة ليخرجها في خلوته صورة طريفة مبرقشة ببيانته الناعم .

نصب الريحاني ميزانه في الفريكة فوضع الصوفية في كفة، والعملية في الأخرى . لا ينظم لحسون الوادي وشرووره قصيدة حتى يعد قبلة

من ذوات الأطنان ليلقيها في بيروت او إحدى الأساكن ضارباً بها حشد آفاتنا وجموعها . مكان معملية في الفريكة يصدر إلى الصحف محصولات متنوعة بعضها روحاني يخذر وينوم ، وبعضها عملي يثير ويهيج . فيينا ترى الشاعر يسبح في عالم الخيال فيطرب ويسكر ، إذا بك تراه يناضل في دنيا الواقع . يهاجم حصون التقاليد النيفة ليدخلها عنوة . وبيننا تراه مائعاً في صوفيته اللامتناهية ، حتى تحسبه أحد الأقطاب والابدال ينادي ربة الوادي بأغاني وأهازيج كأنها اللغو والثرثرة ، إذ به في المدينة يقف مؤنباً وموبخاً هذا المجتمع ليهديه النهج السوي المؤدي الى الحياة المثلى ، ناشراً بين قومه ما يرى فيه تقويم اعوجاجهم . رآهم غرقى في اللجج الروحانية فأيقظهم ، ولكن بمنخس لاذع ، وسوط قارص واصفاً لهم « المدينة العظمى » التي يرى فيها الحياة المثلى اللائقة بأمته .

ثم يترك المنبر ليتحول عن المدينة عائداً إلى عزلته يفتش عن حكمة جديدة ويعد قذيفة أخرى تكون « غب الطلب » .. أما كفاه حياة في الغربية بين شعب لا يعرف معنى السكينة والهدوء والراحة والجمال ، أما عاش طويلاً « بين قوم يأكلون ماشين ، ويقرأون آكلين ، ويعبدون النقود راكضين ، ويعبدون الأوثان نائمين قاعدين ؟ » .

فكما تتناوح الرياح فتهب صباً مرة ، وجنوباً تارة ، وشمالاً أخرى ، هكذا ترى عواطف الريحاني في تفاعل مستمر ، ولكنها لا تتحول عن قطبها الذي ستراه . ما رفع علمه على قبة فلسفته برهة حتى قوض الخيام وأذن بالرحيل ، الى بلاد الدولار . لم يخص أمريكا بجنين ولكنه كان

يؤمها مكرها لا بطلا . يحمل اليها إنتاجه بلغتها فتعد له أسباب حياة مطمئنة تحت سماء الشرق التي فتنته صغيراً وشباً هواه معها .

إن هذا الصوت الخفي لا يبرح يرن في أذن أمين . وهذه الدعوة السرية التي تنضج وتختمر في اللاشعور لا تفتأ تدعو الريحاني منذ سنة ١٩٠٨ ، وسيكون لها أعظم أثر في توجيهه . ففي صدر الريحاني تعتلج عاطفتان : ميل الى الفلسفة والشعر ، واندفاع الى العمل المنتج ، ولا بد من أن ينفصلا ويكون منها الخير الكثير للأمة العربية .

يعتقد الريحاني أن لكل بلاد مزية طبيعية ثابتة دائمة ، وفي كل نفس بشرية شيء من سماء البلاد التي نشأت فيها ومن أرضها . ففيها شيء من تبر وطنها وترابه ، ومن خير هوائها ومن شره ، من فتوره ومن نشاطه ، من هدوته ومن هياجه . وهذه الأشياء التي فطن لها الفيلسوف قد تفاعلت جميعها فوجهته في المسلك الجديد من حيث لا يعلم .

إن رجلا كالريحاني يلتهم الكتب التهاماً ليعيش في بيوت الفريكة المتواضعة كما يعيش في ناطحات السحاب . فالرجل كان يحيا بعقله أكثر منه بعاطفته . في صدره طموح يدفعه دائماً الى المثل الأعلى فيعمل أبداً ولا يمل .

عاد الى أمريكا وكانت الحرب العظمى الأولى فسد بوجهه باب العود . فعاد الى جهاده الأول هناك وراح يدعو أبناء أمته بمحاضراته ومقالاته الى التجند مع الحلفاء ليكونوا أصحاب حق في استغلال بلادهم متى وضعت

الحرب أوزارها . ثم لم يكتف بيت هذه الدعوة في الولايات المتحدة بل تجاوزها إلى المكسيك فأخرجته حكومتها بناء على طلب حليفها ألمانيا . ثم كانت الهدنة وإذا بشيء من أحلامه يتحقق . هوذا قومه العرب الذين حن إلى صحرائهم وباديتهم أمسوا أحراراً . لهم الملك ويدهم السلطان ، فتصور مجدهم الرفيع وعزهم المنيع فأخذ ستار الصوفية ينطوي أمام عينيه رويداً رويداً ، انطواء ستار المرسح ، ليظهر خلفه الأبطال الحقيقيون ، وإذا بأمين يهلل ويكبر ويصيح : حيّ على الفلاح .

وأعد نفسه لسفرته المترامية ، إلى زيارة ملوك العرب المستظلمين فيء النبوة ، المجاورين للبيت العتيق ، إنها أمنية طالما حلم بها وتاقت نفسه إليها وهياها لها عقله الباطني من حيث لا يدري . فأمين من عشاق الحرية الكبرى بنت البادية وربيبه العرب الغر الميامين . وقد قال في مقدمة كتابه « ملوك العرب » :

« في نيتي أن أهجر حتى هذا الوادي ، في نيتي رحلة إلى البادية ، إلى البلاد العربية ، على هجين يبعثني عن كل مظلمة وعبودية » .

ولكن تلك الرحلة المباركة لم تكن من ذلك الوادي أخي البادية بل من مدينة نيويورك . أمريكا دعت الريحاني إلى النضال والجهاد ، والشرق دعاه إلى الصوفية ، فلبى داعي النضال وما هجر إلا قليلاً من صوفيته . لفتح تلك الصوفية بمصل العمل ، وكر إلى ساحة النضال يطيب الأذهان والعقول باسم العلم والروح .

كانت للريحاني مدرسة إنسانية عامة يبشر بها في وطنه قبل الحرب الكبرى ، وما تلك الرسالة غير مكافحة جراد التعصب الديني الذي عاث وأفسد حقول الأذهان والقلوب ، ما وقف على منبر إلا ليعلم الحرية والإخاء ويحمل على التعصب وأعدائه الذين يفرقون بين الناس لإنماء ثروتهم ونفوذهم ، فهمهم أن يسعدوا على حساب غيرهم . رأى أمين نفسه غريباً في وطنه الثاني وإن تأمرك ، فتنبهت فيه نعمة الجنسية وطار شرارها ، وظلت تتلظى في أحشائه مع الأيام حتى رأيناه رحالة يضرب في مجاهل المسكونة شرقاً وغرباً . ترك الناسك خيمته وجفنته وابريقه ، وصار كما قال الشاعر :

كأنما هو في حلٍّ ومرتحلٍ موكل بفضاء الله ينزعه

ولكنه لم يكن كذلك الشاعر المقتون ، بل كان رسولا اجتماعياً يؤدي أسمى الرسائل وأنبلها . يزور أقدس أرض شرفها الله بخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد بن عبد الله النبي الأمي الأمين ، عليه السلام .

ها هو ذا أمين في جدة يتنسم عبير البيت العتيق عن بعد، ويرى بعينه البقعة المشرفة التي زحفت منها الموجة الكبرى تقاتل وتمدّن ، وتطهر باسم الله الواحد الأحد ، فحملت مشعل المدنية قروناً عديدة ، وأتمت الثقافة العالمية ، وحفظتها أمانة إلى الأجيال . زرعت في حقل العمران كل بزر طيبة ، فزها الدين وفاض العدل وأزهر الأدب والفن والعلم على يد أبنائها الصالحين . أولئك هم العرب الأحرار بالفطرة ، وما عشقوا

متحضرين غير هذه العروس الجميلة التي خطب ودها الناس في كل دور .
فهنيئاً للفيلسوف الأمين حظه الخالد، فهو حي ما دامت الكتب في كتابه
الحي « ملوك العرب » الذي كشف لنا فيه ، بل لكل عربي في العالم ،
حقيقة إخوانه الذين يجهلهم .

ما كان أمين في كل ما كتب إلا مخلصاً يقول الحقيقة كلها . فبينما تراه
معك يعطيك كل الحق إن كنت صاحبه ، إذا به ينقلب عليك ليردك الى
الصواب إن كنت ضالاً . كل هذا بيان خلاب وأدب جذاب وانتقاد
يصلح ولا يؤلم ، يعالج ويستأصل على حد سواء ، وهو في كل حال يرمي
الى الإصلاح .

إن لكتاب ملوك العرب أجلّ قيمة في أدبنا المعاصر ، فهو يعرفنا
ما نجهل عن قومنا ، ويؤكد لنا ما سمعناه عنهم ، وعن أرضهم . يصف
لنا العربي وشممه ، وحريته وهممه ، وصدقه وكرمه . يرينا أن الرياء
لا يستطيع الإقامة تحت السماء التي ريحها نار ، فما يعيش في تلك الأرض
المرملة غير الصراحة التي يراها المتحضرين خشنة كحياة المتسمين بها ،
عرب البادية .

إن هدف كتاب ملوك العرب وغرضه الأمثل توحيد كلمة الأمة لرفع
راية العرب . فقد وصف أمين فيه ملوك العرب أصدق وصف وأصح ،
ووصف مجاهل بلادهم ، وأبرز لنا ما فيها من مشاهد فتانة ، وحقق لنا
ما كنا نظنه حديث خرافة عن « العربية السعيدة » .

إن كتاب ملوك العرب إليادتنا ، لو كان شعراً . ففيه يلبس الواقع

ثوب الخيال والفن ، فيبرز للناس فتناً مغرباً . فافضل تكريم تسديه .
الامة العربية الى روح نابقتها الريحاني هو قرامة كتابه هذا ، والسعي
الحثيث لتحقيق آمال مؤلفه المجاهد ، وقد تحقق بالجامعة العربية بعض
حلم الفيلسوف الكبير ، الداعية الأول للوحدة العربية . لقد عاش وطيد
الإيمان بفلاح العرب ومات على هذا الرجاء .
رحمه الله ، وحقق آمال الأمة بتحقيق الأمل الذي مات عليه .

ملوك العرب

الريحاني القصصي - حاول الريحاني أن يكتب القصة طويلاً وقصيرة ، فأصاب الهدف الاجتماعي ولكنه ما دنا إلا قليلاً من القصة الخالص ، ولم يبرز في القصة ، كما برز في الرحلات . ففيلسوف الفريكة كاتب موهوب ، حسن القصص ، وهذا الحسن قد كان رائعاً في رحلاته ، وسطاً في قصصه . كان يعنيه المغزى من رواياته أكثر من الفن ، فقصر رواياتاً فنانياً وبرز كاتباً مصلحاً .

كتب أولاً المحالفة الثلاثية والمكاري والكاهن ، وتناول بعدئذ إلى الرواية الفنية ، فكتب « خارج الحرم » و « زنبقة الغور » و « سجل التوبة » . وفي هذه المجموعة الأخيرة التي ظهرت حديثاً في سلسلة اقرأ ، انتقاد الفن لأمين في بعضها ، ولكن القصص في هذه جميعها هو دون القصص في كتب رحلاته وخصوصاً كتاب « ملوك العرب » .

قال أمين في مقدمة كتابه ملوك العرب :

« الأجانب يسبحون في بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد أجدادي ،
ويخاطرون بأنفسهم فيها حباً بالعلم، فيكشفون منه الحبا ويجلون المصداً ،
ويقربون البعيد ويغربون في اللذيذ المفيد . وأنا في نيويورك كئيب يحمل
كتاباً ، ويطرق للمحرر الانكليزي المتطرس باباً . أديب شعره طويل ،
وصدره عليل ، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات . آلة كاتبة
يرقص حولها الهم والألم متخاصرين . أف لها من زوجة نقاقة ، ومن
حديدية لباب الشهرة دقاقة . وأية عبودية أشد من عبودية الآلة الكاتبة
وأخبت ! طلقته ثلاثاً ، وعدت الى بلادي أعدت العدة لرحلة تبعدني عنها
وعن الكتب والمجلات ، والأدباء والأديبات .

وكان لي صديق في دمشق يجرّ قيوداً للسياسة ثقيلة ، فحاول التفلت
منها . كسرّها ذات يوم فاثار السلطة عليه فصنع السلطة وفرّ هارباً الى
الفريكة ، فحلّ فيها أهلاً ، ونزل سهلاً - سهلاً في القلوب ومنحدرآ في
الوادي . أقام محمد كرد علي عندنا اسبوعاً عددناه من شوارد الزمان .

الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين ، سمعني صديقي - كرد علي -
اردد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا تنخدع يا أمين ، الوادي قريب من
دمشق ومن بيروت وفي المدينتين للعبودية عبيد ، وللظلم أسياد رعايد .
لا بأس بالهمس : والحمد لله . ولكنك إذا رفعت صوتك تسمعك الصخور
فتنمّ عليك وعليّ .

قلت : صدقت ، وفي نيتي أن أهجر حتى هذا الوادي . في نيتي
رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية ، على هجين يبعثني عن كل مظلمة ،
وكل عبودية .

فهلل صديقي وقال : نسير سوياً ، واتفقنا يومئذ على أن نستعين
بتجار من نجد في الشام يهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية
الى أهلهم وراء النفود .

ولكن هذا الحلم لم يتحقق ، فذهب الاستاذ كرد علي فاراً من سورية
الى اوربا ، وعاد أمين الى نيويورك ، حتى كانت الحرب العظمى
وانقضت ، فعادت الريحاني أحلامه بزيارة العربية السعيدة ، فكان
حظ العروبة كبيراً إذ أثرت تلك الرحلة هذا الكتاب الفذ ، وكان حظ
الريحاني كبيراً أيضاً لأنه كتب كتاباً خالداً ومخلداً .

في هذا الكتاب نثر وشعر ، وفيه فكاهات وطرائف ، وفيه سياسة
واجتماع ، وفيه دعوة صارخة إلى تعزيز القومية العربية باتحاد ملوكها .
إنها النواة لفكرة « الجامعة العربية » يوم لم يكن يحلم بها أحد .

ترجم فيه أمين لثمانية هم ملوك او كالمملوك ، بل فلنقل بلغة الريحاني :
« ولكنهم ملوك وإن اختلفت الألقاب ، مستقلون بنعمة الله بعضهم عن
بعض ، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً . لا تجد بينهم من يعرف زميله
الملكي معرفة شخصية خاصة ، او يعرف من الأقطار العربية معرفة
حقيقية تامة غير القطر الذي هو حاكمه » .

ليس في ملوك العرب اليوم ملك سائح في البلاد العربية كلها ، وليس
فيهم من يستطيع ان يقول : إني أعرف بلاد العرب وسكانها وحكامها
وقبائلها وأحوالها الاقتصادية وال.. وال الخ .

في كتاب ملوك العرب وصف بل تصوير ناثيء الخطوط للملوك
الذين زارهم أمين ، وأحاديثه معهم ترينا نفسية كل ملك منهم ومقدار
مواهبه في كل ميدان . وصف لنا عاداتهم وطرق تشريفاتهم ، وبالاختصار
لم يدع شاردة ولا واردة لم يسجلها يراعه الطريف الظريف . وصف العربي
وصلابته ، ونقل شذرات من أحاديثه الطريقة التي تدل على ذكاء متوقد ،
وبلاغة عرف بها .

« البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون » . هكذا
قال الملك حسين . أما أمين فما أجمل تعبيره وتحديدده لسذاجتهم حين سماها
الجهل المسلح . إن لأمين كثيراً من هذه التعابير الطريفة ، أحب ان أنقل
للقارئ شيئاً منها قال : « لم أتالك مرة ان أظهرت دهشتي ، وييدي آلة
التصوير إذ رأيت إحدى النسوة تنزل من الجلبوت الى المياه ، وقد شممت
بكرم فضاح ، فقال رفيقي : شيء مألوف : خذ صورتها ولا بأس . فصورت
آية النشور ، اما الوجه فمحذور .

وقال في رجل من الهندوس : انه من أصحاب السراويل الشفافة التي
تهف حول الجنبيين وتبوح بكل أسرارها .

وقال يصور شاعراً يحمله ويحترمه : « وقد اختبأ تحت الشوارب جل

ذلك الفم البليغ الذي هو ختم الغم إذا سكت، وباب الصواعق والأضاحيك
إذا تكلم . اما الأنف فمبسط الأطناب مستريح تحت عين دامعة . اما
ثيابه فأفرنجية ولكنها كذلك حرة أبية، بنطلونه كالكيس حول الساق» .

وهو لا يحرم اي موضوع من مواضيعه من مثل هذا الجمال الفني ،
فقال في نساء الزيود المجدورات : « وأكثرهن يحملن في وجوههن نبأ
حسن ذهب فريسة الجهل والوباء » .

كان غرض أمين من رحلته سياسياً وقد حاول تقريب قلوب ملوك
العرب ، وكتب بينهم معاهدات ولكن كل هذا لم يثمر ، ولذلك أراني
مهتماً للون الكتاب الأدبي أكثر من لونه السياسي . سيقال في غد : لم يفلح
أمين سياسياً ولكنه أحدث في كتب الرحلات أدباً وفناً كان السباق إليها
أحمد فارس الشدياق ولعل الفرق بين النابغتين هو ان الشدياق كان يكتب
بالقلم العريض ، اما الأمين فيكتب بإبرة الستيلو الدقيقة ... لقد تماجن
أمين وتهم ولكن من وراء ستار شفاف يدل على محاسن القوام ولا يكشف
العورات .

عرفنا بالبلاد العربية أصدق تعريف ، فمن منا كان يعلم ان لبنان
يضيع في جبال اليمن وأوديته المترامية الأطراف . وان الطير نفسه ليتعثر
بسنام الصخور والقتن ، وان الطائرة إذا حلقت فوقها تضل السبيل في ما
يشبه تحتها أمواج البحر .

ويتقلد الريحاني من بحث طبيعي الى آخر صوفي ، وفي هذا كله

تنفس العنصر الشعري والنثر الفني ، فتقرأ ما كتب وتصدق كل ما قال .
قال يصف الأكل عند الأدارسة : « وكنت أشتهي بعد سف شيء من الأرز
بقعة خضراء أرعى فيها . وأشتهي قبل كل شيء الماء فأجده في النعارة
فاتراً ، فأصبه في الكأس فإذا هو أصفر اللون ، فأغمض عيني وأشرب
باسم الله . اما كرم الأدارسة فما كان ليخل قط بقاعدة الضيافة عندهم :
قوزة كل يوم .

أغدق الله عليكم ايها الأفاضل ، وبارك الله فيك يا جيزات ، بركة
تشمل من أجل أسيادنا بني إدريس آلة لتصفية الماء ومعملاً للثلج . . .

قلنا ان الريحاني ساح في سبيل الجامعة العربية ، وهنا لا بد من نقل
كلمة حول الموضوع ، وهي من حديثه مع السيد الأدريسي . قال الإمام :
« المسألة بيننا وبين الشريف - اي الملك حسين - قريبة ميسرة .
نحن أولاده ، نحترمه ونجمله ، ولكننا نطلب منه ان يبادلنا الاحترام . قال
تعالى : وشاورهم في الأمر ، اها ، ليسالنا ، يشاورنا ، نعم ، هو لنا بمثابة
الأب ونحن أبناؤه الرائدون . عندنا حكمة ، اها ، حكمة في الدين ، حكمة
في السياسة . وعندنا قوة . القبائل في يدنا . . . والله لا تمر أربعة أشهر على
المعاهدة - المعاهدة التي وضعها الريحاني - إلا نكون أصلحنا الأمر بينه
وبين ابن سعود ، فتسير القوافل آمنة الى مكة والمدينة . »

قال أمين : واغتنتم الفرصة عند ذكره ابن سعود ، فقلت : اذا
أصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد ، فهو ولا شك يسعى ليصلح بين

سيادتكم وبين الامام يحيى ، فتم بذلك المحالفة الرباعية ، وهي كما اظن
حجر الزاوية في الوحدة العربية .

فقال سيادته : هذا كلام حق . ولكن الامر بيننا وبين ذاك الرجل
بعيد .

– وليس على الله ، يا مولاي ، امر عسير .

– نعم صدقت . وما نحن يا حضرة الأديب بعيدين مما تروم ، ولكن
ذاك الرجل أضر بنا، أضر بنا والله ضرراً جسيماً، ونحن نفعناه، وكان نفعنا
مجرداً عن كل ضرر وغش . أما نحن والملك فقد كان النفع والضرر بيننا
منادمة ، لذلك ترى الأمر قريباً بيننا . انتهى .

لقد شغلتنا السياسة عن الاستطراد ، ولكن من كان مثلي لا ينسى .
قال أمين : إنه اشتهى بقعة خضراء ليرعى فيها ، فهاكه حقيقة يرعى ،
قال : إن أبهج ما يشاهد الانسان في الصحراء بقعة أرض خضراء ، ولكن
الحيوان ذا السنام كان أو ذا القرون ، يشارك الانسان في هذا الابتهاج .
وقد تبارينا كلنا حول البرتيسة التي يدوم اخضرارها طيلة السنة .

جاءني مبارك ، وهو نباتي الحملة، بيضع وريقات خضراء، يقول :
هذا الخنبصيص . ثم جاءني بعشبة اخرى سال لمرآها اللعاب : الرشاد ،
وهو في بادية نجد نفسه في لبنان لا يتغير اسماً ولا طعماً ، فتبعت مباركاً
الى مواطن المرعى الطيبة ، ورحت أرعى فيها كالبعير ، بل رحمت أدباً
على الأربع مثل نبوكد نصر ، آكل الحشيش ، وأشكر الله ثم الست

زبيدة - لأن الكلام بمناسبة السكة التي عبدتها للحجاج - فانتعشت
وابتهجت حواسي كلها . فصرت أظن أن الرشاد والحنبصيص فعلا
بالحمى ما عجزت عنه الكينا . على أنني في رجوعي الى الأصل ولو ساعة ،
أصلحت ليومين ما أفسده الوقوف على الثنتين .

ويرى أمين تجارة الرقيق فيثور لها ثورة ريحانية يختمها بعبارات
قاسية انتقي منها : « إن من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان لا يستحق لقب
إنسان ، أجل ، وإن أمة لا تستنكر النخاسة لأذل في عين الله ممن لا
يعرفون الله ، وأحط في نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة وياكلون
لحم الانسان . »

ولما رأى عدن وقد تقلصت عنها الروح العربية ، وقف وقفة أشعيا
وأرميا يسأل عن الأبحاد الدارسة ، ثم لم تفارقه حكته فقال : « ولكننا في
زمان ، سيده المال وحاكمه الاقتصاد ومديره الأول العلم . وليس عندنا من
الثلاثة ما يؤهلنا اليوم الى وظيفة صغيرة في معمل هذا الزمان الأكبر .
ثم تعاوده توبة التنبؤ فيهتف : « ولكني أخشى والله من يوم يعم
فيه البلاء فينهض الشرق - الشرق العاقل ، والشرق المجنون ، والشرق
المتعصب والشرق المتساهل - ينهض نهضة واحدة على المدينة الاوربية
كلها ، بجذافيرها ، لأنه لا يرى فيها غير سيئاتها ، غير الشره والشهوات ،
والاستئثار والمنكرات . بودي إذن أن تازف تلك الساعة ، أن يعدل
الاوربي ويعقل الشرقي ، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان ، وينتفع الواحد
بالآخر ومنه . »

وقد أراح سلطان لحج فيلسوفنا الريحاني من الكلام عن التعصب الذي حاربه أمين طول حياته . فقال فيه أشياء كثيرة .

وفي مطلع الجزء الثاني يعدنا أمين بالصراحة كلها على شرط أن يكون فيها دائماً شيء من الفائدة أو الفكاهة . فمن فكاهاته الطريفة في هذا الجزء وصفه رجلاً اسمه مسفر : « مسفر هو مدير الحملة ورئيس الخدم ، وهو في شكله نكتة مضحكة جداً قد لا تليق في مجالس المتمدنين . وجهه عفن وهو يظل عفنًا حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء . فهل يصلح الماء والكيمياء أنفاً تسطح على خديه ، وفماً تطاول إلى أذنيه ، وجبيناً داس بشعره حاجبيه ، وعيناً جاءت من القرد إليه ؟ أما لبسه فهو آية في البلاغة والإبداع . لا يعرف أنجدي هو أم حجازي ، أياني أم عراقي حذاء مرقع تخض رجليه فيه ، وسروال كان أبيض لا تظنه غسل في عهده أو في عهد أبيه ، فوقه معطف كذلك من الختام مفصل مثل الفراك التركي ، وفوق المعطف زنار تلمع فيه الخناجر والأسياخ ، إلا أنه عندما يركب على بعيره الأسود فوق أحماله ، يبدو ككيس من الأكياس .

إن للمعطف الذي كان يلبسه مسفر جيوباً هي دكان بما حوت . أتبغي خيطاً وإبرة وزرراً ، أتبغي ملحاً أو بهاراً أو شيئاً من مسحوق الليمون الحامض ؟ أتبغي رقعة تمسح بها فنجاناً أو تضمد بها جرحاً ؟ أتبغي قلماً وورقاً لكتابة ؟ سمعاً وطاعة .

دهشت الدهشة الكبرى ولم أتمالك ان ضحكت عندما أشار إلى رأسه

كانه يقول : مسفر لا ينسى شيئاً . ثم أخرج من « دكانه » مرآة صغيرة قدمها لي لأرى وجهي وأحكم وضع عقالي قبل الرحيل .

هوذا حقاً أقبح خلق الله صورة وأجملهم نفساً وذوقاً . فقل تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم ، فهو إذ مسح الإنسان قرداً يهبه من الجمال الخلقى والروحي ما يندر في يوسف الحسن وزين العابدين .

ولا تظنن ان الأستاذ لا يحسن المدح، بل اقرأ ما يقول في ذمة الأعرابي:
« وأية ضمانة يقدمها البدوي للتاجر؟ قسمه الله . فهو إذا غاب عشر سنين وعاد إلى الكويت وليس معه غير جملة ، يجيء به إلى التاجر قائلاً : هذا حلالك . وإذا مات الأعرابي قبل ان يفى ما عليه ، وكان قد غا ماله ، اي مواشيه، يجيء أحد أبنائه او أنسابه بما يكفي منها لتسديد الدين او بضعه فيقدمه للتاجر قائلاً : هذا حلالك من فلان . ترحم عليه . »

وفي الكويت يتدخل أمين لإصلاح ذات البين بين نجد والكويت، فينجح ، ويجيبه العاهل السعودي : « أما مسالتنا مع الكويت فهذه تحمل قريباً حسب رغائب الجميع ، وعلى أحسن ما يكون إن شاء الله . »

ويبلغ الريحاني البحرين فيقف عندها وقفة المؤرخ المحقق فيقول :
إنها مهد الحضارة والشراع، وإن العرب والفينيقيين من أصل واحد، وإن في خليج العجم صور وجبيل كما في فينيقيا . وبعد أن يجول ويصول يقول للقارئ : « قد انتهجت في كتابة هذه النبذة ما أظنها الطريقة المثلى في التاريخ ، فغريبت الحوادث واخترت منها الأعم والأهم ، وعلقت

عليها في بعض المواقع تمييزاً للصورة الذهنية ، صورة المكان والزمان والأحوال ، واجتنبت ، أولاً وآخراً ، الإطراء والإطناب ، فوصفت الرجال بما تولى أعمالهم على المؤرخ .

إن التاريخ هو غير السجع . يجب أن يكون للتاريخ عينان ، وعقل ووجدان . ولا بأس إذا كان له شيء من البدهاة والتصوير ، أما القلب فلا حاجة لي فيه ولا يجوز . إن التاريخ الصادق هو شاهد لا قلب له .

وبعد أن يتبسط في الكلام على البحرين وحالتها السياسية راح يبدي آراءه المبنية على ما رأى وشاهد في هذه الرحلة : « وقد علمت مما شاهدته وتحققته في البلاد العربية كلها أن بلية العرب الكبرى - كانت ولا تزال - هي النزوع في كل قبيلة ، بل في كل عشيرة ، إلى الاعتزال والاستقلال . لا يعرف العرب من مبدأ التضامن غير ما توحىه القبيلة أو يدعو إليه في بعض الأقطار المذهب الديني . لا يخضع العرب بعضهم لبعض إلا كرهاً ، ثم ينزعون إلى السيادة المستقلة إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً . الجهل أيها الأدباء هو عدو التضامن ، والجهل المسلح أيها الأمراء هو عدو كل رقي وعمران .

ثم يتوجه إلى الانكليز بالنصح فيقول : إن السياسة العربية التي تمشوا عليها في الماضي لا تصلح اليوم لآلهم ولا للعرب . هي تضر بمصالح بريطانيا العظمى ليس في البلاد العربية فقط بل في الشرق أجمع ، وتضر بالاسم الانكليزي وكل ما يرمز إليه من أدب وعلم وكرم أخلاق وسياسة . ويدخل العراق فيصف وصوله إليها بطرافة وقومية ريجانيتين

فيقول : « عندما وصلنا الى البصرة سعد الى الباخرة موظفو الجمرک والصحة والشرطة وأكثرهم من الهنود ... وكنت قد أرسلت تلغرافاً من بمبای الى صديق لي في الديوان الملكي علّنه يأمر في البصرة من يلاقيني ليهديني في الأقل الى محطة سكة الحديد ، فوجدت نفسي ، ولا أحد يسأل عني ، أغرب في هذا البلد العربي القديم ، مني في كارتشي الهندية ، وأنا العربي الذي قضى الأيام والليالي يطالع الحريري والجاحظ ، ويطحن كريات دماغه في طواحين الكسائي وسيبويه . أراني قد نزلت من الباخرة بين قوم لا أفهم لغتهم ، فيكلمني الخوذي بعريية يضطر أن يترجمها الى شيء من الانكليزية يفهم . هو أيضاً هندي ، ساق جواده الأعرج يجرّ عربة مكسورة ، وفيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحاني » .

وتدلل العقبات ويبلغ الريحاني بغداد ويلتقي بفیصل فينسى آلامه وتباريحه . تسقط الكلفة بينه وبين الملك الشاب ، وبعد أن يجلسا متقابلين في مآدب شتى يصف لنا أمين فيصلاً : « الملك فيصل أقرب ملوك العالم اليوم الى الديمقراطية . لا أظن أن ما يسود الملك فيصل اليوم ناتج عن همومه الحاضرة فقط . لا أظن أن تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة ، وذاك السكوت الذي يسبق الكلام الى القلوب . إنه في مآلح من نجم سعده وهوى في السبع السنوات الأخيرة ، لمن الأمراء القليل عددهم في العالم اليوم . فقد دالت له ساعة قصيرة من الزمان ، فظلمته الحوادث في تسابقها حوله وعليه ، فلم يتمكن لسرعتها من الانتفاع بها » .

« هو ذا أمير عربي كريم في دائرة خضراء من الشهرة ، دائرة حمراء

من السياسة الوطنية ، يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية ،
وهذه لعمرى حقيقة مآذب الغم - مآدبة الشهرة التي يتلوها وجع الرأس ،
ومآدبة النصر في الحرب يتلوها فشل في السياسة ، ومآدبة الكرم العربي
المدودة فوق ضريح المطامع العربية .

إن في هذا المقطع لأصدق تصوير للحالة التي كان الملك فيصل يتخبط
فيها ولم يستطع الخروج من دائرتها ، حتى كانت مأساة موته ، وكم في
الموت ، أحياناً ، من راحة ، ولكننا نسخط دائماً على الموت ولا نقدر له
تلك اليد البيضاء التي يمدّها لنا في الساعة الحرجة .

وبعد ان عرفنا الرحالة إلى الكثيرين من رجالات العراق قال عن
المس بل : « هي شبه وزير دار الانتداب ، فينبغي لي ان أفسح لها في هذا
الفصل مجالاً ، ولا أظن أصحاب المعالي الوزراء يستنكرون او يعترضون .
جاءت - المس بل - الشرق الأدنى سائحة طالبة علم ، وجالت في البلاد
العربية وآخت العربان . تعلم من أمور العراق وعشائره ومشايخه وأشرفه
وتجاره والسياسيين فيه ما يندر ان يعلمه سواها . امرأة طويلة نحيلة
جليلة ، تكاد تكون مجموعة أعصاب وأفكار ، هادئة الإشارة واللهجة ،
هادئة البادرة ، يتغلب في حديثها العقل ، وتتغلب في عقلها السياسة .
وهناك شيء من القلب ، بل أشياء ناضجة مستوية . طريقة المس بل
السياسية قديمة ، وهي مع ذلك لا تركز في الأمور لا لعقلها دائماً ولا لقلبها .
لا تجبه العراقيين دائماً بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة ، بل تجيئهم
مراراً وهي تحمل هدية بدل القضيب ... هوذا قلبها عربون إخلاصها

ايها الزعيم الوطني . هي أم المؤمنين يقيناً . وإذا رفضت الهدية والمشورة ،
إذا أبيت النصح والامثال ، فهوذا السجل وفيه سيرة حياتك منذ دبيت
و درجت إلى يوم وقفت مستعطفاً او محتجاً في دار الانتداب .

ولا يحرم أمين شعراء العراق ، وكلهم أصحابه ، من فصل خاص بهم . كذلك
فعل في (قلب العراق) وقد أريتك نموذجاً من تقده . والآن يطيب لي
ان أنقل لك أسطراً أفتتح بها الفصل المعنون (أصحاب القوافي) ، قال :
« لولا الشعراء في العراق لسئمت السياسيين ، ولولا السياسيون لفررت
هارباً من الشعراء ، وبكلمة أوضح لولا الفريقان حولي لكنت من الهالكين ،
بيد أنني مشيت مثل البهلوان على جبل الاحتفالات والتكريم ، أحمل بيدي
خيزرانة التوازن وفي أحد طرفيها أكرة السياسة وفي الآخر قيثاره الشعر .

أما رأيه في شعرنا فقد عبر عنه بقوله : « إن الباحث اليوم في أحوال
الشرق عموماً والعرب خصوصاً يرى ان للنسياسة والدين الشأن الأول في
الشعر ، بل في أمورهم كلها . أجل ان في مصبغتي السياسة والدين تصطبغ
الأقوال والأعمال والآمال ، فيندر الشعر الصافي والنثر الأدبي في ما
ينظمون ويكتبون . »

ويعر على المدرسة مرة عجلي فيقول : لم يبق اذن غير المدارس نعتمد
عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية ، وتوليد روح وطنية جامعة راقية
هي البودقة التي تتكون فيها الروح الوطنية الجديدة ، بل هي سياج الوطن
وفيها عز الملك وشرف الأمة . ولكنها لا تكون كذلك ، لا تفلح في
التكوين ، الا اذا كانت البودقة واحدة لا تتغير في تغير المكان والمذاهب

واللغة . ان أمة تعددت شعوبها ومذاهبها الدينية ، ولغاتها لا يتكون منها وطن عزيز الجانب ، رفيع الشأن ، مهبا كان جيشها ، ومهبا كانت ثروتها ، الا اذا أسست الحكومة فيها مدارس عامة ، مجانية ، لا مذهبية ، تتمشى كلها على برنامج واحد ، ويكون التعليم فيها بلغة واحدة لغة البلاد الأصلية .

وختم هذا الكتاب الخالد بالكلام عن الوحدة العربية التي هي نقطة الدائرة فيه حتى خلص الى القول: ان في البلاد العربية اليوم أربعة ملوك كبار، وإن في نفسية الرعايا رعاياهم نصاً على شخصية اولئك الملوك وشرحاً على حالة تسود سياستهم في البلاد :

« رعية الملك حسين تطيعه وتخافه .

رعية ابن سعود تطيعه وتحبه .

رعية الإمام يحيى تطيعه دون حب ودون خوف .

رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تحب ، ولا تطيع إلا مكرهه .

فمن من الملوك المذكورين في شبه الجزيرة يستحق ان يسود العرب ؟

لقد أعرت كتاب ملوك العرب هذا الاهتمام لأنه أول كتب أمين في الرحلات ، ولأنه ملخص لما في كتاب تاريخ نجد الحديث ، وفيصل الأول ، وقلب العراق . وقد أقرأتك ، ما قاله أمين في وصف الملك فيصل ، فهناك الآن وصفه للسلطان عبد العزيز : « ها قد قابلت أمراء العرب كلهم فما وجدت فيهم أكبر من هذا الرجل . لست مجازفاً او مبالغاً في ما أقول ، فهو حقاً كبير ، كبير في مصافحته ، وفي ابتسامته ، وفي كلامه ، وفي

نظراته ، وفي ضربه الأرض بعصاه ، إن الرجل فيه أكبر من السلطان ،
وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم لا بالألقاب ... غريب عجيب . إلى ان
قال : إني سعيد لأنني زرت ابن سعود بعد ان زرتهم كلهم . هو حقاً مسك
الحتام .

* * *

قال الأستاذ إسعاف النشاشيبي بعد الاطلاع على كتاب «فيصل الأول» .
« قال علي بن عبدة الريحاني : حضرني ثلاثة تلاميذ فجرى لي كلام
حسن ، فقال أحدهم : حق هذا الكلام ان يكتب بالغوالي على خدود
الغواني . وقال الآخر : بل حقه ان يكتب بأنامل الحور على النور .
وقال الآخر : بل حقه ان يكتب بقلم الشكر في ورق النعم » .
ووالله إن تلاميذ الإمام الريحاني إنما يصفون بأقوالهم هذه كلام
فيلسوف الريحاني في فيصل .

قلب لبنان

كما خصت كتاب ملوك العرب بتلخيص مطول كذلك فعلت في
قلب لبنان ، وما دعاني إلى هذا إلا ان الريحاني تخافيه نحواً لم نره في
كتب رحلاته الأخرى . فهو في هذا السفر النفيس شاعر أكثر منه مناضلاً
ولكنه في كل حال لم يخلع سيفه ورمحه .

يصح في كتاب (قلب لبنان) لفيلسوف الفريكة ما قاله ابن المقفع
عن البلاغة ، أي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يعمل مثلها . فكتاب (قلب
لبنان) رحلات صغيرة في جبالنا ، هكذا يقول العنوان . أما ما وراء
العناوين فلا يستطيع الناقد الإشارة إليه كله ، لأن الإحاطة به تقتضينا
كتاباً أضخم منه . فالاستطرادات والوخزات ، والغمزات والاستنتاجات
تفاجئنا في كل رحلة . فهي تنهض من مكانها في كل فصل بل في كل وجه ،
وأستطيع أن أقول في كل فقرة ، لأن الريحاني لبق في غمز القناة ، إنه
يريد أن يعمل بقول الشاعر :

وكنت إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيا

ينقض أمين على المناسبة انقضاض الصقر على فريسته ، فإذا هي بين
مخالبه وبرائنه . فما أقل من يستطيع أن يكتب فصولاً رائعة في مواضيع
تافهة كهذه ، ثم يجذبك إليها فلا تدع الكتاب ، وهو ستائة صفحة من القطع
الكبير ، حتى تقرأه من الجلد إلى الجلد .

وإتنا نشكر العناية التي كان يؤمن بها أمين إيماناً مطلقاً ويتعبد لها بلا
شروط ولا مراسم معتادة ، كما قلنا في كلامنا عن الريحانيات ، بل قل
طبقاً لمراسم وضعها هو لنفسه ، كان يصلي يومياً على بلاطة لا تزال على
الشرقة حيث وضعها . قلت نشكر العناية ولم أقل على ماذا ، نشكرها عن
أمين ، نشكرها لأنها أبقت بعده أخاً أديباً فاهماً يرعى بعين يقظى آثار
أخيه الخالدة ، ويصدرها للنرية وبالشكل اللائق بها . فالاستاذ ألبرت

ريحاني، شقيق الأمين، هو الذي أهدي إلى المكتبة العربية هذه التحفة الطريفة في أدبنا الحاضر . فهذا الكتاب اليتيم - كما يسمي الغرييون الأثر الذي يظهر بعد موت صاحبه - شبّ في حجر وصي أمين حيّ الضمير ، فكان أحنى عليه من الأب. ولهذا اليتيم أخوة آخرون يدرجون في حجر الوصي ألبرت وسيؤتون حقوقهم ، في حينها ، كاملة غير منقوصة . فليطمئن قلب أمين ، فكل ما خلف في حرز حتى قصاصات الورق وما خطت عليها يده من حواشٍ ونظرات واحتجاجات .

إن كتاب (قلب لبنان) من طراز كتاب ملوك العرب ، ويفصل الأول ، وقلب العراق . وصف فيه أمين جبال لبنان ووهاده ، أوديته وقراه ودساكره ، صخوره وأشجاره ، رجاله ونساءه ، خواصه وعوامه ، قلاعه ومعابده ، قديسيه والمكارين فيه . ألم بتاريخ لبنان من أقصى ظلماته إلى عهدنا هذا ، فحقق ودقق مخالفاً هذا ، وموافقاً ذاك من سياح وأثريين ، وعلماء وفلاسفة ، لا يعنيه إلا أن يقول ما يعتقد أنه يحدثك بصراحة ووضوح عن كل شيء حتى نفسه ، لا يكتمك من أسراره إلا ما لا يعنيك أو لا يفيدك . يسرد كل ذلك بلغته الهينة اللينة ، ذات الموسيقى الشعرية . ولكنك لا تستسلم لموسيقاه حتى توقظك نكته البارعة اللاذعة . يحملك على أجنحة خياله إلى الزمن الأبعد فيريك ذلك الزمان واضحاً بما يكسوه من الصور الجديدة الفتانة ، فتحسب أنك تعيش فيه وكأنك بين قومه الغابرين . يصوّر لك أمّ أمين - رحمها الله - كيف كانت تشيع ولدها الحبيب عند كل رحلة ، فتحوطه برسم الصليب على وجهه ، وعلى

جسده كله ، ثم تسلمه أمانة للعذراء حبیبتها . ولا يحرم أمين مكاریه وبغلته التي اسمها (محبوبه) من وصف دقيق ، وتصوير يبلغ التام ، ثم يقص عليك ما كان يدور بينها من حديث ، فيريك نباهة وبلاهة هذا المكاری الذي يتأمر حيناً ويطيع أحياناً .

يذكرني أمين في كثير من مواقفه في رحلاته بأحمد فارس الشدياق وكتابه الفاريق، فهما من طراز واحد في السرد وإن اختلفا في الاحتجاج. احتجاج الشدياق صاحب صارخ ، رائحة أحماضه حريفة. واحتجاج أمين فولتيري ناعم ، يعن في النكایة كالشدياق ولكنه لا يستفز . قد رأيتها يتفقان في أمور كثيرة حتى في الراهب (الأخ حنا) ، فلكل منها راهب يسايره ويماشيه ، ولكنها يظنان مختلفين أسلوباً ، ونكتة وظرفاً ، فهما لوان مختلفان في أدبنا العربي ، وإن كتب كلاهما أشياء تخصه يدور عليها كتابه .

فكتاب (قلب لبنان) يعرفك ، في معرض الحديث ، على مؤلفه في لبنان فقط ، يريك كيف نشأ أمين تلك النشأة القروية الساذجة ، فكان لها أبعاد أثر في تكوين شخصية أمين الانسان . إن أمين الانسان موضوع خطير يستحق اهتماماً كبيراً ، وهذه الانسانية قد ظهرت واضحة بارزة الخطوط صارخة الألوان في وصيته ، كما ظهرت من قبل في جميع ما كتب . كان أمين نصيراً للحق في جميع مواقفه ، يكره النفاق والكذب ، والرياء والدجل . يخاطب الملوك والقادة بصراحة تدل على شخصية حرة تحترم الانسانية في جميع البشر وتقدسها .

يتحدث أمين في (قلب لبنان) بقلم طليق من كل قيد، فلا يحيد مقدار شعرة عن خطته المعلومة ، يطري المكارم ويعالج المساويء بالسخر منها والاستهزاء بها . وهو في كل ذلك لا يتنكب عن جادة العذر لمن يلوم ، ولا يياس من الصلاح والاصلاح .

وكتاب قلب لبنان معرض تاريخي لشعوب لبنان ، والملوك والقواد والفاحين والعلماء الذين جاموا لبنان غازين ومنقبين وباحثين، وهو يشارك جميع هؤلاء في نقد شخصياتهم وسياساتهم وبحوثهم . فمن وصف فني إصلاححي، إلى تهكم لاذع، إلى آراء فلسفية اجتماعية أدبية يربطها بالحاضر. فبيننا تراك معه في أعماق الأعماق إذا به يطير بك إلى أبعد الآفاق . ينقلك بلمحة خاطفة من أبعد أبعاد التاريخ إلى حيث نحن اليوم مستعيناً على ذلك بنفسيته وشاعريته وعلمه وثقافته الواسعة ، ولا تعجب ان رأيت الريحاني في قلب لبنان مؤرخاً ، وكما يكون التاريخ اليوم ، فأمين كان ذا مواقيت لا يتخلف عنها ولا يتأخر ، وهو ذو مكتبة ذات قيمة كبرى وخصوصاً فيما يعنيه من تاريخ الأمة العربية ، فخراته تحتوي على أصدق المراجع وأدقها في هذا الموضوع ، وإذا أضفت إلى ذلك سياحاته العديدة وملكته النقدية التي مكنته من تمحيص ما رأى وسمع ، عرفت قيمة كتب رحلاته ، فهو لا يكتب فصولاً خيالية ليقول ما شاء وكيف شاء .

وإذا قلنا هذا فلا نعني ان تلك الكتب وقلب لبنان تاريخ جاف لا خيال فيه . لا يا سيدي ، إن في قلب لبنان فصولاً من الشعر المنشور تعد من روائع الشعر المنظوم ، وأمين كما علمت هو ابو هذا اللون من الكلام في

أدبنا العربي، عبّر به عن أفكاره حين كان رومنتيقياً، صوفياً، وهو لم يطلقه الثلاث حين أصبح كاتباً عاملاً يسعى في الأقطار العربية لتكوين الجامعة العربية التي لم تفر عينه بها حياً، وإن ارتاحت إليها نفسه ميتاً.

فإذا قرأت هذه القصائد المتثورة في قلب لبنان عرفت ان أميناً رومنتيقياً، بالمعنى الأتم، يهب الحياة للصخور والأشجار والأودية والحوادث التي لا تلهم شيئاً. إن هذه الحوادث تحيا وتتحرك تحت قلم أمين كما كان يحيا الحجر تحت ازميل ميكالنج، والقماش تحت ريشة رافايل. اسمع كيف يتحدث عن الضيافة اللبنانية، إنه يبدأ هكذا :

« قال فكتور هيغو : الضيافة مفتاح الإخاء الانساني، والشعوب المضيفة عماد الانسانية. وقال كاتب إغريقي قديم : الحرية وحسن الضيافة هما عنوان العظمة في الشعوب .

قال الشعب اللبناني العربي في عرف الأفرنسي الشهير هو عماد الانسانية لأنه مضياف، ولكنه في عرف الكاتب الإغريقي لم يبلغ من العظمة إلا نصفها أو بعضها أي القسم القائم بحسن الضيافة. أما القسم الآخر، أي الحرية، فهو لا يزال مفتقراً إليه. هو لا يزال ينشد الحرية ويتغنى بها ويسلي نفسه بخيالها وقصائد شعرائه فيها.

ليس أجمل من لبنان في جبال الأرض. وإن الله ليكلاً هذا الجمال، ويصونه في شكله، كما في جوهرة، فلا خوف عليه في الحالين. أما الشعب اللبناني فمن يكلاه يا ترى، ويصونه في حسن ضيافته؟ الحرية.

الضيافة مع الحرية تدوم ، أما بدون الحرية فالشك في دوامها أقرب
الى الذهن منها اليقين .

وهنا أيضاً لم يدرك أمين ما كان يصبو اليه من استقلال وحرية
للبنان . مات المجاهد في سبيل الحرية ، ثم عاشت بعده ، وهكذا يحيا
الخالدون .

وبعد ، فلم يتمتعنا أمين في (قلب لبنان) بفصول رائعة من نقده
الأدبي العذب كما فعل في ملوك العرب وقلب العراق . ولكنه انتقد (على
الماشي) كما نقول ، فلذع وتهكم . فإذا قيض لك أيها القارئ العزيز ، أن
تقرأ هذا الكتاب فلا تظن أن الريحاني يكيل المدح للناس بالمد ، أرجو
منك أنت تقرأ ما بين السطور لتدرك ما يقول أمين ، وما يقصد ، وما
يعني ، ولا يغرّك ظاهر الكلام . ثم لا تظن أنني عرّفتك بهذا الكتاب
معرفة كاملة ، فهذا لا يتم لك إلا إذا اطلعت عليه فتعرف الريحاني ومن
شاء أن يعرفك بهم كما عرفهم هو ويريد أن تعرفهم أنت . ولا يليق بنا
أن ندعوك الى مادبة أمين الحافلة بكل طريف شهبي ثم لا نريك ولو لقمة
صغيرة منها ، فدونك يا عزيزي ، هذا السندويش ، فنحن في عصر العجلة ،
وقل فينا من يشتري كتاباً يتمتع هو به ويبقيه لذريته من بعده .

إذن هذه بعض نتف من شعر أمين المنشور ، وإنني اذكرك بأن
اللغة الشعرية منشورة في صفحات الكتاب كلها ، وقلماً خلا وجه من
معنى أو صورة شعريين طريفيين ، اسمع قليلاً من قصيدة الأرز :

« إيه ربة الأشجار ، وسيدة الجبل الجبار .
أنت الرافعة أعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور الدكناء .
بنت الجديدين وأخت القمرين ، حدثيني .
حدثيني وعليني ، وارفعيني الى علياء إيمانك .
حدثيني عن ريح الشمال .
تجيتني مولولة نائحة ، فأوقفها لتستريح ، فتستحيل أنفاساً عطرية .
حدثيني عن الفيث إذا همى .
هو يرقص على الصخور حولي ، فتقهقه هازئة ، ويضرب على أوتار
قيثارتى فتسمعه أغاني البلايل والأمواج .
حدثيني عن العواصف .
هي تصعد هائجة من الأودية ، وتهبط مجلجلة من الآفاق ، فتدق
حولى طبولها ، فافتح لها قلبي ، فتدخل نائرة ، ثم تسكن وتنام ، تحت
أجنحة السلام .
حدثيني عن الصخور .
هي المهدئة قبلي وبعدي . منها تربى واليها مصيري . وهي في
حياتي قررة عيني ، وزينة نفسي ، بل هي هيكلى الخالد ، العامر اليوم بى ،
السائل غداً عني ، .
وعلى ذكر الصخور ، ننتقل بك الى قطعة من هذا النشيد الخالد : نشيد
الصخور . خبرنا أمين : ان أحدهم سأل جده المطران باسيل عبد الأحد :

« ما فائدة الصخور ؟ فأجابه فوراً : « الصخور عظام الأرض ، وكانني
بأمين نظم قصيدة للصخور احياء لذكرى هذا الجد الأبعد ، فاسمع كيف
تدب الحياة في الصخور تحت قلم الشاعر الملهم ، قال :

« والصخور ؟

هل وقفت مرة بين الصخور ، تتأمل تكوينها وأشكالها ، ومعاني
جمالها وجلالها .

وهل نظرت خلال الهياكل الطبيعية المتهدمة الى ما وراء العمد
والجدران - الى روح الكيان ويد الزمان ؟

هل في شموخها غير العز ، وفي روعتها غير الصولة ، وفي هولها غير
الاحطار ، وفي رسوخها غير القوة ، وفي نخاريبها غير الضعف ، وفي
صفوفها غير الفوضى ، وفي منعرجاتها غير الجهل والحيرة .

الصخور الشاهقة المحلقة ، الصخور الرابضة والواتية والهائوية ،
والصخور المانعة الواجحة المنذرة ، الصخور المتكاثفة والمتخاذلة ، هل وقفت
مرة تتأملها ، وتحاول الدخول الى قلبها ، الى السر المكنون فيها ؟

ان في قلبها النواة التي كانت تموج تحت الأمواج ، وفي قعور البحار .
ان في قلبها جرثومة الحياة الأزلية الأبدية .

ان في قلبها الذرة السرية التي تحيا بالتحطيم ، فتغدو غذاء وشدى في
الأشجار والأزهار .

ان في قلبها سجن الانانية وصمت الاحزان .
ان في قلبها الرمز الخالد لسوط الزمان .
ان في قلبها رسالة التصعيد حتى في الجلاميد .
من قعور البحار الى أعالي الجبال، من الظلمات الموحلة المجرثة المطحلبة
الى أوج النور والتبلور والصفاء .
هذه مرحلة الصخور بل ملحمتها .
وهل في شموخها غير العز والمجد؟ ان فيه ضرائح التضحيات ،
وأحاجي الموت والحياة .
وهل في روعتها غير الصولة والجلال؟ ان فيها الصبر القاتم ، والعزم
الواجم ، والصمت الدائم .
وهل في هولها غير الأخطار؟ إن فيه نبأ البراكين والسعير ، وقصة
الزلازل والأعاصير .
وهل في نخاريبها غير الدليل على الضعف والوهن؟ إن فيها الدليل على
عطف لا يزال في قلبها حياً ، وعلى حنان لا يزال ندياً . إن في نخاريبها
بيتاً للعصفور ، وماوى للحزون ، وإن فيها نايات للرياح .
وهل في صفوفها غير الفوضى؟ إن فيها تتمثل أوليات الحياة في
التحرير والتقييد ، وسنن الحياة في التنوع والتوحيد .
إلى أن يختم قصيدته هذه بقوله : هي الصخور الحافظة للأرز

الأبواب ، الضاربة حول الأرز الأطناب، الحاملة عرش الأرز على المناكب والرقاب .

وهنا يجب عليّ أن أقصّ عليك بإيجاز خبر تحوّل أمين من شاعر صوفي روحاني الى كاتب وشاعر نضال جسداني . ساء الفيلسوف أنت يظل الشرق غافياً ، والناس يضجون حوله ، فتار على الشعر الباكي لا للحطّ من مقام شاعره الأمثل بل للنهوض بامة كاد يقتل رجولتها ذاك الشعر المخنث .

كان أمين في فجره الأدبي يخاطب الدوري والغوري . ثم أفاق من تلك الغفوة الهائلة ليخطب الناس في سفح الأهرام ، يوم كرموا جهاده ، فقال شعراً منشوراً بلسان الشرق ، بدأه هكذا :

« أنا الشرق .

عندي فلسفات ، وعندي أديان ، فمن يبيعني بها طيارات ؟ .
هذا ما قاله منذ ثلاث قرن، كما مرّ بك ، وها نحن نرانا اليوم في أمسّ الحاجات الى ما دعا اليه أمين وتمناه .

وإذا قرأت (قلب لبنان) ترى الريحاني لا يبرح دائرته تلك ، فهو في عقيدته ، تجدها أينما طلبتها ، فأمين لم يبرح نقطة دائرة فكرته .

تأمل كيف يخرج النقد اللاذع حين يتحدث أثناء مروره بـ (المشنقة) حيث حفرت في صخرة صورة صراع أدونيس مع الخنزير البري ، فقال يغمز قناة الانتداب :

« اشعل غليونك ، وافتح عيون خيالك . احرق من تبغ هذا الزمان
على ذكر أدونيس ، فتى الفتیان ، أدونيس المعبود الأعلى ، إله الحب والألم
والبعث والخلود . وهل هناك مفرّ وانعتاق ؟ هل يخلو الحب من ألم ؟
وهل ينجو الألم من الموت ؟ وهل يحرم الموت النعمة الكبرى : البعث
والخلود ؟ » .

« فلو كان أدونيس متجسداً اليوم ، ومقيماً في هذا الجبل اللبناني ،
لرأى الخنزير البري في أسواق المدينة وفي دوائر الحكم . لا في الأودية
والغابات ، ولصرع في قتاله كما صرع الرؤساء والزعماء في هذه الأيام . على
ان صرعة الإله لغير صرعة السياسيين ، كهاناً كانوا او تجاراً . ولا عجب ،
إن صرعة فيها شجاعة الإيمان والتضحية لتثمر روح التضحية والإيمان في
أجيال من الناس . اما الصرعة التي فيها إرادة غاوية ، ذات عين لاوية ،
يقاد صاحبها بدعوة إلى مآذبة ، او برشوة ووسام ، فماذا تثمر يارعاك الله » .

وعلى ذكر كرونس إله الفينيقيين ذي الثماني أعين يقول أمين : « اما
العيون فإن لنا منها ، نحن اللبنانيين ، أكثر مما كان لكرونس إله الفينيقيين .
إن لنا من الخيال والأحلام والأوهام ، مائة عين وعين فترى الفراديس
ونحن نائمون ، وننام ونحن ماشون الى الهاوية » ...

إن الريحاني في قلب لبنان كاللاعب بالسيف والترس ، يضرب ويتلقى
بخفة ورشاقة مستعيناً بجميع مواهبه ، ولم يسلم من لدغه شيء حتى
أسماء الناس .

أعجبته ضيافة سابا بطرس أبريانوس وحرمته ، وأعجبته كلمة
(حرمة) وفضلها على زوجة وعقيلة وقرينة ومدام فقال : « ليس في
(الحرمة) ما تشتم منه القيود - عقيلة الرجل - مصفدته قرينته . في
الحرمة احترام ومحرم ، وفي الحرمة عروبة صافية . ولكن اسم زوجها
إبريانوس ؟ ماذا تفعل به يا رجل ؟ ومن اين جاء إبريانوس ، إن هذا الاسم
ليقتل كل أمل بالوحدة اللبنانية اليمانية . على ان هذا الرجل ذا الأسماء الثلاثة
الفظيعة سابا بطرس إبريانوس هو خير الرجال . يقوي الضعيف ويضرب
بالسيف ، ويبني بيته ، مثل صنوه في (خولان) ، ومثل اخوانه النسور
بين الصخور ... ان الحياة لا تصفو لأحد من الناس . وإن صفت في تبعها
فقد تتعكر في جرن العبادة » .

إن ضجة أمين حول « سابا بطرس إبريانوس » لا أثر للكلفة فيها لأنه
رحمه الله ، كان يكره هذه الأسماء الطائفة حتى التطير ، وقد يكون هذا
التأثر نجم في نفسه منذ نومه مع والدته ، والغرزوزية الحسنة ، في كنيسة
كفيفان ، وفاء لنذر أمه التقية ، فشفيع دير كفيفان قديس اسمه قبريانوس ...
رحم الله من ربي الريحاني وربانا ، فقد جرت الرياح بما لا تشتهي
السفن ، ولولا المشيئة التي يديرنا ممهاها لما جاء (قلب لبنان) كتاباً فريداً .

المغرب الاقصى

سار الريحاني من لبنان مهد الأساطير إلى الجزيرة سرير النبوة حيث
درج وشب النبي العظيم ، ثم فتح الدنيا دينه الجديد ، ودانت لسلطانه

وسلطان خلفائه أمم الأرض . وكان الأمين الذي لم يتنكر قط لرسالته العربية أبى أن يحرم المغاربة منا مما جاد به على المشاركة ، فشمرد الأردن ومشى الى المغرب الأقصى .

وعاد من ذلك الفردوس ليكتب عنه هذا الكتاب الضخم الحامل بين دفته تاريخاً قديماً وحديثاً . وكأنه خاف على كتابه من القراء الذين تعودوا أكل السندويش ، فقال في المقدمة يحذر قارئه :

« فلا يزال هذا الكاتب صديقك القديم يقول كلمته ويمشي ، مشيت أنت معه أو وقفت وتخلفت ، فهو لا ينتظر ، وهو لا يتوقع من أحد الرفقاء - القراء - ان يماشيه حتى النهاية » . وأخيراً ختم هذه المقدمة بما يأتي : « إن في المغرب طبخة يسمونها الحريره ، هي شبيهة بالحساء ، ولكنها تشتمل على الكثير من أنواع اللحم والخضر والأبازير ، فيرسب الأكبر في قعرها ، فلا تحظى أنت به إلا بعد أن تصل في احتسائك إلى القعر - إلى النهاية .

فالى قعر الحريرة - الى النهاية » .

حقاً إن كتب أمين لا تعطيك المتعة كاملة إلا إذا قرأتها برمتها . فأراؤه وضحكاته ، وقرصاته واسعته تعثر بها أنى اتجهت في كتابه ، ولكن (التاريخ) الذي لا يستطيع أن يهمله ، في كتاب كهذا ، قد يعرقل حركة السير . إنه شر لا بد منه لمن يكتب مثل هذه الرحلات ، ولكنك في قراءة ما يكتبه أمين في التاريخ لا تجمد ولا تمل ، لأن في خرج هذا

(المغربي) الجديد عقاير مختلفة ، فهي كفيلة بتجديد نشاطك مها
تبلت .

يتحدث أمين في الفصل الأول وعنوانه « من الاستقلال الى الحماية »
عن تطاحن الدول في المغرب الأقصى ، ويتعرض أخيراً لسياسة القروض
الهدامة لحرية الدولة فينقل كلمة المؤرخ جوليان : عندما وقع الباي وثيقة
ذلك القرض حكم على تونس بالموت ، « فهل يتعظ سلاطين المغرب ؟ وهل
يتعظ أمراء الشرق وملوك الغرب ؟ وهل تتنبه الشعوب العربية ؟ » .

ويعبر عن سياسة الانتهاز في هذا الفصل بقوله : هي سياسة المطرق
والحديد الحامي . اضرب وعجل بالضرب ، وعجل كذلك بالبيان ،
اطمئناناً للمضروب ، وإن كان لا يحسن الظن بالضارب ... » .

وإذا ماشيت الريحاني ، ولم تتركه نمشي وحده ، تحظى بتهكمه اللاذع
كقوله ، مثلاً ، حين تكلم عن تسمية الأندلس : « فما هي (البنسولا) بلغة
قحطان ؟ يقول صاحب محيط المحيط ، الناقل عن الفيروزآبادي والمكمل
لأغلاطه ، يقول بعد أن يحدد الجزيرة تحديداً صحيحاً : (وإذا أحاط
(الماء) بها إلا من جهة واحدة قيل لها شبه جزيرة وبحيث جزيرة . فمن
أين جاء المعلم بطرس بهذه البحوث جزيرة ؟ إن كان المعلم بطرس ناقلها أو
مخترعها ، فهو يستحق أن يذكر في صلوات الأب أنسطاس الكرملي
المحترم » .

ويرى أمين مدينة (سبتة) فتستيقظ عروبتة ويقول - ولكن هل
نامت عروبتة ساعة من العمر ، حتى تقول استيقظت - قال :

« كنت أتوقع أن أرى على شاطئ أفريقيا مدينة أفريقية عربية ،
فرأيت مدينة أوربية إسبانية في كل أحوالها ومظاهرها ، فنيا القلب
وخاب الأمل » .

وأمين كما عرفت ، من الكتاب القلائل الذين يجسدون في تصويرهم
المرثيات حتى يخيل إليك أنك تراها . يصف لنا مناظر الأندلس الطبيعية
بل كل ما في الأندلس من عمل الله والإنسان . رأى شيخاً يؤلف من الطين
قطعة من الفسيفساء ، فقال له أمين مشيراً إلى الرسوم أمامه : هذه ؟

فأجابه فوراً : « منها القديم المقلد ، ومنها الجديد المولد » قالها
بالعربية الفصحى فأعجب بنطقه أمين وقال : ولكن الاستاذ من المتعلمين
وإن لعب بالطين ...

وهنا ، فليسمح لي صديقي أمين أن أذكره ، أن (الاستاذ الأعظم)
كان أول اللاعبين بالطين ، فجاء في تمثيله عباقرة ومجانين ...

وما أعجبني من مبتكراته الكلامية في هذا الكتاب تعبيره عن ابتسامة
دليله الصفراء : « فكانت لهجة دليلي مذهبة بابتسامة الرضى » ، وقوله في
مكان آخر : « أما المدينة فهي تفدي نفسها بالمال ، وأما الديمقراطية أختها ،
بالسفاح ، فإن لها مثل القطط سبعة أرواح ، فلا خوف على الاثنتين ولا
هما تحزنان » .

ويحدثنا عن طريقة في سجن المجرمين من أطرف الطرق وخيرها
وأحدثها ، فكان المجرمين فيها يعيشون أحراراً ، ثم يخرجون رجالاً
فاضلين مستغنين بالعمل عن الاجرام .

وفي معرض الكلام عن « العرب والبربر » يجدد أمين عهده للعروبة فيقول : « ووجهة نظرنا هي وطنية إنسانية ، ووطنيتنا هي عربية قومية لا عربية إسلامية . فقد جهرنا بذلك مئة مرة ومرة ، ولا تنفك نجهر به في كل ما نكتب عن هذه الأمة العربية ونهضتها ، وأشواقها وآمالها ان كان في الشرق أم في الغرب . وإن لنا في الوطنية غرضاً أكبر فيها . ذلك الغرض ناشئ عن الحقيقة التاريخية الظاهرة الباهرة ، وهي ان العرب عنصرهم من العناصر الانسانية المتحضرة ، العريقة في الحضارة ، الناشرة أعلامها في العالم . وإن لها مطالب قومية وأماني سياسية ، لا تتجاوز حد تحقيقها الا لتكون والأمم الأخرى على ولاء تام ، وعاملة لتحقيق الاخاء الانساني ، والسلم الدولي العام في العالم » .

وقد كتب في « أشبيلية » فصلاً شعرياً كما فعل في قلب لبنان وغيره من كتب رحلاته .

ويتحدث عن الفن الأندلسي الاسباني حديث ناقد خير ثاقب النظر فيصف أدق أسرارهِ ، ويكشف للقارىء خبايا جماله ، ويقول حين يتكلم عن النهضة العربية الثقافية الوطنية « إنها لا تزدهر ازدهاراً شاملاً إلا بعد ان يخرج الأجانب المسيطرون من البلاد العربية » .

وبعد هذا يرسم للجنرال فرنكو صورة ناطقة مستخرجاً من ظاهره ما يدل على باطنه . وقصارى القول في هذا الكتاب انه طاووسي الشكل فنصيحتي لمن يقرأه - ويجب ان يقرأ - ألا يدعه قبل ان يأتي على آخره .

فهو ينتقل فيه من فصل تمتع الى فصل أمتع . وحسبك ان تقرأ فصل
« الريسوني » لتوافقتني في كل ما قلت .

ونبلغ فصل « بطولة الأولين » فنسمع كلمة حر صادق ما حابى طول
حياته أحداً حتى أعز أحبائه واخوانه ، قال : « ليس في الفاتحين شعب
يضاهي العرب اقتداراً وانتصاراً ، وليس في المتقهقرين من يستطيع ان
يشق غبارهم . سقطت قرطبة ، فتعددت القرطبات الساقطات » .

ويروي أشياء عن ثورة فرنكو يطيب لك ان تقرأ تفاصيلها الغربية
وخصوصاً حكاية الجنرال مسكردو وولده التي تذكرك بجهاد العرب
الأولين وتضحياتهم العظيمة .

هذا ما حدثتك به هنا عن كتاب المغرب الأقصى ، وقد مر بك أشياء
عنه في مواضع متفرقة . إن التلخيص كماء الورد ، اما قراءة الكتاب كاملاً
ففيها ما يبهج الحواس جمعاء .

فإلى حديقة « المغرب الأقصى » يا صاحبي .

رضيت من الغنيمة بالاياب

الريحاني الذي مات عن لا شيء من الثروة الا ١٥ ليرة لبنانية في بنك
اسكندر حداد ، و١٢ مثلها في بنك دي روما ، وخمس ذهبات في جيبه ،
والريحاني النبي كان يقول لأخته سعدى حين يعطي السائل كل ما يملك :
الكفن لا جيب له يا سعدى ، هذا الريحاني قد عاد من رحلاته كلها ولم

تكن يده السفلى أبداً ، اللهم الا بعض هدايا: سيف ابن سعود الخاص الذي حارب به ابن الرشيد ، قرابه من ذهب ونصله يرجع تاريخه الى الفتح الاسلامي في إيران .

وأهدى الشيخ خزعل الى جلالة عبد العزيز سجادتين يوم كان الريحاني عنده ، فقال الملك: نحن سكان خيام ، أعطوهما للأستاذ الريحاني اسم احدي هاتين السجادتين شجرة الحياة ، واسم الثانية الكرة الأرضية . وهناك هدية ثالثة من الطويل العمر وهي فرس أصيلة مسماة نوره باسم شقيقته .

وأهدى اليه سلطان لحج صندوقة نحاس مزركشة ، و « مداعة » طول نزيجها ١٨ قدماً .

وعرض عليه الملك حسين الألقاب والأوسمة فأبى ، ولكنه قبل منه خنجراً - شريفاً - وقطعة من كسوة الكعبة ، وهذه لم يحزها مسيحي . وقد رأيت في البيت مسبحة مسيحية قيل انها هدية من البابا لزوجته أمين ، وقد حولتها تلك الزوجة الى ام أمين . اما آثاره فركوة قهوة وغلايين ، وريش ، وضبوة وقليل من التبغ ، وقلم حبر وقلشين وعصا ، والساعة ويتدها المشهور اي لقطتها التي كانت تتدلى على صدر امين فيبدو بها كأحد رجالات فجر القرن التاسع عشر .

ورغم جهاد الريحاني ونضاله لم تفكر حتى الآن بتشديد ضريح له .

وقد صنع المهاجرون تمثالاً له وأرسلوه الى سوريا لينصب في هذه الديار
ولكنه ما زال نائماً نومة أهل الكهف :

رحم الله الريحاني الذي عاش ومات أميناً .

مائدتني

تحت هذا العنوان كتبت عدة رسائل الى أصحابي ورفقائي الذين
غادروا هذه الدنيا الباقية ، فكان أولها هذا الكتاب ، الى الريحاني حين
حالت (المراقبة) في (الحرب الثانية) دون الكتابة عنه .

أخي أمين .

يا سبحان الله ، ما كنت أحسب أنك ستكون أول مدعو الى مائدتني .
وكانني أراك بعيني ، وأسمعك بأذني تتساءل وتقول : « وما مائدتك
يا رجل ؟ »

ليست مائدتني أكلاً وشرباً ، بل برأ وسلاماً كملكوت الله . هي سفرة
بلا ملاقى . أمدّها في هذه الزاوية من (المكشوف) داعياً اليها الناس من
بني وبني ... كثيراً ما أجلس المدعوين عليها ، أما حضرتك فمدعو ،
اليوم ، للجلوس اليها ، ويا ألف مرحباً .

كيف حالك اليوم ؟ لا شك أنك عندك خير منك عندنا . السؤال
بارد ، والجواب صقيع وجليد . إياك والجواب . دع هذا المنديل الأخضر

المصوبة به عيناى . إنه أشد التقاطاً لرسوم الأحلام والأمانى من منديل
فيرونيكا الفوتوغرافي . وما أظرف تلك الشياطين التي توسوس في
صدورنا فنضحى بمنافعنا المحسوسة لتتحقق أمنية قد تكون أكذب من
أخواتها وأبشع منهن .

مالنا والفلسفة . كيف حال من عندك ؟ كيف أخونا جبران ،
وصاحبنا فليكس ، وعمنا رشيد ، ماذا أحدثوا بعدنا ؟ أنجز جبران
صورة سلمى كرامه ؟ هل انتصب فليكس خطيباً أمام الشيخ السرمدي ؟
وهل التقى أبو أمين بأم القميص الزهر ، أم تراه أنشد البطر ك الياس
أحد أزجاله ؟ هل غضب غضبته (الهاشمية) ساعة عوقوك عن الدخول ؟
أكان (أخوك فيصل) أول من اجتمعت به تحت زيتونة الجنة ؟
يا الله !! كدنا ننسى أستاذنا الشميل .

كيف صحته ؟ أيطيب يا ترى ، أم يناقش توتنخمون في المذهب
الدرويني ؟

لا تقل ما هذه الرقاعة ، أيهذا الكلام الفارغ تودع أصحابك ؟ غض
النظر يا أمين . والله العظيم ، نهضت للقيام بالواجب فوق الطبق ، وكبت
الصحون . يا ليت . تكسرت كلها ...

يعز على الأوس بن تغلب ساعة يسلّ عليّ السيف فيها وأسكت

انت « بعبع » يا أخي ، قبل الموت وبعده . وإلا فكيف يخنق قلم
يودع صديقه الراحل ! ان تشيع المقضى عليهم بالصلب غير محرم .

تذكر كلمة ذاك الوزير في الجاحظ : أثق بظرفه ولا أثق بدينه . اما
انا فوثقت بظرفك ودينك معاً . أثبت انك ممن آمن بالله واليوم الآخر
وعمل صالحاً ، فأبوا ذلك علي وعليك . انت والله أشد إيماناً من ابن طيما .
وحسبك انك قلت : ليس في حقائق الوجود كلها أنصع من حقيقة البعث
والخلود . « فيصل الأول ص ٢١٦ » .

أواه !! لولا تعطيني بعض هذا اليقين فأقول لصنين : « تعال الى
هنا فيجبي . صدقني يا أخي إذا قلت : ما زلت كما فارقتني . مثل ذلك
المطروح عند بركة « حسدا » ليس من يرميني فيها اذ يحركها الملاك ،
ولا من يصيح بي : احمل سريرك وامش . فما أنكد عيش المخلعين .

لا تسألني عن شيء ، فعالي وحالك كبطرس كرامه مع أميره بشير
حين أرسله رائداً فكتب اليه : الصندوق في اسطمبول والمفتاح في لندره .
اما صرت روحاً خالدة فافهم عني واتركني الى حين ، الى الساعة التي
ينطلق فيها قلبي فيتجسد رأبي فيك كتاباً . انك تاريخ حقبة مر فيها
العقل الشرقي بأزمات حاولت انت ان تفرجها ، فمت ولما تستول على
الأمم . اما الآن : فنحن سكوت والهوى يتكلم .

خضت المعارك لا تخشى من الرمذ ، فمن فراشة في شعرك المنثور
إلى نسر قشعم جثم على قم المنابر ، وحملق بشمس الحقيقة بعينيه الثنتين .
أوه ، الحمد لذاكرتي ، لم أنس ان أقص عليك خبراً فرحني جداً .
خبرني صديق الطرفين الأستاذ خليل تقي الدين انك (عدت) اليينا

وقرأت في (المهدي) عدد المكشوف الخاص هاشاً باشاً. اما ألف باء الأرواح
فإنباتنا انك تائه في برية كالدهناء... وفيما انت تتكلم اذا بروح تطلع
علينا طلوع صموئيل على عرافة عين دور ، احزر روح من هي .

كان محدثنا الشميل ، قال : أمين لم يصل بعد . الحباثل نصبت في
طريقه . عدوه خطراً على العرش . ولكن شفاعة أمه ستقضي على تلك
الذسائس .

بجياتك يا حبيبي ، جاوب عن كل هذا أوّل بأول . لبتك تتلفن
فيرتاح بالننا . وقد تكون تلك السقطة نستك بعض الارقام . اطلب عليه
رقم - ١ - ٤٨ تجدني منتظراً .

(سرّاً) حيرني ، والله ، ختام مكتوبي هذا ، لا أدري كيف أنتهي .
ألك كيان فأقبلك ، او أكتفي بالتحية من بعيد ...

أخوك مارون

عاليه ٣ / ١٢ / ١٩٤٠

فهرست القسم الاول

أحمد فارس الشدياق

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
١٥٤	الأديب النقادة	٩	أخي القاريء
١٦١	التهكم الساخر	١١	صور عصر الشدياق
١٦٣	الكاتب الاجتماعي	١٢	الصورة المدنية
١٦٧	بين التجديد والتقليد	٣٩	الصورة الدينية
١٧١	الشدياق الرحالة	٥٤	الصورة الأدبية
١٧٩	الصحفي السياسي	٦٣	الشرق والغرب
١٨٥	الشدياق اللغوي	٦٦	بلاط المير بشير
١٩١	أحمد المتمغرب	٦٩	المعبارة اللبنانية
١٩٥	الشدياق والحرية	٨٨	ثلاث جيهاات
١٩٧	وجاهة الشدياق ونفوذه	١٠١	جبار القرن التاسع عشر
٢١٤	نقد ذلك الزمان	١٠٢	أحمد فارس الشدياق
٢٢٤	ما قيل فيه	١١٧	تأليف الشدياق
٢٢٤	أقوال في « سر الليال »	١١٨	الفارياق
٢٠١	أقوال مؤرخي الأدب	١٢٣	خلقه وخلقه
٢٤٣	حكاية اليوبيل	١٢٤	الشدياق الكاتب
٢٤٤	صرخة في واد	١٢٩	أحمد الشاعر
٢٥٠	تفكير وتذكير	١٣٧	أحمد المهجاء
٢٥٤	عدد « المكشوف » الخاص	١٤١	فنه وعناصر شخصيته
٢٥٤	الشدياق يبعث	١٥٠	الشدياق المعرب والمترجم

فهرست القسم الثاني أبو العلاء المعري

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٢٦٩	المعضة العلائية
٢٧٠	كيف كنت أفهم المعري
٢٩٣	عصر الأسرار والحفاء
٢٩٤	عصر أبي العلاء
٣٠٧	دعوة أبي العلاء
٣٢٦	رسالة أبي العلاء الى المعريين
٣٣٥	حبس المرأة
٣٣٦	مدرسة أبي العلاء
٣٥٨	معتقده
٣٨١	أبو العلاء والحاكم
٣٨٢	الليلة الأولى
٣٩٠	الليلة الثانية
٣٩٥	الليلة الأخيرة
٤٠١	بعد العاصفة
٤٠٢	الحصن الذي لم يسكت
٤٠٩	مذهب أبي العلاء
٤٢٥	خلال ألف سنة
٤٢٦	أراجيف وأساطير
٤٣٤	شاعر العقل الفاطمي
٤٤٦	بعد أربعمئة سنة
٤٥١	بين شيخين
٤٥٨	عتزة ولو طارت

فهرست القسم الثالث

بديع الزمان الهمداني

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
	عصر بديع الزمان
٤٦٣	١ - الحالة السياسية
٤٦٨	٢ - الحالة الاجتماعية
٤٧٠	٣ - الحالة الأدبية
	بديع الزمان في عصره
	١ - حياة بديع الزمان :
٤٧٤	أ - نشأته
٤٧٧	ب - في هراة
٤٧٩	٢ - رأي الكتاب فيه
٤٨٠	٣ - خلق البديع وخلقته
٤٨٤	٤ - شخصيته
	جوانب بديع الزمان
٤٨٧	١ - آثار البديع :
٤٨٨	أ - رسائله
٤٩٢	ب - مقاماته
٤٩٥	ج - ديوانه
٤٩٧	٢ - الأديب السياسي
٤٩٨	٣ - الأديب الاجتماعي
٤٩٩	٤ - طباعه الأدبي

منتخبات من آثار بديع الزمان

١ - الرسائل :

(أ) من رسائله المدحية :

٥٠٤

سيوف الحق

٥٠٧

الأب والابن

٥١٢

استعطاف

(ب) من رسائل العتاب والاعتذار :

٥١٢

زهد واعتذار

٥١٥

الأدب والذهب

٥١٥

ملازمة

٥١٦

تثقيف وتقويم

٥١٨

فاقة وخصاصة

٥١٩

لا شاة

(ج) من رسائل القدح والذم :

٥٢٠

قاضي السوء

٥٢٤

جفوة ونفار

(د) من رسائل السب والشم :

٥٢٧

شكوى وسعاية

٥٢٨

الوجه اللحم

٥٢٩

مجمع الرذائل

٥٣٠

تعريض

٥٣١

ساكن الإسطبل

(هـ) من الرسائل الأهلية

٥٣١

إغراء

٥٣٢

غيري خالك

٥٣٢

فضيلة القصد

٢ - المقامات :

(أ) من المقامات الأدبية :

المقامة القريضية

٥٢٣

المقامة الجاحظية

٥٢٦

(ب) من المقامات الفكاهية :

المقامة المضيرية

٥٢٨

(ج) من المقامات القصصية :

المقامة البشرية

٥٤٤

المقامة الأسدية

٥٤٨

(د) من مقامات الكدية :

المقامة المكفوفية

٥٥٣

المقامة الفزارية

٥٥٥

المقامة الوصية

٥٥٧

(هـ) من المقامات المدحية :

المقامة الملوكية

٥٥٩

المقامة النيسابورية

٥٦٠

المقامة الخنافية

٥٦١

٣ - الديوان :

(أ) من المديح :

الملك السباق

٥٦٣

سيد الأمراء

٥٦٣

ابن السماء

٥٦٥

أنا العبد

٥٦٥

بجر جواهر

٥٦٦

يد الندى والنار

٥٦٦

ابن خاقان

٥٦٧

٥٦٨	(ب) من الرثاء :
	حزن وفندم
٥٦٨	(ج) من الاعتذار :
	مخلص الود
٥٧٠	(د) من الفخر :
	صولة النحيف
٥٧٠	(هـ) من الشعر المطعم :
	قصيدة عربية فارسية

فهرست القسم الرابع

أمين الريحاني

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٦٠٤	أمين واليسوعيين	٥٧٧	مقدمة
٦٠٦	أمين والانتداب		فيلسوف الفريكة
٦٠٨	أمين واللغة	٥٧٩	نشأته
٦١٠	وصية أمين	٥٨٣	تأليفه
	الريحاني الكاتب	٥٨٣	الكاتب الشاعر الانكليزي
٦١٣	طاقة الفنية وآراؤه الاجتماعية	٥٨٣	اللزوميات
٦١٨	في المحالفة الثلاثية	٥٨٤	خالد
٦٢٩	في الريحانيات	٥٨٥	أناشيد الصوفية
٦٤٩	أمين الناقد	٥٨٥	جادة الرؤيا
٦٥٤	الريحاني المجاهد	٥٨٦	انشودة الصوفيين
٦٦٠	ملوك العرب	٥٨٦	ملوك العرب
٦٧٥	قلب لبنان	٥٨٧	ابن سعود : بلاده ، شعبه
٦٨٧	المغرب الأقصى	٥٨٧	منشوء العربية الحديثة
٦٩٢	رضيت بالغنيمة بالإياب	٥٩٤	أمين الرحالة
٦٩٤	ماندتي	٥٩٨	رسول الوحدة العربية

